موسوعة المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الحادي والعشرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب الإثنا عشرية والسُّنة النبوية)

إن الأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية هو السنة. أي ما ثبت عن رسول الله ﷺ قولًا أو فعلًا أو تقريرًا. وقد أمرنا بالتمسك بها {.. وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب}.

وإن الرسول ﷺ هو الناطق بالوحي {وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى}.

وعلى ذلك جعلت طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله {من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا}.

{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا}.

ولذلك قرنت إطاعة الرسول بإطاعة الله {أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون}.

والآيات في هذه المعنى كثيرة جدًا، ومنكر السنة النبوية الثابتة عن كافر، كما أن منكر القرآن خارج عن الملة الإسلامية، لأن السنة بيان للقرآن وتوضح وشرح له وتفسير لمعانيه ومطالبه {.. وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}.

وعلى ذلك قال الإمام ابن حزم الأندلسي:

لو أن امرأ قال: لا نأخذ إلا بما وجدنا في القرآن لكان كافرًا بإجماع الأمة".

وقال:

إنما احتججنا في تكفيرنا من استحل خلاف ما صح عنده عن رسول الله ﷺ

بقول الله تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ:

{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا}.

فكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ ويثبت عنه صدوره، منكره لا يكون مؤمنًا بنص القرآن.

وهذا الموضوع له تفصيل في محله لا نريد الإطناب فيه ههنا.

ومحل الشاهد في هذا المبحث أن السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام لها منزلتها ومكانتها في التشريع الإسلامي، كما أنها من الأسس التي تحسم النزاعات الدينية والمذهبية حسب قول الله ﷻ:

{.. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلًا}.

ولكن الشيعة لا يقرون بهذا الأصل الثاني مثل عدم إقرارهم بالأصل الأول، وبنفس النقول والحيل، وبنفس المقولات والعلل.

فإنهم يقولون: إن السنة النبوية منقولة عن طريق أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإن أصحابه ارتدوا كلهم بما فيهم سادة بني هاشم وغيره من الأنصار والمهاجرين إلا ثلاثة: مقداد، وأبو ذر، وسلمان، وهؤلاء لم يرو عنهم إلا القليل بل وأقل من القليل، وأما البقية فلا يطمئن إليهم ولا إلى مروياتهم لانقلابهم على أعقابهم إلى الكفر - نعوذ بالله من ذلك ونستغفر الله من الكذب المتعمد على الرسول - ولا يعتمد عليهم ولا يوثق بأخباره، فإنها ساقطة، مكذوبة، موضوعة.

فكل حديث أو خبر نقل عن أحد من هؤلاء، أو ورد في سنده أحد ينتهج منهجهم ويتبع خطاهم يسقط من الاعتبار، فهذه قاعدة محكمة متينة في مصطلح الحديث

عندهم، حتى أقر بذلك محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه الدعائي المشهور، الذي لم يكتبه إلا لخداع المسلمين أهل السنة تغطية للحقائق، وتعمية عليهم الصدق، حيث قال:

إنهم (الشيعة) لا يعتبرون بشيء من السنة أعني الأحاديث النبوية إلا ما صح لهم عن طريق أهل البيت عن جدهم يعني ما رواه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن رسول الله سلام الله عليهم جميعًا، أما ما يرويه مثل أبي هريرة وسمرة بن جندب ومروان بن الحكم وعمران بن حطان الخارجي وعمرو بن العاس ونظائرهم فليس له عند الإمامية من الاعتبار مقدار بعوضة، وأمرهم أشهر من أن يذكر".

وقد فصل القول في ذلك حسين بن عبد الصمد العاملي المتوفى سنة ٩٨٤هـفي كتابه الذي كتبه في مصطلح الحديث يقول فيه العاملي ردًا على أهل السنة في تعديل الصحابة رضوان الله عيهم أجمعين:

وقد جازف أهل السنة كل المجازفة بل وصلوا إلى حد المخارفة فحكموا بعدالة الصحابة من لابس منهم الفتن ومن لم يلابس، وقد كان فيهم المقهورون على الإسلام، والداخلون على غير البصيرة، والشكاك، كما وقع من فلتات ألسنتهم الكثير. بل كان فيهم المنافقون، كما أخبر به الباري جل ثناؤه، وكان فيهم شاربو الخمر، وقاتلو النفس، وفاعلو الفسق والمنكرات، كما نقله عنهم، وما نقلنا نحن بعضه فيما سبق من صحاحهم من الأحاديث المتكثرة المتواترة المعنى يدل على ارتدادهم بعد رسول الله ﷺ فضلًا عن فسقهم - ثم قال -: إن الصحابة على ثلاثة أقسام: معلوم العدالة، ومعلوم الفسق، ومجهول الحال، أما معلوم العدالة فكسلمان والمقداد وممن لم يمل عن أهل البيت طرفة عين..

وأما معلوم الفسق والكفر فكم مال عن أهل البيت وأظهر لهم البغض والعداوة والحرب، فهذا يدل على أنه لم يكن آمن، بل كان منافقًا أو أنه ارتد بعد النبي ﷺ كما جاء في الأخبار الصحيحة عندهم، لأن من يحب النبي ﷺ لا يبغض ولا يحارب أهل بيته الذين أكد الله ورسوله كل التأكيد في مدحهم والوصية بهم والتمسك بحبهم.. وهؤلاء نتقرب إلى الله تعالى ورسوله ببغضهم وسبهم وبغض من أحبهم - ومن هم يا ترى؟ - والإجابة نقلًا عن علي -: هم الذين - بقوا بعده (رسول الله ﷺ) فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى الضلال بالزور والكذب والبهتان، فولوهم الأعمال وحملوهم على رقاب الناس وأكلوا بهم أموال الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصمه الله".

وتكفير عثمان: بأنه كان يحكم بغير ما أنزل الله".

وتكفير معاوية: على أنه كان يحمل غلًا كامنًا، وكفرًا باطنًا".

وتكفير عائشة أم المؤمنين: حيث كذب على النبي أن رسول الله قام خطيبًا فأشار نحو مسكن عائشة وقال: " الفتنه ههنا ثلاثًا".

وأيضًا " خرج النبي ﷺ من بيت عائشة وقال: رأس الكفر ههنا".

وقال مقارنًا بين علي وأولاده وبين أبي بكر وعمر وعثمان وأصحاب رسول الله عامة:

"قد أفادنا الكتاب العزيز، والسنة الثابتة عندهم، والأحاديث الصحيحة عندنا الكثيرة المستفيضة بل المتواترة معنى، والبراهين القاطعة المكررة في الكلام - أفادنا كل ذلك - علمًا ضروريًا بعصمة الفرقة الأولى فضلا عن عدالتها، وبكفر الفرقة الثانية فضلا عن فسقها بحيث لا نشك فيه ولا نمترى.

ولو تنزلنا وسلمنا أنه -أعنى هذا الأمر- ليس كذلك لم نكن آثمين، حيث أن هذا

هو الذي أدانا إليه اجتهادنا، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها".

"والعجب أنهم جوزوا الاجتهاد في تخلف أبي بكر وعمر عن جيش أسامة وقد لعن النبي ﷺ من تخلف عنه، وفي إحراقهما بالنار

بيت علي وفيه علي وفاطمة والحسنين وهو أهل البيت، الذين طهرهم الله، وحث النبي ﷺ -على التمسك بهم وأكد في الوصية بهم، وفي سفك الصحابة بعضهم دم بعض، وسفك طلحة والزبير وعائشة دماء الأنصار والمهاجرين، وقتال أمير المؤمنين عليه السلام، وفي قتال معاوية وسفك دمه ودم من معه من الأنصار والمهاجرين، فكيف جوزوا الاجتهاد في كل هذا.. لأنفسهم.. ولم يجوزوا لأئمتنا وأكابر علمائنا الاجتهاد في سبهم والعدول عما نقلوه من أحكام الدين إلى ما نقلوه عن أهل البيت المطهرين بعدما نقلوه في شأن الفريقين من الأمر الواضح البين؟".

"وبالجملة لما رأينا الإله العظيم ورسوله الكريم قد مدحا أهل البيت وأمرا بالتمسك بهم كما ذكرناه وذما عامة أصحابه ونصا على ارتدادهم بعده بما نقلناه ازددنا تمسكًا بأهل البيت المطهرين الذين أخبر النبي - صلى الله عليه وآله - أن المتمسك بهم لن يضل أبدًا، ونقلنا أحاديثهم وأخذنا معالم شرعنا عنهم ورفضنا عامة أصحابه، وطرحنا ما تفردوا بنقله، إلا من علمنا من الصلاح كسلمان والمقداد وعمار بن ياسر وأبي ذر وأشباههم من أتقياء الصحابة وأجلائهم المقررين في كتب الرجال عندنا".

ثم بيّن الحكم العام فقال:

"فصحح العامة كلها وجميع ما يروونه غير صحيح".

وقد بالغوا في هذا إلى أن جاوزوا جميع الحدود حتى قالوا:

الأصل في التشريع عندهم هو مخالفة أهل السنة، وما روى عنهم وعن أعيانهم

وعلى رأسهم أصحاب رسول الله ﷺ، وما يرونه من الرأي كما نقلنا ذلك سابقًا وكما سنذكره بعد قليل.

وبهذا يظهر أنهم لا يؤمنون بالأصل الثاني من أصول الشريعة الإسلامية وهو السنة، ولا تغتر بأنهم يدَّعون ذلك! فدعواهم في هذا لا تختلف عن دعواهم في الإيمان بالقرآن، لأن ما روي بطرقهم عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ فنزر يسير جدًا أيضًا، وما روي عن جعفر عن باقر بن زين العابدين عن الحسين عن علي فهو أقل القليل، وصحاحهم الأربعة وكتبهم في الحديث الأخرى تشهد على ما قلناه.

وكذلك ما روي عن أصحاب النبي الصلاة الذين لم يرتدوا من بين أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين – حسب زعمهم – أي المقداد وأبي ذر وسلمان فلم يرووا عنهم عن رسول الله ﷺ في كتبهم أنفسهم إلا ما يعد على الأنامل.

أضف إلى ذلك أن جل المرويات بل كلها عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن هؤلاء الأصحاب الثلاثة ليست من قسم المتواتر بل هي أخبار آحاد.

والآحاد لا توجب العلم عند الشيعة قاطبة ولا العمل عند الجمهور، وهو الرأي الراجح عند الشيعة، لا كما ظنه السيد الدكتور وافي وصرح به في كتيبه فيقول العاملي: "ثم الأخبار، منها المتواتر: وهو ما رواه جماعة يحصل العلم بقولهم بعدم إمكان تواطئهم على الكذب عادة، ويشترط ذلك في كل طبقاتهم صحيحًا كان أو غير صحيح، وهو مقبول لوجوب العمل بالعلم، وهذا لا يكاد يعرفه المحدثون في الأحاديث لقلته.. وحديث الغدير متواتر عندنا".

وأما الآحاد فقد قال شيخهم المفيد في ذلك في كتابه العقائدي المشهور تحت عنوان "القول في أخبار الآحاد":

"وأقول: إنه لا يجب العلم ولا العمل بشيء من أخبار الآحاد.. وهذا مذهب جمهور الشيعة وكثير من المعتزلة والمحكمة وطائفة من المرجئة وهو خلاف لما عليه متفقهة العامة (أي أهل السنة) وأصحاب الرأي".

ومثل ذلك ذكر العاملي عن الشريف المرتضى الملقب بعلم الهدى عند الشيعة وجماعة من كبار العلماء حيث قال:

والسيد المرتضى رحمه الله تعالى وجماعة من كبار علمائنا منعوا من العمل به محتجين بعدم الدليل الدال على وجوب العمل به. وإذا لم يقم دليل على وجوب العمل لم يعمل به، كما أنه لم يقم دليل على وجوب صلاة سادسة. قالوا: وما نقلتموه من أن الصحابة ومن بعدهم كانوا يعملون بأخبار الآحاد، فهي أيضًا أخبار آحاد لا تفيد علمًا، والعمل بخبر الواحد مسألة أصولية ولا يجوز أن يكون مستندها ظنًا، فكيف تعلمون أن الله تعبّدكم بالعمل بخبر الواحد؟ وبعد التسليم بصدق هذه الأحاديث؟ إنما علم لكم أن الصحابة عملوا عندها لا بها. فجاز أن يكونوا تذاكروا بها نصًا أو تأيد بها عندهم دليل آخر، فالتساوي حاصل الشك، والتوقف فرض من فقد الدليل القاطع".

وهذا مع أن رواة الشيعة الذين عليهم مدار نقل الأحاديث الشيعية رواة مختلفون في توثيقهم وتضعيفهم، فشخص واحد يوثق ويحكم بعدالته وهو نفسه يضعف ويحكم بفسقه بل كفره، لا من قبل المهرة والنقاد في الحديث والرجال بل من قبل المعصومين - حسب زعم الشيعة - أنفسهم، والذين عصمتهم: "كعصمة الأنبياء، وأنهم لا يجوز منهم صغيرة إلا ما قدم ذكر جوازه على الأنبياء، وأنه لا يجوز لهم سهو في شيء من الدين، ولا ينسون شيئًا من الأحكام، وعلى هذا مذهب سائر الإمامية".

وخير مثال لذلك رواة الشيعة الأربعة الذين هم مدار الروايات الشيعية ومحورها.

وهم أقطاب الأحاديث وأوتادها لدى القوم، عليهم تدور رحى الروايات زرارة بن أعين، وأبو بصير الليث المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي، الذين قال فيهم إمام الشيعة السادس المعصوم - حسب زعمهم - جعفر بن الباقر:

"ما أجد أحدًا أحيا زكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة، وأبو بصير ليث المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة".

فانظر ماذا يقول فيهم القوم من توثيقهم وتضعيفهم، ومن المدح فيهم واللعن عيهم، فزرارة بن أعين قال فيه جميل بن دراج أحد رواة الشيعة المشهورين:

"ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان في الكتاب حول المعلم".

وقال فيه جعفر بن محمد الباقر:

"رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي".

وقال فيه علي بن موسى الرضا - الإمام الثامن المعصوم لدى الشيعة: "أترى أحدًا كان أصدع بحق من زرارة".

وقال فيه النجاشي: "زرارة شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم، وكان قارئًا فقيهًا متكلمًا شاعرًا أديبًا، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين".

وقال علي بن داود الحلي: "زرارة كان أصدق أهل زمانه وأفضلهم، قال فيه الصادق عليه السلام: "لولا زرارة لقلت إن أحاديث أبي لتذهب".

ومثل ذلك قال ابن المطهر الحلي.

وقال الحائري: "أجمعت العصابة على تصديقه والانقياد له به".

ومثل ذلك الزنجاني.

هذا - والكشي روى في كتابه عن علي بن أبي حمزة عن أبي عبد الله (جعفر) قال:

"قلت: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، قال (جعفر): أعاذنا الله وإياك من ذلك الظلم، قلت: ما هو؟

قال (جعفر): هو والله ما أحدث زرارة وأبو حنيفة وهذا الضرب.

قال: قلت: الزنا معه؟

قال: "الزنا ذنب".

ومثل ذلك روي عن أبي بصير وعن هارون بن خارجة.

وروى الكشي أيضًا عن كليب الصيداوي أنهم كانوا جلوسًا ومعهم عزافر الصيرفي وعدة من أصحابهم، معهم أبو عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: فابتدع أبو عبد الله من غير ذكر لأبي زرارة فقال: "لعن الله زرارة، لعن الله زرارة، لعن الله زرارة ثلاث مرات".

وروي أيضًا عن عمران الزعفراني، سمعت أبا عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: ما أحدث أحد في الإسلام ما أحدث زرارة من البدع عليه لعنة الله".

وعن ليث المرادي أنه قال: سمعت أبا عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول:

"لا يموت زرارة إلا تائهًا".

وروى عن القصير أنه قال:

"استأذن زرارة بن أعين وأبو الجارود، على أبي عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: يا غلام! أدخلهما، فإنهما عجلا المحيا وعجلا الممات".

وهذا هو زرارة الذي قالوا فيه:

"أفقه الأولين ستة، وأفقه الستة زرارة".

وعدد من أصحاب محمد الباقر وأصحاب جعفر بن الباقر.

وأنه من أصحاب موسى بن جعفر الكاظم أيضًا.

فرجل كهذا الذي أدرك ثلاثة من الأئمة المعصومين حسب زعم الشيعة وروى عنهم، يختلفون فيه هذا الاختلاف، يوثقونه بأعلى ألفاظ التوثيق ويضعفونه بأدنى درجة التضعيف، مرة يقولون فيه: إن أبا عبد الله جعفر بن محمد الباقر - الإمام السادس المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى - قال له: "يا زرارة! إن اسمك في أسامي أهل الجنة".

وقال عن زرارة:

"أما ما رواه زرارة عن أبي جعفر فلا يجوز لي رده".

ومرة قال فيه:

"زرارة شر من اليهود والنصارى ومن قال: إن الله ثالث ثلاثة، وقال: إن مرض فلا تعده، وإن مات فلا تشهد جنازته".

وروى الكشي أيضًا عن ميسر أنه قال:

"كنا عند أبي عبد الله فمرت جارية في جانب الدار على عنقها قمقم قد نكسته، قال: فقال أبو عبد الله رضي الله عنه: فما ذنبي أن الله قد نكس زرارة كما نكست هذه الجارية هذا القمقم".

وأما أبو جعفر أعني محمدًا الباقر فكان يعتقد فيه بأنه من جواسيس الحكام وعيونهم عليه. وأنه يبلغ إليهم أخباره وأعماله كما روى الكشي أيضًا عن هشام بن سالم أنه قال:

"إن زرارة سأل أبا جعفر (محمدًا الباقر) عليه السلام عن جوائز العمال؟ فقال: لا بأس

به.

ثم قال (أبو جعفر محمد الباقر): إنما أراد زرارة أن يبلغ هشامًا - ابن عبد الملك - إني أحرم أعمال السلطان".

وعلى ذلك كان يكره ابنه جعفر أن يدخل عليه زرارة كما روى الكشي عن الوليد بن صبيح قال:

"مررت بروضة من المدينة فإذا إنسان قد جذبني، فالتفت فإذا أنا بزرارة، فقال لي: استأذن لي على صاحبك، قال: فخرجت من المسجد ودخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته الخبر، فضرب بيده على صدره، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: لا تأذن له، لا تأذن له، لا تأذن له، فإن زرارة يريدني على كبير السن، وليس من ديني ولا دين آبائي".

وأما زرارة نفسه فكان يشك في علم جعفر بن الباقر وإمامته وإمامة ابنه موسى الكاظم كما روى الكشي صريحًا عن ابن مسكان أنه قال:

"سمعت زرارة يقول: رحم الله أبا جعفر، وأما جعفر فإن في قلب عليه لفتة".

وكما روي عن زياد بن أبي الهلال في رواية طويلة أن زرارة قال له عن أبي عبد الله جعفر:

"صاحبكم هذا ليس له بصر بكلام الرجال".

وأما موسى بن جعفر الملقب بالكاظم فمع أن الشيعة ورجالهم يعدون زرارة من أصحابه، لكن الكشي يصرح في عديد من الروايات أنه لم يعتقد بإمامته، ونورد هنا رواية عن نضر بن شعيب عن عمة زرارة قالت:

"لما وقع زرارة واشتد به قال:

ناوليني المصحف، فناولته وفتحته ووضعته على صدره وأخذه مني، ثم قال:

يا عمة! اشهدي أن ليس لي إمام غير هذا الكتاب".

فهذا هو أحد أساطين الرواية في الحديث عند الشيعة وهذه هي أحواله من حيث التوثيق والتضعيف والتعديل والتجريح عند القوم أنفسهم وفي أم كتاب الرجال عندهم.. تلك التي تناول تراجم الرواة والمحدثين والعلماء لدى هذه الطائفة، والتي قالوا فيها: "أهم الكتب في هذا الموضوع من مؤلفات المتقدمين هي أربعة كتب، عليها المعول وهي الأصول الأربعة في هذا الباب، وهي:

١ـ رجال الكشي.

٢ـ رجال النجاشي.

٣ـ رجال الطوسي.

٤ـ الفهرست للطوسي.

وأقدم هذه الكتب الأربعة هو رجال الكشي".

وأما الثاني فهو أبو بصير ليث المرادي، فقد قالوا فيه: إن جعفر بن محمد قال فيه وفي أصحابه:

"بشر المخبتين بالجنة: بريد بن معاوية العجلي، وأبا بصير البختري المرادي، ومحمد بن مسلم، وزرارة، أربعة نجباء، أمناء الله في حلاله وحرامه لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست".

"وكان هذا من أصحاب الباقر وأصحاب جعفر أيضًا كم ذكر ذلك البرقي في رجاله".

"وعده من أصحاب موسى الكاظم أيضًا".

ومثل ما روي عن جعفر فيه بأنه من المبشرين بالجنة، روى عن أبيه محمد الباقر أيضًا نفس ذلك.

وأنه لولاه لانقطعت آثار النبوةاندرست".

وعده في القسم الأول من الرجال يعني من الثقات.

وذكره النجاشي أيضًا بأنه من أصحاب الباقر وجعفر بن الباقر، وله كتاب يرويه جماعة.

كما عده ابن المطهر الحلي من الثقات الذين يعتمد على روايتهم.

وكذلك التفرشي في كتابه، وقال: إنه من أصحابنا الإمامية.

ورووا عن ميل بن دراج أنه قال:

أوتاد الأرض وأعلام الدين أربعة: أحدهم ليث بن البختري المرادي.

كما ذكر القمي عن شعي العقرقوفي أنه قال:

"قلت لأبي عبد الله (ع): ربما احتجنا أن نسأل عن شيء؟ فمن نسأل؟ قال: عليك بالأسدي يعني أبا بصير، والخبر في أعلى درجة الصحة.

وروى الكشي فيه عن داود بن سرحان أنه قال:

"إني لأحدث الرجال الحديث وأنهاه عن الجدال والمراء في دين الله، فأنهاه عن القياس فيخرج من عندي فيتأول حديثي على غير تأويله، إني أمرت قومًا أن يتكلموا، ونهيت قومًا، فكل يؤول لنفسه، يريد المعصية لله ولرسوله، فلو سمعوا وأطاعوا لأودعتهم ما أودع أبي أصحابه، إن أصحاب أبي كانوا زينًا، أحياء وأمواتًا، وأعني زرارة ومحمد بن مسلم ومنهم ليث المرادي وبريد العجلي، هؤلاء القوامون بالقسط، هؤلاء القوامون بالقسط، وهؤلاء السابقون أولئك المقربون".

وأيضًا ما رواه عن شعيب العقرقوفي عن أبي بصير أنه قال:

"دخلت على أبي عبد الله (ع) فقال لي: حضرت عليًا عند موته؟

قال: قلت: نعم! وأخبرني أنك ضمنت له الجنة وسألني أن أذكرك ذلك. قال:

صدق. قال:

فبكيت، ثم قلت: جعلت فداك، فما لي ألست كبير السن الضعيف الضرير البصير المنقطع إليكم فاضمنها لي. قال:

قد فعلت. قال: قلت: اضمنها لي على آبائك وسميتهم واحدًا واحدًا. قال: فعلت. قلت: فاضمنها لي على رسول الله ﷺ. قال: قد فعلت.

قال: قلت: اضمنها لي على الله تعالى. قال: فأطرق ثم قال: قد فعلت".

هذا من جانب، وهذه المبالغة من ناحية، ومن ناحية أخرى روى فيه الكشي عن حماد الناب أنه قال:

"جلس أبو بصير على باب أبي عبد الله ليطلب الإذن، فلم يؤذن له، فقال أبو بصير:

لو كان معنا طبق لأذن. قال: فجاء كلب فشغر في وجه أبي بصير، قال: أف أف، ما هذا؟

قال جليسه: هذا كلب شغر في وجهك".

وروى الكشي: أنه كان يدخل بيوت الأئمة وهو جنب.

وكان أبو بصير هذا دائمًا يتهم جعفر بن الباقر بجمعه للمال وحبه للدنيا، كما روى الكشي عديدًا من الروايات في هذا المعنى، منها ما رواه عن ابن أبي يعفور أنه قال:

"خرجت إلى السواد أطلب دراهم للحج ونحن جماعة وفينا أبو بصير المرادي قال: قلت له:

يا أبا بصير! اتق الله وحج بمالك فإنك ذو مال كثير، فقال: اسكت فلو أن الدنيا وقعت لصاحبك لاشتمل عليها بكسائه".

وأيضًا عن حماد بن عثمان أنه قال:

"خرجت أنا وابن أبي يعفور وآخر إلى الحيرة أو إلى بعض المواضع فتذكرنا الدنيا، فقال أبو بصير المرادي:

أما إن صاحبكم لو ظفر بها لاستأثر بها؟ قال: فأغفى، فجاء كلب يريد أن يشغر عليه فذهبت لأطرده، فقال ابن أبي يعفور: دعه، فجاءه حتى شغر في أذنه".

وكان لا يؤمن بإمامة موسى بن جعفر، كما كان يتهمه بعدم العلم ومعرفة الأحكام، كما روى الكشي أيضًا عن شعيب العقرقوفي عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن امرأة تزوجت ولها زوج، فظهر عليها قال: ترجم المرأة ويضرب الرجل مائة سوط لأنه لم يسأل. قال شعيب:

فدخلت على أبي الحسن - موسى بن جعفر - فقلت له: امرأة تزوجت ولها زوج؟

قال: ترجم المرأة ولا شيء على الرجل. قال: فلقيت أبا بصير فقتل: سألت موسى بن جعفر عليه السلام عن المرأة التي تزوجت ولها زوج. قال: ترجم المرأة ولا شيء على الرجل. قال (شعيب): فمسح صدره وقال (أبو بصر): ما أظن صاحبنا تناهى حكمه بعد".

وفي رواية أخرى: فضرب بيده على صدره يحكها وقال: "أظن صاحبنا ما تكامل علمه".

وروى الكشي عن علي بن الحسن بن فضال أنه قال:

"إن أبا بصير كان مختلطًا".

وأخيرًا ما قاله ابن الغضايري: "كان أبو عبد الله عليه السلام يتضجر به ويتبرم، وأصحابه يختلفون في شأنه".

فهذا هو الرجل الثاني من رواة الشيعة الكبار ونقله أحاديثهم، تضاربت فيه الآراء وتعارضت فيه الأقوال، حتى لا يدرى على أيها يعتمد: على توثيق الرجل وصحة مروياته، أم على تضعيف الرجل وعدم وثاقته وخطأ الاعتماد على مروياته وأخباره؟.

وأما الثالث فمحمد بن مسلم ليس شأنه وحاله بأحسن من أحوالهم، كما أن الآراء المتعارضة ليست بأقل مما ذكرت وسردت فيهما، فهذه هي مقولات القوم فيه، فيقول النجاشي:

"محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقسي الطحان مولى ثقيف الأعور، وجه أصحابنا بالكوفة، فقه ورع، صحب أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام وروى عنهما، وكان من أوثق الناس لهما".

وذكره الطوسي أيضًا أنه من أصحاب الباقر.

ومن أصحاب جعفر بن الباقر أيضًا.

كما ذكره البرقي أيضًا من أصحابهما.

وذكره ابن داود في القسم الأول من الموثوقين.

وذكر ابن المطهر الحلي نقلًا عن الكشي: أن محمد بن مسلم من حواري أبي جعفر محمد بن علي وابنه جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام".

وهو الذي روى فيه الكشي كما سبق أن جعفر بن محمد قال: إنه من النجباء الأربعة الذين حفظوا آثار النبوة وأخبارها، كما روى الكشي أيضًا أنه روى عن أبي جعفر محمد الباقر ثلاثين ألف حديث، وروى عن ابنه جعفر ستة عشر ألف حديث.

وأيضًا ما رواه عن هشام بن سالم أنه قال:

أقام محمد بن مسلم بالمدينة أربع سنين يدخل على أبي جعفر عليه السلام يسأله، ثم كان يدخل على جعفر بن محمد يسأله. قال أبو أحمد: "فسمعت عبد الرحمن بن

الحجاج وحماد بن عثمان يقولان: ما كان أحد من الشيعة أفقه من محمد بن مسلم".

وروى التفرشي عن الكشي أيضًا عن عبد الله بن أبي يعفور قال: "قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنه ليس كل ساعة ألقاك، ويمكن القدوم ويجيء الرجل من أصحابنا وليس عندي كل ما يسألني عنه. قال:

فما يمنعك من محمد بن مسلم الثقفي، فإنه سمع من أبي وكان عنده وجيهًا" فهذا هو محمد بن مسلم، وهذه هي مكانته وهذا هو شأنه.

ولكن هناك ما يعارض هذا الرأي ويخالفه كما رواه الكشي أيضًا عن مفضل بن عمر أنه قال:

سمعت أبا عبد الله يقول:

"لعن الله محمد بن مسلم، كان يقول: إن الله لا يعلم الشي حتى يكون".

وأيضًا ما رواه عن أبي الصباح أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

"يا أبا الصباح! هلك المتريثون في أديانهم، منهم: محمد بن مسلم".

وكذلك قال جعفر بن محمد في زرارة ومحمد بن مسلم:

"إنهما ليسا بشيء في ولايتي".

وأما الرابع وهو يريد بن معاوية فهو أيضًا من أصحاب الباقر وجعفر بن الباقر.

ذكر فيه الكشي عن جعفر بن محمد أنه كان يقول: "أوتاد الأرض وأعلام الدين أربعة، أحدهم بريد بن معاوية"، وروى أيضًا عنه أنه قال:

"ما أجد أحدًا أحيا ذكرنا وأحاديث أبي إلا زرارة وأبو بصير ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلين ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة".

وأيضًا "هؤلاء القوامون بالقسط، هؤلاء قوامون بالصدق، هؤلاء السابقون أولئك المقربون".

ثم الكشي هذا يروي عن أبي سيار قال: سمعت أبا عبد الله عيه السلام يقول: "لعن الله بريدًا ولعن الله زرارة".

وروى أيضًا عن عبد الرحيم القصير أنه قال:

"قال أبو عبد الله عليه السلام: ائت زرارة وبريدًا وقل لهما: ما هذه البدعة؟ أما علمتم أن رسول الله ﷺ قال: "كل بدعة ضلالة"، فقلت له: إني أخاف منهما، فأرسل معي ليثًا المرادي، فأتينا زرارة فقلنا له ما قال أبو عبد الله عليه السلام، فقال: والله لقد أعطاني الاستطاعة وما شعر، وأما بريد فقال: والله لا أرجع عنها أبدًا".

فهؤلاء هم رواة الأحاديث الشيعية الأربعة، عليهم تدور رحى أخبارهم وأحاديثهم، يختلفون فيهم هذا الاختلاف الشديد ويسردون فيهم الآراء المتعارضة المتناقضة، وكلها من المعصومين، روايات تثبت عدالتهم وتوثيقهم وتنص على صحة عقيدتهم وكونهم من أهل الجنة، وروايات تنقى عنها كل هذا وتنص على فسقهم وكونهم ملعونين على لسان المعصومين، بل وكفرهم وكونهم من أهل النار!!.

فمن يك هذا شأنهم، وهذه أحواله، فبأي شيء يحكم على مروياتهم وأخبارهم التي رووها؟!

إنما هم نماذج اخترناها من بين الكثيرين، الكثيرين ممن لا يقل وصفهم بالتعديل والتجريح وبالتوثيق والتضعيف وبالتبشير والتكفير عن هؤلاء الأربعة الذين هم أبرز الرواة قاطبة من بين رواة الشيعة، وقد أدركوا زمن الأئمة الثلاثة من بين الأئمة الاثنى عشر لدى الشيعة، ويعدون من كبار أصحابهم ونقلة آثارهم، فبأي شيء

يحكم على الأحاديث الشيعية من جهة القبول والرد، ومن جهة الصحة والضعف؟

وعلى أية قاعدة مطردة تبنى الأحكام، وعلى أي أسس توضع المصطلحات؟

فهل من مفكر يتفكر؟ ومدبر يتدبر؟.

إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

وببيان هذه الأشياء كلها وتفصيل القول فيها يظهر بأن معتقد الشيعة في الأصل الثاني للشريعة الإسلامية لا يختلف عن معتقدهم في الأصل الأول، بل ويزيد الأمر خطورة أنهم لا يعتقدون بهذا الأصل الثاني إطلاقًا فعلًا، ولو أنهم يدعون الاعتقاد به قولًا، لأنهم زيادة على ما ذكرناه يجعلون لدليل العقل تأثيرًا في قبول الحديث ورده.

ولشيخ طائفة الشيعة الطوسي بحث مشهور في هذا الموضوع وقد يروون في ذلك روايات كثيرة، وبهذه الروايات بدأ الكليني كتابه (الكافي) مع أن المعروف أن العقل قاصر عن إدراك كنه كثير من الأحكام الإلهية الربانية.

ولأن العقول متفاوتة متفاضلة، يقص بعضها عن إدراك ما تدركه الأخرى، فأي عقل يكون حكمًا في الموضوع؟ ولمن تكون الحجة حينذاك؟.

ويظهر من هذا كله أن الذين وضعوا (الديانة) الشيعية لم يضعوها إلى لمخالفة المسلمين كلهم ومخالفة ما يؤمنون به من القرآن والسنة، وما يعتقدون به من الآراء والأفكار كي لا يتحدوا ويتفوقا معهم يومًا من الأيام ولا تجمع كلمتهم ويتألف شملهم، وعلى ذلك اختلقوا روايات كثيرة على لسان أئمتهم - كذبًا عليهم - أن على الشيعة أن يخالفوا المسلمين في جميع الأمور حتى جعلوا هذه المخالفة أصلًا من أصول المذهب وأساسًا من أسسه كما رواه ابن بابويه القمي عن علي بن أسباط أنه قال:

"قلت للرضا عليه السلام: يحدث الأمر لا أجد بدًا من معرفته، وليس في البلد الذي أنا

فيه من أستفتيه من مواليك؟

قال: فقال: إيت فقيه البلد فاستفته في أمرك، فإذا أفتاك بشيء فخذ بخلافه فإن الحق فيه".

ورووا أيضًا عن الحسين بن خالد عن الرضا أنه قال:

"شيعتنا، المسلمون لأمرنا، الآخذون بقولنا، المخالفون لأعدائنا، فمن لم يكن كذلك فليس منا".

وروى أيضًا عن المفضل بن عمر أنه قال عن جعفر بن محمد الباقر:

كذب من زعم أنه من شيعتنا وهو متوثق بعروة غيرنا".

وهناك روايات أخرى كثرة في هذا المعنى بلغت التواتر كما صرح بذلك محدث الشيعة وصاحب موسوعة حديثية شيعية كبرى (وسائل الشيعة) الحر العاملي بعد ذكر هذه الروايات وغيرها تحت باب مستقل بعنوان (باب عدم جواز العمل بما يوافق العامة وطريقتهم):

أقول: والأحاديث في ذلك متواترة.. فمن ذلك قول الصادق عليه السلام في الحديثين المختلفين:

اعرضوهما على أخبار العامة، فما وافق أخبارهم فذروه، وما خالف أخبارهم فخذوه.

وقوله عليه السلام (يعني جعفر بن الباقر):

إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما خالف القوم.

وقوله عليه السلام: ما خالف العامة ففيه الرشاد.

قوله عليه السلام:

خذ بما فيه خلاف العامة.

وقوله عليه السلام:

ما أنتم والله على شيء مما هم فيه، ولا هم على شيء مما أنتم فيه، فخالفوهم، فما هم من الحنيفية على شيء.

وقوله عليه السلام:

والله ما جعل الله لأحد خيرة في اتباع غيرنا، وإن من وافقنا خالف عدونا، ومن وافق عدونا في قول أو عمل فليس منا ولا نحن منه.

وقول العبد الصالح عليه السلام في الحديثن المختلفين:

خذ بما خالف القوم، وما وافق القوم فاجتنبه.

وقول الرضا عليه السلام:

إذا ورد عليكم خبران متعارضان فانظروا إلى ما يخالف منهما العامة فخذوه، وانظروا بما يوافق أخبارهم فدعوه.

وقول الصادق عليه السلام:

"والله ما بقي في أيديهم شيء من الحق إلا استقبال الكعبة فقط".

وبعد ذكر هذه الروايات رد على بعض المتأخرين فمن يظن بأن الأخبار في هذا المعنى لا تخرج عن كونها آحادًا، وقال:

"والأحاديث.. قد تجاوزت حد التواتر، فالعجب من بعض المتأخرين حيث ظن ان الدليل هنا خبر واحد.. واعلم أنه يظهر من هذه الأحاديث المتواترة بطلان أكثر القواعد الأصولية المذكورة في كتب العامة".

وأما علة مخالفة المسلمين في معتقداتهم ومروياتهم فيذكرها ابن بابويه القمي الملقب بالصدوق عند الشيعة في كتابه (علل الشرائع) تحت باب (العلة التي من أجلها يجب الأخذ بخلاف ما تقوله العامة):

عن أبي إسحاق الأرجاني رفعه قال:

قال أبو عبد الله عليه السلام: أتدري لم أمرتم بالأخذ بخلاف ما تقوله العامة؟ فقلت: لا ندري، فقال:

"إن عليًا عليه السلام لم يكن يدين الله بدين إلا خالف عليه الأمة إلى غيره إرادة لإبطال أمره، وكانوا يسألون أمير المؤمنين عليه السلام عن الشيء الذي لا يعلمونه، فإذا أفتاهم جعلوا له ضدًا من عندهم ليلبسوا على الناس".

فتلك هي المؤامرة، وهذه هي حصيلتها، أي إنكار كل ما يؤمن به المسلمون، قرآنًا كان أم سنة. وأكثر من ذلك أن الشيعة بتصريحهم أنفسهم لا يجتمعون مع المسلمين على الإله، ولا على نبي، ولا على إمام كما صرح بذلك كبيرهم نعمت الله الجزائري بقوله:

"إنا لا نجتمع معهم على الإله، ولا على نبي، ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمد ﷺ نبيه، خليفته بعده أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبي، بل نقول: إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا، ولا ذلك النبي نبينا".

فالعبارة واضحة جلية في معناها لا تحتاج إلى بيان وتفسير وتفهيم من يظن من مخدوعي أهل السنة بأباطيل الشيعة وأكاذيبهم بأن الخلاف بينهم وبين المسلمين أهل السنة اختلاف يسير لا يخرج عن حيز الاجتهاد المسموح به

وليس كما يقوله السيد الدكتور في مبحثه (الشيعة والسنة النبوية):

"ولجميع هذه الآراء أشباه ونظائر كثيرة في آراء أهل السنة أنفسهم وليس منها ما يمكن أن يوصف صاحبه بزيغ أو انحراف".

إن الأمر ليس كما وصفت أيها السيد! الدكتور منحنا الله وإياك قلبًا نفقه به،

وأعينًا نبصر بها، وآذانًا نسمع بها.. وما ذلك على الله بعزيز.. لأن الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها حيث وجدها.

فمن يرد الله أن يهديه يشح صدره للإسلام.

(باب الإثنا عشرية ونزول الوحي والملائكة بعد الرسل)

إن السيد الدكتور وافي ذكر في كتابه بين الشيعة وأهل السنة (ص٤٨) في الباب الثاني عند كلامه عن الشيعة والسنة النبوية أن الشيعة يعتقدون العصمة والإلهام في أئمتهم.

ثم اعتذر لهم بثبوت الإلهام لكثير من الصحابة، وأنه لا لوم في هذا الاعتقاد، كما نفى عن الشيعة اعتقادهم بنزول الوحي بعد رسول الله ﷺ على أحد.

مع أن سيادته لم يدر حقيقة مذهب الشيعة في هذا كالمعهود عنه، أو تجاهل - لا قدر الله - تسامحًا وتكرمًا وتحببًا وتقربًا إليهم، لأن الشيعة يعتقدون نزول الوحي على أئمتهم وعن طريق جبريل وعن طريق ملك أعظم وأفضل من جبريل، فإن أئمتهم في الحديث بوبوا أبوابًا مستقلة في هذا الخصوص ولو تفضل سيادته بإلقاء النظرة العابرة الخاطفة على فهارس كتبهم في الحديث دون تحمل العناء والمشقة في قراءة الروايات وتلاوة الأخبار المروية الواردة في هذا الباب لعلم يقينًا بأن القوم في هذا الباب أيضًا يختلفون مع الأمة المسلمة اختلافًا كليًا، وينتهجون مسلكًا بعيدًا عن مسلكهم ومذهبهم كل البعد. ونحن نكتفي لبيان معتقداتهم المعارضة لعقائد الأمة أجمعها بذكر عناوين بعض الأبواب التي زينوا بها صحاحهم ومجاميعهم في أوصاف أئمتهم من الكتب المعتمدة الموثوق بها المعتبرة في الحديث لديهم، ولا نسرد كل الروايات التي أوردوها في هذه الأبواب من تلك الكتب، بل نكتفي بخبر أو خبرين

من الأخبار الكثيرة الكثيرة التي رووها فيها، ليحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

فيروي محمد بن الحسن الصفار المتوفى سنة ٢٩٠هـالذي يعدونه من أصحاب الإمام المعصوم الحادي عشر - حسب زعمهم - الحسن العسكري.

ويعدونه "ثقة، عظيم القدر، راجحًا، قليل السقط في الرواية".

و"ثقة جليلًا، صدوقًا".

وهو من أساتذة الكليني صاحب الكافي.

كما أن كتابه (بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد) بعد من الكتب المعتمدة المهمة والأصول المعتبرة الشيعية التي عليها اعتماد أئمة الشيعة في الحديث كما صرح بذلك المجلسي والأصفهاني والحر العاملي وغيرهم من أعاظم القوم في هذا الفن وخاصة أن له لقاءات ومسائل مع الحسن العسكري المذكور كما صرح بذلك الطوسي في رجاله.

يروي الصفار ذاك في كتابه هذا في أجزائه العشرة أخبارًا كثيرة لا تعد ولا تحصى في إثبات الوحي على أئمة الشيعة ونزول الملائكة عليهم تحت عناوين كثيرة في أبواب شتى، فنبدأ بسرد عناوين الأبواب والروايات:

الباب السادس عشر من الجزء الثامن في أمير المؤمنين أن الله ناجاه بالطائف وغيرها ونزل بينهما جبريل.

وروى تحته روايات عشرًا، منها:

"عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: جعلت فداك، بلغني أن الله تبارك وتعالى قد ناجى عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

قال: أجل! قد كان بينهما مناجاة بالطائف نزل بينهما جبريل".

وروي عن أبي نافع قال:

لما دعا رسول الله ﷺ عليًا يوم خيبر، فتفل في عينيه وقال له: إذا أنت فتحتها فقف بين الناس، فإن الله أمرني بذلك. قال أبو رافع: فمضى علي عليه السلام وأنا معه، فلما أصبح افتتح خيبر ووقف بين الناس وأطال الوقوف، فقال الناس:

إن عليًا عليه السلام يناجي ربه، فلما مكث ساعة أمر بانتهاب المدينة التي فتحها، قال أبو رافع: فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: إن عليًا عليه السلام وقف بين الناس كما أمرته، قال قوم منهم:

إن الله ناجاه، فقال: نعم يا رافع! إن الله ناجاه يوم الطائف ويوم عقبة ويوم حنين، ويوم غُسِّلَ رسول الله.

وهذا ليس من اختصاصات علي رضي الله عنه حسب معتقد الشيعة، بل يشاركه فيها غيره من الأئمة الاثنى عشر كما يصرح بذلك القوم، ومنها ما رواه الصفار في الجزء التاسع من كتابه تحت عنوان (الباب الخامس عشر في الأئمة عليهم السلام أن روح القدس يتلقاهم إذا احتاجوا إليهم) وروى تحته ثلاثة عشر حديثًا عن أسباط عن أبي عبد الله جعفر أنه قال: "قلت: تسألون عن الشيء فلا يكون عندكم علمه؟

قال: ربما كان كذلك. قلت: كيف تصنعون؟ قال: تلقانا به روح القدس".

ثم بوب بابًا آخر بعنوان (باب الروح التي قال الله في كتابه: {وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا}، إنها في رسول الله ﷺ وفي الأئمة يخبرهم ويسددهم ويوفقهم).

وذكر تحته خمسة عشر خبرًا، منها ما رواه عن أبي بصير قال:

"قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك عن قول الله تبارك وتعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما

في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور} .. قال: يا أبا محمد: خلق والله أعظم من جبرئيل وميكائيل، وقد كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة يخبرهم ويسددهم".

وروى مثل هذا الكليني في كافيه تحت عنوان (باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة عليهم السلام عن أسباط بن سالم قال: سأل رجل من أهل هيت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﷻ: {وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا.. } فقال:

"منذ أن أنزل الله ﷻ ذلك الروح على محمد ﷺ ما صعد إلى السماء، وإنه لفينا - وفي رواية: كان مع رسول الله يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده".

هذا ولقد أورد الصفار الثقة الجليل الصدوق لدى الشيعة رواية أخرى تحت باب (ما يسأل العالم عن العلم الذي يحدث به من صحف عندهم ازداده أو رواية فأخبر بسر وإن ذلك من الروح):

"عن عبد الله بن طلحة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

أخبرني يا ابن رسول الله ﷺ عن العلم الذي تحدثونا به أمن صحف عندكم أم من رواية يرويها بعضكم عن بعض أو كيف حال العلم عندكم؟ قال:

يا عبد الله! الأمر أعظم من ذلك وأجل، أما تقرأ كتاب الله؟.

قلت: بلى! قال: أما تقرأ: {وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} أفترون أنه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟ قال: قلت: هكذا نقرؤها! قال: نعم، قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تلك الروح فعلمه بها العلم والفهم، وكذلك تجري تلك الروح إذا بعثها الله إلى عبد علمه بها العلم والفهم - وفي رواية: تعرض بنفسه عليه السلام (أي أراد من العبد نفسه)".

وعنون بابًا آخر بعنوان (باب الروح التي قال الله: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي}: إنها في رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يسددهم ويوفقهم ويفقههم).

وذكر تحته اثنى عشر حديثًا، منها ما رواه عن أبي بصير قال:

"سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: {يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي} قال: ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد ﷺ، وهو مع الأئمة يسددهم".

وأورد هذه الروايات الكليني في (الكافي) عن أبي بصير أيضًا وغيره بلفظ: "وهو من الملكوت".

ثم عقد الصفار بابًا آخر (باب في الروح التي قال الله ﷻ: {ينزل الملائكة بالروح من أمره.. }. وهي تكون مع الأنبياء والأوصياء).

وذكر تحته روايات عديدة. كما بوّب بابًا آخر بعنوان (باب في الإمام أنه يعلم الساعة التي يمضي فيها وما يزاد في الليل والنهار ولا يوكّل إلى نفسه).

وأورد تحته تسع روايات.

وقبل أن ننتقل إلى الجزء الآخر من هذا الكتاب نريد أن نذكر أنه ما من كتاب في الأخبار والروايات والحديث عند الشيعة إلا وفيه أبواب مستقلة بمثل هذه الأبواب التي بوبها الصفار، وأورد أصحابها تلك الروايات بعينها أو مثيلاتها التي أوردها الصفار في (بصائر الدرجات)، من المتقدمين والمتأخرين.

فمثلًا يعقد الحر العاملي بابًا في كتابه (الفصول المهمة في أصول الأئمة) جاء فيه: إن الملائكة ينزلون ليلة القدر إلى الأرض ويخبرون الأئمة عليهم السلام بجميع ما يكون في تلك السنة من قضاء وقدر، وإنهم يعلمون كل علم الأنبياء عليهم السلام.

ثم سرد تحته روايات كثيرة في هذا المعنى.

كما أنه عقد أبوابًا أخرى لبيان هذه العقيدة الواضحة الصريحة الثابتة لدى الشيعة مثل غيره من محدثي الشيعة ومتكلميهم، ونحن نورد بعضًا منها في خاتمة الكلام.

ولقد بوب الصفار أبوابًا عديدة في الجزء الثامن من كتابه لبيان أن أئمة الشيعة يوحى إليهم، ويتنزل عليهم الملائكة.

فإنه عنون الباب التاسع من الجزء الثامن بعنوان (باب ما تزاد الأئمة ويعرض على كل من كان قبلهم من الأئمة، رسول الله ومن دونه من الأئمة عليهم السلام.

وروى تحته أحد عشر حديثًا ومنها ما رواه عن سماعة بن مهران قال:

"قال أبو عبد الله عليه السلام: إن لله عالمين، عالمًا أظهر عليه ملائكته، وأنبياءه ورسله، فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه، وعالمًا استأثر به، فإذا بدا لله في شيء منه أعلمناه ذلك، وعرض على الأئمة الذين كانوا من قبلنا".

وفي باب آخر بعنوان (باب في الأئمة أنهم يزادون في الليل والنهار، ولولا ذلك لنفد ما عندهم) سرد ثماني روايات، منها ما رواه عن أبي حمزة الثمالي قال:

"قلت: جعلت فداك كل ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أعطاه أمير المؤمنين بعده، ثم الحسن بعد أمير المؤمنين عليه السلام، ثم الحسين، ثم كل إمام إلى أن تقوم الساعة؟

قال: نعم، مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر، إي والله.. وفي كل ساعة".

وما رواه عن بشر بن إبراهيم أنه قال:

"كنت جالسًا عند أبي عبد الله عليه السلام إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة؟ فقال: ما عندي فيها شيء، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا الإمام مفترض الطاعة

سألته عن مسألة فزعم أنه ليس عنده فيها شيء، فأصغى أبو عبد الله عليه السلام أذنه إلى الحائط كأن إنسانًا يكلمه، فقال:

أين السائل عن مسألة كذا وكذا؟ وكان الرجل قد جاوز أسكفة (عتبة) الباب. قال: هاأنذا، فقال: القوم فيها هكذا. ثم التفت إلي فقال:

لولا نزاد لنفد ما عندنا".

ثم أورد بابًا آخر (باب في الأئمة أنهم يعرفون بالإخبار من هو غائب عنهم).

وسرد تحته روايات عديدة.

وبالمناسبة ما دمنا أوردنا روايات وذكرنا أبوبًا من (بصائر الدرجات الكبرى) لثقة الشيعة بالأئمة وعظيم تقديرهم لأوصاف الأئمة نريد أن نذكر بابًا آخر عقده في آخر جزء من هذا الكتاب لطرافته ولو أنه لا علاقة له بموضوعنا رأسًا، وهو باب عنونه بعنوان (باب في ركوب أمير المؤمنين عليه السلام السحاب، وترقيه في الأسباب والأفلاك).

وأطرف من ذلك أن المعلق على الكتاب وهو علامة الشيعة وحجتهم ميرزه محسن، علق على العنوان بقوله:

ولا يخفى ما في عنوان الباب فإنه لا يختص بعلي عليه السلام بل به، وبالحجة المنتظر عليهما السلام".

وروى تحت هذا الباب روايات عديدة، منها ما روي عن أبي جعفر أنه قال:

"أما إن ذا القرنين قد خير السحابين، فاختار الذلول وذخر لصاحبكم الصعب. قلت: وما الصعب؟

قال: ما كان من سحاب فيه رعد وبرق وصاعقة فصاحبكم يركبه، أما إنه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب السماوات السبع، خمسة عوامر واثنين خراب،

وفي رواية أخرى: أسباب السماوات السبع والأرضين السبع".

ونرجع إلى موضوعنا فنقول: إن الصفار أدرج في الجزء السابع من الكتاب أيضًا أبوابًا كثيرة في هذا الموضوع، وسرد تحتها روايات كثيرة، منها الباب الثاني بعنوان (باب في الإمام بأنه إن شاء أن يعلم العلم لعلم).

منها ما رواه عن عمرو بن سعيد المدائني:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

"إذا أراد الإمام أن يعلم شيئًا علمه الله ذلك".

وبابًا آخر بعنوان (ما يفعل بالإمام من النكت والقذف والنقر في قلوبهم وآذانهم).

أورد تحته ثلاث عشرة رواية. منها عن الحارث بن مغيرة أنه قال:

"قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هذا العلم الذي يعلمه عالمكم أشيء يلقى في قلبه أو ينكت في أذنه، فسكت حتى غفل القوم، ثم قال: ذاك وذاك".

وفي رواية: فقال: وحي كوحي أم موسى، ورواية أخرى: وقد يكونان معًا".

وعن النجاشي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

"فينا والله من ينقر في أذنه وينكت في قلبه وتصافحه الملائكة.

قلت: كان، أو يكون، أو اليوم؟

قال: بل اليوم.

قلت: كان، أو اليوم؟

قال: بل اليوم والله يا ابن النجاشي حتى قالها ثلاثًا".

وباب آخر (باب فيه تفسير الأئمة لوجود علومهم الثلاثة وتأويل ذلك).

وروى تحته روايات منها ما رواها عن علي السائي قال:

"سألت الصادق عليه السلام عن مبلغ علمهم؟ فقال: مبلغ علمنا ثلاثة وجوه: ماض

وغابر وحادث، فأما الماضي فمفسر، وأما الغابر فمزبور. وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبي بعد نبينا، وفي رواية: وأما النقر في الأسماع فإنه من الملك".

وباب آخر (باب في الأئمة عليهم السلام محدثون مفهمون)، وروى تحته ثماني روايات، منها:

"عن الحكم بن عيينة قال: دخلت على علي بن الحسن يومًا فقال لي: يا حكم.. هل تدري ما الآية التي كان علي بن أبي طالب عليه السلام يعرف بها صاحب قتله ويعلم بها الأمور العظام التي كان يحدث بها الناس؟ قال الحكم: فقلت في نفسي: قد وقفت على علم من علم علي بن الحسين أعلم بذلك تلك الأمور العظام. قال: فقلت: لا والله! لا أعلم به، أخبرني بها يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: والله! قول الله: {وما أرسلنا من رسول ولا نبي ولا محدث}، فقلت: وكان علي بن أبي طالب محدثًا؟

قال: نعم! وكل إمام منا أهل البيت فهو محدث".

وفي الباب الذي يليه يبين من هو المحدث، وما هو شأنه؟ بعنوان (باب في أن المحدث كيف صفته؟ وكيف يصنع به؟ وكيف يحدث الأئمة؟).

وأورد تحته ثلاث عشرة رواية، ومنها ما يرويها عن ابن أبي يعفور أنه قال:

"قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا نقول: إن عليًا عليه السلام لينكت في قلبه، أو ينقر في صدره وأذنه؟

قال: إن عليًا عليه السلام كان محدثًا. قال: فلما أكثرت عليه قال: إن عليًا عليه السلام كان يوم بني قريظة وبني النضير كان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره يحدثانه".

وروى عن علي بن الحسين أنه قال:

"علم علي عليه السلام في آية من القرآن وكتمنا الآية. قال: اقرأ يا حمران فقرأت: وما

أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي. قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث. قلت: وكان علي عليه السلام محدثًا؟

قال: نعم! فجئت إلى أصحابنا، فقلت: قد أصبت الذي كان الحكم يكتمنا. قال: قلت: قال أبو جعفر عليه السلام كان يقول: علي عليه السلام محدث، فقالوا لي: ما صنعت شيئًا.. ألا سألته من يحدثه؟

قال: فبعد ذلك إني أتيت أبا جعفر عليه السلام فقلت: أليس حدثني أن عليًا عليه السلام كان محدثًا؟

قال: بلى! قلت: من يحدثه؟

قال: ملك يحدثه. قال: قلت: أقول: إنه نبي أو رسول؟

قال: لا. قال: بل مثله مثل صاحب سليمان ومثل صاحب موسى، ومثله مثل ذي القرنين".

وباب آخر (باب من يلقى شيء بعد شيء يومًا بيوم وساعة بساعة مما يحدث).

وروى تحته عن ضريس أنه قال:

"كنت مع أبي بصير عند أبي جعفر عليه السلام، فقال له أبو بصير: بم يعلم عالمكم جعلت فداك؟

قال: يا أبا محمد! إن عالمنا لا يعلم الغيب، ولو وكل الله عالمنا إلى نفسه كان كبعضكم ولكن يحدث إليه ساعة بعد ساعة".

وروى أيضًا عن أبي بصير قال:

"قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، أي شيء هو العلم عندكم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار والأمر بعد الأمر والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة، وفي رواية أخرى: ما يحدث بالليل والنهار يومًا بيوم وساعة بساعة".

وباب آخر (باب في الأئمة عليهم السلام ورثوا العلم عن رسول الله ﷺ وعن علي عليه السلام، وإن العلم يقذف في صدورهم وينكت في آذانهم).

وأورد تحته تسع روايات.

وفي الجزء السادس روى رواية في (باب في أمير المؤمنين عليه السلام أن النبي ﷺ علمه العلم كله، وشاركه في العلم ولم يشاركه في النبوة).

عن حمران أنه قال:

"قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك: قد بلغني أن الله قد ناجى عليًا؟ قال: أجل! قد كان بينهما مناجاة بالطائف ونزل بينهما جبريل، وقال: إن الله علم رسوله الحلال والحرام والتأويل، فعلم رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام علمه كله".

وعلى ذلك ذكر في الجزء الرابع من كتابه (باب في أن الأئمة يخاطبون ويسمعون الصوت ويأتيهم صور أعظم من جبريل وميكائيل) عن أبي عبد الله أنه قال:

"إنا لنزاد في الليل والنهار، ولو لم نزد لنفد ما عندنا، قال أبو بصير: جعلت فداك من يأتيكم به؟

قال: إن منا من يعاي، وإن منا من ينقر في قلبه كيت وكيت، وإن منا لمن يسمع بأذنه وقعًا كوقع السلسلة في الطست. قال: فقلت له: من الذي يأتيكم بذلك؟

قال: خلق أعظم من جبريل وميكائيل".

وكذلك روي في الباب الثامن من هذا الجزء بعنوان (باب في الإمام أنه تراءى له جبريل وميكائيل وملك الموت).

وروي تحت روايات "أن جعفرًا وأباه الباقر جاءهما جبريل وملك الموت بصورة شيخ طويل جميل أبيض الرأس واللحية، ورجل أدم حسن الوجه والشيمة وكان الأول جبريل، والثاني ملك الموت".

وعلى ذلك ينص القوم بأن أئمتهم أفضل من جميع الأنبياء بما فيهم أولو العزم من الرسل وأعلم منهم، كما بوب صاحبنا هذا محمد بن الحسن الصفار (باب في أمي المؤمنين عليه السلام وأولو العزم أيهم أعلم).

كما أن الحر العاملي بوب بابًا بعنوان (إن النبي والأئمة الاثنى عشر عليهم السلام أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء والأوصياء السابقين، والملائكة وغيرهم، وإن الأنبياء أفضل من الملائكة).

وابن بابويه القمي الملقب بصدوق الشيعة بوب بابًا في كتابه بعنوان (أفضلية النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة على جميع الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

ولا يخلو كتاب من كتب الشيعة إلا وفيه أبواب متشابهة في هذا المعنى.

وقد سردوا تحتها روايات أكثر من أن تحصى حسب تعبير محدث الشيعة الحر العاملي.

منها ما رووا عن أبي جعفر أنه قال لأحد أتباعه: "يا عبد الله! ما تقول الشيعة في علي عليه السلام وموسى وعيسى ؟ قال:

قلت: جعلت فداك، وعن أي حالات تسألني؟

قال: أسألك عن العلم، فأما الفضل فهم سواء.

قال: قلت: جعلت فداك، فما عسى أقول فيهم.

فقال: هو والله أعلم منهما".

ورووا عن ابنه جعفر أنه قال:

"إن الله خلق أولي العزم من الرسل وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم وفضلهم، وفضلنا عليهم في علمهم، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يعلموا، وعلمنا علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمهم".

وهناك باب آخر بعنوان (باب أن الأئمة عليهم السلام أفضل من موسى والخضر عليهما السلام.

ثم روى تحته روايات عديدة، منها ما رواه عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال: لقد سأل موسى العالم (يعني الخضر) مسألة لم يكن عنده جوابها، ولقد سأل العالم موسى مسألة لم يكن عنده جوابها، ولو كنت بينهما لأخبرت كل واحد منهما بجواب مسألته، ولسألتهما عن مسألة لا يكون عندهما جوابها".

هذا وإننا لنرى بأن ما أوردناه من الأبواب وسردناه من الروايات يكفي لبيان الحق والحقيقة، والمعتقدات الأصيلة الشيعية في أئمتهم حول نزول الوحي والملائكة عليهم، وأنه لا فرق بينهم وبين أنبياء الله ورسله حيث أنهم يخاطبون ويكلمون، ويقذف في قلوبهم، ويلقى في مسامعهم، وتنزل عليهم الملائكة، جبرئيل ومن دونه وفوقه، ويناجيهم الرب جل وعلا - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - ولا نريد إكثار الروايات المملة في هذا الموضوع مع وجود أضعاف الأضعاف منها في (بصائر الدرجات) وغيره من الكتب المعتبرة الموثقة المعتمدة لدى الشيعة، كما نريد أن نبين ههنا أنه لم يكن اختيارنا كتاب (بصائر الدرجات) هذا لبيان معتقدهم في نزول الوحي والملائكة على أئمتهم مع وجود هذه الروايات في كتب الحديث والتفسير الأخرى إلا أن صاحب (البصائر) وهو الصفار من أقدم المحدثين الشيعة وشيخ مؤلفي الصحاح الأربعة أو شيخ شيخهم.

وأيضًا فإن هذا الكتاب لم يؤلف إلا لسرد الروايات الشيعية من الأئمة المعصومين المزعومين في فضائلهم، وإننا لندرك أننا أكثرنا الروايات في هذا البحث خلاف البحوث المتقدمة لأننا لم نورد هذا المبحث وهذه الروايات في كتبنا الأربعة عن الشيعة ولأنه مهم في فهم أصول الشيعة وعقائدهم.

وجلاء للحق الذي هو واضح وجلي مما سبق نريد أن نذكر بعض العناوين للأبواب التي ذكرها الكليني في (الأصول من الكافي) في هذا الخصوص فقط. وفي كتاب الحجة لا غير كي لا تبقى شبهة لشاك ولا ريب لمرتاب.

فهذه بعض عناوين الأبواب من كتاب الحجة في (الأصول من الكافي):

باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة.

باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

باب أن الأئمة خلفاء الله ﷻ في أرضه، وأبوابه التي منها يؤتى.

باب أن الأئمة معدن العلم وشجرة النبوة ومختلف الملائكة.

باب عرش الأعمال على النبي والأئمة.

باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم.

باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله ﷻ وأنه يعرفونها على اختلاف ألسنتهم.

باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء.

باب في أن الأئمة يزدادون في ليلة الجمعة.

باب لولا أن الأئمة يزدادون لنفد ما عندهم.

باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل.

باب أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا.

باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء.

باب أن الله ﷻ لم يعلم نبيه علمًا إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين، وأنه كان شريكه في العلم.

باب أن الأئمة محدثون مفهمون.

باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمة.

باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة.

باب أن الأئمة لم يفعلوا شيئًا ولا يفعلون إلا بعهد من الله ﷻ وأمر منه لا يتجاوزونه.

باب أن الأئمة تدخل الملائكة بيوتهم، وتطأ بسطهم، وتأتيهم بالأخبار، وهذا آخر ما أردنا ثبته في هذا الباب.

وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب.

(باب الرجعة عنه الإثنا عشرية)

من الأفكار اليهودية المدسوسة بين المسلمين والتي تولى كبر إثمها ابن اليهودية. البار بها عبد الله بن سبأ.. فكرة الرجعة، أي رجوع الأموات قبل البعث والنشور عند ظهور القائم الشيعي المعدوم المزعوم، من أئمتهم وأتباعهم، مع أعدائهم ومخالفيهم لينتقموا منهم ويشفوا صدورهم كما ذكر المجلسي خاتمة محدثي الشيعة:

ويرجع للدنيا يوم ظهور حضرة القائم عليه السلام مَن مَحَض الإيمان محضًا أو محض الكفر محضًا، فيرجع أعداؤه لينتم منهم في هذا العالم ويشاهدون من ظهور كلمة الحق وعلو كلمة أهل البيت ما أنكروه عليهم، فتكون رجعة الكفار لينالهم عقاب شديد".

وهذا الاعتقاد كاد أن يكون من المجمع عليه عند الشيعة، لا خلاف بينهم في ذلك، ولم يشذ فيه أحد ممن يعتد به ويعتمد على قوله كما ذكر الحر العاملي مستدلًا

على صحة الرجعة وإمكانها ووقوعها. بإجماع جميع الشيعة الإمامية وإطباق الشيعة الاثنى عشرية على صحة اعتقاد الرجعة فلا يظهر منهم مخالف يعتد به من العلماء السابقين ولا اللاحقين، وقد علم دخول المعصوم في هذا الإجماع بورود الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام، الدالة على اعتقادهم بصحة الرجعة حتى إنه قد ورد ذلك عن صاحب الزمان محمد بن الحسن المهدي عليه السلام في التوقيعات الواردة عنه وغيرها مع قلة ما ورد عنه في مثل ذلك من نسبة ما ورد عن آبائه عليهم السلام".

ومثل ذلك ذكره أيضًا مفسر الشيعة القديم أبو علي الطبرسي في تفسيره تحت قول الله ﷻ: {ويوم نحشر من كل أمة فوجًا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون} واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية بأن قال: إن دخول من في الكلام يوجب التبعيض، فدل ذلك على أن اليوم المشار إليه في الآية يحشر فيه قوم دون قوم، وليس ذلك صفة يوم القيامة، الذي يقول فيه سبحانه: {.. وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا}.

"وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ في أن الله سيعيد عند قيا المهدي قومًا ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضًا قومًا من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقونه من العذاب في القتل على أيدي شيعته والذل والخزي بما يشاهدون من علو كلمته.. على أن جماعة من الإمامية تأولوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، وأولوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافي التكليف. وليس ذلك، لأنه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح والتكليف يصح معها كما يصح مع

ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا تعبانًا وما أشبه ذلك، ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل عليها، وإنما المعول في ذلك على إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده".

وقبله قال بهذا القول الشريف المرتضى الملقب عند الشعة بعلم الهدى في جواب أسئلة سئل بها عن حقيقة الرجعة فأجاب: "بأن الذي تذهب إليه الشيعة الإمامية أن الله تعالى يعيد عند ظهور المهدي قومًا ممن تقدم موته من شيعته وقومًا من أعدائه".

وقبله شيخ المرتضى وإمام متكلمي الشيعة وفقهائها، محمد بن النعمان الملقب بالمفيد قال:

اتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة".

وقال في موضع آخر في مقالاته تحت عنوان (القول في الرجعة):

أقول: إن الله تعالى يرد قومًا من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها، فيعز منهم فريقًا ويذل فريقًا ويديل المحقين من المبطلين والمظلومين منهم من الظالمين، وذلك عند قيام مهدي آل محمد عليهم السلام و عليه السلام.

وأقول: إن الراجعين إلى الدنيا فريقان: أحدهما من علت درجته في الإيمان وكثرت أعماله الصالحات وخرج من الدنيا على اجتناب الكبائر والموبقات، فيريه الله عز وجل دولة الحق ويعزه بها ويعطيه من الدنيا ما كان يتمناه، والآخر من بلغ الغاية في الفساد وانتهى في خلاف المحقين إلى أقصى الغايات وكثر ظلمه لأولياء الله واقترافه السيئات، فينتصر الله تعالى لمن تعدى قبل الممات ويشفي غيظهم منه بما يحله من النقمات، ثم يصير الفريقان من بعد ذلك إلى الموت ومن بعده إلى النشور وما يستحقونه من دوام الثواب والعقاب، وقد جاء القرآن بصحة ذلك، تظاهرت به

الأخبار، والإمامية بأجمعها عليه إلا شذاذ منهم تأولوا ما ورد فيه مما ذكرناه على وجه يخالف ما وصفناه".

ونقف هنا برهة يسيرة لنلقي نظرة على مغالطة الدكتور وافي سواء وقع فيها أو أراد إيقاع الناس فيها حيث كتب تحت عنوان الرجعة: "للرجعة في عقيدة الشيعة الجعفرية مظهران:

النوع الأول: من الرجعة في عقائدهم وهو رجوع الإمام المهدي بمعنى ظهوره من مخبئه وهو موضع اتفاق عندهم، بل هو عماد مذهبهم.

وأما النوع الثاني: وهو رجعة الأبرار والأشرار رجعة مؤقتة فليس من العقائد المتفق عليها عندهم، بل إن كثيرًا منهم لينكر هذا النوع من الرجعة".

ثم كتب في الهامش: انظر أوائل المقالات وتصحيح الاعتقادات للشيخ المفيد، وهو من كبار شيوخهم".

ويتلخص ردنا في النقاط التالية:

أولًا: إن السيد الدكتور لا يدري إطلاقًا مذهب الشيعة الجعفرية في الرجعة حيث قال: "إن رجعة الأبرار والأشرار رجعة مؤقتة فليس من العقائد المتفق عليها عندهم. بل إن كثيرًا منهم لينكر هذا النوع من الرجعة" لأننا كما ذكرنا سابقًا وكما نحن بصدد ذكره أن الشيعة الجعفرية أو الإمامية أو الاثنى عشرية كلهم تقريبًا متفقون على هذه العقيدة من أعيانهم وكبرائهم ومشائخهم من المحدثين والمفسرين والفقهاء والكلاميين.

وعلى ذلك قال الحر العاملي:

"فلا يظهر منهم مخالف يعتد به من العلماء السابقين واللاحقين، وقد علم دخول المعصوم في هذا الإجماع".

وبذلك قال صدوق الشيعة ورئيس محدثيهم ابن بابويه القمي في كتابه الكلامي تحت عنوان (باب الاعتقاد في الرجعة):

"اعتقادنا يعني معشر الإمامية في الرجعة أنها حق".

وقال الملا باقر المجلسي صاحب (بحار الأنوار) بعد سرد الأخبار الكثيرة عن الرجعة:

اعلم يا أخي أني لا أظن أنك قد ترتاب بعد ما مهدت وأوضحت لك بالقول في الرجعة التي أجمعت عليه الشيعة في جميع الأعصار واشتهرت بينهم كالشمس في رابعات النهار.. وكيف يشك مؤمن بأحقية الأئمة الأطهار فيما تواترت عنهم من مائتي حديث رواها نيف وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم".

ومثل ذلك قال الحر العاملي:

"ومما يدل على ثبوت الإجماع اتفاقهم على أحاديث الرجعة حتى إنه لا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الشيعة، ولا تراهم يضعفون حديثًا واحدًا منها، ولا يتعرضون لتأويل شيء منها، فعلم أنهم يعتقدون مضمونها لأنهم يضعفون كل حديث يخالف اعتقادهم أو يصرحون بتأويله وصرفه عن ظاهره".

وقال أيضًا:

"ومما يدل على ذلك أيضًا كثرة النصوص الصريحة الموجودة في الكتب الأربعة وغيرها من الكتب المعتمدة.. ما يزيد على سبعين كتابًا قد صنفها عظماء الإمامية".

وهذا يدل على أن السيد الدكتور مع ادعائه معرفة مذهب الشيعة لا يعرف عنه شيئًا.

أو... وإن بعض الظن إثم!!!

ثانيًا: إن الدكتور وافي كتب على هامش الكلام: أوائل المقالات للشيخ المفيد وهو من كبار شيوخهم: كأنه يريد أن يفهم القارئ بأن هذا الكلام منقول عن المفيد الذي له مرتبته وشأنه لدى الشيعة.

ولا أدري كيف أبرر له موقفه هذا، وأجد له المعاذير؟.

مع العبارة الصريحة التي نقلناها عن المفيد التي لا غموض فيها ولا إشكال، "هل السيد الدكتور عجز عن فهم كلام المفيد، الذي يفهمه الصغير والكبير" بلا صعوبة أو مشقة؟

أم أن السيد الدكتور لم يعرف عن كتاب المفيد إلا اسمه، وذكر كتابه دون أن يراجعه أو ينظر ما فيه؟

أم علم وقرأ ولكنه.. معاذ الله أن يذهب بي الخيال إلى ما يريد أن يذهب إليه!.

وكلام المفيد واضح جلي كما ذكرناه آنفًا والذي قال في آخره:

"وقد جاء القرآن بصحة ذلك وتظاهرت به الأخبار، والإمامية بأجمعها عليه، إلا شذاذ منهم تأولوا ما ورد فيه مما ذكرناه على وجه يخالف ما وصفناه".

وبعد هذا لا أستطيع أن أعلل كلام الدكتور الذي قال فيه: "إن رجعة الأبرار والأشرار رجعة مؤقتة، فليس من العقائد المتفق عليها عندهم، بل إن كثيرًا منهم لينكر هذا النوع من الرجعة: ثم ينسب الكلام إلى (أوائل المقالات) للمفيد.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن السيد الدكتور ومن حذا حذوه ممن تأثروا بدعوة التقريب في مصر يجهلون مذهب الشيعة وعقائدهم، ولا يعلمون عنه وعنها شيئًا مع ادعائهم العلم والمعرفة، ولا يرددون إلا كلمات ألقيت في مسامعهم مزورة مموهة من قبل المخادعين الماكرين من الشيعة الذين ترددوا على مصر وعلى البلاد السنية الأخرى التي لم تبتل بالتشيع، ولم يحتج علماؤها ومفكروها إلى معرفة

هذه الديانة التي لم تؤسس إلا على أفكار وآراء تعارض الآراء الإسلامية وأفكارها الصحيحة المستقاة من كتاب الله وسنة رسول الله، والمبنية عليهما تمامًا.

ومعلوم أن نصوص الكتاب والسنة تخالف هذه العقيدة السخيفة أيضًا حيث أن لا ثواب ولا عقاب ولا جزاء ولا عطاء، ولا حساب ولا كتاب إلا يوم القيامة، وهو يوم الفصل ويوم الدين، يوم البعث ويوم النشور، ويوم الحشر، والآيات القرآنية الناطقة بهذه الحقائق الناصعة أكثر من أن تعد أو تحصى، ومنها ما ذكر فيها حكاية عن المذنبين:

{حتى إذا جاء أحده الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحًا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون * فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون}.

وهذه الآية صريحة في معناها لا تحتمل التأويل أنه ليس بعد الموت إلا البرزخ إلى يوم البعث، ويوم البعث هو اليوم الذي يفصل فيه بين الصالحين وغير الصالحين، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

وقال الله ﷻ مبينًا خلقة الإنسان وما إليه يصير في كلامه المحكم: {ولقد خلقنا الإنسان من سلاسة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين}.

وقال الله ﷻ حكاية عن الكفار وأهل النار:

{وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون * أبو آباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم}.

وقال تعالى:

{زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير * فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير * يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم * والذي كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير}.

أي لا يكون البعث إلا يوم الجمع للحساب والكتاب ويوم دخول الجنة والنار، لا قبله.

ومثل ذلك قول الله ﷻ:

{وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور}.

أي لا يكون بعث من في القبور إلا يوم القيامة.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، وكذلك الأحاديث الشريفة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

وإنها أي مسألة البعث في الدنيا تنافي العقل أيضًا كما فصل القول فيها في الكتب الكلامية.

ولكن الشيعة يعتقدون عكس ذلك ويقولون:

إذا آن قيام القائم ومطر الناس في جمادى الآخرة وعشرة أيام من رجب مطرًا لم ير الناس مثله، فينبت الله به لحوم المؤمنين في أبدانهم في قبورهم، فكأني أنظر إليهم مقبلين من قبل جهينة ينفضون رءوسهم من التراب.

ويقولون:

إن الحسين عليه السلام يرجع إلى الدنيا مع خمسة وسبعين ألفًا من الرجال.

وأيضًا ما رووه عن جعفر أنه قال:

إن أمير المؤمنين عليه السلام يرجع مع ابنه الحسين عليه السلام رجعة، وترجع معه بنو أمية، معاوية وآل معاوية، وكل من قاتله، فيعذبهم بالقتل وغيره، ويرجع الله من أهل الكوفة ثلاثين ألفًا، ومن سائر الناس سبعين ألفًا، ويتلاقون في الحرب مع معاوية في ذلك المكان، ثم يحييهم الله سبحانه مرة فيعذبهم مع فرعون وآل فرعون اشد العذاب، ثم يرجع أمير المؤمنين عليه السلام مرة أخرى مع النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء عليهم السلام".

وأكثر من ذلك أنهم قالوا:

لا يبعث الله نبيًا ولا رسولًا إلا رد إلى الدنيا من آدم فهلم جرًا حتى يقاتل بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام".

هذا ولقد سردنا روايات كثيرة في هذا المعنى في كتابنا (الشيعة والتشيع فرق وتاريخ)، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى ذلك.

وهذا يدل على أن عقيدة الرجعة عند الشيعة من العقائد المتفق عليها عندهم، ويعدونها من ضروريات المذهب كما صرح بذلك الحر العاملي.

ونقلوا عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال: "ليس منا من لم يؤمن بكرتنا - رجعتنا - ويستحل متعتنا".

وقد ألفوا لإثبات هذه العقيدة كتبًا كثيرة، منها: (إثبات الرجعة) للملا باقر المجلسي المتوفى عام ١١١١هـ، و (إثبات الرجعة) لجمال الخوانساري المتوفى سنة ١١٢٥هـ، و (إثبات الرجعة) للحسن الحلي من علماء الشيعة في القرن السابع، و (إثبات الرجعة) لابن المطهر الحلي المتوفى سنة ٧٢٦هـ، و (إثبات الرجعة) لمير محمد عباس التستري الهندي المتوفى سنة ١٣٠٦هـ، و (إثبات الرجعة) لملا سلطان محمود من تلامذة المجلسي، و (إثبات الرجعة) لسليمان القطيفي المتوفى سنة

١٢٦٦هـ، و (إثبات الرجعة) للفضل بن شاذان النيسابوري المتوفى سنة ٢٦٠هـ، و (إثبات الرجعة) ليحيى البحراني، و (إثبات الرجعة) للميرزا حسن القمي، و (إثبات الرجعة) لمحمد رضا الطبسي، و (الإمامية والرجعة) لعبد الله رزاق الهمداني، و (الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة) للحر العاملي، و (بشارة الفرج) للملا فرج بن عاشور، و (تفريج الكربة عن المنتقم لهم في الرجعة) لمحمود فتح الله الكاظمي المتوفى سنة ١٠٥٨هـ، و (الجوهر المنضود في إثبات رجعة الموعود) لأحمد بيان الأصفهاني، و (حياة الأموات بعد الموت) لأحمد البحراني المتوفى سنة ١١٣١هـ، و (دحض البدعة من إنكار الرجعة) لمحمد علي السنقري، و (دلائل الرجعة) لغلام علي العقيقي، و (الرجعة أحاديثها المنقولة عن آل العصمة) لأحمد بن المحسن، و (الرجعة وظهور الحجة) للميرزا محمد مؤمن الاسترا آبادي المتوفى سنة ١٠٨٨هـ، و (كتاب الرجعة) لمحمد بن مسعود العياشي صاحب تفسير العياشي المشهور، و (كتاب الرجعة) لابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١هـ، و (الرجعة) للملا حبيب الله الكاشاني المتوفى سنة ١٣٤٠هـ، و (النجعة في إثبات الرجعة) لعلي النقي الهندي.

والجدير بالذكر أن هذه العقيدة أعني الرجعة مأخوذة من اليهودية أيضًا كما صرح بذلك جولدزيهر: "إن فكرة الرجعة ذاتها ليست من وضع الشيعة أو من عقائدهم التي اختصوا بها، ويحتمل أن تكون قد تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية والمسيحية".

وبمثل ذلك قال أحمد أمين:

"اليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة".

وهذا ظاهر لا يحتاج في إثباته إلى دليل حيث أن المؤرخين والكتّاب في الفرق

والأديان صرحوا أن مؤسس الديانة الشيعية عبد الله بن سبأ هو الذي روج فيهم فكرة الرجعة، وهو أول من قال بها كما نقل الطبري:

"كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء، أمه سوداء فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول:

العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدًا يرجع؟ وقد قال الله ﷻ: إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد.

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال: فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها".

ويوافق الطبري في هذا غيره من المؤرخين.

وبعد هذا لا يبقى مجال للشك على يهودية الفكرة.

وقبل أن ننتقل إلى موضع آخر نقرر هنا أن القوم لا يعتقدون بالرجعة فحسب، بل يتجاوزونها إلى التناسخ حيث أوردوا روايات كثيرة عن أئمتهم المعصومين حسب زعمهم في ذلك المعنى، منها ما رووا أن أبا جعفر الملقب بمؤمن الطاق عند الشيعة، وشيطان الطاق عند الآخرين لقي يومًا من الأيام أبا حنيفة نعمان بن ثابت الإمام رحمه الله، فسأله أبو حنيفة: إنكم تقولون بالرجعة؟

قال: نعم.

قال أبو حنيفة: فأعطني الآن ألف درهم حتى أعطيك ألف دينار إذا رجعنا.

قال الطاقي لأبي حنيفة: فأعطني كفيلًا بأنك ترجع إنسانًا ولا ترجع خنزيرًا".

وقد روى النجاشي أنه قال له:

أريد ضمينًا يضمن لي أنك تعود إنسانًا، فإني أخاف أن تعود قردًا فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت مني".

ومثل هذا كثير.

أما محاولة الدكتور علي عبد الواحد واقي وضع هذه العقيدة السخيفة، يهودية الأصل بجانب عقيدة أهل السنة بالمهدي المنتظر فليس إلا عبثًا محضًا.

وكذلك حكمه على الأحاديث الكثيرة عن ذلك المهدي بأن كثيرًا منها موضوع، وما بقي منها ضعيف كل الضعف فليس إلا حكمًا جائرًا غير صحيح لدى المحققين والنقاد المهرة من أهل السنة.

(باب التقية عند الشيعة)

ذكر الدكتور وافي فيما من معتقدات الشيعة التقية موافقًا إياهم في جوازها، مستندًا على القرآن والسنة حيث يقول:

إننا نتفق معهم في جواز التقية في المواطن التي يشيرون إليها، والتي أجازها القرآن وأجازتها السنة النبوية الشريفة".

ولا يعلم الدكتور أن التقية الشيعية مخالفة للقرآن والسنة كل المخالفة، حيث أن معناها الكذب المحض والنفاق الخالص. ولم ترد آية في القرآن تبيح الكذب والنفاق، لا رواية ع رسول الله تجيزهما، بل على العكس من ذلك وردت آيات كثيرة في القرآن وأحاديث عديدة عن رسول الله ﷺ تحرم هذا وذاك. ولقد صرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاجه حيث قال:

النفاق والزندقة في الروافض أكثر من سائر الطوائف، بل لا بد لكل منهم من شعبة نفاق فإن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب أن يقول الرجل بلسانه ما ليس في

قلبه كما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم {يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم} والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية، وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله عن ذلك، بل كانوا من أعظم الناس صدقًا وتحقيقًا للإيمان وكان دينهم التقوى، لا التقية.

وقول الله تعالى: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة}: إنما هو الأمر بالاتقاء من الكفار، لا الأمر بالنفاق والكذب، والله تعالى قد أباح لمن أكره على كلمة الكفر أن يتكلم بها إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان لكن لم يكره أحدًا من أهل البيت على شيء من ذلك حتى أن أبا بكر رضي الله عنه لم يكره أحدًا، لا منهم ولا من غيرهم على متابعته، فضلًا أن يكرههم على مدحه والثناء عليه، بل كان علي وغيره من أهل البيت يظهرون ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم والترحم عليهم والدعاء لهم، ولم يكن أحد يكرههم على شيء منه باتفاق الناس.

وقد كان في زمن بني أمية وبني العباس خلق عظيم دون علي وغيره في الإيمان والتقوى يكرهون منهم أشياء ولا يمدحونهم، ولا يثنون عليهم، ولا يقربونهم، ومع هذا لم يكن هؤلاء يخافونهم ولم يكن أولئك يكرهونهم مع أن الخلفاء الراشدين كانوا باتفاق الخلق أبعد عن قهر الناس وعقوبتهم على طاعتهم من هؤلاء، فإذا لم يكن الناس مع هؤلاء مكرهين على أن يقولوا بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم.. فكيف يكونون مكرهين مع الخلفاء على ذلك، بل على الكذب وشهادة الزور وإظهار الكفر كما تقوله الرافضة من غير أن يكرههم أحد على ذلك، فعلم أن ما تتظاهر به الرافضة هو من باب الكذب والنفاق، وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، لا من باب ما يكره المؤمن عليه من التكلم بالكفر".

وهـو كمـا قالـه شـيخ الإسـلام لأن الـشيعة لـم يؤسـسوا ديـنهم إلا علـى الكـذب والنفاق، ولـم يروجوا ديانتهم إلا بإظهـار مـا لـم يعتقـدوه في الـسر وإعـلان مـا يبطنـون خلافه دون أن يجبرهم على ذلك أحد أو يكرههم، وخير مثال لذلك مـا رواه الكـشي في كتابه عن أبان بن تغلب أنه قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني أقعد في المسجد فيجيء النـاس، فيسألوني، فـإني لـم أجبهم لم يقبلوا مني، وأكره أن أجيبهم بقولكم، وما جاء منكم؟

فقال لي: انظر ما علمت أنه من قولهم فأخبرهم بذلك".

ومثل ذلك رواه معاذ بن مسلم النحوي قال:

"قال لي أبو عبد الله عليه السلام: بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس؟

قـال: قلـت: نعـم، وقـد أردت أن أسـألك عـن ذلـك قبـل أن أخـرج، إني أقعـد في الجـامع فيجـيء الرجـل فيسألني عـن الـشيء، فـإذا عرفتـه بـالخلاف لكـم أخبرتـه بمـا يقولـون، ويجـيء الرجل أعرفه بحبكم أو مودتكم فأخبره بما جـاء عـنكم.. قـال: فقـال لي (أي أبو جعفر): اصنع كذا فإن أصنع كذا!".

ومثل ذلك روى أبو بصير عن محمد الباقر قال:

"خالطوهم بالبرانية (أي ظاهرًا) وخالفوهم بالجوانية (أي باطنًا)".

وهذه الروايات الثلاثة صريحة في معناها لا تحتاج إلى تشريح وتوضيح لبيـان أن التقيـة الـشيعية ليـست إلا النفـاق بعينهـا، وهـذا هـو المعـبر عـن المنـافقين في القـرآن الحكيم:

{وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحـن مستهزئون}.

وذكره الله في أوصافهم وخصائصهم:

{.. يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون}.

وإن الروايات الشيعية عن أئمتهم المعصومين - حسب زعمهم - التي تنبئ وتخبر أن التقية الشيعية ليست إلا نفاقًا محضًا، كثيرة جدًا، وقد أوردنا الكثير منها في كتابنا (الشيعة والسنة) تحت باب (الشيعة والكذب)، وما لم نوردها فيه نذكر بعضًا منها ههنا زيادة للفائدة والمعرفة، فيروي الكليني في كافيه عن هشام الكندي أنه قال:

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "إياكم أن تعملوا عملًا يعيرونا به، فإن ولد السوء يعير والده بعمله، كونوا لمن انقطعتم إليه زينًا، ولا تكونوا عليه شينًا، صلوا في عشائرهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير فأنتم أولى به منهم. والله، ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء. قلت: وما الخبء؟ قال: التقية".

وروي ابن بابويه القمي عن المدرك بن هزهاز أنه قال:

"قال أبو عبد الله عليه السلام: يا مدرك، رحم الله عبدًا اجتر مودة الناس إلى نفسه فحدثهم بما يعرفون، وترك ما ينكرون".

وكذبوا على أصحاب الكهف حيث اتهموهم بالنفاق وخداع الناس بإظهارهم خلاف ما يبطنون في قلوبهم حيث نقلوا عن جعفر أنه قال:

"ما بلغ التقية أحد تقية أصحاب الكهف إن كانوا ليشهدون الأعياد ويشدون الزنانير فأعطاهم الله أجرهم مرتين".

مع أن الرب تبارك وتعالى أخبر عكس ذلك حيث ذكر في كلامه المحكم: {.. إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذا قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهًا لقد قلنا إذًا شططًا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا *

وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقًا}.

ولكن القوم يقولون عكس ذلك، ويأمرون الناس بالكذب، وأن يصيروا من المنافقين، الذين قال الله عنهم:

{إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا}.

ومعروف أن الإنسان إذا كان في بلدة يخاف على دينه وعرضه وماله من تعرض المخالفين وجبرهم وظلمهم وقهرهم على عدم إظهار دينه والعمل بأحكامه وتعاليمه، وجب عليه أن يهاجر إلى محل يقدر فيه على إظهار دينه والعمل به كما قال الله ﷻ:

{إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا * ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورًا رحيمًا}.

فأمرهم الرب تبارك وتعالى بالهجرة، إلا المستضعفين منهم، فإنه يجوز لهم المكث مع المخالفة والموافقة بقدر الضرورة، ووجب عليهم أيضًا أن يسعوا في الحيلة للخروج والفرار بدينهم.

نعم، إن وقع شخص في أيدي الكفار، وأجبروه على كلمة الكفر بالتخويف والتهديد والحبس والفتك والقتل، جاز له أن ينطق بتلك الكلمة وقلبه مطمئن بالإيمان، وفي تلك الصورة.. فإن التفوه بهذه الكلمة رخصة وعدم التفوه بها عزيمة،

ولو قتل دون ذلك فهو شهيد كما يدل على ذلك ما قاله الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين من أصحابه أخذهما مسيلمة الكذاب، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا الآخر فقال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم. قالها ثلاثًا، وفي كل يجيبه: إني أصم، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:

"أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه وأخذ بفضله، فهنيئًا له، وأما الآخر فقد رحمه الله تعالى فلا تبعة عليه".

ولكن الشيعة جعلوا النفاق والكذب عزيمة، والصدق والمجاهرة بالحق رخصة، ولا رخصة أيضًا حيث نقلوا عن أئمتهم المعصومين حسب زعمهم - وهم يكذبون عليهم - أنهم قالوا كما رواه الكليني عن جعفر:

يا سليمان، إنكم على دين من كتمه أعزه الله، ومن أذاعه أذله الله".

وكما رواه الكليني أيضًا عن جعفر أنه قال لأحد أصحابه معلي بن خنيس: يا معلى، اكتم أمرنا ولا تذعه، فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزه الله به في الدنيا، وجعله نورًا بين عينيه في الآخرة، يقوده في الجنة.

يا معلى، من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله به في الدنيا ونزع النور من بين عينيه في الآخرة، وجله ظلمة تقوده إلى النار.

يا معلى، إن التقية من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له".

وروى الكليني أيضًا عن جعفر عن أبيه محمد الباقر أنه قال:

لا والله ما على وجه الأرض شيء أحب إلي من التقية، يا حبيب، إنه من كانت له تقية رفعه الله، يا حبيب، من لم تكن له تقية وضعه الله".

وعنه أيضًا عن أبي عمر الأعجمي أنه قال:

قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا عمر، إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية في كل شيء إلا النبيذ والمسح على الخفين".

كما روى أيضًا عن جعفر أنه قال:

كان أبي عليه السلام يقول: وأي شيء أقر لعيني من التقية، وإن التقية جنة المؤمن".

هذا وقد أورد عالم شيعي كبير هو عبد الله شبر في كتابه (الأصول الأصيلة والقواعد الشرعية) روايات كثيرة في وجوب التقية، منها ما رواه عن الحسين بن علي أنه قال:

لولا التقية ما عرف ولينا من عدونا.

وعن محمد الباقر أنه قال:

أشرف أخلاق الأئمة والفاضلين من شيعتنا استعمال التقية.

وعن أبيه علي بن الحسين أنه قال:

يغفر الله للمؤمن كل ذنب ويطهره منه في الدنيا والآخرة ما خلا ذنبين، ترك التقية وتضييع حقوق الإخوان.

وعن موسى بن جعفر أنه قال لرجل: لو جعل إليك التمني في الدنيا ما كنت تتمنى؟

قال: كنت أتمنى أن أرزق التقية في ديني وقضاء حقوق إخواني، فقال: أحسنت، أعطوه ألفي درهم.

وعن علي بن محمد – الإمام العاشر للشيعة – أنه سئل: من أكمل الناس؟

قال: أعلمهم بالتقية وأقضاهم لحقوق إخوانه إلى أن قال: فأعظم فرائض الله عليكم بعد فرض موالاتنا ومعاداة أعدائكم استعمال التقية على أنفسكم وأموالكم

ومعارفكم، وقضاء حقوق إخوانكم، وإن الله يغفر كل ذنب بعد ذلك ولا يستقصي، فأما هذان فقل من ينجو منهما إلا بعد مس عذاب شديد".

ورووا أيضًا عن أبي الحسن - إمامهم المعصوم المزعوم - أنه قال: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، قال: أشدكم تقية".

وع داود الصرمي أنه قال:

قال لي مولانا علي بن محمد عليه السلام: يا داود، لو قلت: إن تارك التقية كتارك الصلاة لكنت صادقًا".

وروى الطوسي في أماليه عن جعفر أنه قال:

ليس منا من لم يلزم التقية".

فهذه هي التقية الشرعية، وهذه هي مكانتها وشأنها عندهم يقول السيد محب الدين الخطيب المصري في رسالته (الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها مذهب الشيعة الاثنى عشرية):

"وأول موانع التجاوب الصادق بإخلاص بيننا وبينهم ما يسمونه التقية، فإنها عقيدة دينية تبيح لهم التظاهر لنا بغير ما يبطنون، فينخدع سليم القلب منا بما يتظاهرون له به من رغبتهم في التعاون والتقارب، وهم لا يريدون ذلك، ولا يرضون به، ولا يعملون له".

وأضف إلى قول السيد الخطيب: إن الشيعة لا يظهرون بغير ما يبطنون لنا أهل السنة خاصة. بل إنهم يعودون على الكذب حتى مع أهل مذهبهم كي يصير الكذب والنفاق سجيتهم وطبيعتهم كما روى الطوسي في أماليه أنه قال جعفر لشيعته:

عليكم بالتقية، فإنه ليس منا من لم يجعلها شعاره وداثاره مع من يأمنه ليكون سجيته مع من يحذره".

فمن يك هذا دينهم، أيقال عنهم: إننا نتفق معهم في جواز التقية في المواطن التي أشير إليها، والتي أجازها القرآن الكريم وأجازته السنة النبوية الشريفة".

ولقد أخطأ السيد الدكتور حيث قال:

وقد أجازها الشيعة الجعفرية".

لأن الشيعة لا يجيزونها فحسب، بل يوجبونها كما نقلنا عنهم روايات كثيرة في ذلك، وكما صرح به صدوقهم ابن بابويه القمي في اعتقاداته:

"التقية واجبة لا يجوز رفعها إلى أن يقوم القائم، ومن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الإمامية، وخالف الله ورسوله والأئمة".

وقال مفيدهم: "التقية كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه، ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضررًا في الدين أو الدنيا، وفرض ذلك إذا علم بالضرورة أو قوي في الظن".

وقال في (أوائل المقالات):

إنها قد تجب أحيانًا ويكون فرضًا، وتجوز أحيانًا من غير وجوب.

ولقد فصلنا القول في ذلك في كتابنا (الشيعة والسنة) وبحثنا فيه عن الأسباب التي ألجأت الشيعة وأرغمتهم على اعتقادها، كما أوردنا فيه روايات كثيرة ونصوصًا عديدة من كتبهم المعتمدة ورجالاتهم الموثوقين، أعرضنا عن إيرادها ههنا تجنبًا للتكرار والإطالة، وعلى كل من يريد أن يعرف حقيقة هذه العقيدة فليرجع إليه، فإنه لا غنى عنه.

ونختم الكلام في هذا المبحث برواية يرويها بخاريهم الكليني عن عبد الله بن يعفور أنه قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني أخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتولونكم

ويتولون فلانًا وفلانًا، لهم أمانة وصدق ووفاء، وأقوام يتولونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء ولا الصدق، قال: فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالسًا، فأقبل علي كالغضبان، ثم قال:

لا دين لمن دان الله بولاية إمام ليس من الله".

فكيف يكون الصدق والوفاء لقوم أمروا بالكذب والنفاق؟

يقول عالم شيعي هندي هو السيد إمام:

"إن مذهب الإمامية وأهل السنة عينان تجريان إلى مختلف الجهات، وإلى القيامة تجريان هكذا متباعدتين، لا يمكن اجتماعهما أبدًا".

(باب البَداء عند الشيعة)

هنالك عقيدة شيعية أخرى لا تقل شناعة عن العقائد الأخرى التي يختص بها القوم، وهي عقيدة البداء في الله.

ومعنى البداء الظهور بعد الخفاء كما ذكر ذلك السيد محسن الأمين في كتابه (الشيعة بين الحقائق والأوهام) تحت عنوان البداء:

البداء مصدر بدا يبدو بداء أي ظهر، ويستعمل في العرف بمعنى الظهور بعد الخفاء، فيقال: فلان كان عازمًا على كذا ثم بدا له فعدل عنه".

وبمثل ذلك نقل ابن منظور الأفريقي عن اللغويين حيث قالوا:

البداء استصواب شيء بعد أن لم يعلم.. وقال الفراء: بدا لي بداء أي ظهر لي رأي آخر وأنشد:

لو على العهد لم يخنه لدمنا ... ثم لم يبد لي سواه بداء

قال الجوهري: وبدا له في الأمر بداء أي نشأ له فيه رأي – وذكر أيضًا –: بدا لي

أي تغير لي رأي على ما كان عليه".

وفي هذا المعنى استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم:

{.. وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون}.

{وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون}.

{وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون}.

{.. قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر}.

وأيضًا: {.. فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما..}.

ففي كل الآيات استعمل هذا اللفظ بمعنى الظهور بعد الخفاء.

وتجيز الشيعة هذا البداء لله، أي يظهر له أمر بعدما كان خفيًا عليه - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - كما تنص على ذلك روايات شيعية كثيرة في أمهات كتبهم، المعتمدة الموثوقة، منها مارووه عن جعفر أنه كان يقول بإمامة ابنه إسماعيل بعده، ثم مات إسماعيل في حياته فقال:

ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل ابني"

ومثل ذلك ما رواه الكليني في كافيه عن إمامهم العاشر علي بن محمد المكنى بأبي الحسن أنه لما مات ابنه الأكبر محمد المكنى بأبي جعفر وبقي له ابنه الأصغر الحسن المكنى بأبي محمد قال كما روى أبو هاشم الجعفري:

كنت عند أبي الحسن عليه السلام بعد ما مضى ابنه جعفر وإني لأفكر في نفسي أريد أن أقول: كأنهما أعني أبا جعفر وأبا محمد في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابني جعفر بن محمد عليهم السلام وأن قصتهما كقصتهما، إذ كان أبو محمد المرجي بعد أبي جعفر عليه السلام فأقبل عليّ أبو الحسن قبل أن أنطق فقال:

نعم يا أبا هاش، بدا لله في أبي محمد بعد أبي جعفر عليه السلام ما لم يكن يعرف له،

كما بدا له في موسى بعد مضي إسماعيل ما كشف به عن حاله وهو كما حدثتك نفسك وإن كره المبطلون، وأبو محمد ابنى المخلف من بعدي.

وكما رواه أيضًا عن محمد بن عبد الله الأنباري أنه قال:

كنت حاضرًا أبا الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ لما توفي ابنه محمد فقال للحسن:

يا بني أحدث لله شكرًا فقد أحدث فيك أمرًا.

وهذه الروايات الثلاثة صريحة في معناها بأن الله لم يكن يعلم بأن كلًا من إسماعيل بن جعفر، ومحمد بن علي لا يصلحان للإمامة، وخفي الأمر عليه، ثم ظهر له عدم صلاحيتهما لتلك المنزلة وذلك المنصب فأحدث الإمامة في موسى بن جعفر وحسن بن علي.

هذا وروى محدثو الشيعة روايات كثيرة في هذا المعنى، منها ما رواه ابن بابويه القمي الملقب بالصدوق عن علي بن موسى الملقب بالرضا - الإمام الثامن لدى الشيعة -:

لقد أخبرني أبي عن آبائي عليهم السلام عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

"إن الله أوحى إلى نبي من أنبيائه أن أخبر فلانًا الملك: أني متوفيه إلي كذا وكذا.

فأتاه ذلك النبي فأخبره، فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السرير، قال: يا رب، عجلني حتى يشب طفلي ويقضى أمري.

فأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إلى ذلك النبي أن ائت الملك فأعلم أني قد أنسيت في أجله وزدت في عمره إلى خمس عشرة سنة، فقال ذلك النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب، إنك لتعلم أني لم أكذب قط، فأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إليه: إنك عبد مأمور فأبلغه ذلك، والله لا يسأل عما يفعل.

ورووا مثل ذلك عن نبي الله عيسى الناطق بالوحي أنه مر بقوم مجلبين كما نقله القمي عن جعفر بن محمد فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما لهؤلاء؟

قيل: يا روح الله إن فلانة بنت فلان تهدى إلى فلان بن فلان في ليلتها هذه قال: يجلبون اليوم ويبكون غدًا، فقال قائل منهم: ولم يا رسول الله؟

قال: لأن صاحبتهم ميتة في ليلتها هذه، فقال القائلون بمقالته: صدق الله وصدق رسوله، وقال أهل النفاق: ما أقرب غدًا، فلما أصبحوا جاءوا فوجدوها على حالها لم يحدث بها شيء، فقالوا: يا روح الله إن التي أخبرتنا أمس أنها ميتة لم تمت، فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يفعل الله ما يشاء، فاذهبوا بنا إليها، فذهبوا يتسابقون حتى قرعوا الباب فخرج زوجها، فقال له عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: استأذن لي إلى صاحبتك، قال: فدخل عليها فأخبرها أن روح الله وكلمته بالباب مع عدة، قال: فتخدرت، فدخل عليها فقال لها: ما صنعت ليلتك هذه؟

قال: لم أصنع شيئًا إلا وقد كنت أصنعه فيما مضى إنه كان يعترينا سائل في كل ليلة جمعة فننيله ما يقوته إلى مثله، وأنه جاءني في ليلتي هذه وأنا مشغولة بأمري وأهلي في مشاغيل، فهتف فلم يجبه أحد، ثم هتف فلم يجبه أحد حتى هتف مرارًا، فلما سمعت مقالته قمت متنكرة حتى أنلته كما كنا ننيله، فقال لها: تنحي عن مجلسك: فإذا تحت ثيابها أفعى مثل جذعة عاض على ذنبه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: بما صنعت صرف الله عنك هذا.

وكذبوا على نبي الله محمد صلوات الله وسلامه عليه نقلًا عن جعفر أيضًا أنه قال:

مر يهودي بالنبي ﷺ فقال: السلام عليك، فقال رسول الله ﷺ: عليك، فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت. قال: الموت عليك. قال النبي ﷺ: كذلك رددت، ثم قال النبي ﷺ: إن هذا اليهودي يعضه أسود في قفاه فيقتله. قال: فذهب اليهودي فاحتطب حطبًا كثيرًا فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف فقال له رسول الله ﷺ: ضعه

فوضع الحطب فإذا أسود في جوف الحطب عاض على عود، فقال: يا يهودي ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملًا إلا حطبي هذا احتملته فجئت به وكان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله ﷺ: بها دفع الله عنه، وقال: إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان".

ومعنى الروايتين واضح جلي أن نبي الله عيسى عليه السلام أخبر بموت العروسة بإخبار من الله عز وجل وبوحي منه وخفي على الله - عياذًا بالله - بأن العروسة واليهودي لا يموتان في وقتهما الذي حدد لموتهما العارضة تعرض، وسبب يحدث، كما لم يظهر له - تعالى الله عما يقولونه علوًا كبيرًا - أن رسوليه يكذبان من قبل المعاندين، ويهزأ بهما من قبل المنافقين، ويتكلم الناس في أمرهما ما يتكلمون، ويكون في أيديهم حجة لتكذيبهم إياهم وللرد على مقولاتهم وأنبائهم فلا يبقى إذًا معنى النبوة والنبوءة.

وعلى ذلك اضطرب القوم في أمر هذه العقيدة الخبيثة، المتفق عليها عند جميع الشيعة كما قال شيخهم المفيد: واتفقت الإمامية على إطلاق لفظ البداء في وصف الله تعالى وإن كان ذلك من جهة السمع دون القياس.

فهذه العقيدة المتفقة عندهم جعلتهم يضطربون عند الإيرادات والإشكالات ولا يجدون عنها مخلصًا إلا بالتأويلات الركيكة والتوجيهات الضعيفة الرخيصة، منها ما التجأ إليه كاتب شيعي دعائي في كتابه الدعائي (المشهور أصل الشيعة وأصولها)، وضعف قوته وفتور همته وقلة حيلته وعدم ثقته بكلامه تتدفق من عبارته وهو يقول:

أما البداء الذي تقول به الشيعة الذي هو من أسرار آل محمد ﷺ وغامض علومهم حتى ورد في أخبارهم الشريفة أنه: ما عبد الله بشيء مثل القول بالبداء، وأنه: ما عرف الله حق معرفته ولم يعرف بالبداء، إلى كثير من أمثال ذلك، فهو عبارة عن إظهار الله جل شأنه أمرًا يرسم في ألواح المحو والإثبات وربما يطلع عليه بعض

الملائكة المقربين أو أحد الأنبياء والمرسلين فيخبر الملك به النبي، والنبي يخبر به أمته، لم يقع بعد ذلك خلافه لأنه محاه وأوجد في الخارج غيره وكل ذلك كان جلت عظمته يعلمه حق العلم ولكن في علمه المخزون المصون الذي لم يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ممتحن، وهذا المقام من العلم هو المعبر عنه القرآن الكريم بأم الكتاب المشار إليه، وإلى المقام الأول بقوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}، ولا يتوهم الضعيف أن هذا الإخفاء والإبداء يكون من قبيل الإغراء بالجهل وبيان خلاف الواقع، فإن في ذلك حكمًا ومصالح تقصر عنها العقول وتقف عندها الألباب.

ثم إن القوم لم يقفوا في سرد الروايات لدعم عقيدتهم هذه إلى هذا الحد بل قالوا: إن نبي الله لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يخاف من البداء لله إلى حد أنه طالب ملائكة العذاب أن يعجلوا بقومه العذاب كي لا تتغير إرادة الله فيهم بسبب من الأسباب التي خفيت عليه وتظهر فيما بعد.

وهذه هي عبارة القوم نقلًا عن محمد الباقر بعد ذكر رسل الله الذين أرسلوا إلى قوم لوط:

قال لهم لوط: يا رسول ربي فما أمركم ربي فيهم؟

قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر.

قال: فلي إليكم حاجة.

قالوا: وما حاجتك؟

قال: تأخذونهم الساعة، فإني أخاف أن يبدو لربي فيهم.

فقالوا: يا لوط، إن موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب.

وقد بالغوا هذا حتى قالوا نقلًا عن محمد الباقر: أنه قال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد أن

يخلق النطفة التي مما أخذ عليها الميثاق في صلب آدم أو ما يبدو له فيه ويجعلها في الرحم حرك الرجل للجماع وأوحى إلى الرحم - أن افتحي بابك حتى يلج فيك خلقي وقضائي النافذ وقدري، فتفتح الرحم بابها فتصل النطفة إلى الرحم، فتردد فيه أربعين يومًا. ثم تصير علقة أربعين يومًا، ثم تصير مضغة أربعين يومًا، ثم تصير لحمًا تجري فيه عروق مشتبكة، ثم يبعث الله ملكين خلاقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله فيقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ويشقان له السمع والبصر وجميع الجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله، ثم يوحي الله إلى الملكين: اكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمرين واشترطا لي البداء فيما تكتبان.. فيملي أحدهما على صاحبه فيكتبان جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان.

وقد عظموا هذه العقيدة حتى نقلوا عن أئمتهم أنهم قالوا:

"ما عبد الله بشيء مثل البداء" قاله محمد الباقر.

وعن جعفر أنه قال: "ما عظم الله بمثل البداء".

وعنه أيضًا ما نقله مالك الجهني أنه قال: "لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما افتروا من الكلام فيه.

وعن مرازم بن حكيم أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما تنبأ نبي قط حتى يقر لله بخمس خصال: بالبداء، والمشيئة، والسجود والعبودية، والطاعة.

وأخيرًا ما رواه الريان بن الصلت أنه قال:

"سمعت الرضا عليه السلام يقول: ما بعث الله نبيًا قط إلا بتحريم الخمر، وأن يقر لله بالبداء".

هذا ما يقوله الشيعة عن الله ويعتقدوه فيه وراثة عن اليهودية البغيضة، وناقلة

أفكارها الخبيثة من قول اليهود: "رأي الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته الإنسان مع البهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم.

ومثل هذه الفقرات كثيرة في التوراة واضحة تشير إلى أن الله فعل شيئًا ولم يكن ليفعل لو عل في حينه أن نتيجته خلاف ما أراده، وخفي عليه ما ظهر فيما بعد - سبحانه عما يصفو.

وأما ما يقوله الرب جل وعلا في كتابه المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو مخالف تمام المخالفة لما يعتقده اليهود والشيعة يقول الرب ﷻ عن نفسه:

{.. عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين}.

وقال: {وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.. }.

وقال: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}.

وأمر ملائكته أن يقولوا:

{وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيًا}.

وقال موسى عليه السلام: {.. لا يضل ربي ولا ينسى}.

وقال: {.. وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا}.

وقال: {.. وكان الله بكل شيء محيطًا}.

وقال: {.. ألا إنه بكل شيء محيط}.

والآيات في هذا المعنى كثيرة لا تعد ولا تحصى.

أما الشيعة فيعتقدون في الله عكس ما يقوله الرب عنه جل جلاله، وعم نواله، مصرحين بأن الله تعالى ظهر له من الأمر ما لم يكن ظاهرًا.

ولماذا قالوا بالبداء؟

هؤلاء القوم لماذا يقولون بهذه المقالة الشنيعة؟

يجيب على ذلك أقدم من كتب في فرق الشيعة من الشيعة ومن يليه أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي، وسعد بن عبد الله القمي في كتابيهما (فرق الشيعة)، وكتاب (المقالات والفرق) نقلًا عن سليمان بن جرير:

"إن أئمة الرافضة وضعوا لشيعتهم مقالتين لا يظهرون معهما من أئمتهم على كذبهم أبدًا، وهما القول بالبداء، وإجازة التقية.

فأما البداء فإن أئمتهم لما أحلوا أنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيتها في العلم فيما كان ويكون، والإخبار بما يكون في الغد، وقالوا لشيعتهم: إنه سيكون في غد وفي غابر الأيام كذا وكذا، فإن جاء ذلك الشيء على ما قالوه قالوا لهم:

ألم نعلمكم أن هذا يكون، فنحن نعلم من قبل الله ﷻ ما علمته الأنبياء عن الله ما علمت، وإن لم يكن ذلك الشيء الذي أخبروا به على ما قالوا، اعتذروا لشيعتهم بقولهم: بدا لله في ذلك بكونه.

فما أصدقه وأحسن به.

هذا ولم يقولوا بهذه المقالة ولم يعتقدوا بهذا الاعتقاد إلا لمخالفتهم المسلمين أهل السنة حيث أنهم أسسوا قواعد مذهبهم على مخالفة العقائد الإسلامية الخالصة

المستقاة من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كما بيناه فيما مضى.

وليس الأمر كما تصوره السيد الدكتور ومن يحذو حذوه ويسلك مسلكه دون علم أو برهان.

(باب الجفر عند الشيعة)

الجفر كتاب مكذوب على الإمام جعفر، وهو ثابت موجود لدى الشيعة الاثنى عشرية، مقرر عندهم، ولم يعرض أحد لرده خلاف الدكتور، وقد صحت نسبته إلى جعفر بن الباقر حسب زعم القوم واتصلت روايته، فإن محمد بن الحسن الصفار مثلًا الذي يعد من أصحاب الحسن العسكري - الإمام الحادي عشر المعصوم المزعوم - ومن أساتذة أئمة الحديث الشيعي كالكليني ووالد صدوق الشيعة علي بن الحسين، وغيرهم، ذكر في كتابه (بصائر الدرجات) أربعًا وثلاثين رواية موصولة متصلة، منها واحدة ثلاثون عن جعفر بن محمد، وواحدة منها عن أبيه محمد الباقر، وأخرى عن أبيه ابن الحسين، والثالثة منها عن أبي الحسن.

وكذلك أورد الكليني إمام محدثي الشيعة ثماني روايات في ذكر الجفر، كلها عن جعفر بن محمد، روايات متصلة صحيحة الإسناد حسب قواعد الشيعة وأصول القوم.

ولا أدري على أي أساس قال ما قاله سيادته في ذلك، تبرئة لساحة الشيعة عما يلزمهم من الشناعة والسخرية بسبب عقائدهم الغريبة.

ونود أن نورد هنا روايات كي يعرف القارئ الجفر الشيعي الذي يؤهل أئمة الشيعة أن يساووا الأنبياء والمرسلين، بل وأكثر من ذلك أن يضاهوا علم الله بعلمهم

ومعرفتهم ما سيكون ويحدث إلى يوم القيامة - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون.

فيروي الكليني عن أبي بصير أنه قال:

دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، إني أسألك عن مسألة، ههنا أحد يسمع كلامي؟

قال: فرفع أبو عبد الله سترًا بينه وبين بيت آخر فاطلع فيه، ثم قال:

يا أبا محمد، سل عما بدا لك. قال: قلت: جعلت فداك، إن شيعتك يتحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم عليًا عليه السلام بابًا ينفتح له منه ألف باب؟

قال: فقال: يا أبا محمد، علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا عليه السلام ألف باب يفتح من كل باب ألف باب.

قال: قلت: هذا والله العلم. قال: فنكت ساعة في الأرض ثم قال إنه لعلم وما هو بذاك.. ثم قال:

وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟

قال: قلت: وما الجفر؟

قال: وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل".

وروي أيضًا عن الحسين بن أبي العلاء أنه قال:

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن عندي الجفر الأبيض، قال: فقلت: أي شيء فيه؟

قال: زبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم عليه السلام، والحلال والحرام.. وعندي الجفر الأحمر، قال: قلت: وأي شيء في الجفر الأحمر؟

قال: السلاح، وذلك إنما يفتح للدم يفتحه صاحب السيف للقتل، فقال له عبد الله بن أبي يعفور: أصلحك الله. أيعرف هذا بنو الحسن؟

فقال: إي والله كما يعرفون الليل أنه ليل، والنهار أنه نهار ولكنهم يحملهم الحسد وطلب الدنيا على الجحود والإنكار، ولو طلبوا الحق بالحق لكان خيرًا لهم".

وروى الصفار عن أبي مريم عن محمد الباقر أنه قال في رواية طويلة:

"وعندنا الجفر، وهو أديم عكاظي قد كتب فيه حتى ملئت أكارعه، فيه ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة".

وروي أيضًا عن أبي بصير عن جعفر بن محمد أنه قال في رواية طويلة عنه:

"إن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟ مسك شاة أو جلد بعير؟

قال: قلت: جعلت فداك ما الجفر؟

قال: وعاء أحمر أو أدم، أحمر فيه علم النبيين والوصيين، قلت: هذا والله هو العلم. قال: إنه لعلم وما هو بذاك.. ثم سكت ساعة ثم قال: إن عندنا لعلم ما كان وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة. قال: قلت: جعلت فداك هذا والله هو العلم. قال: إنه لعلم وما هو بذاك، قال: قلت: جعلت فداك: وأي شيء هو العلم؟

قال: ما يحدث بالليل والنهار، الأمر بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة".

فهذا هو الجفر لدى القوم، وما الله بغافل عما يقولون ويعملون.

وأما جعل الدكتور الجفر ومصحف فاطمة شيئًا واحدًا فيدل على عدم علمه بكتب الشيعة ومعرفته بمذهبهم ومعتقدهم حيث أنهم يجعلون الجفر شيئًا آخر مستقلًا ومصحف فاطمة كتابًا آخر لا علاقة بينهما إطلاقًا.

كما أن حضرته نسي في غمرات الحب والدفاع عن معتقدات القوم أن ما يقوله في

صفحة ٧٢ من كتيبه عن الجفر يخالف ما قاله في صفحة ٤٣، حيث يقول في معرض الكلام عن الجفر وعدم نسبته إلى جعفر:

ولو صح سنده لحمل أن ما فيه يتمثل في إلهام إلهي للإمام الصادق، وقد ذكرنا فيما سبق أن الجمهور يقر حقيقة الإلهام للمصطفين الأخيار من الناس، ومن عسى أن يكون أحق بهذا الوصف من الإمام جعفر الصادق وآل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه".

وهو الذي نقل رواية قبل ذلك عن الكليني في كتابه عن جعفر بن محمد:

"مكثت فاطمة بعد النبي خمسة وسبعين يومًا صبت عليها مصائب من الحزن لا يعلمها إلا الله، فأرسل الله إليها جبريل يسليها ويعزيها ويحدثها عن أبيها وما يحدث لذريتها وكان علي يسمع ويكتب حتى جاء به مصحفًا قدر القرآن ثلاث مرات ليس فيه شيء من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون - ثم قال -: ولعل هذا هو الجفر".

فكيف التوافق بين هذا وذاك؟

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

وأما قوله: ومن عسى أن يكون أحق بهذا الوصف (يعني الإلهام) من الإمام جعفر الصادق وآل بيت الرسول: فليس إلا مجازفة ومبالغة ومغالاة، وتخصيص قوم بالفضائل دون قوم آخرين بدون سند ولا دليل من الكتاب والسنة، لأن التقرب إلى الله والاصطفاء لديه لا يكون لحسب ولا نسب، والعز والشرف والمكرمة عنده لا تكون لقوم دون قوم، وقبيلة دون قبيلة، بل مداره طهارة النفس وتقوى القلوب: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}.

فكم من الهاشميين لم ينالوا مرتبة أو منزلة عند الله وعند رسوله الهاشمي صلوات الله وسلامه عليه مثل ما نالها غيرهم من العرب وغير العرب أيضًا، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن عمر بن الخطاب أنه ملهم في أمته، كما ذكره الدكتور وافي، ولم يخبر عن عباس - وهو سيد بني هاشم بعد نبي الله ﷺ، وعمه الحقيقي - وكذلك نال من الكرامة والصحبة أبو بكر رضي الله عنه ما لم ينلها أحد غيره في الكون من أهل البيت وغير أهل البيت.

وغلى ذلك أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما نقل عنه الذهبي:

"ولولا أن الناس وجدوا عنه مالك والشافعي وأحمد أكثر مما وجدوه عند موسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي لما عدلوا عن هؤلاء إلى هؤلاء.. ونفس بني هاشم كانوا يستفيدون من علم مالك بن أنس أكثر مما يستفيدون من ابن عمهم موسى بن جعفر".

(باب الإثنا عشرية ومسألة الإمامة)

إن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية كالنبوة، والإمام عندهم كالنبي غير أنه لا يطلق عليه لفظ النبوة كما صرح بذلك الكليني في كافيه، حيث روى عن محمد بن مسلم أنه قال:

وسمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: الأئمة بمنزلة رسول الله ﷺ، إلا أنهم ليسوا بأنبياء، ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي ﷺ، فأما ما خلا ذلك فهم بمنزلة رسول الله ﷺ".

وروي أيضًا عن جعفر أنه قال:

"نحن خزان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قوم معصومون، أمر الله تبارك

وتعالى بطاعتنا، ونهى عن عصيتنا، نحن الحجة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض".

وأورد رواية أخرى عن مفضل بن عمر عن جعفر أنه سئل عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخي عليه ستره، فقال:

"يا مفضل، إن الله تبارك وتعالى جعل في النبي ﷺ خمسة أرواح، روح الحياة فيه دب ودرج، وروح القوة فيه نهض وجاهد، وروح الشهوة فيه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فيه آمن وعدل، وروح القدس فيه حمل النبوة، فإذا قبض النبي ﷺ انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل، ولا يلهو ولا يزهو، وأربعة الأرواح تنام وتغفل، وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به".

وكما روى الكليني هذا أيضًا عن جعفر أنه سأله رجل من أهل هيت عن قول الله ﷻ: {وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا}، فقال: منذ أنزل الله ﷻ ذلك الروح على محمد ﷺ ما صعد إلى السماء وإنه لفينا، وفي رواية: كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدده - وهو مع الأئمة من بعده - وهو من الملكوت".

وهناك روايات أخرى صريحة أكثر من ذلك قد ذكرنا بعضًا منها فيما سبق، ونكتفي ههنا بذكر روايتين من الصفار عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال:

"إن جبريل أتى رسول الله ﷺ برمانتين فأكل رسول الله ﷺ إحداهما وكسر الأخرى نصفين، فأكل نصفها وأطعم رسول الله عليًا نصفها، ثم قال رسول الله ﷺ:

يا أخي: هل تدري ما هاتان الرمانتان؟

قال: لا.

قال: أما الأولى فالنبوة، ليس لك فيها شيء، وأما الأخرى فالعلم، أنت شريكي

فيه، فقلت: أصلحك الله كيف يكون شريكه فيه؟

قال: لا يعلم الله محمدًا علمًا إلا وأمره أن يعلم عليًا".

وروي أيضًا عن علي بن الحسين:

"إن محمدًا ﷺ كان أمين الله في أرضه، فلما قبض محمد ﷺ كنا أهل البيت ورثته، ونحن أمناء الله في أرضه، عندنا عل البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق، وأن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا، ويدخلون مدخلنا، نحن النجباء، وأفراطنا أفراط الأنبياء، ونحن أبناء الأوصياء، ونحن المخصصون في كتاب الله، ونحن أولى الناس بالله، ونحن أولى الناس بكتاب الله، ونحن أولى الناس بدين الله، ونحن الذين شرع لنا دينه، فقال في كتابه: شرع لكم يا آل محمد من الدين ما وصى به نوحًا، وقد وصانا بما أوصى به نوحًا، والذي أوحينا إليك يا محمد وما وصينا به إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى وإسحاق ويعقوب، فقد علمنا وبلغنا ما علمنا، واستودعنا علمهم، نحن ورثة الأنبياء، ونحن ورثة أولي العزم من الرسل: أن أقيموا الدين يا آل محمد ولا تفرقوا فيه وكونوا على جماعة كبر على المشركين من أشرك بولاية على ما تدعوهم إليه من ولاية علي إن الله يا محمد يهدي إليه من ينيب من يجيبك إلى ولاية علي عليه السلام".

فهذه هي الإمامة عند الشيعة وهذا هو الإمام، ولا بأس أن نورد ههنا روايتين أخريين أوردهما صدوق الشيعة - وهو كذوب - ابن بابويه القمي، وهو واحد من أصحاب الصحاح الأربعة أنه روى عن جعفر بن محمد الباقر عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين أنه قال: "نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان لأهل

الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وتنشر الرحمة، وتخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها، ثم قال:

"ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله فيها ظاهر مشهور، أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقم الساعة من حجة الله فيها، ولولا ذلك لما يعبد الله، قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام:

فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟

قال: كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب".

وروي أيضًا عن محمد الباقر أنه قال:

"نحن جنب الله، ونحن صفوته، ونحون حوزته، ونحن مستودع مواريث الأنبياء، ونحن أمناء الله عز وجل، ونحن حجج الله، ونحن أركان الإيمان، ونحن دعائم الإسلام، ونحن من رحمة الله على خلقه، ونحن من بنا يفتح وبنا يختم، ونحن أئمة الهدى، ونحن مصابيه الدجى، ونحن منار الهدى، ونحن السابقون، ونحن الآخرون، ونحن العلم المرفوع للخق، من تمسك بنا لحق، ومن تأخر عنا غرق، ونحن قادة الغر المحجلين، ونحن خيرة الله، ونحن الطريق الواضح والصراط المستقيم إلى الله عز وجل، ونحن من نعمة الله عز وجل على خلقه، ونحن المنهاج، ونحن معدن النبوة، ونحن موضع الرسالة، ونحن الذين إلينا تختلف الملائكة، ونحن السراج لمن استضاء بنا، ونحن السبيل لمن اقتدى بنا، ونحن الهداة إلى الجنة، ونحن عرى الإسلام، ونحن الجسور والقناطر، من مضى عليها لم يسبق، ومن تخلف عنها محق، ونحن السنام العظام، ونحن الذين بنا ينزل الله عز وجل الرحمة، وبنا يسقون الغيث، ونحن الذين بنا يصر عنكم العذاب، فمن عرفنا وأبصرنا وعرف حقنا وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا".

وعلى ذلك قالوا: "يجب على الله نصب الإمام كنصب النبي".

وليس للخلائق خيار في اختيار الإمام وتعيينه، والله نصب للعالم أجمع اثنى عشر إمامًا، أولهم علي وآخرهم معدومهم الذي يزعمونه ابنًا للحسن العسكري الذي لم يولد قط.

ومن الغرائب أن واحدًا من هؤلاء الاثنى عشر لم يملك زمام الحكم أبدًا غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي جعل الإمام باختيار من الناس بعد خلفاء رسول الله الثلاثة الذين سبقوه على منصب الإمامة والزعامة بعد رسول الله ﷺ، والذين استشهد علي رضي الله عنه على صحة خلافته بصحة خلافتهم حيث قال كما ورد في أقدس كتاب شيعي (نهج البلاغة) - عكس ما يقوله القوم ورغم أنوفهم:

"إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إمامًا كان ذلك لله رضى، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى".

وحاصل الكلام: "أننا لا نفهم الإمامة الشيعية التي يجعلونها واجبة، والتي يقولون فيها: إن على الله أن ينصب من يشغلها ويجوز بها لردع الظالم عن ظلمه وحمل الناس على الخير وردعهم عن الشر".

و: لحفظ الشريعة من الضياع ورفع الفساد وإقامة الحدود ونشر الأحكام والانتصاف للمظلوم من الظالم".

و: إن الناس متى كان لهم رئيس منبسط اليد، قاهر، عادل، يردع المعاندين، ويقمع المتغلبين، وينتصف للمظلومين من الظالمين، اتسقت الأمور، وسكنت

الفتن، ودرت المعايش، وكان الناس مع وجوده إلى الصلاح أقرب. ومتى خلوا من رئس صفته ما ذكرناه تكدرت معايشهم وتغلب القوي على الضعيف، وانهمكوا في المعاصي، ووقع الهرج والمرج، وكانوا إلى الفساد أقرب، ومن الصلاح أبعد".

لأن أئمتهم الاثنى عشر بما فيهم علي رضي الله تعالى عنه - حسب مقولتهم - لم يستطيعوا ردع الظالم عن ظلمه إياهم، ولم يتمكنوا بإقامة الحدود ولا رفع الفساد، ولا الانتصاف لأنفسهم من الظالم.. فضلًا عن غيرهم من المظلومين، وبذلك رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر كلام الحلي: إنه نصب أولياء معصومين لئلا يخلي الله العالم من لطفه، فقال:

هم يقولون: إن الأئمة المعصومين مقهورون مظلومون عاجزون، ليس لهم سلطان ولا قدرة حتى إنهم يقولون ذلك في علي ﵁ منذ مات النبي ﷺ إلى أن استخلف، وفي الاثنى عشر، ويقرون أن الله ما مكنهم ولا ملكهم، وقد قال الله تعالى: {.. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيمًا}، فإن قيل: المراد بنصبهم أنه أوجب عليهم طاعتهم فإذا أطاعوهم هدوهم، ولكن الخلق عصوهم، فيقال: لم يحصل - بمجرد ذلك - في العالم، لا لطف ولا رحمة، بل إنما حصل تكذيب الناس لهم ومعصيتهم إياهم. و (المنتظر) ما انتفع به من أقر به ولا من جحده، وأما سائر الاثنى عشر - سوى علي ﵁ فكانت المنفعة بأحدهم كالمنفعة بأمثاله من أئمة الدين والعلم، وأما المنفعة المطلوبة من أولي الأمر فلم تحصل بهم، فتبين أن ما ذكره من (اللطف) تلبيس وكذب".

وقد ذكرنا عجزهم، وما حل بهم من قهر وظلم، وغلبة الغير عليهم من كتب القوم أنفسهم في كتابنا (الشيعة وأهل البيت) وكتابنا (الشيعة والتشيع)، وأكثر من ذلك أثبتنا أن المنفعة الدينية أيضًا لم تكن تحصل منهم للخلق حيث أنهم كانوا

يخافون الحكام ويهابون المخالفين، ولم يكونوا يستطيعون أن يظهروا ما في قلوبهم حسب علمهم وإيمانهم، وقد أوردنا في ذلك روايات كثيرة، منها ما ذكرناها عن الكليني أنه روى عن زرارة بن أعين أنه قال:

سألت أبا جعفر عليه السلام عن مسألة فأجابني، ثم جاء رجل فسأله عنها فأجابه بخلاف ما أجابني، ثم جاء رجل فسأله فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، فلما خرج الرجلان قلت: يا ابن رسول الله، رجلان من أهل العراق من شيعتكم قدما يسألان فأجبت كل واحد منهما بغير ما أجبت به صاحبه؟.

فقال: يا زرارة، إن هذا خير لنا وأبقى لكم، ولو اجتمعتم على أمر واحد لصدقكم الناس علينا ولكان أقل لبقائنا وبقائكم.

قال: ثم قلت لأبي عبد الله عليه السلام: شيعتكم لو حملتموهم على الأسنة أو على النار لمضوا وهم يخرجون من عندكم مختلفين؟ قال: فأجابني بمثل جواب أبيه".

وكما أوردنا رواية في مبحث التقية عن جعفر أنه قال لأحد متبعيه:

"يا سليمان، إنكم على دين من كتمه أعزه الله، ومن أذاعه أذله الله".

وهناك روايات في هذا المعنى أكثر من أن تعد وتحصى.

وحاصل الكلام: أن هذه هي الإمامة الشيعية التي يوجبونها على الله ولم تحصل لأحد، ولم تثبت ولم تتحقق.. وقد بحثناها مفصلًا في كتابنا (الشيعة والتشيع).

وهؤلاء هم أئمتهم: علي وأولاده الأحد عشر بما فيهم المعدوم، ويعدون غيرهم وكل من تولى الخلافة والإمامة في زمنهم خلفاء غاصبين مغتصبين بما فيهم أبو بكر وعمر وعثمان الخلفاء الراشدون الثلاثة رضي الله عنهم أجمعين، ويوجبون البراءة منهم، والولاء لأئمتهم، ويجعلون ولايتهم أصلًا من أصول الإسلام وأساسًا من أسسه ودعائمه، لا يؤمن من لا يعتقد بها، ولا يكفر من يؤمن بها. والروايات والتصريحات

في هذا لكثيرة جدًا، فالخلاف بيننا وبينهم في هذه المسألة خلاف جوهري وأصولي وعقائدي، لا كما زعمه السيد الدكتور وصرح به حيث يقول:

"إن خلافهم معنا في هذا الصدد خلاف نظري وأقرب أن يكون اختلافًا في حقائق التاريخ ولا يؤثر في إيمانهم شيئًا".

وعلى ذلك يكفر الشيعة كل من ينكر إمامة أئمتهم المزعومين، كما أن منكر النبوة كافر بالاتفاق، لأن الإمامة لا تختلف مع النبوة في أصلها، وجوهرها كما بيناه مقدمًا، وكما صرح بذلك أساطين الشيعة وصناديدها الذين نحن بصدد ذكرهم الآن، وكما دلت عليه روايات كثيرة عن أئمتهم المعصومين – حسب زعمهم – وسيأتي ذكرها إن شاء الله، لا كما زعمه سيادة الدكتور حيث قال:

إنهم لم يحكموا بالكفر على من لا يعتقد بالإمامة على النحو الذي ذكروه ولو أنهم حكموا بذلك لكان لنا معهم موقف آخر إذ يكون معنى حكمهم هذا تكفير جميع أهل السنة.

يا لتساهل الدكتور، وفي هذا العمر!!! ويا لتحمسه لأهل السنة المساكين!!!

ولقد ذكرني قوله هذا ببيت شعر أورد ما معناه: لم يكن يسعنا إلا أن نموت من شدة الفرح والسرور لو كنا نعرف صدق وعده ووفائه.

واأسفاه على عدم معرفة السيد الدكتور عقائد القوم وعدم علمه بالحقائق الثابتة الموجودة المسطورة في جميع كتبهم من التفسير والحديث والعقائد والكلام والتاريخ، وأنها كلها مليئة بتكفير أهل السنة قاطبة وتسميتهم النواصب. اللهم إلا بعض الكتب الدعائية التي لم تكتب لبيان المعتقدات وتعليمها وتفهيمها الشيعة، بل لمغالطة أهل السنة وخداعهم والتلبيس عليهم وتزوير الحقائق أمامهم، وإن لم يكن كذلك فلأي شيء حصل الافتراق والاختلاف؟.

وإن القوم الذين حكموا على أصحاب رسول الله ﷺ بالردة، خيار خلق الله بعد الأنبياء والمرسلين، وصفوتهم، لم يحكموا عليهم بهذا الحكم القدسي الجاني إلا لعدم مبايعتهم عليًا رضي الله عنه حسب زعمهم - ومبايعتهم أبا بكر الصديق، وبعده عمر الفاروق، وبعده عثمان ذا النورين رضي الله عنهم أجعين، وتركهم مناصرة علي وخذلانهم إياه كما يذكرون!!

فهذا هو الكليني وغيره يروون عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال:

"كان الناس أهل ردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة: المقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري.. وقال:

هؤلاء الذين دارت عليهم الرحى وأوا أن يبايعوا".

وروى الكليني أيضًا عنه أنه قال:

أصبح رسول الله ﷺ يومًا كئيبًا حزينًا، فقال له علي عليه السلام: ما لي أراك يا رسول الله كئيبًا حزينًا؟.

قال: وكيف لا أكون كذلك وقد رأيت في ليلتي هذه أن بني تيم (أي أبا بكر وقومه)، وبني عدي (أي عمر وقبيلته)، وبني أمية (أي عثمان وعشيرته) يصعدون منبري هذا يردون الناس عن الإسلام القهقرى:

فقلت (يعي الرسول): يا رب، في حياتي أو بعد موتي؟

فقال: بعد موتك".

وبلغوا في اللؤم حيث كذبوا على محمد الباقر أنه قال:

ما كان ولد يعقوب أنبياء ولكنهم كانوا أسباط أولاد الأنبياء، ولم يكن يفارقون الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا.

وإن الشيخين (يعني أبا بكر وعمر) فارقا الدنيا ولم يتوبا، ولم يتذكرا ما صنعا

بأمير المؤمنين عليه السلام، فعليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".

فمن كان هذا شأنهم مع أولئك الأخيار الأبرار فماذا سيكون موقفهم في أخلافهم، ومن يسلكون مسلكهم، وينهجون منهجهم، ويتبعونهم بإحسان؟.

فإن القوم لا يكتمون حقدهم وبغضهم وعقيدتهم في أولئك، فيقولون بكل صراحة ووقاحة:

"اتفقت الإمامية على كفر من أنكر إمامة أحد من الأئمة، وجحد ما أوجب الله تعالى له من فرض إطاعته فهو كافر ضال مستحق الخلود في النار" - قاله المفيد محمد بن النعمان العكبري.

وقال أيضًا:

"اتفقت الإمامية على أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم في بني هاشم خاصة، ثم في علي والحسن والحسين، ومن بعده في ولد الحسين عليه السلام دون ولد الحسن إلى آخر العالم.. واتفقت الإمامية على أن رسول الله استخلف أمير المؤمنين عليه السلام في حياته، ونص عليه بالإمامة بعد وفاته، وإن من دفع ذلك عنه دفع فرضًا من الدين".

وقال ابن بابويه القمي: "اعتقادنا فيم جحد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من بعده عليهم السلام أنه بمنزلة من جحد نبوة الأنبياء عليهم السلام، وفيمن أقر بأمير المؤمنين وأنكر واحدًا من بعده من الأئمة عليهم السلام أنه بمنزلة من آمن بجميع الأنبياء وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم".

وقال أيضًا: "يجب أن يعتقد أنه لا يتم الإيمان إلا بموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، وإن أعداء الأئمة كفار مخلدون في النار وإن أظهروا الإسلام، فمن عرف الله ورسوله والأئمة وتولاهم وتبرأ من أعدائهم فهو مؤمن، ومن أنكرهم أو شك فيهم أو في أحدهم أو تولى أعداءهم فهو ضال هالك، بل كافر، ولا ينفعه عمل ولا تقبل له

طاعة".

هذا وقال السد المرتضى الملقب بعمل الهدى: "إن المعرفة بهم (يعني الأئمة) كالمعرفة به تعالى فإنها إيمان وإسلام، وإن الجهل والشك فيهم كالجهل والشك فيه فإنه كفر وخروج من الإيمان، وهذه المنزلة ليست لأحد من البشر إلا لنبينا ﷺ والأئمة من بعده، على أولاده الطاهرين.. والذي يدل على أن معرفة إمامة من ذكرناه من الأئمة عليهم السلام من جملة الإيمان، وأن الإخلال بها كفر ورجوع عن الإيمان بإجماع الإمامية".

وقال الطوسي الملقب بشيخ الطائفة: دفع الإمامة كفر، كما أن دفع النبوة كفر، لأن الجهل بهما على حد واحد، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال:

"من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وميتة الجاهلية لا تكون إلا على كفر".

وقال أيضًا: "إن المخالف لأهل الحق كافر، فيجب أن يكون حكمه حكم الكفار".

وقال الهاشم البحراني: "إن الإقرار بنبوة النبي وإمامة الأئمة والتزام حبهم وإطاعتهم وبغض أعدائهم ومخالفيهم أصل الإيمان مع توحيد الله ﷻ بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل إنها سبب إيجاد العالم، وبناء حكم التكليف، وشرط قبول الأعمال، والخروج عن حد الكفر والشرك، وإنها التي عرضت كالتوحيد على جميع الخلق، وأخذ عليها الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت في الكتب، وكلف بها جميع الأمم ولو ضمنًا، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد في تلازم الإقرار بها وبقرينها بحيث أن الكفر بأحدها في حكم الكفر بالآخر، ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، وإن الأئمة مثل النبي في فرض الطاعة والأفضلية.. وإن الأحاديث

غير المحصورة تدل على هذه الأمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مجمع عليه عند علمائنا الإماميين.

وقد نص على حقيقته، بل كون جلها من ضروريات هذا المذهب أعاظم أصحابنا المحدثين".

وأما السيد حسين الملقب ببحر العلوم فقد أوضح أكثر مما قال به الآخرون حيث رجّح الإمامة على النبوة فقال: "إن منطلق الإمامة هو منطلق النبوة بالذات، والهدف الذي من أجله وجبت النبوة هو نفسه الهدف الذي من أجله تجب الإمامة، وكما أن النبوة لطف من الله تعالى كذلك الإمامة لطف من الله أيضًا، واللحظة الحاسمة التي انبثقت فيها النبوة - وهي يوم الدار - هي نفسها اللحظة التي انبثقت فيها الإمامة، فما انطلق لسان النبي الأعظم ﷺ بالتشريع النبوي المقدس إلا وضم إليه المحافظة والوزارة والخلافة لعلي عليه السلام بقوله: "أنت وزيري وخليفتي". وهكذا استمرت الدعوة الإسلامية ذات لسانين: النبوة والإمامة في خط واحد، وامتازت الإمامة على النبوة: أنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة - ولن تزال - ببركة وجود صاحب الأمر عجل الله فرجه.

فالإمامة إذن قرين النبوة بالتشريع، وامتداد لها بالمحافظة والرعاية، وبهذا المعنى نفسر كلام الإمام الكاظم عليه السلام كما في أصول الكافي - أن النبوة لطف خاص، والإمامة لطف عام".

وقال محدث الشيعة الكبير الحر العاملي:

"إن من ادعى الإمامة بغير حق، أو أنكر إمامة إمام الحق كفر".

أو بعد هذا كله مجال للشك بأن الشيعة لا يكفرون جميع أهل السنة؟

ثم.. ويجب أن يعلم بأن عقيدتهم هذه ليست إلا مبنية على تعاليم أئمتهم

المعصومين - حسب زعمهم - وأقوالهم وتصريحاتهم.

وعلى ذلك نختم هذا الباب ونسأل الله الهداية والتوفيق.

(باب حقيقة المهدي المنتظر عند الشيعة)

عقيدة أهل السنة في المهدي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالمهدي الذي أخبر به النبي ﷺ اسمه محمد بن عبد الله لا محمد بن الحسن، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: "هو من ولد الحسن بن على لا من ولد الحسين بن علي"[1].

وأحاديث المهدي معروفة وهذه الأحاديث منها ما جاء فيه النص على المهدي، ومنها ما جاء فيه ذكر صفته فقط، وأحاديث المهدي متواترة، قال أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم السحري في كتاب مناقب الشافعي قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بمجيء المهدي وأنه من أهل بيتي وإنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلا وإنه يخرج مع عيسى؟ فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وإنه يؤم هذه الأمة وعيسى يصلي خلفه في طول من قصته وأمره.

وقال الشوكاني في رسالته المسماة بالتوضيح في تواتر ما جاء في الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح فتقرر بجميع ما سقناه أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة والأحاديث الواردة في الدجال متواترة.

وقال صديق حسن القنوجي في كتابه الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة: "والاحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا، تبلغ حد التواتر

---

(١) رواه أبو داود في "سننه" رقم (٤٢٩٠)، بسند ضعيف.

المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الاسلام من المعاجم والمسانيد"

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٥٢٩): فهؤلاء خمسة من كبار أئمة الحديث قد صححوا أحاديث خروج المهدي، ومعهم أضعافهم من المتقدمين والمتأخرين أذكر أسماء من تيسر لي منهم: ثم ذكر الشيخ أسمائهم.

وقال ابن القيم: "وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

أحدها: أنه المسيح ابن مريم.

القول الثاني: أنه المهدي الذي ولي من بني العباس، وقد انتهى زمانه.

القول الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي ﷺ من ولد الحسن بن علي يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا فيملأها قسطًا وعدلًا، وأكثر الأحاديث على هذا تدل.

وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف، وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئا أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه، فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها، والله أعلم.

وأما الرافضة الإمامية فلهم قول رابع وهو: أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار الذي يورث العصا، ويختم الفضا دخل سرداب سامراء طفلًا صغيرًا من أكثر من خمس مئة سنة؛ فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر، ولا أثر وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخيل على باب السرداب، ويصيحون به أن يخرج إليهم أخرج يا مولانا.. ثم يرجعون بالخيبة والحرمان فهذا دأبهم ودأبه. ولقد أحسن

من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... كلمتموه بجهلكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم وضحكة يسخر منها كل عاقل(١).

*** مهدي الشيعة خرافة:**

يعتقد الروافض أن إمامهم الحسن العسكري المتوفى سنة (٢٦٠هـ) لم يمت عقيمًا كما يقول التاريخ(٢)؛ بل له ولد، اختفى إثر ولادته... ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا وهم ينتظرون ظهوره، أي منذ أكثر من أحد عشر قرنًا.

وهذه العقيدة لا تزال موجودة في أذهان الروافض إلى اليوم رغم تقدم العلم، وتطور وسائل المعرفة حتى أن آيتهم محمد باقر الصدر يقول: "كل ما في الأمر أنه عليه السلام يعيش بشخصية ثانوية متكونة من اسم مستعار، وعمل معين، وأسلوب في الحياة غير ملفت للنظر، ولا يمت إلى الإمامة والقيادة بصلة "(٣). أي: أنه يعيش بين الناس باسم مزور، وهو عندهم

(١) "المنار المنيف" (ص١٤٣).

(٢) ممّن رفض فكرة المهدي العسكري الشيعي عندهم من المعاصرين أحمد الكاتب في كتابه المهم "تطور الفكر السياسي الشيعي" وهو لازم لكل من أراد التوسع في الموضوع من روايات الشيعة؛ أن الحسن العسكري مات ولم يعقّب وأنّ المهدي لم يولد قطّ وأنّ اعتقاد الشيعة بوجود هذا الإمام مبناه على التّجويز العقلي فقط، ولا حجّة لهم في أي مستند خبري في ذلك. وقوله هذا هو قول الكثير من قدماء الشيعة الأوائل، حيث أنكر بعض معاصري الحسن العسكري أن يكون قد عقّب ولدًا، بل إن أخا الحسن العسكري واسمه جعفر من هؤلاء الشّهود النّافين، وجمع شهادات لجيرانه أنه مات ولم يعقّب، وقد سمّى الشيعة جعفرًا هذا بجعفر الكاذب، تمييزًا له عن جعفر الصّادق.

(٣) "تاريخ ما بعد ظهور" (ص٢٧٢).

الحاكم على المسلمين، وكل من تولى على العالم الإسلامي من خلفاء على امتداد التاريخ فهم طواغيت، ومن تابعهم من المسلمين فهو في عداد المشركين.

وهذه العقيدة منذ سنة (٢٦٠هـ) إلى اليوم هي أساس مذهب الروافض، ويهتم بها آيات الرافضة ومراجعها حتى يعدون منكرها أكفر من إبليس[١]. إذ بها يستمدون القداسة بين شيعتهم، وبواسطتها يأخذون الأموال من اتباعهم باسم خمس "الغائب"، وعن طريقها يدعون الصلة بأهل البيت، وقد اضطروا للقول بهذه العقيدة البعيدة عن العقول، لأنهم قد حصروا الإمامة بأولاد الحسين وبأشخاص معينين منهم على اختلاف بينهم في تحديد الإمامة.

ولكنهم فوجئوا في سنة (٢٦٠هـ)، بوفاة الحسن العسكري - وهو الإمام الحادي عشر عندهم - عقيمًا فافترقوا في هذا وتحيروا حتى بلغت فرق شيعة الحسن العسكري أربع عشرة فرقة كما يقول النوبختي، أو خمس عشرة فرقة، كما يقول القمي، وهما من الرافضة ومن عايش تلك الأحداث، إذ هما من شيوخهم في القرن الثالث.

وساد الشك أوساط الشيعة وغلبت عليهم الحيرة، ذلك أنهم قد قالوا لأتباعهم: إن الإمامة هي أصل الدين وأساسه، حتى جاء في نصوص "الكافي" - أصح كتاب عندهم في الحديث والرواية - "أنها أعظم أركان الإسلام"[٢] "وأنها أهم من النبوة"[٣].. "وأن

---

(١) انظر: ابن بابوية "إكمال الدين" (ص١٣).

(٢) انظر: "أصول الكافي" (٢/ ١٨).

(٣) انظر: "أصول الكافي" (١/ ١٧٥). وبهذا المعنى قال شيخهم نعمة الله الجزائري: "والإمامة العامة التي هي فوق درجة النبوة والرسالة"، "زهر الربيع" (ص١٢). وقال هادي الطهراني أحد مراجعهم وآياتهم في هذا العصر: "الإمامة أجل من النبوة"، "ودائع النبوة" (ص١١٤).

الأرض لا تخلو من إمام لحظة واحدة، ولو بقيت الأرض بغير إمام لساخت". "ولو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها، كما يموج البحر بأهله"(١)؛ بل قالوا: "إن القرآن لا يكون حجة إلا بقيّم"(٢)، وهو الإمام. "والإجماع لا حجة فيه، وإنما الحجة في قول الإمام"(٣)، "والوحي لم يتوقف بوفاة الرسول ﷺ كما أجمع المسلمون؛ بل استمر؛ لأن قول الإمام - بزعمهم - كقول الله، حتى قال شيخهم المازندراني: "يجوز لمن روى حديثًا عن الإمام أن يقول فيه قال الله"(٤).

وكل هذه الدعاوي؛ وغيرها كثير تشتمل عليها عقيدتهم في الأئمة؛ ثم فجأة يسقط هذا الأساس، وتتهاوى معه مزاعم الرافضة، وينكشف الأمر أمام الأتباع، وتتضح الحقيقة لكل ذي عينين بوفاة الإمام بلا عقب، حتى قالت كتب الفرق عندهم بأنه مات: "ولم ير له خلف، ولم يعرف له ولد ظاهر، فاقتسم ما ظهر من ميراثه أخوه جعفر وأمه"(٥). فبدأت التنظيمات السرية تعمل لتفادي هذا الخطر المحدق قبل أن ينفرط سلك الأتباع، ويموت المذهب.

وتحكي كتب الفرق عندهم تباين اتجاهاتهم في الخروج من هذا المأزق فمنهم من قال: "إن الحسن بن علي حي لم يمت، وإنما غاب وهو القائم، ولا يجوز أن يموت ولا ولد له ظاهر لأن الأرض لا تخلو من إمام"(٦).

---

(١) الموضع نفسه من المصدر السابق.

(٢) "أصول الكافي" (١/ ١٨٨)، وانظر: "رجال الكشي" (ص٤٢٠)، و"علل الشرائع" (ص١٩٢)، و"المحاسن" (ص٢٦٨)، و"وسائل الشيعة" (١٨/ ١٤١).

(٣) انظر: "تهذيب الوصول إلى علم الأصول" لابن المطهر (ص٧٠).

(٤) "شرح جامع على الكافي" للمازندراني (٢/ ٢٧٢).

(٥) "المقالات والفرق" (ص١٠٢)، و"فرق الشيعة" (ص٩٦).

(٦) "المقالات والفرق" (ص١٠٦)، و"فرق الشيعة" (ص٩٦).

وذهبت فرقة أخرى إلى الاعتراف بموته، ولكنها قالت: "بأنه حي بعد موته وهو غائب الآن وسيظهر"(١). بينما فرق أخرى حاولت أن تنقل الإمامة من الحسن إلى أخيه جعفر، وأخرى أبطلت إمامة الحسن بموته عقيمًا(٢). وطائفة أخرى- وهم المسمون بالشيعة اليوم - زعموا بأن للحسن العسكري ولدًا: "وكان قد أخفى - أي الحسن - مولده، وستر أمره، لصعوبة الوقت، وشدة طلب السلطان له... فلم يظهر ولده في حياته، ولا عرفه الجمهور بعد وفاته"(٣). وهذا الولد المزعوم والذي يقول التاريخ بأنه لا حقيقة له، هو الذي يزعم آيات الشيعة أنهم نوابه.

* **عقيدتهم في منكر المهدي**.

يقول محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق:

"واعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده عليهم السلام؛أنه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء، واعتقادنا فيمن أقر بأمير المؤمنين وأنكر واحدًا من بعده من الأئمة أنه بمنزلة من أقر بجميع الأنبياء وأنكر نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله"(٤).

وينقل حديثا منسوبا إلى الإمام الصادق أنه قال: "المنكر لآخرنا كالمنكر لأولنا".

ونسب أيضًا إلى النبي ﷺ أنه قال: "الأئمة من بعدي اثنا عشر أولهم أمير المؤمنين علي بن أبى طالب وآخرهم القائم طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي من أنكر واحدًا منهم فقد أنكرني".

---

(١) "المقالات والفرق" (ص١٠٧)، و"فرق الشيعة" (ص٩٧).
(٢) "المقالات والفرق" (ص١٠٩)، "فرق الشيعة" (ص١٠٠-١٠١).
(٣) "الإرشاد" للمفيد (ص٣٨٩).
(٤) "رسالة الاعتقادات" للصدوق (ص١٠٣).

* **لا جهاد عند الشيعة إلا بحضور المهدي.**

من الحقائق التي لا يعرفها كثير من الناس وهي أن الجهاد في المذهب الشيعي محرَّم إلى خروج إمامهم الثاني عشر.

روى الكليني في "الكافي" (٨/ ٢٩٥) عن أبي عبد الله قال: "كل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله ﷻ".

وذكر هذه الرواية شيخهم الحر العاملي في "وسائل الشيعة" (١١/ ٣٧).

وروى الطبرسي في "مستدرك الوسائل" (٢/ ٢٤٨) عن أبي جعفر قال: "مثل من خرج منا أهل البيت قبل قيام القائم مثل فرخ طار ووقع من وكره فتلاعبت به الصبيان".

وروى الحر العاملي في "وسائل الشيعة" (١١/ ٣٦) عن أبى عبد الله قال: "يا سدير، إلزم بيتك وكن حلسًا من أحلاسه واسكن ما سكن الليل والنهار فإذا بلغك أن السفياني قد خرج فارحل إلينا ولو على رجلك".

وفي "الصحيفة السجادية الكاملة" (ص١٦) عن أبي عبد الله قال: "ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلمًا أو ينعش حقًا إلا اصطلته البلية وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا". وفي "مستدرك الوسائل" (٢/ ٢٤٨) عن أبي جعفر قال: "كل راية ترفع قبل راية القائم فصاحبها طاغوت".

وقد قرر مرجعهم وآيتهم الخميني أن البدأة بالجهاد لا تكون إلا لقائمهم، إذ يقول في "تحرير الوسيلة" (١/ ٤٨٢): "في عصر غيبة ولي الأمر وسلطان العصر – عجل الله فرجه – الشريف يقوم نوابه العامة وهم الفقهاء الجامعون لشرائط الفتوى والقضاء مقامه في إجراء السياسات وسائر ما للإمام إلا البدأة بالجهاد".

* **صفة خروج المهدي في آخر الزمان عند الشيعة.**

يخرج عن يمينه جبريل وعن شماله ميكائيل:

روىَ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: "كأني بالقائم على نجف الكوفة قد سار إليها من مكة في خمسة آلاف من الملائكة، جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، والمؤمنون بين يديه، وهو يفرّق الجنود في الأمصار"(١).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: "إذا أذن الله تعالى للقائم بالخروج صعد المنبر فدعا الناس إلى نفسه.. فيقول جبرائيل: أنا أول من يبايعك ابسط كفّك، فيمسح على يده وقد وافاه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، فيبايعونه، ويقيم بمكة حتّى يتم أصحابه عشرة آلاف نفس، ثمّ يسير إلى المدينة"(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: "إذا قام القائم نزلت ملائكة بدر: ثلث على خيول شهب، وثلث على خيول بلق، وثلث على خيول حُوّ. قلت يا ابن رسول الله، وما الحُوّ ؟ قال: الحمر"(٣).

* **المهدي يظهر عريانًا:**

روى الشيخ الطوسي والنعماني عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

"إنّ من علامات ظهور المهدي أنه سيظهر عاريًا أمام قرص الشمس"(٤).

* **عندما يخرج المهدي ينادي الله باسمه العبراني:**

جاء في كتاب الغيبة للنعماني (١٦٩): إذا أذن الإمام دعا الله باسمه العبراني

---

(١) "إرشاد المفيد" (٢/ ٣٧٩)، و"روضة الواعظين" (ص٢٦٤)، و"إعلام الورى بأعلام الهدى" لأبي علي الطبرسي (ص٥٠٥).

(٢) "إعلام الورى بأعلام الهدى" لأبي علي الطبرسي (ص٥٠٦).

(٣) "غيبة النعماني" (٤٤/ ٢٤٤)، و"إعلام الورى بأعلام الهدى" لأبي علي الطبرسي (ص٥٠٦).

(٤) "حق اليقين" لمحمد الباقر المجلسي (ص٣٤٧).

فأتيحت له صحابته الثلاثمائة والثلاثة عشر.

*** عندما يخرج المهدي يجتمع إليه الشيعة من كل مكان:**

جاء في بحار الأنوار (٥٢/ ٢٩١) عن أحد موالي أبي الحسن عليه السلام قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قوله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٤٨]، قال: ذلك والله أن لو قام قائمنا يجمع الله إليه شيعتنا من جميع البلدان.

وهذا الاجتماع لا يقتصر على الأحياء فقط بل حتى الأموات يحيون ويخرجون من قبورهم ملبين نداء القائم المنتظر.

روى الحر العاملي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل: كم يملك القائم (عج)؟ قال: "سبع سنين بطول الأيام والليالي حتى تكون السنة من شيعته مقدار عشر من سنينكم هذه وإذا آن قيامه مطر الناس جمادي الآخرة وعشر أيام من رجب مطرًا لم ير الخلائق مثله فينبت الله به لحوم المؤمنين وأبدانهم من قبورهم فكأني أنظر إليهم مقبلين من قبل جهينة ينفضون شعورهم من التراب"(١).

*** مهدي الشيعة يستفتح المدن بتابوت اليهود:**

جاء في كتاب الرجعة للإحسائي (ص١٥٦):

"ويخرج الله التابوت الذي أمر به أرميا أن يرميه في بحيرة طبريا بقية مما ترك آل موسى وآل هارون ورضاضة اللوح وعصا موسى وقبا هارون وعشرة أصواع من المن وشرايح السلوى التي ادخرها بنو إسرائيل لمن بعدهم فيستفتح بالتابوت المدن كما استفتح به من كان قبله".

*** مهدي الشيعة تنبع له عينان من ماء ولبن:**

جاء في كتب الشيعة أنه عندما يخرج المهدي ستنبع له في الكوفة عينان من ماء

---

(١) "الإيقاظ من الهجعة" (ص٢٤٩).

ولبن وأنه يحمل معه حجر موسى الذي انبجست منه اثنتا عشرة عينا فكلما أراد الطعام أو الشراب نصبه.

روى المجلسي عن أبي سعيد الخرساني عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: "إذا قام القائم بمكة وأراد التوجه إلى الكوفة نادى مناديه: ألا لا يحمل أحد منكم طعامًا ولا شرابًا ويحمل حجر موسى الذي انبجست منه اثنتا عشرة عينًا فلا ينزل منزلا إلا نصبه فانبجست منه العيون فمن كان جائعًا شبع ومن كان ظمآن روى فيكون زادهم حتى ينزلوا النجف من ظاهر الكوفة فإذا نزلوا ظاهرها انبعث منه الماء واللبن دائمًا فمن كان جائعًا شبع ومن كان عطشانًا روي"[1].

*** في عهد المهدي يصير للرجل من الشيعة قوة أربعين رجلًا ويمد لهم في أسماعهم وأبصارهم:**

جاء في "الكافي" عن أبي ربيع الشامي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن قائمنا إذا قام مد الله عز وجل لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه[2].

وفي بحار الأنوار (٥٢|٣١٧) عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: إذا قام قائمنا أذهب الله عز وجل عن شيعتنا العاهة وجعل قلوبهم كزبر الحديد وجعل قوة الرجل منهم قوة أربعين رجلًا ويكونون حكام الأرض وسنامها.

*** الأعمال التي يقوم بها المهدي إذا خرج عند الشيعة.**

أولًا: يقوم بالناس بالقتل والسبي بلا شفقة أو رحمة:

روى محدثهم محمد بن الحر في "وسائل الشيعة" (١١/ ٥٧) عن الحسن بن

(١) "البحار" (٥٢/ ٣٣٥).
(٢) "روضة الكافي" (٨/ ٢٤١).

هارون قال: "كنت عند أبي عبد الله جالسًا فسأله معلى بن خنيس: أيسير الإمام القائم بخلاف سيرة علي قال: نعم، وذلك أن عليا سار بالمن والكف لأنه علم أن شيعته سيظهر عليهم، وإن القائم إذا قام سار فيهم بالسيف والسبي لأنه يعلم أن شيعته لن يظهر عليهم من بعده أبدًا".

وينقل علامتهم آية الله الحاج ميرزا محمد تقي الأصفهاني في كتابه "مكيال المكارم في فوائد الدعاء للقائم" (١|٢٤٦) عن تفسير علي بن إبراهيم القمي في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧]، لوقت بعث القائم فينتقم لي من الجبارين والطواغيت من قريش وبني أمية وسائر الناس".

وروى شيخهم محمد بن محمد بن صادق الصدر الموسوي في كتابه "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٧٦٢) عن أبي جعفر قال: "إن الناس في هدنة نناكحهم ونوارثهم ونقيم عليهم الحدود ونؤدي أماناتهم حتى إذا قام القائم جاءت المزايلة".

ويفسر الصدر معنى المزايلة فيقول: "هي المفارقة والمباينة بين أهل الحق وأهل الباطل".

ونقل الحاج آية الله السيد إبراهيم الزنجاني في"حدائق الأنس" (ص١٠٤): عن أمير المؤمنين أنه قال: "وفقهاؤهم يفتون بما يشتهون وقضاتهم يقولون ما لا يعلمون وأكثرهم بالزور يشهدون إذا خرج القائم ينتقم من أهل الفتوى".

ويعلق آية الله الزنجاني على هذه الرواية فيقول: (نفس الصفحة): "المراد من الفقهاء فقهاء المخالف لأنهم يفتون بغير ما أنزل الله والشاهد على قول الإمام الباقر: إذا خرج هذا الإمام المهدي فليس له عدو مبين إلا الفقهاء خاصة وهو والسيف أخوان، ولولا السيف أي السلطة والقوة بيده لأفتى الفقهاء في قتله ولكن الله يظهره بالسيف" انتهى كلام الزنجاني.

وقد صرح علامتهم محمد باقر المجلسي في كتاب حق اليقين الفارسي على ما نقله عنه علامة الهند مولانا محمد منظور نعماني في كتاب "الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام" (ص١٤٨): بأنهم يناكحوننا ويوراثوننا إلى أن يظهر المهدي حيث يبدأ بقتل علماء أهل السنة ثم عوامهم.

وروى المجلسي عن أبي عبد الله عليه السلام: "لو يعلم الناس ما يصنعُ القائم إذا خرج لأَحَبُّ أكثرُهم أَلا يَرَوْهُ مما يقتل من الناس... حتى يقول كثير من الناس: ليس هذا من آل محمد، ولو كان من آل محمد لرحم"[١]. ويعترف الشيعة أن مبعثه نقمة: فعن أبي جعفر قال: إنّ الله بعث محمدًا رحمةً، وبعث القائم نقمةً[٢].

ثانيًا: تخصيص المسلمين بالقتل:

وقد وردت في كتبهم نصوص كثيرة تخصص المسلمين بالقتل – كما سيأتي–، ولذا اعترف آيتهم الصدر بأن ظاهر رواياتهم أن كثرة القتل مختصة بالمسلمين[٣].

ثالثًا: الإثخان في القتل والاستئصال الشامل للبشرية:

ومهدي الروافض الذي تحلم بمجيئه وتتوقع خروجه شيوخهم وآياتهم سيقوم بعملية قتل شامل، وإفناء كامل للناس لا يسلم منه إلا القليل وهم الرافضة، ففي نصوصهم عن أئمتهم المعصومين: "لا يكون هذا الأمر حتى يذهب تسعة أعشار الناس"[٤].

---

(١) "البحار" (٥٢/ ٣٥٣)، و"الغيبة" (ص١٣٥).

(٢) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣١٥).

(٣) "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٥٧٩) ومؤلفه هو والد مقتدي الصدر قائد "جيش المهدي" المسؤول عن أغلب جرائم القتل والاغتيال في العراق، ويبدو أنه يتقمص دور "المهدي" السفاح.

(٤) "الغيبة" للنعماني (ص١٤٦).

قال آيتهم محمد باقر الصدر: "أقول: والمراد من هذا الأمر: ظهور المهدي (ع)"[(١)].

وقال جعفرهم: "لا يكون هذا الأمر حتى يذهب ثلثا الناس" فقيل له: فإذا ذهب ثلثا الناس فما يبقى؟ فقال (ع): أما ترضون أن تكونوا في الثلث الباقي"[(٢)].

يقول آيتهم الصدر: "وهذا القتل الشامل للبشرية كلها يتعين حصوله بحرب عالمية شاملة قوية التأثير"[(٣)].

وهناك تعاليم يومية مستمرة للأتباع تحثهم وتدعوهم لطلب الثأر والانتقام، وذلك عبر أدعية الزيارات ومناسك المشاهد، وهذا القتل الشامل لا ينجو منه إلا الرافضة، ومهما أعلن غيرهم التوبة والرجوع، فلا يقبل منهم توبة ولا رجوع.

يقول الصدر: "إن الإمام المهدي (ع) سوف يضع السيف في كل المنحرفين الفاشلين في التمحيص، ضمن التخطيط السابق على الظهور فيستأصلهم جميعًا، وإن بلغوا الآلاف، ولا يقبل إعلانهم التوبة والإخلاص"[(٤)].

وهذه السيرة ليست من الإسلام في شيء، وهم يعترفون أنها شرعة جديدة مخالفة للتشيع.

تقول نصوصهم: "إن القائم أمر أن يسير بالقتل ولا يستتيب أحدًا "[(٥)]؛ بل أنه يقتل من لا ذنب له.

---

(١) "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٤٨٢).
(٢) "بحار الأنوار" (١٣/ ١٥٦) ط/ الحجر.
(٣) "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٤٨٣).
(٤) "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٥٥٨).
(٥) "الغيبة" للنعماني (ص١٥٣)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٥٣).

تقول رواياتهم: "إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين بفعل آبائها"[(١)].

وقال صادقهم يخاطب بعض الشيعة: "كيف أنت إذا رأيت أصحاب القائم قد ضربوا فساطيطهم في مسجد الكوفة؛ ثم أخرج المثال الجديد، على العرب شديد".

قال (الراوي): قلت: جعلت فداك ما هو؟ قال: الذبح. قال: قلت: بأي شيء يسير فيهم، بما سار علي بن أبي طالب في أهل السواد ؟ قال: لا، إن عليًا سار بما في الجفر الأبيض، وهو الكف، وهو يعلم أنه سيظهر على شيعته من بعده، وأن القائم يسير بما في الجفر الأحمر وهو الذبح، هو يعلم أنه لا يظهر على شيعته[(٢)].

والقتل صفة دائمة ملازمة له: تقول نصوصهم: "إن قائمهم ليس شأنه إلا القتل فلا يستبقي أحدًا"، "ولا يستتيب أحدًا"[(٣)].

رابعًا: يضع السيف في العرب وفي قريش خاصة[(٤)]:

روى المجلسي أن المنتظر يسير في العرب بما في "الجفر الأحمر" وهو قَتلُهم[(٥)].

وروى أيضًا: "ما بقي بيننا وبن العرب إلا الذبح"[(٦)].

وروى أيضًا: "اتقِ العرب، فإن لهم خبرُ سوءٍ، أما إنه لم يخرج مع القائم منهم واحد"[(٧)].

---

(١) "علل الشرائع" (ص٢٩٩)، "عيون أخبار الرضا" (١/ ٢٧٣)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣١٣).

(٢) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣١٨)، وهذه الرواية في بصائر الدرجات كما أشار إلى ذلك المجلسي.

(٣) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٢٣١و٣٤٩).

(٤) وهنا نلمس التعصب الفارسي على العرب.

(٥) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣١٨).

(٦) "بحار الأنوار" (٢/ ٣٤٩).

(٧) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٣٣).

وفي "الغيبة" للنعماني (٢٣٤ص)، و"تاريخ ما بعد الظهور" للصدر (ص١١٥)، عن أبى عبد الله قال:

"إذا خرج القائم لم يكن بينه وبين العرب وقريش إلا السيف".

وفي "الغيبة" (ص٢٣٦) عن أبي عبد الله قال: "ما بقى بيننا وبين العرب إلا الذبح وأومأ بيده إلى حلقه".

ورووا عن إمامهم المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى قوله للشيعة: "لولا أنا نخاف عليكم أن يقتل الرجل منكم برجل منهم ورجل منكم خير من ألف رجل منهم لأمرناكم بالقتل لهم ولكن ذلك إلى الإمام".

أورد هذه الرواية شيخهم الحر في "رسائل الشيعة" (ص١١/ ٦٠)، والبحراني في "الحدائق" (ص١٨/ ١٥٥)، والشيخ حسين آل عصفور في "المحاسن النفسانية" (ص١٦٦).

وأوردها شيخهم الفيض الكاشاني في "الوافي" (١٠/ ٥٩) بلفظ: "... ولولا أن نخاف عليكم أن يقتل رجل منكم برجل منهم ورجل منكم خير من ألف رجل منهم ومائة ألف منهم لأمرناكم بالقتل لهم ولكن ذلك إلى الإمام".

وروى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "إذا قام القائم من آل محمد أقام خمسمائة من قريش فضرب أعناقهم، ثم أقام خمسمائة فضرب أعناقهم، ثمّ خمسمائة أخرى حتى يفعل ذلك ست مرات". قَلت: ويبلغ عدد هؤلاء هذا؟ قال: نعم، منهم ومن مواليهم"[(١)].

قلت: فإذا كان كثير من الشيعة هم من أصل عربي، أيشهر القائم السيف

---

(١) "إرشاد المفيد" (٢/ ٣٨٣)، و"روضة الواعظين" (ص٢٦٥)، و"إعلام الورى بأعلام الهدى" (ص٥٠٦) لأبي علي الطبرسي.

عليهم ويذبحهم؟؟

ومن التناقضات أن في عقيدة الشيعة أن كسرى قد خلص من النار!

روى المجلسي عن أمير المؤمنين: "أن الله قد خلصه - أي كسرى - من النار، وأن النار محرمة عليه"[(١)].

فكسرى الفارسي الذي مات على الكفر يخلص من النار في دين الشيعة ولا يخلص العرب من بطش مهديهم.

خامسًا: قتل أهل السنة:

يخرج قائمهم أو من يقوم بمهمته "موتورًا غضبان أسفًا.. يجرد السيف على عاتقه"[(٢)] فيحصد أهل السنة الذين تلقبهم وثائق الرافضة "بالمرجئة" حتى قالوا: "ويح هذه المرجئة[(٣)] إلى من يلجئون غدًا إذا قام قائمنا"[(٤)]، "يذبحهم والذي نفسي بيده كما يذبح القصاب شاته"[(٥)]. وأحيانًا تلقبهم بالمخالفين وتقول عنهم: "ما لمن خالفنا في دولتنا نصيب إن الله قد أحل لنا دماءهم عند قيام قائمنا"[(٦)].

وحينًا تسميهم بالنواصب وتقول: "فإذا قام قائم عرضوا كل ناصب عليه فإن أقر بالإسلام وهي الولاية وإلا ضربت عنقه، أو أقر بالجزية فأداها كما يؤدي أهل الذمة"[(٧)].

---

(١) "البحار" (٤١/ ٤).

(٢) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٦١).

(٣) قال شيخهم الطرحي وسماهم مرجئة: لأنهم زعموا أن الله تعالى أخر نصب الإمام ليكون نصبه باختيار الأمة بعد النبي ﷺ وآله، مجمع البحرين (١/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) "الغيبة" للنعماني (ص١٩٠)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٥٧).

(٥) "الغيبة" للنعماني (ص١٩٠-١٩١)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٥٧).

(٦) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٧٦).

(٧) "تفسير فرات" (ص١٠٠)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٧٣).

سادسًا: قتل الشيعة غير الغلاة:

ولا يكتفون بقتل أهل السنة؛ بل إن قائمهم يتتبع الشيعة الزيدية غير الغلاة فيقتلهم.

تقول نصوصهم: "إذا قام القائم سار إلى الكوفة فيخرج منها بضعة عشر آلاف أنفس - كذا - يدعون البترية[1] عليهم السلاح فيقولون له: ارجع من حيث جئت فلا حاجة لنا في بني فاطمة فيضع فيهم السيف حتى يأتي على آخرهم"[2].

سابعًا: قتل الأسرى والجرحى:

ومهديهم لا يرحم أحدًا ولو كان أسيرًا، أو جريحًا، أو موليًا فارًا، وإن كان من المسلمين، لأنه لا إسلام عندهم إلا مذهب الروافض.

يقول النص: "القائم له أن يقتل المولي ويجهز على الجريح"[3].

ثامنًا: يهدم المسجد الحرام والمسجد النبوي:

روى المجلسي: "إن القائم يهدم المسجد الحرام حتى يرده إلى أساسه، والمسجد النبوي إلى أساسه"[4]. وبين المجلسي: "أن أول ما يبدأ به - القائم - يُخْرِجُ هذين - يعني أبا بكر وعمر - رَطْبَيْنِ غَضَّيْنِ، ويذريهما في الريح، ويكسر المسجَد"[5].

يقول آيتهم وشيخهم المعاصر حسين الخراساني: "إن طوائف الشيعة

(١) البترية: هم أصحاب الحسين بن صالح بن حي، وهم فرقة من الزيدية، وهي أقرب فرق الزيدية لأهل السنة، انظر عنهم: "مقالات الإسلاميين" (١/ ١٤٤).
(٢) "الإرشاد" (ص٤١١-٤١٢)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣١٣، ٣١٨).
(٣) "الغيبة" للنعماني (ص١٢١).
(٤) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٨٨)، و"الغيبة" للطوسي (ص٢٨٢).
(٥) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٨٦).

يترقبون من حين لأخر أن يومًا قريبًا آت يفتح الله لهم تلك الأراضي المقدسة..."[(١)].

فهو يحلم بفتحها وكأنها بيد الكفار، ذلك أن لهم أهدافهم المبيتة ضد الديار المقدسة[(٢)]".

تاسعًا: مهدي الشيعة يقيم الحد على أبي بكر وعمر ويهدم الحجرة النبوية:

ففي "بحار الأنوار" (٥٣/ ١٠٤-١٠٥) أن منتظرهم يقول: "وأجيء إلى يثرب، فأهدم الحجرة، وأخرج من بها وهما طريان، فآمر بهما تجاه البقيع، وآمر بخشبتين يصلبان عليهما، فتورقان من تحتهما، فيفتتن الناس بهما أشد من الأول، فينادي منادي الفتنة من السماء: يا سماء انبذي، ويا أرض خذي، فيومئذ لا يبقى على وجه الأرض إلا مؤمن - أي شيعي - ثم يكون بعد ذلك الكرة والرجعة".

وهذا نص آخر يقول: "هل تدري أول ما يبدأ به القائم، أول ما يبدأ به يخرج هذين، يعني: خليفتي رسول الله ﷺ، رطبين غضين فيحرقهما ويذريهما في الريح ويكسر المسجد"[(٣)].

ونص ثالث يقول: "وهذا القائم... هو الذي يشفي قلوب شيعتك من الظالمين والجاحدين والكافرين فيخرج اللات والعزى - يعنون خليفتي رسول الله أبا بكر

---

(١) "الإسلام على ضوء التشيع" (ص١٣٢-١٣٣).

(٢) تعد الرافضة جميع المسلمين أشد كفرًا من اليهود والنصارى، وانظر -مثلًا- ما قاله شيخهم الملقب عندهم بالعلامة في كتابه "الألفين " (ص٣). لمعرفة المزيد من تكفير الشيعة لعموم المسلمين يمكن الرجوع لكتاب: ظاهرة التكفير في مذهب الشيعة، للشيخ عبد الرحمن دمشقية، وكتاب: الشيعة الاثنى عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين، لعبد الله محمد.

(٣) "بحار الأنوار"، (٥٢/ ٣٨٦).

وعمر رضي الله عنهما - طريين فيحرقهما"[١].

قال شيخهم وفخرهم المجلسي: لعل المراد بإحداث الحدث إحراق الشيخين الملعونين، فلذا يسمونه عليه السلام بالطاغية[٢].

انظر إلى تعليق شيخهم المجلسي وتفسيره للحديث الذي يحدثه مهديهم، والذي يثير ثائرة المسلمين، تجده يقرر أن الحدث يعني إحراق قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه، الذي يخصهما هذا الأفاك باللعن. وهذا المجلسي هو قدوتهم وعمدتهم ومن يعتمد قوله - كما يقولون - سواد الشيعة اليوم[٣]، ولذا يصفونه برئيس الفقهاء والمحدثين وملاذ المحدثين في كل الأعصار، ومعاذ المجتهدين في جميع الأمصار، وأعظم أعاظم الفقهاء والمحدثين، وأفخم أفاخم علماء أهل الدين[٤].

وهو يقرر هذا بكل صراحة وبلا تقية، أو مصانعة لأنه يعيش في ظل الدولة الصفوية التي حمته ففاض لسانه بما ينطوي عليه قلبه، وقلوب زمرته، فهو يتحدث عن حلمهم حول الحجرة النبوية الطاهرة، والحريق الذي يعدون أتباعهم بإشعاله فيها، ويُحَدثهم بذلك وكأنه أمر سيقع لا محالة.

عاشرًا: يقيم الحدّ على أم المؤمنين عائشة رصي الله عنها:

فعن أبي جعفر قال: أما لو قام قائمنا، وردت إليه الحميراء، حتى يجلدها الحد

---

(١) "عيون أخبار الرضا" (١/ ٥٨)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٤٢).
(٢) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٤٦).
(٣) "الفيض القدسي" (ص١٩-٢٠)، المطبوع مع "بحار الأنوار" (ص١٠٥).
(٤) انظر: المصدر السابق ص(٢١-٢٢- ٢٧)، والمجلسي من مؤسسي الغلو في دينهم حتى قال صاحب "التحفة الاثني عشرية" بأنه لو سمي دين الشيعة دين المجلسي لكان في محلة، ولذا قالوا: بأنه لم يوجد له في عصره ولا قبله قرين في ترويج دينهم ومذهبهم، انظر: "الفيض القدسي" (ص١٧).

وحتى ينتقم لابنة محمد فاطمة[١].

حادي عشر: يقيم حكم آل داود:

عقد الكليني بابًا في أن الأئمة عليهم السلام إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم آل داود، ولا يسألون البينة، ثم روى عن أبي عبد الله قال: "إذا قام قائم آل محمد حكم بحكم داود وسليمان، ولا يَسأَلُ بَيِّنَةً"[٢].

وروى المجلسي: "يقوم القائم بأمر جديد، وكتاب جديد، وقضاء جديد"[٣].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: "لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد"[٤].

بل إن الحكم والقضاء في دولة المنتظر يقام على غير شريعة المصطفى ﷺ، جاء في الكافي وغيره، قال أبو عبد الله: "إذا قام قائم آل محمد بحكم داود وسليمان ولا يسأل بينة"[٥]، وفي لفظ آخر: "إذا قام قائم آل محمد حكم بين الناس بحكم داود عليه السلام ولا يحتاج إلى بينة"[٦].

وقد تبنى ثقة دينهم الكليني هذه العقيدة وبوب لها بابًا خاصًا بعنوان: "باب في الأئمة عليهم السلام أنهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البينة"[٧]. ولا يخفى ما في هذا الاتجاه من عنصر يهودي، ولهذا علق بعضهم على

---

(١) "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣١٤).
(٢) "الأصول من الكافي" (١/ ٣٩٧).
(٣) "البحار" (٥٢/ ٣٥٤)، "الغيبة" للنعماني (ص١٥٤).
(٤) "بحار الأنوار" (٥٢/ ١٣٥)، "الغيبة" (ص١٧٦).
(٥) "أصول الكافي" (١/ ٣٩٧).
(٦) "المفيد" و"الإرشاد (ص٤١٣)، الطبرسي "إعلام الورى" (ص٤٣٣).
(٧) "أصول الكافي" (١/ ٣٩٧).

هذا العنوان بقوله: "أي أنهم ينسخون الدين المحمدي ويرجعون إلى دين اليهود"(١).

تقول نصوصهم: "إذا قام القائم... استخرج التوراة وسائر كتب الله تعالى من غاب بأنطاكية حتى يحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن"(٢).

ونقل شيخهم كامل سليمان في كتاب "يوم الخلاص في ظل القائم المهدي" (ص٣٩١) عن أبي عبد الله قال: "إذا حكم قائم آل محمد صلى الله عليه وآله حكم بين الناس بحكم داود، فلا يحتاج بينه فيلهمه الله تعالى فيحكم بعلمه ويخبر كل قوم بما استنبطوه ويعرف وليه من عدوه بالتوسم".

ثاني عشر: يخرج المهدي المنتظر بقرآن جديد وهو مصحف فاطمة، زعموا:

روى شيخهم محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالمفيد في"الإرشاد"/ الطبعة الثالثة/ مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٩م (ص٣٦٥) عن أبي جعفر قال: "إذا قام قائم آل محمد ضرب فساطيط يعلم فيها القرآن على ما أنزل فأصعب ما يكون عليّ من حفظه اليوم لأنه يخالف فيه التأليف". وذكرها كامل سليمان في "يوم الخلاص" (ص٣٧٢).

وروى شيخهم النعماني في كتاب "الغيبة" (ص٣١٨) عن علي عليه السلام قال: "كأني بالعجم فساطيطهم في مسجد الكوفة يعلمون الناس القرآن كما أنزل. قلت (أي الراوي): يا أمير المؤمنين أو ليس هو كما أنزل فقال: لا، محي منه سبعون من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، وما ترك أبو لهب إلا إزراء على رسول الله وآله لأنه عمه".

ونقل شيخهم محمد بن محمد صادق الصدر في "تاريخ ما بعد الظهور"

(١) محب الدين الخطيب في تعليقه على "المنتقى" (ص٣٠٢).
(٢) "الغيبة" للنعماني (ص١٥٧)، "بحار الأنوار" (٥٢/ ٣٥١).

(ص٦٣٧) عن أبي عبد الله أنه قال:"..لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد على العرب شديد".

وذكر الرواية شيخهم كامل سليمان في كتاب "يوم الخلاص" (ص٣٧١) عن أبي جعفر قال: "يقوم القائم في وتر من السنين إلى أن قال: فوالله لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس بأمر جديد وكتاب جديد وسلطان جديد من السماء"[١].

وعن الإمام جعفر الصادق قال: إذا قام القائم قرأ كتاب الله ﷻ على حده، وأخرج المصحف الذي كتبه علي[٢].

وعن محمد بن علي عليهما السلام قال: "لو قد خرج قائم آل محمد... إلى أن قال: يقوم بأمر جديد وسنة جديدة وقضاء جديد على العرب شديد"[٣].

وفي "الكافي" رواية أخرى تخالف ذلك، حيث جاء فيه عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: دفع إليّ أبو الحسن مصحفًا وقال: "لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: لم يكن الذين كفروا؛ فوجدت فيها اسم سبعين رجلًا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم قال: فبعث إليّ: ابعث بالمصحف"[٤].

وقال شيخهم نعمة الله الجزائري: "إنه قد استفاض في الأخبار أن القرآن كما أنزل لم يؤلفه إلا أمير المؤمنين.. إلى أن قال: وهو الآن موجود عند مولانا المهدي رضي الله عنه مع الكتب السماوية ومواريث الأنبياء"[٥].

ثالث عشر: يقتل الناس بين الركن والمقام:

---

(١) "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٦٣٨).
(٢) "يوم الخلاص" لكامل سليمان (ص٣٧٣).
(٣) "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٦٣٨).
(٤) "أصول الكافي" (٢/ ٦٣١).
(٥) "الأنوار النعمانية" (٢/ ٣٦٠-٣٦٢).

ففي "بحار الأنوار" (٥٣/ ٤٠): أنّ أبا عبد الله قال: "كأني بحمران بن أعين، وميسر بن عبد العزيز، يخبطان الناس بأسيافهما بين الصفا والمروة"!

ولاشك بأن تحديد موضع القتل العام بالمسجد الحرام وبين الصفا والمروة يدل دلالة أكيدة أن المقصود بالقتل هم المسلمون؛ بل حجاج بيت الله الحرام، وأن هذا ما يحلمون به ويخططون له.

وما جرى على أرض البلد الطاهر في (عام ١٤٠٧هـ) هو فيما يبدو تمهيد لهذه الخطورة، وتخطيط لهذا العمل، ولكن خيب الله سبحانه آمالهم. كما أن ما قام به القرامطة من قتل الناس في الحرم هو تطبيق لهذا المبدأ كما تجد أخبار ذلك في حوادث سنة (٣١٧هـ) في كتب التاريخ، وانظر البداية والنهاية أحداث سنة (٣١٧هـ).

رابع عشر: قطع أيدي وأرجل المشرفين على الحرم:

يقول النص: "كيف بكم - يعني الحجبة على الكعبة كما يعبر النص- لو قد قطعت أيديكم وأرجلكم وعلقت في الكعبة؛ ثم يقال لكم: نادوا نحن سراق الكعبة"[(١)]. ونص ثانٍ يقول: "إذا قام المهدي هدم المسجد الحرام... وقطع أيدي بني شيبة وعلقها بالكعبة وكتب عليها هؤلاء سرقة الكعبة"[(٢)].

ونص ثالث يقول: "يجرد السيف على عاتقه ثمانية أشهر يقتل هرجًا، فأول ما يبدأ ببني شيبة فيقطع أيديهم ويعلقها في الكعبة، وينادي مناديه هؤلاء سراق الله؛ ثم يتناول قريشًا فلا يأخذ منها إلا السيف ولا يعطيها إلا السيف"[(٣)].

خامس عشر: رجوع الناس إلى الحياة في عهده- عقيدة الرجعة - :

---

(١) "الغيبة" للنعماني (ص١٥٦).
(٢) "الإرشاد" للمفيد (ص٤١١)، وانظر: "الغيبة" للنعماني (ص٢٨٢).
(٣) "الغيبة" (ص٢٠٩).

فـ "أول من تنشق الأرض عنه ويرجع إلى الدنيا، الحسين بن علي عليه السلام"(١).

وروى الحر العاملي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل: كم يملك القائم (عج) قال: "سبع سنين بطول الأيام والليالي حتى تكون السنة من شيعته مقدار عشر من سنينكم هذه، وإذا آن قيامه مطر الناس جمادي الآخرة وعشر أيام من رجب مطرًا لم ير الخلائق مثله فينبت الله به لحوم المؤمنين وأبدانهم من قبورهم فكأني أنظر إليهم مقبلين من قبل جهينة ينفضون شعورهم من التراب"(٢).

وفي الرجعة يخيّر الشيعي بين المقام في قبره مكرمًا وبين الرجعة! ويقال له: "يا فلان هذا إنه قد ظهر صاحبك فإن تشأ أن تلحق به فالحق وإن تشأ أن تقيم في كرامة ربك فأقم"(٣).

سادس عشر: نزع الحجر الأسود من الكعبة:

يقول النص: "يا أهل الكوفة لقد حباكم الله عز وجل بما لم يحب أحد من فضل، مصلاكم بيت آدم وبيت نوح، وبيت إدريس، ومصلى إبراهيم... ولا تذهب الأيام والليالي حتى ينصب الحجر الأسود فيه"(٤).

وقد تم تطبيقه على يد القرامطة حيث اقتلعوا الحجر الأسود (في أحداث سنة ٣١٧هـ) وحملوه إلى البحرين؛ ثم نقلوه بعد ذلك إلى الكوفة(٥). وقد بقي عندهم قرابة اثنتين وعشرين سنة(٦).

---

(١) "بحار الأنوار" (٥٣/ ٣٩).
(٢) "الإيقاظ من الهجعة" (ص٢٤٩).
(٣) "الغيبة" للطوسي (ص٢٧٦)، و"بحار الأنوار" (٥٣/ ٩٢).
(٤) "الوافي" للفيض الكاشاني، باب فضل الكوفة ومساجدها، (المجلد الثاني، (١/ ٢١٥).
(٥) انظر: "الفرق بين الفرق" للبغدادي (ص٢٩٠-٢٩١).
(٦) وردّ بعد ذلك من الكوفة إلى مكة على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن حيي =

وكما يقول شيخهم وأحد آياتهم في هذا العصر: "إن المهدي يبدأ بغزو العالم انطلاقًا من الكوفة، وذلك بإرسال السرايا، وبث الجيوش المتكاملة للقيام بهذه المهمة"(١).

وهم يقولون في نصوصهم: "إن الكوفة حرم الله، وحرم رسوله ﷺ، وحرم أمير المؤمنين، وإن الصلاة فيها بألف صلاة والدرهم بألف درهم"(٢). ولذلك هم يعظمون كربلاء على البلد الحرام – مكة المحروسة – زادها الله تشريفا وتعظيمًا.

فتتحدث نصوصهم عن محاورة جرت بين كربلاء والكعبة فيفترون على جعفر الصادق أنه قال: "إن أرض الكعبة قالت من مثلي، وقد بني بيت الله على ظهري يأتيني الناس من كل فج عميق وجعلت حرم الله وأمنه.

فأوحى الله إليها – كما يفترون – أن كفي وقري ما فَضلُ ما فضلت به فيما أعطيت كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غرست في البحر فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك، ولولا من تضمه أرض كربلاء ما خلقتك، ولا خلقت البيت الذي به افتخرت، فقري واستقري وكوني ذنبًا متواضعًا ذليلًا مهينًا غير مستنكف، ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلا سخت بك وهويت بك في نار جهنم"(٣).

ولكن الكعبة لم تقبل الأمر الإلهي، وتلتزم بالتواضع، وتصبح كالذنب الذليل المهين لأرض كربلاء – كما تقول نصوصهم – فحلت بها العقوبة من الله؛ بل إن العقوبة حلت بكل أرض وماء لإعراضها عن التواضع لكربلاء، يقول النص عندهم:

=

النيسابوري شيخ نيسابور في عصره، وأحد العباد المجتهدين المتوفى سنة (٣٦٢هـ).

(١) محمد باقر الصدر، "تاريخ ما بعد الظهور" (ص٤٥٠).

(٢) "الوافي" (المجلد الثاني، (٨/ ص٢١٥).

(٣) "كامل الزيارات" (ص٢٧٠)، "بحار الأنوار" (١٠١/ ١٠٩).

"فما من ماء ولا أرض إلا عوقبت لترك التواضع لله، حتى سلط الله على الكعبة المشركين، وأرسل إلى زمزم ماء مالحًا حتى أفسد طعمه..."[١].

فالكعبة في نظرهم تستحق السحق من جيش أبرهة، وزمزم في ذوق هؤلاء الزنادقة فاسد الطعم.

وكثيرًا ما يحاولون أن يغرسوا في نفوس الأتباع استشعار مزية كربلاء وفضلها على بيت الله الحرام. فقد نسبوا - مثلًا - لعلي بن الحسين أنه قال: "اتخذ الله أرض كربلاء حرمًا آمنًا مباركًا قبل أن يخلق الله أرض الكعبة، ويتخذها حرمًا بأربعة وعشرين ألف عام، وقدسها وبارك عليها فما زالت قبل خلق الله الخلق مقدسة مباركة، ولا تزال كذلك حتى يجعلها الله أفضل أرض في الجنة، وأفضل منزلة ومسكن يسكن فيه أولياؤه في الجنة[٢]، ونصوصهم في هذا الباب كثيرة[٣]. وتقديسهم لأرض كربلاء لأنها - على حد زعمهم - ضمت جسد الحسين فاستمدت قداساتها بوجوده فيها. فهل كان الحسين مدفونًا فيها قبل خلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام؟! أم هي معدة لاستقباله منذ غابر الأزمان؟!

وإذا كان هذا الفضل بوجود جسد الحسين فلماذا لم تفضل المدينة وفيها جسد رسول الله ﷺ.

إن هذا التناقض يكشف أنه ليس الهدف تقديس الحسين، ولكنه الكيد للأمة ودينها، وصرفها عن قبلتها وحجها.

قال أحد شعرائهم:

---

(١) الموضع نفسه من المصدرين السابقين.
(٢) "بحار الأنوار" (ج١٠١/ ١٠٧).
(٣) تجد هذه النصوص مع غيرها من الأقوال التي تتعلق بمشاهدهم في كتب المزار عندهم وقد خصص المجلسي لها ثلاثة مجلدات من كتابه البحار.

هي الطفوفُ فَطُفْ سبعًا بمغناها فما لمكة معنًى مثل معناها
أرضٌ ولكنها السبعُ الشدادُ لها دانتْ وطأطأَ أعلاها لأَدْناها

وقد يقول قائل: إن ما سطرته إنما هي مقالات السابقين من الرافضة فكيف يحاسب هؤلاء بما سطرته زنادقة العصور الماضية.

وأقول: إن هذه النصوص منقولة من كتب يعتمد عليها رافضة هذا العصر، ويقدسون نصوصها، وعليها مقدمات مراجعهم المعاصرين وتعليقاتهم وتقريظاتهم وتوثيقاتهم بلا اعتراض، أو نقض لهذه المقالات الزائفة؛ بل ثناء وتأييد، فهي عندهم كصحيح البخاري ومسلم عند جماعة المسلمين.

ومع ذلك إذا أردت بعض أقوال المعاصرين في هذا الشأن فاقرأ ما يقوله ويترنم به كبير مراجعهم وآياتهم في هذا العصر وهو محمد حسين آل كاشف الغطا شيخ مراجعهم الموجودين، ومن يعد عند بعض أهل السنة الذين لم يطلعوا على حقيقته من المعتدلين، ولهذا قدموه إمامًا لهم في مؤتمر القدس الأول لأن له وجهين وقولين، والتقية لا تنتهي أسرارها وأساليبها عندهم.

يقول - مشيدًا بكربلاء - ومفضلًا لها على بيت الله الحرام مخالفًا لنص القرآن وإجماع المسلمين:

ومن حديث كربلاء والكعبة لكربلاء بان علوُّ الرتبةِ

ثم يؤكد بعد ذكره لهذا البيت أن هذا من ضرورات مذهبهم، فيقول بأن كربلاء "أشرف بقاع الأرض بالضرورة"[(١)].

وانظر إلى ما يقوله أيضًا مرجعهم الآخر في هذا العصر، وآيتهم التي ينسبونها زورًا إلى الله وهو ميرزا حسين الحائري يقول:

---

(١) "الأرض والتربة الحسينية" (ص٥٦-٦٥).

"كربلاء تلك التربة الطيبة الطاهرة، والأرض المقدسة التي قال في حقها رب السماوات والأرضيين[١] مخاطبة للكعبة حين افتخرت على سائر البقاع: قري واستقري لولا أرض كربلاء وما ضمته لما خلقتك"[٢].

ثم يعقب على ذلك بقوله: "وكذلك أصبحت هذه البقعة المباركة بعدما صارت مدفنًا للإمام علي ﵁ مزارًا للمسلمين!! وكعبة للموحدين!! ومطافًا للملوك والسلاطين!! ومسجدًا للمصلين"[٣]!!

*** علاقة المنتظر عند الشيعة بالدجال !**

تقدم أنه من الثابت عند أهل السنة أن النبي ﷺ بشّر بوجود رجل من أهل بيته سيخرج في آخر الزمان وهو من علامات القيامة الكبرى لقبه المهدي، وعلى يديه سينتصر أهل الإسلام على خصومهم من يهود ونصارى وغيرهم، وهو رجل سيملأ الأرض عدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا، وقد أخبر النبي ﷺ عن وجود علم آخر من أعلام الساعة ألا وهو المسيح الدّجّال، وأنّ ما قاله رسول الله ﷺ عن وصف الدّجّال هو عين حقيقة الرّجل الذي ينتظره الشيعة الرّوافض ويسمّونه المهدي، وهو كذلك نفس الرجل الذي ينتظره اليهود ويعتقدون فيه الخلاص والذي سيرفع أمرهم. فنحن أمام حقيقتين هما:

الحقيقة الأولى: حقيقة المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، وليس هو عيسى بن مريم ﵇، الذي سينزل في آخر الزمان في زمن المهدي أثناء قتاله مع الدّجال.

الحقيقة الثانية: حقيقة المنتظر عند الشيعة الرّوافض، أو المسيح الدجال عند

(١) انظر: كيف يفترون الكذب على رب العالمين، وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون.
(٢) "أحكام الشيعة" (١/ ٣٢).
(٣) المصدر السابق.

أهل السنة، أو ملك اليهود المنتظر وأنّ أوصاف هؤلاء الثلاثة تنطبق على شخص واحد فهي ثلاثة أسماء لشخص واحد. هذا قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى".

والحديث لن يكون عن مهدي السنة، ولا عن عيسى عليه السلام، ولكن سيكون في الحديث عن الحقيقة الثانية إن شاء الله تعالى.

* **بيان ارتباط المذهب الشيعي باليهود**.

ارتباط المذهب الشيعي بالعقيدة اليهودية اكتشافه ليس وليد اليوم ولا هو من إفرازات الفكر التآمري الذي صار مصدر هزء عند أكثر الناس، بل إن الأئمة الأوائل قد كشفوا هذا الارتباط وتحدّثوا عنه، قبل وجود تهمة الفكر التآمري، والتي صارت كافية عند البعض في إسقاط أي معلومة أو أي استنتاج، وكأنّ معاداة أعداء الله تعالى من يهود ونصارى وأذناب لهما قد توقّفت عند زمن شعارات الإنسانية.

فهذا الإمام الشعبي رحمه الله[(١)]، كان خشبيًا (الخشبيّة: طائفة من الشّيعة كانت ترفض القتال بالسيف، ويحمل أتباعها سيوفًا من خشب)، ثم تاب من بدعتهم، وكان من أخبر الناس بهذه الطائفة، وقد حدّث أصحابه عن صلة العقيدة بين الشيعة واليهود.

قال مالك بن مغول: قلت للشعبي: ما ردّك على هؤلاء القوم، وقد كنت منهم رأسًا؟ قال: رأيتهم يأخذون أعجازًا لا صدور لها، ثمّ قال لي: يا مالك لو أردت أن يعطوني رقابهم أو يملئوا لي بيتًا ذهبًا أو يحجّوا إلى بيتي هذا على أن أكذب على عليّ رضي الله عنه لفعلوا، ولا والله لا أكذب عليه أبدًا. يا مالك إني قد درست الأهواء فلم آت فيها أحمق من الخشبية، فلو كانوا من الطّير لكانوا رخمًا، ولو كانوا من الدّواب كانوا حمرًا... يريدون أن يغمصوا دين الإسلام كما غمص بولس بن يوشع ملك اليهود

(١) هو: عامر بن شراحيل المتوفى سنة ١٠٤هـ، ثقة تابعي ومن أهل الكوفة.

دين النصرانية... منهم عبد الله بن سبأ يهودي من يهود صنعاء... يا مالك: إنّ محنتهم محنة اليهود.

وقد حاول بعض الشيعة المعاصرين؛ وهو مرتضى العسكري في كتاب له سمّاه ((عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى)) أن ينفي وجود هذه الشخصية مع أن كثيرا من علماء الشيعة على إثبات شخصية ابن سبأ.

فهذا القمي في كتابه ((المقالات والفرق)) (ص٢٥): يقر بوجوده ويعتبره أول من قال بفرض إمامة علي ورجعته، وأظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة. وقال به النوبختي في كتابه ((فرق الشيعة)) (ص٣٢).

وقال به الكشي في كتابه المعروف ((رجال الكشي)) والاعتراف سيد الأدلة، وهؤلاء جميعهم من كبار شيوخ الشيعة.

السمات اليهودية لمهدي الشيعة المنتظر.

أولًا: مهدي الشيعة سيحكم بشريعة داود وآل داود وبتوراة موسى كما تقدم:

قد تقدم ما جاء في كتاب ((الحجة من الأصول)) في ((الكافي)) قول الكليني: ((باب في الأئمة عليهم السلام أنهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البينة عليهم السلام والرّحمة والرضوان)).

وواضح من هذه النصوص الشّيعية التي قدمناها أن حكم المهدي الشيعي سيكون بشريعة داود عليه السلام، وهو ردّ على زعم أنّ مقصد الكلام هو إقامة الحق فقط لا شريعة داود عليه السلام، والمغايرة بين شريعة محمد ﷺ وبين شريعة آل داود عليه السلام معلومة واضحة قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

ثانيًا: مهدي الشيعة المنتظر يتكلم العبرانية:

تقدمت الرواية التي جاءت في كتاب ((الغيبة)) للنعماني: ((إذا أذن الإمام دعا الله

باسمه العبراني...)).

ثالثًا: اليهود من أتباع المهدي الشيعي المنتظر:

روى الشيخ المفيد في ((الإرشاد)) (ص٤٠٢): عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله قال: "يخرج مع القائم عليه السلام من ظهر الكوفة سبعة وعشرون رجلًا من قوم موسى، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون، وسليمان وأبو دجانة الأنصاري والمقداد ومالك الأشتر فيكونون بين يديه أنصارًا".

وواضح من النص أن القصد هم قوم موسى وأما البقية ممّن ذكروا فمن أجل التّمويه فقط. وقد تقدمت الرواية أنه لا يكون معه أحد من العرب.

وبهذا نخلص إلى أن مهدي الشيعة:

١- يحكم بشريعة آل داود، وبقرآن جديد ليس هذا الذي بين أيدينا.

٢- لسان المهدي هو العبرانية.

٣- أتباعه من اليهود.

٤- أعداء المهدي المنتظر عند الشيعة هم **العرب وقريش خاصة وتقدمت الرواية أنه لن يكون من أنصاره أحد من العرب.**

٥- أنه يستفتح المدن بتابوت موسى كما تقدم.

وماذا بعد هذا؟!

فهذا جزء يسير مما عند هؤلاء القوم من عقائد فاسدة ومنحرفة فهل يتنبه أهل السنة لما يحدق بهم من خطر عظيم فتخيل أيها المسلم لو قامت قائمة لهذه الطائفة وصارت لها قوة ومنعة ما ينتظر المسلمين من بلاء عظيم وشر مستطير ، وأكبر شاهد على ذلك ما يحدث في بلاد الرافدين من قتل وسفك لدماء أهل السنة وتهجير وقمع لا يعلم به إلا الله.

وقد شهد الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك وهو ممن عرف الروافض وعاش بينهم فقال: "لا أمانة لرافضي قط على من يخالفه في مذهبه، ويدين بغير الرفض؛ بل يستحل ماله ودمه عند أدنى فرصة تلوح له، لأنه عنده مباح الدم، والمال وكل ما يظهره من المودة فهو تقية يذهب أثره بمجرد إمكان الفرصة"(١).

ولذلك فهم لا يتورعون عن اقتراف أي جريمة في المجتمع الإسلامي إذا أمنوا العاقبة، لأن غيرهم لا حرمة له، ولا أمان، وهذا ما يعرفه من عاش بينهم.

قال الشوكاني - رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وقد جربنا وجرب من قبلنا فلم يجدوا رجلًا رافضيًا يتنزه عن محرمات الدين كائنًا ما كان، ولا تغتر بالظواهر، فإن الرجل قد يترك المعصية في الملأ، ويكون أعف الناس عنها في الظاهر، وهو إذا أمكنته فرصة انتهزها انتهاز من لا يخاف نارًا، ولا يرجو جنة))(٢).

ثم استشهد على ذلك ببعض مشاهداته الشخصية فقال: (وقد رأيت منهم من كان مؤذنًا ملازمًا للجماعات فانكشف سارقًا(٣). وآخر كان يؤم الناس في بعض مساجد صنعاء، وله سمت حسن وهدي عجيب وملازمة للطاعة، وكنت أكثر التعجب منه، كيف يكون مثله رافضيًا! ثم سمعت بعد ذلك عنه بأمور تقشعر لها الجلود، وترجف منها القلوب. ثم ذكر رافضيًا ثالثًا، وقال: كنت أعرف عنه في مبادئ أمره صلابة وعفة، فقلت: إذا كان ولابد من رافضي عفيف فهذا؛ ثم سمعت منه بفواقر نسأل الله الستر والسلامة)(٤).

---

(١) "طلب العلم" (ص٧٠-٧١).
(٢) الموضع نفسه من المصدر السابق.
(٣) لأن أخذ مال المسلمين بطريق السرقة حلال في شرعهم كاليهود الذين قالوا: {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران:٧٥].
(٤) "طلب العلم" (ص٧٣).

ومهما بذل المسلم لهم من المال، أو أسدى من المعروف، أو قدم من البر والصلة فإنه لا يستطيع أن يزيل ذلك الحقد الأسود المرير، أو يمتص تلك الضغينة، أو يذيب جبالًا من الكراهية والبغضاء غرستها تربية الأيام والليالي في الصغر، وكونتها آلاف من الصفحات السود في مدونات جعلوا لها صفة القداسة، وصاغتها مناسك الزيارات وأدعيتها، وليالي الحسينيات، وتمثيليات العزاء في المحرم مما لا يخطر على بال من لم يخض في تراث الروافض وواقعهم.

ولذلك قال من جرب الحياة معهم: "وقد جربنا هذا تجريبًا كثيرًا فلم نجد رافضيًا يخلص المودة لغير رافضي وإنْ آثره بجميع ما يملكه، وكان له بمنزلة الخول، وتودد إليه بكل ممكن، ولم نجد في مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء لمن خالفهم"[1].

ويبدو أن هذا اللون من العداء لغيرهم قد أثر على علاقاتهم مع بعضهم، أو أصبح طبيعة لهم، وقد شهدت نصوص عندهم بهذا، وأشارت إلى البون الكبير بين ما عليه أهل السنة من صدق وأمانة ووفاء، وما عليه الروافض من سلوك إجرامي وخلق رديء، حتى قال أحدهم ويدعي عبد الله بن كيسان لإمامه: "إني نشأت في أرض فارس، وإنني أخالط الناس في التجارات وغير ذلك، فأخالط الرجل فأرى له حسن السمت، وحسن الخلق، وكثرة الأمانة؛ ثم أفتشه فأتبينه عن عداوتكم (يعني أنه من أهل السنة) وأخالط الرجل فأرى منه سوء الخلق، وقلة أمانة وزعارة[2] ثم أفتشه فأتبينه عن ولايتكم"[3]، يعني من الروافض.

(١) "طلب العلم" (ص٧٣).

(٢) الزعارة: سوء الخلق، وفي بعض النسخ: الدعارة: وهو الفساد والفسوق والخبث، عن هامش "الكافي" (٢/ ٤).

(٣) "أصول الكافي" (٢/ ٤)، و"تفسير نور الثقلين" (٤/ ٤٧).

فإذا كانت هذه علاقاتهم مع بعضهم، وعدوانهم على بني جنسهم فهم على مخالفيهم أشد وأنكى، ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "أنهم يقولون أنتم - يعنون أهل السنة - تنصفوننا أكثر مما ينصف بعضنا بعضًا.

وهم حين يعيشون في دول سنية، أو دول لا تدين بمعتقدهم يتجه جهدهم إلى العمل والتخطيط للتمكين لمذهبهم وبني جنسهم، وإلحاق الضرر بغيرهم، ومن يقرأ ما فعله ابن يقطين بالمساجين المساكين، ويرى محاولات الروافض الدائبة في التسلل إلى أجهزة الأمن من مخابرات وشرطة ومباحث، وكذلك التغلغل في جيوش الدولة الإسلامية؛ يعرف أن هدفهم من ذلك ليس خدمة الدولة، ولا الدفاع عنها ضد أعدائها، ولكن استغلال هذه الأجهزة في العدوان على المسلمين، ونصرة الرافضة، ومذهبهم كلما لاحت الفرصة، ولذا يعبر خميني عن دخولهم في العمل في الحكومات الإسلامية بالدخول الشكلي، وقد يضعون من التقارير ويزينون للحكومات بعض التوجيهات التي يخدمون بها أهدافهم.

وقصة ابن العلقمي الرافضي الذي استوزره المستعصم أربع عشر سنة مشهورة معروفة. فقد كان هذا الرافضي من أهم أسباب سقوط دولة الخلافة في بغداد، واستيلاء التتار عليها كما هو معلوم من كتب التاريخ[١]، وقد أثنى الروافض على صنيعه هذا وعدُّوه من أعظم مناقبه[٢].

*** مقارنة بين مهدي أهل السنة وبين مهدي الشيعة:**

١- أن المهدي عند أهل السنة اسمه محمد بن عبد الله فاسمه يوافق اسم النبي

(١) انظر: في قصة تآمره: "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي (٢/ ٣١٣)، "العبر" للذهبي (٥/ ٢٢٥)، "طبقات الشافعية" للسبكي (٨/ ٢٦٢-٢٦٣)، "البداية والنهاية" (١٣/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) انظر: "روضات الجنات" (٦/ ٣٠٠-٣٠١).

ﷺ واسم أبيه يوافق اسم أبيه، وعند الشيعة اسمه محمد بن الحسن العسكري.

٢- أن المهدي عند أهل السنة من ولد الحسن رضي الله عنه ومهدي الرافضة من ولد الحسين رضي الله عنه.

٣- أن المهدي عند أهل السنة يخرج لنصرة الإسلام والمسلمين ولا يفرق بين جنس وجنس، وأما مهدي الرافضة فيخرج لنصرة الرافضة خاصة والانتقام من أعدائهم ويكره العرب وقريشًا فلا يعطيهم إلا السيف ولا يكون من أتباعه عربي كما دلت على ذلك رواياتهم.

٤- أن المهدي عند أهل السنة يحب الصحابة ويترضى عنهم ويتمسك بسنتهم، كما يحب أمهات المؤمنين ولا يذكرهن إلا بالثناء الجميل. أما مهدي الرافضة فإنه يبغض أصحاب النبي ﷺ ويخرجهم من قبورهم ويعذبهم ثم يحرقهم بزعمهم، وكذلك يبغض أمهات المؤمنين ويقيم الحد على أحب نساء النبي ﷺ الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها على حد زعمهم.

٥- أن المهدي عند أهل السنة يعمل بسنة النبي ﷺ؛ فلا يترك سنة إلا أقامها ولا بدعة إلا قمعها، أما مهدي الرافضة فإنه يدعو إلى دين جديد وكتاب جديد.

٦- أن المهدي عند أهل السنة يقيم المساجد ويعمرها، أما مهدي الرافضة فيهدم المساجد ويخربها؛ فيهدم المسجد الحرام والكعبة ومسجد النبي ﷺ ولا يبقي مسجدًا واحدًا على وجه الأرض كما صرحوا بذلك في رواياتهم.

٧- أن المهدي عند أهل السنة يحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ أما مهدي الرافضة فيحكم بحكم آل داود.

٨- أن المهدي عند أهل السنة يخرج من المشرق، أما مهدي الرافضة فيخرج من سرداب سامراء.

٩- أن المهدي عند أهل السنة حقيقة ثابتة دلت عليها سنة النبي ﷺ، أما مهدي الرافضة فخرافة ووهم من الأوهام.

(باب ذكر الدروز)

تطلق كلمة الدروز على معان عديدة في اللغة، منها: أنها تطلق على الأولاد غير الشرعيين الذين لا يعرف لهم آباء، وتطلق كذلك على السفلة والسقاط من الناس فيقال لهم أولاد درزة.

قال الأزهري نقلًا عن ابن الأعرابي: (والعرب تقول للدّعي: هو ابن درزة وابن ترني، وذلك إذا كان ابن أمة تساعي فجاءت به من المساعاة ولا يعرف له أب). قال: (ويقال: هؤلاء أولاد درزة، وأولاد فرتني للسفلة والسقاط • قاله المبرد). وتطلق هذه اللفظة أيضًا على القمل والصئبان، فيقال: بنات الدروز؛ كما يذكر الفيروزآبادي.

وتدل هذه المعاني على الرداءة والانحطاط، ومن هنا نجد أن الدروز لا يحبون أن تطلق عليهم هذه التسمية لأسباب سنذكرها، وربما يكون منها سوء مفهوم هذه التسمية عند الناس، مضافًا إليها وجود الأسباب الأخرى.

التعريف بهم في اصطلاح علماء الفرق يطلق علماء الفرق تسمية الدروز على طائفة ذات أفكار وآراء اعتقادية، هم من غلاة الباطنية يعتقدون ألوهية الحاكم بأمره، انشقوا عن الإسماعيلية في الظاهر وإن كانوا متفقين معهم في جوهر عقائدهم، ونسبوا إلى أحد دعاة الضلال المجوس نشتكين الدرزي، وإن كانوا لا يحبون هذه النسبة كما سيأتي بيانه.

بيان أصل الدروز

اختلف الناس في أصل الدروز على أقوال كثيرة نوجزها فيما يلي: أنهم سلالة

قبائل عربية، وهو ما يزعمونه لأنفسهم، وقد أكده الأستاذ محمد حمزة، وأنهم من لخم وتنوخ.

أنهم من سلالة السامريين القدماء.

أنهم من بقايا الحيثيين القدماء.

أنهم مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهنود.

أنهم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين.

أنهم من أصل إنجليزي. وتبدو تلك الأقوال كلها -غير القول الأول- بعيدة، وتهدف كذلك إلى أغراض سياسية فيما يرى محمد كامل حسين.

والواقع أن هذا الاختلاف فيهم يضفي عليهم ظلالًا من الشكوك والارتياب في أصلهم.

*** الحاكم بأمر الله وعلاقته بعقيدة الدروز**

لابد لمن يتصدى للتعريف بالمذهب الدرزي، من أن يلقي الضوء على شخصية ذلك الرجل الذي يدعي أتباعه الدروز، أن اللاهوت ظهر في صورته الناسوتية.

هذا الرجل هو أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي، والذي لقب بـ (الحاكم بأمر الله).

ولد الحاكم بأمر الله سنة ٣٧٥ هـ الموافق لعام ٩٨٥ م، وقد تولى الملك بعد موت أبيه مباشرة في رمضان سنة ٣٨٦ هـ، وكان سادس الملوك العبيديين. ولكي تتمكن من أخذ فكرة واضحة قدر الإمكان عن حياة هذا الحاكم الغامض، قسمنا حياته إلى ثلاثة أقسام أو أدوار، متمايزة عن بعضها تمام التمايز. فالدور الأول: وهو دور حداثته، يبدأ من توليه الملك في الحادية عشرة من عمره، وينتهي بمقتل (برجوان) في سنة ٣٩٠ هـ الموافق لعام (١٠٠٠م).

ويبدأ الدر الثاني: من تاريخ هذا الحادث حتى سنة ٤٠٨ هـ الموافق لعام (١٠١٧م)، وهي السنة التي ادعى فيها الألوهية على يد حمزة بن علي.

أما الدور الثالث: فيبدأ من سنة ٤٠٨ هـ، حتى اختفائه ومقتله سنة ٤١١ هـ الموافق لعام (١٠٢١).

الدور الأول من سنة ٣٨٦ - ٣٩٠ هـ (٩٩٦ - ١٠٠٠م): (ولي الحاكم بأمر الله الخلافة حدثا دون الثانية عشرة، في نفس اليوم الذي مات فيه والده (العزيز)، وكانت أمه أم ولد، وقد كانت حسبما تقول الرواية النصرانية المعاصرة، جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية، وكان لها أيام العزيز نفوذ عظيم في الدولة، وكان لهذا النفوذ أثره بلا ريب في سياسة التسامح الواضح التي اتبعها العزيز نحو النصارى، وفي تقوية جانبهم ونفوذهم، وتمكنهم من مناصب النفوذ والثقة)

وأوصى العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة وهم: (برجوان الصقلبي خادمه وكبير خزائنه، والحسن بن عمار زعيم كتامة، أقوى القبائل المغربية، وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة، وكانت الوصاية الفعلية إلى الأول والثاني، ولم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين واشتدت المنافسة بينهما.

وقام ابن عمار بتدبير الشؤون بادئ ذي بدء، ولقب في سجل تعيينه بأمين الدولة، وظهر ابن عمار بمظهر الطاغية المطلق، فكان يدخل القصر ويغادره راكبًا، وألزم جميع الناس بالترجل له، وأغلق بابه إلا على الخاصة والأكابر من شيعته. وأخيرًا وقع الانفجار، ووثبت جماعة كبيرة من الزعماء والجند بتحريض برجوان وتدبيره، وهاجمت الكتاميين في ظاهر القاهرة وأثخنت فيهم، فتوارى ابن عمار حينًا، واضطر أن يترك الميدان حرًا لمنافسه، عندئذ قبض برجوان على زمام الأمور). (وأوصبح

لبرجوان مطلق السلطان، وركبه الزهو والغرور، وانغمس في الملذات ينعم بثروته الطائلة).

فماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من ملكه؟ (ولقد كان برجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الاتصال برجال الدولة وشؤونها، ويدفعه ما استطاع إلى اللهو واللعب، ولم يلبث أن فطن الحاكم إلى موقف برجوان واستئثاره بالسلطة، واستبداده بالشؤون، وكان الحاكم قد أشرف - في ذلك الوقت - على الخامسة عشر من عمره، وأصبح الطفل فتى يافعًا شديد اليقظة والطموح، وبدأ يثور لسلطته المسلوبة، ولذلك فقد حكم على برجوان بالموت، فاستدعى الحاكم الحسين بن جوهر، وعهد إليه بتلك المهمة. ومنذ ذلك الحين تناول الحاكم إدارة الدولة بيديه، ونظم له مجلسًا ليليًا يحضره أكابر رجال الدولة، وتبحث فيه الشؤون العامة).

الدور الثاني من سنة ٣٩٠ - ٤٠٨ هـ (١٠٠٠ - ١٠١٧م): افتتح الحاكم عهده الجديد كما ذكرنا بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته، (غير أن الحاكم ما لبث أن اتبع ضربته بضربة دموية أخرى هي مقتل الحسن بن عمار زعيم كتامة - وأحد الأوصياء عليه - وفي سنة ٣٩٣ هـ قتل الحاكم وزيره فهد بن إبراهيم النصراني، بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام، وأقام الحاكم مكانه علي بن عمر العداس، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى سخط عليه وقتله، وقتل معه الخادم ريدان الصقلي حامل المظلة. ثم قتل عددًا كبيرًا من الغلمان والخاصة سنة ٣٩٤ هـ، ثم تبع بذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذي شغل منصب القضاء منذ سنة ٣٨٩ هـ، فقتل وأحرقت جثته، وزهق فيها عدد كبير من الخاصة والعامة، فقتلوا أو أحرقوا).

ولكي نعطي صورة واضحة عن هذه الشخصية الغامضة، نستعرض فيما يلي أقوال بعض المؤرخين ممن كانوا معاصرين لعهد الحاكم، أو كانوا قريبين من عهده:

ونبدأ بابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) الذي ينقل عن أبي المظفر بن قرأوغلي في تاريخه (مرآة الزمان) ما يلي عن الحاكم:

(وقد كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء.

وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط، وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع عن دخول الحمام، وأقام سنين يجلس في الشمع ليلًا ونهارًا، ثم عنَّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة، وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يحصى، وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم في سنة خمس وتسعين وثلثمائة، ثم محاه في سنة سبع وتسعين. وأمر بقتل الكلاب، وبيع الفقاع ثم نهى عنه، ورفع المكوس عن البلاد وعما يباع فيها، ونهى عن النجوم وكان ينظر فيها. ونفى المنجمين، وكان يرصدها ويخدم زحل وطالعه المريخ، ولهذا كان يسفك الدماء.وبنى جامع القاهرة، وجامع راشدة على النيل بمصر، ومساجد كثيرة، ونقل إليها المصاحف المفضضة، والستور الحرير، وقناديل الذهب والفضة، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين، ثم أباحها. وقطع الكروم ومنع من بيع العنب، ولم يبق في ولايته كرمًا، وأراق خمسة آلاف جرة عسل في البحر، خوفًا من أن تعمل نبيذًا، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلًا ونهارًا).ويروي ابن خلطان عن الحافظ أبي الطاهر السِلَفي: (أن الحاكم كان جالسًا في مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا [النساء: ٦٥]، والقارئ في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم، فلما فرغ من القراءة، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر،

وكان رجلًا صالحًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج:١٦ - ٧٣].فلما أنهى قراءته تغير وجه الحاكم، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار، ولم يطلق للآخر شيئًا، ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر قال له: أنت تعرف الحاكم وكثرة استحالاته، وما نأمن أن يحقد عليك، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى معه، ومن المصلحة عندي أن تغيب عنه. فتجهز ابن المشجر للحج، وركب في البحر فغرق، فرآه صاحبه في النوم، فسأله عن حاله، فقال: ما أقصر الربان معنا، أرسى بنا على باب الجنة، رحمه الله تعالى، وذلك ببركة جميل نيته وحسن قصده).ويقول السيوطي: (إن الحاكم أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفًا إعظامًا لذكره، واحترامًا لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين. وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدًا، حتى أنه يسجد بسجودهم في الأسواق وغيرهم، وكان جبارًا عنيدًا، وشيطانًا مريدًا، كثير التلون في أقواله وأفعاله).ومن أفعاله (أنه كان يعمل الحسبة بنفسه، فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له - وكان لا يركب إلا حمارًا -، فمن وجده قد غش في معيشة، أمر عبدًا أسود معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى).وقد بنى بين الفسطاط والقاهرة مسجدًا عظيمًا على ثلاثة مشاهد كانت هناك، وجعل فيه سدنة وخدمًا يوقدون فيه السرج الليل كله، وكان يريد أن ينقل إليه جسد النبي ﷺ، غير أن الله سبحانه دفع، وأظهر الله ﷻ أهل المدينة على ذلك).

وكان يحتال بكل حيلة لإقناع الناس بقدرته وعلمه، (ومن ذلك أنه أرسل مرة

وراء بعض الأشقياء، وعلمهم أن يسرقوا من مخازن مصر في أحد الليالي أشياء معلومة فأطاعوا أمره، وكان قبل ذلك قد أمر الناس بترك بيوتهم ودكاكينهم مفتوحة طوال الليل بدعوى أن السرقة لا تجوز في أيامه، وتعهد لكل من يسرق له شيء برده ومعرفة السارق. فلما دار الذين استأجرهم للسرقة، وأخذوا ما أخذوه، تقدم إليه أصحاب الحاجيات يشكون إليه الأمر فقال: اذهبوا إلى أبى الهول الذي صنعته يخبركم بما تريدون، وكان قد صنع تمثالًا من النحاس على صورة أبي الهول، ووضع من داخله رجلًا يعرف أسماء السارقين، والذين سرقت الأشياء من دكاكينهم، فإذا جاء الرجل منهم وقص حكايته، أجابه الرجل من داخل الصنم أن اذهب إلى بيت فلان تجد حاجتك، وصحت أقاويله، فهال الناس الأمر واعتقدوا في الخليفة أشكالًا وألوانًا). وينقل الأستاذ محمد عبد الله عنان عن كتاب (أخبار الدول المنقطعة) عن الحاكم وعن خطته الدموية ما يأتي: (وكان مؤاخذًا بيسير الذنب، حادًا لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أممًا وأباد أجيالًا، وأقام هيبة عظيمة وناموسًا، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالًا متناقضة وأعمالًا متباينة. وكان يقتل خاصته وأقرب الناس إليه، فربما أمر بإحراق بعضهم، وربما أمر بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه وبنى تربة عليه، وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده، وأشياء من هذا الجنس يموه بها على عقول أصحابه السخيفة، فيعتقدون أن له في ذلك أغراضًا صحيحة استأثر بعلمها وتفرد عنهم بمعرفتها). ومن حوادث القتل والسفك التي اقترفها الحاكم: (أنه في سنة ٣٩٩ هـ قبض على جماعة كبيرة من الغلمان، والكتاب، والخدم الصقالبة بالقصر، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا. وقتل الفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش، وفي العام التالي وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم، وقتل جماعة من العلماء السنية. وقبض على صالح بن علي الروذباري

لأسابيع قليلة من عزله وقتل، وعين مكانه ابن عبدون النصراني، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل، وخلفه أحمد بن محمد القشوري في الوساطة والسفارة، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه لأنه كان يميل إلى الحسين بن جوهر ويعظمه. وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه (غين) وكاتبه (أبي القاسم الجرجرائي)، وكان غين من الخدم الصقالبة الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته، فعينه في سنة ٤٠٢ هـ للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد، وعهد إليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية، وعهد بالكتابة إلى أبي القاسم الجرجرائي، وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده، فصار أقطع اليد، ثم سخط عليه كرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية، فقطعت وحملت إلى الحاكم في طبق، فبعث إليه الأطباء للعناية به ووصله بمال وتحف كثيرة، ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه، فقطع وحمل إلى الحاكم أيضًا، ومات غين من جراحه.

وأما أبو القاسم الجرجرائي فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت في حقه، ولكنه أبقى على حياته، وعاش أقطع اليدين، وفي سنة ٤٠٥ قتل الحاكم قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي، وقتل الوزير الحسين بن طاهر الوزان، وعبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب، وأخاه الحسين متولي الوساطة والسفارة، وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتله لأيام قلائل من تعيينه. وهكذا استمر الحاكم في الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم، هذا عدا من قتل من الكافة خلال هذه الأعوام الرهيبة، وهم ألوف عديدة. وتقدر الرواية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر ألف شخص من مختلف الطبقات).

وكان أشد الناس تعرضًا لهذه النزعات الدموية، أقرب الناس إلى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة، ولم يكن عامة الناس أيضًا بمنجاة منها، فكثيرًا

ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الشاذة التي توالى صدورها طوال حكمه، وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرتجفون رعبًا وروعًا أمام هذه المذابح الدموية، وكان التجار وذوو المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع. ويروي لنا المُسبِّحي صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد، أن الحاكم أمر سنة ٣٩٥ هـ بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا، فارتاع الناس وظنه كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لإعدامهم، وسرت في ذلك إشاعات مخيفة. فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفون من المسلمين والنصارى في أحد ميادين القاهرة، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا القصر، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ويسألون العفو عنهم، ثم دخلوا القصر ورفعوا إلى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو، فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا، وأمروا بالانصراف والبكور لتلقي سجل العفو. واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم، وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطبقات).

هذه السجلات وأمثالها التي أصدرها الحاكم تدل على مدى خوف الناس من بطشه، حتى التمسوا منه إصدار سجلات الأمان. ولا يوجد ثمة ريب في أن القتل كان في نظر الحاكم خطة مقررة، ولم تكن فورة أهواء فقط، وقد لزم الحاكم هذه الخطة طوال حياته، وفي هذا المعنى يقول الكوثري: (من علم أن مدة الحاكم هذا من سنة ٣٨٦ هـ إلى سنة ٤١١ هـ، يرى الاعتذار عنه بأنه كان مجنونًا كلاما لا يلتفت إليه، لأن من المحال في جاري العادة أن يستبقي حاكم وهو مجنون مدة خمس وعشرين سنة).

وينقل الأستاذ محمد عبد الله عنان عن المستشرق ميللر في الحاكم ما يلي:

(وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه إما باطني متعصب، توهم في نفسه الإغراق والألوهية، وإما أمير ذكي بارع في تاريخ أسرته ومذهبها. اعتقد أنه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحتقرهم ويصنفهم كالشمع طوع إرادته، وربما كان يجمع في طبيعته المتناقضة بين شيء من هذا وشيء من ذاك).

ولقد كانت معاملة الذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله، وكانت بلا ريب سياسة مقررة، ولم تحمل في مجموعها طابع التناقض. ففي سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار، وشد الزنار، ولبس العمائم السود. وفي سنة ٣٩٩ هـ أمر بهدم كنائس القاهرة ونهب ما فيها، وصدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس. وفي العام التالي صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى في لبس الغيار وتقليد الزنار، وألغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس، وعيد الشهيد.وقد خفت هذه المعاملة للذميين تباعًا، وخاصة قبل مقتل الحاكم سنة ٤١١ هـ، إذ أصدر عدة سجلات بإلغاء ما أصدره من قبل في حقهم. ومما يلحظ في هذا الصدد، أن موقف الحاكم إزاء النصارى واليهود هو من المواقف القليلة التي ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة، وأنه لم يجنح فيه من الشدة إلى اللين إلا في أواخر عصره، حينما ظهر دعاة تأليهه، يدعون إلى دين جديد وعقائد جديدة). فكان لابد من تغيير هذه المعاملة، محاولة منه لاستمالتهم إلى ما تصبو إليه نفسه؟.أما موقف الحاكم من أحكام وأركان الإسلام، (فقد أصدر سنة ٤٠٠ هـ سجل بإلغاء الزكاة والنجوى (أو رسوم الدعوة)، وأعيدت صلاة الضحى والتراويح (بعد أن منعها). وفي بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج، وقيل إنه شرع في إلغائها، أو أنه ألغاها بالفعل. ومن ذلك أنه ألغى الزكاة كما رأينا، وألغى صلاة الجمعة (التي يصليها) في رمضان، وكذلك ألغى

صلاته في العيدين، وألغى الحج، وأبطل الكسوة النبوية، وفي سنة ٣٩٥ هـ أمر بسب السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم)، وكتب ذلك على أبواب المساجد، ولاسيما جامع عمرو في ظاهره وباطنه، وعلى أبواب الحوانيت والمقابر، ولون بالأصباغ والذهب، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن).وقد أمر نائبه على دمشق أن يضرب رجلًا مغربيًا، ويطاف به على حمار، ونودي عليه: هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر، ثم أمر به فضربت عنقه).ولكنه في سنة ٣٩٧ هـ أمر بمحو كل ما كتب على المساجد والدور وغيرها، وفي سنة ٤٠١ هـ قرئ بجامع عمرو سجل بالنهي عن معارضة أمير المؤمنين (الحاكم) فيما يفعل أو يصدر فيه من الأمور والأحكام، وترك الخوض فيما لا يعني.

وكانت النفوس قد اضطربت من جراء هذه الأوامر والقيود المضنية، وأمر في نفس السجل بإعادة (حي على خير العمل) في الأذان، وإسقاط (الصلاة خير من النوم)، والنهي عن صلاة التراويح والضحى).

وأما عن شغفه بالليل، فقد كان من أظهر خواص هذا الدور من حكمه، (فقد كان يعقد مجالسه ليلًا، ويواصل الركوب كل ليلة، وينفق شطرًا كبيرًا من الليل في جوب الشوارع والأزقة. وجنح الحاكم في تلك الفترة إلى نوع من التصوف المدهش، فأطلق شعره حتى تدلى على أكتافه، وأطلق أظافره، واستعاض عن الثياب البيضاء بثياب سود، فكان يرتدي جبة من الصوف الأسود العادي، وقد لا يغيرها مدة طويلة حتى يعلوها العرق والرثاثة، وقد يرتدي أحيانًا جبة مرقعة من سائر الألوان. وأضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية، واقتصر في طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع. وفي سنة ٤٠٥ هـ ازداد الحاكم شغفًا بالطواف في الليل، فكان يركب مرارًا في اليوم، بالنهار والليل، وكان يقصد غالبًا إلى المقطم حيث أنشأ له

منزلًا منفردًا يخلو فيه إلى نفسه ويهيم في عوالمه وتصوراته، ومرصدًا خاصًا يرصد منه النجوم ويستطلعها.

وكان يؤثر ركوب الحمير، ولاسيما الشهباء منها، ويخرج دون موكب ولا زينة ومعه نفر قليل من الركابية، وكان يبدأ كعادته بالتجوال في شوارع القاهرة، ويحادث الكافة، ويستمع إلى ظلامات المتظلمين.

وقد انتهت إلينا أحاديث ونوادر كثيرة عن المناظر التي كانت تقترن بهذا الطواف، وعما كان ينزع إليه الحاكم أحيانًا من الأهواء العنيفة خلال طوافه، ومن ذلك أنه كان يأمر بإحراق الشونة ليتمتع بمرأى النيران، وأنه لقي ذات مساء عشرة من الناس سألوه الإحسان فأمر أن ينقسموا إلى فريقين يتقاتلان، حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فني منهم تسعة وبقي واحد، فألقى عليه الدنانير، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله. وأنه مر ذات ليلة على دكان شواء، فانتزع منه سكينًا وقتله بها أحد الركابية المقربين لديه بغير ما سبب معروف، وقد تركت الجثة في موضعها، وفي اليوم التالي أنفذ الحاكم إليه كفنًا جليلًا، ودفن مع التكريم). (ويحكى أنه عَنَّ له في أثناء ركوبه بالليل رأي سخيف، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتي شيخًا خليعًا بمشهد منه ومن الجمع الحاضر، ويضحك من هذا المنظر القبيح ويطرب له).

هذا بعض ما أورده المؤرخون عن الحاكم، وما أوردناه لم يكن مجرد سرد تاريخي لحياة الحاكم، ولكنه من صلب العقيدة التي نتحدث عنها وهي عقيدة الدروز، حيث سترى بعد قليل أن هذه الوقائع التاريخية لحياة الحاكم كان لها أكبر الأثر في عقيدة هذه الطائفة، لأنهم أولوا جميع هذه الأعمال الشاذة على أنها دليل على ألوهيته وربوبيته، وليست كما يظهر لنا في الظاهر.

الدور الثالث: من سنة ٤٠٨ - ٤١١ هـ (١٠١٧ - ١٠٢١م): في رسالة (مباسم

البشارات) التي كتبها الكرماني، أحد أكابر الدعاة الإسماعيليين في ذلك الوقت، والتي جاءت بعد اضطراب الأحوال في مصر حينما وفد إليها - الكرماني - سنة ٤٠٨ هـ، إشارة واضحة إلى حالة الدعوة الإسماعيلية، فقد جاء فيها: (بأن عهود الدعوة التي كانت قبل ذلك قد درست، وأن مجالس الحكمة التأويلية أبطلت، وتقلبت الأحوال بالناس، فالعالي قد اتضع، والسافل قد ارتفع، والذين آمنوا بالدعوة الفاطمية اضطربت أحوالهم، وكل واحد يرمي صاحبه بالإلحاد، وبعضهم غالى في رأيه، والبعض الآخر خرج عن عقيدته.. إلى غير ذلك).فالصورة التي صورها الكرماني لهذا الاضطراب الذي ظهر في المجتمع كان بسبب ظهور دعوة جديدة تقول: بأن الحاكم بأمر الله ما هو إلا ناسوت للإله، ولاشك أن الدعاة الذين نادوا بهذه الدعوة الجديدة، ظلوا يعملون لها مدة طويلة في الخفاء، ويعدون عدتهم للظهور بها في الوقت الملائم).

لذلك نستطيع أن نقول: إن سلوك الحاكم، إنما كان بتأثير فكرة الألوهية، وأن كل ما صدر عن الحاكم بأمر الله من أعمال وأقوال، إنما كان بدافع واحد هو تأليهه. (فالحاكم تولى مقاليد الحكم وهو صغير السن، وقد أحيط بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الإسماعيلية عن أئمتها، فتأثر بهذه العقائد، إلى جانب أنه رأى حاشيته ورعيته يسجدون له كلما مر بهم، فشاع طموحه - وهو في مثل هذا السن الصغير - أن يكون إلهًا مثل الملوك الأقدمين - من الفراعنة -، واختمرت هذه الفكرة في نفسه، ولكنه لم يعلنها للناس، ولعله أسر بها إلى بعض الدعاة حوله، فتسابقوا إلى إشباع نزوته وتنميتها مع مرور الزمن). (وربما أوحى بعض الدعاة إليه بكل ما قام به من أعمال، ولكن ليس لدينا من كتب التاريخ ما يؤيد أي افتراض، والشيء المؤكد أن هذه السياسة التي اتبعها الحاكم كانت مقررة، ليفهم من أفعاله أنه هو الخالق، وأنه هو

المحيي والمميت، والرازق والوهاب، إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى. فها هو الحاكم بأمر الله يسرف في القتل ليقال: إنه مميت، ويرزق الناس ويهبهم ليقال: إنه رزاق وهاب، ويعفو عمن يستحق القتل ليقال: إنه محيي).

ويؤيد هذا ما ورد في رسالة (السيرة المستقيمة) التي ألفها حمزة بن علي، وجاء فيها: (ولكني أذكر لكم في هذه السيرة وجوها قليلة العدد، كثيرة المنفعة، لمن تفكر فيها، فأول ما أختصر في القول ما فعله المولى سبحانه مع برجوان وابن عمار، وهو يومئذ ظاهر لا يراه العامة إلا على قدر عقولهم، ويقولون صبي السن، وملك المشارقة كافة مع برجوان، ولابن عمار ملك المغاربة. فأمر مولانا بقتلهم فقتلوا قتل الكلاب، ولم يخش من تشويش العساكر والاضطراب، وأما أمر ملوك الأرض فما يستجري أحد منهم على مثل ذلك، ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبابرتها بلا خوف من نسلهم وأصلابهم، ويمشي أنصاف الليالي في أوساط ذراريهم وأولادهم بلا سيف ولا سكين. شاهدتموه في وقت أبي ركوة الوليد بن هشام الملعون، وقد أضرم ناره، وكانت قلوب العساكر تجزع في مضاجعهم مما رأوه من كسر الجيوش، وقتل الرجال، وكان المولي جلت قدرته يخرج أنصاف الليالي إلى صحراء الجب، ويلتقي به حسان بن عليان الكلبي في خمسمائة فارس، ويقف معهم بلا سلاح ولا عدة، حتى يسأل كل واحد منهم عن صاحبه، ثم إنه يدخل في ظاهر الأمر إلى صحراء الجب، وليس معه غير الركابية والمؤذنين... إلى أن يقول: (إنكم ترون من أمور تحدث بما شاهدتموه من المولى ما لا يجوز أن تكون أفعال أحد من البشر، لا ناطق، ولا أساس، ولا إمام، ولا حجة، فلم تزدادوا بذلك إلا عمى وقلة بصيرة). (وقد بدأ ظهور المذهب الجديد، حينما قام الدرزي (وهو أحد دعاة المذهب في أول ظهوره)، وأعلن الدعوة سنة ٤٠٧ هـ، ثم قام سنة ٤٠٨ هـ ومعه خمسمائة من أصحابه وأتباعه

بالحج إلى قصر الحاكم فهاجمهم الناس والجند).

والمؤرخون يذكرون ثلاثة من الدعاة الكبار الذين أسسوا هذا المذهب، وهم: حمزة بن علي بن أحمد الزوزني (الذي أصبح إمام المذهب فيما بعد)، ومحمد ابن إسماعيل الدرزي المعروف بـ (نشتكين)، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بـ (الأخرم أو الأجدع). (ويرجح الدكتور محمد كامل حسين أنهم كانوا جميعًا من حاشية الحاكم الذين لم يفارقوه مدة الوصاية عليه، وخاصة حمزة بن علي، الذي استأثر بكل شيء وبالتمجيد كله).

وقد وقع الخلاف بين حمزة، والدرزي منذ ذلك الحين، لتسرع الدرزي في الكشف عن المذهب الجديد، ولذلك نجد أن حمزة عمد إلى إظهار دعوى ألوهية الحاكم سنة ٤٠٨ هـ، والتي يعتبرها الدروز أولى سني تقويمهم، وبعد هذه الدعوى اضطربت الأحوال في مصر، وهاجمت الناس هؤلاء الدعاة في كل مكان، مما دفع الدرزي إلى الاحتماء في قصر الحاكم، والهرب فيما بعد إلى الشام. واضطر حمزة بعد الذي حدث، أن يغيب عن الأنظار في سنة ٤٠٩ هـ، والتي يعتبرها سنة غيبة. من كل هذا نرى أن الحاكم كان يقف من هذه الدعوة موقف التأييد والرعاية، ويشد أزرهم ويمدهم بالمال والنصح، ويسهر على حمايتهم من الناس، ويقول حمزة في رسالة (الغاية والنصيحة) مؤكدًا على حماية الحاكم له ولأتباعه، عندما هاجمهم الناس والجند في المسجد الذي كان يحتمي فيه: (وقد اجتمعت عند المسجد سائر الأتراك بالجيوش، والزرد، والخوذ، والتحافيف، ومن جميع العساكر والرعية زائدًا عن عشرين ألف رجل، فقد نصبوا على القتال بالنفط، والنار، ورماة النشاب، والحجار، ونقب الجدار والتسلق إلى الحيطان بالسلالم يومًا كاملًا، وجميع من كان معي في ذلك اليوم اثنتى عشر نفسًا، منهم خمسة شيوخ كبار، وصبيان صغار لم

يقاتلوا، فقتلنا من المشركين ثلاث أنفس، وجرحنا منهم خلقًا عظيمًا لا يحصى، حتى طال على الفئة القليلة الموحدة القتال، وكادت الأرواح تتلاشى وتبلغ التراق، وخافوا كثرة الأضداد والمراق، وغلبة المنافقين والفساق، فناديتهم: معاشر الموحدين: اليوم أكملت لكم دينكم بالجهاد، وأتممت عليكم نعمته والسداد، وأرضى لكم التسليم لأمره بالجهاد، وما يصيبنا إلا ما كتب الله علينا هو مولانا وعليه فليتوكل المؤمنون. معاشر الموحدين قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون، قاتلوا أقوامًا نكثوا أيمانهم يعني عهدهم وهموا بإخراج الرسول، وهو قائم الزمان، وهم بدؤوكم أول مرة، يعني دفعة الجامع، فلا تخشوهم فمولانا جل ذكره أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين. فما استتميت كلامي لهم، حتى صار مولانا جل ذكره وتجلى للعالمين بقدرته سبحانه، فصعقت من في السموات والأرض، فانقلبوا المنافقين على أعقابهم خائبين، فلمولانا الحمد والشكر أبد الآبدين).ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنقول: أن الحاكم كان يشرف على توجيه الدعوة، ويشترك في تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية، وهذا ما يذكره لنا حمزة في رسائله، فمثلًا في رسالة (البلاغ والنهاية) يقول ما يلي: (تأليف عبد مولا جل ذكره، هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين بسيف مولانا جل ذكره، رفع نسختها إلى الحضرة اللاهوتية بيده في شهر المحرم الثاني من سنينه المباركة).

ويقول في رسالة (الصبحة الكائنة) ما يلي: (فتأييد مولانا سبحانه واصل إلي، ورحمته وأفضاله ظاهرة وباطنة علي، وجميع أصحابي المستجيبين عزيزين مكرمين في الشرطة، والولاية، وأصحاب السيارات، مقضون الحوائج دون سائر العالمين، ورسلي واصلة بالرسائل والوثائق إلى الحضرة اللاهوتية التي لا تخفى عنها خافية،

لا في السر، ولا في العلانية، وقد أوعدني مولانا جلت قدرته في ظاهر الأمر مضافًا إلى مواعيده الحقيقة التأييدية، وهو منجز مواعيده وقت يشاء كيف يشاء بلا تقدير عليه).

غير أن مطاردة دعاة الحاكم وتمزيقهم بهذه القسوة من الناس، دون اكتراث لما أولاهم به من رعاية ظاهرة، قد أثار في نفسه غضبًا على الجند والناس، لأنهم تجرؤوا على ذلك، وعول على الانتقام لنفسه وللدعاة.

وينقل الأستاذ محمد عبد الله عنان عن الوزير جمال الدين في (أخبار الدول المنقطعة) تفصيلًا دقيقًا لما حدث فيقول: (اعتزم الحاكم أن ينكل بمصر وأهلها، فاستدعى العرفاء والقادة ونظم معهم خطة العمل، وعهد إلى مقدمي العبيد وغيرهم من الطوائف بافتتاح الهجوم، فأخذوا يغيرون على أحياء مصر في هيئة عصابات، وينهبون الحوانيت والسابلة، ويخطفون النساء من الدور، والشرطة تغضي عن جرائمهم، والحاكم معرض عن كل شكاية وتضرع، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ.

ثم اتسع نطاق الاعتداء، فهاجمت قوى العبيد والترك والمغاربة مصر من كل صوب، وأضرموا النار في أطرافها، وهب أهل مصر للدفاع عن أنفسهم، واستمرت المعارك بين الفريقين ثلاثة أيام، وألسنة اللهب تنطلق من المدينة القديمة إلى عنان السماء، والحاكم يركب كل يوم إلى الجبل، ويشاهد النار، ويسمع الصياح، ويسأل عن حقيقة الأمر، فيقال له: إن العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر الأسف والتوجع، ويقول: ومن أمرهم بهذا لعنهم الله؟!.

وفي اليوم الرابع اجتمع الأشراف والكبراء في المساجد ورفعوا المصاحف وضجوا بالبكاء والدعاء، فكف الأتراك والمغاربة عن متابعة الاعتداء، واستمر العبيد في عدوانهم، وأهل مصر يدفعونهم بكل ما استطاعوا. وطلب الأتراك والمغاربة إلى

الحاكم أن يأمر بوقف هذا الاعتداء على أهل مصر، وعلى أموالهم، خصوصًا وأن لهم بين المصريين كثيرًا من الأصهار والأقارب، ولهم في مصر كثير من الأملاك، فتظاهر بإجابة مطلبهم، ولكنه أوعز إلى العبيد أن يستمروا في القتال، وأن يتأهبوا لمدافعة الترك والمغاربة، فاشتدت المعارك بين الفريقين، ودافع الترك والمغاربة عن أهل مصر، ومزقوا جموع العبيد ونكلوا بهم، ثم هددوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها، إذا لم يوضع حد لتلك الجرائم، فخشي الحاكم العاقبة، وأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكينة، واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة عما وقع، وتنصل من كل تبعة فيه، وأصدر أمانًا لأهل مصر قرئ على المنابر. وسكنت تلك الفتنة الشنعاء بعد أن لبثت الفسطاط بضعة أسابيع مسرحا لمناظر مروعة من السفك والعبث والنهب، وأحرقت معظم شوارعها ومبانيها، وخربت معظم أسواقها، ونهبت، وسبي كثير من نسائها، واعتدى عليهن، وانتحر كثير منهن خشية العار، وتتبع المصريون أزواجهم وبناتهم وأمهاتهم وافتدوهن من الخاطفين).وبأسلوب آخر، يؤكد حمزة هذه الحوادث، وأنها كانت انتقامًا لما حصل للدعاة من تنكيل وتمزيق، فيقول في رسالة (الرضى والتسليم): (لأنه سبحانه أنعم عليكم ما لم ينعم على من في الأدوار، وأظهر لكم من توحيده وعبادته، ما لم يظهره في عصر من الأعصار، وأعزكم في وقت عبده الهادي ما لم يعز أحدًا في الأقطار، ولم يكن لصاحب الشرطة والولاية والسيارات عليكم سبيل إلا بطريق الخير، ثم إن المنافقين قتلوا من إخوانكم ثلاثة أنفر، فأمر مولانا جل ذكره بقتل مائة رجل منهم، والذي قال في القرآن النفس بالنفس لا غير فلم تشكروه على ذلك، ولم تعبدوه حق ما يجب عليكم من عبادته، ولم تكن نياتكم خالصة لوحدانيته).

ويحاول عدد من الكتاب المعاصرين، الذين كتبوا عن الحاكم وعن الدروز، أن

ينفوا عن الحاكم كل هذه الأمور، ويصوروها كأنها افتراءات من المؤرخين، أو يجعلوا لها تبريرًا لا يستسيغه عقل ولا منطق.

من هؤلاء الكتاب الدكتور أحمد شلبي، الذي حاول أن يصور أخبار شذوذ الحاكم واضطرابه، على أنه اتفاق بين المؤرخين، يأخذ الواحد قضية، فيسلم بها الآخر، وأن تاريخ الحاكم قد كتب أثر وفاته، وقد عادت السلطة إلى من اضطهدهم، الذين كان يهمهم أن يبرزوه معتوهًا أو مجنونًا أو مدعيًا للألوهية، ليصرفوا الناس عن البحث عن القتلة الذين قتلوا الحاكم؟!. بل يحاول الدكتور شلبي أن يبرر كل تصرفاته، حتى إنه يجعله مخلصًا لدولته كفؤا لحمل أعبائها، وهو في القمة من المفكرين في إنشائه دار الحكمة.

ولا أدري على ماذا اعتمد الدكتور شلبي، في دفاعه القوي عن الحاكم، ولكن يبدو أن معلومات الدكتور فيليب حتي، أقوى عنده من كل ما كتبه المؤرخون؟! وهناك قضية أخرى يحاول بعض الكتاب إيرادها، وهي صلة الحاكم بحمزة بن علي وغيره من الدعاة، وهذا ما يحاول الأستاذ عبد الله النجار أن ينفيه في كتابه (مذهب الدروز والتوحيد)، مع أن الدروز حتى الوقت الحاضر ينفون مثل هذه الأقوال، ويعتبرونها تقويضًا للمذهب التوحيدي، ففي كتاب (أضواء على مسالك التوحيد) يورد بايزيد في توطئته للكتاب، وفي معرض رده على ما كتبه الأستاذ عبد الله النجار في كتابه يقول: (ونرى المؤلف الكريم يسعى إلى التفرقة والفصل بين حمزة بن علي والحاكم بأمر الله، وإنكار صلة الحاكم بالمذهب وانتسابه إليه. وفي ذلك ما فيه، علاوة على نية تقويض أساس المعتقد العرفاني، والمذهب التوحيدي (أي الدرزية)، كما هو مشهور ومعلوم، قد أخذ وغرف المحتوى الأخير لمنهجه ولعقيدته ودعوته من مجالس الحكمة، التي كانت تعقد في حضرة مولانا الحاكم وتوجيهه، وفي دار

الحكمة التي أسسها على غرار أكاديمية أفلاطون عليه السلام؟!). وهناك رسالة من رسائل حمزة، عنوانها (الرسالة المنفذة إلى القاضي أحمد بن العوام)، (تثبت أن حمزة أصبح في مكانة استطاع منها أن يخاطب قاضي القضاة بمثل هذا الخطاب)، (وتدل على مدى المكانة التي بلغها حمزة في ذلك التاريخ)، ولو لم يكن وراء حمزة من يحميه ويدفع عنه الأذى ما كان يجرؤ على كتابة مثل هذا الخطاب، يقول حمزة في هذه الرسالة: (توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره، وبه أستعين في جميع الأمور، معل علة العلل، صفات العلة بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبد أمير المؤمنين ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين بسيف أمير المؤمنين وشدة سلطانه، ولا معبود سواه، إلى أحمد بن محمد بن العوام، الملقب بقاضي القضاة، أما بعد: فقد تقدمت لنا إليك رسالة نسألك عن معرفتك بنفسك، فقصرت عن الإجابة، قلة علم منك بالحق وإهجانا به، وكيف يجوز لك أن تدعي هذا الاسم الجليل وهو قاضي القضاة، وليس لك علم بحقائق القضايا والأحكام، فقد صح بأنك مدع لما أنت فيه، فيجب عليك أن تعلم نفسك وتدربها، فإن كنت قد جهلتها فأنت فرعون الزمان، وفعلك لاحق بعثمان بن عفان، فيجب عليك أن تقلع عما أنت فيه، وتتبع سير أصحابك المتقدمين أبي بكر وعمر، وتزيل تلثيمة البياض عن رأسك والعمامة والطيلسان، وتلبس دنية سوداء بشقائق صفر طوال مدلاة على صدرك، وتلبس درَّاعة بلا جيب، بل تكون مشقوقة الصدر، وتكون مرقعة بالأحمر، والأصفر، والأديم الأسود الطائفي، وتكون قصيرة عليك لتلحق في الشكل بعمر بن الخطاب، ويكون لك درة على فخذك لتقيم بها الحدود على من تجب عليه وأنت جالس في الجامع، ويكون لك في كل سوق صاحب يتزين بزيك وبيده درة يقيم بها في سوقه الحدود على من وجبت عليه مثل

الزاني والسارق والقاذف وشارب الخمر، ممن هو من أهل ملتك، وتكون تتولى الخطبة بنفسك، وتطلع على المنبر بلا سيف تتقلد به، ويكون ممرك ومجيئك من دارك إلى الجامع، وأنت ماش حافيًا لتكون في ذلك لاحقًا بأصحابك المتقدمين أبي بكر وعمر. وإياك ثم إياك أن تنظر لموحد في حكم لا أنت ولا عادلتك، في شهادة نكاح ولا طلاق، ولا وثيقة، ولا عتق، ولا وصية، ومن جلس بين يديك على حكم فتسأل عنه أن يكون موحدًا فترسله إليّ مع رجالتك لأحكم أنا عليه بحكم الشريعة الروحانية، التي أطلقها أمير المؤمنين سلامة علينا، فانظر لنفسك فقد أعذرتك مرة بعد أخرى وأنذرتك).وإلى هذه الرسالة يشير حمزة في رسالة (البلاغ والنهاية) فيقول: (وقد أرسلت إلى القاضي عشرين رجلًا إلى الحضرة اللاهوتية، فأبى القاضي واستكبر، وكان من الكافرين، واجتمعت على غلماني ورسلي الموحدين لمولانا جل ذكره، زهاء مائتين من العسكرية والرعية، وما منهم رجل إلا ومعه شيء من السلاح فلم يقتل من أصحابي إلا ثلاثة نفر وسبعة عشر رجلًا من الموحدين، في وسط مائتين من الكافرين، فلم يكن لهم إليهم سبيل حتى رجعوا إلى عندي سالمين).وفي ختام هذا الفصل نقف وقفة طويلة مع رسالة حمزة بن علي بن أحمد الموسومة (بكتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل)، وقد رأيت أن أنقل هنا نص هذه الرسالة، ليتبين لنا مدى تأثر العقيدة الدرزية بأفعال وأقوال الحاكم، والتي يعتبرونها دليلًا على ألوهيته، حيث تلمس لها حمزة تأويلات باطنية، (واتخذ منها دلالات على صدق ألوهية الحاكم، وأن كل ما أتى به الحاكم هو رمز وإشارة وله تأويل باطني لا يفقهه الناس)، ولهذه الرسالة أهمية خاصة فيما يتعلق بتأييد الأخبار المروية في كتب المؤرخين عن أفعال الحاكم الغريبة، إذ فيها تأييد لها وتوكيد، ودليل قاطع على أن هؤلاء المؤرخين لم يفتروا شيئًا ولم ينقلوا إشاعات كاذبة).

وفيما يلي نص هذه الرسالة: (الحمد لمولانا وحده، وشدة سلطانه، توكلت على مولانا الباري العلام العلي الأعلى، حاكم الحكام، من لا يدخل في الخواطر والأوهام، جل ذكره عن وصف الواصفين وإدراك الأنام. بسم الله الرحمن الرحيم، صفات عبده الإمام، الحمد والشكر لمولانا -جل ذكره- وبه أستعين في الدين والدنيا وإليه المعاد، الذي يحي ويميت، وهو الحي الذي لا يموت، الذي هو في السماء عال، وفي الأرض متعال، حاكمًا، عليه توكلت، وبه أستعين، وإليه المصير، وهو المعين، وصلوات مولانا جل ذكره وسلامه على الذي اصطفاه من خلقه واختاره من عبيده، وجعلهم الوارثين لديار أعدائهم بقوته وسلطانه، الحاكم، القادر، العزيز القاهر، وهو على كل شيء قدير. أما بعد، معاشر الإخوان الموحدين، أعانكم المولى على طاعته، إنه وصل إليّ من بعض الإخوان الموحدين - كثر المولى عددهم وزكى أعمالهم، وحسن نياتهم - رقعة يذكرون فيها ما يتكلم به المارقون من الدين، الجاحدون لحقائق التنزيه، ويطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعاله الردية، وما تميل إليه أديانهم الدنية - فيما يظهر لهم من أفعال مولانا -جل ذكره- ونطقه، وما يجري قدامه من الأفعال التي فيها حكمة بالغة شتى فيما تغني النذر، وتمييز العالم الغبي الذين من أعمالهم الهزل، وأقوال فيها صعوبة وعدل، ولم يعرفوا بأن أفعال مولانا -جل ذكره- كلها حكمة بالغة، جدًا كانت أم هزلًا، يخرج حكمة ويظهرها بعد حين، ولو تدبروا ما سمعوه من الأخبار المأثورة عن جعفر بن محمد بن علي بن عبد مناف بن عبد المطلب: (إياكم الشرك بالله والجحود له، بما يختلج في قلوبكم من الشك في أفعاله كيفما كانت، ولا تنكروا على الإمام فعله، ولو رأيتموه راكبًا قصبة، وقد عقد ذيله خلف ثوبه، وهو يلعب مع الصبيان بالكعاب، فإن تحت ذلك حكمة بالغة للعالم وتمييزًا للمظلوم من الظالم).

فإذا كان هذا القول في جعفر بن محمد، وجعفر وآباؤه وأجداده كلهم عبيد لمولانا جل ذكره، فكيف أفعال من لا تدركه الأوهام والخواطر بالكلية، وحكمته اللاهوتية التي هي من رموزات وإشارات لبطلان النواميس، وهلاك الجواميش، وتمييز الطواويس، فلمولانا الحمد على ما أنعم به علينا بعد استحقاق نستحقه عنده، وله الشكر على ما أظهر لنا من قدرته خصوصًا دون سائر العالمين إنعامًا وتفضلًا، ونسأله العفو والمغفرة بما يجري منا من قبائح الأعمال وسوء المقال، ونعوذ به من الشرك والضلال، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو العلي المتعال، ولو نظروا إلى أفعال مولانا جلت قدرته بالعين الحقيقية، وتدبروا إشاراته بالنور الشعشعاني، لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية، والسلطان الأبدية، وتخلصوا من شبكة إبليس وجنوده الغوية، ولتصور لهم ركوب مولانا -جل ذكره- وأفعاله، وعلموا حقيقة المحض في جده وهزله، ووقفوا على مراتب حدوده، وما تدل عليه ظواهر أموره، جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه.

فأول ما أظهر من حكمة ما لم يعرف له في كل عصر وزمان، ودهر وأوان، وهو ما ينكره العامة من أفعال الملوك: من تربية الشعر، ولباس الصوف، وركوب الحمار بسروج غير محلاة لا ذهب ولا فضة. والثلاث خصال معنى واحد في الحقيقة، لأن الشعر دليل على ظواهر التنزيل، والصوف دليل على ظواهر التأويل، والحمير دليل على النطقاء (الأنبياء)، بقوله لمحمد: (يا بني أقم الصلاة وآت الزكاة، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر...، إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعر خدك للناس)، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا [لإسراء: ٣٧].كل ذلك كان عند ربك محذورا، وانقص من مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير).والعامة يرون أن هذه الآية حكاية عن لقمان الحكيم لولده، فكذبوا وحرفوا

القول، إنما هو قول السابق، وهو سلمان، وإنما سمي الناطق ولده لحد التعليم والمادة، إذ كان سائر النطقاء والأوصياء أولاد السابق المبدع الأول، وهو سلمان، فقال لمحمد:

(أقم الصلاة) إشارة إلى توحيد مولانا جل ذكره، (وآت الزكاة) يعني طهر قلبك لمولانا جل ذكره ولحدوده ودعاته. (وأمر بالمعروف) وهو توحيد مولانا جل ذكره، (وانه عن المنكر) يعني شريعته وما جاء به من الناموس والتكليف، (إن ذلك من عزم الأمور) يعني الحقائق وما فيها من نجاة الأرواح من نطق الناطق، (ولا تصعر خدك للناس) وخده وجه السابق، وتصغيره ستره فضيلته، (ولا تمش في الأرض مرحًا) والمرح هو التقصير واللعب في الدين، والأرض هاهنا هو الجناح الأيمن، والأيمن هو الداعي إلى التوحيد المحض، (إنك لن تخرق الأرض) يعني بذلك، لن تقدر عليك تبطيل دعوة التوحيد، (ولن تبلغ الجبال طولا) والجبال هم الحجج الثلاثة الحرم، ورابعهم: السابق الذي يعبده العالم دون الثلاثة. وأجلهم الحجة العظمى، واسمه في الحقيقة: ذو معة، لأن قلبه وعى التوحيد والقدرة من مولانا جل ذكره بلا واسطة بشرية، (وانقص من مشيك) يعني اخفض من دعوتك في الظاهر، الذي يمشي في العالم مثل دبيب النملة السوداء على المسح الأسود في الليلة الظلماء، وهو الشرك بذاته.

مثل النار إذا وقعت في التبن لا يشعر بضوئها إلا بعد هلاكه، كذلك محبة الشريعة والإصغاء إلى زخرفه، والتعلق بناموسه، يعمل في الأعضاء ويجري في العروق، كما قال بلسانه وقوة بأسه وسلطانه، وألطافه تجري في العروق مجاري الدم حتى يتمكن في القلب ويغري سائر العالمين. وقال الناطق: (ما زج حبي دماء أمتي ولحومهم، فهم يؤثرونني على الآباء والأمهات)، فرأينا الخبرين واحدا معناهما. وقد قال

القرآن: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ [الناس:١] ورب الناس هاهنا هو التالي، وهو في عصر محمد: المقداد، مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [الناس:٢ - ٤] يعني زخرف الناطق، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ [الناس:٥])، يعني الدعاة والمأذونين والمكاسرين، حتى يردهم عن توحيد مولانا الحاكم بذاته، المنفرد عن مبدعاته، جل ذكره.

والذات هو لاهوته الحقيقي، الذي لا يدرك ولا يحس، سبحانه وتعالى. وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ [لقمان:١٩] يعني بذلك اخفض وانقص واستر نطقك بالشريعة إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [لقمان:١٩] يعني الدعوة الظاهرة، لَصَوْتُ الْحَمِيرِ: يعنى بذلك أشر كلام وأفحشه نطق الشرائع المذمومة في كل عصر وزمان، فمنهم تظهر الشكلية والضدية والجنسية.

فأظهر مولانا جل ذكره لبس الصوف، وتربية الشعر وهو دليل على ما ظهر من استعمال الناموس الظاهر، وتعلق أهل التأويل بعلي بن أبي طالب وعبادته. وركوب الحمير دليل على إظهار الحقيقة على شرائع النطقاء، وأما السروج بلا ذهب ولا فضة فدليل على بطلان الشريعتين: الناطق والأساس.

واستعمال حلي الحديد على السروج دليل على إظهار السيف على سائر أصحاب الشرائع وبطلانهم. واستعمال الصحراء في ظاهر الأمر، وخروج مولانا جل ذكره في ذلك اليوم من السرداب إلى البستان، إلى العالم دون سائر الأبواب. والسرداب والبستان الذي يخرج مولانا جل ذكره منهما ليس لأحد إليهما وصول، ولا له بهما معرفة، إلا أن يكون كمن يخدمهما أو خواصهما. وهو دليل على ابتداء ظهور مولانا سبحانه بالوحدانية ومباشرته بالصمدانية بالحدين اللذين كانا خفيين عن سائر العالمين، إلا لمن يعرفهما بالرموز والإشارات، وهما الإرادة والمشيئة،

كما قال: (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده... كل شيء وإليه ترجعون)، والإرادة هي ذو معة، والمشيئة تالية، كما قال: وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا [الإنسان: ٣٠]، فليس يعرفهما إلا الموحدون لمولانا جل ذكره. ومن السرداب يخرج إلى البستان، كذلك العلم يخرج من ذي معة إلى ذي مصة، الذي هو بمنزلة الجنة صاحب الأشجار والأنهار، ثم يخرج منها إلى المقس، فأول ما يلقى بستان برجوان، وهو المعروف بالحجازي، فلا يدخله، ولا يدور حوله في مضيه، وهو دليل على الكلمة الأزلية.

ثم يمضي إلى البستان المعروف (بالدكة) وهي دليل على السابق، وهو دكة العالم، وعلومهم منهم، وهذا البستان المعروف بالدكة، على شاطئ البحر، وكذلك علم التأويل ممثوله البحر، والمستجيب للعهد إذا بلغ علم السابق ومعرفته، حسب أنه قد بلغ الغاية والنهاية في العبادة.

وبستان الدكة، مع جلالته، ملاصق لموضع الفحشاء والمنكر، دون سائر البساتين، دليل على أن علم السابق واصل بالنطقاء، الذين هم معادن النواميس الفانية الحشوية، والأعمال الفاحشة الدنية.

والمقس دليل على الناطق، وما في المقس من الفحشاء والمنكر دليل على شريعته، والنساء الفاسدات اللواتي فيه، دليل على دعاة ظواهر شريعته، وارتكابهم الشهوات البهيمية في طاعته. ثم إنه علينا سلامه ورحمته، يخرج إلى الصناعة ويدخل من بابها، ويخرج من الآخر. والصناعة دليل على صاحب الشريعة، والصناعة ممنوعة من دخول العالم فيها والخروج لإضافة الشريعة، فدخول مولانا جل ذكره فيها من باب وخروجه من باب، دليل على تحريم الشريعة وتعطيلها.

ثم إنه - علينا سلامه ورحمته - يدور حول البستان المعروف بالحجازي، وهو

دليل على الكلمة الأزلية، والدوار حوله بلوغ إلى الكشف بلا سترة تحوط بالدين، ثم إنه – جل وعز سلطانه – يبلغ إلى القصور، وهما قصران عظيمان خرابان دليل على بطلان الشريعة وخرابها.

ثم إنه –علينا سلامه ورحمته– يدخل من باب البستان المعروف بالمختص، وهو دليل على التالي، إذ كان التالي مختصًا بعلمه الأساسي والتأويل. وأكثر العالم يميلون إليه، وهو هيولي العالم الجرماني. ومن الشيعة من يعتقد ويعبد التالي، ومن الشيعة من يقول بأن التالي مولانا، وهذا هو الكفر والشرك. وإنما هو التالي الذي عجز الناس عن معرفته، وهو الجنة المعروفة بالمختص، متصلة بالجنة المعروفة بالعصار. والعصار دليل على الناطق، لأنه يعصر علم التالي فيخرج منه الحقيقة والتوحيد، فيكتمه عن العالم الغبي ويظهر لهم الثفل، وهو الكسب الذي لا ينتفع به غير البهائم.

كذلك البستان المعروف بالعصار، وهو خراب من الفواكه والأشجار والرياحين والأثمار، وبستان المختص عامر بالفاكهة والأزهار، والرياحين والأشجار، ومنه يخرج الماء إلى الحوض الذي تشرب منه البهائم. والماء هو العلم، والحوض هو المادة الجارية من التالي، والدواب هم النطقاء والأسس. كذلك العلم يخرج من التالي إلى الأساس في كل عصر وزمان، والسابق ممد الناطق، ومن الفاتق إلى الراتق، ومن السابق إلى الطالب الطارق. وهذان البستانان بين المسجدين المعروفين بمسجد تبر، ومسجد ريدان، فمسجد ريدان محاذي بستان العصار، ومسجد تبر محاذي بستان المختص.

ومسجد تبر دليل على الناطق، والتبر دليل على الذهب، والذهب دليل على إذهاب شريعته، وهذا المسجد لم تصل فيه صلاة جماعة قط، دليل على أن ليس

للناطق ولا لمن تبعه اتصال بالتوحيد.

ومسجد ريدان، دليل على حجة الكشف القائم بالسيف والعنف، الداعي إلى التوحيد المنكر عند سائر العالمين، كما نطق عبد مولانا جل ذكره في القرآن على لسان الناطق السادس (يوم يدع الداع إلى شيء نكر)، وهو عبادة مولانا جل ذكره وتوحيده، الذي أنكره سائر النطقاء والأسس أئمة الكفر، كما قال عبد مولانا -جل ذكره- في كتابه (قاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم، لعلهم ينتهون). أراد لا أيمان لهم بمعرفة مولانا -جل ذكره- والإيمان هو التسديق (التصديق).

وتوحيد مولانا -جل ذكره- صعب مستصعب، لا يحمله نبي مرسل، ولا وصي مكمل، ولا إمام معدل، ولا ملك مفضل. بل يحمله قلب صاف لبيب، أو موحد راغب من الأديان والطرائق، وعبد مولى الأساس والناطق، ومبدع التالي والسابق الحاكم على جميع النطقاء والشرائع، المنفرد عن جميع المخلوقات والبدائع. ولكل شيء ضد بين يديه، فبإزاء الباطل، الذي هو جنة العصاة، وهو دليل على الناطق حتى يرفع وهو مسجد ريدان، وهو ذو معة، وبإزاء الحق الذي هو جنة المختص وهو التالي باطل يطلب فساده، وهو مسجد تبر، وهو الناطق، والمولى جل ذكره ينصر أولياءه، ويهلك أعداءه، ويتم نوره ولو كره المشركون المتعلقون بعلي بن عبد مناف، والكافرون المتعلقون بالناطق وعدمه.

وريدان خمسة أحرف، دليل على خمسة حدود، النفسانيين، والنورانيين، والروحانيين، والجرمانيين، والجسمانيين. وهو ذو معة العقل الكلي النفساني، وذو مصة، النفس الروحاني والجناح الرباني، والأيمن الباب الأعظم، وهو السابق والتالي، معدن العلوم ومنه ابتناؤها.

وريدان كلمتان، (ري) و (دان)، و (ري) الأشياء وهم الحجج والدعاة

والمأذونين والمكاسرين، كما قال عبد مولانا جل ذكره (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)، الأشياء الحقيقية، والذي الأزلي، والتوحيد الأبدي على يد ريدان، يوم الدين، وهو عبد مولانا ومولى الخلق أجمعين، جل ذكره، وعز اسمه، ولا معبود سواه، سبحانه جل وعلا أن يكون ديان أو سلطان أو برهان أو الله أو الرحمن، إذ كان الكل عبيده في سائر الأدوار، المستغفرين له في الليالي والأسحار، العابدين له طوعًا وكرهًا في العيان، سبحانه عن إدراك الأوهام والخواطر، أو يعرف الإعلان والسرائر، أو بباطن أو بظاهر، إذ كان لا يدرك بعض ناسوته، وقدرة مقام جبروته، وعظم جلال لاهوته. وما من المساجد مسجد سقطت قبته، وهو المسجد بكماله غير مسجد ريدان، فأمر مولانا سبحانه وتعالى بإنشاء قبته، وزاد في طوله وعرضه وسموه دليل على هدم الشريعة الظاهرة على يد عبده الساكن فيه. وإنشاء توحيد مولانا جل ذكره فيه بالحقيقة ظاهرًا مكشوفًا، وابتداء الشريعة الروحانية في بسيط روحاني توحيدي لاهوتي حاكمي لا يعبدون غيره وحده، ولا يشركون به أحدًا في السر والإعلانية، سبحانه وتعالى عما يقول المشركون علوًا كبيرًا.

ثم إن مولانا علينا سلامه ورحمته، ظهر لنا في الناسوت البشرية، ونزوله عن الحمار إلى الأرض، وركوبه محاذي باب المسجد، دليل على تغيير الشريعة، وإثبات التوحيد، وإظهار الشريعة الروحانية على يد عبده حمزة بن علي بن أحمد، ومملوكه وهادي المستجيبين المنتقم من المشركين، بسيف مولانا وشدة سلطانه، وحده لا شريك له.

ووقوفه في ظاهر الأمر، وحاشاه من الوقوف والسير والجلوس والنوم واليقظة، لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ [البقرة:٢٥٥]، يعني النطقاء والأسس، مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ [البقرة:٢٥٥]، يعني من ذا الذي

يقدر على إطلاق داع أو مأذون إلا بمشيئته، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ [البقرة:٢٥٥]، يعني من آدم إلى محمد بن إسماعيل، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ يعني حجته، إِلاَّ بِمَا شَاء وهو المشيئة أعظم الدرجات، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ والكرسي هو التأييد الذي يصل إلى الحدود العالية، وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا [البقرة:٢٥٥]، وهما الجناح الأيمن والجناح الأيسر، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة:٢٥٥]، العالي على كل من تقدم ذكره ومن تأخر ممن ينتظرهم الشيعة المشركون. وكان وقوفه عند الميل، والميل دليل على التأييد، إذ كانت الأميال يستدلون بها على الطريق، كذلك التأييد بطرق العبد من المعبود، ويعود إلى الوجود، ونزوله إلى الأرض محاذي باب المسجد إشارة منه إلى عبد باب حجابه على خلقه، والداعي إليه بتأييده وأمره، إذ كان التأييد هو الأمر العالي الذي يكون بلا واسطة بشريه، والباب دليل على الحجة.

ونزوله عن الحمار إلى الأرض وركوبه آخر كان في نفس آذان الزوال، وصلاة الزوال دليل على الناطق، وتغيير مولانا جل ذكره الحمار في نفس وقت الأذان، دليل على إزالة الظاهر.

ويكون اعتمادهم من موضع تغييره، وهو يسمى المقام المحمود، والمشهد الموجود، والمنهل العذب المورود إلى قصر مولانا الحاكم بذاته، وهو المقام المحمود، محاذي باب شريعة روحانية وعلوم حاكمية، وأنا أذكرها لكم في غير هذا الكتاب إن شاء مولانا، وبه التوفيق في جميع الأمور، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو حسبي ونعم النصير المعين.

ثم إن مولانا علينا سلامه ورحمته، لابد له في كل ركبة من الإعادة إلى البساتين المعروفين بالمقس، دليل على إظهار النشوء الثالث الخارج من الكفر والشرك،

وهما الظاهر والباطن، وهو توحيد مولانا جل ذكره.

ودخوله إلى القصر من الباب الذي يخرج منه، والسرداب بعينه دليل على إثبات الأمر، وكشف الطرائق بكتب الوثائق، ورجوع الأمر إلى ما منه بدأ روحانية غير تكليفية، ولا ناموسية شيطانية، ولا زخارف هامانية، أعاذنا المولى وإياكم من الشك فيه، والشرك به بمننه وفضله، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وأما نزوله في ظاهر الأمر إلى مصر، وما شاهدناه، ففيها تمكن الشيطان الغوي لعنه الله من قلوب العامة الحشوية، والعقول السخيفة الشرعية مما يسمعون من ألسن الركابية قدام مولانا جل ذكره بما يستقر في عقولهم السخيفة من كلام الهزل والمزاح، ولم يعرفوا أن فيه حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ [القمر:٥].

فأول مسيره إلى المشاهد الثلاثة، وليس فيها آذان ولا إقامة ولا صلاة جماعية، إلا في الأوسط الذي هو المنهج الأقوم، والطريق الأسلم التي من سلكها نجا، ومن تخلف عنها هلك وغوى. ثم إنه علينا سلامه ورحمته، يسير إلى راشده، أيضًا ثلاثة مساجد متفاوتات في بنيانها، وأحسن ما فيهم وأعلاهم وأفضلهم، الذي يصلي الخطيب فيه يوم الجمعة، وتصلي فيه خمس صلوات على دائم الأيام، وهو الوسطاني، وهو دليل على توحيد مولانا جل ذكره، وإثبات خمسة حدود علوية فيه، وهو دليل على حجة الكشف.

والمسجدان اللذان معه متفاوتان في البناء، دليل على الناطق والأساس، وكذلك الناطق في ترتيب حدوده، أفضل من الأساس، والأساس أعظم شأنًا في ترتيب الباطن ورموزه من الناطق في المعقولات والبيان، فلما ظهر التوحيد زالت قدرتها جميعا، وسميت (راشدة) لأن بمعرفة الحجة وهدايته، والأخذ منه يرشد المستجيبون ويبلغون نهاية توحيد مولانا جل ذكره. ثم إن علينا سلامه ورحمته، يدور حول هذا

المسجد الوسطاني في ظاهر الأمر دليل على التأييد لعبده، وقدام المسجد عقبة صعبة الصعود لمن يسلكها، وليس إلى القرافة محجة إلا على هذه العقبة دليل على البراء من الأبالسة، أصحاب الزخرف والناموس وليس للعالم نجاة إلا بالبراءة منهم، كما أن المحجة على هذه العقبة، وهي صعبة مستصعبة لكن فيها افتكاك الرقبة، وهو التخلص من الشريعتين الظاهر والباطن.

أما ما يرونه من وقوفه في الصوفية، واستماعه لأغانيهم، والنظر إلى رقصهم، فهو دليل على ما استعمل من الشريعة التي هي الزخرف واللهو واللعب، وقدرنا هلاكهم.

وأما بئر الزئبق، فهو دليل على الناطق، من فوقه واسع، ومن أسفله ضيق، كذلك الشريعة دخولها سهل واسع، والخروج منها صعب ضيق، لكن من يقفز في هذا البئر ويعرف سره ويقف على معناه، ويريد المولى نجاحه خرج من بابه، وهو دليل على أساسه، والوقوع في الشريعة لابد منه حتما لزما لكل أحد، ويخلص المولى من يشاء برحمته منها، كما قال الناطق في القرآن وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا [مريم:٧١] يعني السابق، حَتْمًا مَّقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا [مريم:٧٢] من الناطق وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ [مريم:٧٢] يعني أهل الظاهر، فِيهَا جِثِيًّا [مريم:٧٢] يعني حيران حزينًا دائمًا. ومن خرج من هذا البئر سالمًا أخذ من الحكام ما يستنفع به، كذلك من كان تحت الشريعة وعلم التأويل ورموزه وتخلص من شبكتيهما جميعًا وعلم ما يراد منه، وصل إلى التوحيد، واستنفع بدينه ودنياه، ومن قفز فيهما:... لا قوة، وهما السابق والتالي انكسرت رجلاه واندق عنقه، دليل على أن من انقطع من السابق والتالي الذين هما الأصلان المحمودان وخالفهما (خسر الدنيا والآخرة، ذلك الخسران المبين).

وأما بئر الحفرة، فهو دليل على الأساس، وهو أشد عذابًا من بئر الزئبق، وأتعب خرجا، لأن من اعتقد الظاهر، وهي الشريعة، إذا بلغ الباطن اعتقد أنه ليس فوق

الأساس شيء، وأنه الغاية والمعبود، فيبقى في العذاب الأبدي، إلى أن يريد المولى منجاته، فيحتاج الداعي أن يتعب معه من قبل أن يكسره ويجبره ويخرجه مما هو عليه من الكفر والشرك. وأما لعب الركابية بالعصي والمقارع، قدام مولانا جل ذكره فهو دليل على مكاسرة أهل الشرك والعامة وتشويههم بين العالم، وإظهار أديانهم المغاشم ويكشف زيفهم باستجرائهم على المخاطبة بحضرته.

أما الصراع، فهو دليل على مفاتحة الدعاة بعضهم لبعض، وقد كان للعالم في قتل سويد والحمام عبرة لمن اعتبر، ونجاة من الشرك لمن تدبر، لأنهما كانا رئيسين في الصراع، ولكل واحد منهما عشيرة وأتباع وهما دليلان على الناطق والأساس، وقتلهما دليل على تعطيل الشريعتين التنزيل والتأويل، والهوان بالطائفتين أهل الكفر والتلحيد.

وأما ما ذكره الركابية من ذكر الفروج والأحاليل، فهما دليلان على الناطق والأساس، وقوله: (أرني قمرك) يعني اكشف عن أساسك وهو موضع يخرج منه القذر، دليل على الشرك فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله، أي عبادة أساسه، نجا من العذاب والزيغ في اعتقاده، ومن شك هلك. كما أن الإنسان إذا لم يبل ولا يتغوط أخذه القولنج فيهلك. والنار ها هنا علم الحقيقة وتأييده جل ذكره فيحرق ما أتت به الشريعتان، كما أنهم يحرقون فروج بعضهم بعضًا في النار، دليل على احتراق دولتهما وانقضاء مدتهما، وإظهار توحيد مولانا جل ذكره بغير شاك فيه، لا يشرك به لا ناطق جسماني، ولا أساس جرماني، ولا سابق روحاني، ولا تال نفساني، ولا يبقى لمنافق جولة، ولا لمشرك دولة، ويكون أولو الأمر منكم وأهل الحساب منكم والمتصوفون في جميع الدواوين منكم، والعمال منكم، ويكون الموحدون لمولانا جل ذكره في نعيم دائم وإحسان غانم، وملك قائم... فعليكم معاشر الإخوان الموحدين لمولانا

جل ذكره، العابدين له وحده دون غيره بالحفظ لإخوانكم، والتسليم لمولانا جل ذكره، والرضا بقضائه في السراء والضراء، تنجوا من عذاب الدين وشقوة الدنيا، بمنة مولانا وقوته).

وهكذا نرى أن حمزة لم يأت بجديد في موضوع ألوهية الحاكم، وإن فاق الكثير دهاء ومكرا وعداوة للإسلام، وتلاعبًا بالألفاظ وتأويل حلزونية.

وحمزة بعد هذا كله لم يأت بدليل على ألوهية الحاكم، إذ لينه وتواضعه وكرمه دليل على اللاهوت، وشجاعته وشدته دليل أيضًا، بل سدل شعره وارتداؤه الصوف واللعب بالإحليل والفرج دليل كذلك.

وهكذا فإن الإنسان العاقل وهو يقرأ هذه السخافات لا يستطيع إلا أن يرثي لحال هؤلاء الذين - لا يزال حمزة - يلعب بعقولهم فيؤمنون بأقواله وسخافاته... ويقف حائرًا أو حزينًا أمام هذه الأقوال (المقدسة عندهم) وإلى تبتر الخيط الرفيع بين الدرزي والإسلام؟!.

(باب تطور المذهب الدرزي بعد الحاكم)

أشرنا فيما تقدم إلى شغف الحاكم بالطواف بالليل، ولاسيما في جنبات جبل المقطم، وكان يتوغل في الجبل، (وفي ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٠٢١م) خرج الحاكم كعادته للطواف - في الجبل، وليس معه أحد إلا ركابي وصبي).

ولكن الحاكم لم يعد، وأرجح الروايات أن أخته ست الملك قد دبرت اغتياله، وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي (فقد دفعها إلى تدبير اغتياله أمران:

١ - أنها لما رأت أعمال الحاكم الشنيعة، خافت أن يخرب بيت الخلافة الفاطمية على يديه، فقد كرهته قبيلة كتامة صاحبة الفضل الأكبر في قيام الدولة

الفاطمية في المغرب، والتي كانت لها مكانة عالية في مصر بعد فتحها، بسبب إعدامه لكثير من وجهائها، وحده من نفوذها، كما كرهه أهل مصر لتصرفاته الشاذة، وكرهه الجند أيضًا بسبب تصرفاته مع قوادهم، ومعهم أنفسهم.

٢ - أنها خافت على نفسها من بطشه، إذ اتهمها بسوء سلوكها مع الرجال، وما أيسر أن ينفذ وعيده لها، لهذا آثرت أن تقضي عليه قبل أن يقضي عليها).وتؤكد الروايات التاريخية هذين الأمرين، ومما أورده المؤرخون ما نقله ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة عن ابن الصابئ: (أن الحاكم لما بدت عنه هذه الأمور الشنيعة استوحش الناس منه، وكان له أخت يقال لها ست الملك، من أعقل النساء وأحزمهن، فكانت تنهاه وتقول: يا أخي، احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك. فكان يسمعها غليظ الكلام ويتهددها بالقتل، وبعث إليها يقول: رفع إلي أصحاب الأخبار أنك تدخلين الرجال إليك وتمكنينهم من نفسك، وعمل على إنفاذ القوابل لاستبرائها، فعلمت أنها هالكة).ويضيف ابن الجوزي في المنتظم: (وراسلت ست الملك قائدًا يقال له: ابن دواس (من شيوخ كتامة)، كان شديد الخوف من الحاكم أن يقتله، فقالت: إني أريد أن ألقاك، إما أن تتنكر وتأتيني، وإما أن أجيء أنا إليك فجاءت إليه، فقبل الأرض بين يديها وخلوا، فقالت له: لقد جئتك في أمر احرس نفسي ونفسك، فقال: أنا خادمك، فقالت: أنت تعلم ما يعتقده أخي فيك، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك، وأنا كذلك، ونحن معه على خطر عظيم، وقد انضاف إلى ذلك ما قد تظاهر به، وهتكه الناموس الذي قد أقامه آباؤنا، وزيادة جنونه، وحمله نفسه على ما لا يصبر المسلمون على مثله، فأنا خائفة أن يثور الناس علينا فيقتلوه ويقتلونا وتنقضي هذه الدولة أقبح القضاء. قال: صدقت فما الرأي؟ قالت: تحلف لي وأحلف لك على كتمان ما جرى بيننا من السر وتعاضدني على ما فيه

الراحة من هذا الرجل، فقال لها: السمع والطاعة، فتحالفا على قتله وأنهما يقيمان ولده مقامه، وتكون أنت صاحب جيشه ومديره، وقالت: اختر لي عبدين من عبيدك تثق بهما على سرك وتعتمد عليهما في مهمك). ويقول ابن كثير: (فجهز من عنده عبدين أسودين شهمين، وقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا في جبل المقطم، ففي تلك الليلة يكون الحاكم هناك في الليل لينظر في النجوم، وليس معه أحد إلا ركابي وصبي، فاقتلاه واقتلاهما معه، واتفق الحال على ذلك... وفي تلك الليلة ركب وصحبه صبي وركابي، وصعد جبل المقطم فاستقبله ذانك العبدان فأنزلاه عن مركوبه وقطعا يديه ورجليه، وبقرا بطنه، فأتيا به مولاهما ابن دواس، فحمله إلى أخته فدفنته في مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر والوزير وقد أطلعته على الجلية، فبايعوا لولد الحاكم أبي الحسن علي، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله). ولكن ابن الأثير يقول: (أنه توجه إلى شرقي حلوان ومعه ركابيان فأعادت أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وأمر لهم بجائزة، ثم عاد الركابي الآخر، وذكر أنه خلفه عند العين والمقصبة.

وبقي الناس على رسمهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه إلى سلخ شوال، فلما كان ثالث ذي القعدة خرج مظفر الصقلبي، صاحب المظلة وغيره من خواص الحاكم، ومعهم القاضي، فبلغوا عفان، ودخلوا إلى الجبل، فبصروا بالحمار الذي كان عليه راكبًا، وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه، فاتبعوا الأثر، فانتهوا به إلى البركة التي شرقي حلوان، فرأوا ثيابه، وهي سبع قطع صوف وهي مزررة بحالها لم تحل، وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكوا في قتله). وينفي المقريزي هذه الروايات ويقول: (وقيل أن أخته قتلته، وليس بصحيح). ويروي أيضًا عن المسبحي: (وفي محرم سنة خمس عشرة وأربعمائة قبض على رجل من بني حسين ثار بالصعيد

الأعلى فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم، وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، فقيل له: لم قتلته؟ فقال: غيرة لله وللإسلام، فقيل له: كيف قتلته؟ فأخرج سكينًا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه).

ولما طويت صفحة الحاكم، واستقر في الأذهان مصرعه، وصفا جو الريبة التي ثارت حول اختفائه، أخذ الظاهر بوحي عمته ست الملك، في نقض سياسة أبيه تباعا، فألغى أحكام التحريم التي أصدرها الحاكم، وطورد الملاحدة أصحاب حمزة والمنادون بألوهية الحاكم في عهده بمنتهى الشدة، وقبض على زعمائهم وشيعتهم، وقتل كثيرون منهم، وصدرت الأوامر بتتبعهم في سائر الأنحاء وهرب زعيمهم حمزة بن علي.

أما الدروز فيقولون بغيبة الحاكم، وهذا يتمشى مع اعتقادهم أن الألوهية قد حلت في ناسوته: وكان لاختفاء الحاكم على هذا النحو فرصة لإذكاء دعوتهم وتغذيتها، واتخذوا من هذا الاختفاء وظروفه الغامضة مستقى جديدا لدعوتهم. فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عندما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلًا، وأصبح هذا الادعاء أصلًا مقررًا من أصول عقيدتهم.

ويوجد بين رسائل الدروز رسالة عنوانها (السجل الذي وجد معلقًا على المشاهد في غيبة مولانا الإمام الحاكم)، وتاريخها في شهر ذي القعدة سنة ٤١١ هـ، أي بعد اختفاء الحاكم بأيام قلائل. (وتبدأ الرسالة بـ (التوبة) إلى الله تعالى، وإلى وليه وحجته على العالمين، وخليفته في أرضه، وأمينه على خلقه أمير المؤمنين)... إلى أن تقول: وأنه قد سبق إليكم، أعني إلى الناس من الوعد والوعظ والوعيد من ولي

أمركم، وإمام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة باريكم... إلخ).

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي عن هذا السجل: (ونحن نعتقد أن هذا السجل ليس من وضع حمزة بن علي، لأنه يخالف كل العقائد التي دعا إليها حمزة، - وذلك لأمرين -:

١ - فهو ينعت الحاكم بأنه (ولي أمركم، وإمام عصركم، وخلف أنبيائكم)، وأنه ولي الله و (خليفته في أرضه) و (أمير المؤمنين)، وهذه الصفات تتنافى مع ما ذهب إليه حمزة في رسائله، وخصوصًا في (ميثاق ولي الزمان) حيث نعت الحاكم بأنه (مولانا الأحد، الفرد الصمد).

٢ - إن هذا السجل يمجد في الحاكم بأمر الله أنه أحيا (سنة الإسلام والإيمان) التي هي الدين عند الله، وبه شرفتم وظهرتم في عصره على جميع المذاهب والأديان... فدخلوا في دين الله أفواجًا، وبنى الجوامع وشيدها، وعمر المساجد وزخرفها، وأقام الصلاة في أوقاتها، والزكاة في حقها وواجباتها، وأقام الحج والجهاد، وعمر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الإسلام): فكيف يتفق تمجيد الحاكم بسبب إحيائه سنن الإسلام، والسهر على أركانه، مع ما يذهب إليه حمزة بن علي في (ميثاق ولي الزمان) من أن من يدخل في ديانة التوحيد التي دعا إليها، فعليه أن يتبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها).

وأرى أن هذا السجل، لا يمكن أن يكون من وضع حمزة أو أحد دعاته، لأنه في الواقع ينفي كل ما ذهب إليه الدروز في اعتقاداتهم بأن الحاكم هو الإله، وليس الإمام أو الخليفة، وكما سنرى في الفصول القادمة، فإن هذه الألقاب لا يجوز أن يوصف بها الحاكم. ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أيضًا: (أن صاحب المصلحة في ذلك، كان أصحاب السلطة والوزراء، أو من شابههم، وذلك حتى يكون إعلانًا عامًا للناس،

وطمأنة لهم، وتخويفًا في نفس الوقت، خصوصًا وأن الناس يكرهون الحاكم، وأنه قد يحدث بعد وفاته اضطرابًا في الأمن واختلالًا في أحوال الدولة).وإلى جانب هذا السجل، هناك رسالة أخرى كتبها أحد أكابر الدعاة وأحد الحدود الخمسة عند الدروز، وهو المقتني بهاء الدين وعنوانها (رسالة الغيبة).

يقول فيها: (معشر الموحدين، إذا كنتم تتحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه، وقد عدمته أبصاركم... وإذا فسدت المعدة ضرت البصر، فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة، فينظروا صورة الناسوت نظرًا صحيحًا، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأسس وشرائعهم، فيفسد النظر، وما ينظر إلا بشر... ثم يقول: ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه. معشر الإخوان، أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم).

(وهذا وقد مضى إلى اليوم عشرة قرون، ولا يزال الدروز يؤمنون برجعته ويرقبونها، ولم يحدد لنا الدعاة متى تكون هذه الرجعة؟ ولكن يقولون: إنه متى حلت الساعة، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين، ويقصدون إلى مكة في كتائب جرارة، وفي غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليماني من الكعبة، وهو يشهر بيده سيفا مذهبا، ثم يدفعه إلى حمزة بن علي فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس. ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد (الكلمة) وهو أحد الحدود الخمسة عندهم، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة، ويسحقون المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض، ويملكون العالم إلى الأبد، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق، الأولى: الموحدون، والثانية: أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود، والثالثة: أهل الباطن وهم النصارى والشيعة، والرابعة: المرتدون وهم الجهال، ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين، فيدمغهم

في الجبين أو اليد، بما يميزهم من غيرهم، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة). وكما يزعم جنبلاط فإن هذا الدور سيكون في حدود سنة (٢٠٠٠م)، حيث سيكون بتحلٍ إلهي حر بفتح الطريق للناس من جديد للإيمان بالحاكم.

وفي رسالة (الإعذار والإنذار) يصرح حمزة فيها بأنه الإمام وأنه سيغيب أيضا، على أن يرجع مرة أخرى بعد قليل، ويصرح بهاء الدين المقتني أنه عندما غاب المعبود (أي الحاكم)، امتنع قائم الزمان (أي حمزة) عن الوجود، فمن ذلك كله نقول: إن حمزة خاف على نفسه بعد اختفاء الحاكم، واختفى هو الآخر. وقد قام بأمر الدعوة في غيبة حمزة، الداعي بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي، المعروف بالضيف، لأن مرتبته في الدعوة هي مرتبة الجناح الأيسر أو التالي، وهذه المرتبة يكون صاحبها لسان الدعوة، واستمر بهاء الدين الضيف يحمل عبء هذه الدعوة، ويكتب رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول في مذهبه، كما كتب إلى الذين خرجوا عن المذهب بعد أن كانوا من دعاته أمثال سكين.وقد كثرت الآراء الجديدة من معتنقي المذهب الجديد، مما جعل بهاء الدين يهدد أتباعه باعتزال الدعوة، وبالفعل اعتزلها سنة ٤٣٤ هـ، بعد أن أقفل باب الاجتهاد، حرصًا على المبادئ التي وضعها حمزة والتميمي وبهاء الدين نفسه، ولذلك لم يظهر مشرعون بعد بهاء الدين، بل أصبح شيوخ الدروز يشرحون رسائل حمزة والتميمي وبهاء الدين).تلك هي نظرية دعاة الدروز ومزاعمهم في غيبة الحاكم وفي رجعته، ولم يجد أصحاب هذه الدعوة ملجأ لها، إلا وادي التيم في الشام بعد انهيار دعوتهم في مصر، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك، من قبيلة تنوخ وغيرهم الذين استمالهم الدرزي عندما هرب من بطش الجند والناس في مصر، ومازالت بقيتهم إلى يومنا هذا، (وهم طائفة الدروز حيث يعيشون الآن في

لبنان وسوريا وفلسطين)، في مجتمع مغلق على نفسه بسرية تامة، فلا يسمحون لأي إنسان أن يعتنق مذهبهم أو أن يتعرف أحد على مبادئه، فلا جدوى عندهم أن تعرض على أي كادر أن يصبح درزيًا، فكل إنسان يظل على ما هو عليه، لأن الروح الدرزية تنتقل بعد الموت وتتقمص في جسد درزي آخر. هذا وقد ظهر بين الدروز في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، أي بعد قيام الدعوة الدرزية بأكثر من أربعة قرون ونصف، عالم درزي اسمه الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي، والذي تذكر عنه الروايات أنه كان صالحًا فقيهًا حاول أن يعيد الدروز إلى الإسلام من جديد، وذلك بدعوتهم لقراءة القرآن وبناء المسجد والقيام بأركان الإسلام، ولكن يبدو أن ثمرة جهوده قد اندثرت بعد وفاته وعاد الدروز إلى ما كانوا عليه.

وقد عثرت على مخطوط عنوانها (رسالة في معرفة سر ديانة الدروز) ومؤلفها مجهول، ويبدو أنها كتبت قبل فترة ليست بالطويلة، وذلك من خلال أسلوبها ولهجتها اللبنانية، وسنورد بعض المقتطفات فيها هنا، وهي تبين لنا بشكل واضح أهم معتقدات الدروز وتطورها بعد مقتل الحاكم، والرسالة كتبت على طريقة السؤال والجواب كما يلي:

س: أدرزي أنت؟

ج: نعم بنعمة مولانا الحاكم سبحانه.

س: ما هو الدرزي؟

ج: هو الذي كتب الميثاق بعد مولانا الخالق.

س: ماذا فرض عليكم؟

ج: صدق اللسان، وعبادة الحاكم، وباقي الشروط السبعة.

س: بماذا تعرف أنك درزي موحد؟

ج: بأكل الحلال، وترك الحرام.

س: ما هو الحلال والحرام؟

ج: الحلال هو مال العقال، والفلاحين، وأما الحرام فمال الحكام والمرتدين.

س: كيف ومتى كان ظهور مولانا الحاكم؟ ج: كان في السنة الأربعمائة من الهجرة الإسلامية.

س: وكيف ظهر وقال. أنه من نسل محمد حتى أنه أخفى لاهوته ولِمَ أخفاه؟

ج: لأن عبادته كانت قليلة والذين يحبونه ليسوا كثيرين.

س: ومتى ظهروأشهر لاهوته؟

ج: بعد ثماني سنين بعد الأربعمائة.

س: وكم سنة أقام لاهوته بالأشهاد؟

ج: السنة الثامنة بكمالها، وغاب التاسعة لأنها سنة استتار وظهر أول العاشرة والحادية عشرة، ثم اختفى في الثانية عشرة ولم يظهر بعدها حتى يوم الدين.

س: وما هو هذا يوم الدين؟

ج: هو اليوم الذي يظهر فيه الناسوت، ويحكم فيه العالم بالسيف والعنف..

س: ومتى يكون ذلك؟

ج: إن ذلك أمر غير معلوم، ولكن العلائم تظهر.

س: وما هي هذه العلائم؟

ج: إذا رأيت الملوك انقلبت، والنصارى قويت على المسلمين.

س: وفي أي شهر يكون هذا؟

ج: هذا يكون في جمادى أو رجب على حساب المعاجزين.

س: وكيف يكون حكمه على الطوائف والملل؟

ج: يظهر عليهم بالسيف والعنف ويهلك الجميع.

س: وبعد هلاكهم ماذا يكون؟

ج: يرجعون بالولادة ثانية على حكم التناسخ ثم يحكم بينهم كما يريد.

س: كيف يكونون وهو يحكم بينهم؟

ج: يكونون أربع فرق: نصارى، ويهود، ومرتدين، وموحدين.

س: لماذا إنكار الكتب سوى القرآن؟ ج: اعلم أنه من حيث لزمنا الاستتار بدين الإسلام، وجب علينا الإقرار بكتاب محمد، ولا خلل علينا بذلك، وصلاة الجنازة على الموتى بموجب الاستتار لا غير، لأن المذهب الطاهر اقتضى ذلك.

س: من أين عرفنا شرف قيام الحق من حمزة بن علي سلامه علينا؟

ج: من شهادته لنفسه حيث قال في رسالة (التحذير والتنبيه): (أنا أصل مبدعات المولى، وأنا سراطه والعارف بأمره، وأنا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور، أنا صاحب البعث والنشور، أنا النافخ في الصدور، وأنا الإمام المتين، وأنا صاحب النعم، وأنا ناسخ الشرائع ومبطلها، وأنا مهلك العالمين، وأنا مبطل الشهادتين، وأنا النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة).

س: وما هو دين التوحيد الذي عليه الدروز، والعقال مستدلون؟

ج: هو الكفر بكل الملل والطوائف، لأن بالذي كفروا نؤمن نحن، كما قيل في رسالة (الإعذار والإنذار).س: فإذا عرف أحد دين مولانا، وصدق به، وانقاد إلى دين التوحيد وعمل بحسبه، فهل له خلاص؟

ج: كلا، لأنه غلق الباب، وتم الكلام، وإذا مات يرجع إلى ملته ودينه القديم.

س: متى خلقت نفوس العالم كلها؟

ج: بعدما خلق العقل، الذي هو حمزة بن علي، ثم خلقت الأرواح، كلها من

نوره، وهي معدودة لا تزيد ولا تنقص مدى الزمان.

س: أيليق أن يسلم التوحيد للنساء؟

ج: نعم لأن مولانا كتب عليهن العهد، وأطعن إلى دعوة الحاكم كما هو مذكور في رسالة (ميثاق النساء)، وكذلك في رسالة (البنات).

س: وكيف تقول في بقية الملل الذين يقولون أننا نعبد الرب الذي خلق السماء والأرض؟

ج: إنهم، وإن قالوا كذا فلا يصح، لأن العبادة لا تصح بلا معرفة فإن قالوا عبدنا ولم يعرفوا أن الرب هو الحاكم بذاته فتكون عبادتهم باطلة.

س: مَنْ مِنَ الحدود يصف حكمة المولى سبحانه الذي عليه مبنى ديننا؟

ج: إن وصف ذلك، ثلاثة من الحدود، وهم حمزة وإسماعيل وبهاء الدين.

س: كيف نعرف أخانا الموحد إذا رأيناه في الطريق ومر بنا يقول إنه فينا؟

ج: بعد اجتماعنا فيه والسلام، تقول له في بلدكم فلاحون يزرعون الأهليلج، فإن قال: نعم مزروع في قلوب المؤمنين، فنسأله عن معرفة الحدود، فإن أجاب، وإلا فهو الغريب.

س: ما هي الحدود؟

ج: هم أنبياء الحاكم الخمسة، حمزة وإسماعيل ومحمد الكلمة وأبو الخير وبهاء الدين.

س: هل للجهال من الدروز خلاص أو مرتبة عند الحاكم إذا ماتوا على ما هم عليه من غير عقل؟

ج: لا خلاص لهم بل يكونون عند مولانا الحاكم في اللباس والمعيار أبدًا.

س: ما هي نقطة البيكار؟

ج: هو حمزة بن علي.

س: ما هو القديم والأزل؟

ج: إن القديم هو حمزة، والأزل أخوه إسماعيل.

س: ما هي حروف الصدق وكم عددها؟

ج: مائة وأربعة وستون حرفا، وهي الدعوة والتقي والمكاسرون وهم الأنبياء التي كانت لمولانا الحاكم.

س: ما هي حروف الكذب؟

س: وما هو دين التوحيد الذي عليه الدروز، والعقال مستدلون؟

ج: هو الكفر بكل الملل والطوائف، لأن بالذي كفروا نؤمن نحن، كما قيل في رسالة (الإعذار والإنذار).س: فإذا عرف أحد دين مولانا، وصدق به، وانقاد إلى دين التوحيد وعمل بحسبه، فهل له خلاص؟

ج: كلا، لأنه غلق الباب، وتم الكلام، وإذا مات يرجع إلى ملته ودينه القديم.

س: متى خلقت نفوس العالم كلها؟

ج: بعدما خلق العقل، الذي هو حمزة بن علي، ثم خلقت الأرواح، كلها من نوره، وهي معدودة لا تزيد ولا تنقص مدى الزمان.

س: أيليق أن يسلم التوحيد للنساء؟

ج: نعم لأن مولانا كتب عليهن العهد، وأطعن إلى دعوة الحاكم كما هو مذكور في رسالة (ميثاق النساء)، وكذلك في رسالة (البنات).

س: وكيف تقول في بقية الملل الذين يقولون أننا نعبد الرب الذي خلق السماء والأرض؟

ج: إنهم، وإن قالوا كذا فلا يصح، لأن العبادة لا تصح بلا معرفة فإن قالوا عبدنا

ولم يعرفوا أن الرب هو الحاكم بذاته فتكون عبادتهم باطلة.

س: مَنْ مِنَ الحدود يصف حكمة المولى سبحانه الذي عليه مبنى ديننا؟

ج: إن وصف ذلك، ثلاثة من الحدود، وهم حمزة وإسماعيل وبهاء الدين.

س: كيف نعرف أخانا الموحد إذا رأيناه في الطريق ومر بنا يقول إنه فينا؟

ج: بعد اجتماعنا فيه والسلام، تقول له في بلدكم فلاحون يزرعون الأهليلج، فإن قال: نعم مزروع في قلوب المؤمنين، فنسأله عن معرفة الحدود، فإن أجاب، وإلا فهو الغريب.

س: ما هي الحدود؟

ج: هم أنبياء الحاكم الخمسة، حمزة وإسماعيل ومحمد الكلمة وأبو الخير وبهاء الدين.

س: هل للجهال من الدروز خلاص أو مرتبة عند الحاكم إذا ماتوا على ما هم عليه من غير عقل؟

ج: لا خلاص لهم بل يكونون عند مولانا الحاكم في اللباس والمعيار أبدًا.

س: ما هي نقطة البيكار؟

ج: هو حمزة بن علي.

س: ما هو القديم والأزل؟

ج: إن القديم هو حمزة، والأزل أخوه إسماعيل.

س: ما هي حروف الصدق وكم عددها؟

ج: مائة وأربعة وستون حرفا، وهي الدعوة والتقي والمكاسرون وهم الأنبياء التي كانت لمولانا الحاكم.

س: ما هي حروف الكذب؟

س: ما المراد بالجن والملائكة والأبالسة في كتاب حمزة؟

ج: إن المراد بالجن والأبالسة الناس الذين لم يطيعوا دعوة مولانا الحاكم، وأما الشياطين فأرواح خبيثة لا أجسام. أما المراد بالملائكة المقربين والمستجيبين لدعوة الحاكم بأمره، فهو الرب المعبود في كل الأدوار.

س: ومن هم الحرم الأربعة؟

ج: هم إسماعيل ومحمد وسلامة وعلي، وهم الحكمة، النفس، بهاء الدين، ابن أبي الخير.

س: ولماذا تسموا حرما؟

ج: لأن حمزة هو بمقام الرجال، وهم نسوان، لأنهم عنده بمنزلة النساء في طاعتهم له.

س: وما ذكر الأحاليل والفرج؟

ج: أشار إلى حالة ولا محلة، لأن الإحليل يقوي ويعمل الحركة، على فرج المرأة، وكذلك مولانا جعل سلطان لاهوته يغلب المشركة كما رأينا في رسالة يقال لها (حقائق الهزل).

س: ولماذا أوصانا حمزة بن علي بأن نخفي الحكمة ولا نكشفها؟

ج: لأن فيها أسرار مولانا وعهوده، فلا يجب أن نكشفها إلى أحد لأنها خلاص النفوس وهي حياة الأرواح.

س: ألعلنا نحن نخلص، ولا نريد كل الناس أن تخلص؟

ج: هذا ليس من طريقته، لأن الدعوة ارتفعت وغلق الباب وكفى من آمن، وكفر من كفر.

س: وما معنى إبطال الصدقة على بعض الناس؟ ج: إن الصدقة لا تجوز عندنا،

إلا على أخينا الموحد العاقل، وأما على غيره فهي حرام أبدا. والدروز في الوقت الحاضر، يحاولون أن يطوروا دينهم، بما يتناسب وروح العصر، وذلك بطباعة ما يسمى بـ (مصحف الدروز) أو المنفرد بذاته، والذي ينسب تأليفه إلى كمال جنبلاط أحد زعمائهم بالتعاون مع عاطف العجمي.

ويحاول كاتب هذا المصحف أن ينسبه إلى حمزة بن علي ولكن من المؤكد أن هذا المصحف قد كتب حديثًا، والدليل على ذلك ألفاظه وأسلوبه العصري، والتي تدل على أنه كتب في العصر الحاضر، لذلك لا نستبعد أن يكون كاتبه كمال جنبلاط.

وكاتب هذا المصحف، يحاول فيه أن يحاكي القرآن الكريم، بل يحاول أن يقتبس الكثير من الآيات القرآنية، والتي توافق هواه، فيبدل ويحور فيها، ويضيف ما يشاء من عنده، ليبرهن إلى ما يرمي إليه.

وقد حاولت أن أجمع الآيات، التي حورها وبدلها، فتبين لي أن الآيات كانت فقط آيات مشاهد القيامة، والجنة والنار، وكذلك آيات الوعيد للكافرين بالعذاب والجحيم، وآيات الجنة والنعيم للمؤمنين.

وكل هذه الآيات يحورها إلى ما يرمي إليه، وهو أن العذاب سيكون لكل من يكفر بألوهية الحاكم، والنعيم سيكون للموحدين الذين يعبدون الحاكم.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في عرف الأمر والتقديم إذ يقول: (أنتم وما تعبدون مكبكبون على وجوهكم، يوم ينادي منادي مولاكم الحاكم من مكان بعيد: هذا يومكم الذي فيه توعدون، تتلوها أيام العذاب إنكم لخالدون ولات محيص... إلى أن يقول: وإلا فقولوا لي أيها الضالون المعاندون، فهل جاء لكم رب غيره مع جنوده، أروني إن كنتم صادقين). ويقسم هذا المصحف إلى أربع وأربعين عرفا، ويقع في مائتين وتسع وستين صفحة، ويقول كاتبه في مقدمته: (جرى تقسيم هذا المصحف

المكرم وفق المواضيع لتسهيل الاطلاع عليه. ووضع لكل فصل تسمية تنطبق مع ما ورد فيه من معان، ولقد اخترنا اسم العرف تناسبا مع ما يطلق على أبناء التوحيد: كنيتم بالأعراف ووصفتم بالأشراف).

وفي أوائل صفحات هذا المصحف، يعرف كاتبه بالأسماء والعبارات والإشارات التي وردت في ثناياه، ومما يذكر أن في بعض أعراف هذا المصحف عبارات غريبة، كتبت بأحرف عربية، ولكنها لغة غير معروفة، لا يعرف معناها، والظاهر أنها ألغاز، ولذلك يقول كاتبه: أنه لا يريد أن يظهر معناها، لأن لها معان سرية لا يجوز لكل واحد الاطلاع عليها. ومن أمثلة ذلك ما ورد في عرف (شمس المغيب): (يوديلووهكا طران كنان وهقويكان سهى وهطمكل واطغظلوا أو هكهز كان بطكة وعد ودلولذوسلر).

وقد بدأ هذا المصحف بـ (عرف الفتح) نورده هنا، لنعرف بعض ما يرمون إليه من هذا المصحف: (به، والحمد له على هذا النور، والشكر والفضل لذوي الصلات موالينا الحدود صلى الله عليهم ومن قبل ومن بعد، والموحدون في صياصيهم يرجعون ما أمر المولى به أن يوصل. الحمد أبدأ للذي وفقنا لحفظ الحكمة في صدورنا من مصحفه المنفرد بذاته، نرتله مستضيئين، وهو الذي انشقت عنه سماء القدرة بمنة آلاء التجليات، فانفجرت منه اثنا عشرة عينا قد علم الموحدون مشربهم. الحمد لك مولانا، أنت الذي فتحت أبواب قلوبنا على حكمه وأحكامه، وآدابه وتأويله وإعرابه، وأنت الذي ألهمتنا تدبر معانيه في حقيقته ومجازه، وإيجازه وإسهابه، ودعوتنا إلى الاعتصام بأمتن أسبابه.

ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، شهادة مشاهد موحد عارف موقن، مؤمن بأيام حسابه، ونشهد أن موالينا وساداتنا الحدود الخالقين، صليت

عليهم، هم فصل خطابك وألسنة ذاتك، وهم موصلو حبال الحق، وجامعو الموحدين على مائدة المعبود، فعليهم منك صلات الصلاة مادامت عين اليقين.

مولانا بك آمنا، ولك أقررنا أن مصحفك هذا، نور الصراط المستقيم هو مسوق إلينا، معروض علينا، دان إلى أفهام قلوب ألبابنا، عال بأسراره وأبنائه، لا يمل من تلاوته، ولا ينزف من حلاوته، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، قريبه حكمه، وبعيده علمه، وهو المجيز عند الخصام، والأسوة سببها لجميع الموحدين ما بين العالمين مدى حيوات الأنام، أسهمه لا تنبو، وعادياته لا تكبو، هو الكل والبعض والجمع والفرق، به تبدل الأعيان، ولا عدة إلا به، والجميع إليه.

مولانا، نستفتح به مصلين حامدين شاكرين، وقد طوينا البيد مؤمنين، وسرنا في رياض جنة المنتهى غير محجوبين عن عيونك، وهذه آيات حكمة مصحفك ترتلها أفئدتنا كرما منك، لتصون بها وجوه كوننا من إحراق العدم. ففي تلاوتها يا مولانا، نرى كشف النور والظلم، وفي نومنا قرارنا، وظعننا وأسفارنا، وسلمنا وحربنا، وصحتنا ومرضنا، وفي مهودنا صابين، وفي شيخوختنا عاجزين، وفي حيواتنا وموتنا، وفي الدنا وفوق أشياخ النجوم. إنك مولانا، نعم المولى ونعم النصير).ويبدو أن جنبلاط كان له الأثر العميق في الدرزية فقد اعترف بذلك في كتابه (هذه وصيتي) فدراسته للمذهب الدرزي أتاحت له الشروع في عمل تحليلي، حيث قارن مذهبه على هدي تعاليم الفيدا الهندوكية والفلسفة اليونانية اللتين أتاحتا له اكتشاف مفاتيح الأسرار الدرزية - كما يزعم - وأعطاه خربًا من السلطة الروحية مما جعل مشايخ الدروز يطلبون رضاه.

وهذا يوضح لنا قدرة جنبلاط وإحاطته بالدين الدرزي، ويؤكد القول بأن المصحف المنفرد بذاته من تأليفه.

ولإعطاء صورة أوضح عن حقيقة العقيدة الدرزية في الوقت الحاضر، نورد حديثًا شخصيًا مع الأستاذ كمال جنبلاط، الرجل الذي ينسب إليه مصحف الدروز، وقد أجراه معه الدكتور مصطفى الشكعة، في كتابه إسلام بلا مذاهب حيث يقول فيه جنبلاط: يرجع تاريخ الدروز إلى ثلاثمائة وثلاث وأربعين مليونا من السنين حين كانت الأرواح بلا أجساد.

الدروز يؤمنون بالتقمص، أي تقمص الأرواح، بمعنى أن الذي يموت لا تصعد روحه إلى السماء بل تتقمص جسد مولود جديد ولذلك فهم لا يزيدون عددا ولا ينقصون لأن النقص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم، وهم لذلك يقولون إن الحياة البرزخية غير موجودة.

الدروز موجودون منذ الأزل، واعتنقوا كثيرا من الديانات على مر الدهور، واعتنقوا الإسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم، ولما كانت العقيدة عندهم متطورة فقد تحولوا عن الإسلام إلى دين آخر مستقل هو الدين الدرزي، أي أن الدرزية كانت مذهبًا إسلاميًا ثم تطورت وأصبحت دينًا مستقلًا، والأقطاب هم الذين يجددون الدين من زمن إلى زمن، وهم يجيئون بأسماء مختلفة بين الفينة والفينة بدافع نظرية التقمص التي يؤمن بها الدروز ولذلك فالدرزية دين متطور يتطور من زمن إلى آخر.

الشريعة الدرزية مأخوذة من القرآن، ومن ستة عشر كتابًا خطيًا لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها، كما أنها تأخذ تعاليمها من الفلسفة اليونانية وبخاصة الأفلاطونية القديمة، والمسيحية والإسلام والبوذية والفرعونية القديمة، ويعتبرون إخوان الصفا من الدروز لتشابه الأفكار بينهما، فقد كان إخوان الصفا يطالبون بمزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية، وبهذه المناسبة يخلط البعض خطأ بين الدرزية والإسماعيلية، والواقع أن الفرق بينهما شاسع كبير. محمد (ﷺ) له مكانة محدودة

عندهم، وهو ليس إلا واسطة الرسالة وحسب، وللدروز خمسة أقطاب منذ القدم، خامسهم وآخرهم الحاكم بأمر الله الفاطمي، ولأبي يزيد البسطامي مكانة عالية سامية، وأما الصحابة فمنهم أربعة لهم مكانة عليا عندهم وهم: سلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري. لا يقبل الدروز أحد في دينهم ولا يسمحون لأحد بالخروج منه، وحتى هؤلاء الذين يخرجون لا يعترف الدروز بأنهم قد خرجوا، ولذلك فإن عدد الدروز في ظل هذه النظرية ونظرية التقمص لا يزيد ولا ينقص، وقد أغلقت أبواب القبول في الدين الدرزي بعد قبول الأمير بشير الشهابي الذي يعتبره الدروز درزيًا.

الدين الدرزي دين صوفي يعتمد على الداخليات والجواهر، ولا يهتم بالشكليات، والطهارة الداخلية أي النفسية الروحية هي الأساس، وأما الطهارة الخارجية فلا قيمة لها. وقد كان الشيوخ يصلون في المساجد إلى عهد قريب، ويصومون رمضان، ويحجون البيت، ولكن هذه الفرائض جميعًا قد رفعت عنهم واستبدلت بتكاليف أخرى).

وفي حديث شخصي آخر أجراه الدكتور الشكعة مع شيخ عقل الدروز الشيخ محمد أبي شقرا، والذي كان أكثر سرية ومواربة في أجوبته، وأقل صراحة من كمال جنبلاط، ومما قاله شيخ العقل:

الصلاة تختلف عن صلاة جمهور المسلمين، فالفروض وإن كانت خمسة إلا أن عدد الركعات في كل صلاة تختلف عن عدد الركعات المعروفة، وربما طريقة الصلاة نفسها، هذا والوضوء ليس ضروريًا مادام المصلي نظيفًا.

الصوم معناه الامتناع عن الرفث، ومعنى ذلك أنه لا يجوز الأكل والشرب مع الصوم، وهو عشرة أيام في ذي الحجة تنتهي بالعيد، كما أن صوم رمضان مستحسن

عن غيره لأن الصوم فيه مضاعف الثواب. الزكاة معطلة ولا حدود لها، ويمكن أن تكون في شكل صدقات، وهي اختيارية، وهي بالتالي ليست فريضة).

ولعل من المفيد ونحن نتحدث عن تطور المذهب الدرزي بعد الحاكم، أن نعطي بعض الملامح لتاريخ الدروز منذ موت الحاكم وحتى القرن الحالي. فعندما جاء الزحف المغولي إلى بلاد الشام سنة ٦٥٧ هـ بزعامة هولاكو، كانت السيطرة على لبنان بيد أمراء الدروز التنوخيين، ولما دخل (كتبغا) ابن هولاكو دمشق جاءه الأمير التنوخي جمال الدين حجي الثاني معلنًا خضوعه له، مما جعل (كتبغا) يقر الأمير الدرزي على مقاطعة الغرب، ولكن مجيء بيبرس من مصر على رأس جيش المماليك لمقاتلة المغول، قلب موازين القوى -في ذلك الوقت-، وهنا ارتأى الدروز أن (يلعبوا على الحبلين)، وذلك أن يبقى أحدهم وهو الأمير جمال الدين بجانب كتبغا، فيما ينضم الأخر أي الأمير زين الدين إلى جانب المماليك، بحيث يكون على قول صالح بن يحيى: (أي من انتصر من الفريقين كان أحدهما معه فسيدخله رفيقه وخلة البلاد)، لأن الانحياز إلى أحد القوتين كان يعني المجازفة بمصيرهم فيما لو خسر الجانب الذي قد ينضمون إليه ؟!.وبعد انتصار المماليك على المغول، استولوا على بلاد الشام دون أن يتعرضوا لمناطق الدروز بسوء، ولذلك وجهوا اهتمامهم لاحتلال المناطق الساحلية التي كانت لا تزال بيد الصليبيين، ولكن بيبرس كانت تساوره الشكوك في حقيقة موقف الدروز، وغدا مليئًا بالشك والحذر منهم، وذلك بعدما نما إلى علمه أن أمراء الدروز على اتصال بوالي طرابلس الصليبي، فأمر بسجنهم ليتسنى له أن يلتفت لغدر الصليبيين.وكل هذا كان قبل قيام الدولة العثمانية، أما بعد قيامها، فقد راودتهم الأحلام القديمة بقيام دولة مستقلة لهم، وخاصة أنهم رأوا الفرصة سانحة لهم لانشغال العثمانيين بقتال الدول

الأوربية المجاورة، فكان أن عملوا على تحقيق هذه الأحلام في عهد الأمير فخر الدين الثاني المنحدر من المعنيين، الذي اتخذ في سبيل ذلك أسلوب المداورة عن طريق حروبه المحلية لبسطة نفوذه على سائر بلاد الشام، ولكن سياسته هذه جعلت العثمانيين يوجسون منه خوفًا، بيد أن تحركه على الصعيد الخارجي عززت تلك المخاوف وأثارت شكوك الباب العالي في ولائه للعثمانيين، وخاصة أن أهدافه الحقيقية بدأت بالوضوح عندما عقد مع دوق توسكانا معاهدة تجارية تضمنت بنودًا عسكرية ضد الدولة العثمانية؟! فقرر السلطان العثماني التخلص من فخر الدين، فجرد عليه حملة قوية برًا وبحرًا سنة ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م، فهرب إلى أوربا عن طريق ميناء صيدا بمساعدة سفينتين إحداهما فرنسية وأخرى هولندية، وهناك أراد أن يؤلب الدول الأوربية ضد الدولة العثمانية، فسعى جاهدًا للحصول على مساعدات عسكرية من أسبانيا وفرنسا والفاتيكان ضد العثمانيين، ولكن مسعاه فشل لأن الظروف الدولية في ذلك الوقت كانت غير صالحة.

وبحكم علاقة فخر الدين أمير الدروز الوطيدة بدول أوربا فقد كان يعطف على الإرساليات الأوربية ويسمح بإنشاء مراكز لها في لبنان وفلسطين، وفضلًا عن ذلك فقد بسط يد الحماية لجميع النصارى في بلاد الشام، حتى صار الأوربيون يدعونه (حامي النصارى في الشرق)، وكان عطف الأمير على الموازنة وتحالفه معهم من أبرز مميزات سياسته الداخلية، وكان أيضًا عاملًا في هجرة الموارنة من مناطقهم إلى مناطق المسلمين، وانتشارهم في أكثر من ثلثي لبنان الحالي، مما قوى مركزهم السياسي في لبنان بعد ذلك ؟!.وكما يذكر كمال جنبلاط فإن إمارة درزية أخرى كانت قائمة في الدولة العثمانية خاضعة لحكم أحد أجداده، ووجدت في شمال سوريا وكانت تشمل حمص وحماة وحلب ودمشق وجزءًا من تركيا الأنضولية، وشأن

الدولة المعينية، فقد عقدت هذه الإمارة أيضًا معاهدات عسكرية مع الفاتيكان ودوقية توسكانا وأسبانيا، وتلقى جده مقابل ذلك دعمًا سياسيًا وعسكريًا.

وفي سنة ١٢٥٣ هـ/ ١٨٣٧ م، قام الدروز بتمرد على محمد علي باشا والي مصر، وكان ذلك في جبل الدروز بحوران بسبب تجريدهم من السلاح وتجنيدهم في الجيش، وبقي هذا التمرد مشتعلًا بعد أن انضم إليه دروز وادي التيم، رغم محاولات محمد علي القضاء عليه، إلى أن جرد عليه حملة قوية سنة ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠ م. وبعد أن وجدت الدول الأوربية الضعف في الدولة العثمانية، عملت على استمالة الأقليات الموجودة داخله، وخاصة في لبنان، الذي كانوا يرون فيه مدخلًا مهمًا لكل مؤامراتهم على الدولة العثمانية، وكانت فرنسا ترى في نفسها مدافعًا شرعيًا عن موارنة لبنان، وقد اتخذت هذه الحجة الواهية ذريعة في سبيل تدخلها في شؤون الدولة العثمانية، وهذه السياسة الفرنسية خوفت بريطانيا مما جعلها سنة ١٨٤١م تعمل على استمالة الدروز إلى جانبها وتقيم علاقات رسمية وودية معهم ومع زعمائهم، ويظهر أن الإنجليز قد فهموا أحلام الدروز بإقامة دولة لهم، فاستغلوها لاستمالتهم وإقامة العلاقات الوطيدة معهم.

وقد بات هذا واضحًا عندما ثار الدروز في جبلهم على الدولة العثمانية سنة ١٨٥١م إذ امتنعوا عن دفع الضرائب، فجردت الدولة العثمانية حملة لتأديبهم، فتدخلت بريطانيا لدى الباب العالي، وصدرت الأوامر من الأستانة بحل المشكلة الدرزية سلمًا، وجاء في برقية الصدر الأعظم الموجهة إلى مدحت باشا (والي الشام) بهذا الصدد: (أن الإنجليز لا يسرون بما تتخذه من التدابير لتأديبهم)، وهذا التدخل شجع الدروز، إذ ما لبثوا أن اعتدوا على المكرك وأم الولد وحرقوا زرعهما في سنة ١٢٩٦ هـ/ ١٨٨٠ م، وعلى قرية (المسمية) في حوران سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠ م.

ثم ثاروا في سنة ١٣١١ هـ/ ١٨٩٣م و ١٣١٣ هـ/ ١٩٨٥م وكذلك في سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م. وكانت اعتداءات الدروز على أهالي حوران قد أثيرت في مجلس المبعوثان العثماني، حيث ندد مبعوث حوران باعتداءات الدروز، مطالبًا الدولة باتخاذ الإجراءات العسكرية الرادعة ضدهم بعد اعتدائهم على الجيش والأهالي، وأنهى خطابه بمطالبة الحكومة بسوق قوة عسكرية على حوران (لصيانة العرض والدين والمال وتأمين الرعية من الخوف).مما تقدم يتضح لنا بأن دروز حوران كانوا في شبه ثورة دائمة ضد الدولة العثمانية، وعندما كانت الولاية تعرض عليهم برامج الإصلاح وتطلب من زعمائهم مساعدتها في تطبيقها، كان الزعماء يقبلون ذلك ثم يرفضونه وهكذا، وبالرغم من ذلك فقد حاولت ولاية سوريا إصلاح الأوضاع الإدارية والاجتماعية في منطقة جبل الدروز عن طريق نشر التعليم بين الدروز بإنشاء المدارس وتعليمهم مبادئ الدين الإسلامي، واتبعت سياسة اللين والرفق مع رؤسائهم الروحانيين، وذلك باستدعائهم إلى دمشق وبذل المساعي لإقناعهم بقبول الإصلاحات، فيبدي الزعماء رضاهم التام لدرجة المطاوعة والانقياد، ولكنهم لم يثبتوا على ذلك طويلًا.

وهكذا يبدو أن ثورات الدروز المستمرة ضد الدولة العثمانية وخاصة بعد سنة ١٨٤١ م، كانت تهدف بالدرجة الأولى الاستقلال عن الدولة وبسط السيطرة الدرزية على لواء حوران بمساعدة وتأييد بريطانيا. وبعد استعمار فرنسا لسوريا، عملت عن طريق عملائها وبكل ما تستطيع من إمكانيات وإغراءات أن تستميل الدروز إلى جانبها ويتركوا الإنجليز، ومن أجل ذلك تابعت فرنسا استمالة زعماء الدروز، فاستطاعت في ٢٠ نيسان ١٩٢١م عن طريق الجنرال (غورو) أن تقنع الأمير سليم الأطرش بإعلان دولة درزية في جبل الدروز وتشكيل حكومة درزية وانتخاب مجلس

نيابي مكون من (٤٠) عضوًا، ورفرف لأول مرة في تاريخ الدروز علمهم المكون من خمسة ألوان.

وعندما رأت بريطانيا أن نفوذها سيزول عند الدروز بسبب هذه الدولة استمالت أحد أمراء الجبل، والذي كان من أهم العوامل التي أثرت على عدم بقاء هذه الدولة وسقوطها.

والحديث عن تاريخ الدروز في القرن الحالي يدفعنا لإعطاء صورة موجزة عن موقف الدروز من دولة إسرائيل، حيث كانوا بعد قيام هذه الدولة على أرض فلسطين من أهم المدافعين عن وجودها، بل إن إسرائيل استطاعت أن تكون كتيبة منهم فيما يسمى بـ (حرس الحدود) كان له دور خطير ومهم في حروب إسرائيل مع الدولة العربية. لذا فإن كمال جنبلاط في كتابه (هذه وصيتي) يعتبر وجود الدروز في إسرائيل مشكلة، ولكن في الوقت نفسه يدافع عن تعاملهم مع دولة العدو وينتقد الفلسطينيين الذين هربوا وتركوا أرضهم وبلادهم ولم يقلدوا الدروز في بقائهم في فلسطين، ولو أنهم بقوا لشاركوا بسهولة في اقتصاد إسرائيل وبالتالي في السلطة السياسية ويكونون أقلية قوية وفعالة في البرلمان، وبالتالي فإن الدروز فيما فعلوه مع إسرائيل قاموا بواجبهم بتعقل، فهم يعلمون أنه لا جدوى في الهجوم على طواحين الهواء - كما يزعم جنبلاط -.

وفي سنة ١٩٨٢م عندما احتلت إسرائيل لبنان، رفضت مليشيات الدروز (الحزب التقدمي الاشتراكي) قتال الجيش الإسرائيلي ورفضت مدفعيته الموجودة في الجبل مساعدة الفلسطينيين، ولذلك استطاع الجيش الإسرائيلي دخول مناطق الدروز دون أن تطلق رصاصة واحدة، وبقيت الأسلحة في يد الدروز رغم وجود الجيش الإسرائيلي في مناطقهم.

(باب الرابع: أشهر دعاة الدروز وآراؤهم)

ترتبط بداية المذهب الدرزي بثلاثة من الدعاة هم: حمزة بن علي بن أحمد الزوزني ويعرف باللباد، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بـ (أنوشتكين أو نشتكين).

والمؤرخون مختلفون في ترتيب أسبقيتهم في الدعوة الجديدة، ومع أن اسم الدروز مرتبط باسم (الدرزي)، إلا أن بعضهم يجعل البداية لحمزة - وهو الأرجح كما سنرى - والبعض الآخر يجعلها لمحمد الدرزي.

أما الدروز فيعتبرون حمزة هو مؤسس المذهب وهو الإمام، وأن الدرزي قد حاد عن تعاليم حمزة، وأنه كان أحد أتباعه، مما جعل حمزة يهاجمه في كثير من رسائله، لذلك فإن الدروز يكرهون الدرزي هذا ويلعنونه.

أما الأخرم فالأرجح أنه كان داعيًا من دعاة حمزة في أول ظهوره. ولكي نعطي لمحة وافية عن هؤلاء الدعاة، نتحدث عن كل واحد منهم، ونبدأ بحمزة بن علي: حمزة بن علي بن أحمد الزوزني: (ولد حمزة في مدينة (زوزن) في خراسان مساء الخميس في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ، وهو اليوم الذي ولد فيه الحاكم بمصر، ولعل ذلك هو السبب في أن الدروز يقيمون الصلاة الأسبوعية مساء كل خميس). واختلف المؤرخون في زمن وفوده إلى مصر، فالبعض منهم يجعلها متقدم كثيرًا في سنة ٣٩٥ هـ، حيث كان عمره عشرين عامًا). وغالبية المؤرخين تجعل موعد قدومه حوالي سنة ٤٠٥ هـ أو قبلها بقليل). وانتظم حمزة بين الدعاة الإسماعيليين الذين كانت تغص بهم القاهرة يومئذ، ويرجح الدكتور محمد كامل حسين أنه لم يكن من الدعاة، بل كان يؤدي عملًا في القصر، وكان على اتصال دائم

بالحاكم، ويضيف قائلًا: (ويغلب على ظني أن حمزة كان أحد الخدم الخصوصيين للحاكم، وكان خادمًا ذكيًا لبقًا ذا حيلة ودهاء وخيال خصب، وكان بحكم عمله في القصر يستمع إلى مجالس الحكمة التأويلية فوعاها وحفظ منها كثيرًا، وربما قرأ كتب الدعوة التي كانت بالقصر فأفادته في تلوين عقليته وتوجيه أفكاره إلى ما يرضي طموحه ويحقق آماله، وظل هذه السنوات يهيئ نفسه لذلك). ومما يؤكد هذا الرأي ركاكة ألفاظه في رسائله - إذ كما يقول الدكتور محمد كامل حسين: - (لم يكن من الكتاب لأن أسلوبه في رسائله وكتبه ليس به هذا الإشراق، وتلك الديباجة، وهذه الرصانة، التي عرفت عن كتاب الفاطميين ودعاتهم). لذلك - وكما يقول الأستاذ عبد الله النجار -: (تنم من تعابيره كلمات فارسية دخيلة على أسلوب الإنشاء العربي). وتقول بول هنري بوردو عن حمزة وأهدافه البعيدة: (وكان حمزة في الحقيقة داهية دهياء متعمقًا في المباحث الدينية القديمة، وأن العقائد التي نادى بها تدل تمامًا على أنها ذات العقائد التي كان ينادي بها المقنع الخراساني، هذا اليهودي الذي هاج في خراسان سنة ١٦٠ هـ).

وسرعان ما أصبحت لحمزة حظوة عند الحاكم، بعدما أظهره من إخلاص، واستطاع بحنكته ودهائه أن يجمع حوله بعض الدعاة ويتفقوا سرا للدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، ومن هؤلاء كان محمد بن إسماعيل الدرزي.

ويظهر أن حمزة بن علي، وكما يتضح في رسائله، قد اتفق مع دعاته ألا يجهر أحدهم أو يكشف عن مضمون المذهب الجديد، إلا بعد تلقي الأوامر منه نفسه، ولكن الدرزي تسرع في الكشف عن أسرار الدعوة الجديدة سنة ٤٠٧ هـ، مما أثار الناس، وحمل حمزة على الكشف عن دعوته سنة ٤٠٨ هـ.

يقول حمزة في (رسالة الغاية والنصيحة) موضحًا هذه النقطة: (وغطريس هو

نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين، وهو الضد الذي سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الإمام، ويدعي منزلته... إلى أن يقول: وكذلك الدرزي كان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب، والثوب هو الداعي، والسترة التي أمره بها إمامه حمزة بن علي بن أحمد الهادي إلى توحيد مولانا جل ذكره).ومهما يكن من شيء فإن الدعاة إلى المذهب الجديد ظلوا في سترهم مدة طويلة يعملون في الخفاء، ويدعون الناس سرًا لمبادئهم وتعاليمهم، حتى قام الدرزي وأعلن الدعوة سنة ٤٠٧ هـ، والذي كما يقال: (قد فتح سجلًا في مساجد القاهرة تكتب فيه أسماء المؤمنين بألوهية الحاكم، فاكتتب من أهل القاهرة سبعة عشر ألفا كلهم يخشون بطش الحاكم).

ويبدو أن هذا الأمر قد أحرج حمزة، مما حمله على الجهر بدعوته الجديدة – كما سبق ذكره – سنة ٤٠٨ هـ، فثار الناس على هؤلاء الدعاة ثورة شديدة ساعدهم فيها الجند الأتراك، مما جعل الدرزي – على أرجح الروايات – يختفي في قصر الحاكم، حيث عمل على تهريبه بعد ذلك إلى وادي التيم في بلاد الشام، والذي كان يقطن به التنوخيون، والذين كانوا يدينون بالولاء للعبيديين، حيث عمل هناك على بث آرائه ومعتقداته بينهم، فانضموا إليه وآمنوا بدعوته.

وبسبب شدة الثورة التي قام بها أهل مصر، على دعاة حمزة وأتباعه، اختفى حمزة أيضًا سنة ٤٠٩ هـ، واعتبرها سنة اختفاء وغيبة. ويصف حمزة سنة ٤٠٩ هـ: (بأنها سنة المحنة والامتحان والعذاب، وأن القصد من الغيبة أن يمتحن الخلق بغيبته، والمحنة هي غيابه الذي عاقبهم فيه). (ويبدو أن غيبته في هذه السنة، كانت استعدادًا للظهور بقوة جديدة للتنظيم بعد ثورة الناس عليه في العام الفائت).ويتبين من رسائل حمزة، أنه في خلال هذه الفترة جعل مقره السري خارج القاهرة في مسجد

(تبر)، ولكن خصومه هاجموا مقره وأحرقوا باب المسجد، ثم وجدوا داخل المسجد بابا من الحجر لا تعمل فيه النار ويصعب نقب جداره). مما تقدم يتضح بداية الخلاف بين حمزة والدرزي، والظاهر أن هذا الخلاف قد تفاقم بعد هروب الدرزي إلى الشام، حيث دعا هناك إلى أراء جديدة خالف بها آراء حمزة، من ذلك تسمية نفسه بـ (سيف الإيمان) و (سيد الهادين)، وكان أيضًا يلعن مخالفي المذهب، بينما يقول حمزة: (اللعنة لا تزيد في الدين ولا تنقص منه)، وكذلك (دعوته للحرية الجنسية). وأرى أن هذا الاختلافات، لم تكن بتلك الأهمية لتأجج الخلاف بين الرجلين، وأن جوهر الخلاف - كما يفهم من كتابات حمزة - إنما كان (بسبب رئاسة الدعوة الجديدة، وهذا الأمر أغضب حمزة، وجعله يعزل الدرزي من مصبه في الشام، ويؤلب عليه أتباعه في الشام فقتلوه سنة ٤١١ هـ). وهذا الخلاف يؤكده حمزة في (رسالة الغاية والنصيحة) إذ يقول: (وكذلك الدرزي سمى نفسه في الأول بسيف الإيمان، فلما أنكرت عليه ذلك وبينت له أن هذا الاسم محال وكذب، لأن الإيمان لا يحتاج إلى سيف يعينه، بل المؤمنون محتاجون إلى قوة السيف وإعزازه، فلم يرجع عن ذلك الاسم وزاد عصيانه، وأظهر فعل الضدية في شأنه، وتسمى باسم الشرك وقال: أنا سيد الهادين، يعني أنا خير من إمامي الهادي). هذا وكانت مدة ظهور حمزة ثلاث سنوات هي: ٤٠٨، ٤١٠، ٤١١، وأما سنة ٤٠٩ هـ فإنها - كانت سنة غيبة له. كذلك فقد اختفى بعد سنة ٤١١ هـ، - وهي السنة التي قتل فيها الحاكم -، حيث مرت سنوات من الكتمان، أيضًا لم يظهر فيها، فقد طورد من قبل الظاهر ابن الحاكم والملك الجديد، (مما اضطره إلى الرحيل إلى بلاد الشام). وبقي حمزة مختفيًا حتى أزيح الستار قليلًا عن نشاطه، برسائل أرسلت إلى سواه وذُكر فيها، أو وجهت إليه، بعد قرابة عشرين سنة من غيابه، منها رسالة المواجهة، التي يتبين منها، أن حمزة كان

لا يزال على اتصال سري بدعاته، وعلى الخصوص بـ (المقتني) بهاء الدين كاتب الرسالة، والذي يبدأها بـ (السلام على الإمام) موجهًا إليه (عبيده الزائرين... رسل العبد الذليل).أما غيبة حمزة الثانية والأخيرة، (فإن رسالة بهاء الدين في (رسالة السفر) والتي يطلب فيها من المؤمنين، الإيمان برجوع حمزة، وإلى طاعة ولي الحق الإمام المنتظر، توضح هذه الرسالة - والتي كتبت في السنة الثانية والعشرين من سني حمزة أي سنة ٤٣٠ هـ - أن حمزة قد اختفى أو مات سنة ٤٣٠ هـ).

مع أن هناك من يقول: (أنه مات سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠م)).وأما مكانة حمزة عند الدروز، فهو الإعظام والإجلال، (فالحديث عنه مقرون دائمًا عندهم بالإجلال والإعظام سواء أكان ذلك في مجرى حديث لسان أو على مسرى صفحة من كتاب مطبوع، أو ورقة من سفر مخطوط).

وهو عندهم - وكما سمى نفسه في رسائله -، الإمام، وقائم الزمان، وهادي المستجيبين المنتقم من المشركين، وعلة العلل، والعقل الكلي، والإرادة، والقلم، والطور، والكتاب المسطور وهو أيضًا المسيح الحق... إلى غير ذلك من الأسماء والألقاب التي أطلقها على نفسه. وحمزة يفتتح رسائله غالبًا بهذه الديباجة، وكما وردت في (رسالة البلاغ والنهاية): (تأليف عبد مولانا جل ذكره، هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين سيف مولانا جل ذكره).وكذلك نجده في (الرسالة الموسومة بسبب الأسباب) يصف نفسه بهذه الألقاب أيضًا بأنه: (الإرادة فهو علة العلل، وهو العقل الكلي، وهو القلم، وهو القاف، وهوا القضاء، وهو الألف بالابتداء، وهو الألف بالانتهاء... إلى أن يقول: وهو سبحانه منزه عن الكل، وجميع ما في القرآن والصحف، وما تركه على قلبي من البيان والأسماء الرفيعة فهو يقع على عبده الإمام).وفي هذه الرسالة ينفي حمزة عن نفسه بأنه اخترع هذا الأمر من عند نفسه

فيقول: (وها هنا باب ثان مذموم، أعاذك المولى سبحانه منه، وذلك قول من يقول من كافة الناس بأني اخترعت هذا الأمر من روحي، ووضعت العلم من ذاتي، وقوتي، ومولانا جلت قدرته لا يعلم بذلك ولا يرضاه... وأنا أعيذك من ذلك وجميع الموحدين المخلصين).وكما أشرت سابقًا، فإن الدروز يجلون ويعظمون حمزة، فنجد المقتني بهاء الدين يخاطب حمزة في (رسالة المواجهة) بقوله: (وتطول عليهم بالمسامحة من الغلط والسهو في صحائف التوحيد، نظمها العبد بتأييد مولاه، وألفها، ورسائل إلى دعاة الحق ثناها على التنزيه وعظمها. فما كان يا مولاي في هذه الصحائف والمراسلات والكتب والملطفات التي سيرها العبد من خطاب جزل، ومنطق صائب، وقول فصل، فهو من منه إمام العصر، ومؤاد قائم الزمان، وما كان فيها من خطأ وخطل فهو منسوب إلى العبد الأصغر، الملهوف الظمآن، يتوسل في تقصيره إلى لطف مولاه).وفي كتاب النقط والدوائر - وهو من كتب الدروز الدينية ولا يعرف مؤلفه - يصف كاتبه حمزة بهذه الأوصاف: (فهو صلوات الله عليه النور الكلي، والجوهر الأزلي، والعنصر الأولي، والأصل الجلي، والجنس العلي، فيه بدأت الأنوار، ومنه برزت الجواهر، وعنه ظهرت العناصر، ومنه تفرعت الأصول، وبه تنوعت الأجناس... إلى أن يقول: فهو الإمام، والدليل على عبادة الله، والداعي إلى توحيد الله، والناطق بحق الله، والبرهان على الله، والرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).ولا يزال الدروز إلى الآن على هذا التعظيم لحمزة -، يقول كمال جنبلاط في مقدمته لكتاب (أضواء على مسلك التوحيد): (ويجب أن يبقى أبناء التوحيد محافظين على هذا التكريس والتهيؤ التقليدي والاجتباء الإنساني لفكرة الولاية، لأنه في النهاية وفي الحقيقة، لا ولاية على الموحدين، ولا على الأنام كافة، إلا للعقل الأرفع، صلوات المهيمن عليه.

ويضيف الدكتور سامي مكارم: (وهذا المعتقد التوحيدي يعتمد العقل في استكشافاته، ولا يراد بالعقل الأدنى، أي البشري أو الدنيوي إن صح التعبير، بل العقل الأرفع أو الكلي الذي هو المبدع الأول، أبدع من النور الشعشعاني المحض صورة صافية كاملة فتضمن في سره معنى ما كان وما يكون دفعة واحدة بدون زمان، فكان قوة كاملة وفعلًا تامًا، وكان علة العلل وأصل الوجود وغايته معًا).

مما سبق يتبين أن الإيمان بإمامة حمزة - وأنه المبدع الأول وغير ذلك - هي من أهم معتقدات الدروز، وأصل عظيم من أصولهم، لأنه أول الحدود الخمسة الذين يعتقدون بهم، وهو أيضًا في نظرهم نبي الحاكم. وقد جاء في مخطوط (شرح ميثاق ولي الزمان) ما يلي ثم من تسليم الروح ومعرفة العقل صفي الرب صلى الله عليه، وتمييزه عن إخوته الأربعة، وهم: النفس، والكلمة، والسابق، والتالي، وتمييزه عنهم بأحوال كثيرة.

وفي شعر - مخطوط - لدرزي يسمى بـ (الشيخ أبي عبيد) يقول فيه:

ألا صلوا على قلم القضايا رسول الله أفضل من أجابا رسول الله حمزة يا خليلي فأولى من أتانا بالكتابا وحسب عقيدة التناسخ والأدوار عند الدروز، فقد ظهر حمزة في الأدوار الكبرى، والأدوار الصغرى بأسماء مختلفة: فهو شطنيل في دور آدم، وفيثاغورس في دور نوح، وداود في دور إبراهيم، وشعيب في دور موسى، واليسوع في دور عيسى، وأنه - أي حمزة - هو المسيح الحقيقي الأبدي، وسلمان الفارسي في دور محمد (ﷺ)، وهو الذي أملى القرآن على محمد (ﷺ) وهكذا...

هذه لمحة سريعة عن حمزة، إمام الدروز، وقائم زمانهم، تبين بوضوح ذكاء ودهاء هذا الرجل، فقد استطاع أن يكون نموذجًا للدعاة الملاحدة، الذين ظنوا أنهم يستطيعون أن يقوضوا أركان الإسلام ودعائمه، فلم ينفع ذكاؤهم ولا مهارتهم في هذا

الدين شيء، بل حفظ الله هذا الدين. وخابت كل مساعيهم. ونأتي بعد ذلك إلى الداعي الآخر وهو: الحسن بن حيدة الفرغاني (الأخرم): هذا الداعي لا نعرف عنه إلا الشيء القليل، ذلك أنه ظهر بمدينة القاهرة عقب ظهور حمزة بقليل، وكما يقول ابن العماد في شذرات الذهب أنه ظهر (في الثاني من رمضان سنة ٤٠٩ هـ).وقد دعا إلى مثل ما دعا إليه حمزة من التناسخ والحلول، وألوهية الحاكم، وذاعت دعوته بسرعة في جماعة من المغامرين والمرتزقة، فاستدعاه الحاكم وخلع عليه وأركبه فرسا مطهما، وسيره في موكبه).غير أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل، حتى وثب عليه رجل من أهل السنة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه، فغضب الحاكم وأمر بإعدام قاتله ودفن الأخرم على نفقة القصر في حفل رسمي، كما أن جمهور أهل السنة احتفلوا بمأتم القاتل ودفنوه مكرمًا). (ولكن القبر نبش بعد أيام واختفت جثته، وكان ذلك على ما يظهر بوحي الحاكم ورغبته).

هذا تلخيص لكل ما ذكره المؤرخون عن هذا الداعية، والظاهر من رسائل حمزة أنه لم يكن ضد الأخرم، كما كان ضد الدرزي، على أن (الرسالة الواعظة) لأحمد حميد الدين الكرماني، تفيدنا بعض الشيء عن مهمة الأخرم وهي رسالة موجهة إلى الأخرم ردًا على رقعة بعث بها الأخرم إليه، حيث يتضح من هذه الرسالة أن الأخرم هو الذي كان يقود حركة الدعاية للمذهب الجديد وأنه هو الذي كان يبعث بالرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى عقيدته الجديدة وكان يطلب من العلماء وكبار الدعاة أجوبة فكتب إليه الكرماني (الرسالة الواعظة).

وأول ما يراه الكرماني في رقعة الأخرم أنها خالية من البسملة ومن الصلاة على النبي، وعلى الأئمة من ذريته، ويضيف الكرماني قائلًا: ولا تخلو أن تكون في تظاهرك بولاء أمير المؤمنين عليه السلام، إما متبعًا له، أو غير متبع، فإن كنت متبعًا فبمخالفتك إياه

فيما أمرك به من السجلات المكرمة من السلام عليه في جميع المكاتبات وقعودك عن الاقتداء فيما يفعله من تصدير سجلاته وجميع مكاتباته وخطبه بسم الله الرحمن الرحيم، والاستفتاح به، والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين والتبرك بها قد كفرت. ومن الأفكار التي قالها الأخرم في رقعته للكرماني: من عرف منكم إمام زمانه حيًا، فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي أو وصي أو إمام... وأن من عبد الله من جميع المخلوقين، فعبادته لشخص واحد لا روح فيه، ويتساءل عن معنى الآية الكريمة عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا [الإنسان:١٨]، وعن: الإسلام وشرائطه؟ وعن: الذي يتقرب به إلى المعبود؟ وهل الشريعة محدثة أم قديمة مع الدهر؟ وما النفس؟ وما العقل؟ ثم ينتهي به القول إلى أن الشريعة والتنزيل والتأويل خرافات وقشور وحشو ولا تتعلق بها نجاة، وأن الناس لا يوجهون وجوههم إلى القبلة لأنها حائط، وأن المعبود هو الحاكم).

وهذا يدل على أن الأخرم كان من مؤسسي هذه الدعوة، وكان لسان دعايتها، ولا ندري تمامًا مرتبته بين الحدود، لأنه قتل قبل أن يتبلور مركز الحدود ومراتبهم، ولا ندري ماذا يكون مصيره مع حمزة لو قدر له أن يعيش.

أما الداعية الآخر، والذي ينسب إليه الدروز فهو: محمد بن إسماعيل الدرزي (نشتكين): في حديثنا فيما سبق عن حمزة بن علي، ذكرنا أن أول من كشف عن عقائد المذهب الدرزي، كان محمد بن إسماعيل الدرزي سنة ٤٠٧ هـ، مما اضطر حمزة إلى الإعلان والكشف عن دعوته لتأليه الحاكم سنة ٤٠٨ هـ. والدرزي على الأرجح من أصل تركي، ويذكر المؤرخون أنه وفد على مصر سنة ٤٠٧ هـ، فخدم الحاكم وتقرب إليه، ولكن الذي يرجحه الدكتور محمد كامل حسين: أن الدرزي كان قبل هذا التاريخ في مصر واتصل بحمزة بن علي مدة طويلة قبل إظهار الدعوة، وعملًا معًا

في رسم خططها).

ويصرح حمزة في (رسالة الغاية والنصيحة): بأن الدرزي كان يضرب الدنانير والدراهم، وهذا مما يؤكد أن الدرزي كان قريبًا من حمزة والحاكم. ولاشك أن الدرزي كان من أقوى رسل حمزة وأشدهم عزمًا وجرأة، وكان يسير على طريقة حمزة في الدعوة، (ومن الغريب أن حمزة في إحدى رسائله يتهم الدرزي بأنه لا يقر إلا بإنسانية الحاكم بأمر الله، دون ألوهيته، مستندًا في هذا إلى أن الدرزي يقول: أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم، وعلي هو الأساس، والأساس هو مجرد إمام، وليس إلهًا).

أما عن مصير الدرزي بعد أن كشف عن هذا المذهب، فيختلف المؤرخون في ذلك، فمنهم من يقول بقتله في ذلك الوقت على يد الأتراك. ومنهم من يرجح أنه لم يقتل في هذا الظرف، ولكنه اختفى في القصر أيامًا بحماية الحاكم حتى هدأت العاصفة وسكن الجند، ثم دبر الحاكم له سبيل الفرار، وأعانه بالمال، فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس وأذاع في الناس دعوته، فكانت أصل مذهب الدروز الذي سمي باسمه، وحاول هناك أن ينقلب على حمزة ويدعي الإمامة والرئاسة له، فقتل بتحريض من حمزة سنة ٤١١ هـ، والأرجح أن هذا هو السبب الوحيد والجوهري لغضب حمزة عليه. ويفهم من رسائل حمزة بأن الدرزي لم يكن وحيدًا، بل كان معه دعاة آخرون أمثال البرذعي، وعلي بن أحمد الحبال، ويذكر ذلك في (رسالة الغاية والنصيحة) فيقول: (وفرعون البرذعي، وهامان علي بن الحبال، لأن فرعون كان داعي وقته، فلما أبطأ الناطق قال: (أنا ربكم الأعلى) يعني إمامكم الأعظم، وهامان الذي فتح له باب المعصية).ويقول أيضًا في رسالة (الصيحة الكائنة): (وما منكم أحد إلا وقد نصحته بحسب الهداية إلى دعوته، فمنكم من استجاب، ونكث مثل علي بن

أحمد الحبال الذي كان مأذونًا لي، وعلى يده استجاب نشتكين الدرزي).

ويذكر كذلك في (رسالة الرضا والتسليم): (وأما البرذعي فأنا أرسلت إليه ودعوته إلى توحيد مولانا جل ذكره، فلما أرسل إليه الدرزي رسوله ومعه ثلاثة دنانير وأوعده بالمركوب والخلع فمضى إلى عنده وفتح له أبواب البلايا والكفر، أما أصحابه كلهم فمكتوبة عندي عليهم وثائق بالشهود العادلة لأن لا يراجعوا عما سمعوه مني أبدًا). ومن خلال هذه الرسالة يتبين لنا أن حمزة عندما عرض على البرذعي أمر الاستجابة إلى دعوته، شرط عليه أن يأتيه بتوقيع الحاكم، (وهذا يعني أن الحاكم كان يعلم بدعوة حمزة، وكان على اتصال وثيق به).

وفي ختام حديثنا عن دعاة الدروز، لابد أن نلم قليلًا باثنين من حدودهم الخمسة وأكابر دعاتهم وهما:

أبو إبراهيم إسماعيل بن حامد التميمي، صهر حمزة ويليه في مرتبة الحدود، والذي يلقب بالنفس، وذومصة، والمشيئة، وإدريس زمانه، وأخنوخ أوانه.

والداعية الثاني هو: بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي، المعروف بالضيف، وهو الحد الخامس من الحدود، ومرتبته الجناح الأيسر، أو التالي. أما التميمي، فلاشك أنه من الحدود الكبار - عند الدروز - الذين قام المذهب على أكتافهم، (وتؤكد النصوص التاريخية أن حمزة كان يعتمد على صهره وساعده الأيمن الذي ينفذ بدقة ونشاط أصعب المهمات وأشدها خطرًا).

وقد كتب التميمي عدة رسائل من مجموع رسائل الدروز منها: رسالة في تقسيم العلوم، والزناد، والشمعة، والرشد والهداية، وله أيضًا شعر يمجد فيه الحاكم اسمه (شعر النفس).

ومع ذلك فنحن نعجب لسكوت كتب التاريخ، ورسائل الدروز عن هذا الداعية

بعد غياب حمزة سنة ٤١١ هـ، إذ لا يوجد لدينا أي شيء عن هذا الداعية بعد هذا التاريخ.

ونأتي بعد ذلك إلى الداعية الآخر بهاء الدين، والذي كان له أكبر الأثر في انتشار مذهب الدروز وقيامه بعد غياب حمزة سنة ٤١١ هـ، وذلك لأن مرتبته في الدعوة هي مرتبة الجناح الأيسر أو التالي، وسنرى في حديثنا عن الحدود في العقيدة الدرزية، أن من يشغل هذه المرتبة يكون لسان الدعوة، وله من الحدود: الجد، والفتح، والخيال. وقد استمر بهاء الدين يحمل أعباء الدعوة إلى مذهبه، فكتب الرسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول في مذهبه، كما كتب إلى الذين خرجوا عن المذهب بعد أن كانوا من دعاته أمثال الداعي (سكين) الذي ادعى أنه الإله المعبود، وأنه الحاكم بأمر الله.

ومما يذكر أن الكثير من رسائل الدروز، قد كتبها بهاء الدين، ومن هذه الرسائل: (رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ)، (رسالة التعنيف والتهجين)، (ورسالة القسطنطينية)، وغير ذلك من رسائل كثيرة كتبها، وأغلبها في الرد على الآراء الجديدة التي حاول الخارجون عليه أن يبثوها، لذلك تحمل أكثر العناوين من رسائله التأنيب والتوبيخ والتعنيف. ولما شعر بهاء الدين باضطراب الأحوال، بعد أن كثرت الآراء الدخيلة في المذهب، أخذ يهدد أتباعه باعتزال الدعوة، وبالفعل اعتزلها سنة ٤٣٤ هـ، بعد أن أقفل باب الاجتهاد حرصا على الأصول والأحكام التي وضعها حمزة، والتميمي، وما وضعه هو نفسه).

هؤلاء هم دعاة الدروز، وعلى أيديهم قام المذهب الجديد، وسنعرض عند الحديث عن حدود الدروز باقي هؤلاء الدعاة.

ولاشك أن حمزة كان إمامهم وداعيتهم الأكبر، وكان طموحه كبيرًا وكان بهاء

الدين بالفعل متممًا حقيقيًا لما بدأه حمزة، ولولا بهاء هذا لانقرض هذا المذهب بعد غياب حمزة.

(باب كيف انتشرت العقيدة الدرزية)

حينما فرَّ الدرزي من مصر توجه إلى بلاد تيم في لبنان، وكانت تقيم فيه قبائل عربية في الجاهلية ثم اعتنقوا الإسلام.

وفي أيام الدولة العبيدية انتشر بينهم المذهب الإسماعيلي بتأثير هذا الداعي وفراغهم عن معرفة الدين الإسلامي.

وهذه العقيدة على تفاهتها وجدت من يستمع لها ويدين بها إلى وقتنا الحاضر مع شدة حرصهم على كتمانها، الأمر الذي جعل المعلومات حولهم ناقصة جدًا ومتضاربة في كثير منها حول ديانة هؤلاء الدروز، وهي في مجملها تتألف من أفكار شتى ونظريات مختلفة فلسفية وهندية ويونانية وفارسية وفرعونية، ثم أحاطوها بالسرية الكاملة لا يبيحون لأحد أن يطَّلع عليها غيرهم، كما لا يبيحون لأحد منهم أن يفشي سرًا من أسرارها.

وقد جاء في كلام لحمزة بن علي قوله في الترهيب من إفشاء أسرارهم: (إن أكبر الآثام وأعظمها إظهار سر الديانة وإظهار كتب الحكمة -يعني كتبهم- والذي يظهر شيئًا من ذلك يقتل حالًا تجاه الموحدين ولا أحد يرحمه). ويقول: (عليكم أيها الإخوان الموحدون في دفن هذه الأسرار، ولا يقرأها إلا الإمام على الموحدين في مكان خفي، ولا يجوز أن تظهر كتب الحكمة التي كلها رسم ناسوت مولانا سبحانه، وإن وجد شيء من هذه الأسرار في يد كافر فيقطع إربًا إربًا).

على أنه لا مانع مع الحفاظ على هذا التكتم أن يتظاهر الدرزي -كما أوصاه

علماؤه- بإنكار هذه المبادئ أمام الآخرين إذا لم تكن له قوة أمامهم مستعملا في ذلك ما بوسعه من النفاق والكذب والخداع، وأن يظهر لكل أهل مذهب الرضى عن مذهبهم والسلوك في سبيلهم على طريقة الباطنية. وقد ذهب الغلو بمحمد كامل حسين أن يقول: (وللدروز قضاة منهم يحكمون دائمًا حسب الشريعة والتقاليد الإسلامية، إلا أنهم في بعض المسائل الخاصة يحكمون حسب التقاليد الدرزية).

ثم مثَّل بعدة أمثلة هي ضد الإسلام، ومما ينبغي التنبيه له أن الدروز لا يزالون على اعتقاد تأليه الحاكم إلى وقتنا الحاضر يقرونه في مجالسهم الخاصة وخلواتهم، ولكنهم قد يتظاهرون أمام الناس بعدم تأليه الحاكم وهم يعلمون أنهم لو تركوا هذه الفكرة لأصبحوا بلا دين. وقد كشف هذا الستار أحد علماء الدروز وهو عبد الله النجار الذي قتلوه بعد ذلك في أحداث لبنان فهو يقول: (وإني لأذكر عتاب كبير الأشياخ الثقات؛ لأني ذكرت في أحد الكتب المطبوعة أن أم الحاكم كانت صقلية؛ إذ قال لي: إن الحاكم لا أم له مرددًا ما جاء في الرسالة ٢٦: حاشا مولانا جل ذكره من الابن والعم والخال لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: ٣ - ٤].

فهذه شهادة شاهد من أهلها، والباطل لا بد وأن يكشفه الله مهما حاول أهله التستر عليه. وقد كان لهذه الفكرة الإجرامية نتائجها على الحاكم فيما بعد؛ فإنه أنكر ولم يوص بالخلافة لولده (الظاهر بالله) وإنما أوصى بها إلى شخص آخر للإيحاء بأن الأمر لا يزال بيده حتى وإن غاب عنهم يعطيه من يشاء ويمنعه عن من يشاء. ومن هنا فقد انتقم الظاهر من هؤلاء بعد توليه الخلافة أشد انتقام.

مسألة: معاملة الدروز لمن يكشف شيئًا من عقائدهم

ومن هذا الموقف فإن من أفشى شيئًا من عقائد الدروز فإنهم لا يقابلونه بالمناقشة والحجة كما يفعل سائر الناس الذين يثقون بمبادئهم، وإنما يقوم هؤلاء

الدروز وهم يعرفون تفاهة مذهبهم بسبّ الشخص وإلصاق التهم به وإثارة الضجة حوله إذا لم يستطيعوا قتله.

ويذكر الدكتور الخطيب أن الشيخ زيد بن عبد العزيز الفياض كتب في مجلتي المنهل وراية الإسلام اللتين كانتا تصدران في جدة والرياض عنهم بعض الحقائق، ورد على من يسميهم مسلمين فقامت قيامة الدروز على الفياض وسبوه بأقذع السباب، وأصدر شيخ العقل في لبنان فتوى ضده ونشروا ذلك في عدة صحف. وقد قام أحد علماء الدروز ويسمى عبد الله النجار بإصدار كتابه مذهب الدروز والتوحيد، وبيَّن حقيقة هذا المذهب، فقامت ضجة حوله وحول كتابه، وحاكمه مشائخ الدروز لفضحه أسرار المذهب، وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها وقد استغلوا أحداث لبنان واغتالوا النجار.

ولا شك أن قيامهم بمثل هذا الإجرام يعتبر دليلًا واضحًا على معرفتهم برداءة مذهبهم وبطلانه؛ إذ الحق لا يخاف صاحبه من إظهاره؛ بل يحب ويتودد إلى الناس لنشره وانتفاع الناس به.

ويقول محمد أحمد الخطيب عن موقف الدروز منه حين طبع كتابه (عقيدة الدروز) وما لاقاه من مضايقات وتهديدات بسبب ما دونه من حقائق لا يستطيعون دفعها بأي حال لاستناده فيما كتبه عنهم إلى مصادرهم، يقول: (وللحقيقة أذكر أن هذه الأمور مجتمعة قد حدثت معي شخصيًا حينما تم طبع ونشر كتاب عقيدة الدروز عرض ونقض، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٠هـ؛ حيث ظهر، وبشكل واضح طريقة التعامل القذر الذي يتم مع كل من يحاول أن يبحث عن حقيقتهم. فقد توالت عليّ المكالمات الهاتفية التي تهدد بالقتل، وجاء على أثرها الكثير من الرسائل والتي تتوعدني بالويل والثبور إن لم أعتذر عن

كتابي وما ورد فيه، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على جمع ما يستطيعون من نسخ الكتاب المذكور وإحراقه، وكذلك عملوا على مطالبة المسئولين في كثير من البلاد العربية بمنع الكتاب، فكان أن منع في عدد من البلاد العربية).

ومما لا يخفى أن هذه الدول التي منعت انتشار الكتاب والانتفاع بما فيه إنما تمثل الانهزام التام والتودد إلى هؤلاء الأشرار هذا إن أحسنا بهم الظن، وإلا فإن هؤلاء مما يترجح لدى كل فاهم لأوضاع الدول العربية أنهم ممن يبيتون النية السيئة لشعوبهم ولدينهم، وأنهم أقرب إلى أعداء الإسلام وأشد على المسلمين من كثير ممن يتظاهر بعدم الإسلام. والله المستعان.

مسألة: طريقة الدروز في تعليم ديانتهم

علماء الدروز من أشد الناس تسترًا على مبادئهم حتى من الموالين لهم، فلا يطلعون أحدًا على أسرار المذهب إلا بعد أن يجتاز امتحانات كثيرة من قبل هؤلاء المشائخ الذين هم بمنزلة السلطة العليا.

وقد وصف محمد كامل حسين ذلك بقوله: (وهم من الناحية الدينية ينقسمون إلى عقال أو أجاويد أي الذين لهم الحق في معرفة شيء من العقيدة السرية، وبين جهال أي الذين ليس لهم الحق في معرفة أسرار الدين.

والعقال ينقسمون بدورهم إلى درجات ثلاث؛ ففي مساء كل يوم جمعة يجتمع العقال في أماكن العبادة التي تعرف بالخلوات (جمع خلوة) بسماع ما يتلى عليهم من الكتاب المقدس، وبعد تلاوة المقدمات يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التي ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لا يبقى إلا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق في سماع الأسرار العليا للعقيدة.

أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات أو بسماع شيء من الكتب المقدسة إلا في يوم عيدهم، وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين، على أن طبقة الجهال يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم على ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة؛ إذ لا يقبل في طبقة العقال من يدمن التدخين مثلًا، وقد يستمر الامتحان أكثر من سنة بأكملها حتى يثق الشيوخ بأحقية الطالب أن ينتقل من طبقة الجهال إلى طبقة العقال).

وقال عن صفات العقال: (والعقال في المجتمع الدرزي يعرفون بعمائمهم ولبس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لحاهم، على أن الذين يسند إليهم وظائف حكومية يباح لهم ترك هذه الملابس وارتداء الزي الذي يتطلبه منصبه الرسمي).

وقال عن مكانة المرأة في المذهب الدرزي: (والنساء في المجتمع الدرزي ينقسمن أيضًا إلى عاقلات وجاهلات مثل الرجال تمامًا، لا فرق بين المرأة والرجل، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوبًا اسمه صاية).

وعن التنظيم الاجتماعي السائد في المجتمع الدرزي يقول: (وللدروز رؤساء دينيون في كل مكان، على رأسهم شيخ يلقب بشيخ العقل ويتولى منصبه بالانتخاب أو بالاتفاق بين الزعماء وكبار رجال الطائفة، ولشيخ العصر أعوان في كل قرية أو بلد هم شيوخ عقل محليون. وشيوخ العقل في لبنان ينقسمون إلى حزبين سياسيين هما الشيوخ الجانبلاطية والشيوخ اليزبكية، بينما ينقسم الدروز عامة في لبنان مدنيًا إلى أمراء ومشائخ وعامة، فالأمراء هم آل أرسلان والمشائخ هم الجانبلاطية واليزبكية). ويذكر محمد حمزة أن أغلب الأحكام الفقهية التي ليس للدروز فيها تشريع خاص يتبعون فيها مذهب أبي حنيفة النعمان، وأن ذلك كان بتأثير العثمانيين الذين فرضوا المذهب الحنفي في سوريا ولبنان.

(باب عقائد الدروز)

(باب ألوهية الحاكم عند الدروز)

لعل أهم عقيدة نراها في كتب ورسائل حمزة بن علي وغيره من الدعاة، أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام، ولا تعرف بالرأي ولا بالقياس، ومهما حاول الإنسان أن يفكر فيه لمعرفة كنهه فيه فهو محاولة فاشلة لأن لاهوته ليس له مكان، ولكن لا يخلو منه مكان، وليس بظاهر كما أنه ليس بباطن.

ولا يوجد اسم من الأسماء يمكن أن يطلق عليه، لأنه لا يدخل تحت الأسماء، إذ لا يتصف بصفات، ولا يمكن التعبير عنه بلغة من اللغات.

وهكذا يتفق ذكر التوحيد في رسائل الدروز، وحديثهم عن لاهوتية المعبود، يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد في كتب الدعوة الإسماعيلية عن الله سبحانه وتعالى، ففي كتاب (راحة العقل) لأحمد حميد الدين الكرماني، الذي كان معاصرًا لحمزة بن علي، نجد سورًا كاملًا ذا سبعة مشارع في التوحيد والتقديس، وحديثه في ذلك كله هو حديث رسائل الدروز. فقد جعل الكرماني المشرع الأول: في بطلان كونه تعالى ليسًا، والمشرع الثاني: في بطلان كونه تعالى أيسًا والمشرع الثالث: في أنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات وأنه لا بجسم ولا في جسم ولا يعقل ذاته عاقل... ثم ختم السور بالمشرع السابع: الذي جعله من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى).

وكنت قد أوردت في فصل سابق رسالة مهمة تتحدث عن هذا المعتقد هي (كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل) حيث اتضح لنا من خلافات كيف ينظر حمزة وأتباعه إلى أفعال الحاكم ويظهرونها أفعالًا تدل على

الألوهية.

وبما أن عقيدة ألوهية الحاكم، هي المرتكز الرئيسي لعقيدة الدروز فلابد لنا من استعراض بعض ما كتبوه في رسائلهم حول هذا الأمر.

ومع أن الدروز يحاولون -تسترًا وكتمانًا- أن ينفوا هذا المعتقد أمام الآخرين، وذلك تجنبًا لثورة الناس عليهم، وهو ما أمرت به رسائلهم، والذي يفهم منها أنه يجوز للموحد أن ينفي عبادته للحاكم أمام الضد.

وأبدأ أولًا بـ(ميثاق ولي الزمان)، وهو نص العهد الذي وضعه حمزة بن علي ليؤخذ على الداخلين في دعوته:

(توكلت على مولانا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد. أقر فلان بن فلان، إقرارًا أوجبه على نفسه، وأشهد به على روحه، في صحة من عقله وبدنه، وجواز أمره، طائعًا غير مكره ولا مجبر.

أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات، كلها على أصناف اختلافاتها، وأنه لا يعرف شيئًا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة هي العبادة، وأنه لا يشرك في عبادته أحدًا مضى أو حضر أو ينتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره.

ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه، أو أشار به إلى غيره، أو خالف شيئًا من أوامره. كان بريئا من الباري المعبود، واحترم الإفادة من جميع الحدود، واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره.

ومن أقر أن ليس في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين. كتب في شهر كذ وكذا من سنة كذا

وكذا من سنين عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد، هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده). وقد ورد هذا الميثاق أيضًا في مصحف الدروز في (عرف العهد والميثاق) بوصفه: (العهد الذي أمر مولانا الحاكم جل ذكره، بكتابته على جميع الموحدين الذين آمنوا به، جل ذكره).

ولكن ورد في هذا المصحف، وقبل الميثاق، عهد جديد، لا نعرفه إلا من هذا المصحف سمي بـ (العهد)، وهذا يعطي انطباعًا لقارئ مصحفهم أن العهد والميثاق متلازمان في العقيدة الدرزية، ولذلك نورد فيما يلي نص هذا العهد، لأهمية ذلك في إيضاح نظرة الدروز وعقيدتهم والباقية للآن في ألوهيتهم للحاكم: (آمنت بالله، ربي الحاكم، العلي الأعلى، رب المشرقين، ورب المغربين وإله الأصلين والفرعين، منشئ الناطق والأساس، مظهر الصورة الكاملة بنوره، الذي على العرش استوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، وآمنت به، وهو رب الرجعى وله الأولى والآخرة، وهو الظاهر والباطن.

وآمنت بأولي العزم من الرسل، ذوي مشارق التجلي المبارك حولها وبحاملي العرش الثمانية، وبجميع الحدود، وأومن عاملًا قائمًا بكل أمر ومنع ينزل من لدن مولانا الحاكم، وقد سلمت نفسي وذاتي وذواتي، ظاهرًا وباطنًا، علمًا وعملًا، وأن أجاهد في سبيل مولانا، سرًا وجهرًا بنفسي ومالي وولدي وما ملكت يداي، قولًا وعملًا، وأشهدت على هذا الإقرار جميع ما خلق بمشارقي ومات بمغاربي.

وقد التزمت وأوجبت على هذا نفسي وروحي بصحة من عقلي وعقيدتي، وإني أقر بهذا، غير مكره أو منافق، وإنني أشهد مولاي الحق الحاكم، من هو في السماء إله وفي الأرض إله، وأشهد مولاي هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين المرتدين،

حمزة بن علي بن أحمد، من به أشرقت الشمس الأزلية، ونطقت فيه وله سحب الفضل: إنني قد برأت وخرجت من جميع الأديان والمذاهب والمقالات والاعتقادات قديمها وحديثها، وآمنت بما أمر به مولانا الحاكم الذي لا أشرك في عبادته أحدًا في جميع أدواري.

وأعيد فأقول: إنني قد سلمت روحي وجسمي وما ملكت يداي وولدي لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضيت بجميع أحكامه لي أو علي، غير معترض ولا منكر منها شيئا، سرني ذلك أم ساءني، وإذا رجعت أو حاولت الرجوع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره، والذي كتبته الآن وأشهدت به على روحي ونفسي، أو أشرت بالرجوع إلى غيري، أو جحدت أو خالفت أمرًا أو نهيًا من أوامر مولاي الحاكم جل ذكره ونواهيه. كان مولاي الحاكم جل ذكره، بريئًا مني واحترمت الحياة من جميع الحدود، واستحقت علي العقوبة في جميع أدواري من بارئ الأنام جل ذكره، وعلى هذا أشهدك ربي ومولاي، من بيدك الميثاق، وأقر بأنك أنت الحاكم الإله الحقيقي المعبود، والإمام الموجود جل ذكره، فاجعلني من الموحدين الفائزين الذي جعلتهم في أعلى عليين، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، مولاي إن تشاء آمين). وقد أورد القلقشندي نصا غريبا ليمينهم هذا، لا يتوافق مع معتقداتهم، وخاصة بالنسبة للدرزي، الذي يصفه هذا القسم بأنه: الحجة الرضية، وهذا ما لا يقبله الدروز ويرفضونه، وهكذا فإن هذا الميثاق وغيره يبتر حبل الصلة بين المستجيب وكل ما يؤمن به سواه، ويدفعه لتلقي كل ما يرويه حمزة وتلاميذه - مرورًا ببهاء الدين وانتهاء بجنبلاط - عن الحاكم بالرضى والتسليم.

ويوضح حمزة في (الرسالة الموسومة بكشف الحقائق) لماذا أظهر اللاهوت ناسوته؟ فيقول:

(لكنه سبحانه أظهر لنا حجابه الذي هو محتجب فيه، ومقامه الذي ينطق منه ليعبد موجودًا ظاهرًا، رحمة منه لهم ورأفة عليهم، والعبادة في كل عصر وزمان لذلك المقام الذي نراه ونشاهده ونسمع كلامه ونخاطبه، فإن قال قائل: كيف يجوز أن نسمع كلام الباري سبحانه من بشر، أو نرى حقيقته في الصور؟

قلنا له: بتوفيق مولانا جل ذكره وتأييده، أنتم جميع المسلمين واليهود والنصارى، تعتقدون بأن الله ﷻ خاطب موسى بن عمران من شجرة يابسة، وخاطبه من جبل جامد أصم، وسميتموه كليم الله لما كان يسمع من الشجرة والجبل، ولم ينكر بعضكم على بعض، وأنتم تقولون بأن مولانا جل ذكره ملك من ملوك الأرض، ومن وُلي على عدد من الرجال، كان له عقل الكل، ومولانا جل ذكره يملك أرباب ألوف كثيرة ما لا يحصى ولا يقاس فضيلته بفضيله، شجرة أو حجر، وهو أحق بأن ينطق الباري سبحانه على لسانه، ويظهر للعالمين قدرته منه، ويحتجب عنهم منه. فإذا سمعنا كلام مولانا جل ذكره قلنا: قال الباري سبحانه: كذا وكذا، لا كما كان موسى يسمع من الشجرة هفيفًا فيقول: سمعت من الله كذا وكذا، وهذه حجة عقلية لا يقدر أحدكم ينكرها. وقد اجتمع في القول بأن لمولانا جل ذكره عقول الأمة، وأن الشجرة والحجر لا تفهم وتعقل عن الله، ومن يفهم ويعقل عن الله أحق بكلام الله وفعله ممن لا يعقل عنه، وإن كانت الشجرة حجابه، فالذي يعقل ويفهم أحق أن يكون حجاب الله ممن لا يعقل ولا يفهم، وكيف يجوز الباري سبحانه أن يحتجب في شجرة ويخاطب كليمه منها ثم تحرق الشجرة ويتلاشى حجابه، سبحان الإله المعبود عما يصفون، لا يدرك ولا يوصف مولانا الحاكم جل ذكره وحجابه في كل عصر وزمان باختلاف الصور والأسماء، كما نطق القرآن: (كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن).

وفي مصحف الدروز يدعي أن العباد كانوا يتوسلون ظهور الواحد الأحد، فيقول: (انظروا ثم انظروا، واسترجعوا الأيام السالفة، فكم من العباد كانوا يتوسلون منتظرين ظهور الواحد الأحد، والحاكم الصمد، والفرد بلا عدد، في الهياكل القدسية، على شأن وصفة يعلمها كل من ألقى السمع وهو شهيد.

ها قد تفتحت أبواب العناية، وارتفعت غمة المكرمة، وظهرت شمس الغيب في أفق القدرة.

والآن وبعد الآيات البينات، قمتم على تكذيب ما تنتظرون ورفض أحكم الحاكمين، وفوق كل ذلك، أنكم تبتعدون عن لقائه الذي هو عين لقاء الله، كما صرح به الكتاب: (وجاء ربك والملك صفا صفا).وإلا فقولوا لي أيها الضالون المعاندون: فهل جاء لكم رب غيره مع جنوده، أروني إن كنتم صادقين، أو لم تعاهدوه، وتضعوا أيديكم في يده، أو لم ينادكم، وأخذ عليكم ميثاقًا، وقال: (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) (وبذلك شهد الكتاب).

لذلك فإنه يعيب على الذين كفروا بالحاكم، ذلك لأن في قلوبهم مرض ويقول: (لقد كبر على الذين كفروا، أن يروا الله جهرة كأمثالهم، وضلت ألبابهم وظنوه كأجسامهم وهياكلهم. إن الذين في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضا، وأمدهم في طغيانهم يعمهون، وأما الذين آمنوا، وسبقت، منه لهم، كلمة الحسنى، فإنه ظهر لهم ليمنحهم نعم الإيمان، المكنونة في سدرة المعرفة المخزونة التي استظل بها أولو العزم من الرسل، حتى لا تحرم الهياكل الفانية من أثمار المشاهدة الباقية عساهم يفوزون ويؤتون الحكمة بتجلي ذي الجلال الحاكم).ولهذا فإن لهم عذابًا شديدًا لكفرهم بدعوة الحاكم، ويقول مصحفهم: (لئن ينتعل أحدكم بنعلين من نار، يغلي بهما دماغه من حرارة نعليه، إنه لأهون، وأدنى عذابًا، من رافض دعوة مولاه الحاكم،

بعد إذ تبين الرشد من الغي... إلى أن يقول: ولو أن من في الأرض استغفر لهم لن يغفر الله مولاهم الحاكم الصمد، والفرد بلا عدد، والواحد الأحد، خطيئاتهم، ولو افتدى أحدهم بما في الأرض جميعًا فلا ينجيه).

والدروز ينفون عن الحاكم أنه ابن العزيز، أو أبو علي، أو له أب أو ولد، وهذا ما ينفيه حمزة في (رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد) ويقول: لأن مولانا سبحانه (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (وما من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك إلا هو معهم) سبحانه وتعالى عن إدراك العالمين والعاليين والملائكة المقربين والناس أجمعين علوا كبيرا.

فالحذر الحذر، أن يقول واحد منهم بأن مولانا جل ذكره: ابن العزيز، أو أبو علي، لأن مولانا سبحانه هو في كل عصر وزمان يظهر في صورة بشرية وصفة مرئية كيف يشاء حيث يشاء... إلى أن يقول: وهو سبحانه لا تغيره الدهور ولا الأعوام ولا الشهور، وإنما يتغير عليكم بما فيه صلاح شأنكم، وهو تغيير الاسم والصفة لا غير، وأفعاله جل ذكره تظهر من القوة إلى الفعل كما يشاء (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)، أي كل عصر في صورة لا يشغله شأن عن شأن.

وأما من قال واعتقد بأن مولانا جل ذكره، سلم قدرته ونقل عظمته إلى الأمير علي، أو أشار إليه بالمعنوية فقد أشرك بمولانا سبحانه، غيره وسبقه بالقول... فمن منكم يعتقد هذا القول فليرجع عنه ويستقيل منه ويستغفر المولى جل ذكره ويقدس اسمه من ذلك... ولا يجوز لأحد يشرك في عبادته ابنًا ولا أبًا، ولا يشير إلى حجاب يحتجب مولانا جل ذكره فيه إلا بعد أن يظهر مولانا جل ذكره أمره، ويجعل فيمن يشاء حكمته، فحينئذ لا مرد لقضائه ولا عاصيًا لحكمه في أرضه.

ويضيف قائلًا: والنور الشعشعاني التمام، ومعبود جميع الأنام، الصورة المرئية

الظاهر لخلقه بالبشرية المعروف عند العالم بالحاكم.

وما أدراك ما حقيقة الحاكم؟ ولم تسمى بالحاكم في هذه الصورة؟ دون سائر الصور؟ ومولانا جل ذكره غير غائب عن ناسوته، فعله فعل ذلك المحجوب عنا في نطقه ذلك النطق، لا يغيب اللاهوت عن الناسوت إلا أنكم لا تستطيعون النظر إليه، ولا لكم قدرة بإحاطة حقيقته.

وأراد بالحاكم، أي يحكم على جميع النطقاء والأسس والأئمة والحجج ويستعبدهم تحت حكمه وسلطانه، وهي عبيد دولته ومماليك دعوته الحاكم بذاته... وترك الاعتراض فيما يفعله مولانا جل ذكره، ولو طلب من أحدكم أن يقتل ولده لوجب عليه ذلك بلا إكراه قلب، لأن من فعل شيئًا وهو غير راض به لم يثب عليه، ومن رضي بأفعاله وسلم الأمر إليه، ولم يراء إمام زمانه، كان من الموحدين الذين لا خوف عليهم. واعلموا أن الشرك خفي المدخل، دقيق الستر والمسبل، وليس منكم أحد إلا وهو يشرك ولا يدري، ويكفر وهو يسري ويجحد وهو يزدري، وذلك قول القائل منكم: بأن مولانا سبحانه صاحب الزمان، أو إمام الزمان، أو ولي الله أو خليفته، أو ما شاكل ذلك من قولكم: الحاكم بأمر الله، أو سلام الله عليه، أو صلوات الله عليه). وبالإضافة إلى الرسالة - السابق ذكرها - (كتاب ما يظهر قدام مولانا من الهزل) هناك رسالة أخرى لحمزة هي (رسالة السيرة المستقيمة) يعطينا فيها حمزة المزيد من تأويلاته لأفعال الحاكم الغريبة، ومما يقوله: ومن رسوم مولانا جل ذكره الركوب في الهاجرة، والمسير في الرمضاء وفي الشتاء، إذا كان يوم جنوب صعب وغبار عظيم يتأذون الناس في بيوتهم من ذلك الريح والغبار. ثم يركب المولى سبحانه في ظاهر الأمر إلى حجر الجب، ويرجع وما في الموكب أحد إلا وقد دمعت عيناه من الغبار والريح، وكلت ألسنتهم عن النطق الفصيح، ونالهم من المشقة والتعب ما لم

يقدر عليه أحد، ومولانا سبحانه على حالته التي خرج بها من الحرم المقدس، ولم يراه أحد قط في وقت الهاجرة الهائلة والسموم القاتلة قد اسود له وجه في ظاهر الأمر، ولا لحقه شيء من تعب، ولا يقدر أحد منهم يقول بأنه لحقه شيء من ذلك. ومع هذا فقد ترك خلق كثير ممن هو معه في المواكب وكدهم بالنظر إليه لمثل هذه الأمور، فلم يروا منها شيئا، ولا يقدر أحد يقول من حضر مع مولانا سبحانه في ظاهر الأمر في مواضع لا يحصرها كل الناس، أنه شاهد يفعل شيئًا مما ذكرناه من تعب أو أكل أو شرب حاشاه سبحانه من ذلك. وأيضًا ما يزعم المشركون به مما أوراهم من علة جسم من حيث إعلال قلوبهم، وهو في ظاهر الأمر يركب في محفة يحملها أربعة من الأضداد المشركين وتشق به أوساط المارقين الناكثين والمنافقين، وما من العساكر إلا وقد قتل ساداتهم، والرعية كلهم أعداؤه في الدين، إلا شرذمة يسيرة موحدين له مؤمنين به راضين بقضائه، ومن رسوم الملوك أنهم لا يثقوا بأحد من عساكرهم، ولا من أولادهم خوفًا من غدرهم. فكيف يزعمون أنه مريض، وليس يقدر يمشي، وقد قتل جبابرة الأرض وملوكهم، ويمشي بينهم في محفة، وهو الذي ذكرته لكم في هذه السيرة وأصناف هذه الأفعال ليس هي فعل أحد من البشر، وما هو شيء يستعظم للمولى سبحانه).

إذن فكل هذا القتل، والسفك، وغير ذلك من أفعاله، لم تكن طبيعية، بل هي مقررة، تمت بخطة يستوعبها الناس على أن هذا ليس من فعل بشر، وإنما هو فعل إله: يقتل، ويحيي، ويرزق، ويمنع.

أما لماذا تسمى الإله المعبود بأسماء العباد؟ فهذا أيضا ما يوضحه حمزة في (رسالة السيرة المستقيمة) بقوله: (فإن قال قائل: فلم تسمى المولى سبحانه باسم العبد، وما الحكمة فيه؟

قلنا له بتوفيق مولانا جل ذكره وتأييده: أن جميع ما يسمون الباري جل ذكره في القرآن وغيره فهو لعبيده وحدوده، وأجل اسم عندهم في القرآن (الله)، وظاهره خطوط مخلوقة، وباطنه حدود مرئية مرزوقة وظاهره اسم وباطنه مسمى، والمعبود غيرهما وهو الاسم الحقيقي، وهو لاهوت مولانا سبحانه وتعالى عما يصفون. فلما كانت العبيد عاجزين عن النظر إلى توحيد باريهم إلا من حيث هم وفي صورهم البشرية، أوجبت الحكمة والعدل أن يتسمى بأسمائهم حتى يدركون بعض حقائقه).

ولكي يبرهن دعاة الدروز على أن عبادتهم وتأليههم للحاكم هي العبادة الصحيحة، يحاولون أن يثبتوا أن عبادة جميع أهل النحل والأديان الأخرى، هي عبادة عدم، لأنها بلا معرفة ولا مشاهدة. يقول المقتني بهاء الدين في (الرسالة الموسومة بالشافية لنفوس الموحدين) ما يلي: وذلك أن جميع أهل النحل والأديان يعترفون بالمعبود وينكرون إذا دعوا إلى حقيقته - الوجود - كما قال: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا)، أي يقرون أن لهم باريا، فإذا دعوا إلى معرفة توحيده أنكروا وجوده، وكلهم أعني من قدمت ذكره من جميع أهل النحل والأديان يوجبون على أنفسهم عبادة يرجون بها ثوابه ويفرون بها من عقابه، والعقل يقطع ويشهد ويوجب أن الثواب لا يصح ولا يثبت إلا من بعد معرفة المثيب إذ كان الخلق إلى معرفة المثيب هم أحوج منه إلى معرفة ثوابه، وأيضًا جميع أهل الشرع والمذاهب المتقدمة. وأيضًا فإن كان معدومًا فقد سقطت الحجة عن جميع الخلق وكان الكل معذورين في توقفهم عن طلب الحق، ويؤيد ما ذكرته ما تقدم به الخلق من أقوالهم، أن الله لا يحتجب عن خلقه لكن حجبته عنهم أعمالهم).

وفي هذا المعنى أيضًا يقول في (رسالة من دون قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن) ما يلي: (وجميع العالم على شك، والشك هو الكفر لأنهم يعبدون من لا

يسمع ولا يُسمع، ولا يضر ولا ينفع، ولا يدرون هل عبادتهم مراده، أو أراد منهم شيئًا مما أجازته عقولهم. وأيضًا فقد تقدم القول بأن المولى جل ذكره عادل غير جائر، تعالى وجل عما يقوله الملحدون علوا كبيرا، فأي عدل يقتضي أن يكون فوق سبع سموات على كرسي فوق السماء السابعة كما يزعم المشركون، وقد كلفنا مع هذا عبادته ومعرفته، فهل في وسع أحد أن يعرف ما خلف الجدار الذي هو أقرب إليه من كل قريب إن لم يكشف عنه وينظره بعينه، فنعوذ بالمولى أن ننسبه أنه احتجب بهذه الحجبة، ثم كلفنا مع ذلك عبادته ومعرفته، بل ظهر تعالى بهذه الصورة الناسوتية التي تشاكلنا من حيث المجانسة والمقابلة، فهذا نفس العدل.

ووجه آخر أن ابن آدم غرض الباري من جميع المخلوقات، فلما صح عند ذوي العلم والمعرفة والفهم، أن ابن آدم أفضل الأشياء كلها وجب أن يحتجب الباري جلت قدرته في أجل الأشياء، واحتجب بأشرف المخلوقات، واحتجب بأعلم الأشياء، فنعوذ بالمولى من سوء اعتقاد من يعتقد أنه في الأموات، وأيضًا فإن العالم كله ما اختلفوا في أن الباري قادر فأين قدرته لو غاب الدهر كله لا يظهر، أليس يكون عجز عن الظهور؟ وأيضًا فلو ظهر الدهر كله، ثم لم يغب لعجز عن الغيبة، ولو ظهر في كل الظهورات بصورة واحدة وعلى حالة واحدة لكان ذلك عجزًا).

بهذه الطريقة يحاول حمزة ودعاته أن يثبتوا أن ظهور اللاهوت بصورته الناسوتية (الحاكم)، كان رحمة للناس وعدلًا لهم منه، وفي زعمهم أن أهل الأديان الأخرى لا يعبدون إلا العدم الذي لا يسمع ولا ينفع ولا يضر، فكان ظهوره هذا رحمة للموحدين. أما لماذا تسمى الحاكم - (الإمام)؟ فيجيبنا حمزة على ذلك بقوله: (ولو كان في العالمين شيء أفضل من الإمامة، لكان المولى جل ذكره في ظاهر الأمر تسمى به، فلما لم يظهر في الناسوت إلا باسم الإمامة علمنا أنه أجل أسماء المولى جلت

قدرته). وعن نهي الحاكم تقبيل الأرض بين يديه، وتأويل ذلك، تجيب عنه (الموسومة برسالة النساء الكبيرة) إذ تقول: (ألم تسمعن ما تلي عليكم في السجل المكرم أيضا، بالنهي عن تقبيل الأرض بين يدي مولانا جل ذكره، ألم تعلمن أن الأرض هي الأساس، وأن التقبيل أخذ علمه، وقد نهاكن عن ذلك).

وفي شرح (ميثاق ولي الزمان) يشرح قول حمزة في الميثاق: (وأنه لا يعرف شيئًا غير طاعة مولانا جل ذكره) بقوله:

المعرفة ها هنا بالفعل لا بالعلم، يعني أنه لا يدخل في عبادة الحاكم سبحانه ولا يعتقد سواه، كقوله: لم أعرف غيره ولم أتوجه إلا إليه، وكقوله: لم ينطلق في الدعوة الشركية ولا يعرف غير الدعوة اللاهوتية. والطاعة هي العبادة، لأن العبادة في هذا الموضع تأليه وتقديس، وفي غير هذا الموضع العبادة هي الاتباع والطاعة مطلقًا، ويجوز للعبد أن يقول عن نفسه: أنه يعبد الإمام أي يتبعه ويطيعه، كقوله: (إن كنتم إياه تعبدونه) أي تطيعون وتتبعون.

وإنما أظهر لنا الناسوت رفقًا بنا وطمأنينية لقلوبنا، لأن ليس في طاقتنا مقابلة الأهوة. وقال: ولو انكشف لها معرفة مبدعها من غير تأنيس ولا تدريج لصعقت لقدرته وخرت، فلو تجلى جل جلاله للخلق من حيث هو لتلاشى كل شيء لعظم إشراق ضوء شعاع نور الأهوة. ويجب على من أقر بصورة الناسوت أن يعلم علما يقينا أن اللاهوت فيها غير منفصل عنها كقوله: إن الحجاب هو المحجوب، والمحجوب هو الحجاب ذلك هو، وهو ذلك لا فرق بينهما، وكقوله لا يغيب اللاهوت عن الناسوت، ومثل الناسوت في اللاهوت مثل الخط من المعنى، فالخط مثل الناسوت).

ولا يزال الدروز حتى الآن يؤمنون ويقولون بهذه الأقوال، من هؤلاء الدكتور

سامي مكارم الذي يقول: (ويمكننا أن نقول: إن الناسوت من اللاهوت كالخط من المعنى، وكما أن فكر الإنسان المحدود بالكيفية والإضافة والزمان وما شابه ذلك لا يستطيع أن يدرك المعاني مجردة من الخط أو الصورة أو الصوت، كذلك لا يمكن أن يدرك اللاهوت بوجه من الوجوه، وإنما يتجلى الله في الناسوت، ويكون هذا الناسوت قد تنزه عن كل ما ليس هو في حقيقته وشموله، فأضحى تشخيصًا للإنسان الكامل، أي ناسوتًا مجردًا متطهرًا مثاليًا متنزلًا بتجرد الباقي السرمدي فيه عن التوهم والفناء. وهذا هو التأنيس بالنسبة للآخرين بغية التعرف من خلاله إلى حقيقة الموجود في سعي بعضهم، وتقربهم، وطلبتهم للمشاهدة والتوحيد الآخر).

والدروز يعتقدون أن الإله المعبود اتخذ له في الأدوار الماضية صورًا ناسوتية أخرى، ويعتقدون أيضًا أن هذه الأدوار كانت سبعة أدوار وأن الإله المعبود قد أظهر ناسوته في هذه الأدوار عشر مرات أو (مقامات)، وفي (رسالة السيرة المستقيمة) حديث طويل عن هذه الأدوار، يقول حمزة في هذه الرسالة:

وهو القسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، هو الحاكم جل ذكره نطق بأن مولانا جل ذكره هو القائم على كل نفس بما كسب، وهو المعز، وهو العزيز، وهو الحاكم جل ذكره، يظهر لنا في أي صورة شاء كيف يشاء (إن الدين عند الله الإسلام)، أي سلموا أمورهم إلى المولى سبحانه ورضوا بقضائه، فهم المسلمون له حقا، والمؤمنون به، والموحدون له تأليهًا وسدقًا. وتسمى مولانا جل ذكره بالقائم لأن أول ما ظهر للعالم بالملك والبشرية في أيام النطقاء الناموسية والشركية، فقام على العالمين بالقوة والقدرة).فتغيير صور ناسوته إنما كان لصلاح شأن الناس، لأن ناسوته لا يفارق لاهوته طرفة عين، لذلك ظهر في مقام القائم باسمه ووصفه، وظهر في مقام المنصور جلت قدرته، وهو في مقام المعز جلت عظمته، وفي مقام العزيز

أيضًا جل جلاله (العزيز والمعز هما أب وجد الحاكم بأمر الله)، وكل هؤلاء واحد لا يشغله شأن عن شأن، يعني لا يشغله ظهوره في صورة عن ظهوره في صورة أخرى).

والمقامات الناسوتية التي ظهر فيها المعبود هي كما يعتقد بها الدروز:

العلي.

البار.

أبو زكريا: ظهر في وقت السماء الثالثة سنة ٢٢٠ هـ.

عليا: ظهر في وقت السماء الرابعة.

المُعل: ظهر في وقت السماء الخامسة.

القائم: كان طفلًا استودعه مع سر إمامته أبوه المعل برعاية سعيد المهدي الملقب بـ (عبيد الله) سنة ٢٨٠ هـ، وكان سعيد في العشرين من عمره، هرب بالقائم من وجه العباسيين إلى مصر سنة ٢٨٩ هـ، ثم إلى شمال أفريقية سنة ٣٠٨ هـ، وهو مؤسس الدولة الفاطمية.

تلاه المنصور الذي حكم من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٣٤١ هـ، ثم المعز من سنة ٣٤١ إلى سنة ٣٦٥ هـ، وهما مع القائم يعتبرون في المذهب الدرزي ذاتًا واحدة. العزيز: من سنة ٣٦٥ إلى سنة ٣٨٦ هـ، وأخيرًا الحاكم بأمر الله).

والاعتقاد بهذه المقامات العشرة، واجب مؤكد على الدرزي، ففي رسالة درزية مخطوطة، مجهولة المؤلف وعنوانها (ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به ويحفظه ويسلك بموجبه، وهو قول موجز عن كتاب الفرائض) يقول فيها مؤلفها:

ويجب معرفته تعالى في المقامات العشرة الربانية وهم: العلي، والبار، وأبو زكريا، وعليا، والمعل، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، وكلهم إله واحد لا إله إلا هو.

فالعلي الأعلى كل زمان تجريد ولا إمامة فيه، ولم يكن قبله شيء وظهر في أول الدنيا، ثم البار تجريد عن الإمامة وظهوره في أواخر أدوار الدنيا، وبين العلي والبار تسع وستون كشفة، وبين كل كشف وكشف سبع شرائع، وبين كل شريعة وشريعة سبعة أئمة، ومدة كل إمام مائة ألف سنة، فتكون الأدوار والشرائع من العلي إلى البار ثلثمائة ألف سنة. ثم بعد غيبة مقام البار سبحانه وتعالى، ظهر آدم الجزي الذي هو أحنوخ بشريعة توحيدية يدعو إلى توحيد البار سبحانه، وظهر بعده سبعة أئمة من حروف الصدق وحدوا حدوده، ثم ظهرت بعدهم الشرائع الناموسية بالنطقاء التكليفية الذين هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، ومحمد، وسعيد المهدي، وكلهم نفس واحدة، وبين كل ناطق وناطق سبعة أئمة، ودخل أهل الحق في هذه الشرائع المذكورة.وأما ظهور أبي زكريا وعليا والمعل، كان بإمامة مستورة في دور محمد بن إسماعيل، ثم بعد سعيد المهدي ظهر البار سبحانه في مقام القائم والمنصور والمعز والعزيز، وذلك في الخلافة الظاهرة والإمامة الباطنة. وأما مقام الحاكم فظهر بالثلاث منازل المذكورة، ثم تجرد بالوحدانية وكشف توحيده مدة من السنين، ثم أعطى الخلافة والإمامة لعلي الظاهر، الذي هو الدجال، وأعطى الإمامة الحقيقية إلى صاحبها الذي هو القائم المنتظر حمزة بن علي صلى الله عليه).

ومما يذكر أن حمزة أيضًا وجميع الحدود الآخرين كانوا يظهرون في هذه الأدوار بأسماء وصور مختلفة.

وفي (رسالة السؤال والجواب) هذا الحوار أيضًا عن المقامات الناسوتية التي ظهر بها اللاهوت:

س: وكم مرة ظهر مولانا الحاكم بالصورة الجسمانية؟

ج: ظهر عشر مرار، وتسمى بالمقامات وهم: العلي، البار، عليا، المعل، القائم،

المعز، العزيز، أبو زكريا، المنصور الحاكم.

س: فأول المقامات الذي هو العلي، أين ظهر؟

ج: ظهر في الهند في مدينة يقال لها حين ما حين.

س: والبار أين ظهر؟ ج: بالعجم في مدينة يقال لها أصبهان ولأجل هذا تقول الفرس بارخدا، وعليا ظهر في اليمن، والمعل ظهر بالمغرب، في صورة رجل مكاري على ألف جمل، والقائم ظهر بالمغرب في مدينة يقال لها المهدية، ومنها جاء إلى مصر، وأبو زكريا والمنصور ظهرا في المنصورة، والمنصور كان اسمه إسماعيل.

س: وكيف نقول في باقي الملل، الذين يقولون أننا نعبد الرب الذي خلق السماء والأرض؟ ج: ولو قالوا ذلك لا يصح معهم، لأن العبادة لا تصح بلا معرفة، ولو قالوا عبدنا ولم يعرفوا أن الرب هو الحاكم بذاته فتكون عبادتهم كاذبة).

ويقول الدكتور محمد كامل حسين: (وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة، إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبي زكريا القرمطي كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله. ثم قولهم في (رسالة السيرة المستقيمة): أن القائم كان بمصر وبنى بها بابا يسمى الرشيدية، كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكن لم يوفق، فكيف أقام بها وشيد بها بابًا؟).

والحقيقة أن الدارس لرسائل الدروز وخاصة رسائل حمزة يجد المغالطات التاريخية التي لا تخفى على أحد، وخصوصًا عندما يتحدث حمزة عن ظهوراته أيضًا في المقامات المختلفة من زمن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى زمن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكل هذا يدل دلالة واضحة على الشعوذات والمغالطات التاريخية التي أتبعها حمزة في إثبات معتقداته.

غير أن هناك نقطة مهمة في هذا الموضوع أحب أن أوضحها، وهي أن المقام

الأخير من ظهور اللاهوت بالناسوت - أعني ظهور الحاكم - كان الظهور الأخير من ظهور المعبود.

لأن المعبود غضب - بعد ذلك - على كل خلقه ماعدا الموحدين؟! ولذلك أغلق باب دعوته فغاب إلى داخل السور المسمى (سد الصين) ليبقى إلى أن يشاء ثم يظهر يوم الدين. وهذا ما يقوله حمزة في (رسالة الأسرار ومجالس الرحمة والأولياء)، أما متى سيكون يوم الدين فهذا ما تحدث عنه حمزة مرارا بأنه سيكون قريبًا، وبذلك يكون انتهاء هذا الدور، كما صرح حمزة: أن الأدوار السابقة سبعون دورًا ومن كل دور واحد سبعون أسبوعًا وكل أسبوع سبعون سنة، وكل سنة ألف سنة من السنين التي يعدها البشر، وفي كل هذه الأدوار ظهر المعبود في نفس الصور التي ظهر في هذا الدور الذي نعيش فيه، وبذلك يكون عدد ظهور المعبود في كل الأدوار حوالي سبعمائة مرة). والغريب أن كمال جنبلاط يحدد ظهور التجلي الإلهي الجديد في حدود سنة (٢٠٠٠م)، حيث يتنبأ بظهور التجلي الإلهي والحكيم من جديد، وعندها يفتح الطريق من جديد ويصير بإمكان جميع الناس في كافة أصقاع العالم سلوكها.

ويقول المقتني بهاء الدين عن يوم الدين حسب وجهة نظره: وأنتم تعلمون معاشر الإخوان، وفقكم المولى لطاعته وسددكم عرضاته، أن قد صح عندكم أن الدنيا قد أفناها مولانا الحاكم سبحانه، وأنكم في أوائل الآخرة ودليلكم على ذلك واضح، وذلك أن مولانا سبحانه أظهر لكم إمام توحيده فنادى بكم وأرشدكم... واعلموا معاشر الإخوان، أن لو كان المعبود سبحانه ينتقل بعد هذا الظهور في الأقمصة المختلفة لكان هذا أمر لا نفاذ له، وأمد لا آخر له، وكانت تنفذ الديانة الآن، ويكون هذا يدل على أن من عمل عملًا لم يجازى عليه من ضد وولي).

ونختتم هذا المبحث عن ألوهية الحاكم، بـ (شعر النفس) الذي نظمه أحد حدودهم: إسماعيل بن محمد التميمي صهر حمزة، وهو موجود بين رسائلهم، يمجد فيه الحاكم الإله المعبود، يقول التميمي في هذا الشعر:

إلى غاية الغايات قصدي وبغيتي... إلى الحاكم العالي على كل حاكم

إلى الحاكم المنصور عوجوا وأتمموا... فليس فتى التوحيد فيه ينادم

هو الحاكم الفرد الذي جل اسمه... وليس له شبه يقاس بحاكم

حكيم عليم قادر مالك الورى... يؤانس بالاسم المشاع بحاكم

هو الحاكم المولى بناسوته يُرى... ولاهوته يأتي بكل العظائم

تسمى إمامًا والإمام عبده... يتقظى ولا يصغى إلى كل نائم

وقد ظهر المولى فآنس عبيده... بأفعالهم أنسا بحكم حاكم

ظهورا بأفعال العبيد وشكلهم... ويؤنسهم والخلق شبه بهائم.

إن النصوص السابقة وأخرى كثيرة مثلها، تدل صراحة على تأليه الحاكم من قبل الدروز: وأمام هذه النصوص الواضحة والجلية، أتساءل: لماذا يحاول الدروز للآن أن ينفوا ظاهرًا هذا عن معتقدهم؟ مع أنهم يؤكدونها في مجالسهم الخاصة. يقول الأستاذ عبد الله النجار (وهو درزي): (وإني لأذكر عتاب كبير الأشياخ الثقات، لأني ذكرت في أحد الكتب المطبوعة: أن أم الحاكم كانت صقلبية، إذ قال لي: أن الحاكم لا أم له مرددا ما جاء في الرسالة ٢٦: حاشا مولانا جل ذكره من الابن والعم والخال، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص:٣ - ٤]

ولقد حاولت جهدي أن لا أعلق كثيرًا على ما تضمنته هذه الرسائل، لأن ما تحويه لا تجعل مجالًا لأي تعليق؟ وما تضمنته يغني عن أية زيادة؟!

(باب التناسخ والتقمص والحلول عند الدروز)

يستدل من النصوص الواردة في رسائل الدروز، بأن الدروز يعتقدون بالتناسخ والتقمص، أي بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر، باعتبار أن النفس لديهم لا تموت، بل يموت قميصها (الجسم)، ويصيبه البلى، فتنتقل النفس إلى قميص آخر. وهذا خلاف التناسخ الذي تعتقده فرق أخرى - كالنصيرية -، والذين لا ينحصر عندهم التناسخ بين الناس، بل يكون أحيانًا بينهم وبين البهائم - أي بمعنى المسخ -).وعقيدة الدروز تنكر المسخ في التناسخ إنكارًا صريحًا، وتنفيه نفيًا قاطعًا، حتى إنها استبدلت لفظة التناسخ بـ (التقمص)، لأن في انتقال النفس إلى جسم حيوان ظلم له، ولأن العقاب والثواب بني - حسب ما يزعمون - على قاعدة العدل الإلهي في محاسبة الأرواح بعد مرورها في الدهر الطويل، لا في مدى حياة واحدة، بخيرها وشرها، وقصرها أو طولها، بحيث يمنحها الدهر الطويل فرص الاكتساب والتطور، والامتحان والتبدل، لكي تحاسب حسابًا عادلًا على مجموع ما كتب، فلا تكون الأرواح كيانات مبهمة غير واعية).

ولكن الدروز يعتقدون بالمسخ المعنوي أو المجازي، يقول الأستاذ عبد الله النجار: (المسخ في اللغة تحويل الصورة إلى أقبح منها، فيقال مسخه الله قردًا، وهذا دينيا، ورد ذكره، مجازي معنوي، المقصود منه التحقير، والذم، والتوبيخ، وهو تعبير مجازي وليس حسيا على الإطلاق. وإنما تكون الحكمة في عذاب رجل يفهم ويعرف العذاب، ليكون مأدبة له وسببا لتوبته... وإنما يكون العذاب الواقع في الإنسان، نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها في الدين، وفي قلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه).ومن اعتقادهم في هذا الموضوع: (أن العالم قد خلق دفعة واحدة، وأن البشر خلقوا سوية وليسوا بمتناسلين من أب واحد، بل من حين الخليقة وجد

الحايك في نوله، والبناء على الحائط، وأن عدد أنفس البشر لا يزيد ولا ينقص).

وفي هذا المعنى جاء في رسالة (من دون قائم الزمان) ما يلي:

(أليس قد صح عند كل ذي عقل ومعرفة بالحقيقة والفضل، أن هذه الأشخاص أعني عالم السواد الأعظم لم يتناقصوا ولم يتزايدوا، بل هي أشخاص معدودة من أول الأدوار إلى انقضاء العالم والرجوع إلى دار القرار.

والدليل على ذلك أن هذه الخلقة أعني العالم العلوي والسفلي ليس لها وقت محدد، ولا أمد عند العالم معدود، أليس لو زاد العالم في كل ألف سنة شخصًا واحدًا لضاقت بهم الأرض. ثم إنه لو نقص في كل ألف سنة شخص واحد لم يبق منهم أحد، فصح عند كل ذي عقل راجح، ومن هو بالحقيقة لنفسه ناصح، أن الأشخاص لم تتناقص ولم تتزايد، بل تظهر بظهورات مختلفات الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر).

وكذلك نجد في (رسالة ذكر الرد على أهل التأويل الذين يوجبون تكرار الإله في الأقمصة المختلفة) ما يلي: عرفوني يا شيوخ التجريد هذه القوى التي تفارق الأجسام أين مستقرها؟ وأين يكون ثباتها؟ فإن قلتم: فيما بين الأرض والسماء، فهي لكثرة النشوء تسد ما بين العالمين، وتخالط الهوى وتأتي عليها الطبائع ويدخل عليها من التضاد والفساد ما يدخل على غيرها، وإن أوجبتم أن ثباتها فوق السماء فهي تملأ الأفق).

والملاحظ في رسائل حمزة أن العذاب الواقع بالإنسان يكون بنقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه وتقمصها في الأجساد، وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية. أما الجزاء في الثواب مادام يتكرر في الأجساد فهو زيادة درجته في العلوم

الدينية وارتفاعه من درجة إلى درجة).

وهكذا تمر النفس في دورانها بحالات مختلفة وتظل كذلك حتى تتطهر - إن كانت صالحة -، وبعد هذا التطهير يكون الزمن الذي يعقب قيام القيامة التي يترقبها الدروز، أما النفس الشريرة فتظل معذبة بجميع أنواع العذابات المعروفة. والعذاب الأكبر هو عذاب الضمير، وعذاب الندم على ما فات، لأنها لم تنتفع من أدوارها الماضية).وهم يعتقدون أنه: (كلما مات إنسان انتقلت روحه لمولود جديد، ويسمى ذلك عندهم الفرقة والخلقة، ويشبهون النفس بالسائلات التي تحتاج إلى إناء يضبطها فإذا كسر فلابد من تلقي السائل في إناء غيره لئلا يهرف ويضيع).

وبناء على ذلك فإذا مات أحد من مذهبهم فإنه يولد ثانية على نفس هذا المذهب، ولهذا فلا يقبلون أحدا في مذهبهم حتى ولو اطلع الإنسان على كتبهم وعرف ديانتهم واعتقد صحتها وسلك بموجبها فلا فائدة من ذلك، بل حين موته ترجع روحه إلى مذهبه القديم. وكذلك إذا انتقل أحد من مذهبهم إلى غيره، فإنهم لا يعترفون بذلك، لأن روحه في النقلة الأخرى ستعود إلى مذهبه القديم.

يقول الدكتور سامي مكارم عن هذه النقطة: (ففي عقيدتهم أن الذين نقلوا الدعوة وتعرضوا إلى الحقيقة في الماضي لا يزالون يولدون من تقبل الدعوة.

كذلك فإن التقمص في معتقد التوحيد ليس تطورًا للروح في هذا الدور، بل هو تقلب الروح في شتى الأحوال، لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الأحوال.

فمن لم يتقبل نداء الحق، حسب معتقد التوحيد، لا يمكنه إلا أن يحصد نتيجة أعماله في حيواته التالية، وكذلك هي الحال بالنسبة لمن تقبل هذا النداء وتعرف إلى الحقيقة. والتقمص يتضمن - عند الدروز أيضًا - تمييزًا جنسيًا، فالذكر يولد ذكرًا، والأنثى أنثى).

ونتيجة لهذه النظرية عندهم؛ فإنهم يقولون: (عن ذوي العاهات والمصابين كالأعمى والأعرج والفقير والجاهل، أن مصابهم هو قصاص عن ذنوبهم في مدة حياتهم السابقة، ويحتجون بذلك على النصارى فيما ورد بالإنجيل حينما سأل الرسل السيد المسيح: عن ذلك الأعمى هل هو أخطأ أم أبواه؟ حتى ولد أعمى، ويقولون: إنه إذا كان قد أصيب بالعمى وقت ميلاده لخطيئته ظهرت منه. ويعتقدون أيضًا: أن إيليا النبي هو يوحنا المعمدان، وأن المسيح أي حمزة أخبر عنه في إنجيل متى: بأن يوحنا هو إيليا، ويجعلون هذا برهانا على التقمص، وهكذا يجعلون الغني والعالم والجاهل، إنما استحقوا ذلك مكافأة لهم).

ويستدل الدروز بآيات من القرآن الكريم ليثبتوا فيها اعتقادهم بالتناسخ، مؤولين معناها ليتفق مع ما يزعمون، ومن ذلك ما استدل به الأستاذ فؤاد الأطرش من آيات القرآن الكريم، زاعمًا أنها تدل على التناسخ: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا [النساء:٥٦] (كيف تكفرون بنعمة الله، وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون). (لا ينفع نفسًا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل وكسبت في إيمانها خيرًا). مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى [طه: ٥٥] يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الروم: ١٩].

ويزعم الأستاذ الأطرش أيضًا: (أن تشبيه النفس بالأرض إثبات مادي على التقمص لا يقبل الجدل، فلنتأمل في أدوار الأرض ومواسمها وموتها ثم حياتها. والإنسان يرفض هذه الفكرة لأنها تناقض مبدأ الذاتية وتحطم أحلامه، ويضع الإنسان أمام الواقع الروحي موضع المنافح في سبيل خلاصه من أسر مادية التفكير والحياة). وبسبب اعتقادهم بالتقمص، يعتقدون أيضًا بالنطق، (والنطق هو: أن الروح

حين تنتقل من جسد إلى جسد تحمل معلومات عن دورها في الجيل السابق - يعني في الجسم الذي كانت تتقمصه قبل قميصها الحالي، وفي هذه الحالة تتحدث أو تنطق بما تذكره من وقائع عن حياتها السابقة). ولكن هناك من الدروز مثل الأستاذ عبد الله النجار، من ينفي نظرية (النطق) هذه من أساسها، ويعتبرها خرافات ومن سذج العامة ويستشهد على ذلك بنصوص من رسائلهم، ومما ذكره نقلًا عن الرسالة ٦٧: (فإن قال قائل: ما لنا لا نعرف ما مضى من الأدوار؟ قال له المحتج بالحقيقة: إنك لو ذكرت، وعرفت، لشاركت المبدع في غيب حكمته، ولكان ذلك عجزًا من الباري، ولكان يفسد النظام).

غير أن الدكتور سامي مكارم يقول في معرض ردِّه على الأستاذ النجار: (ويمكننا القول أن منطق عملية التقمص لا يتعارض مع تذكر الماضي، خاصة عندما ندرك أن نزعات الفكر اللطيفة، حسب عقيدة التوحيد، تنطوي عند الموت، في أعماق النفس المتنقلة من جسد إلى جسد. وهذه النزعات والأفكار اللطيفة، كبذور انطلاقة الحياة التالية، هي التي تحدد وضع التقمص المقبل، فلابد لبعض الأذهان إذا صادفت بعض الحالات المناسبة، أن تتذكر الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه).

ولابد لنا - بعد ذلك - إلا أن نرجح الرأي الذي يقول باعتقاد الدروز بـ (النطق)، ذلك لأن كتاب أضواء على مسلك التوحيد، كان في الحقيقة ردًا من مشيخة العقل عندهم على الأستاذ عبد الله النجار.

أما الحلول: فهو نوع من التقمص، لكنه يختلف عنه في أن النفس المنتقلة من جسم إلى آخر، تنتقل معها أحيانًا جميع صفاتها، أو بعض صفاتها البارزة. ومن ذلك نشأ الاعتقاد أن نفوس الأنبياء والمرسلين تنتقل من دور إلى دور، مستكملة أروع صفاتها، فحمزة بن علي في دور الحاكم هو نفس سلمان الفارسي في دور النبي

ﷺ). وقد استنتج الدكتور محمد كامل حسين من نظرية التناسخ هذه: (أن لهذه العقيدة علاقة بمذهب التناسخ في الديانة البوذية، والديانة الهندوكية، ففي الديانة البوذية ظهر بوذا على هيئة حيوانات وطيور وشجر وصور أنسية حوالي ألف مرة. وفي الديانة الهندوكية ظهر شيفا على صور أنسية عديدة، كذلك ظهر مذهب التناسخ عند فلاسفة اليونان وقدمائهم، ففي ديانة قدماء اليونان تظهر آلهتهم في صور مختلفة، وعند فلاسفة اليونان التناسخ عندهم عدة أقسام: نسخ ومسخ وفسخ ورسخ).

وهكذا نستطيع أن نربط هذا الاعتقاد، بهذه الاعتقادات التي كانت سائدة في فارس والهند واليونان.

(باب الحدود الخمسة)

في العقيدة الإسماعيلية مبدأ أساسي في التوحيد والإيمان، (هو أن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية، والحدود الجسمانية، والإيمان بهم وطاعتهم طاعة تامة، وهذه الحدود هي: (العقل، والنفس، والجد، والفتح، والخيال). وهذه الحدود العلوية ممثولات لحدود الدين الجسمانية الذين هم النطقاء، والأوصياء والأئمة والحجج والدعاة).

وذهب الفاطميون كذلك إلى أن الله تعالى أبدع العقل الكلي وبوساطته وجدت النفس الكلية، وبوساطتها وجدت المخلوقات كلها. فالعقل الكلي عند الإسماعيلية هو الخالق الحقيقي، ومن هنا قالوا أن أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم هي أسماء للعقل الكلي، واعتبروا أن الإمام الفاطمي ممثل للعقل الكلي، وأن جميع مناقب العقل الكلي وصفاته تطلق أيضًا على الإمام).

وجاء دعاة الدروز وأخذوا آراء الفاطميين في الحدود، وحوروها حتى تتفق مع مبادئهم وآرائهم، فخالفوا بذلك آراء الفاطميين مخالفة جوهرية. من ذلك: (أن الحدود الروحانية هم نفسهم الحدود الجسمانية، فلا يوجد عندهم مثل وممثول، أي أن الحدود الجسمانية هم أنفسهم الحدود العلوية، فذهبوا إلى أن المعبود أبدع من نوره العقل الكلي، وهو الإرادة، وهو علة العلل، وهو القلم، وهو القضاء، وهو ألف الابتداء وألف الانتهاء، وهو قائم الزمان حمزة بن علي).

ويناقش حمزة رأي الفاطميين في حدود الدين في (رسالة كشف الحقائق) فيقول:

(اعلموا معاشر الموحدين رحمكم البار العزيز الجبار، بأن جميع المؤمنين والشيوخ المتقدمين تحيروا في أمر السابق وضده التالي ونده، فبعضهم قالوا: بأن السابق هو الغاية والنهاية، والعبادة له وحده دون غيره في كل عصر وزمان، وهذا نفس الكفر. وقالت طائفة منهم: إن السابق نور الباري، لكنه نور لا تدركه الأوهام والخواطر، وهذا نفس الشرك بأن يكون الباري سبحانه لا يدرك، وعبده لا يدرك، فأين الفرق بين العبد والمعبود، وهذا محال ونفس الشرك والضلال).

وهكذا أظهر حمزة الحدود في صور تختلف عما عهده أصحاب العقيدة الفاطمية، فحمزة بن علي هو نفسه العقل الكلي، وهو الإرادة، وهو علة العلل، وهو القلم، وهو القضاء إلى غير ذلك من الألقاب التي منحها لنفسه، وهذا العقل الكلي ليس هو السابق، إنما السابق مرتبته أقل بكثير من مرتبة العقل الكلي، فإنه في المرتبة الرابعة من مراتب الحدود عند حمزة. كذلك عن التالي، وهو النفس الكلية عند الفاطميين، فقد جعل حمزة مرتبة التالي في المرتبة الخامسة، وجعل الفاطميون - الكلمة - مكونة من السابق والتالي، بينما جعل حمزة - الكلمة - هي المرتبة الثالثة من مراتب الحدود). (وجميع هؤلاء الحدود مشخصون ليس في زمن الحاكم

وحسب، بل في جميع العصور). فقد زاروا العالم بظروف وأدوار مختلفة. إذ هم ليسوا مولودين بل موجودين، لا يمسهم الموت، إذ هم الروح الحقيقي الذي لا يخلوا منه عصر، وهم رسل الحاكم في كل دور وإن أخذوا أسماء مختلفة وأقمصة متعددة.

ويوضح إسماعيل التميمي في (الرسالة الموسومة بالشمعة) مراتب الحدود وأسمائهم فيقول: الحمد لمن أبان توحيده بإقامة حدوده، وكشف عن مجيده بمراتب آياته، وضرب بذلك الأمثال ليعبدوه ذوي الألباب، فقال: (وما يتذكر أولوا الألباب).

والشمعة أقيمت كاملة بجميع آلاتها على التوحيد المحض، فشمعة: خمسة أحرف دليل على الخمس جواهر المكنونة وهم: الإرادة، والمشيئة، والكلمة، والسابق، والتالي، فهؤلاء شمعة التوحيد.

وعلى بعض الوجوه، إن الشمع لا يقد إلا بالقطن، والقطن لا تقد إلا بالشمع، ولم يقع عليها اسم شمعة كاملة يستضاء بنورها إلا بتعلق النار فيها، والنار الذي يتعلق فيها فهو لطيف وكثيف، فاللطيف فيه لسان العالي الأحمر الذي تعتريه زرقة يختفي مرة ويظهر مرة، فذلك دليل على قائم الزمان حمزة بن علي بن أحمد، والنار الذي يوقد الشمع دليل على حجته: إسماعيل بن محمد بن حامد، والشمع دليل على الكلمة محمد بن وهب، والقطن دليل على السابق سلامة بن عبد الوهاب، والطست الذي هو الحسكة دليل على التالي علي بن أحمد السموقي فهذه الخمسة حدود. كذلك من عدم معرفة هذه الخمسة حدود لم يعرف التوحيد في وقتنا هذا، وكان توحيده دعوى، فليعلموا الموحدون ذلك ويعتقدون ولا يعبدون المولى بلا معرفة، فقد قال: (حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ).

ويصف (كتاب النقط والدوائر) الحدود بما يلي: فالأصلان القديمان: هما العقل الكلي والنفس الكلية، والكلمة البسيطة هو مولاي الكلمة سلام الله عليه، والنور البسيط هو مولاي أبو الخير، والحكمة اللطيفة هو مولاي بهاء الدين سلام الله عليهما. فصارت أربعة جوانب، أي الحدود الأربعة جوانب حول العقل الكلي، لأنهم له بمحل الأجنحة، كما قال: (أولي الأجنحة مثنى وثلاث ورباع).

وعلى ضوء ما ورد في رسالة (ذكر معرفة الإمام وأسماء الحدود العلوية روحانية وجسمانية) نستطيع أن نرتب حدود الدروز الخمسة على الشكل التالي:

أولا: النفس، وهو ذو معة، علة العلل، والآمر قائم الزمان، وهو الإرادة، وهو الإمام الأعظم حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين.

ثانيا: النفس، وهو ذو مصة، وهو المشيئة، إدريس زمانه، وأحنوخ أوانه، هرمس الهرامسة، الحجة الصفية الرضية، الشيخ المجتبى، أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي، صهر حمزة بن علي.

ثالثًا: الكلمة، وهو سفير القدرة، ذو مصة فخر الموحدين، وبشير المؤمنين، وعماد المستجيبين، الشيخ الرضى، أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي.

رابعا: السابق، وهو الجناح الأيمن، نظام المستجيبين وعز الموحدين، أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري. خامسًا: التالي، وهو الجناح الأيسر، لسان المؤمنين وسند الموحدين، ومعدن العلوم، الذي يقوم بالأفعال الصحيحة المعلومة، والناصح لكافة الخلق أجمعين، الشيخ المقتني بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي المعروف بـ (الضيف). والحدود الأربعة الذين يلون العقل الكلي، هم الأربعة الحرم، وهؤلاء الحدود يظهرون في كل عصر في صور مختلفة وأسماء متباينة، فمثلًا عندما ظهر المعبود في صورة أبي زكريا، ظهر حمزة في صورة قارون، وظهر إسماعيل

التميمي النفس الكلية في صورة أبي سعيد الملطي).وعندما ظهر حمزة في صورة سلمان الفارسي في زمن محمد ﷺ، ظهرت الحدود الأربعة الأخرى بصورة أربعة من الصحابة وهم: المقداد، وأبو ذر، وعمار بن ياسر، والنجاشي).

ومما يذكر أن التالي - أي بهاء الدين - له ثلاثة حدود هم:

الجد: وهو أيوب بن علي.

الفتح: وهو رفاعة بن عبد الوارث.

الخيال: وهو محسن بن علي. وهؤلاء الثلاثة يتلقون أوامرهم من بهاء الدين، وليس لهم المكانة التي للحدود الحرم).وسمي الحدود الأربعة حرما، لأن حمزة مقامه منهم مقام الرجال، وهم نساؤه، ولأنهم عنده بمنزلة النساء في طاعتهم له).

وحتى يكون التوحيد شاملًا، جعلوا لمرتبة العقل سبعين حجة، وعن هؤلاء الحجج السبعين تفرعت الحدود جميعا بين دعاة ومأذونين ومكاسرين.

وجميع الحدود الحرم وغير الحرم كلهم من قبل العقل، يسقط من يريد ويرفع درجة من يشاء، والحدود السبعون هم الذين أتى على ذكرهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ [الحاقة: ٣٢]، يعني حدود دعوة التوحيد سلسلة بعضها في بعض وهم سبعون رجلًا موزعين ومنظمين حسب الشكل التالي:

أولًا: النفس الكلية، ولها اثنا عشر حجة في الجزائر، وسبعة دعاة للأقاليم.

ثانيا: الكلمة، ولها اثنا عشر حجة وسبعة دعاة.

ثالثًا: السابق، وله اثنا عشر حجة فقط.

رابعًا: التالي، وله اثنا عشر حجة فقط. خامسًا: الداعي المطلق، وله مأذون واحد ومكالبان - أو مكاسران -).

وقد أوضحت (الرسالة الموسومة بكشف الحقائق) هذه الحدود بقولها: (فهؤلاء الحدود السبعون التي ذكرناهم، هم أذرع السلسلة الذي قال في القرآن: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ [الحاقة:٣٠]، أي ضد الإمام إذا بلغ غايته وتمت نظرته، خذوه بالحجج العقلية وغلوه بالعهد وهو الذبح الذي قالوا بأن القائم يذبح إبليس الأبالسة، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ [الحاقة: ٣١]، أي غوامض علوم قائم الزمان الذي يتحتم العلماء والفهماء عند علمه، أي يصمتوا ويتخيروا، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ [الحاقة:٣٢] أي ميثاق قائم الزمان الذي هو سلسلة بعضها في بعض، وهم سبعون رجلًا في دعوة التوحيد. فهذه السلسلة الحقيقية، ومعانيها كما ذكره الجهال الحشوية، ولو كان كما قالوا الظاهر لم يكن قولهم حكمة لأن من كان في غل جهنم وعليه متوكلو الزبانية لا يحتاج إلى سلسلة، لأنه لا يستطيع الخروج من النار، ولو كان نسيا، فكيف وقد غلوه؟ فإن قالوا: بأن الله أراد بالسلسلة تهديد أهل النار والتعظيم عليهم، فقد بطلت حجتهم هاهنا لأنه قال سبعون ذراعًا، ولو كان بسبب التعظيم لكان يجب أن يكون ألف ذراع، فلما لم يذكر غير سبعين ذراعًا، أعلمنا أنه أراد بذلك أشخاصًا معروفة دينية توحيدية لا يجوز لأحد أن يتجاوز حدهم ولا يزيد ولا ينقص).وقالوا في تأويل (بسم الله الرحمن الرحيم) أنها: (تسعة عشر حرف إشارة إلى حدود حمزة تسعة عشر رجلًا، فلذلك عندما يكتبون (بسم الله الرحمن الرحيم) يلحقونها بقولهم: حدود عبده الإمام).فعندهم (بسم الله) سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة، و (الرحمن الرحيم) اثنا عشر حرفا دليل على اثني عشر دعاة الجزائر).وقد ورد هذا التأويل في (الرسالة الموسومة بسبب الأسباب) التي كتبها حمزة حيث يقول: (وفي السطر الرابع صفات العلة (بسم الله الرحمن الرحيم) وهم صفات هذه العلة المذكورة الذي هو الإمام، لأن (بسم الله)

سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة، و (الرحمن الرحيم) اثنا عشر حرفا دليل على اثنا عشر داعيًا، أصحاب الاثنا عشر جزيرة، وأيضًا دليل على سبعة أفلاك، واثنا عشر برجًا، وهم كلهم موجودون في عصر مولانا جل ذكره مستخدمون تحت أمر هذا الإمام). ولهذا نجد في مقدمة كثير من رسائل الدروز ذكر (بسم الله الرحمن الرحيم) على أنها حدود عبده الإمام، من ذلك (الموسومة برسالة النساء الكبيرة) حيث يقول: (توكلت على مولانا البار العلام العلي الأعلى على جميع الأنام، جل ذكره عن وصف الواصفين وإدراك الأنام حروف (بسم الله الرحمن الرحيم) عبده الإمام). (واحترام الحدود عندهم، معتقد أكيد، لأنهم وسائط الله تعالى وأبوابه وسفراؤه، ومنهم الوصول إليه، ولا مطمع لأحد من الخلق في الوصول إلى الخالق أبدا إلا بهم ومنهم وعلى يدهم وبتعليمهم وإرشادهم). فهم أشرف خلق الله تعالى بعد سيدهم الإمام الأعظم، وهم معصومون عن الزواج والخطايا).

والحدود الخمسة - عندهم - بالإضافة إلى الجد والفتح والخيال، هم الثمانية الذين يحملون العرش). ولذلك يقول حمزة في (رسالة التحذير والتنبيه): (واعرفوا الحدود بأسمائهم وصفاتهم، ونزِّلوهم في رتبهم، ومنازلهم، فإنه أبواب الحكمة، ومفاتيح الرحمة).

وبعد هذا التعريف العام عن الحدود ومكانتهم عند الدروز، نتحدث عن كل واحد منهم على انفراد:

العقل: هو أول الحدود، وإمامهم، ظهر في جميع الأدوار بأسماء مختلفة:

في دور آدم كان اسمه شطنيل.

في دور نوح كان اسمه فيثاغورس.

في دور إبراهيم كان اسمه داود.

في دور موسى كان اسمه شعيب.

في دور عيسى كان اسمه المسيح يسوع، وهو المسيح الحقيقي صاحب الإنجيل.

في دور محمد ﷺ كان اسمه سلمان الفارسي. في دور الحاكم، كان اسمه حمزة.وقد خص حمزة نفسه بعدة ألقاب وصفات، لم يسبغها نبي من الأنبياء على نفسه، فهو الآية الكبرى، والعقل الكلي، والإرادة، وعلة العلل، وذو معة. ووصف نفسه في (رسالة التحذير والتنبيه): بأنه أصل المبدعات، وأنه سراط المولى المعبود، والعارف بأمره، وأنه الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور، وأنه صاحب البعث والنشور والنافخ في الصور، وأنه ناسخ الشرائع ومهلك العالمين، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وأنه هو الذي أملى القرآن على محمد ﷺ إلى غير ذلك من النعوت التي أسبغها على نفسه وزخرت رسائله بها).

وفي رسالة (السيرة المستقيمة) حديث عن النطقاء والأسس، وعن تأويل قصص الأنبياء، ويتساءل الدكتور محمد كامل حسين عن مصدر ما أتى به حمزة في هذه القصص ويقول: (هل هناك علاقة بين اسم شطنيل - الذي يأتي به حمزة - واسم شانطي الذي يطلقه الصينيون على القديسين المسيحين؟ ويقول: ربما سمع حمزة بهذه الكلمة من أحد الصينيين، أو أحد الذين سافروا، فاستغلها بعد أن حرفها إلى شطنيل... وبعد أن يذكر - الدكتور محمود كامل حسين - بعض الأمثلة للأكاذيب التاريخية التي يطلقها حمزة، يضيف قائلًا: كل هذه مسائل كان حمزة هو الوحيد بين الكتاب في ذكرها على هذا النحو، ولاشك أنه أدرى بكل شيء لأنه علة العلل؟!).وعن شطنيل هذا يقول حمزة في (رسالة السيرة المستقيمة) أنه (وجد في ابتداء دورنا الحالي ثلاثة رجال، كل واحد منهم اسمه آدم، كانوا يعيشون في وقت واحد في بلد واحد، وهم آدم الصفا، وآدم العاصي، وآدم الناسي، وجميعهم ولدوا

من ذكر وأنثى، أما آدم الصفا، فهو آدم الصفا الكلي ذو معة - أي حمزة بن علي - وكان أحد حدود دعوة التوحيد في الدور الذي كان قبل دورنا هذا، وقد ولد آدم الصفا الكلي في بلدة آرمينية ببلاد الهند، وكان اسم شطنيل واسم أبيه دانيل). ولحمزة - كما سبق ذكره - أعظم ذكر وأجله بعد الحاكم حتى اليوم عند الدروز، باعتباره العقل الكلي والإمام وقائم الزمان، يقول الدكتور سامي مكارم عن هذا الإجلال ما يلي: (إن العقل الأرفع أو الكلي، حسب عقيدة التوحيد، هو مصدر انبثاق جميع الكائنات، وهو عين بقائها في هذا الوجود الظاهر، ومنه ابتدعت، فهي لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها من حيث العلة والمعلول، فالعقل الأرفع هو واسطة الكشف والمعرفة، أداة المشاهدة في كل نفس مؤمنة).

وفي رسالة (من دون قائم الزمان) يستدل على إمامة قائم الزمان بأنه: دعا إلى عبادة موجود ظاهر وإله في جميع الأمور قادر ويقول:

(وأول دليل على إمامة القائم أنه أتى بضد العالم، لأن جميع النطقاء والأسس وأصحاب الأدوار والأكوار أشاروا إلى عدم موهوم، وأبعدوه عن حواس العالم، وأن قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن عليه من المولى السلام دعا إلى موجود ظاهر وإله في جميع الأمور قادر، وكل من دعا إلى الحاكم المعبود الإله الموجود فقد أنصف من نفسه. ووجه آخر أنه أظهر أغراضه في دفعة واحدة، وقد علم أهل الشرق والغرب أنه دعا إلى توحيد مولانا جل ذكره، ثم بعد ذلك خيروا العالم ومكنوا من أديانهم وإظهارها فصح أن ذلك لأهل التوحيد... وأيضًا فإن عمارة الكنائس، وإزالة حمل الصلبان، وعزهم على المسلمين في كل مكان أدل دلالة على أن الإسلام قد اضمحل وبطل وأنه الحق قد أنار واشتعل، والحق هو توحيد مولانا جل ذكره الحاكم بذاته المنفرد عن مبدعاته). (ومن أدلة إمامته - أيضًا -: أنه صاحب القيامة

والجزاء، لأنه الملك المظفر المسعود، ديان القيامة أي القهار والقاضي والحاكم والسايس والمحاسب والمجازي).

أما الحد الثاني من الحدود الخمسة فهو: النفس: وهو أبو إبراهيم، إسماعيل بن محمد التميمي، ثاني الحدود، (باعتبار أن النفس فيض من العقل، وجزء متمم له انبثقت عنه، فنسبت إلى العقل كنسبة العقل إلى الخالق).وقد وجه إليه حمزة مرسوم تقليد أسماه (سجل المجتبى) جاء فيه: (إلى أخيه وتاليه، وذي مصة علمه، وثانيه آدم الجزوي، الذي اجتباه بعلمه وهداه بحلمه، وغداه بسلمه أحنوخ الأوان، وإدريس الزمان هرمس الهرامسة أخي وصهري أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد التميمي... إلى أن يقول: إني نظرت إليك بنور مولانا جل ذكره، وبما أيدني به مولانا علينا سلامه ورحمته... فجعلتك خليفتي على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين... وأسميتك بصفوة المستجيبين وكهف الموحدين وذي مصة علم الأولين والآخرين، وجعلت لك الأمر والنهي على سائر الحدود، فتولى من شئت وتعزل من شئت).

وللتميمي عدة رسائل من رسائل الدروز، منها: (رسالة في تقسيم العلوم)، و (رسالة الزناد) و (رسالة الشمعة)، و (رسالة الرشد والهداية). ومع أن - للتميمي - هذه القيمة عند الدروز، إلا أنه بعد اختفاء حمزة، إثر مقتل الحاكم سنة ٤١١ هـ، لم تذكره لنا رسائل الدروز مطلقًا، ولم يقم بأي نشاط، غير أن الأستاذ عبد الله النجار يفترض أنه بقي حيًا حتى سنة ٤٢٧ هـ، وهذا يعني أنه اختفى مع حمزة وباقي الدعاة حتى مات في هذه السنة.

أما الحد الثالث فهو:

الكلمة: وهو أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي، ثالث الحدود، وأول الثلاثة الذين أضيفوا إلى العقل والنفس. (ومعلوماتنا عنه نجدها في تقليده الذي قلده إياه

حمزة واسمه: (تقليد الرضى سفير القدرة)، وذلك حين رفعت درجته، وعين خلفا لسلفه (المرتضى) المتوفى).إذ أن التقليد يقول: (هي المنزلة التي كانت للشيخ المرتضى قدس الله سره، وأنت تسلمت علومه وحده، وقد سلمت إليك جميع كتبه التوحيدية، وجعلتك مقدمًا على جميع الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين والمستجيبين الموحدين، لا فوقك أحد أعلى منك غير صفوة المستجيبين وكهف الموحدين،.

وكما أن التميمي ليس له ذكر بعد الحاكم، كذلك ابن وهب لم يصلنا عنه أي خبر بعد هذا التقليد.

والحد الرابع هو:

السابق: وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري، رابع الحدود، ولم نجد في رسائل الدروز الموجودة الآن، تقليد خاص للسابق أسوة بسواه ممن قُلِّدوا مِن قِبَلِ حمزة. ويقول الأستاذ عبد الله النجار: (ولكن لا شك أن السابق قلد السلطة بمرسوم لم ينقل إلينا، دليلنا في (تقليد المقتنى) عبارة: تالي السابق بن عبد الوهاب السامري، وقوله: إذ كان الأيمن قد تقدمك، وهو سلامة بن عبد الوهاب المصطفى).

والسابق هو الجناح الأيمن في الحدود، وهو والتالي يعتبران الينبوع الذي يجري بالمعرفة الإنسانية.

أما الحد الأخير والخامس فهو:

التالي: هو أبو الحسن علي بن أحمد السموقي، خامس الحدود، اشتهر باسم بهاء الدين، بالإضافة إلى الأسماء والنعوت التي أطلقت عليه مثل: (لسان المؤمنين)، (وسند الموحدين)، (والعبد المقتني)، وغير ذلك من الألقاب التي أطلقها عليه حمزة.

ويعتبر بهاء الدين، من أخطر دعاة الدروز بعد حمزة، إذ قام بأعظم قسط في نشر المذهب الدرزي بعد اختفاء حمزة، فلولا جهوده لما بقي لهذا المذهب أثر يذكر.

ومما يذكر أن الكثير من رسائل الدروز هي من تأليف بهاء الدين هذا، ومن هذه الرسائل: (التنبيه والتأنيب)، (ومثل ضربه بعض حكماء الديانة)، (والإيقاظ والبشارة)، (ورسالة اليمن). (ورسالة الهند) وغير ذلك من الرسائل.

وقد جاء في نسخة تقليده ما يلي: (فاخدم ببركة المولى في الحد الجليل الذي أهلت له، واستعد لك كأخيك الجناح الأيمن ثلاثين حدا دعاة مأذونين ونقباء ومكاسرين، واعلم أن أول السبعة المفترضات: سدق اللسان، والسدق هو المولى وضده الكذب، والسدق والكذب يتشابهان في التخطيط، كذلك الصدق يتشبه بالمولى، لأن المولى جل اسمه لا ضد له.

وكذب ثلاثة أحرف، وسدق ثلاثة أحرف، فإذا أحسبناها في حساب الجمل افترقا، لأنك تقول: (ك) عشرون، (ذ) أربعة، (ب) اثنتان، الجميع ستة وعشرون حرفًا... والسدق: (س) ستون، (د) أربعة، (ق) مائة، فذلك مائة وأربعة وستون حرفا دليل على مائة وأربعة وستين حدًا، يكون للإمام منها تسعة وتسعون حدًا، كما قال: (إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة)، أي لإمام التوحيد تسعة وتسعين داعيًا من عرفهم دخل حقيقة دعوته).

ويبدو أن بهاء الدين، كان على اتصال مع حمزة، أثناء غيابه بعد مقتل الحاكم، وكان أيضًا على معرفة بمقره السري الذي يختبئ به، وكان يتلقى منه الأوامر والتوجيهات، وقد قام بهاء الدين بجهود كبيرة لإبعاد من حاولوا أن يغيروا شيئًا من المذهب من أمثال سكين وغيره، من الذين انقلبوا على أراء حمزة، لذلك نجد بهاء الدين يبعث إليهم برسائل التنبيه والتأنيب والتوبيخ، على ما حاولوا تغييره في

المذهب.

وهو لهذا أعلن غيبته سنة ٤٣٤ هـ في منشور الغيبة، والذي أعلن فيه إقفال باب الاجتهاد في المذهب، وذلك ليحافظ على آراء حمزة، وآراء الحدود والدعاة الآخرين مثل حمزة والتميمي. ومما يذكر في هذا المقام أن لكل حد من الحدود الخمسة لون مخصص له، فاللون الأخضر مخصص لحمزة، والأحمر مخصص للتميمي، والأصفر مخصص للقرشي، والأزرق لسلامة بن عبد الوهاب السامري، أما الأبيض فهو لبهاء الدين، ولهذا عندما أعلن الاستعمار الفرنسي قيام (إمارة جبل الدروز المستقلة) ارتفع علم ذو ألوان خمسة مكون من الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق والأبيض على المراكز الرسمية في الجبل، ولا يزال هذا العلم يرتفع على بيت الطائفة الدرزية في بيروت.

(باب عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب)

اليوم الآخر في المذهب الدرزي ليس يوم القيامة، إذ ليس فيه موت للأرواح، ولا قيامة لها، ولا بعث. (فالأرواح لا تموت لتبعث، ولا تنام لتوقظ بل إن يوم الحساب نهاية مراحل الأرواح وتطويرها، إذ يبلغ التوحيد غايته من الانتصار من العقائد الشركية، وينتهي الانتقال والمرور في الأقمصة المختلفة). (وفي هذا اليوم - كما يزعمون - يظهر المعبود (الحاكم بأمر الله) في الصورة الناسوتية، ولم تحدد رسائل الدروز تاريخ هذا اليوم، ولكنها تقول أنه سيكون في شهر جمادى أو رجب، وعلامة قرب هذا اليوم: هو عندما يتسلط المسيحيون واليهود على البلاد، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة، ويتملك شخص من ذرية الإمامة يعمل ضد شعبه وأمته، ويضع نفسه تحت سلطان المخادعين، ويتملك اليهود بيت المقدس،

إلى غير ذلك من علامات الساعة التي يذكرونها).

أما مكان ظهوره، (فكما تقول رسالة الأسرار سيكون في بلاد الصين يخرج وحوله قوم يأجوج ومأجوج - ويسمونهم القوم الكرام - ويكونون مليونين ونصف من العساكر مقسومة إلى خمسة أقسام، كل قسم منها يترأس عليها أحد الحدود، فيدخلون مكة المكرمة.

وفي صباح ثاني يوم وصولهم، يتجلى لهم الحاكم بأمر الله على الركن اليماني من الكعبة، ويتهدد الناس في سيف مذهب، يسده ويدفعه إلى حمزة فيقتل فيه الكلب والخنزير - يريدون فيهما الناطق والأساس.

ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد (الكلمة)، الذي هو أحد الحدود الخمسة، وحينئذ يهدمون الكعبة ويفتكون بالمسلمين والنصارى في جميع جهات الأرض ويستولون عليها إلى الأبد، ومن بقي يكون عندهم في الذل والهوان.

وتصير الناس إلى أربعة فرق:

أولا: الموحدون، وهم عقال الدروز، وهم الوزراء والحكام والسلاطين.

ثانيا: أهل الظاهر، وهم المسلمون واليهود.

ثالثا: أهل الباطن، وهم النصارى والشيعة.

رابعا: المرتدون، وهم جهال الدروز. ويجعل حمزة لكل طائفة غير أصحابه سيمة في جبينه أو يده، وعذابا يتأذى به، وجزية يؤديها كل عام، ونحو ذلك من الهوان).

وعن قوم يأجوج ومأجوج يقول (مصحف الدروز). (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصارهم، أبصار الذين كفروا، يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين، لقد

نسي هؤلاء هذا اليوم، وقد وقع لهم، ووقعوا فيه، وهم لا يشعرون وكبكبوا على وجوه قبلتهم، حتى غشيتهم الغاشية. أولم ير هؤلاء كيف مد لهم مولانا الحاكم الحياة أمدا، الآن حصحص الحق).وفي ذلك اليوم، كما ورد في (رسالة الزناد) التي ألفها التميمي ينادي حمزة: (أين شركائي الذين زعمتم أنهم فيكم شفعاء، لقد انقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون)، يعني يوم قيامة القائم صاحب القيامة بالسيف، فيناديهم: أين شركائي، يعني رؤساء أهل الظاهر وشياطينهم، الذين أضلوهم بغير علم، وأحلوهم دار البوار التي هي الشريعة، وما ألقوه من التكاليف الشرعية، التي هي من حيث العقل والنار بالفعل، وما تمسكوا به من زخارف أهل الجهل وأباطيلهم، فلم يستطيعوا جوابًا، إلا أن يقولوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا، وكنا قوما طاغين).

وحمزة في هذا اليوم، هو صاحب الجزاء والقصاص، ولذلك يخاطب في (الرسالة الموسومة بالإعذار والإنذار) أتباعه بقوله: (يوم قيامي بسيف مولانا الحاكم سبحانه ومجازاتي للخلائق أجمعين، وأخذي لكم الحق والقصاص، وإنالة إحساني لأهل الوفاء منكم والإخلاص، وانتزاعي النفوس من الأجساد، من أهل الفسوق والعنادة وقتلى الوالدين والأولاد وأنيلكم أموالكم).

(أما الثواب والعقاب، فيفهم من كتابات حمزة أن العذاب الواقع بالإنسان نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين، وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه في الأجساد، وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد، تقل منزلته الدينية. أما الثواب فهو زيادة درجته في العلوم الدينية وارتفاعه من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى درجة حد - المكاسر).

وهم ينكرون وجود الجنة والنار، ويسخرون من القائلين بهما، يقول التميمي في

(رسالة الزناد): (وأما زعمهم بأن الجنة عرضها السموات والأرض)، فقد جهلوا معنى هذا القول، فإذا كان عرضها السموات والأرض، فكيف يكون طولها؟ وأين تكون النار فيها؟ ولو عرفوا الطول عرفوا العرض، وكل شيء طوله أكثر من عرضه، وإذا رجعنا إلى المعاني الحقيقية، التي بها يتخلصون الموحدون من جهلهم من داء الشرك.

وأما معنى الطول والعرض، فإن طولها هو العقل الكلي، الذي هو قائم الزمان إمام المتقين بالحق، ومجرد سيف التوحيد، ومفني كل جبار عنيد، وكان عرضها مثل النفس القابل لبركات العقل والتأييد. وأما النار فهي من حيث المحسوس المحرقة للأجسام، ومن أسمائها ما يحمد ومنها ما يذم، وأما النار الكبرى والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنها مثل العقل لأنه مطلع على سرائر العالم، وأما المذموم منها نار العذاب وهي الهاوية، والجحيم، وهذه الأسماء معنى الشريعة التي هو وأهلها غووا ولحقوا فيها العذاب).

إلى هذا الحد، تذهب العقيدة الدرزية في اليوم الآخر، وفي الثواب والعقاب، وهي كما نرى لا تؤمن بالغيبيات وترفضها جميعها، ولهذا فهم ينكرون وجود الملائكة والجن، فالملائكة في نظرهم هم أتباع المذهب الدرزي، والشياطين هم مخالفي هذه العقيدة. ومن المفارقات العجيبة والمضحكة ما رواه مؤلف (أيها الدرزي عودة إلى عرينك) عن أحد مشايخ الدروز ويدعى الشيخ داود أبو شقرا والذي أعلن أن يوم القيامة سيكون في ٦ آب ١٩٥٢ وهو يوم القيامة التي وعدت به الرسائل المخطوطة معتمدًا في ذلك على مستند الحروف والجمل، وبالفعل فقد اقتنع بذلك بعض شيوخ لبنان وحوران وذاع الخبر، ولكن مع الأسف فإن هذه القيامة لم تقم كما توقعوا؟!.

(باب عقيدة الدروز في الأنبياء)

(الدروز ينكرون جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وينسبونهم إلى الجهل، ذلك أنهم كانوا يشيرون إلى توحيد العدم، وما عرفوا المولى - أي الحاكم). ويرون أن المعجزة يمكن أن يصل إليها كل إنسان ذي نزاهة إزاء نفسه.

وحمزة يرى وجوب محاربة جميع الأنبياء، أصحاب الشرائع الظاهرة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ووجوب البراءة من شرائعهم وعقائدهم الفاسدة وأديانهم المضللة، إذ هي النار والهاوية.

فالناطق والأساس عندهم هما إبليس والشيطان، فالأول - أي إبليس - ظهر في جسم آدم ثم انتقل إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ثم إلى محمد، ثم إلى سعيد. وأما الثاني - أي الشيطان - فظهر أولًا في جسم شيث بن آدم، ثم في سام، ثم في إسماعيل، ثم في يشوع بن نون بعد هارون، ثم شمعون الصفا، ثم في علي بن أبي طالب، ثم في قداح). ولذلك فهم يقذفون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسماء وألفاظ فاحشة، كالقبل والدبر والغائط والبول، ولا يتركون مجلسًا من التشنيع عليهم، وأكثر كراهيتهم متجه نحو المسلمين). فيقولون عن النبي ﷺ وآله: (بأنهم حروف الكذب، هي ستة وعشرون وهم: دليل إبليس وأولاده وزوجاته وهم: محمد وعلي وأولاده الإثني عشر إمامًا).

وكما سبق - ذكره فإنهم يعتقدون أن حمزة ظهر بصور مختلفة في جميع الأدوار، وكان في زمن محمد ﷺ بصورة سلمان الفارسي، (ولهذا فإنهم يزعمون أن القرآن قد أوحي حقيقة إلى سلمان الفارسي، وأنه كلامه، وأن محمدًا أخذه وتلقاه عنه، حتى زعموا بأن خطاب لقمان الذي خاطب به ولده: يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف

وانه عن المنكر هو خطاب سلمان لمحمد.

وهم لهذا يحاولون أن يؤولوا من آيات القرآن ما يمكنهم تأويله حسب معتقدهم وينكرون ما عداه.

وبسبب كراهيتهم للرسول ﷺ يقولون عنه: (فهذه الدعامة - يقصدون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله - المقدم ذكرها هي تكليفية ناموسية، لأن العبادة للمعدوم تكليف، وما أحد قط نصح له عبادة معدوم، ولا تصح رسولية لكافر مشرك منافق ابن مشرك - يقصدون محمد رسول الله ﷺ... ثم أقام دعامة الجهاد، به قام إبليس لعنه الله وجعله فرضًا على المسلمين، فالحاكم جل ذكره أبطله وحرمه... ثم أقام دعامة الولاية لقوله وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ [التغابن:١٢] على زعمهم أن الله فوق السماء، ومحمدًا رسول الله، كذبوا لعنهم الله فما في السماء ولا في الأرض إله إلا الحاكم جل ذكره.ويزعمون أيضًا أنه: (عندما يتجلى الحاكم في الركن اليماني - من الكعبة - وفي يده السيف، ينادي على المشركين بالغضب والزجر، ويعطي السيف حمزة فيقتل شخصين لا غير أحدهما متقمص فيه محمد بن عبد الله صاحب دين الإسلام، والثاني علي بن أبي طالب، ثم يرسل الصواعق على الكعبة فتدك دكا).

ويقولون كذلك: (إن الفحشاء والمنكر هما أبي بكر وعمر)، وأن الآية الكريمة التي تقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ [المائدة:٩٠]. يراد بذلك الخلفاء الراشدين الأربعة، وأنهم من عمل محمد بن عبد الله).

وأما موقفهم من آدم عليه الصلاة والسلام، فإنهم لا يعتبرونه أول الخلق وأبو البشر، بل كان أكثر من آدم في ذلك الدور، ولهذا فهم ينكرون أن آدم بلا أب وأم وأن آدم وباقي البشر قد خلقوا من تراب، وعن هذا يقول حمزة في (رسالة السيرة

المستقيمة): (وأما قولهم أنه بلا أب ولا أم، فهو من المحال أن يكون جسمًا ناطقًا إلا من جسم مثله ذكر وأنثى. وأما التراب الطبيعي فما يظهر منه خلق غير الحيات والعقاب والخنافس وما شاكل ذلك، وأما بشر فلا يجوز أن يكون من التراب ولو كان كما قالوا بأنها فضيلة لآدم حيث لا يخرج من ظهر ولا يدخل في رحم، ولا يتدنس بدم، فقد كان يجب بأن يخلق محمدًا من التراب، ولم يخرجه من ظهر كافر، ولم يدنسه بدم جاهلة كافرة.

والمسلمون كلهم يعتقدون بأن والدي محمد كانا وماتا كافرين، وأن محمدًا لا يقدر يشفع في أمته إلا بعد أن يترك أمه وأباه ويتبرأ منهما، ويختار أمته على والديه ويتركهما في جهنم، وهذا كلام قبيح ظاهر وضيع باطنه، ولا يليق بالعقل ولا يقبله عاقل. وآدم هم ثلاثة: آدم الصفا الكلي، ومن قبله آدم العاصي الجزوي ومن دونه آدم الناسي الجرماني، وجميعهم من ذكر وأنثى لا كما قالوا أهل الزخاريف الحشوية بأنهم من التراب، حاشا الباري سبحانه وعز سلطانه أن يخلق صفيه وخليفته من التراب وهو من أهون الأشياء).

وأما عن حواء، فهي ليست زوجته، وإنما هي حجته وأحد دعاته ولقبت بحواء لأنها احتوت على جميع المؤمنين. وقد سبق أن ذكرنا أيضًا موقفهم من موسى عليه السلام، فهم ينكرون عليه أنه (كليم الله) لأنه كلم الشجر والجبل، وهذا ما لا يليق بالله في نظرهم).

أما عن كلمة (الضد) ومفهومها عند الدروز فقد كثرت في رسائل حمزة هذه الكلمة وقصد بذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد يطلقها بصورة صريحة على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

أما كلمة (عجل) فيقول صاحب مذكرة (أيها الدرزي عودة إلى عرينك) عن

مدلولها عند الدروز وما ترمي إليه بقوله: (إن هذه الكلمة تحمل معنى لا يدركه إلا الراسخون في الحمزوية، إذ هي مشتقة من الاستعجال، ولذا حاول (العجل) أن يشبه نفسه بحمزة، أي حاول رسول الله محمد ﷺ أن يأتي بشريعة كشريعة حمزة. ويضيف قائلًا: ولا ريب أن الحمزوي العميق يدرك المقصود من هذه الكنايات، إذ لا يخفى أن حمزة سار بالنظر لسيدنا محمد ﷺ وسيدنا علي رضي الله عنه تدريجيًا، إذ رآهما أولًا مستخدمين عند الحاكم دالين على مدلول هذا المقصود، ثم حرمهما من هذه المنزلة (منزلة العبودية للحاكم)... فدعا محمدًا (ضدا وعجلا)، وسلب من علي درجة الأساس ودعاه اللعين... بل كثيرًا ما أردف تلاميذه هاتين الكلمتين أو (لعنة الله) أو (أبعده الله من الرحمة) كما نرى هذا في النقط والدوائر ص ١٢).ويبدو أن حقيقة هذه الكلمة وما ترمز إليه قد جعل بعض الناس يضعون إشارات استفهام على مدلولها، ولهذا يقول صاحب مذكرة (أيها الدرزي عودة إلى عرينك): (هذه حقيقة العجل التي كاد ذوو الأنوف السليمة يستنشقونها فاندفعت مجلة الضحى عدد كانون الثاني ١٩٦٦ تضاعف حولها الغبار وتكثف الغيوم وتحدثنا عن العجل بالعهد القديم والقرآن الكريم وتفيض بأمجاد قبيلة بني عجل الذين اشتركوا بموقعة ذي قار).

(باب عقيدة الدروز في التستر والكتمان)

(السرية والكتمان عند الدروز ليستا من باب التقية، وإنما هي سرية مشروعة في أصول عقيدتهم، وأصول عقيدتهم - كما هو معروف - خليط من نظريات وأفكار الفلاسفة القدامى من يونان وفرس وهنود وفراعنة، ولعل الدروز قد عمدوا إلى السرية التي ضربوها على مذهبهم تمشيًا مع بعض آراء الفلاسفة القدامى الذين كانوا يوصون بحجب آرائهم وسترها عن جمهور الناس).ويقول الدكتور سامي مكارم في

معرض رده على الأستاذ عبد الله النجار: (لقد أصاب باعتبار أفلاطون، وأتباع فيثاغورس من مصادر السرية في مسلك التوحيد، ولكن لم يصب في تجاهله مصادر أخرى لهذه السرية كان لها من الأهمية ما لأفلاطون وفيثاغورس وأتباعه، فهناك هرمس، وهو معروف بصيانته الشديدة للأسرار، وهو مكرم عند الدروز، ينظرون إليه بعين التقديس ويجعلونه في مصاف الأنبياء). (ولذلك فالدروز يحرصون أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية، وينكرون ما يؤخذ منها، بل قد يذمونها أمام المعترضين رياء واستتارا، وقد حرص الدروز على هذا الكتمان المطبق لأصول مذهبهم وعقائدهم طيلة القرون، ولم تعرف خفايا مذهبهم إلا منذ قرن حينما غزا إبراهيم باشا مناطقهم الجبلية)، ووقع الغزاة على بعض كتبهم المقدسة، وعرفت محتوياتها)، وهكذا نرى أن الكتمان لا يعني إلا التظاهر بشيء أو تفسير الرموز بشيء والاحتفاظ بشيء آخر، فأصبح عادة مستحكمة تحمل على النفاق، وتفرض على الشخص أن يغاير ما بنفسه، ويتظاهر بما لا يؤمن فهو درس في وجوب الكذب الصريح. يقول حمزة في (رسالة الموسومة بحفظ الأسرار): (أن أكثر الآثام وأعظمها إظهار سر الديانة وإظهار كتب الحكمة، والذي يظهر شيئًا من ذلك يقتل حالًا اتجاه الموحدين ولا أحد يرحمه... ويقول: عليكم أيها الإخوان الموحدون في دفن هذه الأسرار ولا يقرأها إلا الإمام على الموحدين في مكان خفي، ولا يجوز أن تظهر كتب الحكمة الذي كلها رسم ناسوت مولانا سبحانه، وإن وجد شيء من هذه الأسرار في يد كافر فيقطع إربًا إربا، فأوصيكم أيها الموحدون بكتم الأسرار).ويقول أيضًا في (رسالة التحذير والتنبيه): (وصونوا الحكمة عن غير أهلها، ولا تمنعوها لمستحقها، فإن من منع الحكمة عن أهلها فقد دنس أمانته ودينه، ومن سلمها إلى غير أهلها فقد تغير في اتباع الحق بيقينه، فعليكم بحفظها وصيانتها عن غير أهلها والاستتار

بالمألوف عند أهله، ولا تنكشفوا عند من غلبت عليه شقوته وجهله، فأنتم ترونهم من حيث لا يرونكم، وأنتم بما في أيديهم عارفون، وعلى ما ألقوه من زخرف قولهم مطلعون، وهم عما في أيديكم غافلون، وعما اقتبستموه من نور الحكمة محجوبون، ولقد أخرسوا ونطقتم، وأبكموا وسمعتم، وعموا وأبصرتم، وجهلوا وعرفتم).

وفي شرح الميثاق، يعتبر - كاتبه - التستر والكتمان من صحة العقيدة، ويقول: (حتى ولو أخر الإنسان بعض رسائل الحكمة بلا حفظ، ويحفظ عوض ما يقيم المساترة، كان ذلك واجب، لأن الإنسان إذا غرس بستان ولم يصنه بشيء لم يسلم أبدًا، وإذا غرسه ونقص بعض غراسه، وجعل عوض ذلك النقص حاجزًا يصونه كان ذلك أرب لسلامته وأنتج فيه. وكذلك مذهب التوحيد ما يصح لأحد كاملة إلا بالاستتار، والاستتار بالمألوف هو: إن كان المحق ساكنًا بين أهل الظاهر التنزيلية فليتساتر بمذهبهم من صلاة وصيام وحج وتقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي بن أبي طالب وغيره.

وإن كان ساكنًا بين التأويلية في بلاد غالب عليه الشيعة، فليتساتر في مذهب التأويل، ويتزايا بزيهم ويقدم علي بن أبي طالب على الصحابة كلهم، ويسب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة، ويكون موافقهم في دينهم في ظاهر الأمر. وإن كان بين النصارى فيتزايا بزيهم وهذا الحال رحمة من الله على أهل التوحيد، أن يكون توحيده في قلوبهم، ويتزايوا بزي كل طائفة في ظاهرهم.ويورد الدكتور عبد الرحمن بدوي شرحا آخر للميثاق، ومما جاء فيه عن هذا الموضوع ما يلي: لا يحل لأحد يتمسك بدين التوحيد أن يهمل المساترة، بل يجب عليه أن يعرف موجبات الصلاة والوضوء ونواقضه، ويقرأ ما تيسر من القرآن قراءة صحيحة على شيخ، وإن كان ذا يسر فيزكي من ماله، ويعرف أمر الصيام ومفطراته، بحيث لا ينكشف عند الشرائع أمر دين

التوحيد).

وإنكار ألوهية الحاكم - في ظاهر الأمر - يعتبر أيضًا من المساترة، وهذا ما تضمنه شرح الميثاق كذلك حيث يقول: (إن أنكر ألوهية الحاكم سبحانه بحضرة الضد فيجوز له ذلك، وليس يقع في ذلك ارتداد في الحقيقة، لأن المقر بألوهية الحاكم تعالى، الكاتب على نفسه الميثاق أمر بالمساترة عند الشرائع، وإنكار ألوهية الحاكم سبحانه باللسان، وهذا مشروع في الدين من غيبة الحاكم سبحانه إلى يوم القيامة. ولا جناح على الموحدين في إنكار الحاكم بحضرة الشرائع، إذ سئل وطلب منه مثل ذلك، وأما من تلقاء نفسه، أعني نفوس الموحدين بلا طلب ولا سبب فلا يجوز اللفظ بالإنكار ألبتة، كما لا يجوز اعتقاد بشريته). وكذلك سب ولعن (حمزة) ظاهرًا لا بأس به، يقول بهاء الدين في منشور الغيبة: (فمن وقعت به منكم محنة، وطلب منكم سب هذا العبد (حمزة) فتبرءوا منه وسبوه، وإن طلب منكم لعنه فالعنوه، هذا عند الإضرار، والله يعلم بما تظهرون وتكتموه).

ويتحدث تقرير قدمته الاستخبارات الفرنسية أثناء الاستعمار الفرنسي على سوريا ولبنان عن طبيعة الدروز فيقول: (إن الدروز مرنون بحق، فهم يتبعون حرفيًا نصيحة مؤسس دينهم: اتبعوا كل أمة أقوى من أمتكم، وحافظوا علي داخل قلوبكم. لذلك فعندما يحتكون بطوائف أقوى من طائفتهم كالمسلمين أو المسيحيين فإنهم يتظاهرون بالتسليم ببعض معتقداتهم وهكذا، فمثلًا يرددون بكل طيبة خاطر الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

مما تقدم يتضح أن التستر والكتمان نهج أساسي من أصول عقيدتهم، فهم دوما مع القوي والمتمكن، يتظاهرون بالدين الغالب في أي قطر، ومصداق ذلك ما نراه منهم في فلسطين المحتلة بإخلاصهم التام لليهود هناك. كذلك فهم في كثير من

الأحيان لا يناقشون من يكتب عن ديانتهم مناقشة موضوعية بل يحاولون أن يلصقوا به الصفات القبيحة ويشتمونه بأقدح الشتائم متسترين بهذه الألفاظ على حقيقة دينهم وما يحويه من كفر، وهذا ما حدث مع الشيخ زيد بن عبد العزيز الفياض عندما بدأ بكتابة حلقات عن حقيقة مذهبهم في مجلتي المنهل وراية الإسلام اللتين كانتا تصدران في جدة والرياض ردًا على فتوى شيخ الأزهر باعتبارهم مسلمين.فقامت حينئذ ضجة شديدة بين الدروز وقدم كبارهم الاحتجاج، وأصدر شيخ العقل في لبنان فتوى ضده، وردوا على الشيخ الفياض بأقذع الألفاظ والشتائم في عدة صحف ومنها صحيفة الصفاء التي كانت تصدر في بيروت سنة ١٩٦١م والتي كان مدير تحريرها شخص اسمه محمد آل ناصر الدين، حيث لم يستطيعوا أن ينفوا هذه الحقائق عن دينهم، فما كان منهم إلا أن يناقشوه بالسب والشتم ليتستروا بذلك على الحقيقة المرة فاتهموه بالإلحاد والزندقة والصهينة وغير ذلك من الاتهامات التي لا يجوز ذكرها.وكان أن قام الأستاذ عبد الله النجار وهو من طائفة الدروز بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة بإصدار كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) والذي يبين بقلم درزي حقيقة هذا المذهب، وقامت ضجة أشد من الأولى على هذا الكتاب وصاحبه، وحاكمه مشايخ الدروز لفضحه أسرار المذهب وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها، وصدر بأمر من مشيخة العقل كتاب ألفه الدكتور سامي مكارم وقدم له الأستاذ كمال جنبلاط يرد فيه على كتاب الأستاذ النجار.

ويظهر أن الدروز قد غيروا هذه المرة من استراتيجيتهم فعملوا بشيء من الموضوعية، ولكن للأسف كانت هذه الموضوعية ستارًا يتسترون به على ما يريدون القيام به، حيث يقال أنهم استغلوا أحداث لبنان الأخيرة وقاموا باغتيال الأستاذ النجار.

وهذه الأمثلة تدل دلالة ساطعة على خطورة موضوع التستر في عقيدتهم، وعن كيفية تعاملهم مع من يكشف عن حقيقة دينهم.

ومما يذكر في هذا المجال أن أقلامًا عديدة من الدروز طالبوا بشدة مشيخة عقل الدروز بالإفراج والإعلان عن حقيقة العقيدة الدرزية، ولكن مشيخة العقل أصمت أذنيها عن كل هذه الأصوات وخاصة أصوات الدروز في المهجر وفي مقدمتهم الدكتور نجيب العسراوي الذي ما فتأ يطالب بذلك، وعندما يئس من ذلك أصدر كتابًا عن هذه العقائد باللغة البرتغالية حتى لا يقرأه كل إنسان.

وقد ذكر هذا الموضوع بتفصيل صاحب مذكرة (أيها الدرزيّ عودة إلى عرينك) ومما قاله: (الدكتور نجيب العسراوي رئيس الرابطة الدرزية بالبرازيل استشار الأمير شكيب أرسلان عام ١٩٢٧ بشأن الإفراج عن العقائد الدرزية المدفوعة بالرسائل فأجابه: بعدها عجرا؟

وكأن العسراوي وأمثاله كعدنان بشير رشيد رئيس الرابطة الدرزية في استراليا وجدوا تلك العجرا أصبحت سائرة في طريق النضوج، فأخذوا يكاتبون مشيخة العقل طالبين شيئًا يعرضونه على أطفالهم الذين يعرفون الدرزية بـ (ليست إسلامية ولا مسيحية ولا يهودية)، كتبوا هذا وطالبوا وأصروا بل وتذمروا... إلى أن يقول: خشي نجيب العسراوي - أحد لامعي المهاجرين في البرازيل وعدنان بشير رشيد رئيس الرابطة الدرزية في أستراليا عاقبة هذا البعد وألحا عن مشيخة العقل طالبين تأليف ما يستطيع منه الدروز فهم دينهم، ولكن هذه اعتصمت بالمواعيد، فاضطر العسراوي أن يصدر كتابه (الدرزية) باللغة البرتغالية، ومنه عرف الناس شيئًا.

جعلت مشيخة العقل أصابعها في آذانها واستهانت بأصوات المنادين بوجوب التأليف حول الدرزية، ولم تعترف بجهود العسراوي رغم أنه سد ثغرة كانت هي

الأجدر بسدادها، وبعد أن صدر عبد الله النجار كتابه تزحزحت وكلفت سامي مكارم بتأليف كتاب (أضواء على مسلك التوحيد) بعد اعتذار عجاج نويهض. ألف مكارم وجنبلاط ولكن لا ليسدا فراغا بل ليردوا على عبد الله النجار في كتابه المحجوز الذي سد فراغا أو بعض الفراغ، وباركا الكتمان والتمسا عذرا للدرزية، ورأياها نابعة عن العقل الأرفع الذي لا يحتمل الخطأ... أما سواها من أهل المذاهب والأديان فمن العقل الطبيعي المعرض للخطأ).

(باب رسائل الدروز وكتبهم المقدسة)

للدروز مجموعة من الرسائل المقدسة عندهم، إذ منها يستمد عقالهم مبادئ مذهبهم، وتسمى أحيانًا باسم (رسائل الحكمة) وعدد هذه الرسائل ١١١ رسالة، مقسمة إلى أربعة مجلدات، (تتوالى فيها الرسائل بصورة مطردة في جميع المخطوطات قديمها وحديثها، ومثل هذا الاطراد لا يمكن أن يكون قد تم عرضا، إذ الرسائل منسوبة إلى أكابر أصحاب المذهب القدماء، وهذا يدل على أن تتقينها في هذه الصورة المنتظمة الموحدة قد تم في وقت لاحق). والملاحظ في هذه الرسائل، أن بعضها يحتوي على سجلات صدرت في عصر الحاكم، وبعضها يحتوي على رسائل بعث بها حمزة بن علي إلى أشخاص كانوا يحتلون مكانة في الدولة مثل ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس، والقاضي أحمد بن العوام، أو رسائل بعث بها لدعاة الدعوة، ومنها ما كتبه حمزة عن العقيدة نفسها، ثم نجد بعد ذلك رسائل للداعي محمد بن إسماعيل التميمي، ورسائل لبهاء الدين المعروف بالمقتنى). وللدروز أيضًا مصحفا يسمونه (المنفرد بذاته)، كتب حديثا، ويعتقد أن كاتبه هو الأستاذ كمال جنبلاط الزعيم اللبناني المعروف والذي اغتيل قبل سنوات. ويقال أنه تعاون في

وضعه ووضع رسائل أخرى مع عاطف العجمي وبخط الشيخ عبد الخالق أبو صالح.ويتألف هذا المصحف - كما ذكرت سابقًا - من أربع وأربعين عرفا، يحاكي فيه كاتبه القرآن الكريم بترديد ما في رسائل الدروز، ولذلك فقد حاول أن يقلد أسلوب القرآن الكريم في أكثر أعرافه، وكذلك فإنه أخذ من آيات القرآن الكريم ما يناسب بغيته ومرماه، وخاصة آيات النعيم والعذاب، حيث جعلها خاصة بمن يعبد الإله المعبود عندهم - الحاكم بأمر الله - فمن عبده فله النعيم، ومن كفر به فقد حق عليه العذاب. (ويعلق عاطف العجمي على هذا المصحف وغيره من الرسائل التي وضعوها بقوله: تكاد تفوق القرآن بلاغة).ولا يزال هذا المصحف يتداول بين الدروز بشكل سري، لذلك لا يعرف بينهم إلا بشكل محدد جدًا، ولا يستغرب أن ينكروا وجوده.ومن كتب الدروز الدينية أيضًا: (كتاب النقط والدوائر)، والذي يتحدث عن الكثير من العقائد الدرزية، وقد طبع هذا الكتاب في البرازيل سنة ١٩٢٠م بإشراف الأستاذ منير اللبابيدي، ويقول مؤلف (أيها الدرزي عودة إلى عرينك) أنه من تأليف الشيخ عبد الغفار تقي الدين البعقليني المقتول سنة ٩٠٠ هـ.

ومنها كذلك (شرح ميثاق ولي الزمان)، ويصف كاتبه نفسه بـ (الحقير محمد حسين)، وهذا الشرح - كما يستدلون من أسلوبه - كتب قبل فترة ليست بالطويلة، ويدل على حقيقة اعتقادات الدروز التامة وبشكل أوضح من الرسائل أحيانًا.

ومن الكتب الدرزية التي لم أستطع العثور عليها وذكرها مؤلف (أيها الدرزي عودة إلى عرينك)، على أنها من وضع كمال جنبلاط بالتعاون مع عاطف العجمي ما يلي:

أ - الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم البسيط والكثيف، وهو كتاب آخر كالمنفرد بذاته مؤلف من نحو ٣٦٠ صفحة وهو مؤلف من عدة رسائل

منها:

رسالة ركز العاجلة.

رسالة شرعة الإبداع.

رسالة شرعة المثالات.

رسالة شرعية استبانة الشريعة.

شرعة الأمة الواحدة.

وملخص ما في هذه الرسائل: إثبات كل ما جاء عن حمزة.

حض قوي جدا على الكتمان، ورؤية منكري الحكمة معرضين لتقمصات مختلفة.

إثبات قصة الدينونة.

فرض العبادة ليلة الاثنين مع المحافظة على فرضها ليلة الجمعة.

إدخال الفكر البوذي ونظام البوكا والاعتماد على التعاويذ لشفاء الأمراض. ب - رسائل الجام الجاحدين وما بعدها، وهو كتاب كالمنفرد بذاته والبسيط والكثيف وضعا وخطا واقتباسا من القرآن). ويعلق مؤلف هذه المذكرة بقوله: (وكأن جنبلاط الذي لا أكاد أرتاب بأنه مؤلف هذه الرسائل، كأنه أحس أن كل شيء لدى الدروز أصبح كاملًا ولم يعد ينقصهم إلا النصائح الطبية والاعتماد على معرفة أنباء المستقبل من الكواكب والأفلاك ومعرفة ما يضمر الناس بواسطة سحن وجوههم ولذا كتب نحو مئة صفحة حول الطب والفراسة وأسند آراءه كعادته إلى حمزة... ويضيف قائلًا في صفحة أخرى: (وهكذا نرى حمزة كبهاء الدين قديما وكمال جنبلاط حديثًا يسيرون في طريق يفضي للإجهاز على الأديان، لاسيما الإسلام، تنفيذًا لتصاميم يهودية مجوسية).

وفيما يلي سرد لأسماء رسائل الدروز، والتي تتكون من أربعة مجلدات:

المجلد الأول من رسائل الدروز: نسخة السجل الذي وجد معلقًا على المشاهد في غيبة الحاكم وتاريخه سنة ٤١١ هـ.السجل المنهي فيه عن الخمر.خبر اليهود والنصارى: وهو بدون تاريخ، ومروي عن الذين كانوا مع الحاكم بأمر الله، حينما جاءه وفد من اليهود والنصارى يطلبون منه الأمان.

نسخة ما كتبه القرمطي إلى الحاكم بأمر الله، وجواب الحاكم عليه.

ميثاق ولي الزمان: وهو الذي يؤخذ على كل مستجيب للمذهب الدرزي.

الكتاب المعروف بالنقض الخفي، وتاريخ شهر صفر سنة ٤٠٨ هـ السنة الأولى من سنوات حمزة، وهو الكتاب الذي نقض به حمزة الشرائع جميعًا، وخاصة أركان الإسلام الخمسة.

الرسالة الموسومة ببدء التوحيد لدعوة الحق: من كتابات حمزة، وتاريخها شهر رمضان سنة ٤٠٨ هـ، السنة الأولى من سنوات حمزة، وتتضمن الخصال السبعة التي فرضها على أتباعها، وإسقاط الفرائض الأخرى عنهم.

ميثاق النساء: وهي من كتابات حمزة أيضًا، وليس لها تاريخ، وفيها تقرير قواعد الأداب التي ينبغي على الدعاة أن يتبعوها في تعليم النساء، وكذلك العهود التي تؤخذ عليهن حتى يحتفظن بعفافهن ومكارم أخلاقهن.

رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد إلى كافة المتبرئين من التلحيد، من تأليف حمزة، وتاريخها شهر المحرم سنة ٤٠٩ هـ، وفيها عن مآل الكافرين ومصير الموحدين، ويوم القيامة. رسالة الغاية والنصيحة، من تأليف حمزة، وتاريخها شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٩ هـ، وفيها يتحدث عن الخلاف بينه وبين الدرزي. كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا الحاكم جل ذكره من الهزل، من كتابات حمزة، وبدون

تاريخ، ويرجح أنه كتبها في سنة ٤٠٩ هـ أثناء اختفائه، وفي هذا الكتاب تأويل لجميع أفعال الحاكم اليومية.

السيرة المستقيمة، من كتابات حمزة، كتبها في جمادى الأولى سنة ٤٠٩ هـ، وهي سيرة الحاكم وحياته، ويراد من إيرادها البرهنة على ألوهيته.

كشف الحقائق، من كتابات حمزة، وتاريخها شهر رمضان سنة ٤٠٩ هـ، وهي من حدود الدين عندهم ومراتبهم.

الرسالة الموسومة بسبب الأسباب وكنز لمن أيقن واستجاب، من كتابات حمزة وبدون تاريخ، ويتحدث فيها عن سبب تسميته علة العلل، ويتحدث فيها عن سبب تسميته علة العلل، وتأويل (بسم الله الرحمن الرحيم).

المجلد الثاني من رسائل الدروز:

الرسالة الدامغة في الرد على الفاسق النصيري، لعنه المولى في كل كور ودور: من كتابات حمزة، ومن أهم الرسائل في هذا المجلد، وهي تعطي فكرة عن آراء بعض الفرق التي طرحت الأديان كلها، واتجهت إلى الإباحية الجنسية، وأيضًا عن الثواب والعقاب عند النصيرية والدروز.

الرسالة الموسومة بالرضى والتسليم، من كتابات حمزة، وتاريخها سنة ٤٠٩ هـ، ويتحدث فيها عن خلافه مع الدروز.

رسالة التنزيه: كتبها حمزة، وتاريخها جمادى الآخرة سنة ٤٠٩ هـ، وفيها يتحدث عن الحدود الخمسة ومراتبهم وأضدادهم. رسالة النساء الكبيرة: لم يذكر فيها الكاتب ولا التاريخ، وتتضمن تأويلًا للسجلات التي أصدرها الحاكم، وكذلك تأويل لأركان الإسلام.

رسالة الصبحة الكائنة، من كتابات حمزة، وتاريخها شعبان سنة ٤٠٩ هـ، بعثها

إلى أصحاب الدرزي الذين قبض عليهم الحاكم، وفيها عتاب لهم وكيف حذرهم ليلة ثورة المصريين ضد دعوة تأليه الحاكم، وكيف هرب هو والتجأ إلى مخبأ.

نسخة سجل المجتبى: من رسائل حمزة، وهي تقليد وتعيين إسماعيل التميمي في حده ومرتبته الدينية.

تقليد الرضى سفير القدرة، من رسائل حمزة، وتاريخها شوال سنة ٤٠٩ هـ، وفيها تعيين محمد بن وهب في مرتبته.

تقليد المقتني، من رسائل حمزة، وتاريخها شعبان سنة ٤١٠ هـ، وهي خاصة بتعيين علي بن أحمد السموقي (بهاء الدين) في مرتبته.

مكاتبة إلى أهل الكدية البيضاء (حسن بن هبة) عما يعن لهم من أمور دينهم. رسالة حمزة إلى الموحدين من أهل أنصنا، وتاريخها جمادى الآخرة سنة ٤١٠ هـ، ويدعوهم فيها إلى الصبر.

شرط الإمام صاحب الكشف: لم يذكر كاتبها ولا تاريخها.

الرسالة التي أرسلت إلى ولي العهد، عهد المسلمين، عبد الرحيم بن إلياس: وهي من رسائل حمزة بعثها إلى ولي عهد الحاكم ويدعوه فيها إلى الاعتراف بألوهية الحاكم.

رسالة إلى خمار بن جيش السليماني العكاوي، وهي من رسائل حمزة، يحذر فيها خمار من القول بأنه شقيق الحاكم.

الرسالة المنفذة إلى القاضي: وقد بعث بها حمزة إلى قاضي القضاة أحمد بن العوام، وتاريخها ربيع الأول سنة ٤٠٩ هـ، ويدعوه فيها إلى خلع نفسه من ولاية القضاء على الموحدين، لأنه لا يؤمن بألوهية الحاكم.

المناجاة، مناجاة ولي الحق: الموجهة من ولي الحق (حمزة) إلى الحاكم.

الدعاء المستجاب، وهي مناجاة أخرى.

التقديس، دعاء السادقين: دعاء لنجاة الموحدين العارفين.

ذكر معرفة الإمام، وأسماء الحدود العلوية روحانيًا وجسمانيًا، لم يذكر كاتبها، وهي عن أسماء وألقاب الحدود.

رسالة التحذير والتنبيه، من رسائل حمزة ويتحدث فيها عن عظيم المهمة الموكولة إليه، ويبشر الموحدين بما ينتظرهم من جزاء، وما ينتظر العصاة من عقاب.

الرسالة الموسومة بالإعذار والإنذار، الشافية لقلوب أهل الحق من المرض والاختيار: من رسائل حمزة، ويتحدث فيها عن ضرورة التمسك بعقيدة التوحيد، ويحاول فيها اجتذاب أتباع خصومه وهو ابن البربرية.

رسالة الغيبة، التي وردت على يد أبي يعلى، وهي التي بعث بها حمزة إلى الدعاة في الشام بعد غيبة الحاكم، يحضهم فيها على التمسك بالعقيدة وعدم التخاذل، فيكون تاريخها على هذا سنة ٤١١هـ.

كتاب فيه تقسيم العلوم، من تأليف إسماعيل التميمي، وتاريخه شهر المحرم سنة ٤١٠هـ، وفيه تقسيم العلوم إلى خمسة أقسام والتفريق بين اللاهوت والناسوت، والحدود في كل دور.

رسالة الزناد: من تأليف التميمي أيضًا، ولا تاريخ لها، وفيها تأويل لكثير من آيات القرآن الكريم.

رسالة الشمعة، كذلك من تأليف التميمي، وكتبت في عهد الحاكم لأنه يذكر فيها أنها (رفعت إلى الحضرة اللاهوتيه)، وعنونت بالشمعة، لأن حدود الدعوة خمسة، ويشبهون في هذا أجزاء الشمعة المضيئة.

رسالة الرشد والهداية، من كتابات التميمي، وفيها تمجيد لمرتبته ودعوة

الموحدين إلى المثابرة وعدم الاستسلام.

شعر النفس: قصيدة نظمها التميمي، يمجد بها الحاكم (الإله). المجلد الثالث من رسائل الدروز:

الجزء الأول من السبعة الأجزاء: وفيه عرض للفرض الأول من فرائض ديانة التوحيد.

الرسالة الموسومة بالتنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوفيق، كتبها بهاء الدين سنة ٤٢٢ هـ، إلى معد بن محمد، وطاهر بن تميم الداعيين لتثبيت إيمانهما.

مثل ضربه بعض حكماء الديانة توبيخًا لمن قصر عن حفظ الأمانة.

رسالة إلى بني أبي حمار، من كتابات بهاء، ويتحدث فيها عن أن الألوهية لم تنتقل من الحاكم إلى ابنه علي.

تقليد لاحق، من كتابات بهاء، وفيه يقلد الشيخ المختار، سنة ٤٠٨ هـ.

تقليد سكين: من كتابات بهاء، وتاريخه سنة ٤١٨ هـ، وفيه يقلد سكين رئيسًا للمذهب في (سورية)، ومما يذكر أن سكين هذا ادعى فيما بعد أنه الحاكم.

تقليد الشيخ أبي الكتائب: مرسوم تعيين أبي الكتائب داعيًا في البيضاء.

تقليد الأمير ذي المحامد، كفيل الموحدين أبي الفوارس، معضاد بن يوسف، الساكن بفلجين، وكان هذا داعيًا تحت إمرة سكين.

تقليد بني جراح: وهم الذين ثاروا على الحاكم في حياته، ثم استمالهم بالأموال حتى عادوا إلى طاعته، ثم آمنوا بألوهيته بعد ذلك، ويصدر لهم بهاء الدين تقليدًا بذلك.

الرسالة الموسومة بالجمهيرية: كتبها بهاء الدين، وتاريخها سنة ٤١٨ هـ، وموجهة إلى الدعاة والشيوخ في قبيلة تنوخ بوادي تيم.

الرسالة الموسومة بالتعنيف والتهجين لجماعة من سنهور من كتامة الكاتمين العجيسيين، من كتابات بهاء الدين سنة ٤١٨ هـ، وبعث بها إلى قوم من كتامة يدعوهم فيها إلى الحذر.

رسالة الوادي: من رسائل بهاء الدين.

الرسالة الموسومة بالقسطنطينية، المنفذة إلى قسطنطين متملك النصرانية: من رسائل بهاء الدين، بعث بها إلى إمبراطور الروم سنة ٤١٩ هـ، يدعوه فيها وشعبه إلى الدخول في مذهب التوحيد.

الرسالة الموسومة بالمسيحية وأم القلائد النسكية، وقامعة العقائد الشركية: بعث بها بهاء الدين إلى المسيحيين جميعًا، وفيها يثبت أن حمزة هو المسيح حقًّا.

الرسالة الموسومة بالتعقب والافتقاد لآراء ما بقي علينا من هدم شريعة النصارى الفسقة الأضداد، بعث بها بهاء الدين إلى الأمير ميخائيل صهر إمبراطور الروم، وفيها تأويل لآيات الإنجيل يتفق مع عقيدة تأليه الحاكم. الرسالة الموسومة بالإيقاظ والبشارة لأهل الغفلة وأهل الحق والطهارة: من رسائل بهاء الدين وتاريخها سنة ٤٢٣ هـ، بعث بها إلى أهل العراقين وفارس، يبشرهم بقرب ظهور حمزة.

الرسالة الموسومة بالحقائق والإنذار والتأديب لجميع الخلائق: من رسائل بهاء الدين، وتاريخها سنة ٤٢٥ هـ، أرسلت للذين اعتنقوا الدعوة في وادي التيم.

الرسالة الموسومة بالشافية لنفوس الموحدين، الممرضة لقلوب المقصرين الجاحدين: وهي في وعظ أتباع المذهب.

رسالة العرب، من رسائل بهاء الدين، بعث بها إلى أهل سورية والحجاز واليمن والعراقين، يدعوهم فيها إلى مذهبه، وتاريخها سنة ٤٢٢ هـ.

رسالة اليمن وهداية النفوس الطاهرات، ولم الشمل وجميع الشتات: رسالة بهاء

الدين إلى أهل اليمن المعتنقين لمذهبه.

رسالة الهند الموسومة بالتذكار والكمال إلى الشيخ الرشيد المسدد المفضال: رسالة بهاء الدين إلى أتباعه في الهند، وتاريخها سنة ٤٢٥ هـ.

الرسالة الموسومة بالتقريع والبيان وإقامة الحجة لولي الزمان: أرسلها بهاء الدين إلى أهل القاهرة والفسطاط لعدم تصديقهم ألوهية الحاكم.

الرسالة الموسومة بتأديب الولد العاق من الأولاد، الغافل عن تغيير السور (الصور) العاصية عند الانتقال في دار المعاد، ورجوع أنفسها إلى الانسفال بعد العلو بمصاحبة الأضداد: وهي عن تناسخ الأرواح.

الرسالة الموسومة بالقاصعة للفرعون الدعي، الفاضحة لعقيدة الكذاب المعتوه الشقي، وتاريخها سنة ٤٢٦ هـ، وهي رد على من يدعى بـ (ابن الكردي)، الذي ادعى أنه روح الحاكم.

كتاب أبي اليقظان، وما توفيقي إلا بطاعة حدود ولي الزمان: من رسائل بهاء الدين بعث به إلى أبي اليقظان.

الرسالة الموسومة بتمييز الموحدين الطائعين من حزب العصاة الفسقة الناكثين.

رسالة من دون قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن: يعتقد أنها من كتابات بهاء الدين.

رسالة السِفر إلى السادة في الدعوة لطاعة ولي الحق الإمام القائم المنتظر، من كتابات بهاء الدين سنة ٤٣٠ هـ، وأرسلت إلى شيوخ العرب في الإحساء. المجلد الرابع من رسائل الدروز:

الرسالة الموسومة بمعراج نجاة الموحدين، وسلم حياة المعرفين.

رسالة في ذكر المعاد، والرد على من عبر بالغلط والإلحاد.

الرسالة الموسومة بالتبيين والاستدراك، لبعض ما لم تدركه العقول في كشف الكفر المحجوب من الإلحاد والإشراك: وهي في شرح عقائد بعض الفرق.

الرسالة الإسرائيلية الدامغة لأهل اللدد والمجون، أعني الكفرة من أهل شريعة اليهود: وهي في الرد على عقائد اليهود.

الرسالة الموسومة بأحد وسبعين سؤالا، سأل بها بعض المدعين الفسقة الجهال وأئمة الجور والضلال: وهي أسئلة من مخالفي العقيدة والرد عليها.

الرسالة الموسومة بإيضاح التوحيد لمن تنبه من سنة الغفلة وعرف الحق وانتصر، وإثبات الحجة ببرهان الدين، والرد على من أشرك بالباري وشك فيه وجحد الحد والحق وأنكره: من كتابات بهاء الدين سنة ٤٣٠ هـ، وهي في الرد على من أنكر ألوهية الحاكم.

ذكر الرد على أهل التأويل الذين يوجبون تكرار الإله في الأقمصة المختلفة.

توبيخ ابن البربرية، الرسالة الموسومة بالدامغة للفاسق النجس، الفاضحة لأتباعه أهل الردة والبلس.

توبيخ لاحق: لما نسب إليه من تصرفات مخالفة لقواعد ديانة التوحيد.

توبيخ ابن أبي حصية: من كتابات بهاء الدين، ويحذر فيها أتباعه من آراء هذا الشخص الذي أباح كثيرًا مما حرمه حمزة.

توبيخ سهل.

توبيخ حسن بن معلا.

توبيخ الخائب محلى: الذي كان يدعو إلى الإباحة، ويبيح لغيره الاتصال بزوجته.

رسالة البنات الكبيرة.

رسالة البنات الصغرى.

المقالة في الرد على المنجمين.

الرسالة الموسومة ببدء الخلق، ومؤلفها بهاء الدين.

الرسالة الموسومة بالموعظة، ومؤلفها، بهاء الدين، وتاريخها سنة ٤٢٨ هـ.

المواجهة: بعث بها بهاء الدين إلى حمزة يوصي فيها ببعض الأشخاص الذين أرسل معهم نسخًا من كتب مختلفة ألفها بهاء الدين عن ديانة التوحيد.

مكاتبة الشيخ أبي الكتائب.

منشور إلى آل عبد الله.

جواب كتاب السادة: وفيه يبشر بقرب ظهور حمزة (قائم الزمان).

الكتاب المنفذ على يد سرايا: ويتحدث فيه عن أمور تجارية، أظن أنها ألغاز.

مكاتبة تذكرة.

مكاتبة نصر بن فتوح.

السجل الوارد إلى النصر.

منشور الشيخ أبو المعالي طاهر.

منشور إلى جماعة أبي تراب. رسالة جبل السماق: مؤلفها بهاء الدين سنة ٤٢٩ هـ، بعث بها إلى الموحدين في جبل السماق، يبشرهم بقرب ظهور حمزة.

منشور إلى آل عبد الله، وآل سليمان.

منشور أبا علي التنوخي.

منشور رمز لأبي الخير سلامة.

منشور الشرط والبط: ويعني الحجامة.

مكاتبة إلى الشيوخ الأوابين.

منشور في ذكر إقالة سعد: من تأليف بهاء الدين.

مكاتبة رمز إلى الشيخ أبو المعالي: تتكلم هذه الرسالة عن الحراثين والبذور والأوقاف، وهذه الألفاظ رموز وإشارات تؤول على أساس الدعوة.

منشور إلى المحل الأزهر الشريف: في تبرئة بعض الموحدين، مما شاركوا به في وضع الضلالات في ديانة التوحيد.

منشور نصر بن فتوح: وينصحه بهاء الدين بالسرية التامة.

مكاتبة رمز إلى آل أبي تراب: يحذر فيها بهاء الدين من ابن الكردي.

الرسالة الواصلة إلى الجبل الأنور، من كتابات بهاء الدين سنة ٤٣٣ هـ، ويوضح فيها الذين أفسدوا ديانته.

مكاتبة الشيخ أبي المعالي، من كتابات بهاء الدين سنة ٤٣٣ هـ.

رسالة منسوبة بالغيبة: مؤلفها بهاء الدين، ويودع فيها أتباعه، ويعلن عزمه على الغيبة، ويوصيهم التمسك بالآراء التي علمهم إياها.

ويلاحظ في هذه الرسائل، أن أكثر رسائل حمزة كتبت في سنة غيابه عام ٤٠٩ هـ، وهي السنة التي أراد بها أن يقوي مذهبه، ويلاحظ أيضًا أن غالبية الرسائل كتبت من قبل بهاء الدين، الذي قاد المذهب بعد اختفاء حمزة سنة ٤١١ هـ.

أما عناوين الأعراف التي يتألف منها مصحف الدروز فهي كما يلي:

عَرفُ الفتح: فيه حديث عن هذا المصحف، وتمجيد بما يحويه.

عَرفُ الأمر والتقديم: فيه دعوة إلى الإيمان، بألوهية الحاكم، والتهديد لمن لا يؤمن به بالعذاب والويل، وفيه آيات من القرآن الكريم حُرفت بشكل واضح.

عَرفُ نداء الحضرة: فيه حديث عن نداء الإله في أدواره وظهوراته المختلفة للإيمان به ومشاهدته.

عَرفُ النزلة والتجلي.

عَرفُ التنبيه والهداية: وفيه توبيخ لمن أنكروا أن يروا الله جهرة كأمثالهم (أي أن يروا الحاكم). وفيه أيضًا تحريف لآيات من القرآن الكريم.

عَرفُ الإنذار والحساب: وفيه تهديد بالعذاب لمن رفض دعوة الحاكم.

عَرفُ الجحود والتوبة.

عَرفُ المظاهر القدسية.

عَرفُ الإيمان والردة: وفيه تهديد للذين يرتدون عن هذا الدين.

عَرفُ النيزين.

عَرفُ الجيش العجيب المجر: وفيه عن مهاجمة جموع الناس لمقر حمزة أثناء اختفائه بعد ثورتهم، وعن نصر الحاكم (الإله) له بعد ذلك وحمايته.

عَرفُ الزلزلة.

عَرفُ الأمثال: وفيه وصف لعذاب الذين كفروا بالحاكم.

عَرفُ صلاة اللقاء: فيه دعاء موجه إلى الحاكم، على أنه صلاة.

عَرفُ صلاة الرواح: فيه كذلك تحدث عن العذاب الذي سَيحل بمن كفروا بالحاكم بعد أن رأوه جهرة.

عَرفُ كتاب أبي إسحق أو مراتب العباد: موجه إلى شخص اسمه: أبي إسحق محمد اللُّدي، وفيه حديث عن ظهور المعبود، وعن يوم القيامة وقوم يأجوج ومأجوج.

عَرفُ صلاة الفجر: وفيه دعاء ومناجاة للحاكم.

عَرفُ تجلي شمس الحقيقة وتغريد الحمامة الأزلية.

عَرفُ العهد والميثاق: وفيه نص العهد والميثاق.

عَرفُ صلاة الشكر والحمد على الإيمان.

عَرفُ الرحمة.

عَرفُ الوصية: وفيه عن أحكام الوصية في مذهبهم.

عَرفُ صلوات الشرائع: وفيه تحذير لأتباع المذهب من الاستماع إلى المسلمين، ويتحدث فيه أيضًا عن فرائض الإسلام بشكل استهزائي؟

عَرفُ أنباء الأولين والتجلي في بلاد السند والهند.

عَرفُ طلائع الموحدين.

عَرفُ مشارق التوحيد.

عَرفُ المحرمات: وفيه حديث عن المحرمات التي حرمها مولاهم الحاكم عليهم.

عَرفُ صلاة التسبيح.

عَرفُ فرائض الأحكام: وفيه عن تحريم الزنا على أتباع المذهب.

عَرفُ المشاهدة وكوثر التجليات.

عَرفُ خلائف العدل: وفيه عن تحريم الرشوة بينهم.

عَرفُ برازخ الكاف والنون أو الشفع والوتر: وفيه عن شكر مولاهم لأنه أخرجهم من عبادة العدم إلى أنوار المشاهدة.

عَرفُ حقيقة الصلاة والإيمان.

عَرفُ الثِقلين.

عَرفُ الدعوة والعدل والتوكل والرحمة والفيض.

عَرفُ كتاب البيان إلى دولة الموحدين.

عَرفُ صلاة التجلي.

عَرفُ شمس المغيب

عَرفُ الأكسير.

عَرفُ الأمم في السموات والأرضين.

عَرفُ مائدة الكمال أو ألواح المقادير والإثبات والمحو والتنزيل.

عَرفُ عاقبة المكذبين: ويعتبر فيه القرآن صحف كتبت من قِبل آباء الجاحدين لحكمة التوحيد، فهم لذلك في ضلال مبين.

عَرفُ الأعراف أو تسبيح مؤذني نواقيس الأختام.

بلاغ المحرمات وعَرفُ مسك الختام.

هذا وهناك أيضًا رسالة صغيرة مخطوطة بعنوان (دعاء سيدنا الشيخ الصالح) ويبدو أنها لأحد مشايخهم المتأخرين، على شكل دعاء يناجي به الحاكم، وقد بدأ بما يلي:

(اللهم لك الحمد على نعمة وجودك، ولك الحمد على معرفة وليك وحدودك، ولك الحمد على معرفة ظهوراتك).

وهناك كذلك رسالة أخرى بعنوان (ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به ويسلك بموجبه)، وهو موجز عن كتاب الفرائض، وهو عبارة عن تفصيل لكثير من عقائد الدروز. ويؤكد كمال جنبلاط أن الدروز ورثوا في كتبهم المقدسة المستورة فلسفة فيثاغورس وسقراط وأفلاطون، وكذلك الأفلاطونية الحديثة، وهذه الفلسفات والأفكار هي التي يجب أن يعتد بها، لأن أساس عقيدتهم قائم على طلب الحكمة لذا لا يستطيع أي كان أن يقرأ كتب الدروز المقدسة سوى الحكماء.

(باب شريعة الدروز)

إن أول ما بدأه دعاة الدروز بعد إعلان ألوهية الحاكم، هو نقض الشريعة الإسلامية وأركانها حتى يتسنى لهم أن يأتوا بشريعة تخالف وتنسخ شريعة الإسلام، ففي رسالة (الجزء الأول من السبعة أجزاء) توضيح لذلك إذ تقول:

اعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم، المقرين بإمامة عبده القائم، أنه لما غابت صورة المعبود وامتنع قائم الزمان عن الوجود، أيست كثير من النفوس عند غياب العيان المحسوس وتشاجروا في الحلال والحرام، وقالوا: هل فرض الباري سبحانه على لسان الإمام فرائض يتمسك بها الأنام، وقال بعضهم: لابد للأمة من فرائض تضبطها عن الأهواء المحلومة من خوف أن تربطها، ولو لم يكن ذلك لزال الحفاظ. فلما رأيت ذلك وما قد وقع في نفوسهم من اليأس... فتأملت كتابا وصلني من حضرة مولاي قائم الزمان عليه من معبوده أفضل التحية والسلام، يرسم لي فيه وضع الكتب وقراءتها على أهل البصائر... ويأمرني بإيضاح ما أشكل على الطائفة من العلوم، واشتهار ما علمته من الفرائض والرسوم، فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الأول من السبعة أجزاء تشتمل على فرائض فرضها مولانا سبحانه ذو المنة والإحسان، ونطق بها عبده قائم الزمان، تتلوا بعضها بعضا). (فمسلك التوحيد في اعتقادهم تجاوز الدعائم الإسلامية من حيث معناها المادي الظاهر، ليسموا بها إلى معانيها ومقاصدها الحقيقية).

ولهذا فقد اتخذ له فرائض توحيدية وردت في (رسالة ميثاق النساء) حيث تقول: (ويجب على سائر الموحدات أن يعلمن أن أول المفترضات عليهن معرفة مولانا جل ذكره وتنزيهه عن جميع المخلوقات ثم معرفة قائم الزمان وتمييزه عن سائر الحدود الروحانيين، ثم معرفة الحدود الروحانيين بأسمائهم ومراتبهم وألقابهم... فإذا علمن ذلك وجب أن يعلمن أن مولانا جل ذكره قد أسقط عنهن السبع دعائم

التكليفية الناموسية، وفرض عليهن سبع خصال توحيدية دينية، أولها وأعظمها: سدق اللسان، وثانيها: حفظ الإخوان، وترك ما كنتم عليه وتعتقدوه من عبادة العدم والبهتان، ثم البراءة من الأبالسة والطغيان، ثم التوحيد لمولانا جل ذكره في كل عصر وزمان ودهر وأوان، ثم الرضى بفعله كيف ما كان، ثم التسليم لأمره في السر والحدثان. فيجب على سائر الموحدين والموحدات حفظ هذه السبع خصال والعمل بها وسترها عمن لم يكن من أهلها).

ونفهم من هذه الرسالة أن المولى قد أسقط عنهم سبع دعائم تكليفية ناموسية، وفرض عليهم سبع خصال توحيدية هي:

١ - أولها وأعظمها: سدق اللسان - ونلاحظ دائمًا أن الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد، إنما ينطقونها ويكتبونها بالسين، وسبب ذلك هو حساب الجمل، فالسين تساوي ستين، والدال تساوي أربعة، والقاف مائة، فيكون المجموع مائة وأربعة وستين هم عدد حدود الدروز، ذلك أن حد الإمامة تسعة وتسعون (أي أسماء الله الحسنى)، أي أن للإمام تسعة وتسعين داعيًا، ولكل من الجناح الأيمن والجناح الأيسر ثلاثون داعيًا مجموعهم ستون داعيًا. يضاف إلى ذلك أربعة حدود علوية، فالمجموع الكلي مائة وثلاثة وستون حدا، يبقى بعد ذلك حد، وهو قائم الزمان حمزة بن علي، ومن هنا نطقوا كلمة صدق ومشتقاتها وكتبوها بالسين حتى تتفق مع حروف الجمل على هذا النحو.

٢ - حفظ الأخوان: هذا لا يعني الأخوة الإنسانية بل تعني بالأخ من شاطرها هذه الخصال.

٣ - ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان: أي أن كل عبادة تقدم لسوى الحاكم لا تصادف إلا عدما.

٤ – البراءة من الأبالسة والطغيان – والمقصود الأنبياء –.

٥ – التوحيد للمولى في كل عصر وزمان.

٦ – الرضا بفعله كيفما كان.

٧ – التسليم لأمره في السر والحدثان.

ولا عجب في تفاني حمزة بالحث على الرضا والتسليم إذ يعلم أن القوم سوف يقرأون ما كتبه عن أفعال الحاكم مما يثير الاعتراض وسوء الظن ولذا شدد على ذلك وقال في رسالة الرضا والتسليم: (إياكم أن تكرهوا شيئا من أفعال مولانا فيكم، أو تظنوا به ظن السوء).

وهذه السبع فرائض التوحيدية هي عوض السبع دعائم التكليفية:

فصدق اللسان عوض الصلاة.

وحفظ الإخوان عوض الزكاة.

وترك عبادة العدم والبهتان عوض الصوم.

والبراءة من الأبالسة والطغيان عوض الحج.

والتوحيد لمولانا عوض الشهادتين.

والرضا بفعله كيفما كان عوض الجهاد. والتسليم لأمره في السر والحدثان عوض الولاية).

وفي كتاب النقط والدوائر حديث عن هذه الفرائض، ومركز كل منها في معتقد الدروز، حيث يقول كاتب هذا الكتاب:

والتوحيد هو المركز الأوسط، لأنه بمحل الهيولي الساري في الطبائع، فهكذا التوحيد ساري في الفرائض الأربعة المذكورة فما تقوى إلا به، وكذلك التوحيد لا يقوى ولا يكمل في نفس الموحد إلا بعلمه بهذه الفرائض، كما قال: إن سدق اللسان

هو الإيمان والتوحيد بكماله.

وقال عن حفظ الإخوان: وأن بحفظهم يكمل إيمانكم أي توحيدكم. وقال عن ترك العدم: إن العدم مضاد للوجود وسبيل يستدرج إلى الإنكار والتعطيل والجحود. وقال عن البراءة: فمن اعترف منكم منهم بولد أو والد أو أخ أو ذكر أو أنثى، فهو ناكث للدين بريء من عظام الحجج والآيات.

ثم إنك إذا نظرت إلى دائرة هذه الفرائض، فترى كل فريضة مقابلة ضدها وهي في ذاتها دائرة، فترى سدق اللسان مقابلة ترك العدم، وترى حفظ الإخوان قبالة البراءة من الأبالسة، وفي ذلك أيضا فائدة، وهي لما كانت هذه الفرائض قسمان: أمر ونهي، فكان في هذه الدائرة اثنتان أمر وهما: سدق اللسان وحفظ الإخوان واثنتان نهي وهما: ترك العدم والبراءة من الأبالسة.

وأما المركز الذي هو التوحيد، فهو الوجود والتنزيه الذي هو قاعدة العبادات والفرائض كلها لكونه في عدد الفرائض خامسًا، لأنه غاية ونهاية، وكذلك لكون مجتمع القوة في الخامس من كل شيء، والحجج أربعة والإمام خامسهم وهو أفضلهم، وكذلك اجتمعت القوة في الناطق الخامس والأساس الخامس والإمام الخامس، وكذلك المقامات الخمسة التي ظهرت بالمُلك خامسهم الحاكم وهو الذي كشف التوحيد.

وأما الرضى والتسليم فهما فروع، كما أن أصول الدعائم خمسة، والجهاد والولاية فروع أيضًا.

ولما كان لا وصول إلى توحيد الباري سبحانه إلا بعد معرفته، فلذلك جعلت المعرفة أول الفرائض كما قال: ويجب على سائر الموحدين أن يعلموا أن أول المفترضات عليهم معرفة مولانا جل ذكره عن جميع المخلوقات.

وهذه الفريضة التي هي المعرفة تفرعت عن الفريضة الخامسة التي هي التوحيد.

وأما السدق فيلزم العبد في عشرة أحوال، وهي أصول لفروع كثيرة:

التسديق بألوهية الباري سبحانه ووجوده في الصورة الناسوتية، وتنزيهه عن الصفات البشرية.

ثم التسديق بإمامة قائم الزمان صلوات الله عليه، وأنه الإمام السادق فيما بينه وشرعه وحلله وحرمه وأمره ونهاه.

ثم التسديق بفضيلة الحدود صلوات الله عليهم أعني الأربعة وشرفهم وكمالهم.

ثم التسديق ببقية حروف السدق سلام الله عليهم.

والتسديق بفريق الهدى أنهم الأمة الناجية من جميع الأمم.

ثم التسديق بالحكمة الشريفة أنها الدين الناجي.

ثم التسديق بانتقال النفوس الناطقة في الأجسام البشرية.

ثم التسديق بالقضاء والقدر وأنه عدل جاري من الله.

ثم التسديق بالقيامة أنها آتية بغتة لا ريب فيها ولابد منها.

ثم التسديق للإخوان الثقات فيما يقولوه. أما البراءة من الأبالسة والطغيان، فالأبالسة والطغيان مجتمع كل فريق الضلال أولهم إبليس اللعين، فكلهم أبالسة وكلهم طغيان والإبلاس هو الإياس من الرحمة والبعد عن الغير.

وقد خصصت إحدى رسائل الدروز الكبرى، والتي ألفها حمزة لنقض وإسقاط فرائض الإسلام وعنوانها (الكتاب المعروف بالنقض الخفي) نورد هنا مقتطفات منها لأهميتها البالغة في معرفة نظرة الدروز إلى فرائض الإسلام، يقول حمزة في هذه الرسالة: (أما بعد، فقد سمعتم قبل هذه الرسالة نسخ الشريعة بإسقاط الزكاة عنكم، وأن الزكاة هي الشريعة بكاملها. وقد بينت لكم في هذه الرسالة نقضها دعامة دعامة،

ظاهرها وباطنها، وأن المراد في النجاة من غير هذين جميعًا، وقد سمعتم بأن يصير هذا الباطن المكنون الذي في أيديكم ظاهرًا والظاهر يتلاشى ويظهر معنى حقيقة الباطن المحض، وهذا وقته وأوانه وتصريح بيانه للموحدين، لا للمشركين، إلى أن يظهر السيف فيكون ظاهرًا مكشوفًا، طوعًا وكرها، وتؤخذ الجزية من المسلمين والمشركين كما تؤخذ من أهل الذمة، وقد قرب إن شاء مولانا وبه التوفيق.

فأول البناء وقبة النهاء شهادة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، التي حقن بها الدماء، وصين بها الفروج والأموال، وهي كلمتان: دليل على السابق والتالي، وهي أربعة فصول: دليل على الأصلين والأساسين، وهي سبع قطع: دليل على النطقاء السبعة، وعلى الأوصياء السبعة، وسبعة أيام، وسبع ليالي، وسبع أرضين، وسبعة جبال، وسبعة أفلاك، وأمثال هذا أسابيع كثيرة، وهي اثنا عشر حرفا، دليل على اثني عشر حجة الأساسية، وثانية بالمعرفة محمد رسول الله، ثلاث كلمات دليل على ثلاثة حدود: الناطق والثاني فوقه، والسابق فوق الكل.

وهي ست قطع دليل على ستة نطقاء، وهي اثنا عشر حرفا دليل على اثنتي عشرة حجة له بإزاء الأساسية، إلى أن يقول...: وكذلك اللام راجع إلى الألف، والألف الذي في (اللام) دليل على الإمام، والألف الثاني دليل على التالي، واللام دليل على الناطق، إذ كان الناطق من التالي انبعث، ومنه كانت مادته، فالألف الثالث من (إلا) بمنزلة السابق، إذ هو بمنزلة رابع الحدود، دليل على الحجة والداعي والمؤذن، والألف الذي في اللام ليس له حد واحد تاليه، وكذلك الداعي يرجع إلى الإمام لا غير، والناطق إلى التالي، والسابق بالحدود كلها. كذلك الألف الذي في (الله) واللامان المتصلان به بحد الناطق والتالي، والهاء التي هي ختامهم رتبت بمنزلة أسامة، فقال: (لا إله إلا الله) ألفا عن الكل المعنوية، وأشار إلى أسامة وألزمهم بأن

يقولوا (محمد رسول الله) وهي ثلاث كلمات لأنه ثالث السابق، وهي ست قطع دليل على أنه سادس النطقاء. ثم أقام بعد الشهادتين، وبأساسه الصلاة في خمسة أوقات، وقد روى كثير من المسلمين عن الناطق بأنه قال: ((من ترك صلاته ثلاثًا متعمدًا فقد كفر)) وقال: ((من ترك الصلاة ثلاثًا متعمدًا، فليمت على أي دين يشاء)). وقد رأينا كثيرًا من المسلمين يتركون الصلاة، ومنهم من لم يصل قط، ولم يقع عليه اسم الكفر، فعلمنا أنه بخلاف ما جاء في الخبر، وقد اجتمع كافة المسلمين بأن المصلي بالناس صلاته صلاة الجماعة فعله فعلهم وقراءته قراءتهم، حتى أنه لو سها في الفرض الذي لا تجوز الصلاة إلا به، كان عليه الإعادة مثل ما عليهم. فإذا كان رجل مصل بالناس يقوم مقام أمته، وتكون صلاته مقام صلواتهم، فكيف مولانا سبحانه الذي لا يدخل في عدد التشبيه؟ وله سنين بكثرة ما صلى بناس ولا صلى على جنازة، ولا نحر في العيد الذي هو مقرون بالصلاة بقوله: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ [الكوثر:٢ – ٣] فصار فرضًا لازمًا، فلما تركه مولانا جل ذكره، علمنا بأنه قد نقض الحالتين جميعًا الصلاة والنحر، وأنه يهلك عدوه بغير هاتين الخصلتين، وأن لعبيده رخصة في تركهما، إذ كان إليه المنتهى ومنه الابتداء في جميع الأمور، فبان له نقضه، وقد بطل صلاة العيد وصلاة يوم الجمعة بالجامع الأزهر، وهو أول جامع بني في القاهرة، وكذلك أول ما بطل هو، فهذا ظاهر الصلاة ونقضها.

وأما الباطن فقد سمعتم في المجالس بأن الصلاة هي العهد المألوف، وسمي (صلاة) لأنه صلة بين المستجيبين وبين الإمام، يعني علي بن أبي طالب، واستدلوا بقوله: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ [العنكبوت:٤٥] فمن اتصل بعهد علي بن أبي طالب انتهى من محبة أبي بكر وعمر، وقد رأينا كثيرًا من الناس اتصلوا بعهد علي بن أبي طالب وكانوا محبين لأبي بكر وعمر، وكانوا يمضون إلى معاوية

ويتركون علي بن أبي طالب، وقالوا: إن العهد في وقتنا هذا هو الصلاة، لأنه صلة بينهم وبين مولانا جل ذكره، والفحشاء والمنكر: أبو بكر وعمر، وقد اتصل بعهد مولانا جل ذكره في عصرنا هذا خلق كثير لا يحصيهم غير الذي أخذ عليهم، ولم يرجعوا عن محبة أبي بكر وعمر، ولا عن خلاف مولانا جل ذكره وعصيان أوامره.

فقد صح عندنا أنه بخلاف ما سمعنا في المجالس، ورأينا مولانا جل ذكره قد نقض الباطن الذي سمعناه، لأنه أباح لسائر النواصب إظهار محبة أبي بكر وعمر، وقرئ بذلك سجل على رؤوس الأشهاد... فعلمنا بأنه علينا سلامه ورحمته قد أسقط الباطن مثلما أسقط الظاهر، فنظرنا إلى ما ينجينا من العذابين جميعًا، ويخلصنا من الشريعتين سريعًا، ويدخلنا جنة النعيم التي وعدنا بها، فعلمنا بأن الصلاة هي لازمة في خمسة أوقات فإن تركها أحد من سائر الناس كافة ثلاثًا فقد كفر، هي صلة قلوبكم بتوحيد مولانا جل ذكره لا شريك له على يد خمسة حدود: السابق، والتالي، والجد، والفتح، والخيال، وهم موجودون في وقتنا هذا، وهذه هي الصلاة الحقيقية، لأن الصلاتين: الظاهر والباطن، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه وهو حي، مات موتة جاهلية، وهو معرفة توحيد مولانا جل ذكره، وقوله: (حي) يعني دائمًا أبدًا في كل عصر وزمان، والفحشاء والمنكر هما الشريعتان الظاهر والباطن.

فمن وحد مولانا جل ذكره، ينهاه توحيد مولانا جل ذكره عن التفاته إلى ورائه وانتظاره العدم المفقود، وقال: (من ترك الصلاة ثلاثًا متعمدًا فقد كفر) يعني توحيد مولانا جل ذكره على يد ثلاثة حدود وهم: ذو معة، وذو مصة، والجناح، الحاضرون في وقتنا هذا، وهم موجودون ظاهرون للموحدين، لا للمشركين، وأنا أبين لكم أشخاصهم مع أشخاص حدودهم، وأشخاص (لا إله إلا الله) وأشخاص (الحمد لله رب العالمين) في غير هذا الكتاب بتوفيق مولانا جل ذكره.

تتلوه الزكاة، وقد أسقطها مولانا جل ذكره عنكم بالكلية، وقد سمعتم في مجالس الحكمة الباطنية بأن الزكاة ولاية علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته، والتبري من أعوانه أبي بكر وعمر وعثمان، وقد منع مولانا جل ذكره عن أذية أحد من النواصب... فبان لنا بأن مولانا جل ذكره بطل باطن الزكاة الذي في علي بن أبي طالب، كما بطل ظاهرها، وأن الزكاة غير ما أشاروا إليه في المجلس جميعا، وأنه في الحقيقة توحيد مولانا جل ذكره، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعًا، وترك ما كنتم عليه قديمًا، وذلك قوله لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران: ٩٢]، والبر هو توحيد مولانا جل ذكره ونفقة ما تحبون، الظاهر والباطن، ومعنى نفقة الشيء تركه، لأن النفقة لا ترجع إلى صاحبها أبدًا. الصوم عند أهل الظاهر وكافة المسلمين يعتقدون بأن الناطق قال لهم: ((صوموا لرؤيته)) ويرون في اعتقاداتهم أن من أفطر يومًا واحدًا من شهر رمضان، وهو يعتقد أنه قد أخطأ، وجب عليه صوم شهرين وعشرة أيام كفارة ذلك اليوم، وإن اعتقد أن إفطاره ذلك اليوم حلال له، فقد هدم الصوم كله، ومولانا جل ذكره هدم الصوم بكامله مدة سنين كثيرة بتكذيب هذا الخبر ((صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)) وأمرنا بالإفطار في ذلك اليوم الذي يعتقد المسلمون كلهم بأنه خاتم الصوم، ولا يكون في نقض الصوم أعظم من هذا ولا أبين منه لمن نظر وتفكر وتدبر. وباطن الصوم فقد قال فيه الشيوخ: بأن الصوم هو الصمت بقوله لمريم. وهي حجة صاحب زمانه (كلي واشربي وقري عينا) يعني بالأكل علم الظاهر، وبالشرب علم الباطن، (وقري عينا) لمزيده، (فإما ترين من البشر أحدا) يعني أهل الظاهر (فقولي إني نذرت للرحمن) بالأكل على الظاهر، وبالشرب على الباطن، (وقري عينا) لمزيده، (فإما) يعني الإمام (صوما) أي السكوت... فبان لنا نقض ما كان في المجلس، وما وصفه الشيوخ من باطن الصوم

وسكوته، وأن مولانا جل ذكره فطر الناس في ظاهر الصوم، وفطرهم في باطنه، وهو بالحقيقة غير الصومين المعروفين من الشريعتين، وهو صيانة قلوبكم بتوحيد مولانا جل ذكره، ولا يصل أحد إلى توحيده إلا بتمييز ثلاثين حدا ومعرفتهم روحاني وجسماني وهي: الكلمة، والسابق، والتالي، والجد، والفتح، والخيال، والناطق والأساس، والمتم، والحجة، والداعي، والأئمة السبعة، والحجج الاثنا عشرية، فصار الجميع ثلاثين حدًا. قال: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا [آل عمران: ٩٧]، قال أهل الظاهر عن الناطق: إن الحج هو المجيء إلى مكة والوقوف بعرفات وإقامة شروطه، ورأيت بخلاف قوله: (من دخله كان آمنا)، قالوا: الحرم بمكة، والحرم اثنا عشر مهلا من كل جانب، وقد شاهدنا في هذا الحرم قتل الأنفس، ونهب الأموال، وداخل الكعبة أيضًا السرقة، وهذا من الخلاف والمحال، وجميع ما يعملون به من شروط الحج فهو ضرب من ضروب الجنون، من كشف الرؤوس وتعرية الأبدان، ورمي الجمار، والتلبية من غير أن يدعوهم أحد، وهذا من الجنون.

ومولانا جل ذكره قد قطع الحج سنين كثيرة، وقطع عن الكعبة كسوتها، وقطع كسوة الشيء كشفه وهتكه، ليبين للعالم بأن المراد في غيرها، وليس فيها منفعة.

وقال الشيوخ في الباطن: بأن الحرم هي الدعوة، وهو اثنا عشر ميلًا من كل جانب، وكذلك للدعوة اثنا عشر حجة، والبيت دليل على الناطق، والحجر دليل على الأساس، والطواف به سبعة هو الإقرار به في سبعة أدوار، والوقوف بعرفات معرفتهم بعلم الناطق، ومنى ما كان يتمنى الراغب من الوصول إلى الناطق والأساس وحدودهما: وقد رأينا مولانا جل ذكره بطل الحج بإظهار محبة أبي بكر وعمر، وخمود ذكر علي بن أبي طالب، فعلمنا بأن الحج غير هذا الذي كانوا يعتقدون ظاهرًا

وباطنًا، كما قال مولانا المنصور:

هلم أريك توقن أنه

هو البيت بيت الله لا ما توهمت

أبيت من الأحجار أعظم حرمة

أم المصطفى الهادي الذي نصب البيت

والبيت هو توحيد مولانا جل ذكره، موضع السكن والمأوى الذي يطلب المعبود فيه، كذلك الموحدون أولياء مولانا جل سكنت أرواحهم فيه، ورب البيت هو مولانا جل ذكره في كل عصر وزمان كما قال: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ [قريش: ٣] يعني مولانا جل ذكره.

أما الجهاد وبه قام محمد وأظهر الإسلام، وجعله فرضًا على سائر المسلمين كافة، وقد رفعه مولانا جل ذكره عن سائر الذمة، إذ كانت الذمة لا تطلب إلا جبرًا، والمسلمون الجاحدون، والمؤمنون المشركون يقاتلونك في بيتك، وهم أذية لأهل التوحيد، وكل جهاد لا يجاهد فيه إمام الزمان فهو مسقوط عن الناس، وما قرئ في المجلس وألفه الشيوخ في كتبهم بأن الجهاد الباطن هو الجهاد للنواصب الحشوية الغاوية لهم، وقد منع مولانا جل ذكره عداوتهم والكلام معهم، فعلمنا بأنه قد نقض باطن الجهاد وظاهره، وأن الجهاد الحقيقي هو الطلبة والجهد في توحيد مولانا جل ذكره ومعرفته، ولا يشرك به أحد من سائر الحدود، والتبري من العدم المفقود.

قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ [النساء: ٥٩]، قال أهل الظاهر وسائر المسلمين كافة بأن الولاية لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكانت في بني أمية، ثم إنها رجعت إلى بني العباس، وكل واحد منهم إذا جلس في الخلافة كانت ولايته واجبة على المسلمين كافة، وقد نقضها مولانا جل ذكره،

وكتب لعنة الأولين والآخرين على كل باب، ونبشهم من قبورهم.

وأما باطن الولاية ومعرفة حقيقتها بإظهار محبة علي بن أبي طالب والبراءة من أعدائه، واستدلوا بقوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي [المائدة: ٣] يعني علم الباطن وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا [المائدة: ٣] يعني تسليم الأمر إلى علي بن أبي طالب وقد نقضها مولانا جل ذكره بقراءة السجل على رؤوس الأشهاد، فبان لنا بأن جل ذكره نقض باطن الولاية التي في علي بن أبي طالب وظاهرها. وأما الرتب الظاهرة والباطنة التي كانت للناطق والأساس، فقد جعلها مولانا جل ذكره لعبيده ومماليكه... وكل ما يقال فيه من الأسماء مثل الإمام وصاحب الزمان وأمير المؤمنين، ومولانا، كلها لعبيده وهو أعلى وأجل مما يقاس ويحد أو يوصف لكن بالمجاز لا بالحقيقة ضرورة لا إثباتًا، نقول: أمير المؤمنين جل ذكره من حيث جرت الرسوم والتراتيب على ألسنة الخاص والعام، ولو قلنا غير هذا لم يعرفوا لمن المعنى المراد، وتعمى قلوبهم عنه، وهو سبحانه ليس كمثله شيء وهو العلي العظيم.

وفي هذه الرسالة نجد ما يلي:

أن الشهادتين في نظر الدروز تدلان على عبادة الحاكم وعلى أئمة دعوة الدروز، ولا يقصد بهما ما يقصده أهل السنة، ولا الإسماعيلية.

وأن الصلاة هي صلة قلوب الدروز بعبادة الحاكم على يد خمسة حدود، وهذه هي الصلاة الحقيقية في نظرهم.

وأما الزكاة فهو عبادة الحاكم، وتزكية قلوبهم وتطهيرها وترك ما كانوا عليه.

وفيما يتعلق بالصوم، فهو صيانة قلوبهم.

وكذلك الحج صار له معنى مختلف، هو توحيد الحاكم.

أما الجهاد فقد أسقطوه عن الناس، لأن الجهاد الحقيقي - كما يزعمون - هو

السعي والاجتهاد في توحيد الحاكم ومعرفته وعدم الإشراك به. وهكذا فإن هدم الشريعة الإسلامية هو الهدف الأول والأخير من جميع الحركات الباطنية وفي مقدمتهم الدروز وإذا صنفنا الهدامين جاء حمزة في طليعتهم، ولذا لا نعجب إذا مهد لهذا بهذه الرسالة. ولهذا فإنه يعتبر نفسه مبيد الشريعة وناسخها، يقول في رسالة (التحذير والتنبيه): (أنا ناسخ الشرائع ومهلك أهل الشرك والبدائع، أنا مهدم القبلتين، ومبيد الشريعتين ومدحض الشهادتين).

وفي مصحف الدروز حديث استهزائي عن فرائض الإسلام إذ يقول: (يا أيها الموحدون، خذوا حذركم، ود الذين ظلوا على أصنامهم عاكفين لو يرجعونكم إلى دينهم وعقائدهم الباطلة، فتستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير وحق. إن صلواتهم ذات الركوع الجسدي والسجود الظاهري، واتخاذهم كلام الكتاب رثاء ووسيلة، يخادعون بها الله الحاكم البر والموحدين، وما يخدعون إلا أنفسهم وهم يعلمون. لقد ضل قوم اتجهوا بأجسادهم إلى بيت حجارة قلوبهم، وغلوا في كفرهم، فألبس عليهم كل يوم خمس صلوات في نهج صاحب البيت، جل ذكره، وهو معهم، وتجلى لهم في مشرق شمس الناسوتية، ذات المشرقين والمغربين، تعالى الله مولى الموالي عن نقص المنقصين، وبهتان المتكبرين، وفي أنفسهم وما يبصرون، وغرتهم الأماني أصنام كعبتهم وأربابها).ويضيف في مكان آخر من هذا المصحف استهزاء بالمسجد الحرام فيقول: (قل، ليس الإيمان أن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام، مثل بيت الأوثان، أو شطر المشرق والمغرب، أو التصعيد في جبل الذنوب والأصنام، أو اتباع سنة الجاهلية الأولى، ولكن الإيمان والتوحيد هو فيمن آمن بمولانا الحاكم ربًا إلهًا لا معبود سواه).ويعتبر بهاء الدين في (الرسالة الموسومة برسالة السفر إلى السادة) أن جميع اعتقادات الأمم الأخرى تمويهات ويقول: (وهذه الفرق من الأمم فهم

النصرانية والمسلمين واليهودية والمجوسية أعني الإبراهيمية الحشوية، ومن المذاهب كالنصيرية والقطيعة وأصحاب إسحق الأحمر وهم الحمراوية، وجميع من لم نسميه فقد بطلت دعاويهم لأنها تمويهات على الأمم وغير جائزة إلا على أشباه البقر والغنم، والعقل يقطع، والحق يدفع ويمنع صحة قول كل أحد من جميع من ادعته هذه الفرق). ويحذر التميمي في رسالة (الشمعة) الموحدين من التمسك بشيء من الشرع فيقول: (وكل من ذكر عن نفسه أنه موحد وهو متمسك بشيء من الشرع فقد أبطل وكذب في قوله، بل هو ملحد كافر). ولهذا نجد في مصحف الدروز أيضًا، إنكارًا للقرآن الكريم، بل يعتبرونه فرية، ويقول: (لقد ضل الذين جحدوا الحكمة واتبعوا فرية صحف اكتتبوها، فهي قبلة آبائهم، يتلونها بكرة وعشيا، وقالوا هذا من عند الله المعبود، ونسخوا ما يتلون). بل وينكر هذا المصحف التقرب إلى الله بالعبادة ويقول: (مولانا نستعيذ بك من أن نكون من الذين يتقربون إليك بالعبادة، أو الذين يعملون للصالحات لتقربهم إليك زلفى، أف لتلك الأنفس وويل لها، لقد منيت بهوى شديد أضلها عن السبيل).

ويظهر لي من خلال رسائل الدروز ومصحفهم هذا، أن نقض الشريعة الإسلامية والاستهزاء بأركانها ورسولها صلوات الله عليه، هما الشغل الشاغل لدعاة الدروز، باعتبار أن الإسلام هو عدوهم الأول، وتقويض أركانه يمهد لهم الطريق لما يريدون وما يبتغون. ويؤكد هذا القول ما جاء في رسالة (الغاية والنصيحة) التي كتبها حمزة، والتي ينفي فيها نبوة محمد ﷺ. ويثبتها لنفسه فيقول: (وأنتم تعلمون أن لمحمد أربعمائة سنة وعشر سنين لم يظهر دينه على الأديان كلها، واليهود والنصارى أكثر من المسلمين، والهند والسند والزنج والحبشة أكثر منهم، والنوبة والزغاوة وأشكالهم من السودان أكثر من المسلمين، والأتراك والسقالبة أكثر منهم، فلو كان

الرسول محمد له أديان هؤلاء النطقاء لكان يجب أن يكون المسلمين أكثر العالمين أغلبهم في الأولين والآخرين، فلما لم يصح للمسلمين ذلك علمنا بأن الرسول الحقيقي هو عبد مولانا جل ذكره وهاديًا إليه وإمامًا على أمره لعبيده).حتى أنهم يزعمون: أن الرسول عليه الصلاة والسلام طمس الرسالة ولم يبلغها وهذا ما ورد في (الرسالة الموسومة بالإسرائيلية) إذ تقول: (كقول من نصب أحداهم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فما بلغها كما أمر الله تعالى، بل طمس معالمها بالظلم والإبلاس، وجميع أصحاب الشرع فعلى هذا السنن يجرون).ويصف كتاب النقط والدوائر الرسول ﷺ بقول: (وكان محمد كثير العتو والظلم والفساد).وهم أيضًا يعتبرون النبي ﷺ إبليس اللعين، يقول شارح الميثاق: (ويعرف تكملة حروف الكذب الستة وعشرين معرفة عددا، لا معرفة فلان ابن فلان، بل يعرف أن محمد بن عبد الله هو إبليس اللعين، وأن علي بن أبي طالب هو زوجته، اثنا عشر حجة ظاهرة، ولعلي بن أبي طالب اثنا عشرة حجة باطنة كملت الستة وعشرين حروف الكذب... ويعلم أن كل ما في الخلق من المعاصي والعقائد الفاسدة والفواحش الظاهرة والباطنة هي منهم وهم ينابيعها وأصلها ومركزها).وفي (رسالة من دون قائم الزمان) كذلك حديث استهزائي عن فريضة الحج إذ تقول: (ولعمري إنه ما تعجب إلا من قوم قطعوا المفاوز ولقوا في سفرهم الهزاهز إلى بلد لم يكونوا بالغية إلا بشق الأنفس، قصدًا إلى حجر أسود وبيت جلمد ليس فيه حياة ولا نطق، فأي عجب أعجب من قوم هذا فعلهم ثم إنهم أنكروا على هذه الطائفة النورانية المضيئة، أعني أهل التوحيد عبادة الواحد المجيد الحاكم على كل الأشياء شهيد، فياليت شعري ما نفعهم من تقبيل الحجر الأسود وما اكتسابهم من الفوائد العقلية والعلوم الحقيقية الإلهية، هل فعلهم إلا كفعل النصارى

في الصليب، بل هم أشد عتوا، لأن الصليب موجود في كل البلاد، والحجر الأسود يسافر إليه أهل الضلالة من جميع العباد، وقبل وبعد، فإنما عظموا إكرامًا بزعمهم لنبيهم، أليس من قام مقام نبيهم في كل عصر وزمان أحق بالتفضيل والإكرام والتبجيل؟ أليس هذا في العقول مستحيل؟ بأن قوما طلبوا إلههم طول أعمارهم لم يصح لهم منهم إلا اسما إذا كشف عنها لم يجد لها حقائق إلا بوجود صورة حية ناطقة مميزة، فلما ظهر المعبود وصح ما أشارت إليه الحدود أبوا واستكبروا وقالوا: إن هذا إلا بشر مثلنا وغرهم المولى جل ذكره الغرور).

وتعظيمهم للصدق، لا يعني ذلك على غير الموحدين، فالصدق لا يكون من الموحد إلا لأخيه الموحد، ولا يجوز أن يصدق أهل الطوائف والأديان الأخرى حتى ولو كان ذلك في جريمة قتل، بل يجب عليه الكذب، تقول رسالة (الجزء الأول من السبعة أجزاء): (وليس يلزمكم أيها الأخوان أن تسدقوا لسائر الأمة أهل الجهل والغمة والعمى والظلمة، وأن لا يلزمكم فيه شيئًا لهم. وليس لأحد من الموحدين فسحة من الكذب لإخوانه إلا أن يكون هناك ضد حاضر لا يمكن كشف الأمور إليه، ولا شرحها بين يديه، وإن أمكن الصمت فهو أحسن، وإن لم يكن فلا بأس أن يحرف القول بحضرته أعني الضد، ويجب عليه أن يرجع بسدق الحديث لإخوانه بعد خلوهم من الشيطان. ولا بأس بالسدق فيما لا يضر عند الأضداد لأنه يرفع، وهو ضرب من ضروب الجمال، ومثل أن يكون أحدكم قد قتل رجلًا من عالم السواد، فإذا سألوه عن ذلك جاز أن لا يسدقهم وألا يحققوا عليه القتل بإقراره، وأقاموا عليه الشهادة بقلة إنكاره، وما أشبه ذلك مثل أن يكون قد أخذ لأحدهم شيئًا أو غصبه على ريع أو مال، أو كان للضد عنده دين بغير وثيقة أو وديعة بغير بينة، وكان معسرًا عن وفائه غير واصل إلى رضائه، يجوز له الإنكار وقلة السدق عند الإعسار، وخيفة من

ثبوت البينة عليه). وجاء في مصحفهم حديث عن المحرمات المحرمة عليهم فيقول: (ولقد حرم مولاكم عليكم الخمرة، ومن يتخذها سكرا، فقد خلف خلفا أضاعوا الرشد واتبعوا الشهوات)، فاذكروا يا أولي الألباب.

ولا تقرضوا أموالكم لتأخذوا الربا أضعافًا مضاعفة، إن ذلك كان على الموحدين محذورا، ولقد عفا مولاكم عن الذين يأخذونه من غير الموحدين، مضطرين غير عادين.

وإن أحد من الموحدين استجاركم، فأجروه، ثم أبلغوه مأمنه، أو أصابته مصيبة، فكلكم يكفله، إنما الموحدون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، وكان مولاكم بما تعملون خبيرا. ولا تركنوا للذين رفضوا الدعوة واستكبروا إنهم إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة، يقولون بأفواههم الحق وتأبى قلوبهم، وأكثرهم فاسقون، فاعتبروا يا أولي الألباب.

والذي أكره منكم على الكفر أو الفحشاء، وهو مؤمن موحد، أو عمل سوءا لجهالة، أو غم عليه فنسي، فلا يؤاخذ مولانا إلا الذين اقترفوا الإثم وهم يعلمون، فأولئك لهم عذاب موقوت.

وقال الذين كفروا منكم، إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وعليه وجدنا آبائنا، قل لو كنتم على الهدى لآمنتم به، ولكنكم لا تعلمون غير ما تهواه أنفسكم، وأنتم تجهلون، نحن أعلم بما في أيديكم ونحن المنزلون. لقد ضل هؤلاء الذين يريدون أن يحكموا بالقرآن، ويتخذوه سبيلا، ثم به يكفرون بعد أن تبين لهم الحق، قل أليس الحق أحق أن يتبع). ومع أن الدروز لا يجيزون صوم شهر رمضان، لكونه من فرائض الإسلام، إلا أنهم يصومون في أيام خاصة، وهي التسعة أيام الأولى من شهر ذي الحجة، وصيامهم هو نفس الصيام الإسلامي من امتناع عن الأكل والشرب،

(ويبيحون أيضًا الصوم في أي شهر غير شهر رمضان). (وعيدهم الأكبر والوحيد هو عيد الأضحى).وقد بنى الدروز المساجد في قراهم ومدنهم تسترا من المسلمين الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم وتقربا منهم وتمويها عليهم، وذلك حتى يأمنوا منهم على أنفسهم وينفوا عنهم تهمة الردة وحدها، ولكنهم بدأوا يبتعدون عن هذه السرية، ويعلنون حقيقة أمرهم. (ولما قامت فتنة سنة ١٨٦٠م في لبنان، بدأت آخر دلالة شعائرية بالانقراض، ونعني بها شعائر الصلاة في المساجد الكثيرة التي كانت منتشرة في القرى الدرزية، ولجأ الدروز إلى الخلوات وتركوا المساجد نهائيًا).حتى وصل بهم الأمر في الوقت الحاضر أن يمنعوا قيام المساجد للمسلمين الموجودين في قراهم، وقد حدثني أحدهم ممن كان يقيم في جبل الدروز بسورية، أن المسلمين المقيمين هناك حاولوا بناء مسجد في مدينة السويداء عاصمة جبل الدروز، وعندما حضروا في اليوم التالي وجدوا ما بنوه مهدومًا، ولم يقم هذا المسجد إلا بعد الاستعانة بقوة عسكرية لحمايته.ونظرة الدروز إلى العبادات تتوافق مع عقليتهم التي ترى في هذه الطقوس والشعائر أمرًا لا فائدة منه بل يعتبر عملًا مهجورًا كما صرح بذلك جنبلاط.فالدروز يعتبرون أنفسهم ملة الوحدة الأساسية بين الأشياء والكائنات والله، ولذلك فقد سقطت عنهم العبادات بكل مظاهرها وشعائرها لأن الدرزي اتحد مع الوجود ومع الله -جل وعلا-.لهذا فالشخصية الدرزية لا تبالي بالحياة الخارجية تحفل بها، فالمظاهر هي المظاهر، والحقيقة يمكن أن يجدها أينما كانت وفي كل الديانات، حتى أن جنبلاط يرى أن الدرزي هو كل توحيدي، أي كل من يعتقد بوحدة أديان العالم كافة، وكائنًا ما كان طقوسها وشعائرها، فهم اسم ينصرف إلى مسيحيين وبوذيين ومسلمين وهندوكيين، أي كما يشبهه جنبلاط جماعة (وردة الصليب).

ويورد جنبلاط مثالًا حيًا على عقلية الدروز هذه فيقول: أن الأميرين فخر الدين

الأول والثاني وُلدا درزيين وعاشا مسيحيين وماتا مسلمين.

(باب تقسيم المجتمع الدرزي إلى عقال)

يعيش الدرزي الآن في (لبنان، وسورية، وفلسطين).

وينقسم المجتمع الدرزي من الناحية الدينية إلى قسمين:

(روحاني، وجثماني، فأما الروحاني فهو الذي بيده أسرار الطائفة ويقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤساء، وعقلاء، وأجاويد.

والجثماني: وهو الذي لا يبحث في الروحيات بل يبحث في الدنيويات ويقسم إلى قسمين: أمراء وجهال. فالرؤساء بيدهم مفاتيح الأسرار العامة، والعقال بيدهم مفاتيح الأسرار الداخلية والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية، والأمراء الجثمانيون بيدهم مفاتيح الأسرار الخاصة، وزعماء الجهال بيدهم قبضة السيف والزعامة).

والعقال ينقسمون بدورهم إلى درجات ثلاثة: (منهم الطبقة التي تعرف بالمنزهين، وأصحاب هذه الطبقة في أشد العبادة والورع، فمنهم من لا يتزوج حتى يموت، ومنهم من يصوم كل يوم إلى المساء، ومنهم من لا يأكل اللحم في جميع حياته. والطبقة الأخرى: هي الشراح، ويرخص لهؤلاء بالاطلاع على ما كتبه الأمير عبد الله التنوخي أحد مشايخهم، وهو الذي بنى المساجد وجدد الجوامع وكان على ما قيل يريد أن يرجع بالدروز إلى مذهب أهل السنة والجماعة).

ويبدو لي أن الأجاويد من طبقات الثلاث للعقال. (ويجتمع العقال في أماكن العبادة التي تعرف بالخلوات (جمع خلوة) لسماع ما يتلى عليهم، وبعد تلاوة المقدمات، يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل

البسيطة التي ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لا يبقى إلا رجال الدرجة الأولى الذي لهم وحدهم الحق في سماع الأسرار العليا للعقيدة، أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات، أو لسماع شيء من الكتب المقدسة إلا في يوم عيدهم الوحيد، وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين). (والعقال يعملون لهم مناسك يبنونها بعيدًا عن البلدان التي هم بها نحو مسافة نصف ساعة وغالبًا يكون بناؤها على مرتفع ويتفردون فيها أكثر الأيام ليلًا ونهارًا ويسمون هذه المناسك خلوات البياضة، هي على سطح جبل فوق قرية حاصبيا - في لبنان -، تزيد على ستين خلوة). (والعقال يستحرمون أيضًا مال أولياء الأمور من أي جهة كان، وجميعهم يستحلون أموال التجار من أي جهة كانت، فإذا قبضوا دراهم محرمة أتوا بها إلى التاجر ليبدلونها منه. وكل عاقل لا يتناول شيئًا من المسكرات ونحوها على الإطلاق ولو كان مدمنًا عليها في أيام الجهل، وهذا التحريم قد تظاهروا به منذ مائتي سنة فقط بإرشاد الأمير التنوخي، وأما قبل زمن فلم يكونوا يتحاشوه، ولا يفحش العاقل في كلامه على كل حال ولو كان قبل ذلك من السفهاء، ولا يسرف في طعامه وشرابه ولو دعت الحاجة إلى ذلك الإسراف). (وأما الجاهل في نظرهم كالحارس الذي يحرس بيتًا في الخارج ويجهل معرفة أسراره الداخلية، وهكذا يعيش الجاهل منهم درزيًا ولا يعلم من الدرزية سوى شيء يسير جدًا، كالاعتقاد بألوهية الحاكم، وإمامة حمزة والأربعة حدود، والتقمص، والعلامة السرية التي يجعلونها لمعرفة بعضهم البعض).

(ولا يسمح لطبقة الجهال بالانتقال إلى طبقة العقال إلا بعد امتحان عسير شاق يقوم على ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة، وقد يستمر الامتحان أكثر من سنة حتى يثق الشيوخ بأحقية الطالب أن ينتقل من طبقة الجهال إلى طبقة العقال.

والعقال في المجتمع الدرزي يعرفون بعمائمهم ولبس القباء الأزرق الغامق، ويطلقون لحاهم على أن الذين يسند إليهم وظائف حكومية يباح لهم ترك هذه الملابس وارتداء الزي الذي يطلبه منصبه الرسمي. والنساء في المجتمع الدرزي، ينقسمن أيضًا إلى عاقلات وجاهلات مثل الرجال تمامًا، والنساء العاقلات يلبس النقاب وثوبا اسمه "صاية"). (وإذا وجدت هناك عاقلة زوجة لأحد الجهال، فلا يجوز لها أن تخاطبه بشيء من أمور الديانة، ولا تطلعه على شيء منها، وتخفي كتبها عنه ضمن صندوق مقفول).

وفي رسالة صغيرة عنوانها (من تعليم دين التوحيد) ملحق على طريقة السؤال والجواب حول كيفية دخول الرجل في سلك العقال، والعهد الذي يؤخذ عليه، وفيما يلي نصه:

س: بأي وجه يكون دخول الإنسان في دين مولانا، ومن يدخله؟

ج: يُدخله الإمام، وذلك باتحاده مع الموحدين مدة عامين لكي يتقبلوه بينهم، وأن يكون واحدًا منهم، ومتى قبلوه يدخله الإمام بينهم يسلك مسلكهم.

س: كيف يكون تقدمه؟

يقدمه جماعة الموحدين أمام الإمام ويحرضه على حفظ السر ويعلن له الحقائق والطرائق، ويطعمه تينا، ويقول له: يا رجل أتؤمن بدين النبي؟ وتريد أن تأخذ هذا الدين وتصير من جملة المتوحدين، فيجيب: نعم أؤمن، فيسلم الحجاب ويصير واحدًا منهم صحيحًا تمامًا.

س: كيف يجب أن يكون سلوكه بعد دخوله؟

ج: يجب أن يتظاهر بالحشمة والآداب، وطول للروح، والكلام اللائق والهدوء، والسلام والكلام اللين، وبما يضاهي به إخوانه الموحدين.

س: ما هو العهد الواجب عليه وما هي صورته؟

ج: هذه صورته: باسم الإمام مولانا الأعظم المنزه عن العاهات والوالد القادر، الذي لم يخلق ولم يولد، ولم يكن له كفوءا أحد، أنا فلان ابن فلان قد نويت وعزمت أن أضع نفسي وجسدي ومالي وحريمي وأولادي وأرزاقي وأعلامي، وكل ما تملك يدي تحت يد الطاعة، لسيدي ومولاي الحاكم بأمره العلي العلامة أمير الحكام صاحب الجبروت القادر على جميع الكائنات قد سلمت حالي إليه، ووعدته باتكالي عليه، وأقر الإقرار التام، وأشهد أمام إخواني الموحدين وسيدي الإمام، أني قد تبريت من الأديان، ولا أريد شيئًا يخالف أو يناقض الوحدانية، ولا أقر أن في السماء إلهًا معبودًا، ولا في الأرض إمامًا موجودًا سوى سيدي ومولاي الحاكم بأمره العالي المقتدر الحكيم بتدبيره، وهو نصيري ومجيري وإليه فوضت كل أمري وتدبيري، وكرهت ورذلت كل ما يبعدني عن عبادته وطاعته وصدقه. وقد كتبت هذه الوثيقة على نفسي وأنا بصحة العقل والجسم ومن كل إراداتي وخاطري من دون اغتصاب، وقد قريت بالدعوات والحدود الباقية المقرين بمولانا الحاكم بأمره الأمين، وأذنت بالشهود علي، وأقر أمام الشهود بكذا وكذا من سنة مولانا ومملوكه حمزة بن الهادي عدو المشركين والمنتقم منهم بسيف مولانا وسلطانه وحده لا معبود سواه). وللدروز رئيس ديني يلقب بـ (شيخ العقل) ويتولى منصبه بالانتخاب أو الاتفاق بين الزعماء وكبار رجال الطائفة، ولشيخ العقل أعوان في كل قرية أو بلد. هذا بالنسبة إلى التقسيم الديني، أما من الناحية الاجتماعية، فالنظام السائد في المجتمع الدرزي هو النظام الإقطاعي الديني الذي كانوا عليه منذ عدة قرون، فالقرى خاضعة لشيخ القرية الذي يختاره الأمير، وشيوخ القرى خاضعون للأمراء الذين يتوارثون الإمارة ولذلك يأبى الدروز منذ عصورهم الأولى أن يخضعوا إلا لمشايخهم فقط،

ولا يعترفون بسلطة أحد سوى أمرائهم.

ويقيم عقال الدروز عادة في مناطق نائية تسمى (الخلوات)، وعن هذه الخلوات يحدثنا صاحب مذكرة (أيها الدرزي عودة إلى عرينك)، عن كيفية قيامها وطريقة الوعظ فيها فيقول:

(قبل عام ١٧٦٢م لم يكن للدروز خلوات، أو كانت ولكن ليست ظاهرة، ولا شيوخ عقل بل كانوا تحت جناح الإسلام مباشرة وبقي شيوخ العقل يتخبطون في خلواتهم بين الرسائل والشروح، إلى أن تسلم الرياسة الروحية في جبل حوران الشيخ إبراهيم البجري، فقرر قراءة الكتابين الأولين (أي ميثاق ولي الزمان وكشف الحقائق) مع شيء من الكتاب الثالث (أي مناجاة ولي الحق) على كل درزي تتوفر فيه الشروط الدينية.

ثم قسم الشيخ إبراهيم الكتاب الثاني والثالث إلى ثمانية أقسام، وعين لكل ليلة من ليالي الأسبوع قسما منها، وضم لها أقسامًا معلومة من رسائل أخرى، ودعى هذا كله دورا.

فدور مساء الخميس مثلًا، الميثاق والكشف والتنزيه وشعر النفس، ودور مساء الجمعة الميثاق والدامغة والرضا وشعر النفس... وهكذا لكل ليلة دورها الخاص، مع الملاحظة أن الاجتماع الرسمي هو مساء الخميس، والقراءة في الجمعة وسواها جماعية.

وهناك بعض فصول من الرسائل، رأى الشيخ إبراهيم وجوب قراءتها كل صباح، وقد دعا هذا الترتيب فرضا، وما زال عليه الناس في جبل حوران وسواه حتى يومنا هذا، وإن رأينا تعديلا في بعض المناطق، فهو لا يعدو إبدال فصل بفصل من رسالة واحدة أو رسالتين متغايرتين).

وقد ثابر القوم على هذا المنهاج واعتبروه واجبا على كل درزي تتوفر فيه الشروط الدينية:

وعن هندسة هذه الخلوات يقول:

إن الشيخ إبراهيم أمر أن يقام في كل قرية درزية خلوة كبيرة تتسع لأكبر عدد من سكان القرية، وأطلق على هذا البناء اسم (مجلس حمزة) وهو يتألف من غرفة كبيرة تتوسطها مصطبة - طاولة ثابتة - بارتفاع سبعين سنتم تقريبًا، يعلوها ستار من القماش السميك بارتفاع متر ونصف تقريبًا، كأنها تقسم الغرفة قسمين وتحجب بينهما.

يجلس الرجال في قسم والنساء في القسم الآخر، ولكل قسم باب ونافذة في مكان واحد.

أما السبب في إقامة هذا الحاجز فهو:

١ - فصل النساء عن الرجال والحيلولة دون رؤية بعضهما.

٢ - إيصال صوت الرجال إلى النساء اللواتي جئن لاستماع الحكمة.

أما ترتيب الشيوخ في المجلس فهو على النحو التالي:

يجلس الإمام - شيخ عقل القرية - في صدر المجلس قريبا من الزاوية، ويولي ظهره للقاطع - المصطبة ثم يجلس الشيوخ عن يمينه وشماله بصفوف غير منتظمة، تاركين أمامه فسحة صغيرة مستعدين لأداء الطقوس.

أما كيفية ترتيب الطقوس فهو كما يلي:

١ - الوعظ: وهو قصص وحكايات صوفية، كقصص مالك بن دينار وذي النون المصري وإبراهيم بن أدهم وسواها من القصص الخفيفة التي نراها في كتاب (روض الرياضين). أما إذا كانت هذه الليلة ليلة العيد الكبير، ضموا للوعظ قصة (الثواب

والعقاب) وهما تصوران ما يلاقيه الكافر والمرتد من أهوال مجروية القيامة. وهذه الجلسة متاحة للجميع، يحضرها المدخن والسكير حتى ولو كان ليس درزيًا.

٢ - الشرح: المرحلة الأولى: ويجوز حضوره لكل درزي ونرى الحاضرين فيه كثيرين في ليالي الجمعة وليالي العشر من ذي الحجة، يفتتحه الإمام قائلًا: علينا أن نمسي الحدود (أي نقول لهم: مساكم الله بالخير)، وقد يقول هذه الكلمة شخص آخر إذ هي لكل شخص من الحاضرين.

وتمسية الحدود هي تحية وسلام وتسبيح على كل حد من الحدود الثمانية:

(العقل، النفس، الكلمة، السابق، التالي، الجد، الفتح، الخيال). وهذه صيغة التمسية، يقدمونها أولا للعقل قائلين:

ألف المسا مساك... يا عقل من مولاك

يا نور صاف محض... سبحان من صفاك

يا لابس الأخضر... يا زينة المحضر

قلبي يميل إليك... عيني تريد رؤياك

قلبي يميل إليك... صلى الإله عليك

صلى عليك الله... يا نور عرش الله

صلى عليك ربي... نحن دخيل حماك

ثم يتجهون للنفس فيمسونه بنفس هذه الأبيات مع إبدال كلمة الأخضر الموجودة في صدر البيت الثالث بالأحمر، ثم يتجهون للكلمة بنفس الأبيات ويضعون بدل الأخضر كلمة أصفر، ثم يخصون السابق باللون الأبيض والتالي باللون الأسود بنفس الأبيات والترتيب. أما الحد والفتح والخيال فتقدم لهم التسمية دون ذكر البيت الثالث، إذ الثلاثة الباقون ليس لهم كسوة خاصة.

وقد ترنم بعض الخلوات بهذه الترنيمة أيضًا:

صلوا على القائل... صاحب الجود والفضائل

صلوا على ولي الهدايا... صاحب النعم والكفايا

صل وسلم يا رب عليه... وأسعدنا برضاه

صلوا على السيد الهادي الإمام الأعلى، نور القيام، المنتظر لنجاة الأنام، الهادي إلى طاعة المولى العلي حاكم الحكام، إمام الرضاة المظفر المصطفى، صلى يا رب وسلم على سيدنا وحبيب قلوبنا ورجانا (حمزة بن علي).

وبعد الانتهاء من هذه التحية الأدبية، يطلب الإمام من أحد الشيوخ أن يعظ الناس، وهذا يتلو بعض أخبار الصالحين من الصوفيين ويطلب من آخر أن ينشد بعض الأناشيد الدينية، ويختم المجلس بنشيدة جماعية.

المرحلة الثانية: يقف الشيخ - الإمام - فيقفون جميعًا رجالًا ونساء - قائلين بصوت واحد: يا سميع، احترامًا للأمير السيد عبد الله التنوخي ثم يجلسون، وفي هذه اللحظة ينصرف الجهال، كالقاتل والزاني والسكير وشارب التبغ... وسواهم من المحرومين الذين لا يستحقون سماع الشرح.

على أن بعض هؤلاء الجهال يقف متأدبًا واضعًا كفيه تحت إبطيه ويكلم المشايخ بأدب وتواضع قائلًا: الله يمسيكم بالخير حضرات المشايخ، فيجيبون: الله يمسيك بألف خير، ثم يقول بذل وانكسار: نطلب الحلم وصفاء الخاطر من الله ومنكم، العبد يخطئ والسيد يعفو.

وهنا يتجه المشايخ إلى بعضهم قائلين. احلموا علينا وعليه يا مشايخ وفي هذه اللحظة يأتي دور الإمام وله أن يفوه بإحدى كلمتين: إما أن يسمح عن ذاك المستشفع قائلًا: تفضل اقعد، وهذه معناها: السماح بحضور المرحلة الثانية فقط. وإما أن

يقول: ما قدامنا وقدامكم إلا الخير، وهذه معناها الإصرار على إبعاده وعدم السماح له بالجلوس وهنا يخرج المستشفع خجلًا كسير النفس.

وبعد خروجه تبدأ المرحلة الثانية فيقرأ الإمام أو يكلف أحد الشيوخ بتلاوة شرح إحدى الرسائل المقررة، وبعد الانتهاء من القراءة يقفون جميعا قائلين: يا سميع.

وفي هذه الفترة يخرج الذين لا يجوز لهم حضور المرحلة الثالثة. وإذا طلب أحد هؤلاء السماح يبقى واقفًا متأدبًا مكررًا الكلمات السابقة، وليس له إلا أحد الجوابين السابقين، وقد يوكل أحد الشيوخ فيقف هذا موقف المذنب التائب، ويتكلم بالنيابة عن المستشفع وبنفس الجمل، وهنا إما أن يجاب أو يرفض.

المرحلة الثالثة: ثم يتوجه الإمام للمشايخ قائلًا: تفضلوا احلموا، وهنا تبدأ قراءة الدور قراءة جماعية، وكلهم يحفظ الدور الواجب تلاوته، فيبدؤون بالميثاق، ثم بالرسائل المقررة لتلك الليلة، ويجعلون شعر النفس ختامًا، ويسجدون عند كلمة (هو الحاكم المولى بناسوته يرى..) ويرفعون أيديهم مبتهلين، ثم ينصرفون مرددين بعض الأدعية.

هذه الخلوات، تشبه بعضها بعضا، وإن اختلف بناؤها باختلاف القرى أو تخلفها، وفي مقدمتها من حيث التاريخ خلوات الزنبقية، قرب كفر نبرخ بلبنان، وإن فاقتها الآن خلوات البياضة (حاصبيا لبنان) وحلت محل الصدارة.

أما الشيوخ الذين يقومون بإدارة تلك الخلوات، فيتفاوتون ليس بالعلم أو الخدمة العامة، بل بشهادات السلوك والمثابرة على الخلوات والزهد الذي قد يصل لدرجة رهبان البراهمة؛ ذلك لأنهم يخالون العكوف على دراسة الرسائل كل شيء في العالم، ولذا ضاق أفقهم، وأصبحوا يستشهدون بما يتلهى به الأطفال كملحمة حسان التبعي.

أولئك الشيوخ طبقات:

١ - طالبو الدخول بالمشيخة (البراني) أي الذين يعدون أنفسهم ليصبحوا شيوخا.

٢ - شيوخ المجالس السرية (الجواني).

٣ - شيوخ العقل. أما الأزارقة - لابسوا الأزرق - فهم أضيق أفقا من سواهم).

(باب ذكر البهرة)

لقد انقسمت الشيعة إلى ثلاث فرق رئيسة هي: الزيدية، والكيسانية، والإمامية، وجميع هذه الفرق متفقون على أن الإمامة لا تخرج عن أولاد علي رضي الله عنه وأحفاده، وإن خرجت فبظلم من غيرهم، أو بتقية منهم، والإمامة عندهم لا تناط باختيار العامة، إنما هي قضية أصولية، تنصيصية، تعيينية، ومع ذلك لم تدعهم السبئية يتفقون على إمام واحد[١].

أ – الشيعة الزيدية: نسبة للإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت١٢٢هـ)، وقد انقسموا إلى ست فرق، وقيل: ثماني فرق، وقيل: عشر فرق، ويقال: إنهم قريبون إلى أهل السنة والجماعة[٢]

ب – الشيعة الكيسانية: وقد ساقت الإمامة إلى (محمد بن الحنيفية)

(١) انظر: د. سليمان الحلبي: طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها، ط٢، الدار السلفية، الكويت ١٩٨٤م. ص ٢٠..

(٢) انظر: أبو الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ، ج١/ ص١٣٢. وانظر: د. شريف صالح الخطيب: الإمام زيد بن علي، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٤م، ص٣٤، ١٣٦، ٢٤٩.

بالاستدلال، لأن عليا كرم الله وجهه - د فع إليه الراية يوم موقعة الجمل، وقيل: بالوصية.وقد اضطربت كتب المقالات والفرق في تحديد نسبة الكيسانية، فمنهم من نسبها إلى كيسان – صاحب شرطة المختار الثقفي –، ومنهم من نسبها إلى المختار الثقفي نفسه، والراجح أنه منسوبة إلى كيسان – مولى علي بن أبي طالب وتلميذ محمد بن الحنيفية –،وقد انقسمت الكيسانية إلى إحدى عشرة فرقة، اندثرت جميعها، وكلها فرق سبئية وغالية[1].

ت – الشيعة الإمامية: وقد ساقوا الإمامة إلى الحسن بن علي، فالحسين بن علي، فالامام علي بن زين العابدين، فالامام محمد الباقر، فالامام جعفر الصادق، وهنا تفرقوا إلى فرقتين:

الفرقة الأولى: ساقت الإمامة بعد جعفر الصادق إلى موسى الكاظم، فالإمام علي الرضا، فالإمام محمد الجواد، فالإمام علي الهادي، فالإمام الحسن العسكري، فالإمام الثاني عشر الغائب محمد بن الحسن العسكري، وهذه الفرقة تسمى بـ: الإمامية الإثني عشرية، أو الجعفرية، أو الكاظمية، أو الموسوية، ويسمون في جنوب لبنان بالمتاولة، أي: المتأولة.

والفرقة الثانية: قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق - بدلا عن موسى الكاظم –، وهو الإمام السابع عندهم، فيسمون لذلك بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وبالسبعية: نسبة إلى الإمام السابع. وانشقت الإسماعيلية إلى فرقتين كذلك:

---

(١) انظر: النوبختي: فرق الشيعة، ص٢، والأشعري: مقالات الإسلاميين (مرجع سابق) ج١/ ص ٩١، والشهرستاني: أبو الفتح عبد الكريم، مكتبة المثنى، بغداد، ج١/ ص ١٤٧.

الفرقة الأولى: نادت بإمامة مبارك - مولى إسماعيل بن جعفر الصادق - فسموا بالمباركية، وعنهم انشقت فرقة الخطابية الغالية المنتسبة لأبي الخطاب الأسدي، الذي غالى في تأليه آل البيت، وادعى النبوة.

والفرقة الثانية: ساقت الإمامة من محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي، وهنا أوقفت طائفة الدروز الإمامة عند الحاكم بأمر الله، وقالوا برجعته، وساق بقية الإسماعيليين الإمامة إلى المستنصر بالله، وهنا انشقوا بدورهم إلى فرقتين هما:

١ - الإسماعيلية النزارية (الاسماعيلية الشرقية): - أتباغ أغا خان حاليا -، وهم الذين اعتقدوا إمامة نزار بن المستنصر، وطعنوا في إمامة المستعلي – أحمد بن المستنصر -، وقد نقل كبير دعاتهم: الحسن بن الصباح الدعوة إلى فارس، وكون دولة النزارية، التي عرفت باسم دولة: (الحشاشين) التي لعبت دورا سياسيا كبيرا في إيران، والهند، والشام، وأفغانستان.

٢ – الإسماعيلية المستعلية (الاسماعيلية الغربية): وهم الذين قالوا بإمامة: أحمد بن المستنصر، الملقب بـ المستعلي، ويعرفون باسم: البهرة، وقد انشقوا كذلك إلى فرقتين هما: البهرة الداوودية، والبهرة السليمانية وسيقتصر حديثي عن هذه الطائفة من الشيعة الإسماعيلية، إذ هم المعنييون في هذا البحث.

المبحث الأول: نشأة طائفة (الإسماعيلية المستعلية) البهرة

ذكرنا أن طائفة البهرة هي الطائفة التي نادت بإمامة أحمد بن المستنصر الملقب بـ المستعلي، وولي إمامة الإسماعيلية بعد المستعلي ولده: أبو علي المنصور، (أحضره الأفضل بن أمير الجيوش وبايع له، ونصبه مكان أبيه، ونعته بـ

الآمر بأحكام الله)[١] ونقل أبو المحاسن عن الذهبي قوله فيه: (كان رافضيا كآبائه، فاسقا، ظالما، جبارا، متظاهرا بالمنكر، واللهو، ذا كبر وجبروت)[٢] وقتل سنة أربع وعشرين وخمسمائة، قتله النزاريون على الجسر إلى الجزبرة (في القاهرة)[٣]. ولم يترك خلفا له، على قول أكثر المؤرخين مثل: ابن الأثير[٤]، والذهبي[٥]، وغيرهم. ولكن الإسماعيلية المستعلية ينكرون هذا ويقولون: إنه ولد له ولد أسماه: الطيب، وكناه: بأبي القاسم، وجعل الإمامة فيه، وأخبر بذلك الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن، وهذه الملكة أخفته، وجعلت نفسها كفيلة عليه، ونائبة عنه في تولي شئون الدعوة الإسماعيلية، واتخذت لنفسها لقب: (كفيلة الإمام المستور: الطيب بن الآمر). وقد انقرضت الدولة الصليحية في سنة ٥١١هـ، ولم يقم أتباع الدعوة الطيبية بأي نشاط سياسي بعد ذلك، بل ركنوا إلى التجارة، وعاشوا في محيط خاص بهم، وكان كثير منهم يتخذ التقية فلا يظهر إسماعيليته بالرغم من وجود داعية لهم ينوب عن إمامهم المستور في تصريف أمورهم الدينية. وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة لنشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الهند، ولا سيما في (ولاية جوجرات)جنوب بومبي، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفت الدعوة بينهم باسم (البهرة). وكلمة البهرة: كلمة هندية

---

(١) للمقريزي: الخطط، ج٢/ ص ٢٩٠.

(٢) النويري: النجوم الزاهرة، ج٥/ ص ١٧٠.

(٣) – انظر: النويري: النجوم الزاهرة، ج٥/ ص ١٧٢. وابن الأثير: الكامل، ج٨/ ص ٣٣٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٨/ ص ٣٣٢.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٥/ ص ٢٠١.

قديمة معناها: التاجر.[(١)] واستمرت الدعوة المستعلية في اليمن تشرف على أتباعها في(جوجرات)، إلى أن اضطرت الدعوة الإسماعيلية الدخول في دور الستر مرة أخرى، وظهرت سلسلة طويلة من الدعاة المستورين، حتى كانت سنة (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) وإثر وفاة (داود بن عجب شاه) الداعي السادس والعشرين في سلسلة دعاة دور الستر، انشقت البهرة إلى فرقتين: فانتخب بهرة جوجرات (داود برهان الدين بن قطب شاه) خلفا له (١٠٢١ - ١٠٣٠هـ) وعرف أتباعه بـ (الداودية)، وداعيتهم الآن هو: (د. محمد برهان الدين بن طاهر سيف الدين)، ويعد الداعي الثاني والخمسين من سلسلة دعاة الدعوة الإسماعيلية الطيبية، ويقيم في مدينة بومباي بالهند. وهو برتبة الداعي المطلق، وصاحبها يتمتع بنفس الصفات التي كان يوصف بها أئمة الإسماعيلية، على أنها صفات مكتسبة وليست ذاتية.ومنصب الداعي ليس وراثيا كالإمامة، بل هو مكتسب، إلا أن الدعاة المتأخرين لم يلتزموا بهذه التعاليم، وخرجوا على المعتقدات والأصول الأساسية للطائفة، فادعوا لأنفسهم العصمة كالأئمة سواء بسواء، وجعلوا منصب الداعي وراثيا في أبناء الداعي المهيمن على طائفة البهرة الداودية... ب ينما عارض بهرة اليمن ذلك، وعاضدوا رجلا آخر يدعى: (سليمان بن الحسن الهندي ١٠٠٥- ١٠٥٠ هـ) وكان مقيما في

(أحمد أباد) في الهند، مدعين أن (داود بن عجب شاه) قد اختاره وعهد إليه بالدعوة بوصية منه، وسمى أتباعه بـ

(السليمانية).وقبل وفاة (سليمان الهندي) أوصى لابنه (جعفر) بزعامة الدعوة وكان لا يزال طفلا، وأوصى لـ (محمد بن الفهد المكرمي) بكفالته وتربيته، فانتقلت

---

(١) - د. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٥٠-٥١، باختصار. وانظر: د. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، ص ١٥٢-٢٠٦.

البهرة السليمانية إلى اليمن ثم تولى الدعوة من بعده أخوه (علي) الذي ألف كتبا كثيرة في المعتقد الإسماعيلي منها: (إسعاف الطالب في جميع المطالب)، وانتقل بالدعوة مرة أخرى إلى الهند، وقبل وفاته سنة

(١٠٨٨هـ) أوصى بإمامة الدعوة إلى: (إبراهيم بن محمد الفهد المكرمي) فرجعت الدعوة إلى اليمن، واستقر الداعي في بلدة (طيبة) إلى أن توفي سنة (١٠٩٤هـ)، وكان قد عهد بالدعوة إلى حفيده (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم المكرمي) الذي حصل بينه وبين طائفة الزيدية حروب هزم فيها، فخرج إلى القنفذة يريد الهرب إلى الهند، إلا أن إسماعيلية قبيلة (يام) في نجران وعدوه بالحماية، فذهب إلى نجران وسكن بلدة بناها أسماها (الجمعة)، وظلت مركزا للبهرة السليمانية الذين يعرفون الآن بـ(المكارمة. وداعيتهم الآن هو: (الداعي حسين بن إسماعيل المكرمي) ويحمل الرقم (٥٠) في سلسلة دعاة السليمانية وقد تولى هذا المنصب بعد خلاف على وصية الداعي السابق رقم (٤٩) الحسن بن الحسين المكرمي (ت١٩٩٢م)[١].

المبحث الثاني: شذرات من عقائد البهرة وعباداتهم.

الحديث عن العقيدة الإسماعيلية ليس سهلا ميسورا مثل الحديث عن العقائد الثابتة، إذ أن كثيرا من أصول المذهب الإسماعيلي أصبح نظريا فقط، بمجرد أن أصبح للإسماعيلية دولة سياسية، وتدخلت التنظيمات السياسية في العقيدة، فكيفتها حسب ما أملته الظروف السياسية.

ومن هذه الأصول التي اتفق عليها الإسماعيلية منذ وجدت إلى الآن: القول

---

(١) انظر أسماء الدعاة عند د. عادل سالم العبد الجادر: الإسماعيليون، كشف الأسرار ونقد الأفكار، ص ٣٧٨- ٣٨٣.

بضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، والنص على الإمام يكون من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة في الأعقاب، ومن الغريب أن أئمة الإسماعيلية أنفسهم لم يحترموا هذا الأصل الأساس من أصول العقيدة، لا في العصور القديمة ولا في عصرنا الحديث فالمعز لدين الله الفاطمي نص على ولاية ابنه عبد الله من بعده، ولكن عبد الله توفي في حياة أبيه، فنص المعز مرة أخرى على ولاية ابنه العزيز، فخالف بذلك الأساس الذي قامت عليه الإسماعيلية في أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ، إنما تنتقل من أب إلى ابن. وفي عصرنا حرم (أغاخان الثالث _ من دعاة الإسماعيلية النزارية -) ولديه (علي خان، وصدر الدين خان) من الإمامة، ونص على حفيده (كريم) الذي لقب بـ (أغاخان الرابع) وهو الإمام الحالي للطائفة النزارية.

وبالرغم من خروج الأئمة أنفسهم على مبدأ (النص على الإمام)، فلا تزال الإمامة هي المحور الذي تدور عليه كل العقائد الإسماعيلية، ذلك أنهم جعلوا ولاية الإمام الركن الأساس لجميع أركان الدين، فدعائم الدين عندهم وعند طائفة البهرة بشقيها هي: الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والولاية. على أن الولاية هي أفضل هذه الدعائم. فإن أطاع الإنسان الله تعاليورسوله الكريم، وقام بأركان الدين كلها، وعصى الإمام، أو كذب به، فهو آثم في معصيته، وغير مقبولة منه طاعة الله ورسوله..[1]. وحذا البهرة والإسماعيليون عموما حذو الجهمية في نفي أسماء الله تعالى وصفاته،

يقول المفسر الإسماعيلي ضياء الدين السليماني: (الحمد لله المتعالي عن

(١) - انظر: د. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ١٤٧-١٥٦. باختصار.

السماء والأسماء، والمتقدس أن يكون له تعالى حد أو رسم..)[1]. ويقول حميد الدين الكرماني - أكبر فلاسفة الدعوة الإسماعيلية -: (إن اسم الإلهية لا يقع إلا على المبدع الأول)[2] وهذا المبدع الأول، أو العقل الكلي، هو الذي رمز إليه الله تعالى بـ (القلم) في الآية القرآنية: (ن والقلم وما يسطرون)، وعلى هذا: فالقلم، أو المبدع الأول، أو العقل الكلي الذي تحدث عنه الفلاسفة، هو: الخالق المصور الواحد القهار ...الخ، وبمعنى آخر: إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيلية على العقل الكلي، فهو الإله عند الإسماعيلية، وإذا ذكر الله عتد الإسماعيلية فالمقصود هو العقل الكلي. إذا عرفنا ذلك، استطعنا أن نقول إنهم لم يأتوا بهذه الآراء الفلسفية عبثا، بل جاءوا بها لإسباغ صفة خاصة على الإمام، ذلك بأنهم ذهبوا إلى أن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله الإمام في العالم الجسماني، ومعنى هذا عندهم: أن كل الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي، هي أيضا صفات وأسماء للإمام..؟ لأن الإمام مثل للعقل الكلي. فالإمام إذن هو: الواحد الأحد، الفرد الصمد.. الخ.. لذلك قال الشاعر الإسماعيلي ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار.

وقال الشاعر أبو الحسن الأخفش في مدح الآمر بأحكام الله:

بشر في العين إلا أنه عن طريق العقل نور وهدى.

جل أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسدا.

ندرك الأفكار فيه بانيا كاد من إجلاله أن يعبدا.

---

(١) ضياء الدين السليماني: تفسير مزاج التسنيم، ص/ ٥.

(٢) - الكرماني: راحة العقل، ص ١٩٥.

ولهذا تقول البهرة الداودية في نشرة من نشراتها عن (طاهر سيف الدين الداعي الحادي والخمسين من دعاتها): (إن القرآن تراث إلهي لا تراث بشري، فلا بد لهذا التراث من معلم إلهي لا معلم بشري، يحفظه من زيغ الزائغين، وضلال الضالين المضلين، ويكشف أسراره وكنوزه، وهذا المعلم هو ولي الله، رسولا كان أو وصيا، أو إماما، أو داعيا مطلقا..؟ فولي الله في شخص الرسول، أو في شخص الوصي أو في شخص الإمام، أو في شخص الداعي المطلق، هو الضمان الوحيد والأكيد لحفظ كتاب الله تنزيلا وتأويلا، على تعاقب الأعصار والأدهار)[1]

وتعتقد طائفة البهرة – كبقية الشيعة – أن الإمامة من حق علي – كرم الله وجهه – وقد اغتصبت منه، يقولون في إحدى رسائلهم: (إن الأمة لما افتتنت بعد نبيها، وأشهرت كل طائفة منهم سيفها، وقال بعضهم: منا أمير، ومنكم أمير، قال كبيرهم: يقصدون أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – في أول قعوده: وليت عليكم ولست بخيركم.. وقال صاحبه عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة، وقى الله شرها..! وأقر أبو بكر على نفسه بالشك، فقال: إني وددت لو أني سألت رسول الله لمن هذا الأمر من بعده، والإمام الحق لا يشك في نفسه، ولا يرجع عن أمره، ولا يندم أنه غصب على حقه، بل يثبت مستمرا على شأنه، مفصحا عن محله ومكانه، هاديا مهديا، متبوئا من العصمة مكانا عليا كما فعل علي ...!)[2]وتعتقد طائفة البهرة – كبقية الإسماعيليين – بوجود إمام يعيش في الخفاء[3]ولا يخلو زمان من الأئمة المستترين، بينما يقوم (الداعي المطلق) بالدعوة

(١) انظر نشرة الضريح النوراني (من نشرات البهرة الداؤودية)، صادرة عن دائرة الإشاعة، الجامعة السيفية، سورت، الهند. سنة ١٩٧٨م.

(٢) الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية: تصحيح آصف بن علي أصغر فيضي، ص ١٠-١١.

(٣) الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية: تصحيح آصف بن علي أصغر فيضي، ص ٩.
=

العلنية نيابة عن الإمام، والإشراف الروحي على الطائفة، وهو مصدر السلطات التي يحتكم إليها أتباع الطائفة في جميع شئونهم. ومن الواجبات المحتمة عندهم سجودهم لداعيهم[١]، ومما يؤيد إصرار الداعي على سجود أفراد طائفته له، تلك المرثية التي رثى بها الداعي الحالي لطائفة البهرة الداؤودية الدكتور محمد برهان الدين والده الداعي السابق (طاهر سيف الدين)[٢]حيث يقول:

سجدت له دأبا وأسجد دائما لدى قبره مستمتعا للرغائب.

ومن المعلوم أن السجود عبادة، وهذه العبادة لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه، وقد بين الحق سبحانه ذلك في مواضع من كتابه، فقال تعالى: (فاسجدوا لله واعبدوا)[٣] . وعقيدتهم في (الظاهر) لا تختلف عن عقائد المسلمين، أما عقيدتهم في (الباطن) فهي بعيدة كل البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة.. فهم مثلا يؤدون

=

وهي من كتب البهرة. يقولون فيها: (تبين أن الأئمة في تتابع وجودهم، وتواصل جهودهم، كالشمس التي لا تخلو من آفاق سمائها، ولا تعدم من مجاري أفلاكها، فهي أبدا ظاهرة للنظار، مواصلة لإفاضة الأنوار، ولا يصح خلو زمان من ظهورها، ولا يفقد مكان من إشراق نورها). وكذلك يعتقد بقية الإسماعيلية.

(١) في تقرير أعده السفير المصري بنيودلهي بالهند، بناء على طلب من وزارة الأوقاف المصرية بخصوص طائفة البهرة قال ميه: (إن البهرة يعتقدون طقوسا وشعائر منافية لأبسط تعاليم الإسلام، منها: السجود بين يدي الزعيم (الداعي)) وقد أوردته صحيفة المسلمون في عددها رقم (٢٣٠) الصادر بتاريخ (٣٠يونية – ٦ يوليو سنة ١٩٨٩م). وقد أرفت بهذا البحث صورة تثبت ذلك.

(٢) يتخذ البهرة من قبر طاهر سيف الدين مزارا، ويسمونه (روضة طاهرة)، ومفروض على كل فرد من أفراد طائفة البهرة قبل أن يسافر من وإلى الهند، أن يزور قبر طاهر سيف الدين، ويطوف بقبره عدة مرات، ومن يعترض يفرض عليه الحرمان كما في النصرانية.

(٣) – سورة النجم: آية / ٦٢.

الصلاة كما يؤديها المسلمون، وإن كانوا لا يصلونها إلا في (الجامع خانة) وهي أماكن العبادة الخاصة بهم، وقد لاحظت(أي: كاتب هذا البحث) ذلك من خلال مراقبتهم في المسجد النبوي، ومسجد الحسين بالقاهرة، إذ كانوا يأتون للمسجدين بعد صلاة العصر زرافات ووحدانا، وقبيل أذان المغرب يتسللون لواذا، وإذا اضطروا إلى الصلاة مع أهل السنة فإنهم يصلون بنية الإفراد أو الإعادة، ولا يصلون الجماعة إلا بوجود إمام معين من قبل الداعي، كما لا يصلون الجمعة بحجة عدم وجود إمام عادل ولهم صلوات عديدة مثل: صلاة ليلة السابع عشر من شهر رجب، وعدد ركعاتها اثنتين وعشرين ركعة وصلاة ليلة الخامس عشر من شهر شعبان، وعدد ركعاتها أربع عشرة ركعة، وصلاة ليلة الثالث والعشرين من رمضان، وعدد ركعاتها اثنتي عشرة ركعة، يرددون فيها: يا علياه سبعين مرة، و يا فاطمتاه مئة مرة، وياحسناه مئة مرة، ويا حسيناه تسعمائة وسبع وتسعين مرة..؟ وصلاة الثامن عشر من شهر ذي الحجة، يصلي فيه الواحد منهم ركعتين بعد زوال الشمس، وهو يوافق اليوم المسمى عند الشيعة بيوم (غدير خم)[1] . ويصلي الداعي أو نائبه على الميت منهم، وينزل في قبره ويؤذن فيه، ويقوم بكسر يده الشمال معتقدين أنهم بكسرها يمنعونه استلام كتابه بشماله يوم القيامة.. ؟ ومع تشابه صلاتهم في بعض مظاهرها لصلاة المسلمين في (الظاهر)؛ إلا أنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام الإسماعيلي المستور من نسل

(١) – غدير خم: موقع بين مكة والمدينة، يقع شرقي (رابغ)، ويبعد عنها بما يقرب من ستة وعشرين كيلو مترا، ويسمى اليوم (الغربة)، وفي هذا الموقع خطب الرسول ﷺ في المسلمين وقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه..) واتخذ الشيعة من هذه الحادثة أساسا يعتمدون عليه في تشيعهم الغالي لعلي – كرم الله وجهه –. انظر: شيخ الإسلام ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٤١٧– ٤١٨.

(الطيب بن الآمر..؟)[١]

ويذهبون إلى مكة لتأدية الحج في موسمه، شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين، ولكنهم يقولون إن الكعبة التي يطوف حولها الحجيج هي رمز على الإمام.. ! ولا يقبل الحج إلا إذا كان بصحبة الداعي أو من ينيبه من الدعاة، وغالبا ما يخالفون أهل السنة والجماعة في وقت الوقوف بعرفة، فإما أن يتقدموا عليهم يوما أو يتأخروا يوما، اعتمادا على حساباتهم الفلكية الخاصة. وإذا لم يتمكن البهرة من الوقوف بعرفة على وفق حساباتهم، فإنهم يقلبون حجهم إلى عمرة.. هذا في الظاهر.. أما في الباطن فهم يؤولون فريضة الحج تأويلا فاسدا كبقية الإسماعيليين. يقول السجستاني (أحد دعاتهم): (حج البيت هو: قصد إمام الزمان، مفترض الطاعة، والغرض من حج البيت معرفة الأئمة، والمراد من الزاد والراحلة في الحج: هو العلوم، ودليل معرفة الإمام. والإحرام هو: اعتقاد معرفة الإمام..)[٢]

أما الصيام فهم يؤولونه تأويلا باطنيا يقول الداعي الإسماعيلي السجستاني: (الصوم هو: الصمت بين أهل الظاهر، وصوم شهر رمضان هو: ستر مرتبة القائم، ومن (شهد منكم الشهر فليصمه) أي: من أدرك زمان الإمام فليلزم الصمت..)[٣] وكذلك بقية العبادات وإن عملوا بظاهرها أحيانا، فإن هذا العمل مؤقت بظهور القائم.. فإذا ظهر القائم (تخلص المؤمنون من الستر والكتمان، وقدروا على كشف

---

(١) انظر: أبي عبد الملك أحمد بن مسفر: دهاقنة اليمن، تحقيقات ومطالعات في ملف الإسماعيلية، ص ٨١-٩٢. وانظر: د. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية: ص ٥٣.

(٢) - الداعي الإسماعيلي السجستاني: الإفتخار، ص ١٤٩.

(٣) - السجستاني: الإفتخار، ص ١٢٦-١٢٧.

مذاهبهم، وجب رفع هذه الشريعة التي هي سمة الستر والكتمان..)[١]

الفصل الثاني: معنى التأويل، وشروط التأويل الصحيح المقبول، وسمات التأويل الباطني الفاسد.

من المقرر لدى أهل العلم: أن الأصل هو إبقاء النصوص على ظواهرها، لتدل على معانيها التي وضعت لها في اللغة، ولكن تأويلها، بصرفها عن معناها الحقيقي إلى معناها المجازي، أو الكنائي، لا يخالف فيه عالم له دراية بالكتاب والسنة، بشرط أن لا يحدث ذلك إلا بدليل، أو بقرينة توجب صرفه عن معناه الأصلي، وإلا بطلت الثقة باللغة، ودلالاتها، - وإن كان عدم التأويل أولى من التأويل -، فإذا وجد الدليل أو القرينة، جاز لنا صرف اللفظ عن ظاهره الصريح إلى معنى يحتمله اللفظ، وتدل عليه دلالات اللغة، ومن الحقيقة إلى المجاز، وإلا فلا. فالتأويل إذن مقبول إذا دل عليه دليل صحيح من اللغة، أو من الشرع، وإلا كان مردودا على قائله، ولا اعتبار له.

المبحث الأول: معنى التأويل في اللغة، ونصوص الكتاب والسنة، والاصطلاح

المطلب الأول: معنى التأويل في اللغة: - تدور مادة التأويل في اللغة على عدة معان، منها:

١-الرجوع، والعود، والمآل، والعاقبة، والمصير: نقل الأزهري عن ثعلب، عن ابن الأعرابي قوله: (الأول: هو الرجوع. وعن الليث: الأيل - على وزن السيد - الذكر من الأوعال، وإنما سمي أيلا: لأنه يؤول إلى الجبال يتحصن فيها.)[٢]وقال ابن فارس: (قال يعقوب: أول الحكم إلى أهله: أي: أرجعه ورده إليهم. قال الأعشى:

(١) - السجستاني: إثبات النبوات، ص ١٨٢.
(٢) - الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد، ج١٥/ ص ٤٣٧.

أؤول الحكم إلى أهله ليس قضائي بالهوى الجائر [(١)].

وآل جسم الرجل: إذا نحف، أي: يرجع إلى تلك الحالة.وعن الأصمعي:(آل القطران يؤول أولا إذا خثر[(٢)])[(٣)] . وقد جمع ابن منظور كل ما يتصل بمادة (أول) ومشتقاتها، وما استعملت فيه من معاني، فمن ذلك قوله: [ألت عن الشيء: ارتددت عنه، والأول: الرجوع. وآل الشيء يؤول أولا ومآلا: رجع.وقال أبو عبيدة: التأويل: المرجع والمصير.وأول الكلام: دبره، وقدره.][(٤)]

٢- التفسير، والتدبر، والبيان: قال ابن جرير الطبري: (وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه: التفسير، والمرجع، والمصير.)[(٥)] . وقال الأزهري: [وسئل أبو العباس ثعلب، أحمد بن يحيى عن التأويل، فقال: التأويل والتفسير بمعنى واحد. وقال الليث: التأول والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه.][(٦)]

وقال ابن فارس: (معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء مرجعها إلى ثلاثة، وهي: المعنى، والتفسير والتأويل، وهي وإن اختلفت، فإن المقاصد بها متقاربة.)[(٧)]وقال الجوهري: (التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء.)[(٨)] وقال ابن

---

(١) – ديوان الأعشى الكبير: تحقيق وتعليق د. محمد محمد حسين، القصيدة رقم ١٣.

(٢) – خثر: الخثورة ضد الرقة. مختار الصحاح، ص٧٢.

(٣) – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج١/ ص ١٥٩. ويعقوب هو: أبو يوسف بن السكيت. انظر السيوطي: بغية الوعاة، ج٢/ ص ٣٤٩.

(٤) – ابن منظور: لسان العرب، مادة أول، ج١٣/ ص ٣٢-٣٣.

(٥) – الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣/ ص ١٨٤.

(٦) – الأزهري: تهذيب اللغة: ج١٥/ ص٤٨٥. والسيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج١/ ص ٣٩٦.

(٧) – أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص ١٦٢-١٦٣.

(٨) – الصحاح: للجوهري، ج٤/ ص ١٦٢٧.

منظور: (وأوله وتأوله – أي الكلام -: فسره.)(١)

ومما سلف يمكننا اختصار معاني التأويل في اللغة في معنيين هما: المرجع والعاقبة، والتفسير والبيان.

المطلب الثاني: الإستعمال القرآني لكلمة التأويل.

وردت كلمة (تأويل) سبع عشرة مرة في عدة سور قرآنية كريمة، وسألتزم في ذكرها حسب ترتيب السور في القرآن الكريم كما يلي:

أ – قال تعالى في سورة آل عمران: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب.) ففي هذه الآية نجد أنه سبحانه قد ذكر المتشابه في مقابلة المحكم، وجعل ابتغاءهم الفتنة والتأويل، خاصا بالمتشابه(٢)دون المحكم(٣)، [وعلى هذا يمكننا أن نفهم أن المراد من المحكم من الآيات هو: ما لا يمكن التلاعب بفهمه على غير ما يراد منه، لأن معناه لا يحتمل التوجيه حسب الأهواء وذلك كقوله تعالى: (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد). كما يمكننا أن نفهم أن المراد بالمتشابه من الآيات هو: ما له أفراد من المعاني يشبه بعضها بعضا، ويحتملها ظاهره، وذلك هو الذي يجعلهم يتوجهون إليه ليؤولوه ابتغاء

(١) – ابن منظور: لسان العرب، ج١٣/ ص٣٣.

(٢) – المتشابه هو: ما خفي بنفس اللفظ، وانقطع رجاء معرفة المراد منه لمن اشتبه عليه. انظر: د. وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ج١/ ص ٣٤٢.

(٣) المحكم: هو اللفظ الذي دل بصيغته على معناه دلالة واضحة، لا تحتمل تأويلا، ولا تخصيصا، ولا نسخا، في حال حياة النبي – ﷺ، ولا بعد وفاته بالأولى. انظر: د. وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ج١/ ص٣٢٣.

الإفساد لعقائد الناس، وهذا كقوله تعالى: (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.) فإن أهل الزيغ من الكفار يأخذونه على ظاهره، دون الرجوع إلى الأصول المحكمة في القرآن، التي تبين حقيقة المراد منه، فيقولون: الله روح، والمسيح روح منه، فهو من جنسه، وجنسه لا يتبعض، فهو هو، أي: فعيسى هو الله، ولا يرجعون إلى الأصل المحكم الذي يبطل مثل هذا التأويل، وهو قوله تعالى:(لم يلد ولم يولد)[1] ومعلوم أن عيسى ابن مريم عليه السلام مولود، فكيف يكون هو الله..؟ فيكون التأويل في هذه الآية بمعنى: إرجاع المتشابه إلى معنى يحتمله ظاهره، وهنا يختلف أهل الحق عن أهل الزيغ، فأهل الزيغ يرجعونه إلى المعنى الذي ينطبق على أهوائهم وتقاليدهم، ويزعمون أنه حقيقته، وأهل الحق يرجعونه إلى المعنى الذي ينفق مع المحكمات من الكتاب، لأنها الأصل الذي يرجع إليه عند الإشتباه، كما قال تعالى (هن أم الكتاب) ولا يأخذون في الآية بمعنى إلا إذا قام عليه الدليل الصحيح.][2]

قال ابن كثير: (وابتغاء تأويله: أي: تحريفه. وعن مقاتل، والسدي: يبتغون أن يعلموا ما سيكون، وما عواقب الأشياء. وقال عند تفسيره قوله سبحانه: (وما يعلم تأويله إلا الله): ومن العلماء من فصل في هذا المقام فقال: التأويل يطلق ويراد به معنيان: أحدهما: التأويل بمعنى معرفة حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه. والمعنى الآخر: هو التفسير والبيان، والتعبير عن الشيء)[3]. فإذا كان التأويل بمعنى بيان المرجع والعاقبة، ورد النص إلى صورته المادية الخارجية، وتحديد ما تؤول إليه حقائق الآيات من الكيفيات، والزمان، والتفاصيل العملية، فهذا خاص بالله تعالى،

---

(١) - سورة الإخلاص: آية / ٣.

(٢) - محمد الزفزاف: التعريف بالقرآن والحديث ص١٥٩-١٦٠.

(٣) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج١/ ص ٣٤٥.

ولا يعلمه الراسخون في العلم، ولا يدركون حقيقته، ومآله، وعاقبته، ويسلمون بعجزهم عن ذلك، ويعلنون إيمانهم به، ويقولون: (آمنا به كل من عند ربنا) فتكون الواو: استئنافية، ويكون الوقوف على لفظ الجلالة (الله) واجبا. أما الذين في قلوبهم زيغ فإنهم يتبعون هذا المتشابه بهدف تأويله، وإثارة الفتنة، والشبهات، فضلوا وأضلوا. وعندما نحمل التأويل على هذا المعنى، فإننا نجده يتفق مع معنى التأويل المذكور في السور الأخرى وهو: رد الأشياء إلى حقائقها المادية، وإرجاع الأمور إلى صورتها العملية، وتحديد العاقبة، والنهاية الواقعية للأخبار والوعود، وبيان ما تؤول إليه فعلا، وتستقر عليه واقعا. وإذا كان التأويل بمعنى التفسير والبيان: فالراسخون في العلم يعلمون المتشابه، فرسوخهم في العلم وتمكنهم منه، أوجد عندهم ملكة في تفسير القرآن وتأويله، ففهموا آياته المحكمات، وأحسنوا تأويل آياته المتشابهات، بإرجاعها إلى أمها من الآيات المحكمات، وبذلك أحسنوا استخراج دلالاتها، ومعرفة معانيها وحقائقها. وعلى هذا المعنى للتأويل: تكون الواو في قوله (والراسخون) حرف عطف، ويكون الوقف على (العلم). وتكون جملة (يقولون آمنا به كل من عند ربنا) جملة حالية. وممن ذهب إلى هذا المعنى للتأويل واعتبر نفسه ممن يعلم تأويل المتشابه: ابن عباس – رضي الله عنهما – فقال: [أنا ممن يعلم تأويله. وقال مجاهد: (والراسخون في العلم) يعلمون تأويله، ويقولون آمنا به. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: والراسخون في العلم يقولون آمنا به، ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل الآيات المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضا، فنفذت به الحجة، وظهر به العذر، وانزاح به الباطل، ودفع به الكفر][1]. وهذا القول لا يتعارض مع المعنى اللغوي للتأويل، بل

(١) – الطبري: جامع البيان: ج٣/ ص ١٢٢-١٢٣.

يتفق معه، فالتأويل – كما ذكرنا – هو: رد الشيء إلى غايته، وإرجاعه إلى حقيقته، وتحديد عاقبته ومآله. والراسخون في العلم عندما قاموا برد المتشابه إلى المحكم، أزالوا الإشتباه فيه، فهذا الفعل منهم رد للشيء إلى غايته، وإعادة الكلام إلى أصله، وحمله على مرجعه وأساسه.

ب – قال تعالى في سورة النساء: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا).

قال ابن جرير الطبري: (أحسن تأويلا، أي: جزاء. وقال قتادة: أحسن ثوابا،وخير عاقبة)[1]. فالتأويل هنا: هو تأويل فعلهم الذي هو رد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وليس التأويل هنا بمعنى التفسير، أو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر.

ت – قال تعالى في سورة الأعراف: (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق.. الآية) وبالنظر إلى معنى التأويل هنا، نجد أن المراد به هو الحوادث التي تقع مطابقة لما أخبر به الكتاب، أي: هل ينتظرون إلا تحقق ما أخبر به القرآن من بعث، وحساب، وثواب، وعقاب في الاخرة..؟ قال الربيع: (لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يأتي يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار)[2].

ث – قال تعالى في سورة يونس: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين) قال الإمام الطبري: (ما بهؤلاء المشركين يا محمد تكذيبك، ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا

(١) – الطبري: جامع البيان، ج٦/ ص ٢٠٥.
(٢) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣/ ص١٧٧.

بعلمه، مما أنزل الله عليك من هذا القرآن، من وعيدهم على كفرهم، ولما يأتهم بعد ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله به في القرآن.)(١)فالمراد بالتأويل هنا: وقوع ما أخبر به القرآن، وهو الأثر الخارجي، والمدلول الواقعي بوعيد هؤلاء.

ج – ووردت كلمة التأويل في ثمانية مواضع من سورة يوسف عليه السلام وهي الآيات: (٦، ٢١، ٣٦، ٣٧ ٤٤، ٤٥، ١٠٠، ١٠١). والتأويل في الآيات السابقة كلها يقصد به تعبير الرؤيا، أي: ما تؤول إليه(٢).

ح – قال تعالى في سورة الإسراء: (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا.) قال الطبري: (فسر مجاهد، وقتادة، كلمة التأويل هنا: بالمآل، والمرجع، والعاقبة، والثواب)(٣).

خ – ووردت كلمة التأويل في آيتين من سورة الكهف، وهما: قوله تعالى: (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) وقوله: (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا.) والمراد بالتأويل هنا – وهو ضرب من تأويل الأفعال لا الأقوال – هو: (إرجاع الأفعال التي فعلها العبد الصالح وأنكرها موسى عليه السلام، من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، إلى ما تؤول إليه من الخير في المستقبل وهو دفع ظلم الملك لأصحاب السفينة، وإفساد الغلام لأبويه، وحفظ الكنز لأصحاب الجدار.)(٤)

المطلب الثالث: كلمة التأويل في أحاديث الرسول ﷺ

وردت كلمة التأويل في حديث رسول الله ﷺ بمعنى: تعبير الرؤيا والمآل الذي

(١) – الطبري: جامع البيان، ج١٥ / ص٩٣.
(٢) – محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ج٣/ ص ١٧٣.
(٣) – الطبري: جامع البيان، ج١٥/ ص٨٥.
(٤) – محمد الزفزاف: التعريف بالقرآن والحديث، ص ١٦٢.

تؤول إليه، وبمعنى التفسير، وبمعنى العاقبة والمصير.

أ - فمن الأحاديث التي وردت فيها كلمة التأويل بمعنى الرؤيا: قال أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم، كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولتها: بالرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب)(١) وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما أنا نائم إذ رأيت قدحا أتيت به فيه لبن، فشربت منه، حتى إني لأرى الري يجري في أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب) قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله..؟ قال: (العلم)(٢).

فالتأويل الواقعي لشربه عليه السلام اللبن في الرؤيا، وارتواؤه منه، هو: تمكنه من العلم، ورسوخه فيه.وتأويل إعطائه ما تبقى منه لعمر رضي الله عنه هو: تمكن عمر من العلم، ورسوخه فيه كذلك وقد تحقق ذلك في عمر رضي الله عنه

ب - ومن الأحاديث التي وردت فيها كلمة التأويل بمعنى التفسير والبيان: دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس بتعلم التاويل، وقد ورد هذا الدعاء في روايات عديدة، بينها تفاوت في ألفاظها. ففي البخاري: أن الرسول صلى الله عليه وسلم ضم ابن عباس إلى صدره وقال: (اللهم علمه الكتاب)(٣)وفي رواية أخرى: (اللهم علمه الحكمة.)(٤)وفي رواية مسلم: (اللهم علمه الحكمة.)(٥)وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله

---

(١) - الإمام مسلم: صحيح مسلم: كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: (٢٢٧٠).

(٢) - الإمام مسلم: صحيح مسلم: حديث رقم (٢٣٩١).

(٣) - الإمام البخاري: صحيح البخاري، حديث رقم: ٧٥.

(٤) - الإمام البخاري: صحيح البخاري: جديث رقم: ٣٧٥٦.

(٥) - الإمام مسلم: حديث رقم: ٢٤٧٧.

ﷺ وضع يده على كتفي، أو منكبي، ثم قال: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل) [١] ومعلوم أن دعاء الرسول ﷺ مجاب، ولذلك من الله على ابن عباس بالفقه في الدين، وعلم التأويل، فصار بحق ترجمان القرآن. والمراد بالتأويل هنا: التفسير والبيان، ولا يجوز القول بأنه يعلم حقائق تأويل القرآن الخارجية،لأن ذلك من الغيوب التي استأثر الله بعلمها.

ت – ومن الأحاديث التي وردت فيها كلمة التأويل بمعنى: المرجع، والعاقبة، والمصير: ما رواه سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه سئل عن معنى قوله تعالى: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون)[٢] فقال: (إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد)[٣] أي: لم يحدث مدلولها العملي والواقعي، الذي هو عين تأويلها، والذي هو مصير المخاطبين، وعاقبة أمرهم

المطلب الرابع: التأويل في عهدي الصحابة والتابعين.

لم يكن التأويل وقفا على عصر دون عصر، فقد وجد منذ عصر الصحابة – رضوان الله عليهم–، وكان ذائعا شائعا بينهم قال الآمدي (٦٣١هـ): (وإذا عرفت معنى التأويل، فهو مقبول معمول به إذا تحقق بشروطه، ولم يزل علماء الأمصار في كل عصر من عهد الصحابة إلى زمننا، عاملين به من غير نكير.)[٤]ويدلنا على ذلك

(١) – الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد، ج٤/ ص ٢٥٥، حديث رقم (٢٣٩٧).
(٢) – سورة الأنعام: آية / ٦٥.
(٣) – أخرجه الإمام أحمد: مسند ابن حنبل، ج٣/ ص٨٣. وانظر تفسير ابن كثير ج٢/ ص١٢٠.
(٤) – الآمدي: الاحكام في أصول الآحكام، ج٣/ ص ٧٥.

اجتهادات ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من أعلام الصحابة[1] بالإضافة إلى الآثار المروية عن كبار الصحابة التي تحذر من شطط التأويل. من ذلك: ما رواه عمرو بن دينار قال: قال عمر بن الخطاب ﵁: (إني أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن على غير تأويله،ورجل ينافس أخاه على الملك)[2]. وعن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، أ، عمر بن الخطاب، قال: (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بين فسقه، ولكني أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه، ثم تأوله على غير تأويله)[3]. كما كان أهل الرأي والعلم بالمرصاد للمؤولين الذين لا يريدون وجه الحق في تأويلاتهم، وغير المستندة إلى إدلة الشرع، أو مخالفة لحكمة التشريع، أو الناتجة عن خطأ في الفهم، كفعل أبي بكر ﵁ بالمرتدين، الذين أولوا آية الزكاة على غير وجهها[4]، وكما فعل عمربن الخطاب ﵁ بقدامة بن مظعون[5]، وصبيغ بن عسل التميمي[6]، وأمثالهم. ولم يقف التأويل

---

(١) - د. عبد الحميد أبو المكارم: الدلالات اللفظية عند الأصوليين ص ٢٣٨- ٢٣٩. وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٣/ ص ١٧٤-١٧٥، والبخاري: صحيح البخاري، كتاب الطلاق، ج٢/ ص ٧٣.

(٢) - ابن عبد البر: جامع بيان العلم، ج٢/ ص ٢٣٧.

(٣) - المرجع السابق، ج٢/ ص ٢٣٨.

(٤) - انظر: ابن حجر: فتح الباري، ج١٢/ ص ٢٣٣. والبغوي: شرح السنة، ج٥/ ص ٤٧٢، ٤٨٢.

(٥) - انظر: الذهبي: التفسير والمفسرون، ج١/ ص٦٠. والسيوطي: الدر المنثور، ج٥/ ص ٥، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج٥/ ص ٤٧٥. والطبري: تاريخ الأمم والملوك: ج٢/ ص ٩٦-٩٧.

(٦) - أخرج هذه القصة ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٤٢٦)، والدارمي في السنن (١/ ٥٥ - ٥٦)، وعبد الله بن أحمد في فضائل الصحابة (١/ رقم ٧١٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ رقم ١١٣٦)، والخلال -كما قال أبو يعلى في =

عند عصر الصحابة، بل تعداهم إلى عصر التابعين[1]، فهو منهج من مناهج الاجتهاد بالرأي، أو كما يقول الامام أبو زهرة: (باب من أبواب الاستنباط العقلي)[2]نتيجة لكل ما سبق يمكننا أن نقول: لقد عرف الصجابة والتابعون، معنيين للتأويل

الأول: المآل والعاقبة، وهو ما نجده مكررا في آيات القرآن الكريم.

والثاني: بمعنى التفسير، والبيان، وهو ما دعا به الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما، وظل هذان المعنيان معروفين للسلف إلى أن ظهرت الفرق الاسلامية المختلفة منذ عهد الخليفة الراشد: عثمان بن عفان - رضي الله عنه وأرضاه -، فكان للتأويل اصطلاح آخر، انتشر ببطء في الفكر الاسلامي، وتلون بلون كل فريق ومذهب، وأخذ يشكل معارضة هادئة للإسلام، معتمدا على الآيات بتحريف دلالاتها، أمام استحالة التغيير للنص المحفوظ. وكانت محاولات هؤلاء على قلتها، تعتبر البدايات الأولى للتأويل

=

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ق ١٢٢ - ١٢٣)، وابن بطة في الإبانة (رقم ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٧٨٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/ ص ٤١٢)، وابن الأنباري في المصاحف ذكره بسنده المصنف هنا في التفسير (١٧/ ص ٢٩) وغيرهم، والقصة صحيحة مشهورة، قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١١): وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا، وقال ابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٦٠٦) بعد عزوه للبزار: قصة صبيغ بن عسل التميمي مع عمر مشهورة وكأنه -والله أعلم- إنما ضربه لما ظهر له من حاله أن سؤاله سؤال استشكال، لا سؤال استرشاد واستدلال، كما قد يفعله كثير من المتفلسفة الجهال، والمبتدعة الضلال؛ فنسأل الله العافية في هذه الحياة الدنيا وفي المآل.

(١) - انظر: د. عبد الحكيم أبو المكارم: الدلالات اللفظية عند الأصوليين، ص ٢٤٢-٢٤٣، و د. فتحي الدريني: المناهج الأصولية، ص ١٨١-١٨٣، و سليمان بن خلف الباجي: المنتقى، شرح موطأ الإمام مالك، ج٥/ ص ١٨.

(٢) - أبو زهرة: أصول الفقه، ص ١٢٨.

السبئي الباطني الفاسد.

وليس أدل على ذلك من قول قتادة: عند قراءته لقوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ..الآية)[1]:(إن لم يكونوا الحرورية - أي الخوارج -، والسبئيين، فلا أدري من هم. .... إلى أن يقول: والله إن اليهودية لبدعة، وإن النصرانية لبدعة، وإن الحرورية لبدعة، وإن السبئية لبدعة، ما نزل بهن كتاب، ولا سنهن نبي)[2]وقال الطبري: عند تفسيره لقوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ.. الآية)[3]: (هذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معني بها كل مبتدع في دين الله، كان من أهل النصرانية، أو اليهودية، أو المجوسية، أو كان سبئيا..)[4]لقد وجد السبئيون الباطنيون - ومن نسج على منوالهم من العلمانيين المعاصرين - في التأويل متنفسا لتعاليمهم، يتجاوزون بها الحدود الظاهرة لمعاني الكلم، أو كما يقول البغدادي: (إن الباطنية احتالت لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة.)[5]فقام العلماء من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، وأصوليين، وغيرهم، بالتصدي لهم، وبينوا معنى التأويل، وأدلته، ومجالاته، وقاموا بوضع الضوابط والأصول، للتأويل الصحيح، لمنع المبتدعين من تحريف نصوص الآيات والخروج بها عن معانيها المرادة، وعن قواعد اللغة، ونصوص الشريعة. وهنا يجب أن نفرق بين تأويل مشروع يستخدمه المفسرون وغيرهم، بمعنى يقرب قليلا أو كثيرا من معنى التفسير، للكشف عن المعنى وفهمه، حين يصرف المتأول اللفظ عن ظاهره،

---

(١) - سورة آل عمران: آية / ٧.

(٢) الطبري: جامع البيان، وبهامشه غرائب القرآن للنيسابوري، ج٣/ ص١١٩.

(٣) - سورة آل عمران: آية / ٧.

(٤) - الطبري: جامع البيان، ج٣/ ص ١٢١.

(٥) - البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٧٥.

أو معناه الراجح إلى معنى آخر مرجوح بدليل صحيح، وبين تأويل مستكره، يحكمه الهوى، والهوس، والاعتقاد الفاسد، ويتعسف في فهم اللفظ، ويفسره على معنى بعينه، يطابق معتقده، وذلك كمن يصرف اللفظ القرآني عن ظاهره، أو معناه القريب الراجح إلى معنى بعيد مرجوح، اعتمادا على ما يظنه دليلا وهو ليس كذلك، كما فعل الباطنيون وغيرهم في القديم، وذيولهم في الحديث

المطلب الخامس: التأويل في الإصطلاح.

صاحبت ظاهرة التأويل للنص الديني منذ أن نزلت أول كلمات الله على رسول الله ﷺ، وحاول المسلمون تفهم القرآن، واستنباط الاحكام منه، إلا أن الأعراض التي استوجبت الاشتغال به، لم تكن قد ظهرت بصورة تشكل ظاهرة، فلم يكن ثمة حاجة للتأويل، ولا يعيب المشتغلين بالتأويل المنضبط بأدلة الشرع، الهادف لإبراز المعنى الصحيح المحتمل والمناسب للنص، عدم اشتغال الصحابة به، فهناك علوم كثيرة لم يشتغل بها الصحابة، مثل: علم أصول الفقه، واللغة، وغيرها، ولا يقال إن الاشتغال بهذه العلوم بدعة سيئة. وقد ورد في الحديث عن سيد الثقلين، أن ابن عباس رضي الله عنهما قدم له وضوءه فقال: من فعل هذا ؟ فقلت: أنا يا رسول الله، فقال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[1]ففي هذا الدعاء من الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما دليل إقراره عليه السلام للتأويل الصحيح. لقد كان التأويل الصحيح أداة لسبر أغوار النص الديني، واكتشاف طاقاته المعبرة، وعمل التأويل في بيئة المفسرين والفقهاء، على توسيع آفاق النص، حتى يستغرق متجدد أحداث الحياة، وعمل على التوفيق بن الآراء والنصوص التي تبدو متعارضة. واستغلال التأويل من قبل الفرق الضالة المنحرفة، الذين شوهوا الدلالات اللغوية، وصرفوا النصوص الدينية عن ظاهرها

(١) – الامام أحمد: المسند، ج٤/ ص ٢٥٥.

المراد، إلى معان باطنية غير مرادة في النص لمناصرة مذاهب فاسدة، ونحل باطلة، دفع المشتغلين بالنص الديني من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، وأصوليين، ومتكلمين، إلى استنباط تعريف للتأويل الصحيح، وبينوا أنواعه، ومجالاته، وضوابطه، ليتمكن المشتغلون بالنص الديني من التعرف على صحيح التأويل من فاسده، ومتى يكون التأويل، وكيف يكون، وليدركوا ما حرفه أصحاب المذاهب الضالة من آيات خرجوا بها عن معانيها المرادة، وقواعد اللغة، وأصول الشريعة، وما دسوه في كتب التفسير وسأعرض فيما يلي لبعض التعريفات الاصطلاحية للتأويل، مرتبة ترتيبا تاريخيا، منها:

١ - وقال الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦): - (التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح، مع قيام الدليل القاطع عن أن ظاهره محال)[1]ونلحظ عند الرازي دقة في التعريف فالتأويل لا يلجأ إليه إلا إذا دعت الحاجة، واستحال قبول المعنى الظاهر

٢ - وقال ابن الحاجب-جمال الدين عثمان بن عمر المشهور بابن الحاجب (ت٦٤٦هـ): (التأويل: هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، بدليل يصيره راجحا.)[2]وهذا المعنى المحتمل الذي يؤول إليه اللفظ معنى مرجوح، لأنه خلاف المعنى الحقيقي الظاهر المتبادر، ومع ذلك فإن دليل التأويل الأقوى يصير هذا المعنى المرجوح راجحًا، أي يغلب على ظن المجتهد أنه مراد الشارع، كما رجحه الدليل. والتعريف الاصطلاحي للتأويل، أصبح في عرف المتكلمين، والفقهاء،

---

(١) -الفخر الرازي: أساس التقديس، ص ٢٢٢.

(٢) - القاضي عضد الملة والدين الإيجي: شرح مختصر المنتهى لابن الحاجب: ج٣/ ص٧٥.

والمفسرين، هو الذي ينصرف إليه الذهن عند الاطلاق، وأصبح شائعا ومتعارفًا عليه بين المتأخرين، ويبدو أن استعماله بهذا المعنى، استوجبته دواعي كثيرة، كان من أبرزها مواجهة التأويلات المنحرفة التي بدأت بالبروز في المجتمع الاسلامي في وقت مبكر، والتي كانت مستندًا لكثير من النزعات الطائفية والشعوبية، والفرق الضالة، وبعض الأعاجم، الذين ترسبلوا بالاسلام، ولم يتجردوا من مواريثهم العقائدية، وتركاتهم الثقافية، وأرادوا الكيد للاسلام من الداخل.

المبحث الثاني شروط التأويل المقبول وأدلته، وسمات التأويل الفاسد المردود

قرر علماء الشريعة أن الأصل عدم التأويل، وأن التأويل خلاف الأصل، ولا يعدل عن الأصل إلى خلافه إلا بدليل. وعلى هدي من هذا الأصل، وحفاظا على نصوص الشريعة من نزعات الهوى، وضعوا شروطا للتأويل، ولم يعتبروا التأويل صحيحا مقبولا إلا بتوفر هذه الشروط، وإلا فهو تأويل فاسد مردود. ومن أهم هذه الشروط، ما يلي:

أولا: - أن يكون المتأول ممن توفرت فيه شروط الاجتهاد، عالما بأسباب التأويل ومجالاته، ملما بمدلولات الألفاظ، ومقاصدها، عالما بروح الشريعة الإسلامية وأدلتها، وله دراية بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ.[1]، فإن فقد هذا الشرط في المؤول، لم يكن أهلا للتأويل.

ثانيا: - أن يكون المعنى الذي أول إليه اللفظ، من المعاني التي يحتملها اللفظ نفسه، وإنما يكون اللفظ قابلا للمعنى الذي يصرف إليه، إذا كان بينه وبين اللفظ

---

(١) -انظر: الشاطبي: الموافقات، ج٤/ ص١٠٥-١١٨. ود. محمد سلام مدكور: المدخل للفقه الإسلامي، ص ٢٨٦-٢٩١.

نسب من الوضع اللغوي، أو عرف الاستعمال أو عادة الشرع،[١] فقد جرت عادة الشرع على تخصيص العام[٢] في كثير من نصوصه، مثل قصر الوجوب في كلمة (الناس) في قوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت..)[٣] على المكلفين، دون الصبيان والمجانين. كذلك تقييد المطلق[٤]، جرت به عادة الشرع، واللغة لا تأباه، فقد قام الدليل على تقييد (الوصية) المطلقة في قوله تعالى: (من بعد وصية يوصي بها أو دين)[٥] بالثلث في قوله ﷺ - لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس.)[٦]. فالعام إذا صرف عن العموم، وأريد به بعض أفراده بدليل، فهو تأويل صحيح، لأن العام يحتمل

---

(١) - انظر: د. محمد أديب الصالح: تفسير النصوص، ج١/ ص٣٨١. والشوكاني: إرشاد الفحول، ص ١٧٧.

(٢) - العام: هو اللفظ الذي يستغرق جميع ما يصلح له من الأفراد، وتخصيص العام: هو قصر اللفظ على بعض أفراده، أو صرف العام عن عمومه. انظر: د. وهبة الزحيلي: أصول الفقه الاسلامي، ج٢/ ص ٢٤٣، ٢٥٤.

(٣) - سورة آل عمران: آية / ٩٧.

(٤) - المطلق: هو اللفظ الخاص الذي يدل على فرد شائع أو أفراد على سبيل الشيوع، ولم يتقيد بصفة من الصفات، كقوله تعالى في آية الظهار [فتحرير رقبة] (سورة المجادلة، آية /) والرقبة واقعة على صفات متغايرة، من كفر، وإيمان، وذكورة، وأنوثة، وصغر، وكبر. أما المقيد: فهو اللفظ الواقع على صفات قيد ببعضها، كقوله تعالى في كفارة القتل [فتحرير رقبة مؤمنة] (سورة المجادلة: آية /)، فاسم الرقبة: واقع على المؤمنة والكافرة، فلما قيدها هنا بالإيمان، كان مقيدا من هذا الوجه. انظر د. وهبة الزحيلي: أصول الفقه: ج١/ ص ٢٠٨ – ٢٥٤.

(٥) - سورة النساء: آية / ١١.

(٦) - متفق عليه، انظر محمد بن اسماعيل الصنعاني: سبل السلام، ج٣/ ص ١٠٤.

الخصوص، وحين يراد به بعض أفراده، فقد أول إلى معنى يحتمله.[١] والمطلق إذا صرف عن الشيوع، وحمل على المقيد بدليل فهو تأويل صحيح. أما إذا كان المعنى الذي صرف إليه اللفظ من المعاني التي لا يحتملها اللفظ نفسه، ولا يدل عليها وجه من وجوه الدلالة، فلا يكون التأويل صحيحا مقبولا. وعلى هذا، فإن التأويل لا يدخل في النصوص الدالة على أحكام أساسية تعتبر من العقائد وقواعد الدين، ولا تتغير بتغير الزمن: كالايمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وكذلك النصوص الدالة على أحكام هي من أمهات الفضائل، وقواعد الأخلاق التي تقرها الفطر السليمة، ولا تستقيم حياة الأمم بدونها، كالوفاء بالعهد، والعدل، وأداء الأمانة، والمساواة أمام الشريعة وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والصدق، والنصوص التي تحرم أضدادها من: الكذب، والخيانة، وعقوق الوالدين، والنصوص التي اقترن بها ما يفيد التأبيد وغيرها من القواعد الأساسية، التي لا تحتمل تأويلا ولا نسخا، منذ أوحي بالنصوص التي تقررها[٢].

ثالثا: – أن لا يتعارض التأويل مع نصوص قطعية الدلالة، لأن التأويل منهج من مناهج الاستدلال والاستنباط الاجتهادي الظني، والظني لا يقوى على معارضة القطعي، كتأويل القصص الوارد في القرآن الكريم، بصرفها عن معانيها الظاهرة إلى معان أخرى يصيرها خيالية لا واقع لها، وهذا التأويل معارض لصريح الآيات القاطعة التي تدل على أن لها واقعا تاريخيا[٣].

رابعا: – أن يستند التأويل إلى دليل صحيح يدل على صرف اللفظ عن معناه

---

(١) – د. محمد أديب الصالح: تفسير النصوص، ج١/ ص ٣٨١.
(٢) – د. محمد فتحي الدريني: المناهج الأصولية، ص ٧٦-٧٧، (بتصرف واختصار).
(٣) – انظر: د. محمد فتحي الدريني: المناهج الأصولية، ص ١٩٠.

الظاهر إلى غيره، وأن يكون هذا الدليل راجحا على ظهور اللفظ في مدلوله، لأن الأصل هو العمل بالظاهر، إلا إذا قام دليل على أن المراد باللفظ هو المعنى الذي حمل عليه، فالعام مثلا على عمومه، ولا يقصر على بعض أفراده إلا بدليل، والمطلق على إطلاقه، ولا يعدل عن إطلاقه الشائع إلى تقييده إلا بدليل يدل على إرادة هذا القيد، وظاهر الأمر الوجوب فيعمل به حتى يقوم الدليل على الندب أو الإرشاد أو غيرهما، والنهي ظاهره التحريم، فيعمل به حتى يدل الدليل على العدول عنه إلى الكراهة مثلا[1]. ويشترط في الدليل أن يكون صحيحا معتبرا شرعا، يرشد إلى تحديد إرادة الشارع في النصوص المتعارضة.

ويمكن إجمال الأدلة المعتبرة للتأويل الصحيح فيما يلي:

١: - نصوص الكتاب والسنة: من المعلوم أن نصوص الكتاب والسنة فيها المجمل والمبين، والعام والخاص والمطلق والمقيد، ونصوص الشرع يفسر بعضها بعضا، ويجوز أن يفسر ظاهر آية بآية أخرى، أو بسنة رسول الله ﷺ، فالله سبحانه وتعالى يقول: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)، فأطلق الذكر على السنة التي فيها بيان لمجمل القرآن، وتخصيص لعمومه، وتقييد لمطلقه، إلا أن بعض العلماء اشترطوا في الحديث الذي يخصص الكتاب، أو يبين مجمله، أو يقيد مطلقه، أن يكون متواترا غير آحادي[2].

٢: - الإجماع: يعتبر الإجماع من الأدلة المعتبرة في التأويل، وهو دليل من الأدلة

---

(١) - انظر: د. الزحيلي: أصول الفقه، ج١/ ص ٣١٥، ود. محمد أديب صالح: تفسير النصوص، ج١/ ص ٣٨٢.

(٢) - انظر: الآمدي: الاحكام، ج٢/ ص٣٢. وابن حزم: الاحكام، ج١/ ص ١٠٧، والسرخسي: أصول السرخسي، ج١/ ص ٣٢١، والنووي: شرح النووي على صحيح مسلم، ج١/ ص ٢٠.

المتفق عليها في إثبات الأحكام الشرعية، يقول ابن حزم: (ولا يحل لأحد أن يحيل آية عن ظاهرها، ولا خبرا عن ظاهره، لأن الله تعالى يقول:

(بلسان عربي مبين)، وقال تعالى ذاما لقوم: (يحرفون الكلم عن مواضعه)، ومن أحال نصا عن ظاهره في اللغة بغير برهان من آخر، أو إجماع، فقد ادعى أن النص لا بيان فيه، وقد حرف كلام الله تعالى، ووحيه إلى نبيه ﷺ عن موضعه.)[1]

الفصل الثالث: نماذج لتأويلات طائفة البهرة، وبيان بطلانها.

ذهبت الإسماعيلية ومنهم البهرة، إلى أن لكل شيئ ظاهر محسوس تأويلا باطنيا لا يعرفه إلا الراسخون في العلم، وهم: الأئمة، وهؤلاء الأئمة يودعون هذا العلم الباطن لكبار الدعاة بقدر مخوص، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك؛ فقالوا: إن التأويل الباطن من عند الله، خص به علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- فكما أن الرسول ﷺ خص بالتنزيل، فكذلك علي -كرم الله وجهه- فقد خص بالتأويل، واستدلوا على ذلك بقصة نبي الله موسى عليه السلام مع العبد الصالح المذكورة في سورة الكهف، وكيف أن موسى عليه السلام وهو نبي مرسل من أولي العزم، لم يمنحه الله علم الباطن، بينما منح هذا العلم إلى الرجل الصالح، وهو ليس بنبي مرسل، وليس من أولي العزم. وهكذا كان التأويل الباطن إلى علي – كرم الله وجهه –، وقد أورثه الأئمة من أعقابه بأمر من الله، وعلى ذلك فالأئمة هم الذين يدلون الناس على أسرار الدين، وليس لأحد غيرهم هذا الحق الذي جاءهم بأمر من الله تعالى، ولكن ليس لهم أن يطلعوا أحدا على أسرار هذا الدين إلا لمن يستحق ذلك فقط.

وبالرغم من قولهم: إن التاويل من عند الله، نراهم مرة أخرى يقولون: إن التأويل من خصائص حجة الإمام أو داعي دعاته، ومع ذلك نجد تأويلاتهم تختلف باختلاف

(١) – علي بن حزم: النبذة الكافية في أحكام أصول الدين، ص ٣٦.

شخصية الداعي الذي إليه التأويل. وباختلاف موطنه، وزمن وجوده.

فإذا قرأنا تأويلات (الداعي منصور اليمن) قبل ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب، نجد أنها تميل إلى الغلو، ولا تختلف في مضمونها عن تاويلات الفرق الغالية المندثرة، وتأويلات دعاة فارس تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الأئمة بالمغرب، ففيها التأليه الصريح للأئمة، وفيها طرح الفرائض الدينية، فتأويل الصلاة عندهم هو: الإتجاه القلبي للإمام،

وتأويل الصوم هو: عدم إفشاء أسرار الدعوة، وتأويل الحج هو: زيارة الإمام. وهكذا ينتهي بهم التأويل في فارس إلى طرح كل أركان الدين. بخلاف ما كان عليه الأمر في المغرب إذ لم يصرحوا بهذه الآراء إلا في كتبهم السرية.

فمثلا قال الداعي بالمغرب في تأويل قوله تعالى: (والفجر وليال عشر والشفع والوتر) إن الفجر هو: على بن أبي طالب، وكل إمام بعده. وأن الشفع والوتر هما: الحسن والحسين. ولكن الداعي في مصر أول هذه الآية بأن الفجر هو: المهدي المنتظر، أي: قائم الأئمة وخاتمهم، لأنه يظهر بعد انتشار الضلال، كما أن الفجر يأتي بعد شدة الظلام.

وبعد انتقال الدعوة من مصر إلى اليمن وأصبحت تعرف بالدعوة الإسماعيلية الطيبية، عادت التأويلات الباطنية مرة أخرى إلى الغلو، مع أن دعاة اليمن أخذوا أكثر تأويلاتهم عن دعاة مصر. وبسبب دخول الأئمة دور الستر، وعدم وجود دولة للطائفة، عاد الإسماعيلية إلى التقية والسرية، بحيث لا يسمح إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل. وظل الأمر على ذلك إلى الآن عند طائفة البهرة بفرعيها الداودي والسليماني[1]. ومع اتفاق البهرة مع أسلافهم الإسماعيلين في كل ما يؤولوه،

(١) - انظر: د. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ١٦٢-١٦٥، باختصار.
=

إلا أنني وجدتهم ينفردون في تأويل بعض الآيات بما يتفق ومزاعمهم.. للتدليل على صحة إمامة (المستعلي) وفساد إمامة (نزار). يقولون: [لما تشاجر عبد الله ونزار - ولداه - في الإمامة بين يديه، قال لهما: لا تتشاجرا ولا تتنازعا، فليس واحد منكما بصاحب هذا الأمر، وإنما صاحبه ههنا، وأشار بيده إلى ظهره، وكان مولانا المستعلي حينئذ لم يحمل بعد..! وهذا كان في يوم مشهود، ومقام غير خفي ولا مجحود، ثم إنه لما حضرته النقلة إلى دار الكرامة، وحانت دقيقة الإنتقال؛ وهو الوقت الذي يعول فيه على النص، أشار إليه، ونص مصرحا عليه، وأمر من حضر بطاعته وعرفهم ما خصه الله به من وراثة رتبته ومقامه ودرجته، فأذعن الجميع طائعين، وبادروا بشعاره معترفين، ولم يخالف في ذلك أحد من المخالفين، والموالفين، إلا نزار وشرذمة من الغلمان.. ثم يقولون: وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله:

(واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا.. الآية)، وذلك أن مولانا المستنصر بالله (ص) من دوره بمنزلة سليمان من دور بني إسرائيل..؟ وهو المشار إليه بسليمان، وقد قال النبي (ص): كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، فسليمان هذه الأمة هو مولاما: المستنصر بالله (ص)، لأنه واقع في الرتبة والعدد من أئمة دوره موقع سليمان في الرتبة والعدد من أئمة دوره، فإنه أوتي ملكا لم يؤت مثله أحد من آبائه طولا وتمكينا، كما أوتي سليمان، وسخرت له الريح والشياطين كما سخرت لسليمان..؟ فتسخير الريح: تأييده في كل مقام، وتسخير الشياطين له: إنقياد المارقين له، والمخالفين لأمره ونهيه.

=

والحبيب الفقي: التأويل أسسه ومعانيه في المذهب الإسماعيلي، ص ٩-٥٣. والداعي الإسماعيلي جعفر بن منصور اليمن: كتاب الكشف، ص ٦٦. والداعي إدريس عماد الدين القرشي: زهر المعاني، ص ٢٩٩.

وقوله: (وما كفر سليمان) أي: ما كفر مولانا المستنصر بالله، ولا جحد حقيقة علمه في معنى الإمام من بعده، بل عقد الإمامة لمولانا المستعلي بالله في يوم النكاح على رؤوس الأشهاد، ونص عليه في دقيقة انتقاله، لا موضع تأول فيه ولا اشتباه على أحد من حاضريه، وكفر بذلك من اتبع الهوى، ولآثر الدنيا، إذ كانت الخلافة والإمامة محل المنافسة وباعث الحسد، ولهذا قال سبحانه: (ولكن الشياطين كفروا..) أي: هؤلاء الذين شطنوا عن الحق، وبالغوا في الحيلة، فضلوا وأضلوا. ومما يعضد هذا التأويل ؛ما ورد في أسفار بني إسرائيل ؟! من أن سليمان نص بالإمامة على ولده (رجيعون)..! كما نص مولانا المستنصر بالله (ص) على مولانا المستعلي بالله (ص) فحسده المسمى (بريعون) فخرج عليه، واتبعه جماعة ممن أضلهم بمكره، واستهواهم بسحره، وغير لهم نصوص الدين، وأزالهم عن الصراط الواضح المبين، كما فعل نزار في خروجه على مولانا المستعلي بالله (ص) وكانت الدائرة على (بريعون) وأصحابه، كما كانت الدائرة على نزار وأصحابه، وكانت العاقبة لابن سليمان صاحب الحق، كما كانت العاقبة لمولانا المستعلي بالله (ص) أمير المؤمنين، فإن الله قد أنفذ مشيئته الأزلية، وأحكام قضاياه الكلية، بصلة حبل الإمامة، وعصمتها، وإمحاقه المكر السيئ ممن عاندها، وخالف أمر الله في طاعتها، فاعتبروا يا أولي الأبصار.][1]

كما أولوا قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها. الآية) بقولهم: (لا خلاف بين أهل التأويل أن الآية مثل الإمام، ويعني بقوله: (ما ننسخ من آية): أي: نؤخر من شخص قد وسم بوسم يوهم فيه الإمامة، ويعني بقوله: (أو ننسها) أي: ننقل من إمام حقيقي إلى دار الكرامة، فإن النسخ هو إبطال حكم متقدم

(١) – انظر رسالة: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ص ١٥ – ١٦.

بإثبات حكم متأخر، وهو مثال تصور الشخص المتوهمة إمامته، والنسيان هو: انتقال الشيئ من مقر الحفظ، وهو مثل انتقال الإمام إلى دار الكرامة. وقوله: (نأت بخير منها) أي: نأت بإمام الحق، وهو خير من الشخص المتوهمة إمامته، ومما يؤيد هذا قول الله تعالى: (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)، فإنه أشار عند جميع أهل التأويل بقوله (خير) إلى الوصي، أو إلى الإمام الحق، وبـ(الذي هو أدنى) إلى الشخص الذي يتوهم أنه إمام وليس بإمام. ويريد بقوله تعالى: (أو مثلها) أي: يخلف إمام حق بإمام حق مثله، من عنصره وأصله، فإن الأئمة في معنى الإمامة متماثلون، وفي حقيقة التأييد والعصمة متشاكلون. وجعل بإزاء نسخ الآية: الإتيان بما هو خير، وبالإزاء نسيانها: الإتيان بما هو مثلها. فهل بقي بعد فهم هذا في فعل الأئمة ريب..؟ أو يكون على وجه حكمتهم اعتراض بحضرة أو غيب..؟ يا هؤلاء أما تعلمون أنكم إلى الإمام الحاضر في الإستضاءة بتعليمه وإرشاده، وتحصيل المعارف التي لا تحصل إلا من جهته، وتلومون أهل الظاهر في الاستبداد بآرائهم، والسكون إلى أهوائهم، فكيف تأتون إلى أعظم الأمور قدرا، وأخفاها علما، وهي الإمامة، تحكمون فيها آراءكم، وتتبعون فيها أهواءكم، إن هذا لهو الضلال البعيد، والخسران المبين..)[1]

ونقول: إن هذه التأويلات فاسدة، لأنها مخالفة لمنطق اللغة، وضوابط التفسير التي أجمع عليها ثقات العلماء والمفسرين، ولا يوافق عليها النقل الصحيح، ولا العقل الصريح، فهؤلاء اعتقدوا أشياء في أذهانهم، وآمنوا بمذاهب وأفكار معينة، وأرادوا إخضاع آيات القرآن لها، لتدل على مزاعمهم، فهم حرفوا ألفاظه عن مظانها اللغوية، وأخرجوا الآيات عن نسقها وسياقها، وخالفوا قواعد التفسير، فكان فعلهم هذا أقرب إلى التحريف منه إلى التأويل أو التفسير، بل هو تلاعب بمعاني آيات

(١) - رسالة: الهداية الآمرية: ص ٢٠-٢١.

القرآن، وإخراج لها عن معانيها الحقيقية، وهذا ما يهدف إليه هؤلاء الغلاة. والبهرة كبقية الإسماعليين، بل كبقية الغلاة الذين حفلت بهم كتب المقالات والفرق، أولو كل شيئ، ونظرة إلى تفسير (مزاج التسنيم) لمفسر البهرة السليمانية: ضياء الدين إسماعيل بن هبة الله تجد أنه أول العقائد، والأسماء والصفات، والعبادات، وقصص القرآن، فأخذ يقول ما لا يفهم، أو لا يفهم ما يقول.. وأكتفي بذكر مثال علي تأويلات البهرة الإسماعليين للصلاة.. إذ استقصاء تأويلاتهم لا يتسع لها مثل هذا البحث.

قال ضياء الدين إسماعيل بن هبة الله الإسماعيلي في تأويل قوله تعالى: [(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير).(فأقيموا الصلاة): أي الدعوة إلى الميم (محمد ﷺ). (وآتوا الزكاة): سلموا لأمر الفاطر (أي: فاطمة) (واعتصموا بالله): يعني العين (أي: علي)، (هو مولاكم): ولي أمركم في السابق واللاحق. (فنعم المولى): يعني بتدبيره لكم. (ونعم النصير): يعني باحتجابه بكم، وإلهامه لكم، وإقداركم على ما تريدون في تدبير الخلق، فافهموا يا معشر المؤمنين ما سيق إليكم من هذه الحكم ذات السر المصون..؟!][1]

وقال في تأويل قوله تعالى: [(ربنا ليقيموا الصلاة) يعني: الدعوة الظاهرة.][2]

وقال في تأويل قوله تعالى: [(والذين هم على صلواتهم يحافظون) يعني: يحافظون على الاتصال بالطاعة للحدود، لكي يتصلوا بهم بالانضمام][3]وقال الداعي إدريس عماد الدين في تأويل قوله تعالى: [(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع..) يعني: إذا نودي للصلاة،

---

(١) – ضياء الدين السليماني: تفسير مزاج التسنيم، ص ٢٦٠.
(٢) – المرجع السابق: ص ١٠١، والآية جزء من الآية (٣٧) في سورة إبراهيم.
(٣) – المرجع السابق: ص ٣٦٣، والآية في سورة (المؤمنون) رقم: (٩).

وهي الدعوة إلى علي، (من يوم الجمعة) أي: من محمد الجامع للشرائع (فاسعوا إلى ذكر الله) أي: أطيعوا محمدا في علي، والنص عليه. (وذروا البيع) أي: ذروا البيعة..؟ لغيره][1]

وقال الداعي جعفر بن منصور اليمن: [في قوله تعالى: (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) الصلاة: الحسين والأئمة من ولده، (ومما رزقناهم ينفقون): هي الزكاة المؤداة إلى أهلها][2]

وقال في تأويل قوله تعالى: [(فلا صدق ولا صلى): (الصلاة: الطاعة للوصي، وللأئمة الذين اصطفاهم الله من ولده)][3]

ولو تتبعنا تأويلات بقية الدعاة للصلاة، لوجدناهم يتلاعبون بآيات القرآن الكريم حسب أهوائهم وأغراضهم، ويتعارضون ويتناقضون في تأويل الشيئ الواحد، مع زعمهم المستمر بأن تأويلاتهم مأخوذة عن إمامهم المعصوم. والحقيقة أن هؤلاء الغلاة أدركوا أن الإسلام عقيدة وشريعة، وكل متكامل، فهدفوا من خلال هذه التأويلات إلى مقاومة الإسلام، ومحاولة هدمه من الداخل، حاملين ظواهر الشريعة على معان باطنية لا تدل عليها تلك الظواهر، ولا دلالات اللغة، ولا سياق الكلام.

والله سبحانه حينماأوجب التكاليف على المكلفين، لم يستثن منهم الأنبياء، مع أنهم أعلى الخلق درجة، واصطفاء، فالأنبياء مكلفون بالعبادات والتكاليف كسائر الخلق، قال تعالى: (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)، ولو تدبرنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أنه كلما ازداد الإنسان قربا من الله سبحانه، كلما زيدت عليه

(١) – الداعي إدريس عماد الدين: زهر المعاني، ص ١٥. والآية رقم(٩) في سورة الجمعة.

(٢) – الداعي جعفر بن منصور اليمن: كتاب الكشف، ص ٣٨، والآية جزء من الآية رقم (٣) في سورة البقرة.

(٣) – المرجع السابق: ص ٤٤. والآية رقم (٣١) في سورة القيامة.

التكاليف. لقد صلى رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، وجاهد في سبيل الله، وكان من الصائمين القانتين، وعبد ربه حتى أتاه اليقين، وكذلك فعل خلفاؤه الأبرار.

إن الإلتزام بالتكاليف هو سبب الكمال، والتخلي عنها هو سبب النقص، وقد بين الله سبحانه في كثير من آيات القرآن أن أصحاب النار وأهلها يوم القيامة، هم الذين قد أعفوا أنفسهم من التكاليف، قال تعالى: (ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين)[(١)]. فهذه التأويلات فاسدة، لما ينتج عنها من نتائج فاسدة، لأنهم بتأويلاتهم رفعوا التكاليف، وتركوا الفرائض والسنن، وهذاوحده كفيل بالحكم عليهم، وعلى تاويلاتهم، بأنها: خارجة عن المنهج الإسلامي، ومخالفة لإجماع المسلمين.

(باب ذكر اليزيدية أو عبدة الشيطان)[(٢)]

اليزيدية طائفة ينتمى معظمها إلى الجنس الكردى، ويقطن أتباعها فى بعض بوادى الشرق الأدنى وخاصة فى المناطق التالية:

١. قضاءُ الشيخان فى الشمال الشرقى من الموصل، وفيه أهم مراكزهم السياسية والدينية "كعابدرى" قاعدة أميرهم، وقبر الشيخ عادى وهو أعظم مقوماتهم الدينية "وباحزانى وبعشيقة" وغيرها.

٢. قضاء سنجار الواقع فى الشمال الغربى من العراق -على الحدود بينه وبين سوريا- وهو منطقة جبلية منيعة ومعقل حصين، كانوا يعتصمون به فى أيام

---

(١) - سورة المدثر: آية / ٤٢.

(٢) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد، تأليف/ خالد محمد على الحاج - الجزء الأول ص١٣٦ وما بعدها.

الاضطهاد.

٣. ديار بكر، وماردين، وجبل الطور.

٤. منطقة حلب حول كلس وعينتاب.

٥. البلاد الأرمنية الواقعة على الحدود بين تركيا وروسيا، وخاصة فى منطقتى "قرص وإيراوان" وحول تفليس من بلاد القوقاس.

٦. هناك بعض اليزيدية فى إيران.

وأكثر هذه الطائفة يسكن المدن والقرى ويشتغل بزراعة الأرض، إلا أن بعضها لا يزال فى طور البداوة، ويؤلف قبائل رحالة تدعى (الكوجر) ويقدر عدد أفرادها بحوالى ثمانين ألفًا[1]. وقد اختلف الباحثون فى تعليل تسميتهم، فبين اليزيدية أنفسهم من يعتقد أنهم دعوا بهذا الاسم نسبة إلى الخليفة الأموى يزيد بن معاوية، الذى أحيا دينهم بالقديم وأطلق عليه اسمه.

إن اليزيدية أنفسهم يجهلون سبب تسميتهم هذه، وبعض الباحثين نسبهم إلى يزيد بن أنيسة[2]،، وقد ذكر الشهرستانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى فرق الخوارج اليزيدية فقال: أصحاب يزيد بن أنيسة الذى قال بتولى المحكِّمة الأولى قبل الأزارقة، وتبرأ ممن بعدهم إلا الإباضية فإنه يتولاهم.

وزعم أن الله تعالى سيبعث رسولًا من العجم، وينزل عليه كتابًا قد كتب فى السماء، وينزل عليه جملة واحدة، ويدك شريعة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام، ويكون على ملة الصابئة المذكورة فى القرآن وليست هى الصابئة الموجودة

(١) راجع ذيل الملل والنحل: ص٣٣ - ٣٤.

(٢) نفس المصدر: ص٣٤ - ٣٥.

بحران وواسط[١].

ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن اليزيدية ينتسبون إلى مدينة -يزد أو يزدان- الفارسية وهى بمعنى الله، أو -إيزد- ومعناها "خليق بالعبادة" وتطلق فى دين المجوس على الملائكة التى تتوسط بين الله والبشر، وتنقل مشيئته إليهم[٢].

بعض معتقدات اليزيدية:

والحق أن اليزيدية خليط من عناصر وثنية قديمة، وعناصر إيرانية زردشتية، وأخرى يهودية ونصرانية وإسلامية:

١. وهم يؤمنون بوجود إله أكبر خالق لهذا الكون، إلا أنه الآن لا يعنى بشئونه بعد أن فوض تدبيره وإدارته إلى مساعده ومنفذ مشيئتة -ملك طاوس- لذا يرتفع فى أذهان اليزيدية إلى مرتبة الألوهية، حتى أنهم يسبحونه ويضرعون إليه، ويكادون ينسون من أجله الإله الأكبر المتعالى عن هذا العالم، وملك طاوس هذا هو الملاك الأعظم الذى عصى الله فى بدء الخليقة فعاقبة الله على خطيئتة، فظل يبكى سبعة آلاف سنة، حتى ملأ سبع جرار من دموعه، وألقاها فى جهنم فأطفأ نارها، فأعاده الله إلى مركزه الرفيع فى إدارة الكون، ولذلك فإن أهل الديانات الأخرى يخطئون فى نظر اليزيدية حين يدعون هذا الملاك الأعظم -الشيطان- ويلعنونه، ويعتقدون أنه خالق الشر، والأحرى بهم أن يسبحوه ويمجدوه، إن لم يكن حبًا له وتعظيمًا لذاته، فعلى الأقل دفعًا لغضبه وأذاه، وهو المدبر الحقيقى لهذا العالم، قادر على أن ينزل بالبشر جميع أنواع العذاب. ومن هنا نرى أن شيطان اليزيدية يختلف عن شيطان سائر

---

(١) انظر كتاب الملل والنحل للمرحوم الشهرستانى ٤٧٩ - ٥٤٨هـ.

(٢) ذيل الملل والنحل. لزيادة البسط فى هذا المقام يراجع كتاب اليزيدية قديمًا وحديثًا.

الأديان[١].

٢. أما نبى هذه الديانة فهو الشيخ عادى، الذى يروى عنه اليزيدية أخبارًا وروايات عديدة، ويرفعونه أحيانًا إلى ما فوق درجة النبوة والقداسة، حتى يتحد بملك طاوس ويشترك معه فى الألوهية. قاتلهم الله على كفرهم وعنادهم، وتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومن هذه الروايات ما ينطبق على أحد شيوخ المسلمين ومتصوفيهم -الشيخ عدى بن مسافر- والمعروف أن الشيخ عديًا ولد قرب بعلبك فى الشام، ثم رحل إلى الجبال الواقعة شرقى الموصل حيث بنى له زاوية، وجمع حوله طلبته ومريدية، فعظمت شهرته وعلا صيته إلى أن توفى سنة ٥٥٥هـ وقيل سنة ٥٥٧هـ، ودفن بزاويته فى "الشيخان"[٢]. وفيه يقول ابن خلكان: سار زكره فى الآفاق وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد، حتى جعلوه قبلتهم التى يصلون إليها، وذخيرتهم فى الآخرة التى يعولون عليها[٣].

على أننا إذا رجعنا إلى الكتب التى خلفها هذا الشيخ المتصوف، أو التعاليم الدينية التى نشرها تلامذته، وقابلناها بمعتقدات اليزيدية لم نجد بينها علاقة خاصة تسترعى الانتباه، فشخصية الشيخ عادى وعلاقته بعدى بن مسافر غامضة جدًا، ومع ذلك فإن اليزيدية يقدسون ذكره ويحجون لقبره فى الشيخان، حيث يدور قسم كبير من حياتهم الدينية والقومية[٤].

(١) راجع ذيل الملل والنحل: ص٣٦.
(٢) يقع قضاء الشيخان فى العراق -شمالى شرق الموصل- وتتواجد فيه أهم مقدسات اليزيدية ومراكز تجمعاتهم.
(٣) تاريخ ابن خلكان.
(٤) ذيل الملل والنحل: ص٣٧.

٣. ومن الشخصيات المقدسة عندهم شخصية منصور الحلاج، والشيخ عبد القادر الجيلانى والحسن البصرى، والشيخ المنسوب إلى الحسن البصرى الذى يقوم بخدمة ضريح عادى، وله الفتوى ولا يمضى شىء إلا بعد موافقته. اليزيدية لا يأكلون الخس فهو محرم على كل يزيدى، بل إنهم لا يقربون من الأرض التى يزرع بها، ولا يأكلون لحم الغزال، لزعمهم أن عيونه تشبه عيون الشيخ عادى.

٤. ويقولون أن الصلاة بالقلب وبالسر[1] لذلك لا يحددون مواعيد وفرائض للصلاة، ولم يضعوا لها نظامًا معينًا، ويحللون شرب الخمر[2].

٥. ويؤمن اليزيدية بالتناسخ والحلول، ولهم كتابان مقدسان، أحدهما اسمه الجلوة فيه وعد ووعيد وترغيب وترهيب. والثانى اسمه مصحف رش أى الكتاب الأسود، وفيه قصة خلق العالم، وعقائد اليزيدية وما حُلِّلَ لهم وما حُرِّمَ عليهم، وإليك بعض ما جاء فيه: ولازم على كل يزيدى فى كل صباح أن يقوم أمام الرب، وأن يسجد بعض الأوقات قدام ربه لطلوع الشمس ويدعو قائلًا: آمين. الله يبارك الدين. يا الله يا دائم يا غفور يا موجود، يا فتاح، يا رازق، يا مدبر الكون، يا ساتر، يا أمدين، يا شمس الدين، يا فخر الدين... يارب أنت تبارك الدين، يا ربى علا شأنك، علا مكانك، علا سلطانك، علا عظمتك، أدعو وأسجد، أنت كريمى، أنت دوامى، أنت موجود، أنت معبود..اهـ.

٦. ولهم أعياد ومواسم كثيرة يقيمون فيها الاحتفالات، وينحرون الذبائح

---

(١) أما الصيام فلا يجوز صيام اليزيدى إلا فى موطنه، ولا يصح صيامه فى أى مكان آخر لأنه ينبغى عليه أن يذهب فى صباح يوم صيامه إلى شيخه ليعلن أمامه أنه صائم، وفى المساء يذهب إليه ليتناول الخمر المقدس من يده قبل الإفطار، وإن أهمل هذا فلا يقبل صيامه واعتبر كافرًا.

(٢) راجع ذيل الملل والنحل: ص٣٧ – ٣٨.

ويأكلون ويشربون الخمر ويرقصون ويغنون... نذكر منها: عيد الخضر إلياس، فى يوم الخميس -الأول من شهر شباط- ويصوم بعضهم ثلاثة أيام وبعضهم يومًا واحدًا.

وعيد القربان، وهو يقابل عيد الأضحى عند المسلمين ويسبقه بيومين، ويجب على كل يزيدى أن يذبح فى هذا اليوم ذبيحة. ويحتفلون بليلة القدر ولا ينامون فى خلالها بل يظلون ساهرين إلى الصباح، ويتبادلون الولائم ويزعمون أن الملائكة يحضرون تلك الليلة من السماء إلى الأرض، ويثبتون فى دفاتر الأرواح من يموت فى تلك السنة ومن يولد، ولا ينامون طوال اليوم التالى لهذه الليلة، وإنما كان سهرهم فى ليلة القدر إكرامًا لملك الموت، وعدم نومهم فى اليوم التالى لها إكرامًا لملك الشمس.

وكأن دينهم يحرم عليهم تلقى العلم، إلا أن رئيسهم -إسماعيل جول- قد ألغى هذا الحكم وأباح لهم دخول المدارس[1].

(باب ذكر الصوفية)[2]

الصوفية التي نبحثها هنا هي الصوفية التي خرجت عن الحق إلي الغلو متأثرة بشتى الأفكار المنحرفة التي هي في الواقع أفكار بدعية طرأت على المسلمين في غياب الوعي الإسلامي وبروز الجهل وعلماء السوء المغرمين بالخرافات وحب الزعامة وهي ذات مفاهيم خاطئة مضطربة تأثرت بمسالك منحرفة وبالغت فيها إلى حد الهوس والاضطراب الفكري الشنيع وكأن حافظ إبراهيم حينما ندب اللغة

---

(١) المرجع السابق: ص٣٩ - ٤٠ باختصار.

(٢) هذا الباب مستفاد من فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها.

العربية بقوله:@@

فجاءت كثوبٍ ضم سبعين رقعة *** مُشَكَّلَةَ الألوان مختلفات

كأنه عنى المذهب الصوفي في انحرافه وتنوع مصادره وتلفيق أفكاره من شتي المذاهب ولقد جرأ أصحاب هذه الطريقة الصوفية على القول على الله بغير علم كما كذبوا وأكثروا على رسوله ﷺ لتقوية مبادئهم الكثيرة وتأييدها وبالغوا في الكذب وزخرف القول وتفننوا في الطرق والآراء حتى ليخيلوا للشخص أنهم على شيء وهم في فراغ وجهل شديد.

وطرقوا مسائل ليست من الإسلام في شيء ولم يقل بها أحد من المسلمين وأظهروا بزخرفهم أنها من الإسلام بما قدموه من تقليب الأدلة وإثارة الشبهة والتفنن في الاستدلال والجواب، وقالوا بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ووحدة الشهود، والكشف والقطب والغوث، وغير ذلك من الأمور التي طرقها كبار دعاتهم، مثل: الحلاج وابن عربي وابن الفارض والبسطامي والجيلي، وغيرهم ممن لبس عليهم إبليس فقالوا بوجود الله تعالى في كل شيء، حتى صار في عرف غلاتهم أن من لا يعتقد اتصاف الخلق بأوصاف الخالق، لا يمكن أن يعد صوفيًا ووليًا من أولياء الله، كما ذكر الأستاذ إحسان إلهي ذلك عنهم[١].

وهكذا أصبح المذهب الصوفي بعد أن لبس إبليس على أتباعه خليطًا من شتى الأفكار والآراء المنحرفة، حيث يظهر فيه جليًا غلو الشيعة ومبادئ الباطنية وآراء المسيحية والهندوكية والبوذية، وغير ذلك من الديانات والفلسفيات القديمة كالأفلاطونية والأفلوطينية وسائر ما قال به علماء اليونان[٢].

---

(١) التصوف المنشأ والمصدر ص٦.

(٢) التصوف وتأثره بالنصرانية والفلسفات القديمة.

وقد قامت الدعوة للصوفية وإظهار شأنها من جديد في هذا العصر على نطاق واسع بسبب عوامل عدة:

منها: جهل كثير من المسلمين بحقيقة دينهم ثم الجهل بحقيقة الصوفية كذلك.

ومنها: مساعدة أعداء الإسلام على نشر الصوفية، لأنهم يعرفون المكاسب التي سيجنون ثمارها إذا علا سلطان الصوفية وفشا الجهل وانتشرت الخرافات الصوفية وخزعبلاتها وتأثروا بآرائها السلبية في مفهوم الجهاد في سبيل الله وفي مفهوم وحدة الأديان التابعة لمفهوم وحدة الوجود.

وأعداء الإسلام هنا فريقان

فريق عداوته ظاهرة: وهم المستعمرون ومن يبيتون النية لهدم الإسلام وتشتيت كلمة المسلمين، وقد استفاد هؤلاء من أفكار الصوفية كثيرًا حين نام المسلمون على دعوى الزهد والإقبال على الآخرة بغير بينة، والتمسح بصور الأولياء وطلب البركة والنصر منهم في حياتهم وبعد موتهم أيضًا، والعكوف على قبورهم.

وفريق آخر متلبسون باسم الدين ويحكمون كثيرًا من ديار المسلمين؛ وهؤلاء يساعدون الصوفية خوفًا من عودة الوعي الإسلامي السلفي الذي يصطدم مع ميول ورغبات هؤلاء وشهواتهم.

لأجل هذا ولغيره كان تنبيه طلاب العلم إلي خطر هذا المذهب الرديء واجبًا يحتمه النصح لكل مسلم يحب حماية نفسه ودينه، من الانزلاق في خضم الأفكار المبثوثة بين صفوف المسلمين، والتي كان من نتيجتها زيادة الكوارث والخبال الذي حل بديار المسلمين حين ابتعدوا عن المنهج الحق الذي شرعه الله لعباده.

ولقد فرح أعداء الإسلام بانتشار الصوفية التي مهدت لهم السبيل بدعوى الزهد والتقشف والابتعاد عن المظاهر وعن منازعة الحكام والرضا بأفعالهم؛ فعاش

المسلمون على هامش الحياة بعد أن خدرت الصوفية أعصابهم بترهاتها وخزعبلاتها التي تنافي العقل السليم والدين الإسلامي الحنيف في كثير من مبادئها وطقوسها المختلفة ونظرتها إلي الحياة.

الفصل الثاني: التعريف بالصوفية لغة واصطلاحًا

اختلفت كلمة العلماء حول التعريف الحقيقي للصوفية وللتصوف اختلافًا كثيرًا قلما يوجد له مثيل، وقد ذكر بعض العلماء أن تلك التعريفات قد تصل إلي الألفين، يقول محمد طاهر الحامدي: "الأقوال المأثورة في التصوف قيل: إنها زهاء ألفين"[(١)]، وقد نقل إحسان إلهي في كتابة "التصوف: المنشأ والمصدر" أقوالًا كثيرة عن أقطاب التصوف في تعريفهم ومفهومهم للتصوف[(٢)]، ولكن مهما قيل عن كثرتها واختلاف الناس فيها فإنها كلها لا طائل من ورائها عند التمعن في دراستها، مما يستدعي الحال غض النظر عن تلك التعريفات كلها، وإلقاء الضوء على الأقرب منها، وفيما يلي بيان ذلك.

في اللغة: يطلق علماء اللغة كلمة (صوف) في معاجم اللغة تحت مادة (صوف) على عدة معان، منها إطلاق كلمة صوف على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، ومنها صوفان وصوفانة وتطلق على بقلة زغباء قصيرة. وقد أطلقت كلمة "صوف" في بعض دلالتها بمعنى الميل، فيقال صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه، وصاف عن الشر أي عدل عنه[(٣)].

في الاصطلاح: يجب إدراك أن الصوفية مرت بمراحل وتطورات ومفاهيم

---

(١) انظر: التصوف المنشأ والمصدر ص٣٧.

(٢) انظر: ص٣٦ - ٤٨ (الفصل الثالث).

(٣) انظر: معاجم اللغة في مادة "صوف".

مختلفة، ومن هنا وقع كثير من الجدل بين العلماء في التعريف بالصوفية، ومهما قيل عن كثرة التعريفات للتصوف، فإنه يصدق عليه عمومًا أنه بدعة محدثة في الدين وطرائق ما أنزل الله بها من سلطان.

ونذكر فيما يلي بعض التعريفات التي أطلقت على مفهوم التصوف سواء، كانت من الصوفية أو من مخالفيهم، ومن ذلك ما يلي:

١- التصوف هو تجريد العمل لله تعالى، والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهرة، والميل إلى التواضع والخمول، وإماتة الشهوات في النفس.

وهذا التعريف قد لا يصدق في الواقع إلا على التصوف في عهده الأول، الذي كان التصوف فيه عبارة عن الانقطاع لعبادة الله وحده، والزهد في الدنيا والتخفف من متاعها والإقبال على الآخرة، دون أن يلبسوا ذلك بشيء من الأفكار والسلوك المشين الذي وصلت إليه الصوفية بعد ذلك.

٢- وذهب قسم كثير من العلماء إلى أن سبب التسمية للمتصوفة بهذا الاسم - أي "الصوفية" - إنما كان نسبة إلى لبسهم الصوف الذي عبر عن الزهد والتقشف وترك التنعم والملذات المباحة، وقد علق القشيري على هذا بقوله: "فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف".

٣- وبعض العلماء يرى أن التصوف مأخوذ عن الصفاء؛ أي صفاء أسرارهم أو صفاء قلوبهم أو صفاء معاملتهم لله تعالى، وهو ما يحب الصوفيون التسمي به، بل إن كل انتساب فيما لاحظ (نيكلسون) إلى الصوف يقابله اثنا عشر تعريفًا تعتمد على الصفاء، الذي حاول الصوفية أن ينتسبوا إليه. إلا أن القشيري قد استبعد هذا المفهوم في اللغة بقوله: "ومن قال أنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة".

٤- وبعضهم يرى أنه نسبة إلى الصفة التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضوان الله عليهم في المسجد، ويرى القشيري أن النسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي.

٥- وبعضهم يرى أنه نسبة إلى الصف الأول، قال القشيري: "فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف".

٦- وبعضهم يرى أنه نسبة إلى قبيلة بني صوفة وهى قبيلة بدوية كانت حول البيت في الجاهلية، وهى تنتسب إلى رجل يقال له صوفة كان قد انقطع للعبادة في المسجد الحرام.

٧- وبعضهم يرى أنها نسبة إلى الصفوة من خلق الله تعالى.

وهناك تعريفات كثيرة خاض فيها العلماء باجتهاداتهم بعضها من وضع أقطاب التصوف وبعضها من غيرهم لا يهمنا سردها هنا بالتفصيل والدراسة الشاملة لها كلها، إذ الغرض إنما هو التنبيه إلى ما وقع من اختلاف في التعريف بهم، ولما كانت تلك التعريفات أمورًا اجتهادية واستحسانات وتقريبًا لهذا المذهب، فإنك تجد أنه يرد عليها اعتراضات كثيرة، وفى بعضها أخطاء واضحة.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ردود على بعض تلك التعريفات، فقد ذكر أنه إذا كانت النسبة إلى أهل الصفة - وهو خطأ تاريخي كما سنبين - ذلك - فإنه يقال صُفِّي، وأما إذا كانت إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى فإنه يقال صَفِّي، وأما إذا كانت نسبة إلى الصفوة من خلق الله فإنه يقال صَفوِيٌّ، وأما إذا كانت النسبة إلى ذلك الرجل الجاهلي فإنه لا أحد من المتصوفة يرضى أن ينسب إلى قبيلة جاهلية قبل الإسلام، إضافة إلى أنه لم تعرف هذه التسمية بين الصحابة ولا كانت هذه القبيلة

مشهورة أيضًا[١].

وقد زعم كاتب نصراني هو "جورجي زيدان" "أن كلمة تصوف في العربية تعادلها كلمة "سوفيا" اليونانية والتي معناها الحكمة"[٢]، أي أن التصوف نسبة إلى الحكمة اليونانية، وهو زعم أبطله كثير من العلماء؛ وربما لأن التصوف إنما ظهر بعد الإسلام ولا يمنع هذا أن تتأثر الصوفية بعد ذلك بشتى التأثيرات بل هو الواقع، ولكن ليس بالمفهوم اليوناني الكامل.

هذا ونسبة التصوف إلى الصوف أقرب إلى الاشتقاق اللغوي كما أنه أقرب كذلك إلى ذوق الصوفية وحالهم في تمسكهم بلباس الصوف، وقد ذهب إلى تقرير هذا القول كثير من العلماء في نسبتهم لهذه الطائفة التي لم توجد في زمن النبى ﷺ ولا في زمن الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان؛ إذ لو وجدت في هذه الأزمنة وعرفها الناس وعرفوا مسالكها لاشتهرت تسميتها ولما حصل لبس أو خلاف في حقيقتها واتجاهاتها بين المتأخرين.

وقد رجح شيخ الإسلام فيما يظهر من كلامه أن التصوف نسبة إلى الصوف حيث قال: "وقيل - وهو المعروف -: أنه نسبة إلى لبس الصوف".

ثم علل ذلك بقوله: "فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار؛ ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية"[٣].

---

(١) الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ص ١٣ / ١٤.
(٢) انظر: الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص ٢٣.
(٣) الصوفية والفقراء ص١٥.

وأيد للسهروردي صحة القول بنسبة الصوفية إلى الصوف، وذكر أدلة كثيرة على فضائل لبس الصوف، وبالغ في مدح الصوفية حين اختاروا هذا الاسم بما يطول نقله.

ثم ذكر الأسماء الأخرى والتي منها نسبتهم إلى أهل الصفة من فقراء الصحابة المهاجرين ثم قال: "وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكن صحيح من حيث المعنى؛ لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك"[١]. وستأتي مناقشة هذا الإدعاء للسهرودى.

الفصل الثالث هل توجد علاقة بين المتصوفة وأهل الصفة

والواقع أن هذه القضية تعتبر من القضايا الساخنة خاض غمارها المتصوفة من جانب، وغير المتصوفة من الجانب الآخر حول الصلة بين الفريقين: الصوفية، وأهل الصفة.

فهل توجد فعلًا علاقة بين الصوفية وأهلا الصفة؟

الجواب: إنه بالرغم مما بذله المتصوفة من جدل وبحوث لتقريب التصوف إلى أهل الصفة فإن ذلك لم يجدهم شيئًا.

فهناك من المتصوفة كالمنوفي، والسهروردي، وغيرهما من كبار الصوفية من يزعم وجود تلك الصلة بين الفريقين، وأن أهل الصُفة هم سلف أهل التصوف، فالسهروردي يرى أن العلاقة بين المتصوفة وأهل الصفة تتمثل في حب الانفراد والعزلة عن الناس والشوق إلى الله تعالى، وأن هذه الفكرة هي الجامع بين الصوفية وأهل الصفة فيما يرى، وقد قال في إثبات ذلك:

"الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك[٢]، لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله

---

(١) انظر: عوارف المعارف ص٤٥ - ٤٩.

(٢) أي أهل الصفة.

وفي الله كأصحاب الصفة، وكانوا نحوًا من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديمًا وحديثًا في الزوايا والربط.."(١) إلى آخر كلامه.

وأما المنوفي فقد قال عنهم: "هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض الفانية وشغل أفئدتهم بالحياة الباقية.." إلى أن يقول: "استوطنوا الصفة فصفوا أنفسهم من الأكدار ونقوها من الأغيار، واعتصموا من حظوظ النفوس بالإيثار".

إلى أن قال: "وكان الظاهر من أحوالهم والمشهود من أخبارهم غلبة الفقر عليهم وإيثارهم القلة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم نوعان، ولا حضر لهم من الأطعمة لونان"(٢).

والحقيقة أن السهروردي وغيره من المتصوفة لم يستطيعوا أن يأتوا برباط واحد، أو بوجه شبه يعتبر قاسمًا مشتركًا صحيحًا مقبولًا بين حال أهل الصفة رضوان الله عليهم وبين المتصوفة، مع كثرة ما حاول هو وغيره وبشتى الأساليب أن يوجدوا تلك الصلة المزعومة، وأن يكون أولئك الصحابة الأفاضل هم الأساس لأقطاب التصوف والمثل الأول لهم.

مع محاولة بعضهم كذلك ربط حركة التصوف وما تحمل من حب العزلة والانفراد والخلوة بما وقع للرسول ﷺ، من تحبيب الخلوة إليه في غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد.

وقد فاتهم أن هذا لا يصلح أن يكون دليلًا لهم على ذلك؛ فإن أقل ما ينقصه هو

---

(١) عوارف المعارض ص٤٧.
(٢) جمهرة الأولياء ١ / ١٣١.

أن تلك الخلوة إنما كانت بعناية من الله له؛ ليستعد لحمل أعباء الرسالة فيما بعد، وقبل أن يكلف أيضًا بدعوة الناس وإقامة شعائر الدين، وأن الرسول ﷺ بمجرد أن اختاره الله لتبليغ الدعوة كان محط أنظار الناس في كل لحظة من لحظات عمره المبارك، وإلا فكيف انتشر الإسلام بعد ذلك ودخل الناس في دين الله أفواجًا لو بقى على تلك الخلوة وبمفهوم الصوفية أيضًا؟!.

والحق أن المتصوفة ليس لهم مستند في تعلقهم بأساس تصوفهم سواء كان ذلك التعلق بالصحابة من أهل الصفة، أو بالرسول ﷺ في خلوته في غار حراء، ومن زعم أن بدايات التصوف كان الرسول ﷺ أو أهل الصفة فلا شك في خطئه.

وإذا كان المتصوفة فيما يدعون يحبون الفقر والخرقة[1]، والانزواء في الزوايا والأربطة، فإن الثابت المتواتر أن أهل الصفة في مجملهم كانوا كثيرًا ما يشكون حالهم إلى رسول الله ﷺ على أمل أن يساعدهم على حياة طيبة في الدنيا تكون عونًا لهم إلى الآخرة، وقد أخبر الله عنهم أنهم يتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

وقد تحقق لمعظمهم بعد ذلك مال وافر، عملًا منهم بقول الله تعالى {وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، واجتمعت لبعضهم ألوان الأطعمة المباحة ولم يزهدوا عن الدنيا نهائيًا، لأنهم يعلمون أن ذلك لا ينافي الزهد، بينما معظم المتصوفة إنما يريد بإظهار ذلك الزهد وتلك الرهبانية الوصول إلى ما في أيدي الناس واستعباد أذهانهم وأفكارهم، لا زهدًا حقيقيًا عن الدنيا في أكثر أحوالهم؛ حيث وجد لبعضهم بعد موتهم مدخرات كثيرة مما يتنافى ودعوى الزهد؛ لأن الزهد الحقيقي هو ما كان عليه

---

(١) ذكر السهروردي للبس الخرقة حقوقًا لا يحتملها إلا من كان موفقًا غاية التوفيق، فيما يريد أن يوحى به السهروردي في عوارف المعارف ص٥٢.

الرسول ﷺ وأصحابه من بعده، فلا رهبانية ولا تواكل ولا تحريم لما أحله الله من الطيبات، ولا استحلال ما لم يرد به الشرع، وهذا هو الزهد لا إظهار الفقر والعوز كما يراه غلاة المتصوفة.

إن تلك الصلة بين الصوفية وأهل الصفة التي يزعمها السهروردي والمنوفي محض خيال؛ ذلك أن أهل الصفة ما كانوا يحبون الفقر ولا يحبون الانفراد والعزلة عن الناس، وكيف يحبون العزلة والانفراد وهم في أكثر أماكن تجمع الناس؟! وأيضًا أكان مكثهم في الصفة بمحض رغبتهم أم كانت حالة طارئة أملتها عليهم الظروف المعيشية؟.

ذلك أنه لا يخفى على طلاب العلم – أن أهل الصفة كانوا من الفقراء الذين لا يجدون مأوى غير المسجد، في الوقت الذي كانوا يبحثون فيه بكل جد من أجل الوصول إلى حال اليسار والغنى، خصوصًا وهم يتلون قول الله تعالى {وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، كما يسمعون قول المصطفى ﷺ "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير"(١). وقوله أيضًا: "اليد العليا خير من اليد السفلى"(٢).

فما كان أحدهم يحمل الزنبيل على ظهره ويطوف بالبيوت في طلب رزقه متكاسلًا عن العمل، متكلًا على ما في أيدي الناس أعطوه أم منعوه، كما هي حال كثير من المتصوفة بعد أن فسدت فطرهم واختلت مفاهيمهم.

حين صاروا كما مدحهم السهروردي بقوله:

"واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى، أسوة بأهل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٥/ ٥٢٠.
(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٣٧، ومسلم.

الصفة، تاركين للأسباب متبتلين إلى رب الأرباب"[١].

وأما زعم المنوفي أن الله اختار أهل الصفة ليكونوا كذلك وهم أيضًا قد اختاروا الفقر والمسكنة - فهو زعم باطل يكذبه الله في القرآن الكريم وتكذبه السنة النبوية والتاريخ. لقد كان من أهل الصفة أميرًا ومن أصبح غنيًا ذا ثراء كبير وفير، ومن أصبح قائد جيوش جرارة، وهم مع ذلك في قمة الزهد والخشوع لربهم.

الفصل الرابع: أسماء الصوفية وسبب تسميتهم بها

من أشهر الأسماء لهذه الطائفة اسم "الصوفية"، ولهم أسماء أخرى غير مشهورة علي ألسنة الناس، ومن تلك الأسماء التي أطلقت عليهم أو أطلقوها هم علي أنفسهم:

١- الصوفية: وهو الاسم المشهور الذي يشمل كل فرقهم، وهم يرضون به ويتمدحون بالانتساب إليه، وقد سبق تعليل هذه التسمية.

٢- أرباب الحقائق: لزعمهم أنهم وصلوا إلي حقائق الأمور وخفاياها بخلاف غيرهم من الناس الذين أطلقوا عليهم اسم "أهل الظاهر" و"أهل الرسوم"[٢].

٣- الفقراء: وهو اسم زعم السهروردي أن الله هو الذي سماهم به حيث قال: "وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر يقولون: قال الله تعالي: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ}، هذا وصف الصوفية، والله تعالي سماهم فقراء"[٣].

٤- ويسمون شكفتية في خرسان نسبة إلي الغار، قال السهروردي عن الصوفية في خرسان: "كان منهم طائفة بخرسان يأوون إلي الكهوف والمغارات، ولا يسكنون

(١) عوارف المعارف ص٤٩.
(٢) انظر الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص ٣١.
(٣) انظر: عوارف المعارف ص ٤٢.

القرى والمدن يسمونهم في خرسان شكفتية؛ لأن شكفت اسم الغار؛ ينسبونهم إلي المأوى والمستقر".

٥- جوعية: قال السهروردي: "وأهل الشام يسمونهم جوعية".

٦- الملامية أو الملامتية: وقد عنون المنوفي لها بقوله: "أهل الملامة والملامتية".

والملامتية هي إحدي تطور المذهب الصوفي ووساوسه المتشعبة وأمانيه البراقة، وهذه الملامة التي يعتنقها بعض الصوفية ويتظاهر بها هي في أحد مفاهيمها بعينه ، يدخل فيه الشخص من حيث يشعر أو لا يشعر ، بل وسموه النفاق المحمود، حين يأتى الصوفي بما يلام عليه لأجل أغراض سامية فيما يزعمون، ولكن متى كان النفاق محمودًا؟!

والملامتي حسب المفهوم الصوفي عرفه السهروردي بقوله عن بعضهم: "الملامتي هو الذي لا يظهر خيرًا ولا يضمر شرًا"، ثم قال: "وشرح هذا هو: أن الملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص وحقق بالصدق ، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله ولا يتم هذا الإخلاص إلا إذا أصبح يستوي عنده المدح والذم له من الناس، وألا يفكر في اقتضاء ثواب العمل في الآخرة".

ويعللون لهذا بأنه مع الناس في الظاهر، وهو مع الله في الباطن مهما كانت أفعاله في الظاهر. ومن هنا أبو سعيد الخراز: "رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين "

ومن شرح السهروردي هذا الكلام بقوله: "ومعني قوله: إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئًا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه؛ لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهاره الحال والعمل، وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى

ذلك ناقص العلم صورة رياء، وليس برياء إنما هو صريح العلم لله وبالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه.

والصحيح أنه التلاعب بعقول الناس والترويج للباطل بأبطل منه وقلب للحقائق، إذ كان الأولى أن يغلظ ذنب العارف لا أن يكون الرياء منه أفضل من غيره، ومتى كانت دعوة المصلحين تقوم علي أساس مداهنة الناس ومراءاتهم؟ ! وأيضًا كيف صح له أن يصف محض الرياء بأنه ليس رياء وإنما هو صريح العلم لله وبالله من غير حضور نفس؟!

فمن يقبل هذا الخداع ويتهم نظره وعقله، ويصدق بأن تلك الحال التي اعترت الصوفي إنما هي من أجل أن يجذب المريد أو يرد أن يذل نفسه، فمن أين يعلم الناس ذلك حتى يمكنهم أن يسموا الرياء عبادة لله؟؛ ولهذا فإن من الثابت عندهم أن كل ما يصدر عن الصوفي ينبغي أن يفسر بخير حتى وإن كان فعل الفواحش، فيجب الاعتقاد علي أنه لم يفعل ذلك إلا لحكمة جليلة، كما بين ذلك الشعراني في طبقاته وغيره من كبار الصوفية، في تراجمهم لسادتهم عتاة الصوفية. وفي هذا يقول الدباغ:

"إن غير الولي إذا انكشفت عورته نفرت منه الملائكة الكرام- والمراد بالعورة العورة الحسية، والعورة المعنوية التي تكون بذكر المجون وألفاظ السفه- وأما الولي فإنها لا تنفر منه إذا وقع له ذلك؛ لأنه إنما يفعله لغرض صحيح فيترك ستر عورته لما هو أولي منه"[1].

ويؤكد الفوتي ظان الواجب في حق المشائخ والأولياء- وهو كثير جدًا- منه:

١ -عدم الاعتراض علي الشيخ في أي شيء يفعله ولو كان ظاهره حرام.

---

(١) الإبريز ٢ / ٤٣.

٢-أن يكون المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل[١].

وشروط أخري يندى لها الجبين ويموت القلب حسرة لأولئك الذين أذلتهم الصوفية وملكت عليهم كل عرق ينبض بالحياء والحياة، وذكر علماء التصوف أمثلةً وأخبارًا كثيرة في وجوب التسليم والرضاء لكل ما يفعله الولي الصوفي مهما كان ذلك العمل، وهو ما قرره الفوتي وعلي حرازم والشعراني والمنوفي وأبو يزيد البسطامي والسهروردي وغيرهم من كبار الصوفية المجرمين في حق البشرية.

ومهما كان، فإن الملامتية في حقيقتها إنما هي إحدى مصايد الصوفية مهما زخرفوا القول فيها.

وقال ابن عربي عن هؤلاء الملامتية: "أنهم رجال قطعهم الله إليه وصانهم صيانة الغيرة عليهم؛ لئلا تمتد إليهم عين فتشغلهم عن الله. لقد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين[٢].

ويرى ابن عربي في فتوحاته المكية أن هذا الاسم أطلق عليهم؛ لأنهم أخفوا مكانتهم الشريفة في العامة، فكأن المكانة تلومهم حيث لم يظهروا عزتها وسلطانها[٣].

وقد شبههم المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء بأهل الكهف في فتوتهم وحالهم، حين قال في التعريف بهم: "الملامة نعت لإبدال أهل الفتوة، واسم الملامية أو الملامتية أطلق علي قوم يلومون أنفسهم مع حسن أحوالهم ونموها"، وقد استفاض المنوفي في الأمثلة للملامتية وحشر كثيرًا من الناس أمثلة للفتوة[٤].

---

(١) انظر: رماح حزب الرحيم ١/ ١٣٢.

(٢) هذا النص عن مقدمة رسالة الملامتية تحقيق د. أبو العلا العفيفي ص٢٠، وأما في الفتوحات المكية فإن النص يبدأ من قوله: "لقد انفردوا مع الله.." الخ ٣/ ٣٩.

(٣) الفتوحات المكية ٣/ ٤٠.

(٤) جمهرة الأولياء ١/ ١٢٢ - ١٣٠.

وقد قسم شيخ الإسلام الملامية إلي قسمين

ملامية يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود.

وملامية يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصرون على الملام في ذلك والصبر عليه، وهؤلاء هم أهل الملام المذموم.

قال: "وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك"(١).

وأشار العلامة ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسلك من مسالك هؤلاء الملامية، وهو: ارتكاب المعاصي بحجة عدم لفت الأنظار إلى صلاحهم - كما يتصورون - فقال

"وفى الصوفية قوم يسمون الملامتية اقتحموا الذنوب وقالوا: مقصودنا أن نسقط عن أعين الناس فنسلم من الجاه"، ثم قال معلقًا على هذا الزعم الباطل: "وهؤلاء قد أسقطوا جاههم عند الله لمخالفة الشرع"(٢).

الفصل الخامس: متى ظهر المذهب الصوفي

لقد تضاربت أقوال العلماء وتعددت مفاهيمهم حول الوقت الذي ظهرت فيه الصوفية، وكل أدلي بدلوه حسبما ترجح لديه، والواقع أنه لا يعرف بالتحديد الدقيق متى بدأ التصوف في المسلمين ولا من هو أول متصوف، وقد تقدم ذكر السبب في عدم اتفاق العلماء على تاريخ ظهور أي فرقة من الفرق بالتحديد الدقيق السالم من الاختلاف.

---

(١) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٦.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٦٣.

ونظرًا لكثرة تلك التحديدات لظهور الصوفية، وما تتطلبه من دراسة قد تأخذ حجمًا كبيرًا فقد رأيت أن أذكر الأقوال في بدء نشأتهم سردًا مجردًا عن الدراسة التفصيلية، فقد لا يتعلق بها غرض كبير بقدر ما يتعلق الغرض بذكر آرائهم وإبطال الخاطيء منها، وبيان بُعد بعضها عن الدين الإسلامي الحنيف، والتحذير من الاغترار بها وعدم الركون إلى زخرف القول فيها، لأنها من وحي الشياطين إلي أوليائهم، وفيما يلي ذكر تلك التحديدات من أقوال العلماء:

١- أن هذه التسمية عرفت قبل الإسلام مرادًا بها أصحاب الفضل والشرف.

٢- أن المذهب الصوفي ظهر ١٥٠ هـ.

٣- أن المذهب الصوفي ظهر ١٨٩ هـ.

٤- أن المذهب الصوفي ظهر بعد المائتين من الهجرة.

٥- أن المذهب الصوفي ظهر قبل المائتين من الهجرة.

٦- أن المذهب الصوفي ظهر بعد القرون الثلاثة الأولي أي في القرن الرابع الهجري.

٧- أنه اشتد بعد النصف الثاني من القرن الثامن والتاسع والعاشر حين ظهرت آلاف الطرق الصوفية.

٨- أن التصوف كان معروفًا في زمن النبي ﷺ كما قال الهجويري من علماء الصوفية، وهذا من أبطل الأقوال[1].

---

(١) انظر: كشف المحجوب للهجويري ص ٧٧٢، التصوف الإسلامي وتاريخه تأليف نيكلسون ترجمة (أبو العلا العفيفي) ص٣، دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٢٦٦، اللمع للطوسي ص٤٢، الرسالة القشيرية١/ ٣، عوارف المعارف للسهروردي ص٦٣، الصوفية والفقراء ص٥، وانظر: الفكر الإسلامي ص٣٣-٣٦ عبد الرحمن عبد الخالق، التصوف المنشأ والمصادر ص٤٠-٤٨ الفصل الرابع للشيخ إحسان إلهي، الصوفية =

والذي يظهر لي من بين هذه الاختلافات أن التصوف ظهر بعد الإسلام في شكل زهد ورغبة في الدار الآخرة، وكبح جماح النفس في حب الدنيا مهما أمكن، ثم صارت الأمور على هذا المفهوم، ثم لحقه ما يلحق غيره من سائر المبادئ والأفكار من حب التطوير وإدخال شتى المفاهيم بقصد تهذيب الفكرة وتقديمها في شكل متكامل، بغض النظر عن مطابقتها للحق أو مجانبتها له.

على أن أقطاب التصوف وهم يبنون هذا المسلك لم يوفقوا إلى الابتعاد عن شتى التيارات والأفكار المخالفة للإسلام والتأثر بها، وظهورها واضحة جلية في معتقداتهم وسائر سلوكهم، علي المستوى الفردي أو الجماعي، بعد أن تنوع الأساس الذي قام عليه المذهب في أوله.

وعلي كل ما ورد من الأقوال، فإن العلماء متظافرون على أن التصوف ليس له وجود في عهد النبي ﷺ علي الصحيح من أقوالهم؛ إذ من المحال أن يتشرف أحد من الصحابة بالانتساب إلي غير صحبة النبي ﷺ، وأن هذه التسمية حدثت بعد ذلك حين لبس إبليس على أولئك القوم وصاروا أحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون.

ومن هنا يذكر السهروردي ظهور الصوفية بقوله: "وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وقيل: كان في زمن التابعين... وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلي المائتين من الهجرة العربية؛ لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون الرجل صحابيًا لشرف صحبة رسول الله ﷺ"[1].

ويقول المنوفي: "ولم تطلق كلمة صوفية علي جماعة بعينها إلا في القرن الثاني

=

معتقدًا ومسلكًا ص٥٣ بعنوان "حول التصوف في التاريخ الإسلامي" د. صابر طعيمة.

(١) عوارف المعارف ص ٤٨.

للهجرة"[١].

ولكن يذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحديد بدء التكلم به بقوله:

"أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك"[٢].

وكذلك يذكر أيضًا أن التصوف أول ما أشتهر كان في البصرة، حتى قيل: فقه كوفي وعبادة بصرية، وأن الصوفية أول ما ظهرت من البصرة؛ لأن بعض هؤلاء كان إذا سمع القرآن يصعق وبعضهم يخر ميتًا كما حدث ذلك لغير الصوفية أيضًا، وقد حدث أن قاضي البصرة زرارة بن أوفى قرأ في صلاة الفجر: {فإذا نقر في الناقور}، فخر ميتًا. وقد أنكر الموجود من الصحابة في ذلك الوقت هذا السلوك ومقتوه أشد المقت، قال ابن تيمية: "ولم يكن في الصحابة من هذا حاله"[٣].

وقد تقدم في حديث العرباض بن سارية وصف حال الصحابة حين سماعهم للقرآن الكريم ولخطب النبي ﷺ، وهم أعرف الناس بالحق وأخشعهم لله، وأبعدهم عن مفتريات الصوفية وشركياتهم.

ولقد بين علماء السلف كل ذلك أكمل بيان، ولا زال علماء الحق أيضًا يجاهدون التصوف بأفكارهم وأقلامهم وإبطال الفكر الصوفي الباطني المتمثل في تقديس القبور والمزارات والأولياء، ودعوى علم الغيب وختم الولاية... إلي آخر أفكار الصوفية المنحرف منها. وكان لهؤلاء العلماء من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القرن الثامن، وتلاميذه: ابن القيم، وابن كثير، والحافظ الذهبي، والحافظ

---

(١) جمهرة الأولياء ١/ ٢٦٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٥.

(٣) الصوفية والفقراء ص ١٥-١٦.

المزي، وغيرهم من العلماء، وممن جاء بعدهم كالشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر- كان لعلماء الحق - من هؤلاء رحمهم الله وغيرهم - الباع الطويل في كسر شوكة التصوف وبيان انحراف المتصوفة عن الحق، وتخديرهم لأفكار المسلمين، وإذلال مشائخ التصوف لهم إلي حد العبودية، كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة للصوفية.

الفصل السادس: حقيقة التصوف

لقد مضي زمن رسول الله ﷺ وزمن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يعرف عنهم أي سلوك يتميزون به غير اتباع الكتاب والسنة والتشرف بنسبتهم إلي ذلك، غير ملتفتين إلي التنطع في سلوكهم أو مخترعين طرائق ورهبانية مبتدعة.

إلي أن أحدث أناس في الدين بدعة التصوف منحرفين عن المنهج السليم، وراحوا يتخبطون في دوائر وهمية وفرق عديدة وأحزاب متناحرة كل حزب بما لديهم فرحون.

وقد أخذ كل فريق من هؤلاء يعبر عن التصوف حسب ما يراه، ويطول سرد تلك المفاهيم والتعبيرات والأقوال التي صدرت عن أقطاب هؤلاء؛ كالجريري، والجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، ومحمد بن علي القصاب، ومعروف الكرخي، والسهروردي، والشبلي، والشاذلي، والتجاني، والبسطامي، وابن عربي، وابن الفارض وغيرهم.

ولهذا فإن العلماء لم يتفقوا علي بيان محدد لمفهوم التصوف عند الصوفيين؛ ذلك لإطلاق هؤلاء الصوفية عبارات شتى حسب ذوق كل فريق، وتخيلاته لمفهوم التصوف، إلا أن الحصيلة العامة لأقوالهم تلتقي حول أن التصوف هو: القرب من الله، وترك الاكتساب، والتمسك بالخلق الرفيع، والجود، ورفع التكاليف عن بعض

فضلائهم حين يتصلون بالله ﷻ علي حد زعمهم، ويصلون إلي درجة اليقين وظهور المكاشفات، ثم هم بعد ذلك درجات في تطبيق هذا المفهوم.

ولقد ذكر القشيري في "رسالته" عددًا من الآراء الصوفية في مفهوم التصوف والصوفي، حيث قال:

"وتكلم الناس في التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ فكل عبر بما وقع له، واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز، وسنذكر هنا بعض مقالاتهم فيه علي حد التلويح".

وإذا كان القشيري قد اعتذر عن إيراد كل ذلك لكثرته مكتفيًا بذكر بعض مقالاتهم، فإنني أنا كذلك أعتذر عن إيراد كل ما ذكره القشيري لكثرته أيضًا، وأذكر من ذلك ما نقله عن الجنيد أنه قال: "إذا رأيت الصوفي يعني لظاهره فاعلم أن باطنه خراب".

وقال القشيري: "سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سمعت أبا نصر السراج يقول: سئل ابن الجلاء: ما معني قولهم صوفي؟ فقال: ليس نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرف أن من كان فقيرًا مجردًا من الأسباب وكان مع الله تعالي بلا مكان، ولا يمنعه الحق سبحانه عن علم كل مكان، يسمى صوفيًا". ونقل عن أبي يعقوب المزابلي أنه قال: "التصوف حال تضمحل فيها معالم الإنسانية".

وقال القشيري أيضًا: "سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رَحِمَهُ اللهُ يقول: أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام قد كنس الله بأرواحهم المزابل[١]؛ ولهذا قال رحمة الله يومًا: "لو لم يكن للفقير إلا روح فعرضها علي كلاب هذا الباب لم ينظر كلب إليها".

---

(١) هكذا العبارة: أي لا قيمة لهم في نظر الناس.

وعن الأستاذ أبي سهل الصعلوكي أنه قال: "التصوف الإعراض عن الاعتراض".

قال القشيري: "ويقال: الصوفي المصطلم عنه[١]، بما لاح له من الحق"[٢].

وهناك أقوال أخري ذكرها القشيري كلها تدور حول مدح التصوف وبيان تعلقات الصوفية ومفاهيمهم حول المولي جل وعلا، وحول هذا الكون وواجبات الصوفي واهتماماته الدنيوية والأخروية، صيغت بزخرف من القول وإيغال في الخيال في بعضها، وحكم جيدة في البعض الآخر.

وأما السهروردي فقد أورد بابًا خاصًا في كتابه عوارف المعارف قال فيه: "الباب الخامس في ماهية التصوف"،

وقد أكد في هذا الباب علي أن أساس التصوف هو الفقر، حيث قال: "فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه"، ونقل أقوالًا كثيرة عن صفة هذا الفقر الصوفي، منها: ما قاله الشبلي حين سئل عن حقيقة الفقر فقال: "ألا يستغني بشيء دون الحق".

ونقل عن مظفر القرميسني أنه قال: "الفقير الذي لا يكون له إلي الله حاجة"[٣] ؟

وقال السهروردي: "وقيل: التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع" إلي آخر ما ذكر مما قدمناه ذكره عن القشيري، وقد أضاف أوصافًا أخري لا ضرورة لذكرها[٤].

وأما حقيقة التصوف وأصله عند غير الصوفية فقد اختلفت وجهة نظر العلماء في

(١) أي المستغرق عن نفسه.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢/ ٥٥-٥٧.

(٣) أي لانشغاله بطاعة الله عن طلبه له حسب التفسير الصوفي.

(٤) انظر: عوارف المعارف ص ٤٠-٤٤.

الحكم عليه.

وأهم ما قيل في ذلك: أن التصوف علي الإطلاق أساسه الإسلام وأن أصوله العقدية وسلوكهم فيه مستمدة من نصوص الكتاب والسنة، وما أدي إليه الاجتهاد في فهمها.

وهذا القول قريب من وجهة نظر الصوفية ومفهومهم فيه رغم اعتراف بعضهم بتأثر التصوف ببعض التيارات الفكرية الخارجية عن الإسلام.

أن التصوف علي الاطلاق ليس إسلامي النشأة، وإنما وفد علي البيئة الإسلامية مع ما وفد من عادات وتقاليد الأجناس الأخرى بعدما امتزجت واختلطت عقب الفتح الإسلامي[١].

وعلى هذا الرأي بعض الملاحظات، فقد ينطبق هذا الرأي علي ذلك النوع من التصوف، الذي قام على أساس من الغلو والانحراف الذي جاء به أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد، مع تظاهرهم بالانتساب إلى الإسلام وتقديسهم لنبي الإسلام محمد ﷺ، ولعل سبب هذا القول إنما يعود إلي الواقع الذي اشتمل عليه مفهوم التصوف.

وقد يبدوا للناظر أنه يوجد لكل من القولين السابقين ما يبررهما في العقائد الصوفية، وأهل هذا القول يرجعون نشأة التصوف إلي أنه فارسي أو هندي أو يوناني أو مسيحي أو أنه مزيج من هذا كله، وعلي رأس هذا الفريق كثير من المستشرقين ومن غيرهم أيضًا.

ومما نكتفي بالإشارة إليه هنا بغض النظر عن ترجيح نشأة التصوف وحقيقته أن الطريقة الصوفية قد تأثرت كثيرًا بالآراء والأفكار المخالفة للإسلام، حيث تظهر فيها

---

(١) انظر لمزيد التفصيل: الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص ٤٧ - ٤٨.

تلك الأفكار واضحة جلية في جوانب كثيرة في الاعتقاد والسلوك، خصوصًا الأفكار الهندية والفارسية واليونانية والمسيحية، كما سيتضح ذلك من دراستنا لهذه الطائفة، بعد أن كان التصوف في بدء أمره عند بعض المسلمين عبارة عن الزهد عن الدنيا والرغبة في الآخرة، وقتل هوى النفس والاتجاه إلي الله، ولبس الصوف لتعويد النفس علي التحمل والمكابدة، إلي أن أخذ يتطور في الانحدار والبعد عن حقيقة الإسلام في كثير من الأمور التي طرقها التصوف؛ فأصبح مذمومًا نفر عنه أهل الحق لخلط المتصوفة بين الزهد والتصوف المغالي.

إذ الزهد المشروع لم يذمه أحد، وتوجه الذم إلي التصوف رغم تظاهر المتصوفة بالزهد، حتى صار أطيب الطعام عندهم ما كان عن ذل السؤال وحمل الزنبيل والتسول والانزواء في أماكن عبادتهم، وانتظار ما يجود به الناس عليهم، ويظنون أنهم يحققون بذلك التوكل الذي يريده الله، وهم في الحقيقة إنما يحققون التواكل والكسل البغيض عن طلب الرزق وإعزاز النفس، إضافة إلي الابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وما يهدف إليه، من إيجاد اليقين بعزة النفس وكرماتها في الدنيا والآخرة.

ومهما قيل عن حقيقة التصوف فإننا سندرس أهم الآراء الصوفية بتفصيل يتضح به الحكم علي الصوفية بصورة جلية من واقع كلامهم وسلوكهم إن شاء الله تعالى.

الفصل السابع: أقسام المتصوفة وذكر طرقهم واختيار الطريقة التجانية نموذجًا ودراستها شاملة من واقع كتبهم

الصوفيون طوائف عديدة وأهواء متباينة، شأن كل أصحاب البدع حين يتركون المنهج الذي شرعه الله لعباده.

ولقد اختلف العلماء في عدهم لأقسام وطرق التصوف اختلافًا واسعًا؛ إذ تجد

بعضهم يعدهم قسمين، وبعضهم يعدهم ثلاثة أقسام، وبعضهم يوصلهم إلى ستة أقسام.

وهذا الاختلاف سببه تنوع مصادر الصوفية وتنوع أفكارهم، فبعض الصوفية تابعون للمذهب الإشراقى، الذي يدعي أن المعرفة والعلم تقذف في النفس بسبب طول المجاهدة الروحية، إذ يحصل لها بذلك فيض وإشراق إلهي، ومذهبهم أشبه ما يكون بالمذهب البوذي في رياضة النفس وحملها على المكاره. هذا قسم من الصوفية.

وقسم آخر بعض العلماء يعبر عنهم بصوفية الحقائق، وهم من صفوا من الكدر وامتلئوا من الفكر كما يدعون، على طريقة الفلسفة الهندية.

وقسم آخر من الصوفية قائلون بالحلول؛ أي دعوى أن الله – تعالى عن قولهم – حل في مخلوقاته وأن أرواحهم لاهوتية وأجسامهم ناسوتية.

ومن أكابر أهل هذا المذهب الرديء الحلاج، حين قال في تفسير هذا الحلول:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدأ في خلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

وصوفية وحدة الوجود هم القائلون بأن الموجودات كلها تمثل الباري ﷻ، وفى أولهم ابن عربي وهو من المؤسسين لمذهب وحدة الوجود، يقول في تقرير ذلك في كتابه الفتوحات المكية:

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب فأنّى يكلف

وقد قسم شيخ الإسلام الصوفية إلى ثلاثة أقسام هم:

١ - صوفية الحقائق... ٢ - صوفية الأرزاق... ٣-صوفية الرسم

وقال عن القسم الأول: "فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم".

ولعله يقصد بذلك ما قدم من ذكر خلاف الناس في الحكم على الصوفية والتصوف حيث قال: "ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة... "، قال: وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء". ثم قال في بيان حكمه عليهم بعد ذكر هذا الخلاف: "وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله تعالى كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله.." إلى آخر ما ذكره عنهم.

ولعل هذا الحكم منه إنما ينطبق على التصوف في بدء أمره حينما كان بمعنى الزهد والاجتهاد في العبادة.

ثم قال عن القسم الثاني منهم: "وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز، وأكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط" ثم ذكرها، وهي: وجود العدالة الشرعية فيهم، والتأدب بآداب الشرع، وألا يكون متمسكًا بفضول الدنيا.

ثم قال عن القسم الثالث منهم: "وأما صوفية الرسم فهمهم المقتصرون على النسبة، فهمُّم في اللباس والآداب الوصفية ونحو ذلك"[1]، أي أنهم يتشبهون بالصوفية في الظاهر ويعرفون أقوالهم، ولكنهم خارجون عن طريقهم همهم جمع الأموال والاحتيال على الجهال بأمرهم.

---

(١) الصوفية والفقراء ص٣٣.

وهذا التقسيم واضح جلي، إلا أنه ليس فيه توضيح وبيان لمدى ما وصلت إليه العقيدة الصوفية فيما بعد، ومدى تأثرها بالينابيع والمصادر الخارجة عن الإسلام.

لقد أصبح من الصعب جدًا تمييز طوائف التصوف أو الحكم عليهم بحكم واحد شامل لجميع فرقهم وعقائدهم المتشعبة؛ إذ لا يمكن معرفة كل قسم من أقسام التصوف قائما بنفسه متميزًا عن غيره إلا من خلال "الطرق" الكثيرة، والتي هي تعبير عن التزام مجموعة من الأتباع أو المريدين بشيخ يجعلونه قدوتهم، وينفذون ما يوجبه عليهم من أذكار وسلوك، وقد تتفق طريقته مع بعض الطرق وقد تختلف عنها، والطرق الصوفية لم تقف عند حد أو مفهوم، فهي دائمًا في ازدياد وتجدد؛ إذ كل من ابتدع طريقًا، وجد له أتباعًا يتسمون باسمه أو باسم طريقته.

وقد ذكر الشيخ أبو علي حسن بن علي العجمي الحنفي طرق الصوفية، فعد منها أربعين طريقًا في رسالة له، وقد لخصها الشيخ أبو سالم العياشي في رحلته، وقد أوصلها غيرهم إلى أكثر من ذلك.

"والحق أن الطرق الصوفية كثيرة جدًا بحيث يصعب حصرها؛ إذ كل من عنّ له أن يبتدع طريقا فعل، وسماها باسمه واسم قبيلته أو عشيرته، وهذا مشاهد بكثرة في أفريقيا؛ إذ بين فترة وأخرى تخرج طريقة جديدة تحمل اسمًا جديدًا ولها أوضاع معينة وأوراد مقررة".

وذكر الدكتور صابر طعيمة ما مجموعة ٦٦ طريقة وقال: "وأما الطرق الصوفية الحديثة فمن العسير تسجيل أسماء معظمها في كتاب، ويكفى أنه في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري قد بلغ عدد الطرق الصوفية في بلد واحد أكثر من مائة طريق".

ثم أخذ بعد منها ٥٢ طريقة نقلًا عن المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء، الذي ذكر

فيه قسمًا كبيرًا من طرقهم تحت عنوان "هذا بيان بشيوخ الطرق الصوفية في عصرنا".

وكل الطرق الصوفية ناتجة عن الهوى ونابعة منه ومبنية على الرغبة في الزعامة والعلو في الأرض واستعباد الناس، وصار زعماء الصوفية في مجموعهم يحرصون حرصًا شديدًا على هذه الزعامة الروحية، ووصل بهم الحرص عليها أن جعلوها وراثية وكأنها جزء من المال الذي يخلفه الميت على حد ما أورده محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني، فإنه قال بعد سرده الطويل لطرق الصوفية وأسماء مشائخها قال بعدها: "وكل هذه الطرق تنسب كل واحدة لولي من الأولياء ﵃، وقد يرثها حفيد أو سبط لولي من أولئك الأولياء فيكرمه الله سبحانه وتعالى بكرامة آبائه وأجداده الصالحين، فإن سار على دربهم أكرمه الله مثل ما أكرمهم، وإن فرط أو قصر أكرمه الله لأجلهم".

وهذا جهل شنيع وكذب من أشد أنواع الكذب، فإن هذه المحاباه التي افترضوها على الله تعالى إنما هي من جنس الهوس والأماني الباطلة والقرآن مملوء بالرد على مثل هذه الافتراءات، والسنة كذلك ترد مثل هذه الأفكار الجاهلية، فالقرآن يصرح بأن {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، وأن كل نفس {لَهَا ما كَسَبَتْ وعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}. وأن صلاح الآباء - إن كانوا صالحين بحق - لا يغني عن الأبناء إن لم يكونوا كذلك.

وقد صرح الرسول ﷺ لقرابته أنه لا يملك لهم من الله شيئًا، وأن عليهم ألا يتكلوا على الأنساب، بل عليهم أن يحذروا الله ﷿ وأن يتقربوا إليه بالأعمال الصالحة؛ إذ لو كانت الأنساب تغني لما هلك والد إبراهيم وابن نوح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، وهذا رد صريح على ما يزعمه الصوفيون من التقرب إلى الله بولاية القطب الفلاني أو الغوث الفلاني، وأن الله يفيض حتى على العصاة منهم إكرامًا لآبائهم، وإن الذي جرأهم على هذا هو قلة خوفهم من الله تعالى،

واستحلالهم الكذب في سبيل مدح أوليائهم بالحق وبالباطل.

وقد قال عبد الرحمن عبد الخالق في بيان تاريخ نشأة الطرق الصوفية ونظامها الوراثي: "وقد قيل: إن أول صوفي وضع نظام الصوفية هو الصوفي الإيراني محمد أحمد المهيمي المتوفي سنة ٤٣٠هـ، والمعروف باسم أبي سعيد، فقد أقام في بلدته نظامًا للدراويش، وأقام بناءً للصوفية بجوار منزله، وسن نظام تسلسل الطرق عن طريق الوراثة، وبين كثيرًا من أمور التربية الصوفية؛ بل هو من أوائل من كتب في طريقه التربية الصوفية، وهو أكبر من عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية".

ومن طرق الصوفية الكثيرة

الطريقة التجانية

وسندرسها بالتفصيل كمثال للطرق الصوفية التي تعتم واجهة الإسلام المشرقة لدى كثير من جهلاء المسلمين الذين جرفهم تيار التجانية وأذلتهم واستعبدتهم وأوصلتهم إلى مآس يندى لها الجبين.

ولقد وقفت بنفسي على بعض ما يتعبد به التجانيون من طاعة مشائخهم، وإحياء خرافاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان وشدة تعصبهم لها، ونفورهم عن كل من يريد أن يسدي لهم النصيحة خروجًا عن كتمان الحق.

وهذه الطريقة التي لها الأمر والنهي في أقطار كثيرة من بلاد أفريقيا بخصوصها، وهي نسبة إلى شخص يسمى أحمد بن محمد بن مختار التجاني. ولد سنة ١١٥٠هـ، بقرية عين ماضي، وينسب إلى بلدة تسمى "بني تجين" من قرى البربر، ولم يترك فضلًا مزعومًا ادعاه شيخ صوفي لنفسه إلا وادعاه هو لنفسه وزاد عليه، ولقد ادعى أمورًا كثيرة يطول الحديث لو بسطت، وإنما نشير إليها إجمالًا فيما يأتي:

١ - ادعى أنه خاتم الأولياء جميعًا وهي دعوى كاذبة مبنية على فهم خاطئ وقياس باطل، فزعم أن الولاية لها ختم كختم النبوة ومحمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، والتيجاني خاتم الأولياء فلا ولي بعده.

٢ - أنه الغوث الأكبر في حياته وبعد مماته وقد جعل نفسه بهذه الدعوى وثنًا يعبد من دون الله.

٣- أن أرواح الأولياء منذ آدم إلى وقت ظهوره، لا يأتيها الفتح والعلم الرباني إلا بواسطته هو، وهذا نهاية الحمق والقول على الله بغير علم، والاستهانة بعقول الناس وخداعهم.

٤ - زعم متطاولًا أن قدمه على رقبة كل ولي لله تعالى منذ أن خلق آدم إلى النفخ في الصور، وربما يجازى بهذا الكبر أن يحشر في صورة الذرة كما هو جزاء المتكبرين.

٥ - أنه هو أول من يدخل الجنة هو وأصحابه وأتباعهم، وصدق عليهم قول الله: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}.

٦- أن الله شفعة في جميع الناس الذين يعيشون في قرنه الذي عاش فيه.

٧- أن الرسول ﷺ أعطاه ذكرًا يسمى "صلاة الفاتح" يفضل كل ذكر قرئ في الأرض ستين ألف مرة بما في ذلك القرآن الكريم، والذكر المزعوم هنا - صلاة الفاتح - ذكر مبتدع سيئ التركيب ركيك العبارة، وهو لا يعدو ثلاثة أسطر وهو:

"اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله، حق قدره ومقداره العظيم".

هذا هو الذكر الهائل عنده الذي ألهمه الله حسب زعمه، أو علّمَه، به النبي ﷺ يقظة لا منامًا ثم فضله على كل ذكر.

ولقد رأيت أتباعه وهم يجلسون في يوم الجمعة - من بعد صلاة العصر إلى

المغرب - وهم يرددون هذا الكلام بصوت جماعي ومرتفع جدًا يسمع من مكان بعيد، ثم ينصرفون وهم لا يشكون في أنهم من أعظم الخلق عبادةً وأجرًا عند الله، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

فما الجديد في هذا الذكر؟، وما معنى تلك الكلمات الجوفاء وذلك التركيب المفكك؟. الواقع أنه ليس فيها ما يستحق ذلك الأجر العظيم الذي لا يعده الحاسبون، حسب ما قدروه لصلاة الفاتح، ومع ذلك فهو يزعم أنه تلقاه عن الله وعن رسوله محمد ﷺ. والقرآن الكريم مملوء بالأدعية الشرعية النافعة الفاضلة، وكتب الحديث مملوءة بالأذكار النبوية الصحيحة التي يؤجر صاحبها على قولها، وتجاب دعوته إذا اشتملت على أنواع التوحيد، بأحسن الألفاظ وأشمل المعاني ممن أوتى جوامع الكلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ثم لم يقف التجاني عند هذا الحد في غلوه في تقدير نفسه وفى تقدير ما جاء به من خرافات وأذكار في صلاة الفاتح المزعومة أنها من الله تعالى، وأن لها ذلك الفضل الذي لا يصفه الواصفون وفى غيرها من الأذكار الأخرى، بل زعم أيضًا أن أتباعه لا تكتب عليهم سيئات ما عملوا، بل يدخلون الجنة مهما عصوا وبغير حساب ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، بضمانة رسول الله ﷺ له كما زعم لنفسه.

وهذا الهوس هو من جنس هوس اليهود، الذين زعموا أن الله لا يعذبهم إلا أيامًا معدودة إن عذبهم؛ لأنهم شعب الله المختار، كما يعتقدون ويتشدقون بالتمدح بذلك في التلمود وفي غيره من كتبهم المقدسة عندهم.

ثم يدعي التجانيون كرامات لم يقل بها حتى أفضل الرسل محمد ﷺ، ومنها: أن من رأى التجاني يومي الاثنين والجمعة، فإنه يكون من أهل الجنة إكرامًا للتجاني، حتى وإن كان الرائي كافرًا؛ لأنه لا يتمكن من رؤية التجاني في هذين اليومين إلا من

سبقت له السعادة في علم الله تعالى، كما قرره علي حرازم والفوتى.

وهذه الدعوى لهذا الضال من غرائب الأمور، ولو كانت له ولأتباعه أفهام لعلموا أن الرسول ﷺ وهو أفضل البشر لم يقل ذلك وأنه كان يراه المؤمن والكافر في كل أيامه ويبقى المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا إلى أن يؤمن، ولم يقل ﷺ بما قاله التجاني المذكور.

ومن خرافات التجاني زعمه أنه يرى الرسول ﷺ في كل وقت يشاء، وأن الرسول ﷺ يجالسهم ويحضر سمرهم ولهوهم، ويلقي عليهم أذكارهم وأدعيتهم الشركية والخرافية حسب ما يفترون.

ولقد صرف التجانيون الناس عن الهدى والطريق الصحيح، وملئوا أذهانهم بشركيات وخرافات لا تمت إلى الدين الإسلامي بأي علاقة، وجنوا على عقائد المسلمين بما ألقوه في قلوبهم من الرجوع إلى الوثنية والخرافات الجاهلية والتعلق بغير الله تعالى، وصرف أنظارهم عن واقعهم المتردي من حيث لا يشعر هؤلاء الأتباع.

ولقد انتشرت هذه الطريقة الضالة في شمال ووسط وغرب أفريقيا، وضمت تحت لوائها ملايين كثيرة من أبناء المسلمين، الذين أصبحوا لاهم لأحدهم إلا أن يأخذ بطريقة شيخه، ليضمن دخول الجنة بغض النظر عن العمل وصحبته.

ثم جاء من بني على هذا الواقع الفاسد وزعم أنه صاحب الفيض التجاني الذي بشر به التجاني، وأن أتباعه هو الآخر يدخلون الجنة جميعًا بغير حساب ولا عقاب، ولو كانوا على أي ملة قبل ذلك، ومن هؤلاء الذين ادعوا هذا الفيض المزعوم الحاج إبراهيم السنغالي، والذى كان له شأن عظيم وحركة قوية، وبسط دعوته تلك في أصقاع واسعة من القارة الأفريقية.

وإلى جانب الطريقة التجانية طرق كثيرة - كما ذكرنا من قبل - يحتاج بيانها إلى عدة صفحات، وهى في جملتها لا تخرج عن هوس وتخبطات التجانية.

وقد استحسنت هنا ذكر بعض الأمثلة من كتب الصوفية التجانية، تمثل أنواعًا من الآراء والمفاهيم التي يحرصون عليها، دون مبالاة بما فيها من الغلو والانحراف.

وقد وقع اختياري على قراءة وتمحيص ما في جواهر المعاني تأليف علي حرازم، ورماح حزب الرحيم تأليف الفوتي، وكتيب الهداية الربانية في فقه الطريقة التجانية؛ حيث أضع العنوان المناسب ثم أنقل تحته ما يدل عليه من كلام علماء التجانية.

وأوضح ما يميز الانحراف في كتب التجانية، هو الغلو الفاحش في أئمة الصوفية والتجاني وغيره، ومدحهم بما لا يليق إلا بالله العظيم، من علمهم المغيبات وأنواع العلوم والمعارف التي لا يدركها إلا الله ﷻ، وبالتالي ذكر مدائح لهم، وهي في الحقيقة ذم ما بعده ذم، تدل دلالة صريحة على بعد أولئك ومجونهم واستهتارهم بعقول الناس.

قال علي حرازم في كتابه جواهر المعاني عن السيد أحمد بن محمد بالفتح جد أحمد التيجاني:

"وقد حكي عنه رضي الله عنه أنه كان له بيت في داره لم يدخله أحد غيره، وكان إذا خرج من داره للمسجد يتبرقع ولا يرى أحد وجهه ولا يكشف عن وجهه ألا إذا دخل المسجد، ثم إذا رجع إلى داره عاد إلى ستر وجهه حتى يدخل لخلوته، وقد سألت الشيخ رضي الله عنه عن سبب ستر وجهه عن الناس فأجاب رضي الله عنه قال: لعله بلغ مرتبة في الولاية، فإن من بلغها يصير كل من رأى وجهه لا يقدر على مفارقته طرفة عين، وإن فارقة أو احتجب عنه مات لحينه".

نسب التجاني: ويقول عن نسب التجاني حين سأل الرسول ﷺ يقظة لا منامًا كما

يزعم دائمًا: "ولم يكتف بما هو مذكور من الآباء والأجداد والرسوم وإخبار الأعيان والآحاد، حتى سأل سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ في كل نفس مشهود، عن نسبه، وهل هو من الأبناء والأولاد ومن الآل والأحفاد، فأجابه ﷺ بقوله: أنت ولدي حقًا أنت ولدي حقا أنت ولدي حقا، كررها ﷺ ثلاثًا، وقال له ﷺ: نسبك إلى الحسن بن علي صحيح".

التجاني يرى الأنبياء كلهم: أورد علي حرازم عدة روايات تثبت رؤية التجاني للرسول محمدًا ﷺ وسؤاله عن أحكام كثيرة في الفقه وعن الجمع بين بعض الأحاديث التي ظاهرها التعارض، وكان النبي ﷺ يجيبه عن كل سؤال بغاية التلطف، ثم التقى بموسى وسأله كذلك عن بعض الأسئلة وأجابه عنها ثم قال علي حرازم: "فانظر رحمك الله أحوال هذا الشيخ مع صفوة الله من خلقة".

المشابهة بين التجاني حال سكره وبين النبي ﷺ حال تلقيه الوحي:

يقول علي حرازم: "لا يزال تظهر عليه الغيبة في حال ظهور صحوه فضلًا عن حال ظهور سكره.. وكذلك يظهر عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من آثار جذبه وقوة حاله أمور أخرى، كعظم جثته، وامتلاء بدنه، وتهلل وجهه، وثقل الأمر عليه حتى لا يستطيع حركة". ونتذكر هنا ما كان يقع للنبي ﷺ عند نزول الوحي وتلقي الأمر الإلهي.

التجاني يعلم الغيب لكل أمر مهما كانت دقته ويعلم ما في قلوب أصحابه:

يقول في هذا: "ومن كماله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفوذ بصيرته الربانية... من إظهار مضمرات وإخبار بمغيبات وعلم بعواقب الحاجات... فيعرف أحوال قلوب الأصحاب... ويعرف ما هم عليه ظاهرًا وباطنًا وما زاد وما نقص".

الاسم الأعظم وموقف التجاني منه

قال علي حرازم: "قال سيدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أعطيت اسم الله العظيم الأعظم صيغًا

عديدة، وعلمنى كيفية أستخرج بها ما أحببت من تراكيبه"، ثم أعطاه أيضًا الاسم الخاص بعلي ﵁ فقال: "قال لي سيد الوجود ﷺ: وهذا الاسم الخاص بسيدنا علي، لا يعطى إلا لمن سبق عند الله في الأزل أنه يصير قطبًا"

وفى هذا الكلام الذي لا عقل له أمور:

١- ما هو الاسم الخاص بعلي غير علي بن أبى طالب؟

٢- كيف يقول الرسول ﷺ لعلي " سيدنا علي" كما هو ظاهر النص؟

وأما بالنسبة لثواب الاسم الذي أعطيه التجاني، فأقله ما يذكره علي حرازم بقوله: "قال الشيخ ﵁، حاكيًا ما أخبره به سيد الوجود ﷺ: فإنه يحصل لتاليه في كل مرة سبعون ألف مقام في الجنة، في كل مقام سبعون ألفًا من كل شيء في الجنة... وله في كل مقام سبعون حورًا، وسبعون نهرًا من العسل، وكلما خرج من فمه هبطت عليه أربعة من الملائكة المقربين، فكتبوه من فيه... وله في كل مرة ثواب جميع ما ذكر به الله على ألسنة جميع خلقه في سائر عالمه، وله في كل مرة ثواب ما سبح به ربنا على لسان كل مخلوق، من أول خلق العالم إلى آخره، وله ثواب صلاة الفاتح لما أغلق بتمامها، ستة آلاف مرة لكل مرة منه، وله ثواب سورة الفاتحة، وله ثواب من قرأ القرآن كله، أعنى بكل مرة أجر ختمة.

وله في كل مرة من تلاوته ثواب كل دعاء وقع في الوجود، وكل ما تلاه التالي تلته معه جميع ملائكة عوالم الله بأسرها، وكل ملك يتلوه بجميع ألسنته، فإن من الملائكة من له سبعون لسانًا ومنهم من له ستون لسانًا"، وخوفًا أن يمل القارىء فسأقف هنا، وإلا فإن النص قد استغرق ست صفحات في جواهر المعاني، كلها في مضاعفة الأجر لمن تلا دعاء التجاني، الذي علمه به الرسول ﷺ في إحدى مقابلته له يقظة لا منامًا.

أوراد التجاني

أورد علي حرازم في كتابه جواهر المعاني أورادًا عديدة- لا يتسع المقام لذكرها-

عن شيخه التجاني، بأسلوب ركيك ومعان متنافرة هابطة مملة.

رؤية التجاني

من رأى التجاني فهو في الجنة. قال علي حرازم: "قال ﵁: أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا منامًا؛ قال لي: أنت من الآمنين، وكل من رآك من الآمنين إن مات على الإيمان، وكل من أحسن إليك بخدمة أو غيرها وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب".

ثواب صلاة الفاتح

ليس من السهل كتابة كل ما ذكره التجاني لفضل صلاة الفاتح؛ وذلك لكثرة ما أورده التجانيون، غير أننا سنكتفي بمثال واحد من تلك الترهات المفتراه، قال التجاني عن نفسه: "ثم أمرني ﷺ للرجوع إلى صلاة الفاتح لما أغلق فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها فأخبرني أولًا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيًا أن المرة الواحدة منها تعدل كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر من كل دعاء كبيرًا أو صغيرًا، ومن القرآن ستة آلاف مرة.." إلى أن يقول: "قال ﷺ ما معناه: إن صلاة الفاتح لما أغلق بستمائة ألف صلاة، وكل صلاة من الستمائة ألف صلاة بأربعمائة عزوة، ثم قال بعده ﷺ: إن من صلى بها أي بالفاتح لما أغلق.. إلخ مرة واحدة حصل له ثواب ما إذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم، من كل جن وإنس وملك ستمائة ألف صلاة، من أول العالم إلى وقت تلفظ الذاكر بها، أي كأنه صلى بكل صلاة ستمائة ألف صلاة من جميع المصلين عمومًا ملكًا وجنًا وإنسًا، وكل صلاة من ذلك بأربعمائة غزوة، وكل صلاة من ذلك بزوجة من الحور وعشر حسنات ومحو عشر سيئات ورفع عشر درجات، وأن الله يصلي عليه وملائكته بكل صلاة علي عشر مرات".

وقد أضاف محمد السيد التجاني إلى تلك الخيالات في فضل صلاة الفاتح خيالات أخرى قال فيها: "وصلاة الفاتح التي هي من الله كتبت بحروف مستقيمة بكل لسان تفهمه من لسان العربية، فوق رأسه، وهي تاجه وعزه وملكه، وبها فضل على سائر خلق الله، وبها تثبتت خلافته في الدنيا والآخرة، وبها ظهرت الحقيقة المحمدية كل الظهور، وبها ثبتت الحقيقة المحمدية في محراب القدس.

وبها أعز الله دينه وبها ظهرت مقامات الدين كلها، وبها فضلت هذه الأمة وصارت وسطًا، وبها قوام الأرواح والأشباح، وبها ظهرت التكاليف، وبها برزت الجنة ونعيمها، وبها ساد سيدنا محمد غيره ممن دونه من الأنبياء والمرسلين، وبها تعرف جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل عليهم السلام.

وبها نظام الكائنات، وفيها روح الموجودات وحياتها، وبها شرفت الأنبياء والملائكة، وبها ظهرت محاسن الأخلاق المحمدية، وهي التي شرف الله بها النبي ﷺ، وشرفها بالنبي ﷺ وهي مرتبته وحقيقته ﷺ.

وهي أول الصلوات التي ظهرت من قلب رسول الله ﷺ أو من قلوب العارفين، فإن الله جل جلاله هو الذي صلى عليه؛ أي تجلى فيه بكمال ذاته مراتبه وأسمائه وصفاته، وذلك التجلي هو عين تشريفه وإعزازه وتفضيله على سائر الخلائق؛ لأنه لم يتجل في أحد بكمال ذاته إلا فيه ﷺ.." إلى آخر هذه العجائب والغرائب التي لا مستند لها إلا الخيال والأماني الفارغة، وإلا فهل يوجد في الشريعة الإسلامية دليل واحد على تلك الخزعبلات والتهويلات؟! خاصية صلاة الفاتح:

قال الشعراني: "وخاصية صلاة الفاتح لما أغلق.. الخ، أمر إلهي لا مدخل للعقول فيه، ولو قدرت مائة ألف أمة، في كل أمة مائة ألف قبيلة، في كل قبيلة مائة ألف رجل، وعاش كل واحد منهم مائة ألف عام يذكر كل واحد منهم في كل يوم ألف

صلاة على النبي ﷺ من غير صلاة الفاتح لما أغلق، وجميع ثواب هذه الأمم كلها في مدة هذه السنين كلها في هذه الأذكار كلها، ما لحقوا كلهم ثواب مرة واحدة من صلاة الفاتح لما أغلق، فلا تلتفت لتكذيب مكذب".

الشيخ الواصل يرى الله علانية في كل وقت مع انتفاء الغير والغيرية بينهم:

قال الشعراني: "اعلم أن سيدنا ﵁ سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو؟ فأجاب عنه بقوله: "أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرًا عينيًا وتحقيقًا يقينًا، فإن الأمر أوله محاضرة: وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف، ثم مكاشفة: وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، ثم مشاهدة: وهو تجلي الحقائق بلا حجاب لكن مع خصوصية، ثم معاينة: وهو مطالعة الحقائق بلا حجاب ولا خصوصية ولا بقاء للغير والغيرية عينًا وأثرًا، وهو مقام السحق والمحق والدك وفناء الفناء، فليس في هذا إلا معاينة الحق في الحق للحق بالحق فلم يبق إلا الله لا شيء غيره. فلا ثم موصول ولا ثم واصل".

وفعل الأولياء للفواحش علانية إنما هو تخيل من الناظر، أو من باب ستر حال الولي، بعد أن رأوا عامة الناس لا هم لهم إلا قضاء رغباتهم، فأحب الأولياء الصوفية عند ذلك ألا يظهروا أنفسهم للعامة، فاحتجبوا عنهم بارتكاب تلك الفواحش في الظاهر.

قال علي حرازم: "فلما عرف العارفون ما في العامة من هذا الأمر احتجبوا عن العامة وطردوهم بكل وجه وبكل حال... فخلط العارفون عليهم بوجوه من التخليط استتارًا عن العامة بإظهار أمور من الزنا، والكذب الفاحش، والخمر، وقتل النفس، وغير ذلك من الدواهي التي تحكم على صاحبها أنه في سخط الله وغضبه، والأمور التي يقتحمها العارفون في هذا الميدان إنما يظهرون صورًا من الغيب لا وجود لها في

الخارج إنما هي تصورات خيالية، يراها غيرهم حقيقة فيفعلون في تلك الصور أمورًا منكرة في الشرع، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئًا فاستتروا بذلك من العامة حفظًا لمقامهم".

وهكذا فعل الزنا وشرب الخمور وغيرها من الفواحش لا حقيقة لها، حتى وإن ثبت أن الصوفي يفعلها، فإنما ذلك خيال، وما أكثر ما يثبت عن هؤلاء من فعل الفواحش، حتى في البهائم، كما يثبت الشعراني ذلك في طبقاته عن علي وحيش، الذي يترضى عنه الشعراني كما هي عادته في الترضي عن أولئك الفجار؟!

دعاء تجاني في طلب الاتصاف بالألوهية؟!:

"ومن أدعيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مما أملاه علينا ونصه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللهم حققني بك تحقيقًا يسقط النسب، والرتب، والتعينات، والتعقلات، والاعتبارات، والتوهمات، والتخيلات؛ حيث لا أين، ولا كيف، ولا رسم، ولا علم، ولا وصف، ولا مساكنة، ولا ملاحظة، مستغرقًا فيك بمحق الغير والغيرية، بتحقيقي بك من حيث أنت بما أنت وكيف أنت؛ حيث لا حس ولا اعتبار إلا أنت، بك لا عنك منك".

مباسطة البسطامي مع ربه كما يرويها التجاني لتلميذه علي حرازم: أنه قال: "إن أبا يزيد باسطه الحق في بعض مباسطته قال له: يا عبد السوء! لو أخبرت الناس بمساويك لرجموك بالحجارة، فقال له: وعزتك لو أخبرت الناس بما كشفت لي من سعة رحمتك لما عبدك أحد، فقال له: لا تفعل، فسكت".

إهانة للقرآن الكريم:

"فإذا عرفت هذه الحيثية، عرفت أن الصلاة عليه ﷺ، لمثل أهل هذا الوقت، أفضل لهم من تلاوة القرآن".

السر في وجود هذا الكون ومصدره

"قال سيدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما خلق الله لنفسه إلا سيدنا محمدًا ﷺ، والباقي من الوجود كله مخلوق لأجله ﷺ، ولولا أنه خلق سيدنا محمدًا ﷺ ما خلق شيئًا من العوالم".

تلاعب بمعاني النصوص

أورد علي حرازم، عن شيخه وسيده التجاني، نصوصًا كثيرة في تفسير القرآن الكريم وبعض الأحاديث، فسرها بمحض الهوى والجهل والتخبط والقول على الله بغير علم في جرأة عاتية.

الحلول والاتحاد

قال التجاني: "فهو سبحانه وتعالى مع كل شيء بذاته، وأقرب إلى كل شيء بذاته، من وجه لا يدركه العقل".

وقال: "اعلم أن أذواق العارفين في ذوات الوجود، أنهم يرون أعيان الموجودات كسراب بقيعةٍ... الآية- فما في ذوات الوجود كله إلا الله سبحانه وتعالى، تجلى بصورها وأسمائها وما ثم إلا أسماؤه وصفاته، فظاهر الوجود صور الموجودات وصورها وأسماؤها ظاهرة بصورة الغير والغيرية..." إلى أن يقول: "فإذا رأيت ما يظهر من صور الموجودات، على اختلاف أحواله وتباين أشكاله وتشتيت أموره من مذمومة ومحمودة، فما فيها إلا تجليات الحق سبحانه وتعالى".

الولاية والألوهية وهل يوجد فرق بينهما أولا؟ عند التجاني:

١- معرفة الولي أصعب من معرفة الله.

٢- لو كشف عن حقيقة الولي لعُبد. قاله المرسي.

٣- وأمري بأمر الله إن قلت: كن، يكن. قاله الجيلاني.

٤- يا ريح اسكني عليهم بإذني.

قال علي حرازم: " فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: "وحقيقة الولي أنه يسلب من جميع

الصفات البشرية ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرًا وباطنًا... " إلى أن يقول: "ومعنى قوله: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد؛ لأن أوصافه من أوصاف إلهه ونعوته من نعوته؛ لأنه ينسلخ من جميع الأوصاف البشرية كما تنسلخ الشاة من جلدها، ويلبس خلعة الأخلاق الإلهية"".

تملك أقطاب الصوفية للكون بتفويض من الله لهم: يقول حرازم عن شيخه: "قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنى ذلك أن الله ملكهم الخلافة العظمى واستخلفهم على مملكته تفويضًا عامًا أن يفعلوا في المملكة كل ما يريدون، وملكهم الله تعالى كلمة التكوين، متى قالوا للشيء: كن، كان من حينه"، فأي إلحاد بعد هذا من هؤلاء الذين يترضى عنهم علي حرازم.

الصلاحيات للولي أعلى من الصلاحيات للنبي

قال: "وسألته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قولهم: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي ﷺ فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: المراد بالولي أولياء هذه الأمة فقط... إلى أن قال: "الرسول ليس له عموم الأمر والنهي إلا ما سمعه من مرسله سبحانه وتعالى، لا يزيد وراء ذلك شيئًا، وإنما هو في ذلك مبلغ فقط؛ ليس بآمر ولا ناه، إلا أن يكون الرسول خليفة، فله المرتبة الأولى، فالخليفة الولي أوسع دائرة في الأمر والنهي والحكم من الرسول الذي ليس بخليفة".

حقيقة القطبانية تمتد قدرتها بامتداد ما وصلت إليه الألوهية وتحجبها أيضا:

قال علي حرازم: "وسألته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن حقيقة القطبانية، فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: اعلم أن حقيقة القطبانية هي الخلافة عن الحق مطلقًا في جميع الوجود جملة وتفصيلًا، حيثما كان الرب إلهًا كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من عليه ألوهية الله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء

كائنًا ما كان من الحق إلا بحكم القطب".

رغبة الصوفية في تجهيل الخلق بربهم ونسيانهم لذكره ليصفو لهم وحدهم

قال التجاني: "المحبة الصادقة هي التي تورث الغيرة لصالحبها، قيل للشبلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: متى تستريح؟ قال: إذا لم أر له ذاكرًا غيرى، وقال: أبو يزيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لصاحبه حين قال له: وهل سألته المعرفة به؟ قال له: اسكت، غرت عليه من أن يعرفه غيرى.

التوحيد عند التجانية يقتضي شعور الشخص أنه هو الله لا فارق بين ذاته وذات المولى عَزَّوَجَلَّ وأن ينسى جسمية نفسه تمامًا:

قال حرازم: "سألت سيدنا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن هذا التوحيد، فأجاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن التوحيد: هو توحيده لنفسه بنفسه عن نفسه، وهذا التوحيد لا سبيل إليه إلا بالفناء، قال الجريري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم حتى يشيروا إلى الحق بالحق. أراد بهذا الذي ذكرناه هو عرو النسب حيث تنطمس النسب في الذات... قال الشبلي حين دخل عليه رجل قال له: ما تريد؟، قال له: أسأل عن الشبلي، قال له: مات لا رَحِمَهُٱللَّهُ.

كلمات غامضة صوفية:

التجلي الأول: هو الله عَزَّوَجَلَّ.

التجلي الثاني: هو ظهور محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل الخلق حسب زعمهم.

التجلي الأخير: هو ظهور آدم، ويسمى أيضًا اللباس الأخير.

حمق وخرافة

يقرر التجاني أن الأنبياء لم يخرجوا من أمهاتهم من المحل المعتاد للولادة، وإنما يخرجون من تحت سرة أمهاتهم تنزيهًا لهم، ثم أخذ يدلل على هذه الخرافة بما تمجه الأسماع.

نزول الوحي على القطب من الله لكن بواسطة الحقيقة المحمدية وإن رآه من الله فقد خدع ولبس عليه:

قال: "وما ذكر من أن العقل يأخذ العلم عن الله بواسطة، فإنه نفي الواسطة المشهورة، لا يشهد واسطة بينه وبين الحق أصلًا، لكنها موجودة في نفسها غير مشهودة له، وهى الحقيقة المحمدية، فإنه لا مطمع لأحد في درك حقيقتها فضلًا عن مشاهدتها، فإنها أخفى من السر الخفي، فإنه يرى نفسه يأخذ العلم عن الله بلا واسطة، وما برز له ذلك العلم إلا من الحقيقة المحمدية من حيث لا يراها، وإن رآه من الله فإنه مغطى عليه بحجاب التلبيس، فهذا معنى أخذ العلم عن الله بلا واسطة".

شكوى علماء الصوفية من علماء المسلمين في حجزهم عن الإتيان بما تأت به الأنبياء:

قال علي حرازم: "قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه: لولا علماء الظاهر- أو كما قال- لأتت الأولياء عن الله بما أتت به الانبياء".

معنى قول الشيخ الضال ابن عربي: من وحد فقد ألحد واعتبارهم التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ إلحادًا:

قال علي حرازم عن شيخه التجاني: "وسألته رضي الله عنه عن معنى قول الشيخ الأكبر: من وحد فقد ألحد فأجاب رضي الله عنه بقوله: معنى الإلحاد هو الخروج عن الجادة المستقيمة، فإن العارف إذا وحد بتوحيد العامة فقد ألحد، والعامي إذا وحد بتوحيد العارف فقد ألحد يعني كفر".

التجاني يعرف أنفاس الإنسان وخواطره بغض النظر عن طول عمره أو قصره:

قال: "وسألته رضي الله عنه عن عدد أنفاس الإنسان، فأجاب رضي الله عنه بقوله: عدد أنفاس الإنسان أربعة وعشرون ألفًا، نصفها داخل ونصفها خارج، وأما الخواطر فعددها

سبعون ألف خاطرة، تخطر كل يوم على القلب حتمًا لا يتخلف منها واحد".

القطب الصوفي لا يستطيع أن يسمع كلام الناس بعد أن يسمع كلام الله له إلا بعد فترة نقاهة وسماعه لكلام الله أعلى من سماع الأنبياء له:

قال: "ثم قال سيدنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من فتح عليه في هذا الأمر العظيم والنعيم الجسيم، لا يقدر أن يسمع كلام الخلق إلا إذا اعتزل ثلاثة أيام يذكر الله، فحينئذ يقدر على سماع كلامهم، وإن لم يفعل ما ذكر، فإنه مهما سمع كلامهم يتقيأ لقبحه بالنسبة للذة ما سمع من كلام الحق، وسماع كلام الله لمن سمعه لا بأذن فقط بل بجميع أجزاء ذاته كلها، حتى يصير كل ذرة من ذاته تلتذ مثل جميع ذاته بكمالها".

الجنة في نظر الصوفية لا قيمة لها

قال: "ومن كلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كل العارفين في شغل عن الله تعالى؛ لأنهم بقي لهم ضرب من حظوظهم، إلا أهل التجلي الأكبر الذين لا حظ لهم في الجنة، فإنهم عنده سبحانه وتعالى مقيدون في حضرة قربه، وواصلهم بما لا تحيط العقول وصفه... فإن، هؤلاء لا التفات لهم إلى الجنة ونعيمها ولا عبرة لهم بها أوجدت أم عدمت".

والبديل لها عند الصوفية هو النظر إلى المشائخ والجلوس بين أيديهم بكل الخضوع والتذلل؛ ولهذا يقول محمد السيد التجاني في كتابه الهداية الربانية في فقه الطريقة التجانية ناقلًا عن مشائخ الصوفية: "الجلوس بين يدي ولي قدر ما تحلب فيه شاة أفضل من عبادة ألف سنة"[1].

وعلى المسلمين ألا يجتهدوا في طلب ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر فقط، بينما الجلوس أمام شيخ صوفي كالدجاجة، داجن في زاويته المظلمة حسًا ومعنى، خمس دقائق، خير من عبادة ألف سنة، فهل بعد هذا السفه للنفس والحمق

---

(١) الهادية الربانية في فقه الطريقة التجانية ص٢٠.

المردي حمق أو سفه؟

كيفية خلق هذا الكون عند الصوفية

يقول: "ومن كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب هو سيدنا محمد ﷺ، ثم نسل الله أرواح العالم من روحه ﷺ، الاجسام النورانية كالملائكة ومن ضاهاهم".

وأما الأجسام الكثيفة الظلمانية فإنما خلقت من النسبة الثانية من روحه ﷺ، فإن لروحه ﷺ نسبتين أفاضها على الوجود كله؛ فالنسبة الأولى نسبة النور المحض ومنه خلقت الأرواح كلها والأجسام النورانية التي لا ظلمة فيها، والنسبة الثانية من نسبة روحه ﷺ نسبة الظلام ومن هذه النسبة خلق الأجسام الظلمانية كالشياطين وسائر الأجسام الكثيفة والجحيم ودركاتها، كما أن الجنة وجميع درجاتها خلقت من النسبة النورانية، فهذه نسبة العالم كله إلى روحه ﷺ.

أما الحقيقة المحمدية ﷺ فهي أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب، وليس عند الله من خلق موجود قبلها.

فالملائكة والشياطين والجنة والنار - بل والكون كله - مخلوق من روح محمد ﷺ، فأين العقول التي تصدق بمثل هذا الفحش والإهانة لنبي الإسلام ﷺ، أن تكون الشياطين والجحيم وغيرهما - مما نص عليه التجاني - مخلوقة من روح محمد ﷺ، كبرت كلمة تخرج من فمه.

تطاول التجاني على الصحابة وكل من جاء بعدهم

قال التجاني في كتابه إلى أهل الأغواط: "وأقول لكم إن مقامنا عند الله في الآخرة لا يصله أحد من الأولياء، ولا يقاربه من صغر ولا من كبر، وأن جميع الأولياء من عصر الصحابة إلى النفخ في الصور، ليس فيهم من يصل مقامنا ولا يقاربه؛ لبعد مرامه

عن جميع العقول وصعوبة مسلكه على أكابر الفحول".

تصرف التجاني في الجنة

جاء كذلك في كتابه إلى أهل الأغواط بالمغرب يقول لهم: "ولم أقل لكم ذلك حتى سمعته من الرسول ﷺ تحقيقًا، وليس من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من المعاصي ما بلغوا، إلا أنا وحدي".

عدوان الصوفية بعضهم على بعض وطلب كل صاحب طريقة العلو على الآخرين:

سأل رجل من أهل فاس بالمغرب التجاني عن الدائرة الشاذلية وأسمائها وخواصها وفضائلها، فأجابه التجاني بقوله:

"اعلم أن التمسك بما في كتب أهل الخواص من دائرة الشاذلية رضي الله عنه: أسماء الله، والحروف، والجداول، كله كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ما في جميعها إلا التعب والطمع الذي لا يوجد فيه قليل من الفائدة ولا جدوى من الفائدة".

الصوفي له قوة الخلاق العظيم كما يرى التجاني

قال علي حرازم تحت عنوان "سر شريف": "قال سيدنا رضي الله عنه: إذا تجلى الله لسر عبد، ملكه جميع الأسرار، وألحقه بدرجة الأحرار، وكان له تصرف ذاتي؛ متى توجهت إرادته لأي خارق كان انخراق له في الحين، إلا أن بعضهم يضيف لها كلمة كن وبعضهم بمجرد الإرادة".

ومعنى هذا التطاول الغريب أن الله تعالى "إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون"، أما هؤلاء فإذا أراد أحدهم شيئًا تكفيه مجرد الإرادة لإيجاده وإذا أضاف إليها "كن"

فلا حرج عليه عند بعضهم، فكلمة "كن" عندهم إنما هي مجرد إضافة عارضة.

مزايا التجاني لم يصلها أحد من البشر بل ولا ملك مقرب ولا نبي مرسل:

كل من أخذ وردنا وداوم عليه إلى الممات، أنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عقاب هو ووالداه وأزواجه وذريته.

وكذلك من حصل له النظر فينا يوم الجمعة أو الاثنين يدخل الجنة بغير، حساب ولا عقاب.

والسبب في تخصيص يوم الجمعة والاثنين بحصول هذا الفضل العظيم، لمن نظر إلى وجهه الذي عليه غبرة، هو اعتقاده أن الجمعة خلق آدم والاثنين خلق فيه محمد ﷺ ومن هنا حصل له هذا الفضل العظيم في هذين اليومين اللذين وقع فيهما الفرع أفضل من الأصل على ميزان التجاني المعكوس.

جفاء وعتو ونفور عن الله تعالى وحمق مركب

مدح التجاني أبا عُبيدة الخواص بقوله: "وله منذ أربعين سنة ما رفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى، وهذا هو حياء العارفين".

أذكار وأدعية بعبارات متكلفة غامضة وأساليب ركيكة مرذولة

قال علي حرازم: "وأول ما نبدأ به ذكر الصلوات التي أملاها مولانا رسول الله ﷺ من فيضه الشريف يقظة على شيخنا أبي العباس.. الأولى سماها شيخنا رضي الله عنه ياقوتة الحقائق في التعريف بحقيقة سيد الخلائق، ونصها: الله الله الله اللهم أنت الله الذي لا إله إلا أنت العالي في عظمة انفراد حضرة أحديتك التي شئت فيه بوجود شؤونك... اللهم برتبة هذه العظمة وإطلاقها في وجد وعدم، أن تصلي وتسلم على ترجمان لسان القدم اللوح المحفوظ والنور الساري المحدود.. لله لله لله آه أمين، هو هو هو آمين".

ذلك هو الدعاء الأول وما يحمله من هذيان يبعث على الاشمئزاز والنفور[١].

(١) (تنبيه): لا شك في بدعية ذكر الله تعالى باسمه المفرد الله وأشد منه ذكره باسمه المضمر هو، فهو من بدع الأذكار التي أحدثها الجهال من المتصوفة ومن وافقهم، فهي صيغة لم ترد عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة.

أما ما يستدل به البعض على مشروعية هذا الذكر، فهي شبهات ساقطة لا تدل على مشروعية هذا النوع من الذكر أبدا، ومن هذه الأدلة:

ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

(لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) رواه مسلم (١٤٨)

وليس في الحديث دليل على الذكر بالاسم المفرد، وذلك من وجوه:

١ - أن بعض الروايات جاء فيها: (لا تقوم الساعة على أحد يقول: لا إله إلا الله) وهي رواية أحمد في "المسند" (٣/ ٢٦٨)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٢٦٢) والحاكم (٤/ ٥٤٠) بل هي إحدى روايات مسلم كما نقله القاضي عياض من رواية ابن أبي جعفر. انظر النووي في "شرح مسلم" (٢/ ١٧٨)

فهذه الرواية تفسر الرواية الأولى، فيكون المعنى: لا تقوم الساعة على الموحدين الذين يقولون: لا إله إلا الله.

٢ - لا يجوز أن يكون المراد بالحديث: أن الساعة لا تقوم على من يذكر الله باسمه المفرد، وتقوم على من يذكرون بغير ذلك، فإن غاية ما يزعم هو استحباب الذكر بالاسم المفرد، وليس فرضيته، فكيف يكون مدار النجاة من هول قيام الساعة على أمر مستحب؟!.

٣ - ثم إن اللغة العربية لا تسعف من يريد أن يستدل به، لأن الاسم المفرد لا يفيد معنى تاما، وذكر الله تعالى لا بد أن يحمل معنى الثناء عليه بشيء من صفاته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله "مجموع الفتاوى" (١٠/ ٥٦٤):

" اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه، ولا هو جملة تامة ولا كلاما مفيدا " انتهى.

٤ - أن الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين ومن تبعهم، لم يفهموا من هذا الحديث استحباب الذكر بالاسم المفرد، ولم يرد عن أحد منهم أنه استنبط ذلك من هذا الحديث، وهذا دليل كاف على بطلان هذا الاستدلال.

=

=

٥ - ثم تواردت أقوال العلماء في تفسير الحديث، ولم يرد عن أحد منهم الاستدلال به على الذكر بالاسم المفرد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الاسم المفرد مظهرا أو مضمرا: فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ولا أمر ولا نهي ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالا نافعا، وإنما يعطيه تصورا مطلقا لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه وإلا لم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره.

وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات!: حال لا يقتدى فيها بصاحبها فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به، إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا اله الله، وقال: " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "، ولو كان ما ذكره محذورا لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتا غير محمود بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المضمر المفرد أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال " يا هو يا هو " أو " هو هو " ونحو ذلك: لم يكن الضمير عائدا إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل.

ثم كثيرا ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل " الله " بقوله {قل الله ثم ذرهم} ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم فإن قوله {قل الله} معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وهو جواب لقوله {قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله} أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، رد بذلك قول من قال " ما أنزل الله على بشر من شيء " فقال: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟ ثم قال: قل الله أنزله ثم ذر هؤلاء المكذبين في خوضهم يلعبون.

=

=

ومما يبين ما تقدم ما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ما كان قولا فالقول لا يحكى به إلا كلام تام أو جملة اسمية أو فعلية ولهذا يكسرون " أن " إذا جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم والله تعالى لا يأمر أحدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا، والاسم المجرد لا يفيد الإيمان باتفاق أهل الإسلام ولا يؤمر به في شيء من العبادات ولا في شيء من المخاطبات. مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٦ - ٢٢٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا: فأما الاسم المفرد مظهرا مثل " الله، الله " أو مضمرا مثل " هو، هو ": فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة ولا هو مأثور أيضا عن أحد من سلف الأمة ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين.

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه مثلما يروى عن الشبلي أنه كان يقول " الله، الله " فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات!.

وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه وقوة وجده وغلبة الحال عليه؛ فإنه كان ربما يجن، ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها وإن كان معذورا أو مأجورا فإن العبد لو أراد أن يقول لا إله إلا الله ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئا إذ الأعمال بالنيات بل يكتب له ما نواه.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة، وربما قال بعضهم " لا إله إلا الله " للمؤمنين، و " الله " للعارفين، و " هو " للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته أو في جماعته على " الله الله الله "، أو على " هو "، أو " يا هو "، أو " لا هو إلا هو "!.

وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك واستدل عليه تارة بوجد، وتارة برأي، وتارة بنقل مكذوب كما يروي بعضهم أن النبي ﷺ لقن علي بن أبى طالب أن يقول " الله الله الله " فقالها النبي ﷺ ثلاثا، ثم أمر عليا فقالها ثلاثا، وهذا حديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

وإنما كان تلقين النبي ﷺ للذكر المأثور عنه، ورأس الذكر لا إله إلا الله، وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت، وقال: " يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله " وقال: " إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا "، وقال: " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "، وقال: " من

=

=

مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة "، وقال " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله "، والأحاديث كثيرة في هذا المعنى. " مجموع الفتاوى " (١٠/ ٥٥٦ - ٥٥٨).

وقال العلامة ابن القيم في طريق الهجرتين (٣٣٨ - ٣٣٩): ... حتى رتب على ذلك بعضهم أن الذكر بالاسم المفرد وهو ((الله، الله)) أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله ((سبحان الله))، و ((الحمد لله))، و ((لاإله إلا الله))، و ((الله أكبر)) وهذا فاسد مبني على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلا، ولا مفيد شيئا، ولا هو كلام أصلا، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان، ولا ثواب، ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر الله الله من أول عمره إلى آخره لم يصر بذلك مسلما فضلا عن أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الأذكار. وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر فالذكر بقوله هو هو أفضل من الذكر بقوله الله الله وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات فهذا فساد هذا البناء الهائر، وأما الفساد المبني عليه فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: {قُلِ اللهُ} أي قل هذا الاسم، فقل: الله الله. وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا جواب لقوله: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الأنعام: ٩١] إلى أن قال {قُلِ اللهُ} [الأنعام: ٩١] أي قل: الله أنزله، فإن السؤال معاد في الجواب فيتضمنه فيحذف اختصارا كما يقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله، أي الله خلقهما، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه، فهذا معنى الآية الذي لا يحتمل غيره.

وقال العلامة صديق بن حسن خان كما في الدين الخالص (٣/ ٥٧٧ - ٥٧٨): قلت: أما المسمون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم ويقولونها بألسنتهم، ويخرجونها عن لفظها العربي، فهم من أجناد إبليس اللعين، ومن أعظم حمر الكون، الذين ألسنتهم حلل التلبيس والتزيين، لما أن إطلاق لفظ الجلالة مفردا عن إخبار عنها بقولهم: ((الله الله)) ليس بكلام ولا توحيد، وإنما يلعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي، ثم إخلاؤها عن المعنى.

ولو أن رجلا عظيما صار مسمى بزيد، وصار جماعة يقولونه ((زيد زيد)) يعد ذلك

=

=

استهزاء وإهانة وسخرية لا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.
ثم انظر هل أتى في لفظة من الكتاب والسنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ إذ الذي فيهما هو طلب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل.
وهذه أذكار رسول الله ﷺ وأصحابه، خالية عن هذا الشهيق، والنهيق، والنعيق، التي اعتادها من هو عن هدي رسول الله ﷺ وسمته ودله، في مكان سحيق.
ثم قد يضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى والمقبورين، مثل ابن علوان وأحمد بن الحسين وعبد القادر والعيدروس. بل قد انتهى الحال إلى أنهم يغدون إلى أهل القبور من أهل الظلم والجرأة كعلي ورومان وعلي الأحمر وأشباههم
ولقد صان الله تعالى رسوله ﷺ، وأهل الكساء وأعيان الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة الضلال، فيجمعون أنواعا من الجهل والشرك والكفر.
وأما قوله تعالى: {قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: ٩١] وقول رسول الله ﷺ: ((حتى لا يبقى على الأرض من يقول: الله الله)) أو كما قال، فليس من هذا الوادي، ولا من جملة الأذكار المأمور بها، بل هما في سياق آخر، والمراد بهما قول ((لا إله إلا الله)) على طريق الرمز والإيجاز، والإشارة إلى المحذوف المقدر، فتدبر.
ثم قال صاحب التطهير: "فإن قلت: إنه قد يتفق من هؤلاء الذين يلوكون الجلالة ويضيفون إليها أهل الخلاعة والبطالة خوارق عادات وأمور تظن كرامات، كطعن أنفسهم وحملهم لمثل الحنش، والحية، والعقرب، وأكلهم النار، ومسهم إياها بالأيدي، وتقلبهم فيها بالأجسام.
قلت: هذه أحوال شيطانية، وإنك لملبوس عليك إن ظننتها كرامات للأموات، أو حسنات للأحياء، لما هتف هذا الضال بأسمائهم جعلهم أندادا لله، وشركاء له في الخلق والأمر.
و قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ كما في مجموع فتاواه: أما قول الصوفية: (الله الله)، أو (هو هو)، فهذا من البدع، ولا يجوز التقيد بذلك. لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه رضي الله عنهم فصار بدعة؛ لقول النبي ﷺ: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وقوله عليه الصلاة والسلام: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد متفق عليه. ا. هـ
قال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (١/ ٢١٥): هذا الحديث تسمعونه
=

أما الدعاء الثاني فقد جاء فيه قوله، وبعباراته المتكلفة التي تخفى وراءها قبائح وجِهلًا شنيعًا - قال: "وهي أيضًا من إملائه ﷺ لشيخنا يقظة، وهي: اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرياح المالئة لكل متعرض من البحور والأواني... اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروس الحقائق عين المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم... إحاطة النور المطلسم".

=

مرارًا - وهو حديث صحيح -: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله، الله» رواه مسلم، وكثيرًا من أمثال هؤلاء المشار إليهم في آخر الحديث المذكور، قَبْض الله العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقي عالمًا اتخذ الناس رؤوسا جُهّالًا، من هؤلاء الرّؤوس، من يفسر القرآن والسنة بِتَفاسير مُخالفة لما كان عليه العلماء - لا أقول: سلفًا فقط بل وخلفًا أيضًا-.

فإنهم يحتجون بهذا الحديث: (الله، الله) على جواز بل على استحباب ذكر الله ﷻ باللفظ المفرد (الله، الله)... إلى آخره، لكي لا يغتر مُغْتَر ما أو يجهل جاهلٌ ما حينما يسمع هذا الحديث بمثل ذلك التأويل بدا لي ولو عرضًا أن أُذَكِّرَ إخواننا الحاضرين بأن هذا التفسير باطلٌ:-

أولًا: من حيث أنه جاء بيانه في رواية أخرى عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

.

وثانيًا: لأن هذا التفسير لو كان صحيحًا لجرى عليه عمل سلفنا الصالح رضي الله عنهم، فإذْ لم يفعلوا دل إعراضهم عن الفعل بهذا التفسير على بطلان هذا التفسير.

فكيف بكم إذا انضم إلى هذا الرواية الأخرى - وهذا بيت القصيد كما يقال - أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ روى هذا الحديث في مسنده بالسند الصحيح بلفظ: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: لا إله إلا الله» إذن هذا هو المقصود بلفظة الجلالة المكرر، المكررة في الرواية الأولى.

وما أدري من أين يأتي الخشوع في مثل هذا الدعاء الذي هو أقرب إلى الألغاز والهذيان.

وجاء في نص الدعاء الثالث

"اللهم صل وسلم على عين ذاتك العلية... عبدك القائم بك منك لك إليك، بأتم الصلوات الزكية، المصلي في محراب عين هاء الهوية، فصل اللهم عليه صلاة كاملة تامة بك ومنك وإليك وعليك... وتب علينا بمحض فضلك الكريم في الصلاة عليه".

وقد شرح علي حرازم تلك الأدعية فكان كمن أراد أن يكحلها فأعماها حيث جاء هو الآخر بكلمات أغمض من النص بغرض أن تلك الأدعية وشرحها تحمل علمًا لا يعرفه إلا هؤلاء العباقرة.

وقد شرح وصف التجاني للرسول ﷺ بأنه اللوح المحفوظ فقال: "قوله: اللوح المحفوظ" اعلم أن اللوح المحفوظ هنا هو نبينا وسيدنا محمد ﷺ. وتشبيهه هنا ﷺ باللوح المحفوظ يسمى عند المتكلمين تشبيه التسامح، وإلا فهو ﷺ أكبر وأوسع من اللوح المحفوظ بأضعاف مضاعفة؛ لأن غاية علوم اللوح وما سطر فيه إنما هو منشأ العالم إلى النفخ في الصور فردًا فردًا بلا شذوذ.

وأما ما وراء ذلك من أحوال يوم القيامة وأحوال الشؤون والأمور والاعتبارات واللوازم والمقتضيات كلها ليس في اللوح المحفوظ منه شيء إلا أمور قليلة، مثل فلان يعمل كذا وكذا من الأعمال وجزاؤه في جنة الخلد، أو جنة النعيم، أو جنة المأوى له فيها كذا وكذا، وفلان يعمل كذا وكذا من الشر، ومستقره في الدرك الثانية أو الثالثة، وهكذا هو قليل بالنسبة لأحوال الجنة والنار وأحوال يوم القيامة.

وأما هو ﷺ فإنه جمع في حقيقته المحمدية كل ما أحاط به علم الله تعالى من

الأزل إلى الأبد من علوم المخلوقات بأسرها ومعرفة مقتضياتها ولوازمها.

المراتب الصوفية يبينها خليفة التجاني علي حرازم بقوله:

المرتبة الأولى: مرتبة الاستهتار بذكر الله تعالى حتى يقع صاحبها في الذهول عن الأكوان، والطمأنينة بذكر الله تعالى مستغرقًا جميع أوقات دهره، وهم الأولياء.

المرتبة الثانية: لباس الحلة الملكية، وهي فوق هذه المرتبة؛ وهي أن يتصف صاحبها بأحوال الملائكة.

المرتبة الثالثة: وهى فوق هذه، وهى لباس الحلة الإلهية؛ لا تذكر ولا يعلمها إلى من ذاقها، وصاحبها هو الذي يطلق عليه اسم الصديق فهي ضرب من النبوة، أو هي النبوة بعينها، وهم العارفون والصديقون.

وتفسيره بأنها النبوة خداع وجبن عن إظهار الحقيقة؛ إذ أن هذه المرتبة "لباس الحلة الإلهية التي لا يعرفها إلا من ذاقها" تفيد معنى الألوهية، إلا أنه لم يصرح بهذا لئلا يكشف الحقيقة فتظهر حقيقتهم الإجرامية.

جوهرة الكمال

يسميها التجانيون صلاة جوهرة الكمال، وهى التي قدمنا منها، وأولها "اللهم صل وسلم علي عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة... " الخ.

قال على حرازم في أول كلامه في شرحها:

"الحمد لله الذي فتق من كنه الغيب رتق الكائنات، وجعل أصلها ونشأتها نور حقيقة سيدنا محمد ﷺ فكان أصل الموجودات، فأوجد منها بقدرته القدسية وكلمته الأزلية فطرة آدم وجعل شكله صورة العالم وعلمه الأسماء كلها، وجعله من جميع البرية خلاصتها وصفوتها، وأخرج من عنصره الأرواح والذرية والأشباح، واختار منها صفوة الأنبياء والرسل والأولياء بالرسالة والولاية... " إلى آخر ما جاء به من

عجائب الحمق.

خواص صلاة جوهرة الكمال

زعم التجانيون أن لهذه الصلاة أو الدعاء خواص لا يقدر لها قدر، ولا أظن أحدًا لم تدنس الصوفية فطرته يصدقها، قال:

"وذكر لها رسول الله ﷺ خواصًا منها:

١ - أن المرة الواحدة تعادل تسبيح العالم ثلاث مرات.

٢ - أن من قرأها سبعًا فأكثر، يحضره روح النبي ﷺ محبة خاصة، ولا يموت حتى يكون من الأولياء، وقال الشيخ رضي الله عنه: من داوم عليها سبعًا عند النوم، على طهارة كاملة وفراش طاهر، يرى النبي ﷺ.

إلى أن قال: "فإنه لولا وجوده ﷺ ما كان وجود لموجود أصلًا من غير الحق سبحانه وتعالى... فإنه لولا هو ﷺ ما خلق شيء من الأكوان، ولا رحم شيء منها لا بالوجود ولا بإفاضة الرحمة".

ثم قال: "تنبيه شريف: اعلم أنه لما خلق الله الحقيقة المحمدية، أودع فيها سبحانه وتعالى جميع ما قسمه لخلقة، من فيوض العلوم والمعارف والأسرار، والتجليات والأنوار، والحقائق بجميع أحكامها ومقتضياتها ولوازمها، ثم هو ﷺ الآن يترقى في شهود الكلمات الإلهية، مما لا مطمع فيه لغيره، ولا تنقضي تلك الكمالات بطول أبد الآباد".

وتظهر الطلاسم واضحة في هذا الدعاء التجاني العجيب الغريب المسمى بحزب البحر، قال محمد السيد التجاني:

"مقصد حزب البحر التعوذ والبسملة، وبه نستعين، وبه الحلول والقوة، رب سهل ويسر، ولا تعسر علينا يا ميسر كل عسير أبت خدذ رزط ظكل منص صعغ فقس

شهولاي لا إله إلا الله عشرًا، ثم صلاة الفاتح عشرًا، ويرفع يديه إلى السماء، ويقرأ فاتحة الكتاب مرة بنية ما يريد، ثم البسملة الله الرحمن الرحيم، يا الله يا عليّ.. الخ"

وقد ذكر دعاءً يقوله من أراد أن يجتمع بالنبي ﷺ يقظة لا منامًا، وفي آخره يبخر بالعود أو الجاوي على طريقة الشعوذة والسحرة.

ثم ذكر دعاء آخر لجلب الغنى ودفع الفقر.

ثم ذكر دعاء لكيفية خاصة من جوهرة الكمال تقوم مقام اللطيف الكبير، هكذا وبهذا الأسلوب.

إلى أن ذكر الطامة الكبرى وهي في قوله الآتي: "كيفية من الصلوات تسمى مهر السر والحور، وعين الفتح والنور، من أكثر من تلاوتها يرى رب العزة في المنام، ولا يفارقه رسول الله وروح القدس أبدًا " وأحب ألا أذكر تلك الأدعية، لأنزه سمع وبصر القارئ عن حشو ذهنه بخزعبلات الصوفية وخرافاتهم، ومن تناقضاتهم أن يأتوا بدعاء لجلب الغنى ودفع الفقر، وهم لا يحبون الدنيا كما يزعمون، ويحبون الفقر ويجعلونه من أشرف الأسماء لديهم.

وأما زعمهم رؤية الرسول ﷺ، ورؤية المولى ﷻ والاتحاد به، فهي ديدنهم وعليها قام دينهم.

الخضوع لأقطاب التصوف

يجب الخضوع التام لأقطاب التصوف وترك الأفكار عليهم في أي شيء، يقول الفوتي في كتابه: "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم"

هامش جواهر المعنى: "اعلم أن المنكر على الأولياء ساقط من عين الله وهالك في الدنيا والآخرة وأنه في لعنة الله ومحاربته"، ويقصد بأولياء الله هنا أقطاب التصوف.

فليعتصم المريد بشيخه وليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ البحر بالقائد،

بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورد ولا صدر، ولا يبقى في متابعته شيئًا ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ، أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، إلى أن قال: "ولا اعتراض بأن يكون بين يديه كالميت بين يدي غاسله، وقد قال من قال لشيخه: لِمَ؟ فإنه لا ينتفع به".

التصدر للمشيخة خطر عظيم إلا بإذن شيخ صوفي: يقول الفوتي: "قلت التصدر للشيخوخة بغير إذن شيخ كامل الخطر جدًا، لأنه يكون سببًا لسوء الخاتمة، وإن لم يتب فاعله فلا يموت إلا كافرًا".

الاتصاف بالله وتهوين الفاحشة

ذكر الفوتي أن أحد المريدين طلب من شيخه أن يدله على الله فقال له: اتصف بصفة من صفات الله تعالى، فاختار الصدق، ثم ارتكب جريمة زنا، وحين سأل أجاب بقوله: نعم، فسجنه الوالي لظنه أنه مجنون، فشفع فيه بعضهم فأخرج من السجن بفضل صدقه كما يزعم.

وقد صاغها الفوتي بأسلوب مزخرف مطول يهون الجريمة بدلًا من التنفير عنها، وذكر الفوتي في رماحه قصصًا كثيرة جدًا كلها تهدف إلى طاعة المشائخ طاعة عمياء، لا اعتراض ولا جدال، حتى ولو أمر الشيخ المريد بفعل الفواحش وقتل النفوس فعليه التنفيذ، لأنه لا يعرف الحكمة من وراء ذلك إلا الشيخ.

منها: أن بعض المشائخ أمر مريدًا له بقتل والده، فجاء المريد بالليل ووالده عند أمه فاحتز رأسه وجاء به إلى الشيخ، فلما عرف صدق إيمان المريد كشف له عن الرأس، فإذا هو ليس والد المريد وإنما كان علجًا في حال غياب أبيه، جاء الشيخ الوحي بذلك.

ثم ذكر قصصًا كثيرة حول هذه الطاعة، ثم عقب بذكر قصص أخرى تفيد أن

التلميذ لا ينبغي أن يشك في شيخه حتى ولو رآه يشرب الخمر ويزني ويقتل النفوس، وقد دخلت على أحد المشائخ امرأة ولكنها الدنيا تصورت في صورة امرأة ثم دخلت عليه.

إلى آخر ما ذكر من أمثال هذه الفواحش بأسلوب سافر لم أذكره بنصه، لأولئك الذين سماهم أولياء، والذين قال عنهم بعد ذلك: "الشيخ هو الولي الكامل في قوله كالنبي في أمته، وأن مبايعته كمبايعة النبي ﷺ لكونه نائبًا عن النبي ﷺ".

ومن هنا فإنه ينبغي على المريد: "أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده من النبي ﷺ، لأنه نائبه".

"فعلم أن كل من لم يعتقد في شيخه أنه أشفق عليه من نفسه، وأنه لا يأمر قط بترك شيء إلا ليعطيه أنفس منه، فمحبته نفاق".

وذكر أن الشيخ لو طلب إلى أحد مريديه أن يطلق زوجته، أو يأتي بنصف ماله، أو منعه من وظائفه ومصالحه فأبى، لكان دل على نفاق أيضًا.

ولعل في ذكر الآداب التي ينبغي على المريد أن يمتثلها، أقوى تصوير لمدى هيمنة شيوخ الصوفية على أتباعهم، ومدى الغبن والذل اللذين يلحقان بأولئك القطعان من أتباع رهبان الصوفية، وقد ذكر الفوتي منها ما يلي:

١ - تعظيم الشيخ وتوقيره ظاهرًا وباطنًا، وعدم الاعتراض عليه في شيء فعله، ولو كان ظاهره أنه حرام، وعدم الالتجاء لغيره من الصالحين.

٢ - ألا يقعد وشيخه واقف.

٣ - ولا ينام بحضرته إلا بإذنه، في محل الضرورات، ككونه معه في مكان واحد.

٤ - ألا يكثر الكلام بحضرته ولو باسطه.

٥ - وألا يجلس على سجادته.

٦- ولا يسبح بسبحته.

٧- ولا يجلس في المكان المعد له.

٨- ولا يلج عليه في أمر.

٩- ولا يسافر.

١٠- ولا يتزوج.

١١- ولا يفعل فعلًا من الأمور المهمة إلا بإذنه.

١٢- ولا يمسك يده للسلام ويده مشغولة بشيء، كقلم أو أكل أو شرب، بل يسلم بلسانه، وينظر بعد ذلك ما يأمره به.

١٣- ولا يمشي أمامه ولا يساويه، إلا بليل مظلم، ليكون مشيه أمامه صونًا له عن مصادمة ضرر.

١٤- وألا يذكره بخير عند أعدائه، خوفًا من أين يكون وسيلة لقدحهم فيه.

١٥- وأنه يحفظه في غيبته كحفظه في حضوره.

١٦- وأنه يلاحظه بقلبه في جميع أحواله سفرًا وحضرًا لتعمه بركته.

١٧- وألا يعاشر من كان الشيخ يكرهه، أو من طرده الشيخ عنه.

١٨- وأن يحب كل من أحبه الشيخ، ويكره كل من يكرهه الشيخ.

١٩- وأن يرى كل بركة حصلت له من بركات الدنيا والآخرة فببركته.

٢٠- وأن يصبر على جفوته وإعراضه عنه.

٢١- وأن يحمل كلامه على ظاهره فيمتثله إلا لقرينة صارفة.

٢٢- وألا يتجسس على أحوال الشيخ من عبادة أو عادة، فإن في ذلك هلاكه.

٢٣- وألا يدخل عليه خلوة إلا بإذن.

٢٤- ولا يرفع الستارة التي فيها الشيخ إلا بإذن وإلا هلك.

٢٥- وألا يزور الشيخ إلا وهو على طهارة، لأن حضرة الشيخ حضرة الله تعالى.

٢٦- وأن يحسن الظن به في كل حال. ،

٢٧- وأن يقدم محبته على محبة غيره ما عدا الله ورسوله.

٢٨- وألا يكلفه شيئًا، حتى لو قدم من سفر لكان هو الذي يسعى ليسلم على الشيخ، ولا ينتظر أن الشيخ يأتيه للسلام عليه.

٢٩- وألا يكتم عن الشيخ شيئًا مما يخطر له.

٣٠- وألا يعترض عليه فيما يكون منه.

٣١- وألا ينظر في أفعال الشيخ، ولا يعتدى أمر شيخه، ولا يتأول عليه كلامه.

٣٢- ولا يطلب علة للأمر الذي يأمره به، بل يبادر إلى امتثال ما أمره به، سواء عقل معناه أو لم يعقل.. ومتى تأول على الشيخ ما أمره به، أو يقول: تخيلت أنك أردت كذا، فليعلم أنه في إدبار، فليبك على نفسه.

٣٣- ولا يلبس ثوبًا لبسه شيخه إلا إذا كساه الشيخ إياه.

٣٤- ولا يسأله عن شيء سؤال من يطلب الجواب منه، بل يجب عليه أن يقص ما وقع له، فإن أجابه كان وإلا فلا، وإن وصف ذلك على أن يجيب الشيخ فقد جعله سؤالًا، وإذا جعله سؤالًا فقد أساء الأدب.

٣٥- ولا يخون شيخه في أمر مأمور به.

٣٦- ومن شرط المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، إن غسل عضوًا من أعضائه قبل آخر أو حركه أو تصرف فيه كيف يشاء، فلا يخطر عليه خاطر اعتراضه.

٣٧- ولا يجلس بين يديه إلا مستوفزًا كجلوس العبد بين يدي سيده.

وذكر شروطًا إلى أن قال:

٣٨- ولا يقعد مقعدًا حيث كان إلا ويتيقن أن الشيخ يراه، فليلزم ذلك.

٣٩- ولا يديم النظر إليه، فإن ذلك يورث قلة الأدب والحياء، ويخرج الاحترام من القلب.

٤٠- ولا يكثر مجالسته.

٤١- ولا يقضي لأحد حاجة حتى يشاوره فيها.

٤٢- وإن طلق امرأة فمن الأدب ألا يتزوجها.

٤٣- ولا يدخل عليه متى دخل عليه إلا قبل يديه وأطرق.

٤٤- ويتحبب إليه بامتثال أمره ونهيه.

٤٥- وليكن حافظًا شحيحًا على عرضه.

٤٦- وإذا قدم إليه طعامًا فليلقه أمامه بجميع ما يحتاج إليه، وليقف خلف الباب فإذا دعاه أجابه وإلا فليتركه حتى يفرغ، فإذا فرغ أزال المائدة، فإن بقي شيء من طعامه وأمره بالأكل فليأكل، ولا يؤثر بنصيبه أحدًا.

٤٧- ويجتهد ألا يراه إلا فيما يسره، ولا يتمن عليه، وليحذر مكر الشيوخ فإنهم يمكرون بالطالب، فليحافظ على أنفاسه في الحضور معه.

٤٨- ومن شرط المريد ألا يرد على الشيخ كلامه، ولو الحق بيد المريد.

٤٩- الاعتراض على الشيخ حرام على المريدين وقوعه، فهذا مريد مسخر للشيطان.

٥٠- ومن شرط المريد إذا وجهه شيخه في أمر أن يمضي لأمره، من غير تأمل ولا توقف ولا يصرفه عنه صارف، حتى قال بعض الشيوخ لبعض المريدين: أرأيت لو وجهك شيخك في أمر فمررت بمسجد تقام فيه الصلاة، فما تصنع؟ فقال: امضي لأمر الشيخ ولا أصلي حتى أرجع إليه، فقال له: أحسنت.

٥١- ومن شروط المريد الوفاء بكل ما يشترط عليه الشيخ سواء كان صعبًا أو سهلًا، وليس للمريد أن يعترض على الشيخ في شيء... فإنهم قالوا: الاعتراض على الشيوخ سم قاتل.

وإن رأيت من الشيخ ما يتراءى عندك أنه غير مشروع فاتهم نفسك.

الولي ينظر إلى باطن المريد ولا عبرة عنده بظاهره.

كل ما يفعله الولي من الأعمال التي تعينه في الظاهر، إنما يكون بسبب معاصي الناس المريدين له، وإلا ما حصل له ذلك، ولو كانوا أصحاب خير وبر لرأوا كل ما يفعله حسنًا.

ولقد تركت ذكر آداب وشروط كثيرة واجبة لمشائخ الصوفية بإيجاب النبي ﷺ لها، على حد افتراء هؤلاء الكاذبين سراق عقول البشر، الذين لا يهمهم أن يدوسوا كرامة الإنسان بأرجلهم.

ولقد ظهر للقارئ الكريم من خلال ما قدمنا من الآداب التي تطلب من المريد - وهي في الحقيقة أغلال - ما يبعث على الأسى والحزن على أولئك الذي أصبحوا ضحايا الجشع الصوفي، ولقد كنت أتحرق غيظًا في أثناء كتاباتي لهذا الدجل الصوفي التجاني وتشويههم لصورة الإسلام السمحة، واستبعادهم لهؤلاء البله والعوام من المسلمين، إلى حد أنهم يشترطون عليهم أن يروا المنكرات التي يفعلها المشائخ، من الزنا، وبيع الحشيش، وسائر أنواع المنكرات - أن يروا ذلك إما أنهم يفعلونه لحكمة لا يعلمها إلا هؤلاء الأقطاب، أو بسبب معاصي الناس، أو أنها صور تخيل للشخص وليست حقيقية، فأي لصوصية هذه وأي استهتار بكرامة الإنسان؟!

قارن يا أخي المسلم بين من يدخل الإسلام ومدى ما يشعر به من كرامة لنفسه، حين يقال له: أنت الإنسان المكرم الذي سخر لك الله ما في السموات وما في الأرض،

وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، أنت أكرم على الله من السموات والأرض، أنت خليفة الله في هذه الأرض، إلى غير ذلك من تعاليم الإسلام، وبين تعاليم هؤلاء اللصوص المحترفين، حين يشترطون على الداخل في الإسلام على طريقتهم أن يرمي نفسه أرضا لا حراك به، كالميت بين يدي الغاسل، وإذا قدم لشيخه أكلًا أن يقف وراء الباب، ثم يأكل بعد ذلك ما يبقى بعد شبع شيخه الجشع الذي لا يسال عما يفعل.

لقد سد كهنة التصوف كل منفذ لعودة عقل الإنسان إلى الصواب وكبلوه بسلاسل وأغلال لا انفكاك له منها إلا إذا تداركته رحمة الله تعالى، ولهذا نجد أن من خرج عن طرقهم الفاسدة يكاد يصعق حين تذكر له.

تثليث صوفي

يقول الفوتي: "فإن المريد لا يجيء منه شيء حتى لا يكون بقلبه غير الشيخ، والله تعالى، والرسول ﷺ"، الشيخ، الله، الرسول.

تشريع جديد لأقطاب التصوف:

"ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيه أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات وخلاف الأولى".

تثبيت الفرقة بين المسلمين وإحكام قبضتهم على أتباعهم وحجرهم عليهم: يقول علي حرازم: "وأما أتباعه رضي الله عنه -أي التجاني- فقد أخبره سيد الوجود ﷺ أن كل من أحبه فهو حبيب للنبي ﷺ ولا يموت حتى يكون وليًا قطعًا، وأمره أن ينهي أصحابه عن زيارة الأولياء، الأحياء منهم والأموات، وكل من زار منهم ينسلخ عن طريقته.."، إلى أن يقول:

"ويجب على الشيخ ألا يترك أصحابه يزورون شيخًا آخر، ولا يجالسون أصحابه، فإن المضرة سريعة للمريدين".

"وسمعت سيدي عليًا المرصفي يقول: لا ينبغي لمريد أن يزور ولا يزار، لغلبة الآفات عليه".

تحكم على الله وترهيب للأتباع

"حكى القشيري في رسالته أن شقيقًا البلخى وأبا تراب النخشبي قدما على أبي يزيد، وقدمت السفرة وشاب يخدم أب يزيد، فقال شقيق: كل معنا يا فتى!، فقال أنا صائم، فقال أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فأبى، فقال شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فأبى، فقال أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله، فأخذ الشاب بعد مدة وقطعت يده بسرقة".

مبدأ باطني وهو التبني الروحي كما يسمونه

قال الفوتي: "الفصل الثالث والعشرون في إعلامهم بأن الوالد المعنوي الذي هو الشيخ أرفع رتبة وأولى بالبر والتوقير، وأحق رعاية، وآكد دراية، وأقرب حسبًا، وأوصل نسبًا من الوالد الحسي"، ثم جاء في هذا الفصل بكل طامة إلى أن قال أكاذيب ترددها النصوص الصحيحة والفطر السليمة في دور المشائخ الصوفية في يوم القيامة، منها:

"وأيضا يدعو المريدين بأسماء مشائخهم - أي في يوم القيامة - ويدعوهم إلى منازلهم، ودعاؤهم في ذلك اليوم الشديد الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت بأسماء المشائخ دون أسماء الآباء والأمهات يكفي دليلًا على ارتفاع رتبة المشيخة التي هي الولادة المعنوية، على رتبة الولادة الجسمية".

جزاء المشايخ

ومن هنا فجزاء المشائخ لا يكاد يبلغه أحد، وقد أوصله كهنة التصوف إلى مرتبة

فوق مرتبة الأنبياء حسب قولهم الآتي:

"والله لو وقف المريدون على الجمر بين يدي أحد أشياخهم منذ خلق الله الدنيا إلى انقضائها، ولم يقوموا بواجب حق معلمهم، في إرشادهم إلى إزالة تلك الموانع التي تمنعهم من دخول حضرة الله: قالوا: "ومن نسب تلميذًا إلى غير أستاذه، كمن نسب ولدًا إلى غير أبيه".

العشق والغرام في المذهب الصوفي وأكاذيبهم في ذلك

"روى السهرودي بسنده أنا النبي ﷺ قال حاكيًا عن ربه: إذا كان الغالب إلى عبدي الاشتغال بي، جعلت همه ولذته في ذكري، فإذا جعلت همته ولذته في ذكري عشقني وعشقته، ورفعت له الحجاب فيما بيني وبينه ولا يسهوا إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال الأبدال حقًا، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابًا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم".

وهذا الحديث بلا شك أنه من جنس الأحاديث التي يرويها الصوفي عن قلبه عن ربه مباشرة، دون أن يعلم بها النبي محمد ﷺ.

متى يسقط ذكر الله تعالى عند الصوفية، فلا يعود لذكر الله وجود في حقهم؟:

يقول الفوتي: "قلت: وإذا كثر العبد ذكر ربه باللسان حصل له الحضور، وإذا حصل له كثرة الذكر مع الحضور، صار الحق مشهودة، وهناك يستغني عن ذكر اللسان... لأن حضرة شهود الحق سبحانه حضرة بهت وخرس، يستغني صاحبها في الجمعية بالمدلول، فقد استغنى العبد عن الدليل فافهم".

ويوضح المقصود من الكلام السابق، قوله عما يجده الشخص في ميدان التصوف، في كفره الآتي:

"وفي هذا الميدان ينمحي الذاكر والذكر ويصير حالة أن لو نطق قال: أنا الله لا إله

إلا أنا وحدي لاستهلاكه في بحار التوحيد، وهذه المرتبة هي آخر مراتب الذكر وصاحبها صامت جامد لا يذكر ولا يتحرك".

وإذا ذكر الله بلسانه في هذه الحال، فإنه يعتبر في حقه ذنبًا وفي هذا الحال المعكوس يقول:

بذكر الله تزداد الذنوب وتنطمس السرائر والقلوب
فترك الذكر أفضل كل شيء وشمس الذات ليس لها غروب

زاد الله ذنوبهم وطمس سرائرهم، انظر كيف تلاعب الشيطان بهم حتى أصبح ذكر الله يزيد ذنوب الإنسان، ويطمس سريرته وقلبه، لأن الأولى به حين يصل إلى تلك المرتبة أن يترك كل شيء، ولاتحاده التام بالله تعالى؛ حيث تصبح ذاته لا غروب لها بعد ذلك.

مستند الصوفية في وجدهم ورقصهم

قال الفوتي: "قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه، فإذا انضم إلى هذا القيام رقص أو وجد ونحوه، فلا إنكار عليهم، فإن ذلك من لذات الشهود والمواجيد، وقد ورد في بعض طرق الحديث رقص جعفر بن أبي طالب بين يدي الرسول ﷺ حين قال له: أشبهت خلقي وخلقي، من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر عليه ذلك النبي ﷺ فكان هذا أصلًا في الجملة في رقص الصوفية ووجدهم".

ومما يدركه طلاب العلم أن هذا القول مملوء بالمغالطة والكذب، فأين اهتزاز جعفر وخفته في حال سماعه قول الرسول ﷺ، من رقص الصوفية وتمايلهم طربًا الذي لا يمت إلى الخشوع بأدنى قرابة، وبذكر لا يورث أيضا أي خضوع ولا ذكر للآخرة، مثل ما يذكره الفوتي بقوله في تعداد أنواع ذكرهم وقال:

"فلا حرج على الذكار ما دام مسلوب الاختيار ويستعمله كيف شاء على أنواع مختلفة كلها محمودة وصاحبها مشكور عليها، فلها أسرار، فربما يجري على لسانه الله الله الله، أو هو هو هو، أو لا لا لا لا لا لا لا لا، أو آآ آآ بالمد، أو أأ أأ أأ بالقصر، أو اهـ اهـ اهـ اهـ اهـ اهـ، أو ها ها ها ها ها ها ها ها، أو... عياط بغير حرف أو صراخ وتخبيط، فأدبه في ذلك الوقت أن يسلم نفسه لوارده يتصرف فيه كيف يشاء".

ولك أيها القارئ اللبيب أن تتصور الصوفي وهو يترنح يمينًا وشمالًا وهو يصرخ هو هو هو، أو لا لا لا لا لا لا لا، أو أأ أأ، أو ها ها ها ها ها ها ها ها ها، أو بغير تلك الصفات الهوجاء، بأن يكون عياطا بغير حرف، أو كان ذكره أن يصرخ، أو تخبط كالذي مسه الشيطان، فكيف تتصور النتيجة، إنها مآس تقشعر لها الجلود، إن هذا عار على الإسلام والمسلمين، بل عار على العقل والإدراك، إنك لو اطلعت عليهم وهم يرددون هو هو هو - ولم تكن تعرف التصوف من قبل - لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا.

ذكر الله وصفة طبية محتكرة على أقطاب الصوفية وبرضاهم: "اعلم أن الذكر المأخوذ عن غير شيخ، أو عن شيخ غير مفتوح عليه عارف، هلاك صاحبه أقرب من سلامته، ولا سيما أسماء الله تعالى"؛ وسبب ذلك يبينه أحد كهنة الصوفية - وهو عبد العزيز الدباغ - بقوله: "الأسماء الحسنى لها أنوار من أنوار الحق سبحانه، فإذا أردت أن تذكر الاسم، فإن كان مع الاسم نوره الذي يحجب من الشيطان وأنت تذكره لم يضرك، وإن لم يكن مع الاسم نوره الذي يحجب من الشيطان، حضر الشيطان وتسبب في ضرر العبد والشيخ إذا كان عارفًا وهو في حضرة الحق".

رؤية الثعلبي: من رأى الثعلبي أحد أقطاب الصوفية دخل الجنة. اجتمع أحمد التجاني بالشريف الحسني التهامي فقال له: "سمعت أن لك مزية عظيمة فقال له: ما

هي؟ قال له: من رآك يدخل الجنة، قال: نعم، إلا أن المزية ليست لي، فقال له شيخنا: لمن هي، قال: للشيخ الثعلبي؛ لأن من رآه ومن رأى من رآه إلى سبعة أو ثمانية، أو اثني عشر إنسانًا يدخل الجنة، وأنا رأيت من رأى من رآه".

وقال كذلك الثعلبي أنه قال: "من رآني إلى سبعة ضمنت له الجنة".

الأولياء والنبي ﷺ

الأولياء يرون النبي ﷺ يقظة لا منامًا، حسب زعم الفوتي في قوله: "الفصل الحادي والثلاثون في إعلامهم أن الأولياء يرون النبي ﷺ يقظة، وأنه ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث يشاء في أقطار الأرض والملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته ولم يتبدل منه شيء، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم، فإذا أراد الله أنا يراه عبد، رفع الحجاب فيراه على هيئته التي كان هو عليها".

وجاء في الباب بما لا يتصوره عقل سليم من مجيء النبي ﷺ إليهم ومقابلتهم له، وأخذهم عنه علومًا وفوائد، وغير ذلك مما لا نرى التطويل بذكره، وفوق ما تقدم يذكر الفوتي أن النبي ﷺ يحضر الديوان الصوفي، وقد أطال في أخبار هذا الديوان والترتيب الذي يسيرون عليه حينما يحضر الرسول ﷺ، أو حينما يتغيب، قال في أول ذلك الكلام:

"قلت: ولا ينكر رؤية النبي ﷺ يقظة إلا من لا شعور له بمقامات العارفين ولا اطلاع له على ديوان الصالحين، فها أنا ألخص لك شيئًا من ذلك"(١).

وقال الله من هذا التلخيص الذي هو أشبه ما يكون بحكايات ألف ليلة وليلة، إلا أن تلك الحكايات لألف ليلة وليلة لا تصل إلى عشر الأكاذيب التي ساقها أقطاب

(١) انظر رماح الفوتي ص ٢١٢: ٢١٤.

التصوف في تفاصيل ذلك الديوان الغريب، الذي يحضره الأولياء والنبي محمد ﷺ، أحيانا يحضره الأنبياء كلهم ويحضره أيضا الأموات، ويعرفون بعلامات في لباسهم وكلامهم[١]، وأخبار أخرى إذا قرأها العاقل حمد الله على نعمة العقل والدين.

والنبي ﷺ لا يحضر الديوان الصوفي فقط، وإنما يحضر أيضًا- حسب أكاذيب الصوفية - صلاة جوهرة الكمال، حسبما يقرره محمد السيد التجاني في كتابه الهداية الربانية؛ حيث يقول: "وكذلك يحضر الرسول ﷺ مع الخلفاء الأربعة، والشيخ، ومع عدد عظيم من صفوة الملائكة في الوظيفة السابعة من الجوهرة إلى الاختتام، ويشفع في جميع الحاضرين شفاعة خاصة تلحقهم، وتلحق السابع من أولاده ولو لم يكن فقيرًا، إن حضرها بمحبة في الذكر وأهله، ولو لم يعرف خاصيتها، بل يحضر النبي ﷺ لكل من قرأها في غير الوظيفة حتى يختم، ولو سار عمره ما فارقه ﷺ صباحًا أو فقيرًا أو تلميذًا، وهذا أغرب من كل غريب تفضل به الحق سبحانه على أهل هذه الطريقة لا غير".

ولئن كان محمد السيد التجاني، قد كذب في أن النبي ﷺ والخلفاء الأربعة وتلك الصفوف من الملائكة يحضرون، فإنه قد صدق حين قال عن كل ما ذكره سابقًا: "وهذا أغرب من كل غريب"، نعم إنه في منتهى الغرابة، فأي عقل سليم يصدق مثل ذلك الهراء السمج، والكذب على الله، وعلى نبيه، وعلى خيار الصحابة.

ولقد ذكرني كلامه بموقف مر علي حيث وقفت أمام بائع في حانوته- دكانه - وقد كتب عليها لوحة كبيرة هذا عنوانها "من يصدق؟! خصم خمسين في المائة! " فقلت له: نعم، لا أحد يصدق - وأنا أولهم - أنك تخصم خمسين في المائة فضحك وقال: "الناس لا يفهمون غير ما فهمته".

---

(١) انظر رماح الفوتي ص ٢١٢: ٢١٤.

أمثلة مختصرة من مزاعم التجاني يذكرها الفوتي، وفيها من المبالغات تزكية النفس وإطرائها ما لا يليق بمخلوق:

منها قوله:

١- قد أخبرني سيد الوجود ﷺ بأني أنا القطب المكتوم، منه إلى مشافهة يقظة لا منامًا.

٢- لا يشرب ولي، ولا يسقي إلا من بحرنا، من نشأة العالم إلى النفخ في الصور.

٣- إذا جمع الله خلقه في الموقف ينادي مناد بأعلى صوته حتى يسمعه كل من في الموقف: يا أهل المحشر! هذا إمامكم الذي كان مددكم منه.

٤- قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: قدمي هذا على رقبة كل ولي لله تعالى - يعني أهل عصره - وأما أنا فقدماي هاتان - وجمعهما - على رقبة ولي لله تعالى من لدن أدم إلى النفخ في الصور.

٥- هذا القرن أفضل من جميع ما تقدمه من القرون السالفة سوى القرون الثلاثة الوارد النص بأفضليتها.

ثم ذكر الفوتي فضائل من تمسك بطريقة التجاني نوردها ليقف القارئ على مدى الهوس والأماني الفارغة التي أقام الصوفية مذهبهم عليها:

١- أن جده ﷺ ضمن لهم أن يموتوا على الإيمان والإسلام.

٢- أن يخفف الله عنهم سكرات الموت.

٣- لا يرون في قبورهم إلا ما يسرهم.

٤- أن يؤمنهم الله من جميع أنواع عذابه وتخويفه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة.

٥- يغفر الله لهم جميع ذنوبهم ما تقدم وما تأخر منها.

٦- أن يؤدي الله عنهم جميع تبعاتهم ومظالمهم من خزائن فضله ﷻ لا من حسناتهم.

٧- ألا يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة ولا يناقشهم ولا يسألهم عن القليل والكثير.

٨- أن يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة.

٩- أن يجيزهم الله تعالى على الصراط أسرع من طرفة العين على كواهل الملائكة.

١٠- أن يسقيهم الله تعالى من حوض النبي ﷺ.

١١- أن يدخلهم الله الجنة بغير حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى.

١٢- أن يستقرون في عليين وجنة الفردوس وجنة عدن.

١٣- أن النبي ﷺ يحب كل من أحب التجاني.

١٤- أن محب التجاني لا يموت حتى يكون وليًا.

١٥- أن أبوي آخذي ورده وأزواجه وذريته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ولو لم يكن لهم به تعلق.

١٦- أن التجانيين تلاميذ للنبي ﷺ وأحباب الله.

١٧- أن أصحاب التجاني يعتبرون صحابيين مثل صحابة الرسول ﷺ.

١٨- أن أي أذية لأي تجاني تعتبر أذية للرسول ﷺ.

١٩- أن الإمام المهدي في آخر الزمان يأخذ عنهم ويدخل في زمرتهم ويطلب أن يعلموه الفاتحة.

٢٠- أن كل واحد من التجانيين أعلى من أكبر ولي من الأولياء ممن عداهم.

٢١- في الأذكار التي أعطيها التجاني اسم الله الأعظم.

٢٢- أن كل تجاني يحفظ الأذكار آمن من السلب.

٢٣- أن الله تعالى يعطيهم عن كل عامل تقبل الله عمله الضعف في أجره وهم رقود.

٢٤- لا يمر عليه ما يمر على سائر الناس من التعب في الموقف.

٢٥- أن النبي ﷺ يحضر هو وخلفاؤه مع التجانيين دائمًا.

٢٦- يتميزون يوم القيامة عن سائر الناس بأن كل واحد منهم مكتوب بين عينيه محمد ﷺ، وعلى قلبه مما يلي ظهره محمد بن عبد الله، وعلى رأسه تاج من نور مكتوب فيه الطريقة التجانية منشؤها الحقيقة المحمدية.

٢٧- أن التجاني لا يعذب ولو قتل سبعين روحا إذا تاب بعدها.

أقتصر على ما ذكر وإلا فإن الفوتي ذكر بعد ذلك مزايا تدل على سعة خياله وعدم خوفه من القول على الله بغير علم.

ثم ذكر مزايا لأذكار الطريقة التجانية لا يستطيع الخلق حصرها ولو جائوا بكل أجهزة الآلات الحاسبة، واستدل على ذلك بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وكل المخلوقات في السموات والأرض ومن فيهن والعرش والكرسي والقلم واللوح المحفوظ - كلها خلقت من نور محمد ﷺ، والأرواح كلها كذلك من نوره ﷺ. هذه الخرافات كلها يثبتها الفوتي في رماحه تبعًا لمفاهيم الصوفية الضالة، ويثبت أن الله قبل كل شيء ليس معه إلا ذات النبي ﷺ، وأن الملائكة وجبريل في أولهم إنما خلقوا لخدمة محمد ﷺ.

تلاعب التجانية بتفسير القرآن الكريم:

"أنه ﷺ عين الرحمة الربانية؛ لأن جميع الوجود رحم بالوجود بوجوده ﷺ، ومن يفيض وجوده أيضا رحم جميع الوجود؛ فلهذا قيل فيه: عين الرحمة ﷺ وهو

المراد بقوله: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}".

الصوفية باطنية ويفضلون العلوم الباطنية على العلوم الإسلامية

تسائل الفوتي على لسان شخص: ما الفائدة من الالتجاء إلى علم الشريعة – أي علم الظاهر – مع أن الحقيقة أي العلم الباطني أفضل؟، ثم أجاب عن ذلك، وصيغة السؤال والجواب هي: "فإن قلت: فلم لا يكتفي الإنسان بعلم الباطن المسمى علم الحقيقة، فيعمل بها حيث كانت هي المقصودة بالذات، فلم يقدم على الظاهر المسمى بالشريعة التي هي الوسيلة؟ "، قم قال في الجواب: "قلت: اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه أن علم الشريعة الذي هو علم الظاهر وسيلة إلى المقصود بالذات الذي هو علم الحقيقة كما ذكرت، وعلم الحقيقة افضل وأشرف منه، إلا أن الانتفاع بعلم الحقيقة منوط باستصحاب علم الشريعة"، ونقل عن عبد العزيز بن مسعود الدباغ قوله:

"إن علم الظاهر بمثابة الفنار الذي يضيء ليلًا، فإنه يفيد في ظلمة الليل فائدة جليلة. وعلم الباطن بمثابة طلوع الشمس وسطوع أنوارها وقت الظهيرة".

الفصل الثامن: الخلوات الصوفية ومنها الخلوات التجانية

أورد الفوتي في رماحه المعوجة، إيضاحات كثيرة لهذه الخلوات الصوفية تحتاج إلى دراسة مستقلة، ولئلا يفوت القارئ بعض أخبارها فإنني سأكتفي بإيجاز بعض ما قرره فيها كهنة الصوفية، الذين أسهموا بجهد كبير في تنويم الأمة الإسلامية وتأخرها، وتخدير كل عرق نابض فيها حتى وصلت إلى ما وصلت عليه، ومما لا يزال أقوى شاهد على تلك الجهود ما هو حاصل بين المسلمين في عصرنا الحاضر.

الدليل على الخلوات الصوفية حسب زعمهم: يستدلون بما رواه البخاري عن

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "أول ما بدئ برسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد -... " إلخ الحديث[1].

يقول الفوتي: "فهذا الحديث المنبئ عن بدء رسول الله ﷺ هو الأصل في إثبات المشائخ للخلوة لمريد من الطالبين"[2].

والجواب:

١- أن هذا الحديث بينه وبين الخلوة الصوفية فراق لا لقاء معه، فإن خلوة الرسول ﷺ إنما كانت لتحبيب الله ﷻ له ليهيئه لحمل الأمانة العظمى.

٢- كانت قبل أن يؤمر بتبليغ الناس الدين الإسلامي،

٣- لم يأمر بها النبي ﷺ ولا أشار إليها ولا استحسنها لأمته على الطريقة الصوفية.

٤- لم يفعلها أحد من الصحابة ولا من بعدهم من التابعين لهم بإحسان.

٥- أنها تنافي ما هو ظاهر من الشريعة الإسلامية، بالاكتساب وبدعوة الناس ومخالطتهم، إلى غير ذلك من الأجوبة التي يدركها طلاب العلم.

والخلوة الصوفية بدعة مستحدثة، وليس فيها أي نفع لا للشخص ولا للمجتمع، يخرج منها مظلم الفكر محلًا للوساوس نافرًا عن الناس.

مدتها:

يقول الفوتي: "وأكثرها عند القوم لا حد له، لكن السنة تشير للأربعين بمواعدة موسى ﷺ، والقصد في الحقيقة الثلاثون؛ إذ هي أصل المواعدة وجاور ﷺ بحراء

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ١/ ٢٢.

(٢) انظر: ما كتبه الفوتي ص١٦١ -١٦٨، وقد ذكرت ذلك هنا بتصرف.

شهرًا".

شروط الخلوة الصوفية

ذكر الفوتي ستة وعشرين شرطًا لصحتها نذكرها باختصار، وللقارئ أن يلاحظ أثناء عرضها مدى تغلغل الأفكار المخالفة للإسلام فيها، من بوذية وهندوسية ونصرانية وغير ذلك:

١- أن يعود نفسه قبل دخولها إذا أراد الشروع، السهر والذكر وخفة الأكل والعزلة.

٢- أن يكون دخول الخلوة بحضور الشيخ ومباركته له وللمكان أيضًا.

٣- أن يعتقد في نفسه أن دخوله الخلوة إنما هو بقصد أن يستريح الناس من شره.

٤- أن يدخلها كما يدخل المسجد مبسملًا متعوذًا بالله تعالى من شر نفسه، مستعينًا مستمدًا من أرواح مشايخه بواسطة شيخه المباشر.

٥- أن يدخل الشيخ الخلوة ويركع فيها ركعتين قبل دخول المريد ويتوجه إلى الله تعالى في توفيق المريد.

٦- أن يعتقد عند دخوله الخلوة أن الله تعالى ليس كمثله شيء، فكلما يتجلى له في خلوته من الصور، ويقول له: أنا الله، فيقل: سبحان الله! آمنت بالله.

٧- ألا يتلهف كثيرًا على كثرة ظهور الكرامات.

٨- أن يكون غير مستند إلى جدار الخلوة ولا متكئًا على شيء، مطرقًا رأسه تعظيما لله تعالى، مغمضًا عينيه، ملاحظًا قوله تعالى: أنا جليس من ذكرني، ثم يجعل خيال شيخه بين عينيه، فإنه معه وإن لم يره المريد.

٩- أن يشغل قلبه بمعنى الذكر على قدر مقامه، مراعيًا معنى الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

١٠- أن يداوم الصوم؛ لأنه يؤثر في تقليل الأجزاء الترابية والمائية فيصفو القلب.

١١- أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخل فيها شعاع الشمس وضوء النهار، فيسد على نفسه طرق الحواس الظاهرة، وسد طرق الحواس الظاهرة شرط لفتح حواس القلب.

١٢- دوام الضوء لتلألأ الأنوار فيها بعد ذلك.

١٣- دوام السكوت إلا عن ذكر الله تعالى إلا عند الضرورة القصوى فيتكلم بحذر شديد أن يزيد.

١٤- أن تكون الخلوة بعيدة عن حس الكلام وتشويش الناس عليه.

١٥- كونه إذا خرج للوضوء والصلاة يخرج مطرقًا رأسه إلى الأرض غير ناظر إلى أحد، ويحذر كل الحذر نظر الناس إليه، مغطيًا رأسه ورقبته بشيء؛ لأنه ربما يحصل له عرق الذكر فيلحقه الهواء فيضره.

١٦- أن يحافظ على صلاة الجمعة والجماعة - وإن وجد نفقة فليتخذ له شخصًا يصلى معه في خلوته؛ أي بالإيجار.

وإذا خرج لصلاة الجماعة فليتأخر حتى يكبر الإمام تكبيرة الإحرام فإذا انتهى من الصلاة رجع فورًا إلى خلوته ، قال السهروري: "وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته ولعل ذلك لشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة.

١٧- المحافظة على الأمر الوسط في الطعام لا فوق الشبع ولا الجوع المفرط.

١٨- ألا ينام إلا إذا غلبه النوم بأن تشوش عليه الذكر.

١٩- نفي الخواطر عن نفسه خيره كانت أم شريرة.

٢٠- دوام ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد والاستمداد على وصف التسليم والمحبة، والاعتقاد التام بأنه لا يصل إليه أي خير إلا من قبل شيخه المباشر، ومتى

غاب فكره عن الشيخ فقد خسر الصفقة.

٢١- ترك الاعتراض عن الشيخ؛ لأنه أعلم بمصالحه وأكبر عقلًا وأعظم؛ لأنه بالغ مبلغ الرجال بخلاف المريد.

٢٢- أنهم في أثناء خلوتهم لا يفتحون أبواب خلوتهم لمجيء الناس وزيارتهم والتبرك بهم، وإياك وتلبيسات النفوس وخداع الشيطان بالإلقاء فيك أن هذا الشخص يهتدي بك وبكلامك وينتفع بملاقاتك في الدين، فإنها من شبكات مكر اللعين.

٢٣- أنه إذا شاهدوا أشياء تقع لهم في اليقظة أو بين النوم واليقظة فلا يستقبحون ذلك ولا يستحسنونه، بل يعرضون ذلك على الشيخ وهو يتصرف بعد ذلك.

٢٤- دوام الذكر والأذكار حسب ترتيب الشيخ لها.

٢٥- الإخلاص وحسم مادة الرياء وطلب السمعة بالكلية.

٢٦- ألا يعين مدة يخرج بعد كمالها، فإن النفس يصير لها بذلك تطلع إلى انقضاء المدة، بل يدخلها وهو يحدث نفسه بأنه قد انتهى من الحياة ودخل القبر.

هذه أهم الشروط التي لفقها علماء التصوف مثل حرازم الفوتي والسهروردي والشيخ نجم الدين البكري وغيرهم من عتاة التصوف.

ولا شك أن القارئ يدرك تأثير هؤلاء الصوفية بالمبادئ الخارجة عن الإسلام، وكيف حاولوا أن يظهروها ويغطوها بغطاء إسلامي، وإلا فأين مستندهم من القرآن والسنة النبوية على تلك الرهبانية وتلك الخلوة، في ذلك الحفش المظلم، الذي يسد فيه أي شعاع للنور، ويجلس غير مستند على شيء؟ !، هل هو من الإسلام؟ !، وتلك الطاعة العمياء التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي لا ينبغي أن تكون إلا لله ولرسوله فقط، هل هي من الإسلام؟.

إن كل ذلك جناية، على العقل أيما جناية وإذلال للمؤمن أيما إذلال، وإساءة

لتعاليم الإسلام الحنيف وتشويه لصورته المشرقة عند من لا يعرفه.

وزوجة الشيخ المطلقة لا يحق للمريد أن يتزوجها لقول الله في حق نبيه محمد ﷺ {وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ}، يقول الفوتي في بيانه لأقسام الناس بالنسبة لطاعة شيوخهم:

"ومنهم من يتزوج مطلقة شيخه لولا قول الله تعالى: {وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا}.

أقسام الخلوات الصوفية

١- خلوة الأربعين يومًا التي تقدم ذكرها وشروطها.

٢- خلوة فاتحة الكتاب، وكيفيتها أن تصوم أربعين يومًا وتحترز فيها من أكل الحيوان وما يخرج منه، وتقرأ هذا الدعاء.. إلى آخر ما يذكر، وهنا لا أظن أن الأمر يحتاج إلى اجتهاد في استكشاف نزعة التصوف الوثنية.

٣- خلوة البسملة ومدتها تسعة عشر يومًا، ومن فاته سر بسم الله الرحمن الرحيم فلا يطمع أن يفتح عليه بشيء.

٤- خلوة الفاتحة أيضًا وهي أن يلازم بقراءتها بالخلوة أربعين يومًا.

٥- خلوة الياقوتة الفريدة، وخلوتها عشرون يومًا، تتلى كل يوم في الخلوة ألفي مرة.

وقال الفوتي بعد ذكر تلك الخلوات الخرافية: "انتهى ما أردنا ذكره منها، ولكل واحد منها ثمرات لا يمكن حصرها، منعني من ذكر بعضها الخوف من شياطين الطلبة". ولعله يدرك أن هؤلاء الطلبة ربما لا يزال فيهم وميض من العقل والمعرفة، فأخر الأخبار بكل التفاصيل إلى وقتها.

ولعل الذي شجع الصوفية على هذا الخبط والاضطراب، ما هو مقرر عندهم في

القاعدة الآتية: "أصحاب الفتح الأكبر لا يتقيدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل يدورون مع الحق عند الله تعالى أينما دار"، ولهذا فكل عمل يعملونه يعتبر من باب التشريع للأمة.

تثبيط الصوفية أتباعهم عن الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار وتسميتهم للجهاد بالجهاد الأصغر وتسميتهم لما يسمونه جهاد النفس بالجهاد الأكبر:

قال الفوتي: "انعقد إجماع الأمة على وجوب جهاد النفس، والهجرة عن مألوفاتها وردها إلى الله تعالى، أكبر من جهاد الكفار بلا ريب، لوجوه:

١ - أحدها: أن جهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها السيئة فرض عين وجهاد الكفار فرض كفاية.

٢ - أن النفس أعدى من كل عدو لصاحبها؛ لأن المجاهد جهاد الكفار إن قتل الكافر دخل الجنة، وإن قتله الكافر كان شهيدًا، بخلاف النفس فإن غلبها صاحبها استولى عليها، وكان الحكم للروح وسعد وسعدت سعادة الأبد، ومن غلبت وتسلطت على الروح تسلط عليه الكفر والمعاصي فيهلك.

٣ - إن ضرر الكفار مقصور في الدنيا وهي فانية ولذلك كان جهادهم أصغر... وفي عرائس البيان عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ} النفوس التي هي تجمع الهوى والبلاء والحجاب، من عرفها قاتلها وأمتها؛ يعنون الرياضات.

٤ - أن جهاد الكفار قد لا يكون فرضًا في بعض السنين، وجهاد النفس وردها عن مقتضى هواها والهجرة عن مألوفاتها الباطلة واجب عين على كل مسلم ومسلمة في كل لحظة.

٥ - أن بعض فروض الكفاية أفضل من جهاد الكفار.

٦- أن فرض جهاد الكفار يسقط بمنع الأمر والنهي من الوالدين، لوجوب طاعتهما، ويحرم طاعتهما في مجاهدة نفسه.

٧- أن جهاد الكفار يقدر عليه كل أحد وجهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها... لا يقدر عليه إلا الموفقين.

٨- أن شهيد جهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها المخزية شهيد قطعًا في الآخرة، وأكثر شهداء الكفار شهداء الدنيا فقط دون الآخرة.

٩- أن القائم بجهاد نفسه والهجرة عن مألوفاتها المضلة، قائم لإصلاح نفسه وساع في تخليصها من الدنيا وعذاب الآخرة، والقائم بجهاد الكفار قائم لإصلاح غيره

١٠- أن شهيد جهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها المبعدة عن الله تعالى أفضل من شهيد جهاد الكفار بدرجات.

وهناك أقوال أخرى كثيرة لأقطاب التصوف في تثبيط المسلمين عن جهاد الكفار، وتركهم، والانزواء في الزوايا والأربطة ومجاهدة النفس وإصلاحها دون إصلاح الآخرين.

ومن الواضح أن تلك التعليلات التي ذكرها الفوتي ويذكرها غيره من أقطاب الصوفية تعليلات واهية، تردها النصوص الكثيرة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه، كما في سورة براءة وكما في أحاديث فضل الجهاد والقتل في سبيل الله، وتمني الشهيد الرجوع إلى الدنيا مرة أخرى ليقتل في سبيل الله، ولما يرى من إنعام الله ورضاه عنه.

وزعم الصوفية أن جهاد النفس أولى مغالطة؛ فإن جهاد الكفار هو أعلى جهاد للنفس، وفضله أعلى وأشرف، ولو أن المسلمين أطاعوا الصوفية، وقبعوا في الزوايا المظلمة، وتركوا قتال الكفار، واهتموا بجهاد أنفسهم على طريقة الصوفية لجاء

الكفار ، ولكان أول ما يبدءون به هو إخراج هؤلاء الدواجن من زواياهم، ثم هتك أعراض المسلمين وأخذ بلدانهم وأموالهم وإذلالهم وإهانتهم. إن ما يذهب إليه هؤلاء الصوفية هو تخدير وتنويم للمسلمين.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خدّه بدموعه فنحورنا يوم الكتيبة تخضب

ومن الواضح أن أعداء الإسلام حينما ينظرون إلى الصوفية بعين الرضا والارتياح، فإنما ذلك لأجل هذه المواقف المتخاذلة التي وقفها أقطاب التصوف منهم، ولقد اتفقت دعوة الصوفية إلى ترك الجهاد مع كل الأفكار الخارجة عن منهج الله ﷻ؛ إذ ما من طائفة من تلك الطوائف إلا وكانت الدعوة إلى ترك الجهاد من أولويات اهتماماتهم.

وأرجو من الله ﷻ أن يهيئ لدراسة الأفكار الصوفية المتقدمة دراسة وافية، ورد كل مزاعمهم التي فرقوا بها دينهم وأمتهم إلى وقتنا الحاضر.

الفصل التاسع: مغالطات لجنة جماعة الصوفية في مدينة "ألورن" في نيجيريا

وأما لجنة جماعة الصوفية في مدينة "ألورن" في نيجيريا فقد أرادوا تحسين الوجه الكالح للتجانية والقادرية أيضًا؛ حيث أخرجوا كتيبًا باسم "رفع الشبهات عما في القادرية والتجانية من الشطحات"، وقام بترتيبه الحاج محمد إبراهيم النفاوي القادري، والحاج علي أبو بكر جبتا التجاني. وقد صدروا هذا الكتيب بأبيات للحاج حمزة سلمان أبارغدرما الألوري ومنها:

انتبهوا يا معشر الإخوان على فساد واعظي الزمان

قد دخلوا في هذه البلدان لنصرة الإلحاد والشيطان

وطعنوا في شيخنا التجاني وطعنوا في شيخنا الجيلاني

إلى آخر تلك الأبيات التي يدافع بها عن التجانية ويحذر من دعوة المصلحين من المسلمين إلى رجوع التجانيين إلى الحق، وقد وصف هذه الدعوة الإصلاحية أنها نصرة للشياطين وللإلحاد، لمجرد انتقادها منهج التجانية وجرائمه.

الفصل العاشر: كيفية الدخول في المذهب الصوفي

للصوفية طرق عديدة ومسالك مظلمة وقواعد خاصة للتربية حسب منهجهم، وكيفية ذلك عندهم نوجز الكلام عنه فيما يلي:

١- أول ما يجب على الداخل هو أن يختار الفرد أو الجماعة من المريدين شيخًا لهم يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى وزعم تصفية القلب للوصول بالمريد إلى معرفة الله، هكذا يزعمون وهو في الحقيقة يصل إلى متاهات وضلال بعيد،

ولا يتم السير في الطريق الصوفي إلا إذا عطل المريد عقله وفكره.

٢- أن يتبع المريد شيخه أتباعًا مطلقًا حتى وإن كان في تحريم الحلال وإحلال الحرام.

٣- عليه أن يردد ما يردده الشيخ من أذكار.

٤- ثم يكون وجوبًا عليه أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، فإن الاعتراض وإبداء الرأي من أكبر الأخطار على المريد وطرده عن رحمة الله.

٥- وعليه كذلك أن يعتقد أن جميع ما يفعله الشيخ هو الحق والصواب حتى وإن رآه يشرب الخمر ويزني؛ لأن الشيخ لا يفعل الفواحش بروحة وإنما بصورته البشرية لتربية المريدين، وهذا مخرج للصوفي إذا فعل فاحشة، وما أكثر ما يفعلونها تحت هذا الستار، وعلى التلميذ أن لا يفكر في أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ لأنه يتعارض تمامًا مع ما يراه زعماء الصوفية من وجوب التسليم للشيخ في

كل ما يأتي ويذر.

٦- كما أنه يجب عليه أن يجتاز تلك الخلوة المفروضة.

٧- وأن يتصور صورة الشيخ ماثلة أمامه في كل حال، وأن يعتقد أن الشيخ يعلم بكل شيء عنه وهو في داخل خلوته، ويعرف كل شؤونه ما دق منها وما جل.

٨- وأن لا يغير شيخه بآخر.

٩- ولا يزور أحد المشائخ والأولياء ما دام في أول أمره.

١٠- وأن يمشي في الطريقة منزلة منزلة حتى يصل إلى القطبانية.

١١- وألا يخالط المقصرين والبطالين من أهل قيل وقال.

١٢- وألا يضن بماله ولو طلبه الشيخ كله.

١٣- وأن يرضى بالذل الدائم وحرمان النصيب، والجوع الدائم والخمول وذم الناس له، وتقديم أضرابه وأشكاله وأقرانه عليه في الإكرام والعطاء والتقريب عند الشيوخ ومجالس العلماء، فيجوع هو والجماعة يشبعون والكل أعزاء ونصيبه الذل، ويعز الجماعة ويستجيز الذل ويجعله نصيبه. قال الجيلاني بعد أن ذكر ما سبق:

"فمن لم يرض بهذا ويوطن نفسه عليه فلا يكاد أن يفتح عليه ويجيء منه شيء"[1]، إلى آخر ما ذكر الجيلاني مما يطول نقله.

وأول المنازل في الطرق الصوفية يسمى فيها الداخل مريدًا، أي يريد السير في الطريقة، وتسمى منزلة الإرادة يقبلة الشيخ ويأخذ عليه العهود بالتوبة من الذنوب وصدق النية وترداد الأوراد المقررة عليه من الشيخ، وألا يعتقد أي معتقد لم يقره الشيخ، ولا يحق له الاعتراض على الشيخ حتى إن رآه مخطئًا.

---

(١) ٢/ ٦١٣ باب فيما يجب على المبتدئ في هذه الطريقة أولًا إلى آخر ص ١٦٩؛ حيث ذكر الآداب التي تجب على المريد والآداب التي تجب على الشيخ.

ويسمى بعد توجهه وإرادته المذهب الصوفي سالكًا، وبعد استمراره وسلوكه ومواظبته على الأوراد التي يلقنه الشيخ، فإذا أتقنها انتقل إلى مرتبة أخرى تسمى مرتبة العبودية[(١)]، وعليه أن يكثر من الضراعة والإلحاح إلى الله بترداد ما يمليه عليه المشائخ من أذكار وأوراد.

ثم ينتقل المريد إلى مقام آخر حيث تقبل عليه العناية الإلهية وينتقل قلبه إلى مقام العشق لله، وعلى المريد هنا أن يكثر من الرياضة التي توصله إلى ربه فيما يزعمون، فيكثر من الأوراد والعزلة بنفسه والندم الشديد حتى تتملكه - بزعمهم - حال علوية شريفة ينتقل بها إلى مقام يسمى (الوجد[(٢)] والهيام) وهو أسمى من مقام العشق، وعند هذا المقام المزعوم تتوارد على قلب السالك النفحات الربانية، ويعتقدون أنه في هذه الحال تزداد معرفة السالك الباطنة الصفات الذات العلية.

وهنا يصل السالك فيما يزعمون إلى الحقيقة وتسمى هذه المرحلة - مقام الحقيقة - التي يعرفها المنوفي بأنها "مشاهدة الربوبية"، وهي في الحقيقة الوصول إلى أعماق الوثنية والحلول، فإذا وصل بزعمهم إلى مقام الحقيقة يمكنه أن يظل يرتقي إلى أن يحقق منازل ثلاثًا هي: "الفناء"، و "اللقاء"، و "البقاء"، والفناء يقصدون به أن يفنى العبد عن كل شيء في الله تعالى، ويصير كما قال الحلاج: ما في الجبة إلا الله.

فالوجود عنده كله يمثل الله - تعالى عن قولهم، وخصوصًا النساء فإنه يتمثل فيهم بصورة أكمل، ومن هنا بدى على أدبهم العشق والغرام والهياج الجنسي إلا أنهم زعموا أن هذا الغزل وهذا الهياج الملتهب إنما هو في الله، وسموه الحب الإلهي

---

(١) عرفها المنوفي بقوله: "العبادة غاية التذلل للعامة، والعبودية صدق القصد للخاصة" جمهرة الأولياء ١/ ٣٠٦.

(٢) يقول النوفي: "الوجود: وجدان الحق بذاته ولهذا تسمى حضرة الجمع حضرة الوجود" جمهرة الأولياء ١/ ٣١٢.

يجتمع الرجال والنساء ويرددون إما أبياتًا شعرية أو غيرها في رقص وتمايل، كما يحصل في الرقصات والسهرات مما يتنافى مع أبسط المثل الإسلامية والخشوع المطلوب في العبادات.

وأما اللقاء والبقاء فإن الصوفية يقصدون بذلك أن العبد من خلال تلك المنازل تتجلى عظمة الخالق سبحانه على قلب السالك فلا يرى أمامه إلا الله، ولا يجد في الوجود جميعًا إلا واجب الوجود سبحانه، وتمحى أثار الموجودات من أمام عينيه إلا وجود الله سبحانه وتعالى، قال المنوفي: "سئل أبو يعقوب النهرجوري عن صحة الفناء والبقاء فقال: الفناء هو رؤية قيام العبد بالله ﷻ، والبقاء رؤية قيام الله تعالى منفردًا بذاته".

وهذه الدرجات هي ما عبر عنه الحلاج بقوله: "ما في الجبة إلا الله".

وللسهرودي والمنوفي تفاصيل كثيرة حول المقامات ومراتبها العديدة في كتاب السهرودي "عوارف المعارف" وكتاب المنوفي "جمهرة الأولياء"،

والواقع أن غلاتهم وقعوا في هوس وتخبط، وتلاعب الشيطان بهم لبعدهم عن منهج الله وشرعه، فجاءوا بأفكار وأقوال وحكم تنضح وثنية وجهلًا وأشعار غزلية، وقد قال الشافعي: "ما تصوف رجل في أول النهار وأتى عليه الضحى إلا وهو أحمق".

والحاصل أن تلك هي الطرق لدخول المذهب كما أتضح مما سبق، ونجمل أهمها فيما يلي

١ - أن يلتزم الشخص أمام شيخه بالمحافظة على الطريقة التي يحددها له الشيخ.

٢ - أن يكون المريد - أي الدال في المذهب - على صلة بشيخه المأذون له هو

أو من ينيبه الشيخ عنه ليتولى تعليم المريد.

٣- أن يجتاز المريد عهدًا يعاهد الشيخ ويده في يده مغمضًا عينيه على الالتزام والوفاء الدائم لشيخه ولطريقته لا يحيد عنها ابدًا.

٤- أن يكون المريد دائم الاشتغال بالأوراد والأدعية التي يقررها عليه الشيخ سواء عرف معانيها أم لا.

٥- أن يكمل مدة الخلوة التي يقررها الشيخ على المريد في سرداب أو دهليز أو زاوية مدة لا تزيد عن أربعين ليلة ولا تقل عن أربعين ليلة ولا تقل عن عشر ليال، ولهم شروط كثيرة لصحة هذه الخلوة قاسية جدًا يخرج الشخص منها وهو في منتهى الحمق والبلادة والغفلة عن كل شيء إلا عن شيخه وأذكاره، وهو الهدف الحقيقي من تلك الفكرة.

ومن الشروط التي يقطعونها للمريد على أنفسهم - حسب زعمهم - أن يصبح من أهل الكشف، وأن يترقى في ذلك إلى أن يتعلم ما وراء العقل ويصبح من أهل التجلي، بحيث تدرك ذات المريد ذات الله في كل وقت.

أن يفنى المريد عن كل شيء غير الله تعالى، فلا يحس بأي وجود غير وجود ربه وشيخه، وبذا يصبح الشخص من أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود؛ لأن الله قد ظهر في كل شيء حسب تعاليمهم بعد فناء المريد عن كل شيء وتصوره أن الله أمامه في كل مكان.

أن يطلب المريد علم الباطن الذي هو بمنزلة اللب، وأن يتعمق في العلم الباطني حسب ما يمليه عليه الشيخ، وإذا تطور في ذلك فإنه يصل إلى حد اليقين فتسقط عنه التكاليف كما يفترون ويصبح وليًا من الأولياء.

وهذه القواعد والشروط الصوفية يتمرن عليها الشخص أو الأشخاص الذين

يريدون الداخل في متاهات الصوفية، حتى يتقبلها الدخول بقبول حسن، فيموت فكره وذوقه ويصبح في الحقيقة عبدًا ذليلًا لمشائخ الصوفية، فيسلكون به طرقًا ملتوية وتعاليم معقدة حتى تثبت في ذهن الداخل أمور عظام أقلها أن لا حلال ولا حرام، ولا علم ولا عمل إلا ما جاء عن شيخ طريقته وإذنه به، وما يتلقاه عن قلبه عن ربه وما يمليه عليه ذوقه أيضًا.

وإذا أراد القارئ التوسع في هذا ومعرفة كيفية الدخول في الطريق الصوفي فعليه بالرجوع إلى عوارف المعارف للسهروردي وإلى ما كتبه الجيلاني في كتابه الغنية.

قال المنوفي في بيان بعض المسالك الصوفية ومنزلة الشيخ فيها: "وإذن فهناك طريق الله، وسالك يسلك ذلك الطريق، ومرشد يدل على مفاوز الطريق... وذلك الطريق الذي كان أول مرشد له الرسول ﷺ بعد أن تحلى بدقائق الإيمان... وبعبارة أخرى هو طريق التصوف الذي كان أول خطوة فيه أن بايع الرسول ﷺ العشرة أهل بيعة الرضوان... فمن بدأ السير فيه فهو مريد التصوف، ومن توسط فهو سالك متعرف، ومن انتهى إلى مقام التحقيق فهو المرشد المحقق.

وقد أوصل المنوفي الدرجات إلى سبعين درجة، يكاشف العبد في آخرها إذا ترقى فيها مقامًا مقامًا، ولا طائل من وراء سرد كل ما قرره أقطاب التصوف كالسهروردي والمنوفي والغزالي والقشيري.

فإنه يكفي أن يقال في الجواب عنها: أنها بناء في الهواء وأفكار لم يرشد إليها كتاب ولا سنة ولا أقوال علماء الأمة الإسلامية أصحاب العقول النيرة الذين أعرضوا عن تكليف ما ليس لهم به علم من الأمور الغيبية التي لا يصح فيها الحكم إلا لله ولرسوله ﷺ.

الفصل الحادي عشر: أصول الصوفية

يزعم المتصوفة: كما هو شأن كل الطوائف المفارقة للمنهج الرباني أنهم على حق وأن ما يدينون به من أفكار وخرافات إنما هي نابعة من تمسكهم بالكتاب والسنة وفهم حقائق الإسلام، وهذه الدعوى ينتحلها زعماء الطوائف بغرض ترويج مبادئهم وإظهارها بمظهر الحق مهما كانت بعيدة عنه.

وذلك أن دعوى التمسك بالكتاب والسنة سهلة على اللسان ولكن التطبيق هو الذي يصدق ذلك أو يكذبه.

وقد ذكر أحد أعلامهم وهو السيد محمود أبو الفيض المنوفي بعض مستنداتهم فقال: "والتصوف الإسلامي نبعه القرآن أولًا وسنة الرسول ﷺ ثانيًا والفقه في الدين فروعًا وأصولًا ثالثًا ولهم - أي المتصوفة - فوق ذلك قواعد وقوانين صوفية استمدوها من حقائق اليقين وخفي معاني القرآن، ومن دقائق السنة عملية معملية، ومتابعة رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، وهذا في الواقع مستمد علم التصوف الإسلامي"(١).

أي أنهم يرجعون في جملة مستنداتهم إلى تلك الدعوى العريضة وهي أخذهم الأحكام من حقائق اليقين وخفي معاني القرآن، وفي الحقيقة إنما يرجعون إلى الهوى، وإلى تفسير القرآن باطنيًا غير مستندين إلى المعاني التي ذكرها العلماء من أهل الحق لمعاني تلك النصوص.

ثم يذكر المنوفي مستندًا آخر لهم بقوله: "ومستمد الصوفية هم أهل الصفة، وإن كان تعريف الاسم يناسب لبس الصوف من حيث الاشتقاق. وهذا صحيح؛ لأن أهل الصفة وغيرهم من الروحيين في الإسلام وقبل الإسلام، ومن قديم الزمان كانوا يلبسون الصوف لخشونة فيه وهم متخوشنون، أو قل لسبب لونه الأبيض الذي يرمز

(١) انظر كتاب جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف ١/ ١٥٤.

إلى الطهارة والصفاء، وكان أيضًا لباس الحواريين".

ويذكر الغزالي أن مستندات الصوفية وأصولهم مشاهدة الملائكة وأرواح الأنبياء، والخضر بخصوصه ومخاطبتهم فهو يقول:

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد، ثم تترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها النطاق، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظة خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه إلا لمن رسخ فيه ونهل منه منهله".

وبطلان هذا الكلام واضح، وربما أن الذين يشاهدونهم بزعم أنهم الملائكة أو أرواح الأنبياء وسماع الأصوات إنما هي شياطينهم تتلاعب بهم وتتراءى لهم ليضلونهم، وما أكثر خدع الشياطين لإغواء الناس.

وكذلك من مزاعمهم وأصولهم في مستندهم إلى الطريق إلى الله علم الباطن الذي أفضى به رسول الله ﷺ إلى علي رضي الله عنه، وعلي أفضى به إلى الأئمة المذكورين في كتبهم، وذلك فيما يزعمون أن جبريل عليه السلام نزل إلى رسول الله ﷺ أولا بالشريعة فلما تقررت الشريعة واستقرت نزل إليه بالحقيقة المقصودة والحكمة المرجوة من أعمال الشريعة وهي الأيمان والإحسان، ثم خص الرسول ﷺ بتعليم باطن الشريعة بعض أصحابه كعلي ثم الحسن دون بعض.

وحاشا رسول الله ﷺ من كذب هؤلاء، وقد سرد المنوفي أسماء السلسلة التي تداولتها الصوفية ابتداءً بالإمام علي إلى أحمد بن عطا الله السكندري، صاحب لطائف المنن، أورد بعض النصوص المرفوعة كذبًا إلى رسول الله ﷺ يذكر فيها أن كل آية لها ظاهر وباطن وظاهر الآية ما ظهر من معانيها، وباطنها ما تضمنته من أسرار

إلهية لا يطلع عليها إلا أهل المعرفة بالله ممن سرد أسماءهم من أوليائه الذين يعلمون علم الباطن في زعمه.

ولقد نفى عليّ ﵁ أن يكون رسول الله ﷺ قد خصهم بعلم دون سائر البشر، وقد سبق إبطال الباطنية في دعواهم أن النصوص لها ظاهر وباطن.

ويقول المنوفي أيضًا في دعواهم الالتصاق بأهل الصفة: "وكان عظماء أهل الصفة بل جلهم من أوائل الصوفية وأهل طريق الله، وحسبنا في ذلك أن نزل فيهم قرآن عند قوله تعالى لنبيه ﷺ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَّ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} ".

ويقول الشعراني في مستند القوم: "مقدمة في بيان أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة، وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وبيان أنها تكون مذمومة إلا إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير".

لكنه أضاف بعدما تقدم قوله عن مستند جديد: "ثم اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء"، إلى أن قال: "فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلًا صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق".

ومستند آخر أيضًا يذكره بقوله: "ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات، وآدابًا ومحرمات، ومكروهات وخلاف الأولى، نظير ما فعله المجتهدون". ومن هنا نجد أن الصوفية ينفرون أشد النفور من العلم عن طريق التعلم، ويفضلون ما يسمونه علم الكشف بلا واسطة وهو ما عبر عنه محي الدين بن العربي حينما كتب إلى الرازي كتابًا جاء فيه:

"إن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله ﷻ بلا واسطة

من نقل أو شيخ، فإن كان علمه مستفادًا من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلوم عند أهل الله ﷻ"، إلى أن يقول: "فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين"(١).

ويقول الشعراني في هذا المعنى ناقلًا عن شيخه البسطامي، موضحًا مصادر التشريع في ذوقهم: "وكان الشيخ كامل أبو اليزيد البسطامي رضي الله عنه يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت".

وبعد هذا الكلام لا يلام من احتار في أمر الصوفية ومصادرهم، فبينما هم يحضون على التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وعدم الخروج عنهما إذا بهم يفصحون بالحقيقة في النهاية وهي أن مصادرهم في التشريع إنما هو الكشف والإلهام وهو فعلًا ما سلكوه في كل سلوكهم وتشريعاتهم.

وعلى نفس المعنى السابق يقول الفوتي: "إن الولي المفتوح عليه لا يتقيد بمذهب معين من مذاهب المجتهدين بل يدور مع الحق عند الله تعالى أينما درا"، أي حسب تجدد الكشف له والإلهام الرباني المتكرر عليه، وهو كذلك يشير إلى قول أحمد بن المبارك في الإبريز حيث قال:

"إن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب ولا يتقيد بمذهب من المذاهب، ولو تعطلت المذاهب بأسره لقدر على إحياء الشريعة، وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين ولا يخرج عن مشاهدة الحق جل جلالة لحظة".

والواقع أن كل منصف له أدنى إلمام بالشريعة الإسلامية لو حكم في دعاوى الصوفية وفي زعمهم شرعيه شطحاتهم، ومستنداتهم في ذلك كله لا تضح له بما لا

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٥.

خفاء به أن المتصوفة قد جانبوا الصواب في كثير من أمور الدين، وأنه لا مستند لهم إلا هواهم الذي يسمونه الكشف والإلهام الصريح، دلك أن قولهم: أن التصوف نبعه القرآن والسنة والفقه في الدين، وفوق ذلك أن له قواعد وقوانين استمدوها من حقائق اليقين دعاوى غير ثابتة.

فليس في القرآن آية واحدة في شريعة غلو التصوف، وليس في السنة النبوية عبارة واحدة جاءت دليلًا يسند شطحات الصوفية وأورادهم وترنيماتهم وحلقات رقصهم، وليس في علوم الفقه الإسلامي وأصوله شيء من هذا القبيل، ثم هم لا يذكروا أيضًا أدلة من القرآن تدل فعلًا على ما يذهبون إليه.

وقد تلمسوا بعض الأدلة من السنة أساءوا الفهم فيها؛ ولهذا جعلوا القواعد والقوانين الصوفية فوق المصادر الثلاثة: القرآن، والسنة، والفقه الإسلامي، كما قال المنوفي: "ولهم فوق ذلك قواعد وقوانين صوفية استمدوها من حقائق اليقين"؛ ولهذا تجد السلسلة عندهم حدثني قلبي عن ربي: "وهذه الحقائق اليقينية التي ذكرها المنوفي في الحقيقة من جنس الهوى والاضطراب الفكري، ثم حرفوا معاني القرآن إلى ما يوافق أهوائهم كما فعلت الباطنية تمامًا.

إن ما زعمه القطب الصوفي صاحب كتاب جمهرة الأولياء من أن مستمد الصوفية هم أهل الصفة إنما هو دليل على خواء علمي بالكتاب والسنة وسيرة الصحابة الكرام، فهل كان لأهل الصفة تشريع خاص بهم، وهل كان لهم شرف يحبون الحفاظ عليه والانتساب إليه غير شرف الانتساب إلى الإسلام وطاعة الله وطاعة نبيه ﷺ.

وأهل الصفة الذين ذكرهم المنوفي هم خيار الصحابة كأبي هريرة وخباب بن الأرت وبلال وسلمان الفارسي وأبي سعيد الخدري وأبى برزة الأسلمي وصهيب بن

سنان وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر وأبو فكيهة ووابصة بن معبد الجهني وأنس بن مالك".

فهل هؤلاء الأعلام الأبرار أصحاب رسول الله ﷺ هم أهل الصوفية وهل كان هؤلاء على الزعم الصوفي هم سلف الحلاج وابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، وغيرهم من عتاة الصوفية الذين يأخذ أحدهم السكر بالله كما يزعمون إلى حد أن يقول لا إله إلا أنا - أو ما في الجبة إلا الله - أو قولهم - العبد رب والرب عبد، يا ليت شعري من المكلف هل يمكن أن يكون أساس هؤلاء هم أولئك الأخيار.

بل إن المنوفي زعم أن الله ﷻ أمر نبيه أن يكون صوفيًا فقال: "وأيضًا قد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ بعد أن رباه وكمل خلقه وأتم عليه نعمته بأن يتصوف ويندمج في الصوفية بقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَّ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}.

ومع بعد هذا الاستدلال عن ما يهدف إليه المنوفي فإنه يواصل ما يعتبره أدلة على أن الرسول ﷺ هو أول من مشى على الطريق الصوفي فقال: "وأن الله ﷻ قبل أن يرسل محمدًا برسالته الكبرى، والملة العظمى أمره بدخول الخلوة (غار حراء) " إلى أن يقول: "فلما دخل الرسول الخلوة وتعبد وتحنث في غار حراء، وفيه قد أكثر من الذكر والاستغفار والاعتكاف... وما نعتبر هذا النمط من العبادة الخاصة إلا أن نعده تصوفًا إسلاميًا رفيعًا.

وأن الرسول ﷺ قد بدأ متدرجًا في الكمال كمريد ثم تهيأ لحمل الرسالة؛ ولذا وصفه الله في كتابه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، وحتى بعد أن حمل الرسالة وأصبح سيد المرسلين أمره الله بأن يصاحب أهل الصفة، وذلك واضح في قوله": {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَّ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} أي يا

محمد".

لقد قالب المنوفي الأمور وحاول جاهدًا أن يقيم الأدلة على أن نبينا محمدًا ﷺ كان صوفيًا قولًا وفعلًا قبل إن تأتيه الرسالة وبعد ما جاءته أيضًا، وأنه ابتدأ كأي صوفي "مريدًا" ثم تدرج في الكمال.

وإذا أمعنا النظر في هذا التصوف الذي سار عليه الرسول ﷺ قبل الرسالة حسب رأي المنوفي فلا نجد للمنوفي مستندًا إلا إلى منشأ التصوف الذي كان قبل الإسلام متمثلًا في شتى الديانات المنحرفة على حد قوله الآتي:"... وإن تعرجت تعاليم التصوف وتلونت بعض فروعه ألوانًا عدة، واتجهت تلك الفروع اتجاهات مختلفة بسبب المذاهب الموروثة للداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس وإسرائيليين ومسيحيين، الذي شجع عليه المأمون ومن بعده من الخلفاء العباسيين.

فترجم المسلون كتبًا كثيرة من التصوف الهندي واليوناني والفارسي، وطمعت بعض فروع التصوف الإسلامي الخالص بما دخل عليها من النزعات الأفلاطونية الحديثة أو القديمة، وبعض المذاهب الهندية والفارسية في التصوف كنظرية الحلول والاتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذلك".

وبلا ريب فإن هذه الشهادة منه على ما في التصوف من خلط واضطراب وتعاليم خارجة عن الإسلام لا تحتاج إلى تعليق أحد عليها فكيف تتفق بعد هذا مفاهيم التصوف مع المفاهيم الإسلامية المنزلة على محمد ﷺ، ويبقى أن ما قرره المنوفي من أن الرسول ﷺ هو أول من سن قواعد التصوف حينما كان يخلو بنفسه ويتعبد في غار حراء وهو منتهى الجهل وأشنع القياس.

ولاحظ تناقض المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء حينما لم يستطيع أن يخفي حقيقة التصوف حيث باح بأن الصوفية قد تأثرت إلى حد كبير بعقائد الداخلين في

الإسلام من هنود وفرس وإسرائيليين ومسيحيين، ولا سيما في عصر الترجمة لفلسفة هؤلاء؛ حيث أخذ التصوف منها جوانب لم ينكرها المنوفي وهو في كل كتاباته عنهم يكيل المدح للصوفية، وأن أول متصوف في الإسلام هو الرسول ﷺ، وأن الله أمره بذلك ليسنّ الطرق الصوفية ابتداء بالخلوة في غار حراء ثم الزهد.

وإذا كان الرسول ﷺ هو أول المتصوفة فكان ينبغي عليهم أن يقدروا هذا الموقف فيقبلون سنته لا أن يردوها ويعيبون أهل الظاهر كما يسمونهم ممن يخالفهم من أهل الحق حين يقولون لهم: أنتم تأخذون الحديث بسند ميت عن ميت، حدثني فلان وقد مات عن فلان وقد مات، على نحو ما قاله البسطامي ناعيًا على علماء الشريعة ومفاخرًا لهم حين قال لهم: "أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت؛ ويقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان وأين هو؟ قولوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا: مات".

وهذا القول إنما يدل على جهل وبغض للسنة النبوية ولأهلها وللطريقة التي يتداولها أهل الحق في تلقي دينهم من مصدره الفياض.

كما أنه من غير الإنصاف أن يقصروا ذلك المسلك عليهم فقط؛ لأنه في استطاعة كل شخص من الناس أن يقول حدثني قلبي عن ربي، وأن يدعي من الزهد والقرب من الله مثل ما يدعون، ثم أنه يلزم على قولهم الأسانيد الثابتة إلى رسول الله ﷺ؛ لأن أصحابها قد ماتوا فيقال لهم: والنبي ﷺ نفسه قد مات أيضًا.

وينبغي على قولهم هذا أن نأخذ بالأحاديث التي يرونها عن قلوبهم عن ربهم مباشرةً، وهذا القول منهم وإن كان يبدوا ساذجًا تافهًا إلا أنه يحمل في طياته أخطارًا جسيمة بالنسبة للإسلام وللمسلمين لو تحقق لهم ما يهدفون إليه من التفاف الناس حولهم، والأخذ بمبادئهم وتشريعاتهم وإلهائهم بها عن كتاب الله ﷻ وعن سنة نبيه

العظيم ﷺ.

الفصل الثاني عشر: إيضاحات لبعض الآراء الاعتقادية للصوفية

١- عقيدة المتصوفة في الإله ﷻ:

الله ﷻ هو الواحد الأحد الفرد الصمد، خلق المخلوقات وأوجدها، وأمر الثقلين والجن والأنس بأوامر، ونهاهم عن نواه، من قام بامتثال أمره فيها دخل في طاعته، ومن أبى صار من أعدائه، وهو غني عن الخلق وعبادتهم، وجعل لكلا الفريقين جزاء عادلًا إما الثواب وإما العقاب.

وقد وصف الله نفسه في كتابه الكريم ووصفه نبيه بالصفات الثابتة له ﷻ فهو رب كل شيء ومالكه، {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا - لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا - وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}.

ولقد استقر في أذهان العقلاء مباينة الله لخلقه وقربه منهم بعلمه وإحاطته وأنه متفرد بالأسماء الحسنى والصفات العليا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأمرنا ﷻ أن نصفه بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وبما وصفه به نبيه الكريم ﷺ غير معطلين ولا محرفين ولا مكيفين، ذاته لا تشبه ذوات خلقه، وصفاته لا تشبه صفات خلقه حتى وإن اتفقت التسمية فإنها لا تتفق في الحقيقة وتبقى المباينة بين الحقائق مما لا يخفى إلا على من لم يفهم الحق.

هذا هو الاعتقاد الذي أمر الله العباد به فما هو موقف الصوفية منه. إن المتتبع لعقائد زعماء الصوفية يجد أنهم يعتقدون بوجود معبود لا حقيقة له قائمة بذاته، معبود لهم يذكر في الشريعة الإسلامية ولم تدل عليه العقول ولا الفطر السليمة إنه معبود غير رب العالمين تعالى وتقدس.

يظهر في صورة الصوفي العابد الذي وصل إلى مرتبة النيابة عن الله قي تصريف

أمور هذا الكون والتحكم فيه بحكم نيابته عن الله وعلمه بكل المغيبات ورؤيته لله في كل وقت لارتفاع الإنية بينه وبين الله ﷻ الذي يظهر أحيانًا في صورة شاب وأحيانًا في صورة الآكل والشارب، وأحيانًا في صورة شخص كأنه محجور عليه تعالى بعد أن فوض الكون وما فيه إلى أقطاب الصوفية يتصرفون فيه بما يشاءون، كما تفيد أقوالهم وتبجحهم بذلك.

٢ - الحلول

لقد أصبح الحلول من لوازم الصوفية الغلاة ومن المبادئ الأساسية عندهم، وكتبهم مملوءة بذلك نثرًا ونظمًا، وقد اختلف العلماء في تعريف الحلول:

فمنهم من قال: هو اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد.

ومنهم من قال: هو اختصاص شيء بشيء، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر.

واستعمل بعض المتصوفة لفظ الحلول ليشيروا به إلى صلة الرب والعبد واللاهوت والناسوت، بمعنى أن الله تعالى يحل في بعض الأجساد الخاصة، وهو مبدأ نصراني وأول من أعلنه من الصوفية الحسين بن منصور الحلاج، حين عبر عن ذلك في أبياته الشعرية التي يقرر فيها أن الله تعالى حال في كل شيء، وأنه لا فارق بين الخالق والمخلوق.

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتني

والقائلون بالحلول منهم من قصر الحلول وخصه ببعض الناس، كقول النصارى بالحلول في عيسى عليه السلام، وكقول بعض غلاة الشيعة كالخطابية الذين اعتقدوا أن الله

حل في جعفر الصادق، والسبئية الذين قالوا بحلول الله في عليّ، ومثله قول النصيرية فيه، وقول الدروز بحلوله ﷻ في شخص الحاكم.

وفريق آخر قال بالحلول العام، وأن الله حال في كل شيء، وأنه في كل مكان، وهؤلاء تأثروا بالفلسفة الطبيعية عند اليونان - وهم الجهمية ومن قال بقولهم.

ويمثل الحلول العام البسطامي في قوله: "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زينني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك، فتكون أنت ذلك ولا أكون أنا هناك". {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا}.

وهذا الطلب الغريب العجيب يريد به أبو يزيد البسطامي كما تقدم أن يحتال على الله ﷻ ليصبغ عليه الوحدانية ويرفع ما بينه وبين البسطامي من الإنية بحيث إذا قال الله ﷻ "أنا" وقال البسطامي "أنا" انعدم الفرق بينهما، وحينئذ يمثل البسطامي الله ﷻ تمام المماثلة، فإذا شوهد البسطامي شوهد عند ذلك الخلاق العظيم - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وليس هذا فقط، بل أحيانًا يختلط الحابل بالنابل فيحصل بين الرب والعبد مدّ وجزر حسب ما يتصوره ابن عربي في قوله:

ففي حال أقربه ... وفي الأحيان أجحده

فيعرفني وأنكره ... وأعرفه فأشهده

فإني بالغني وأنا ... أساعده وأسعده

فيحمدني وأحمده ... ويعبدني واعبده

ولعله بعد هذه المراوغة استقر الأمر على أن الله هو نفسه كل موجود على ظهر الأرض؛ فهو العاشق والمعشوق، والرجل والمرأة، فالأجسام صور عنه، وذلك في

قوله:

فمن ليلى ومن لبنى ... ومن هند ومن بثينه

ومن قيس ومن بشر ... أليسوا كلهم عينه

وفي قوله أيضًا:

فعين الخلق عين الحق فيه ... فلا تنكر فإن الكون عينه

فإن فرقت فالعرفان باد ... وإن لم فاعتبر فالبين بينه

وقد ملأ كتابه الذي سماه بالفتوحات المكية أشعارًا وشروحًا لها حول هذا الاتحاد والحلول.

ويقول ابن الفارض عن الذات الإلهية كما يتصور:

ففي النشأة الأولي تراءت لآدم ... بمظهر حوا قبل حكم النبوة

وتظهر للعشاق في كل مظهر ... من اللبس في أشكال حسن بديعة

ففي مرة لبنى وأخرى بثينة ... وآونة تدعى بعزة عزت

ومن هنا نشأ عند ابن الفارض الفوضى الفكرية في تداخل جميع الأديان الحق منها والباطل، حتى صارت بجميع أشكالها شكلًا واحدًا، فكأنه أراد أن يجمع بين الليل والنهار، والحار والبارد، والحق والباطل، فتصور أن الملل كلها سواء كانت شركية وثنية أو مجوسية أو نصرانية أو يهودية، الكل عنده يرجع إلى مصدر واحد وحقيقة واحدة هي الله.

وتائيته المشهورة مليئة بتأكيد هذا الخلط والاضطراب، فهو بعد أن قرر أن جميع العبادات وجميع الأفعال التي تصدر عن الناس هي نفسها أفعال الله قال عن المجوس:

وإن عبد النار المجوس وما انطفت ... كما جاء في الأخبار في ألف حجة

فما عبدوا غيري وان كان قصدهم   سواي وإن لم يعقدوا عقد نيتي
رأوا ضوء ناري مرة فتوهموه   نارًا فضلوا في الهدى بالأشعة

وكثير من مثل هذا الهذيان في أشعارهم هو وسائر غلاة الصوفية ممكن هم على شاكلته أنهم يتصورون معبودهم يتجلى في صورة امرأة؛ ولهذا نجد أن الصوفية يلهجون بذكر النساء، ويرونهم أكمل وأتم وأجمل لتعينات الذات الإلهية التي يعتقدونها فيهن، وهذا واضح جدًا في تلك العناية التي لقيتها المرأة في الأدب الصوفي من التذلل لها والتشبث بها والتفتن في وصفها.

ومما قاله ابن عربي في تقريره حول الله تعالى عن كلامه في المرأة أن الأمر بالغسل؛ لأن الحق غيور على عبده أن يعتقد أن يلتذ بغيره، فلهذا أحب النبي ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا نشاهد الحق مجردًا عن المراد، فشهود الحق في النساء أعظم شهود وأكمله، وأعظم الوصلة والنكاح... قال: فمن جاء لامرأته أو لأنثى بمجرد الالتذاذ ولكن لا يدري بمن كما قال:

صح عند الناس أني عاشق   غير أنهم لا يعرفوا عشقي لمن

كذلك هذا أحب الالتذاذ فأحب المحل الذي يكون فيه، - هو المرأة -، ولكن غاب عنه روح المسألة فلو علمها لعلم بمن التذ؟ ومن التذ؟ وكان كاملًا قال من شاهد الحق في المرأة كان شهوده في منفعل وهو أعظم الشهود ويكون حبًا إلهيًا".

ومن هذا المفهوم الباطل تجرأ على رسول الله ﷺ وأساء الأدب في حقه وافترى عليه بما لا يقدم عليه مسلم يعرف ولو شيئًا يسيرًا عن الإسلام وعن نبيه العظيم الذي اعترف له كل من عرفه أو سمع عنه بأنه خير منقذ للبشرية، عابدًا لربه حق عبادته، متواضعًا، بالمؤمنين رءوف رحيم، لكن ابن عربي يقرر حسب مذهبه الرديء أن رسول الله ﷺ، كان يحب النساء لكمال شهود الحق فيهن، وحاشا رسول الله ﷺ من

هذا البهتان.

بل قرر زعماء الإباحية والزنادقة العتاة ابن عربي وابن الفارض وغيرهما أن الله تعالى يتجلى في كل صورة حسنة في صورة الرجل أو المرأة فيكون فاعلًا ومفتعلًا - تعلى الله عن كفرهم وإلحادهم علوًا كبيرًا، وأن الله تجلى في صور العاشقات والمعشوقات، ويطول النقل عنهم ولو أردنا ذلك مما يأباه الدين وتشمئز منه النفوس وتمجه الفطر السليمة ويأباه الذوق.

"وفي تفسير الحديث: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به"، "يذكر السهروردي أن المحب يعود بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، أي بحيث تشترك الصفات بين المحب والمحبوب فلا يحصل بينهما أي فارق، ثم استشهد على هذا في الاتحاد والحلول بمبدأ الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا... الخ.

ويقول ابن عطا السكندري في بيان حقيقة الولي:

"ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لعُبِد؛ لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته" وقال أيضًا في وجود الله تعالى أنه لا خفاء به ولا حجاب عليه: "كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء".

وفي الشطحات الصوفية وجرأتهم على قول كل ما يريدون ما لا يخفى على طلاب العلم.

ومما يذكر في سيرة ابن عربي أنه شغف حين كان بمكة بحب امرأة هي ابنة رجل يسمى الشيخ مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصفهاني، ووصفها بأوصاف من الغزل بجمالها ما لا يحتمل المقام ذكره هنا ضمنه كتابة ترجمان الأشواق"، ثم شرحه بطلب من رجلين من خاصته فشرحهُ في كتاب سماه

"ذخائر الأعلاق".

حاول جاهدًا أن يغطي ما قاله في تلك المرأة من العشق والغرام ليحوله على أنه قاله في الحب الإلهي، ولكن لم يتم ذلك؛ حيث غلب الطبع على التطبع، وليست هذه معشوقته الوحيدة، بل هناك أخرى عشقها وهو يطوف حول البيت، وقال فيها أشعارًا غزلية ماجنةً، ولم يستشعر مقدار جرمه في الحرم الذي يعاقب الله فيه على مجرد النية، ثم وصف تلك الأشعار بعد ذلك بالحب الإلهي تمويهًا وتغطية لمجون هذا الشيخ الصوفي الكبير، فأين الحب الإلهي في مثل قوله:

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا
وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا

٣ - **وحدة الوجود**

وحدة الوجود عقيدة إلحادية تأتي بعد التشبع بفكرة الحلول في بعض الموجودات، ومفادها لا شيء إلا الله وكل ما في الوجود يمثل الله ﷻ لا انفصال بين الخالق والمخلوق، وأن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة، وهي فكرة هندية بوذية مجوسية.

وهذا هو المبدأ الذي قام عليه مذهب ابن عربي الذي قال: سبحان من خلق الأشياء وهو عينها، وتجرأ على تفسير كتاب الله بغير علم فاستدل بآيات من القرآن الكريم زعمًا أن الله أطلق اسم الوجود على نفسه كما في قوله تعالى: {وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ}، {لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}، {يَجِدِ اللهَ غَفُورًا}، واستدل بأحاديث موضوعة مثل حديث: "من عرف نفسه فقد عرف ربه".

وهذا الاستدلال من أغرب وأنكر ما تلفظ به قائل.

إذ كيف يتأتى لهم القول أن القرآن والسنة يدعون إلى الإلحاد والكفر بالله؟ ولا شك أن هذه العقائد الإلحادية قديمة جدًا في العبادات الهندية والديانات البوذية. وقد انقسم أصحاب هذه المبادئ الإلحادية إلى فريقين:

١ - الفريق الأول: يرى الله سبحانه وتعالى روحًا وأن العالم جسمًا لذلك الروح، فإذا سما الإنسان وتطهر التصق بالروح أي الله.

٢ - الفريق الثاني: هؤلاء يزعمون أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله تجلى فيه.

والإسلام بريء من هذه الأفكار المنحرفة الخرافية كلها {هُوَ الأول وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ}، وهؤلاء يقولون أن الله ما دام هو أصل وجود هذه الممكنات المشاهدة فكأن الموجودات في حكم العدل، والوجود الحقيقي هو الله الذي تجلى في أفعاله ومخلوقاته، وبالتالي فإن العقائد كلها حقائق والناس لا خلاف بينهم حقيقة، والديانات كلها ترجع إلى حقيقة واحدة، هذا ولا شك أنه خلط وانحراف شنيع أدى بمن أعتنقه إلى خذلان المسلمين وترك أمر الجهاد.

ولهذا نجد أن المستشرقين اهتموا كثيرًا بدراسة ظاهرة التصوف؛ لأنها تحقق أهدافهم في إلهاء المسلمين وتفرق كلمتهم، وبالتالي فإنهم وجدوا فيها معينًا لهم على نشر الإلحاد وإنكار النبوات ونبذ التكاليف الشرعية والدعوة إلى القول بوحدة الأديان وتصويبها جميعًا مهما كانت، حتى وإن كانت عبادة الحجر والشجر.

والواقع أنه ما من مسلم يشك في كفر أو ارتداد من قال بوحدة الوجود، وعلماء الإسلام حين حكموا بكفر غلاة المتصوفة من القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد حكموا أيضًا بكفر من لم ير تكفيرهم.

ولقد قال شيخ الإسلام عن هؤلاء: "إن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ومشركي العرب".

ولقد وصل الهوس والجنون بابن الفارض - بناء على عقيدته أن الله هو عين كل شيء - وصل به الحال إلى أن يعتقد أنه هو الله حقيقة؛ لأن الله حسب خرافاته هو عين كل شيء فهو على هذا يمثل الله - تعالى عن قولهم.

وابن عربي من أساطين القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وصحة الأديان كلها، مهما كانت في الكفر إذ المرجع والمآل واحد، ومن هنا فهو يقول:

عقد الخلائق في الإله عقائدًا... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ويقول:

العبد رب والرب عبد يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب فأنى يكلف

ولابن عربي في كتابه "فصوص الحكم"، وكتابه الآخر "الفتوحات المكية" من الأقوال في وحدة الوجود ونفي الفرق بين الخالق والمخلوق وثبوت اتحادهما تمامًا أقوال لا تكاد تحصر نثرًا ونظمًا.

وأما ابن الفارض فإذا أراد الشخص أن يعرف عقيدته تمام المعرفة فليقرأ تائيته التي باح فيها بكل صراحة وتحد أن الله متحد بكل موجود، وأن ابن الفارض نفسه هو المثل الكبير لله تعالى في صفاته وأفعاله؛ ولهذا فهو يفسر كل ما في الوجود بأنه يصح أن يقال فيه: إن الله أوجده أو كل موجود هو أيضًا ذلك الموجد.

وأن كل عبادة تقام فإنها توجه له أو لله لا فارق بينهما إلا في ذكر الاثنينية التي هي أيضًا لا وجود لها عند استجلاء الحقيقة حيث تتلاشى الاثنينية ويصبح الوجود واحدًا ممثلًا في كل شيء.

وإذا أردت تفصيل كل تلك الحقائق عنه فاقرأ تائيته أو الأبيات الآتية، وانظر شرحها عند الشيخ عبد الرحمن الوكيل[(١)].

ويقول ابن الفارض عن الذات الإلهية وتجليها له:

جلت في تجليها الوجود لناظري ... ففي كل مرئى أراها برؤية
ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتي بذاتي إذا تحلت تجلت
فوصفي إذا لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعاني ولبت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
وكل الجهات الست نحوي توجهت ... بما تم من نسك وحج وعمرة
لها صلواتي في المقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لها صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل سجدة

ويقول عن معنى سجود الملائكة لآدم، وأ ون الملائكة إنما هم صفة من صفاته لا خلق مستقل:

وفيَّ شهدت الساجدين لمظهري ... فحققت أني كنت آدم سجدتي

شرحه الصوفي القاشاني بقوله: "أي عاينت في نفسي الملائكة الساجدين لمظهري فعلمت حقيقة أني كنت في سجدتي آدم تلك السجدة وأن الملائكة يسجدون لي والملائكة صفة من صفاتي، فللساجد صفى مني تسجد لذاتي".

ومن عتاة دعاة وحدة الوجود الجيلي صاحب كتاب "الإنسان الكامل" وقد

---

(١) هذه هي الصوفية ٢٤٨.

ترجم له الشعراني وأطال في ترجمته، ابتدأها بقوله:

"ومنهم أبو صالح سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه"(١). ثم جاء في أخباره بما لا يصدقه عاقل.

ومما يدل على تعمق الجليلي في القول بوحدة الوجود وأنه لم يعد بينه وبين الله أي فارق، ولا بينه وبين كل المخلوقات في هذا الكون أي فارق أيضًا ما أورده في كتابه الإنسان الكامل(٢):

لي الملك في الدارين لم أر فيهما ... سواي فأرجو فضله أو فأخشاه
وقد حزت أنواع الكمال ... جمال جلال الكل ما أنا إلا هو
لي الملك والملكوت نسجي ... لي الغيب والجبروت مني منشاه
فمهما ترى من معدن ونباته ... حيوانه مع أنسه وسجاياه
ومهما ترى من أبحر وقفاره ... ومن شجر أو شاهق طال أعلاه
ومهما ترى من صور معنوية ... من مشهد للعين طاب محياه
ومهما ترى من هيئة ملكية ... ومن منظر إبليس قد كان معناه
ومهما ترى من شهوة بشرية ... طبع وإيثار لحق تعاطاه
ومهما ترى من عرشه ومحيطه ... كرسيه أو رفرف عز مجلاه
فإني ذاك الكل والكل مشهدي ... نا المتجلي في حقيقته لا هو
وإني رب للأنام وسيد ... جميع الورى اسم وذاتي مسماه

(١) انظر طبقات الشعراني من ص ١٢٦ - ١٣٢.

(٢) يقول الكشخانلي في شرح وحقيقة الإنسان الكامل: "الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى عين الله وعين العالم" جامع الأصول في الأولياء ص ١١١ نقلًا عن هذه هي الصوفية ص ٤٤.

فالجيلي هو كل شيء والله هو أيضًا كل شيء، من خير أو شر، من فسق أو فجور، الكل هو الله على حسب هذه العقيدة المجوسية.

ومن القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود هو أبو حامد الغزالي، ولقد تأثر الناس به كثيرًا؛ لأنه كان في وقته يداري كل طائفة ويتودد إليها بالموافقة، وخفي أمره على كثير من الناس فلم يفطنوا إلى تعلقه بوحدة الوجود، وإن كان قد صرح بها كثيرًا في كتبه، وخصوصًا إحياء علوم الدين، وفي هذا يقول عنه عبد الرحمن الوكيل:

"لا تعجب حين ترى الغزالي يجنح في دهاء إلى السلفية في بعض ما كتب فللغزالي وجوه عدة كان يرائي بها صنوف الناس في عصره، فهو أشعري؛ لأن نظام الملك صاحب المدرسة النظامية أراده على ذلك، وهو عدو للفلسفة؛ لأن الجماهير على تلك العداوة، وهو متكلم ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاء غضب الحنابلة.

وأما بالنسبة لرجوعه عن غلوه في التصوف، وأو عدم رجوعه فقد قرر بعض العلماء أن الغزالي رجع عن تلك الاقوال الصوفية، إلا أن بعضهم شكك في رجوعه وتوبته، ومن هنا يقول عبد الرحمن الوكيل:

"يحاول السبكي في كتابه طبقات الشفاعية تبرئة ساحة الغزالي بزعمه أنه اشتغل في أخريات أيامه بالكتاب والسنة ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقًا، ولكن لا بد من تحذير المسلمين جميعًا من تراث الغزالي، فكل ما له من كتب في أيديهم تراث صوفي ولم يترك لنا في أخريات أيامه كتابًا يدل على أنه اشتغل بالكتاب وبالسنة".

ومن أقوال الغزالي في وحدة الوجود كما جاءت في كتابه إحياء علوم الدين قوله في ثنايا بيانه لما سماه مراتب التوحيد

"والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق عموم المسلمين، وهو اعتقاد

العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحدًا، وهي مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا وحدًا فلا يرى نفسه أيضًا، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقًا بالتوحيد كان فانيًا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والحق".

وفي هذا التعبير أمور تدل على وحدة الوجود، وذلك فيما يلي:

وصفه لعموم المسلمين بأنهم عوام في الاعتقاد، ويقصد به العقيدة السهلة الواضحة التي جاء بها الإسلام.

في تقريره أن الذي يشاهد تلك الأمور عن طريق الكشف يراها كلها صادرة عن فاعل واحد هو الله تعالى، وأنها عبارة عنه على ما فيها من خير وشر.

قوله: لا يرى في الوجود إلا واحدًا، هذا هو عين القول بوحدة الوجود.

وعندما أورد استشكالًا قد يرد في الذهن، وهو قوله:

"فإن قلت كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحدًا، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدًا؟

ولا شك أن هذا الاستشكال وارد، وهو استشكال قوي جدًا ويحتاج إلى جواب شاف، فبماذا أجاب الغزالي عن هذا؟ أجاب عن إيراد هذا السؤال بقوله: "فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم، لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء الربوبية كفر".

وهذا الجواب فيه اتهام لله بالتقصير في بيان أمر التوحيد؛ حيث لم يبينه الله تمام

البيان، ولا بينه الرسول ﷺ، ولا يعرفه أحد إلا أرباب الكشف الصوفي الذين يعرفون كل تفاصيل التوحيد إلا أنهم لا يحبون إفشاء سر الربوبية؛ لأنه يؤدي إلى الكفر حسب هذا الزعم، والواقع أنه قد صدق، فإن هذا التوحيد الذي لا يعرفه إلا أصحاب الكشف هو نفسه التوحيد الذي لا يفرق بين الخالق والمخلوق وهو أمر لا يقر به أحد من المسلمين.

أما الجواب الثاني فهو مثل ضربه يفيد أنه قد يحصل تعدد أشياء في شيء واحد دون فارق بينهما؛ وذلك كالإنسان وأعضائه فهو إنسان واحد ولكن له أعضاء كثيرة؛ روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشاؤه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد أي إنسان.

وهذا الجواب أردأ من الذي قبله، يريد أن يثبت لنا القول بوحدة الوجود قياسًا على الوحدة المتكاملة بين الإنسان وأعضائه، وأراد من هذا أيضًا جعله هذه الأوصاف هي نفسها الفناء في التوحيد حسب ما أورده عن موقف جرى بين الحلاج والخواص.

حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: في ماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل، فقال الحسين - الحلاج-: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث فطالبه بالمقام الرابع.

أي أن الحلاج كان في المقام الثالث أو الرتبة الثالثة في التوحيد، وهي أنه يرى الأشياء هي نفسها "الله"، ولكن بطريق الواسطة والكشف فطالبه الخواص - والغزالي لإقراره كلام الخواص - بأن يرتقي إلى الدرجة الرابعة في تحقيق التوحيد، وهي أن لا يرى في الوجود إلا واحدًا وهي (الفناء في التوحيد) بدون واسطة ولا

كشف وبها يتحقق التوحيد.

وفي كتابة مشكاة الأنوار للغزالي تصريح بوحدة الوجود في أكثر من موضع، وقد فندها الشيخ عبد الرحمن الوكيل وأظهر عوارها.

ومن كبار القائلين بوحدة الوجود عامر بن عامر أبو الفضل عز الدين حيث قال محاكيًا الفارض في تائيته وفي معتقده أيضًا:

تجلى لي المحبوب من كل وجهة فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائر تعالت عن الأغيار لطفًا وجلت[1]
فقال أتدري من أنا قلت أنت أنا منادى أنا إذ كنت أنت حقيقتي
نظرت فلم أبصر محض وحدة بغير شريك قد تغطت بكثرة
تكثرت الأشياء والكل واحد صفات وذات ضمنًا في هوية
فأنت أنا لا بل أنا أنت وحدة منزهة عن كل غير وشركة

وقد اختار نقل هذه الأبيات من تائية ابن عامر الشيخ عبد الرحمن الوكيل وهي صريحة لا لبس فيها على ما يذهب إليه أهل وحدة الوجود الذين يرون أنه لا يكتمل إيمان العبد ولا يصل إلى الله إلا إذا تلاشت "أنا" من نفسه فأصبح في لجة جمع الجمع ورفع الاثنينية.

وقد سلك هذا المسلك في الاعتقاد بوحدة الوجود جماعة أخرى من الصوفية يمكن إحالة القارئ للاطلاع على كلامهم إلى كتاب الشيخ عبد الرحمن الوكيل، حيث ذكر نصوصًا كثيرة عنهم نثرًا ونظمًا، ومن أولئك محمد بن إسحاق المشهور بالقونوى، وعبد الغني بن إسماعيل المشهور بالنابلسي، وعبد السلام بن بشيش أو

(١) أي تعالى الله عن أن يكون له غير إذ هو عين كل شيء، والمسلم يقول: تعالى الله عن الشريك والمثيل؛ لأنه العظيم. انظر: هذه هي الصوفية ص ٥٧.

مشيش وهو من كبار شيوخ الشاذلية، ومحمد الدمرداش المحمدي، وأحمد بن عجيبة الإدريسي، وحسن رضوان.

وكل واحد من هؤلاء قد أدلى بدلوه وخاض فيما ليس له بحق وحاول تثبيت عقيدة وحدة الوجود بكل ما أمكنه من الكلام نثرًا ونظمًا مما قد يطول نقله وتثقل قراءته، إذ إنهم لا يختلفون إلا في الألفاظ فقط والمورد واحد.

٤- وحدة الشهود أو الفناء وبيان العلاقة بين وحدة الشهود ووحدة الوجود:

وحدة الشهود هو ما يسمونه في بدء أمره مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، أي لا يصل إلى درجة الحلول ولاتحاد في أول الأمر إلا بعد أن يترقى درجات ثم يصبح كما يقول على حرازم ناقلًا جواب شيخه التجاني: "اعلم أن سيدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو؟ فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرًا عينيًا وتحقيقًا يقينيًا".

وهذه نهاية الفناء في الله ووحدة الشهود فيه.

وأما العلاقة بين وحدة الوجود ووحدة الشهود:

فإنه يرى بعض العلماء أن بين وحدة الوجود ووحدة الشهود فارقًا بعيدًا، وذلك أن وحدة الوجود هي الحلول والاتحاد وعدم التفرقة بين الله وبين غيره من الموجودات، بينما وحدة الشهود عند بعضهم هي بمعنى شدة مراقبة الله تعالى بحيث يعبده كأنه يراه.

ومن هنا ظن هذا البعض أن وحدة الشهود لا غبار على من يقول بها، ومنهم من يؤكد على أن وحدة الشهود هي الدرجة الأولى إلى وحدة الوجود، والواقع أن التفريق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود ليس له أساس ثابت بل هو قائم على غير

دليل إلا دليلًا واحدًا هو الذوق الصوفي، وذلك أن خير البشر لم يستعمل هذه الحالة ولا نطق باسمها في عبادته لربه، ولا كان أصحابه أيضًا يقولون بها.

فكان شأنهم أنهم يعبدون الله وهم على أشد ما يكونون من الوجل والخوف أن ترد عليهم أعمالهم مع وجود أشد الطمع في نفوسهم لعفو ربهم وتجاوزه عنهم يعبدونه بالخوف والرجاء، ووحدة الشهود ووحدة الوجود لم تعرف إلا بين الفئات الذين امتلأت نفوسهم إعجابًا وتيهًا بأعمالهم وقلت هيبة الله تعالى في نفوسهم.

يقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل في أثناء رده على الغزالي وبيان خطر أفكاره على الإسلام والمسلمين، ومدى تعلق الغزالي بوحدة الوجود أو الشهود:

"أرأيت إلى من صنمَّته الصوفية باللقب الفخم لتفتن به المسلمين عن هدى الله تعالى؟ أرأيت إلى الغزالي يدين بوحدة الوجود أو الشهود - سمها بما شئت، فعند الكفر تلتقي الأسطورتان لا تقل إن وحدة الوجود أنشودة من البداية ووحدة الشهود أغرودة عند النهاية فكلتاهما بدعة صوفية، بيد أنها غايرت الاسمين وخالفت بين اللونين ولكن البصر البصير لا يخدعه اسم الشهد سمي به السم الناقع كلتاهما زعاف الرقطاء، غير أن واحدة منهما في كأس من زجاج والأخرى في كأس من ذهب".

فينبغي أن نبتعد عن هذه الكلمة - وحدة - أشد البعد فإن الله تعالى هو الواحد القهار لم يشرك أحد في خلقه {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ - وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدْ}، ولنا في العبارات الطيبة التي تربطنا بربنا مجال واسع كالإسلام والإيمان والإحسان كما جاء في حديث جبريل؛ حيث سأله عن تلك الأمور ولم يسأله عن وحدة الوجود أو وحدة الشهود ولا وحدة الوجود ولا الحلول ولا الكشف، ولا غير هذا مما هو اختراع الصوفية تبعًا لأفكار ضالة ليس بينها وبين الإسلام أي صلة أو تقارب.

إن وحدة الشهود تؤدي في النهاية إلى القول بالحلول رغم ما زخرفوه من الكلام

والتدليس.

وقد وضح علي حرازم الأمر وجلاه في بيانه لأقسام مراتب المحبة التي هي محبة الإيمان، ومحبة الآلاء والنعماء، ومحبة الصفات، ومحبة الذات، ثم بين هذه المراتب إلى أن قال عن القسم الرابع من المحبة:

"ومتى وصل إلى محبة الذات أعني أنه يشم رائحة منها فقط انتقل إلى الفناء مرتبة بعد مرتبة، فيكون أمره أولًا ذهولًا عن الأكوان ثم سكرًا ثم عينية وفناءً مع شعوره بالفناء، ثم إلى فناء الفناء وهو لم يحس بشيء شعورًا وتهممًا وحسًا واعتبارًا، وغاب عقله ووهمه وانسحق عدده وكمه فلم يبق إلا الحق بالحق للحق في الحق، وهو مقام الفتح والبداية يعني بداية المعرفة، وصاحبه إذا أفاق من سكرته يأخذ في الترقي والصعود في المقامات إلى أبد الأبد بلا نهاية".

وقوله: إنه لا نهاية لترقية لا يتفق مع ما قدمه مما يدل على نهاية الترقي، وهو الوصول إلى وحدة الوجود كما في قوله:

"إلى أن ينتقل إلى المشاهدة وهي الاستهلاك في التوحيد وغاية المشاهدة ينمحق الغير والغيرية، فليس إلا الحق بالحق للحق عن الحق فلا علم ولا رسم ولا عقل ولا وهم ولا خيال ولا كيفية ولا كمية ولا نسبه انتفت الغيرية كلها".

إلى أن قال عن دخول الحضرة الإلهية:

"فإن من دخلها غاب عن الوجود كله فلم يبقى إلا الألوهية المحضة حتى نفسه تغيب عنه، ففي هذه الحال لا نطق للعبد ولا عقل ولا هم ولا حركة ولا سكون ولا رسم ولا كيف ولا أين ولا محدود ولا علم، فلو نطق العبد في هذا الحال لقال: لا إله إلا أنا سبحاني ما أعظم شأني؛ لأنه مترجم عن الله ﷻ".

وهذا هو الحلول والاتحاد، مع هذا سماه علي حرازم"غاية الصفاء" ونسي أو

تناسى أو جهل - وهو الصحيح - أن الرسول ﷺ ولا أحد من صحابته قد قال: سبحاني ما أعظم شأني أو قال: لا إله إلا أنا؛ لأن قائل هذه الألفاظ لا دين له إلا دين المجوسية، ومن هنا استشهد علي حرازم بعد الكلام السابق على صحة هذا الصحو في الله بقول الحلاج: سبحاني ما أعظم شأني. ومن حسن الحظ لم يستدل بقول أحد من المسلمين.

وتتضح صورة القول بوحدة الوجود عند التجانية كما هي عند سائر أقطاب الغلاة في قول علي حرازم في صراحة تامة زفي مواضع كثيرة في كتابه جواهر المعاني نأخذ منها قوله في أثناء بيانه لمنزلة الخلق من الحق تبارك وتعالى وأنهم صور تنبئ عن الله تمامًا فقال في ذلك: "ولا يكون هذا إلا لمن عرف وحدة الوجود فيشاهد فيها الوصل والفصل فإن الوجود عين واحدة ولا تجرؤ فيها على كثرة أجناسها وأنواعها، ووحدتها لا تخرجها عن افتراق أشخاصها بأحكام الخواص وهي المعبر عنها عند العارفين أن كثرة عين الوحدة والوحدة عين الكثرة".

ومن العجيب أنهم يستدلون على هذا المسلك بقول الرسول ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب... " إلى أخر الحديث، والحديث حسب مفهومهم معناه أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق - تعالى الله عن ذلك - وأنه يفنى عن نفسه جمله حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما صرفًا في شهوده وإن لم تعدم في الخارج، وينسى العبد نفسه في الله وأن الله يحل بجوارحهم، فهو في سمعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم قد اتحدت ذاته بذواتهم.

فهل كان رسول الله ﷺ يقصد ما ذهب إليه زعماء الصوفية؟ والجواب سيكون

بالنفي قطعًا. وقد أجاب العلماء عن معنى هذا الحديث بعدة أجوبة ذكرها كلها ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ، ومنها أن معناه أن العبد يحب طاعة الله ويؤثر خدمته ومحبته، وأنه لا يستعمل هذه الجوارح إلا وفق ما شرعه الله له فلا يستعملها إلا في ما أحبه الله ويبعدها عن كل ما يغضب الله تعالى، لا أن الله يحل في تلك الجوارح، والرسول ﷺ لعظم وأجل من أن يتصور ربه على هذه الصفات.

وتلك المعاني الباطلة لمعنى الحديث موضحة في جمهرة الأولياء للمنوفي فيه مقال تحت عنوان "دور الكمال" ذكر فيه أن الصوفية قد تطورت فشاركت في أبحاث كثيرة فقهية وفلسفية إلى أن قال: "وقد خطى الجنيد في هذا السبيل الخطوات الأولى الفاصلة فانتقل من حال الفناء التي قال بها البسطامي إلى فكرة الاتحاد، وذهب إلى أن المتصوف قد يصل إلى درجة يتحد فيها الروح اتحادًا تامًا بخالقها عن طريق الشهود".

ثم ذكر بعد ذلك أنه ليس المراد من هذا الاتحاد ما هو معروف في البوذية والمسيحية، وإنما هو بمعنى أنه مجرد ملاحظة روحية، ولكن يبقى عليه أن الملاحظة الروحية لا يقال فيها بالاتحاد، وإنما هي زيادة تعلق القلب بخالقها فقط، ومن قال إن ملاحظاته جعلته متحدًا مع الله فلا شك في خروجه عن الحق مهما حاول بعد ذلك تغطية معتقده بزخرف القول.

لقد أصبحت وحدة الشهود عند المتصوفة هي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية وهي الحال التي يسمونها بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع، وهي الاتصال بين العبد وبين ربه عن طريق الشهود الصريح فيما يزعمون. ويصل الإنسان إليها - بزعمهم - بكثرة الذكر حتى يقع الشهود القلبي ثم يستغني عن الذكر بمشاهدة المذكور - حسب تخيلاتهم السقيمة الإلحادية - فاتضح مما سبق أن الفوارق لا

تكاد تعرف بين تلك التسميات، فهي داخلة في النهاية كلها في دائرة واحدة هي القول بالحلول مهما تعددت صوره.

وأما اعتقادهم في الرسول ﷺ، فهو ضرب من الخيال والإلحاد، فهم يزعمون:

١ - أن الله كان في عماء دون تعيين فأراد أن يتعين في صورة فتعين في صورة محمد ﷺ، أي أنهم يعتقدون أن محمدًا ﷺ هو الله سبحانه وتعالى ذاتًا وصفةً حيث تعينت فيه الذات الإلهية في صورة مادة كما قرر الكشخانلي ومحمد الدمرداش - والجيلي والبيطار والقاشاني والفوتي وعلي حرازم والشعراني.

٢- وأن الذي هاجر من مكة إلى المدينة هو الذات الإلهية متجلية في صورة هو محمد ﷺ كما قرر ابن عربي ذلك في قوله: "اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعيينات المفاضة من العماء الرباني وأخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان إلى المدينة... الجمع بين العبودية والربوبية الشامل للإمكانية والوجودية".

٣- أن الرسول محمد ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث يشاء في أقطار الأرض إلى اليوم لم يتبدل بعد وفاته.

٤- كل هذه الموجودات إنما وجدت من نور محمد ﷺ ثم تفرقت في الكون، وهكذا فقد أصبح من الأمور المسلمة عند الصوفية أن هذا الكون وكل ما يحصل فيه من خير وفيض، إنما يتم عن طريق الرسول محمد ﷺ، وفيما قدمنا من النقل عن جواهر المعاني ورماح الفوتي ما يغني عن إعادته هنا، وهذا المعتقد مقرر في كتب الصوفية كلهم من التجانية أو من غيرهم؛ ولهذا يقول المنوفي في بيان تلك القضية:

لله در القائل:

ما أرسل الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل

في ملكــــــوت الله وملكــــــه   مــن كــل مــا يخــتص أو يــشمل
إلا وطـــه المـــصطفى عبـــده   نبيـــه المختـــار المرســـل
واســـطة فيهـــا واصـــل لهـــا   بعلـــم هـــذا كـــل مـــن يعقـــل

أي أن كل من يعقل ـ ولو قال كل من يجهل لكان أصوب- يعرف تمام المعرفة أن هذا الكون وما فيه إنما هو مستمد لبقائه ووجوده من محمد ﷺ الذي هو الرب تعالى في تعيينه الثاني.

ويقرر ابن عطاء الله السكندري ذلك بقوله: "جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا ﷺ عين الرحمة"

ومما لا يجهله أي مسلم أن الرسول ﷺ عبد بشر مثل سائر البشر كرمه الله تفضلًا ومنة بالرسالة مثل سائر الأنبياء والرسل.

وهو عليه الصلاة والسلام غني عن مبالغات الصوفية وأكاذيبهم الحمقاء، فكل ما قرره أقطاب الصوفية من أولهم إلى آخرهم حول الحقيقة المحمدية ونشوء الخلق عنها فإنه كلام خارج عن عقيدة المسلمين من دان فلا حظ له في الإسلام بل هو مجوسي وثني.

يعتقدون كما قرره ابن عربي أن الرسول ﷺ كان يعرف القرآن قبل نزوله بل إنه على حسب زعمهم هو الذي يعلم جبريل الذي بدوره يوحيه إلى محمد ﷺ ثانية.

ومن الصوفية مثل أبي يزيد البسطامي من يزعم أن الرسل كانوا أقل من مرتبتهم حيث قال: "خضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله" وهذه الافتراءات كلها إلحاد وزندقة وشبهات مظلمة وإبطالها مما لا يشق على مسلم عرف شيئًا عن تعاليم الإسلام، فإن القرآن منزل من عند الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام وهذه هي عقيدة كل مسلم، من لم يؤمن بها أو شك فيها فلا حظ له من الإسلام ولا صلة بينه

وبين المسلمين.

٦ - الولاية وبيان بعض المصطلحات الصوفية

تطلق كلمة ولاية في اللغة العربية، على عدة معان منها التابع، المحب والصديق والناصر.

أما معناها في مفهوم الصوفية فهي تنتهي أخيرًا في مصب وحدة الوجود، فقد عرفها المنوفي تحت عنوان "أولياء الله"بقوله: "اعلم أن الولاية عبارة عن تولي الحق سبحانه وتعالى عبده بظهور أسمائه وصفاته عليه علمًا وعينًا وحالًا وأثر لذة وتصرفًا"، ثم زاد الأمر وضوحًا حينما بين التجليات الإلهية والفيوضات التي تقع على السالك وأفعاله وأفعال كل المخلوقات ثم "لا يرى في نظره غير فعل الفاعل الحقيقي وهو الله".

وعرفها الجرجاني بقوله: الولي: هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات.

وقال أيضًا: الولاية: هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه.

وقد ذكر السهروردي الولاية وقسمها إلى أقسام باعتبارات مختلفة ثم ذكر بعض الكرامات للأولياء التي لا يخلو من ذكرها كتاب صوفي، وأكثر تلك الكرامات التي يروونها محض خرافات وقصص باطلة. ثم خلص السهروردي إلى أن الصالحين الذين يتولاهم الله ويتولونه ليس المراد بهم: "الذي يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب ويقولون: فلان صالح وشهيد وولي، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته".

وأما القطب الكبير عند الصوفية وهو القشيري فقد ذكر تعريفات كثيرة للولاية،

ونقل عن أكابر مشائخهم آراءهم في الولاية وأهميتها وعلاماتها وكيفية الحصول عليها ومسائل أخرى، وهكذا فإن نظرة الصوفية إلى الولي والولاية ليست هي تلك المنزلة الطيبة في مفهوم الإسلام، لأن الولي الصوفي لا حد لصلاحياته في هذا الكون.

وقد جاءت الولاية في القرآن الكريم مرادًا بها المدح، وأحيانًا مرادًا بها الذم، فهي تستعمل في الخير وفي الشر حسب إطلاقها، لأن صاحبها إما أن يكون وليًا لله تعالى أو وليًا للشيطان، وبين الولايتين من البعد والانفصال ما يعرفه كل مسلم سليم الفطرة صافي العقيدة.

وجاءت في السنة النبوية مرادًا بها وصف من ساروا على سنة رسول الله ﷺ والتزموا طريق الخير ونصروا الدين ووالوه.

ثم توسع الصوفية والشيعة في إطلاقها وخرجوا بها عن حقيقتها ومدلولها الصحيح، فأطلقت على الرجل المتصوف أو من ينتسب إلى آل البيت، ثم أسبغوا على أئمتهم وكبار دعاتهم هذه الكلمة وأنواعًا أخرى من التهويلات لمطامع اجتماعية وسياسية.

ثم أخذها الصوفيين بعد ذلك وأخرجوها في مذاهب الحلول والاتحاد وحدة الوجود، وهناك صفة ثانية أضيفت إلى مفهوم الولاية عند الشيعة والصوفي، وهي صفة العلم اللدني الذي أخذه علي بن أبي طالب عن الرسول ﷺ كما زعموا، ثم ورثة إياهم ببركة تلك الولاية، وبلغ الغلو بالصوفية في أوليائهم إلى أن اتخذوهم بين الله وبين خلقه وسطاء على طريقة النصارى واليهود والمشركين تمامًا.

فكما اتخذ هؤلاء المسيح وعزيرًا والملائكة أربابًا لهم من دون الله، اتخذ الصوفية وسطاء إلى الله ﷻ أسموهم القطب والغوث والولي ونسبوا إليهم النفع والضر، لأن الله بزعمهم جذبهم إليه واختصهم ثم ساووهم مع الله تعالى في كل

صفاته، بل أصبح من شرط الولي أن يكون متصفًا بصفات الله -كما يزعمون- ومن هنا نشأ تنطعهم وتنقصهم للأنبياء على حد ما ورد عن أبي يزيد البسطامي في قوله: "خضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله".

ثم اخترعوا مفهومًا كاذبًا للولاية، فهي عندهم مجرد هبة من الله ﷻ لبعض خلقه دون أن يكون لها سبب، بل وبغض النظر عن صلاح الشخص أو فجوره، واستدلوا بقول الله ﷻ: {يختص برحمته من يشاء}، أي دون سبب حسب مفهومهم.

ومعنى هذا أنهم يجعلون مفهوم للولاية كمفهوم النبوة، الكل بلا سبب ظاهر، وهذا خلاف ما قرره الإسلام بالنسبة لولاية التي تنتج عن طاعة الله تعالى والمتابعة لنبيه ﷺ.

وقد قسموا الولاية والأولياء إلى أقسام يطول شرحها بدون فائدة فيها.

إلا ما نستثنيه مما ذكره المنوفي حين قسمهم إلى:

١- الملامتية:

وهم الذين لا يظهرون للخلق أعمالًا وأسرارًا، بل يخفون أسرارهم لكمال ذوقهم وقوة شهودهم لربهم.

٢- الغوث الأكبر:

وهو أكبر الأولياء والأقطاب، وهو ذات الحق باعتبار تجريدها من الاسم والصفة".

٣- الأوتاد الأربعة:

وهم حفظة العلم كل واحد منهم في ركن من أركان العالم، وهم على قدم بدل من الأبدال، أي أقل رتبة من الأبدال، لأن الأبدال يكونون على قدم قطب من الأقطاب.

٤- الأقطاب السبعة:

لحفظ القارات السبع، والقطب هو الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان. والقطبانية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن النبوة للرسول ﷺ، والأبدال زعموا أنهم أربعون وهم مكلفون بحفظ العالم والكون، وقد عّرفهم المنوفي بأنهم: "أبدال الأقطاب من الأولياء، فإن مات قطب أحل الله محله بدلًا منه، ومنهم الخلفاء الأربعة".

٥- النجباء:

وهم الأربعون القائمون بإصلاح شئون السالكين.

٦- الأفراد:

وهم المفردون والغرباء لتفردهم عن الخلق بشهود الحق، وغربتهم في أهل زمانهم، وهم غير منحصرين في رتبة أو منزلة، ولهم كشف خاص وعلوم إلهية غريبة على الناس.. وهم على قدم النبي ﷺ.

وأخيرًا وصلوا بالولاية إلى أنها مثل النبوة تمامًا فلها ختم كما للنبوة ختم، فختم الأنبياء محمد ﷺ وخاتم الأولياء عند الصوفية مجموعة من الكذابين مختلفون فيما بينهم على ادعائها.

وأول من ادعى ختم الولاية به هو محمد بن علي بن الحسين، ويسمونه "الحكيم الترمذي"، وقد ظهر في القرن الثالث الهجري- في آخره- وهو غير الترمذي صاحب السنن.

وحين صنف الحكيم الترمذي كتابه "ختم الولاية" مضاهيًا بذلك القول بختم النبوة شهدوا عليه الكفر ثم نفي من ترمذ.

ثم جاء ابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ فادعى أنه خاتم الأولياء، ثم جاء محمد

بن عثمان الميرغني السوداني المتوفي سنة ١٢٦٨ هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء، ثم جاء أحمد التجاني من فاس بالمغرب المتوفي سنة ١٢٣٠ هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء، وأن من سبقه أو يلحقه ممن يدعي ختم الولاية فإنه كاذب مفتر.

وكل واحد ممن يدعيها له مزاعم وادعاءات وكرامات ومزايا لا يصدقها شخص له أدنى معرفة بالدين الإسلامي.

وكلما جاء رجل منهم ادعى أنه هو خاتم الأولياء وأن غيره كاذب والكل -والله يشهد- كاذبون، ثم بلغ بهم الغلو أن فضلوا خاتم الأولياء المزعوم على خاتم النبيين لأمور لا فائدة من التطويل بذكرها، فإنهم مهما تفننوا في الاستدلال على ذلك ومهما زخرفوا القول فيه فهو مردود جملةً وتفصيلًا.

الفصل الثالث عشر: الكشف الصوفي

من أصول الدين الإسلامي وقواعد الإيمان في الشريعة الإسلامية أن الله تعالى وحده هو علام الغيوب، وأن الخلق مهما كانت منزلة أحدهم لا يصل إلى معرفة الغيب، إلا من شاء الله أن يطلعه على ما أراد من ذلك، سواء كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا.

ولقد تعدى المتصوفة على هذه الصفة لله ﷻ فأقاموا أمرًا سموه "الكشف الصوفي"، ويعنى عندهم رفع الحجب من أمام قلب الصوفي وبصره ليعلم بعد ذلك كل ما يجرى في هذا الكون.

وبالغوا في هذا الإدعاء بما لا يجرؤ على القول به إلا عتاة الزنادقة، كما هو مسطر في كتبهم بأقلامهم، وكما تبين ذلك من خلال ما قدمنا من الإشارات الكثيرة إلى حقيقة الكشف من خلال نظرتهم إلى أقطابهم في حالة رفع الحجب عنهم واتحادهم بالله ورفع الأنية بينهم وبين الله، ويبدوا أنهم ترقوا في هذه الدعوى على النحو التالى:

١ - ادعوا أن الصوفي يكشف له عن معان جديدة في القرآن والسنة والآثار والرسوم لا يعلمها علماء الشريعة، الذين سموهم علماء الظاهر والقراطيس؛ لأنهم أي علماء الشريعة إنما يعتمدون في نقل تلك المعاني من القرآن والسنة على موتى، وأما هم فإنهم يأخذونها عن الله تعالى مباشرة.

ومن هنا تجد أقطاب التصوف حين يشرحون بعض الآيات والأحاديث يأتون فيها بمعان من نسج أخيلتهم ويزعمون فيها مزاعم هي عين الأكاذيب التي لا يسندها أي دليل لا من الشرع، بل ولا من العقل في أكثر ما جاءوا به في شروحاتهم.

٢ - ثم ترقوا فقالوا: إن لهم علومًا لا توجد في الكتاب ولا في السنة يأخذونها جديدة عن الخضر الذي هو على شريعة الباطن حسب زعمهم.

وهذه الفرية هي التي استباحوا بموجبها كثيرًا من الفواحش والمحرمات إذ أن النصوص التي يفيد ظاهرها التحريم قد يفيد باطنها الإباحة، والخضر يؤكد لهم ذلك، فإذا بتلك النصوص ظاهرها في واد وباطنها في واد آخر لا صلة بينها إلا تلك الروايات التي صدرت عن الخضر، أو بعض المنامات التي حدثت لأقطابهم الكبار الذين استباحوا كل محرم من الفواحش.

٣- وهناك فرية أيضًا اقترفوها، وهي قولهم: أنهم يتلقون علومهم عن ملك الإلهام كما تلقى رسول الله محمد ﷺ علومه من ملك الوحي مباشرة.

٤ - وآخرون منهم يزعمون أنهم يتلقون علومهم عن الله رأسًا وبلا واسطة؛ حيث تنطبع هذه العلوم في نفوسهم، وبموجبها يأتون ما يأتون من أمور.

٥ - وآخرون منهم يدَّعون أن الرسول ﷺ هو الذي يخبرهم بأذكارهم وعبادتهم يقظة لا منامًا.

٦ - ثم زعموا أنهم يعلمون أسرار الحروف المقطعة من القرآن وقصص الأنبياء

على حقيقتها، وأنهم يجتمعون بالأنبياء ويسألونهم عن تفاصيل قصصهم، وخرافات كثيرة ذكرها الجيلي في كتابه "الإنسان الكامل" يمجها السمع وينفر عنها الذوق.

وكذا الغزالي حين دخل التصوف ولم يستطع الخروج منه رغم أنه كان من علماء الشريعة، فقد ذكر أشياء كثيرة عن الكشف الصوفي وخرافاتهم فيه مؤيدًا له.

وعتاة هذه الدعوى ابن عربي وعبد العزيز الدباغ والبسطامي والتجاني والمرسي وغيرهم، لقد كانت دعوى الكشف هي المقدمة الأولى في نظري إلى الادعاء بوحدة الوجود والحلول، فإن دعوى الكشف مبالغة فاحشة، ولكنها تعتبر من باب التمهيد لما هو أفحش منها، وهو ادعاء الاتصاف بالله والأخذ عنه مباشرة.

ولذلك ترى كثيرًا من المؤلفين من علماء التصوف زعموا أنهم لم يأتوا بما ذكروه في كتبهم إلا عن طريق الكشف الصريح يتلقونه عن الله مباشرة، رغم ما يحمل من كفر وفجور وزندقة وإباحية.

كما زعم ابن عربي في فصوصه، والجيلي في كتابه "الإنسان الكامل" الذي يقصد به الرسول ﷺ الذي اتصف حسب تقرير الجيلي بصفات الله تعالى، وبصفات أقطاب التصوف أحيانًا؛ حيث يظهر في صورة أى شيخ منهم كالشبلي والجبرتي وغيرهما في زمنهم وفي غير زمنهم.

وكتاب الجيلي "الإنسان الكامل" مملوء بالعبارات التي تؤدي إلى إحياء الخرافات والزندقة، فقراءة عابرة له تجعلك لا تتوقف في هذا الحكم عليه ولا فيما كتبه عتاة التصوف كالدباغ وتلميذه أحمد بن مبارك والشعراني وعلي حرازم، وغيرهم ممن لا يلتزم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة.

ثم دخلوا على عوام المسلمين عن طريق الكشف الإلهي والوصول إلى الحقيقة وصفاء القلب والولاية، وغير ذلك من أنواع الشبكات الصوفية التي يصطادون بها

الناس عن طريق دعوى الكشف والتظاهر بالزهد، وإكرام الله لهم بمعرفة ما لم يعرفه غيرهم، وفي كل ذلك تساعدهم الشياطين، وأكثر هؤلاء الذين يخبرون بالمغيبات عن طريق الكشف إنما يستعينون بالسحر والطلاسم.

الفصل الرابع عشر: الشطحات الصوفية

لقد وصل الصوفية في شطحاتهم إلى حد لا يقدم عليه إلا من تزندق وألحد وخرج عن الدين، ولقد فاضت كتبهم بذلك وتواتر النقل عنهم، وهو أمر لا يدع مجالًا للشك في إلحاد من يعمل ذلك منهم، وفي إعراضه عن الخلق الفاضل والعقل السليم، فضلًا عن الدين.

ومما يلحظه القارئ أنهم بعد أن أوردوا أنفسهم تلك الموارد الوخيمة أرادوا أن يجدوا مخرجًا منها، فلم يجدوا لهم مخرجًا فادعوا أنهم إنما قالوا تلك الكلمات الكفرية في حال سكرهم بالله تعالى وغيبوبة عقولهم عن الإحساس بأى شيء غير الله، وما أقبح هذا العذر وأسمجه فهل هم أحب لله من الأنبياء ومن كثير من أتباعهم الذين لا يقاس بهم غيرهم، ولم يعثر عن أحد منهم أن تلفظ بما تلفظ به هؤلاء الذين امتلأت نفوسهم زندقة وحقدًا على الإسلام والمسلمين.

ومما يدركه طالب العلم أن الشطحات الصوفية كثيرة جدًا، لا يمكن حصرها إلا بدراسة وافية[(١)]، غير أننا سنعرض هنا بعض الامثلة لتكون نموذجًا لبقية شطحهم وغلوهم ومقدار جرأتهم على اقتحام الامور العظيمة في الإلحاد.

ونبدأ ببعض ما ذكر عن أبي يزيد البسطامي: طيفور بن عيسى.

١ - قال أبو يزيد عن الله تعالى: "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي: يا أبا يزيد

---

(١) انظر: ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه "شطحات الصوفية" الجزء الأول "أبو يزيد البسطامي"؛ حيث نقل أقوالًا كثيرة في شطحات الصوفية.

إن خلقي يحبون أن يروك فقلت: زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعنى إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا".

ومعناه أنه يطلب أن يصوره الله على صورته ﷻ تمامًا، فإذا شاهده الناس قالوا: شاهدنا الله.

والرواية عنه هي كما تقدم إلا أني أرى أن هذه العبارة: "إن خلقي يحبون أن يروك" ليست هكذا - ولم أر أحد بين هذا - ولكن لعل الصواب فيها "إن خلقي يحبون أن يروني"، ولهذا بين أبو يزيد كيفية الطريقة التي يمكن أن يرى الخلق فيها ربهم، وذلك بأن يرقى البسطامي إلى حد النيابة التامة عن الله تعالى صفة وشكلًا - تعالى الله.

٢- وقال مرة: "سبحاني سبحاني".

وقال: ضربت خيمتي بإزاء العرش أو عند العرش.

٣- واجتاز بمقبرة لليهود فقال: "معذورون" ومر بمقبرة للمسلمين فقال: "مغرورون".

٤- وقال: يخاطب الله: كنت لي مرآة فصرت أنا المرآة.

٥- وقال: لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة.

٦- وقال: إلهي أن كان في سابق علمك أنك تعذب أحدًا من خلقك بالنار فعظم خلقي فيه - أى النار - حتى لا يسع معي غيري.

٧- وقال: ما النار؟ لاستندن إليها غدًا وأقول: اجعلنى لأهلها فداء أو لأبلعنها. ما الجنة؟ لعبة صبيان.

٨- تلك بعض شطحات البسطامي، وهناك الكثير يوردها علماء الصوفية عنه بين مستحسن لها وبين مراوغ في معانيها.

أما الشبلي فهو الأخر له من الشطحات ما نذكر بعضه فيما يلي:

١ - أخذ من يد إنسان كسرة خبز فأكلها فقال: "إن نفسي هذه تطلب مني كسرة خبز، ولو التفت سري إلى العرش والكرسي لاحترق".

٢- وقال لو خطر ببالي أن الجحيم نيرانها وسعيرها تحرق مني شعرة لكنت مشتركًا.

٣- وقال: أيش أعمل بلظى وسقر؟ عندي أن لظى وسقر فيها تسكن يعني في القطيعة والإعراض - لأنه من عذبه الله بالقطيعة فهو أشد عذابًا ممن عذبه بلظى وسقر.

٤- وسمع قارئًا يقرأ هذه الآية: (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون)، فقال الشبلي: ليتني كنت واحدًا منهم.

٥- وقال: إن لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفؤها فصعب ذلك على جماعة ممن كان يسمع ذلك.

٦- وقيل له: لم تقول: "الله"، ولا تقول "لا إله إلا الله"؟ فقال: استحى أن أواجه إثباتًا بعد نفي.. أخشى أن أؤخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار.

وقال أبو الحسن النوري وقد سمع المؤذن طعنه وشم الموت وسمع نباح كلب فقال: لبيك وسعديك.

وسمع أبو حمزة الصوفي شاة مرغيًا فقال: "لبيك يا سيدي".

وقيل للتلمساني وقد أشاروا له إلى كلب أجرب ميت: هو ذات الله أيضًا؟ فقال: "وهل ثم شيء خارج عنها".

وهذه العبارات إنما هي أمثلة قليلة وهناك آلاف الشطحات في حال سكرهم بالله كما يزعمون، والحقيقة أنها صادرة عن أناس يدعون الحلول والاتحاد وهم في كامل

وعيهم وشيطنتهم، وعندهم تمام الجرأة على الكذب على الله لجهلهم به ﷻ وهوانهم عليه.

وإذا رجع القارئ إلى كتاب الطبقات الكبرى للشعراني فسيرى العجائب والغرائب مما ينقله الشعراني عن أسياده الذين ترجم لهم مبتدئًا بقوله: "فقال سيدي.. ﷺ - ثم ملأ كتابه بأخبار هؤلاء في شطحاتهم وفي تصرفاتهم بما يستحي الإنسان أن يقرأه أو ينظر فيه، شطحات تصل إلى عمق الكفر، وتصرفات من أولئك الأقطاب تصرخ بالعار والفجور، وقد ترجم لعدد كثير، فارجع إليه إن أحببت أن ترى مهازل الصوفية وسقطاتهم التي لا تقال".

وقد ترجم الشعراني لعدد كثير منهم، وزعم أنهم كلهم أقطاب التصوف، ولكن ينبغي الانتباه إلى أنه حشر خيرة الصحابة رضوان الله عليهم بل جعل الخليفة الأول للمسلمين أبا بكر ﷺ هو أول هؤلاء الأقطاب ثم عمر، إلى أن ذكر أيضًا كثيرًا من خيار التابعين وعلماء الأمة الذين لا صلة لهم بخرافات الصوفية وخزعبلاتها، بل إن حشره لهؤلاء مع الحلاج والبسطامي والشاذلي والمرسي وغيرهم من عتاة التصوف يعتبر إهانة لهم.

وقد سار على نفس المنهج كثير من مؤلفي الصوفية، كما فعل نفس المسلك الذي سلكه الشعراني، المنوفي في جمهرة الأولياء، وقبلهم القشيري، وكل من جاء بعد هؤلاء سلك نفس ذلك المسلك الخاطئ.

الفصل الخامس عشر: التكاليف في نظر الصوفية

يعتقد غلاة الصوفية أن الصلاة والصوم والحج والزكاة هي عبادات العوام، وأما هم فيسمون أنفسهم الخاصة أو خاصة الخاصة، ولذلك فإن لهم عبادات خاصة، ومناهج وطرق خاصة، ومفاهيم تختلف تمامًا عن مفاهيم العامة، خصوصًا بعد

وصول أحدهم درجة اليقين - كما يزعمون - وقد شرع كل قوم منهم شرائع خاصة بهم، في الذكر والخلوة والملابس المخصوصة والحلقات الخاصة.

وقد يتفقون في بعضها وقد يختلفون، إلا أن كل صاحب طريقة يجعل على أتباعه أغلالًا وحواجز شديدة، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يغير طريقته بطريقة أخرى، وحتى مجرد الذكر إلا بإذن الشيخ وكل ذلك إنما يفعلونه كما يزعمون من أجل ربط القلب بالله للتلقي عنه مباشرة، ولاستمداد العلوم والمعارف عن الله رأسًا على يد شيخ خوله الله ومنحه القدرة على ذلك.

وأما بالنسبة للتحريم والتحليل فأهل وحده الوجود منهم لا شيء يحرم عندهم؛ لأن الكل عين واحدة وفعل الخير وفعل الشر والقبيح والحسن إنما هي أفعال لا فروق بينها لاحتواء الذات لها كلها، ولذلك فقد حصل من بعض كبارهم وأئمتهم ما يستقبح الشخص مجرد ذكره؛ إذ كان منهم الزناة واللوطية والملاحدة، ثم لا يحق لأي شخص أن يعترض؛ لأن الشيخ لا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

وأيضًا لا يفعل هذه الأمور التي يعتبرها الناس فواحش بجسمه وروحه بل بجسمه فقط، وأما روحه فهي أجل من أن تتدنى إلى فعل هذه الأمور الجسيمة، وقد وجدوا من الناس الذين هم أضل من البهائم من يصدقهم في كل ما يصدر عنهم، فصدقوهم في التفرقة بين ما يفعلونه بأجسامهم لحكمة وبين ما في أرواحهم من السمو والتعالي عن ما يفعله سائر الناس، والعقل من أجل نعم الله على الإنسان.

ثم اخترعوا مفهومًا ضالًا وهو أنه قد يصل الأمر أحيانًا إلى حد أن للولي شريعته الخاصة، وللنبي محمد ﷺ تلقي شريعته الخاصة فلا يمنع أن يحصل الخلاف بينهما ويكون الجميع على الصواب، فالولي يتلقى شريعته عن الله مباشرة وهي شريعة للخاصة، ومحمد ﷺ تلقى شريعته عن الله مباشرة وهي شريعة للعوام.

ولذلك تجد في حلقات هؤلاء الصوفية الغلاة من الفواحش والخروج عن تعاليم الإسلام ما لا يمت إلى الإسلام بصلة؛ لأن هذه الأفعال من الاختلاط والحشيش وأنواع الفساد قد تكون مباحة في شريعة الولي مع حرمتها في شريعة النبي، ولكل شريعته.

وما دام الشيخ الصوفي قد وصل إلى حد التلقي عن الله مباشرة واطلعه على كثير من أسرار هذا الكون وعرف الكثير من المغيبات فإنه والحال هذه ليس عنده طمع في جنة ولا خوف من النار، ومن هنا تنشأ الاستهانة التامة بجميع التكاليف الشرعية.

وقد تبجح الكثير منهم بأنه لا يعبد الله طمعًا في الجنة ولا خوفًا من النار؛ لأن هذه العبادة معاوضة والصوفي قد اتحد بالله وفني فيه لأجله لا لغرض آخر، والخوف من النار أيضًا طبع العبيد لا طبع الأحرار كما تبجح البسطامي بقوله السابق: "ما النار؟ لاستندن إليها غدًا وأقول اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنها، ما الجنة؟ لعبة صبيان"، وقول الشبلي: "إن لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها".

فهم يزعمون أنهم يعبدون الله حبًا في الله لا كما يعبده الخائفون من النار الطامعون في الجنة فإن عبادتهم إنما هي على سبيل العوض لا حبًا في الله - وعلى هذا فإن من سبقهم من صالحي المؤمنين والأولياء من الصحابة وغيرهم بل والأنبياء كانت همتهم قاصرة عن إدراك هذا المعنى الذي اهتدى إليه هؤلاء!!

ومما يدل على تقدم ما نذكره فيما يلي من كلام الصوفية، حيث قسم المنوفي الناس بالنسبة لمراتبهم وقربهم وبعدهم عن الله تعالى ثلاثة أقسام تحت عنوان "حقيقة الطريق" فقال:

"إن هذا الطريق وهو السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى عند قطع المنازل والترقي في المقامات ينقسم بحسب اختلاف أحوالهم إلى ثلاثة أقسام لكل قسم منها

طريقة:

فالقسم الأول ذوو الامزجة الكثيفة والأفهام الضعيفة الذين يعسر عليهم محاولة التعلم من طريق التعليم ، فطريقهم يستقيم بالعبادة والتنسك والزهادة والصلاة والصوم وتلاوة القرآن والحج والجهاد وغيرها من الأعمال الظاهرة، لأن هذه الطائفة لصلابة أبدانها وقوة أركانها تتحمل مشاق العبادة... والسالكون بهذا الطريق لا يزالون على هذه المناهج حتى يرقوا لأرفع المعارج ويقربون من مواطن تنزلات المعارف - وإذا وصلوا إلى هذا الحد -"، فحينئذ يكشف لهم عن سبحات المحبوب ويرون عجائب الغيوب ويتلقون عرائس الأسرار، وهذه الطرق صعبة جدًا والواصل بها على خطر عظيم.

أما الثانية وهى طريقة أهل الخصوص وهم من ذوى الأفهام اللوذعية والأخلاق الرحبة والهياكل النورانية والنفوس الأبي، أولئك الذين قد لا يملكون نفوسهم في حال النزوات فطريقهم المجاهدات.. والسالكون بها لا يزالون يرتاضون في قلع ما انطبع في نفوسهم من الأخلاق الذميمة إلى أن تذهب تلك الطباع المكتسبة وترجع إلى فطرتها السليمة.

والقسم الثالث هم ذوو النفوس الرضية والعقول الزكية والفطرة الصديقية التي أبدان أصحابها في نهاية الاعتدال واللطافة، وطريقهم طريق المطلوبين إلى الله والطائرين إليه، وهي طريق المحبوبين المخطوبين من رب العالمين، وملاك السير بها صفاء القلب، وصدق الحب، والتحقق ظاهرًا وباطنًا جهرًا وسرًا بشعائر التصديق، فيخرج عن حوله وقوته وعقله وفطنته إلى حول الله وقوته".

وقال أيضًا: "وبما أن التصوف هو زبدة الديانات ولبها وليس مجرد تقاليد وطقوس وقواعد ظاهرية كان لكل ديانة تصوفها". وهذا الكلام فيه التصريح بأن

التصوف لم يكن نبعه الإسلام فقط، وإنما هو زبدة الديانات أي أنه ملفق من ديانات شتى، وفيه أيضًا التصريح بأنه ليس مجرد تقاليد وطقوس وقواعد ظاهرية.

والإسلام كما هو معلوم فيه بيان شامل لكل ما يحتاجه المسلم وهو نظام كامل، ولا يجوز تسميته مجرد تقاليد وطقوس، على أن القواعد الظاهرية نسبة إلى الظاهر يقصد بها قواعد الشريعة الذين يسميهم الصوفيون أهل الظاهر.

وقد فرق أيضًا بين الزاهد والصوفى:

بأن الزاهد هو الذي ينصرف عن الملاذ الدنيوية وينكر على نفسه جميع شهواته وإن أحلها الشرع، ويتحمل مرارة الجوع والعطش بصفة مستمرة وصوم دائم.. لا يفعل كل ذلك إلا طمعًا في ربح الآخرة والمكافأة بجنات النعيم.

وأما الصوفي فلا يرجو من ذلك شيئًا وإنما همة الوقت الحاضر وهدفه أن زهد وأن عبد معرفة الله والاتصال برضوانه".

ومعنى هذا أن الجنة والنار لا قيمة لها في نظر الصوفي:

"لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا صلاة، ولكن بالسخاء والشجاعة وذمهم أنفسهم عند أنفسهم"، وهذا الكلام فيه الاستهانة بشرائع الإسلام حيث فضل السخاء والشجاعة وذم النفس على الصوم والصلاة.

وقال أيضًا: "إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلي"، وهذه دعوى صريحة إلى التكاسل في الطاعات وتعريض بقلة فضل الصلاة.

وتتضح منزلة التكاليف عند بعض أولياء الصوفية عند الشعراني في تراجمه لكثير من أعلامهم بما لا يدع مجالًا للشك في إلحاد وزندقة هؤلاء الذين يسميهم أولياء ويترضى عنهم أيضًا.

وكمثال على ذلك ما أورده في ترجمته للشريف المجذوب حيث قال:

"وكان أصله جمالًا عند بعض الأمراء ثم حصل له الجذب... وكان له كشف ومثاقلات للناس الذين ينكرون عليه، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يأكل في نهار رمضان ويقول: أنا معتوق أعتقنى ربي، وكان كل من أنكر عليه يعطبه في الحال، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يتظاهر ببلع الحشيش فوجدوها حلاوة، وكان قد أعطاه الله تعالى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هذه الدار".

ومن أولئك الأولياء أيضًا بركات الخياط رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الملامتية... وأخبرني الشيخ عبد الواحد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أحد جماعة سيدي أبي السعود الجارحي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: مدحته للشيخ جمال الدين الصائغ مفتى الجامع الأزهر وجماعة فقالوا: امضو بنا نزوره وكان يوم جمعة فسلم المؤذن على المنارة ، فقالوا له: نصلي الجمعة فقال: مالي عادة بذلك.

فأنكروا عليه فقال: نصلى اليوم لأجلكم، فخرج إلى جامع الماردانى فوجد في الطريق مسقاة كلاب فتطهر منها، ثم وقع في مشخة حمير ففارقوه وصاروا يوبخون الشيخ الذي جاء بهم إلى هذا الرجل، وصار الشيخ بركات يوبخ عبد الواحد ويقول أيش هؤلاء الحجارة الذين أتيت بهم لا يعود لك بالعادة أبدًا... وله وقائع مشهورة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ".

وأمثلة أخرى كثيرة يوردها الشعراني تدل على مدى استهتار هؤلاء الأولياء - حسب زعمه - بالأخلاق والدين والتكاليف، فقد ذكر عن علي وحيش ما يخجل القلم من كتابته ويتلعثم اللسان من النطق به؛ من الأعمال الفاحشة والزنا وفعله بالبهائم وصاحبها قائم أمامه، وإن لم يرض تسمر في مكانه كما يذكر الشعراني.

ويبدو أن للكشف الصوفي علاقة قوية بترك التكاليف على حد ما أورده عنهم الشيخ سعيد حوى في قوله:

"يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكاليف، فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء من أمر الغيب - وما أكثر ما يتوهون في هذا الشأن - سقط عنه التكليف، فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَى يَأْتِيَكَ الْيَقِنُ}.

الفصل السادس عشر: الأذكار الصوفية

أم الأذكار الصوفية فحدث ولا حرج عن خرافتهم فيها، وقد قدمنا من الأمثلة ما يوضح حال هؤلاء ومدى ما وصلوا إليه من الجهل بربهم والبعد عن هدى خير الأنام، هذا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

لقد اخترعوا أذكارًا وشرعوا أورادًا ما أنزل الله بها من سلطان، بل اشتملت على الكفر والزندقة في كثير منها والكذب على الله وعلى رسوله ﷺ، كما اشتملت على كلمات سريانية غير معروفة المعنى وعلى رموز وحروف مقطعة لا يعرف المراد منها.

وكل صاحب طريقة له أذكار هي أفضل من كل ذكر، وأجرها أعظم من كل أجر، وما عداه باطل حسب تخرصاتهم في كل ذلك، ينطبق عليهم قول الله تعالى: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيءٍ}، فهم متفرقون قد لا يجمعهم إلا الاتفاق على الرقص وادعاء الوصول إلى الله ومكالمته ورفع الغير والغيرية بينة وبينهم.

مع أن كل صاحب طريقة يدعى أنه يأخذ تلك الأذكار مباشرة عن الله ﷻ أو عن نبيه ﷺ، وأحيانًا يقظة لا منامًا كما يزعمون، وفضلوها تفضيلًا عاليًا ليرفعوا شأنها في نفوس أتباعهم ومريديهم على القرآن والسنة والأدعية المأثورة، ويطول البحث لو أردنا ذكر نماذج من تلك الطرق المختلفة والأذكار المتباينة فيما بينها.

فمنها الأذكار التجانية التي سبق ذكرها، ومنها أذكار البسطامي والرفاعي والجيلاني والشبلي وأبو العباس المرسي وآخرين كثيرين، ومنها أذكار الطريقة الشاذلية التي زعم أصحابها أن الرسول محمد ﷺ والخضر هما اللذان علما الشيخ أحمد الإدريسي، حيث ذكر تلميذه صالح محمد الجعفري ذلك في كتابه مفاتيح كنوز السموات والأرض المخزونة التي أعطاها الرسول ﷺ لشيخ الطريقة الإدريسية المصونة.

وهي أذكار في غاية الركاكة والكذب على الله وعلى الرسول والاعتداء في الدعاء على حق الله ورسوله، ولم يكتف هؤلاء بادعائهم أنهم يأخذون أذكارهم عن الله ورسوله فقط، بل هناك كما يذكرون بعض الأولياء الذين قد ماتوا هم أيضًا يلتقون ببعض المشائخ الأحياء ويعلمونهم أدعية وأورادًا لا حد لأجر من يقولها.

ولو كان الذكر كلامًا لا معنى له في أي لغة من اللغات المعروفة من مثال ما ذكروه عن الدسوقي أنه علمهم هذا الدعاء: "بسم الله الخالق يلجمه بلجام قدرته أحمى حميثًا أطمي طميثًا وكان الله قويًا عزيزًا حم عسق حمايتنا كهيعص كفايتنا... " إلى آخر الذكر الذي يدل على مدى ضحالة معرفتهم بالله ورسوله وعدم التفاهم إلى ما شرع الله ورسوله ﷺ من الدعاء الواضح المثمر في قلب العبد إذا دعا ربه بإخلاص وتوجه.

وقد ذكروا من الأجر لقائل أذكارهم الجوفاء ما لا يحد ولا يعد ولا يتصور في الذهن، وقد يبدو على تلك الأدعية حرارة الإيمان وصدق الالتجاء إلى الله تعالى، ولكنه في الحقيقة ليس موجهًا إلى الله فقط بل إلى أوليائهم الأحياء أو الأموات أيضًا.

ومدار أذكارهم على الإثبات كما يزعمون، فهم يقتصرون على لفظة "الله" بدلا عن لا إله إلا الله يعللون لهذا المسلك بما لا مقنع فيه حتى للجهال العامة فضلًا عن

أهل العلم، حيث يقولون: إن اقتصارهم على لفظة "الله" وتكرارها خوفًا أن يموت الشخص عند ذلك النفي في قول "لا إله".

ولا ندري كيف يقرءونها في القرآن {فاعلم أنه لا إله إلا الله}، وماذا يفعل المؤذن، وماذا يفعل الداخل في الإسلام عندما ينطق الشهادتين، وأمور أخرى لا يستطيع العقل أن يتصور مدى التخبط الذي حل بهؤلاء.

ومن غريب أمر الصوفية في أذكارهم أنهم رتبوها على طريقة شيطانية من وحي شياطينهم، حيث جعلوا لكل اسم من أسماء الله تعالى ذكرًا خاصًا به، ولطبقة خاصة به، فمن ذلك زعمهم أن اسم الله العفو يليق بأذكار العوام، لأنه يصلحهم وليس من شأن السالكين إلى الله ذكره.

أما اسمه تعالى الباعث فإنه يذكره أهل الغفلة ولا يذكره أهل طلب الفناء، وأما اسمه الغافر فيلقن لعوام التلاميذ وهم الخائفون من عقوبة الذنب، وأما من يصلح للحضرة الإلهية فذكره مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة، وأما اسمه تعالى المتين فإن ذكره يضر أرباب الخلوة وينفع أهل الاستهزاء بالدين.

وهكذا استمر السكندري في وصف أسماء الله وخواصها، وكأنما هو طبيب يصف العلاج ومنافعه، وقد تقدم ذكر الطريقة التجانية، ونضيف هنا ما استخلصه الشيخ عبد الرحمن الوكيل في بيانه لكيفيات الذكر الصوفي ومراحله، فنوجز ذلك فيما يلي (بتصرف):

إذا جاء وقت المولد - الأعياد الوثنية - يجتمع الرجال والنساء أو الدراويش والدرويشات كما يحبون تسميتهم بذلك.

بعد أن يتخموا بطونهم بأنواع المأكولات التي تقدم في هذه المناسبة يقوم الشيخ الكبير ويصفق بيديه اللامعتين من "دسم الحرام" إيذانًا ببدأ الذكر.

يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحدًا في حروفه وفي النطق به.

يقوم المتغزلون بإنشاد قصائد غزلية تلهب المشاعر، ويصاحبهم المطبلون وأصحاب الآلات المطربة.

ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون يتمايلون يمنة ويسرة في حركات مثيرة صاخبة كل ينوح على ليلاه _ والآهات والزفرات والقبل، كما رأيتهم بعيني – هي الشعار العام لهم، وكل واحد من الحاضرين يبذل أقصى جهده في إظهار أقوى الحركات والحماس ليلفت الأنظار إليه.

على الحاضرين أن يستحضر كل واحد منهم صورة شيخه أمامه إن لم يكن موجودًا، أو يستمد منه العون في بدء قيامه بهذا الذكر قائلًا: مددك يا أستاذي، ثم يستأذن أصحاب الطريق والقدم فيقول: دستور يا أصحاب الطريق والقدم.

ينبغي على كل واحد أن يلتزم بطريقة الذكر، وهي كما يلي:

أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه.

أن يبدأ بـ (لا) يمينًا ويرجع بـ (إله) فيتوسط، ثم يختم (إلا الله) يسارًا قبلة القلب.

إذا ذكر اسمًا مفردًا مثل الله، أو هو، أو حيّ لابد أن يضرب بذقنه على صدره.

في كل ذلك يجب أن ينتع الكلمة من سرته إلى قلبه ثم يستمر هكذا في هذه الصور البهلوانية التي هي أقرب إلى الجنون والعربدة منها إلى أقل التفات إلى الله تعالى أو ثوابه وعقابه.

يجب ملاحظة أن المريد لا يدعو بأي اسم لله إذا سمح له به الشيخ وإلا حصل عليه ضرر شديد.

ثبت أن تلك الطريقة الصوفية في الدعاء أخذت بتمامها عن اليهود، حيث جاء ذلك في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة في العهد القديم وهو:

"ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص، بدف وعود ليرنموا، هللوا يا، سبحوا الله في قدسه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوع الهتاف"

ولقد ذكر ابن عطاء الله السكندري أدعية عن مشائخه وأسياده في الطريقة طويلة مملة ممجوجة، مملوءة بالتنطع والتعدي في الدعاء والإشعار بكبريائهم وعتوهم وطلبهم الحلول والاتحاد به، منه دعاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وفيه: "يا عزيز يا رحيم... وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلي منك... اللهم هب لي النور الذي أرى به رسولك ﷺ ما كان ويكون، اللهم ارزقني من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربني بها ضربًا تمحق بها من قلبي كل قوة. باسم المهيمن العزيز القادر أجل كل شيء وهو ناصري ق. ج ن ص انصرني".

ونفس الدعاء السابق أيضًا كان يدعو به القطب الكبير أبو العباس أحمد المرسي، بل وزاد عليه أشياء أخرى ومنه:

"اللهم اهدني لنورك... وهب لي علمًا يوافق علمك... وارفع الحجاب فيما بيني وبينك، وأسقط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك، واكشف لي عن الحقيقة الأمر.."، إلى أن قال: "كيف يكون ذنبي عظيمًا مع عظمتك أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك؟

إلهي جذبك لي أطمعني فيك... قاف جيم سران مع سرك هب لي من نورك ما أتحقق به حقائق ذاتك" الخ.

ثم أورد السكندري دعاء حزب شيخه الشاذلي، وفيه:

"لا إله إلا الله نور عرش الله، لا إله إلا الله نور لوح الله، لا إله إلا الله نور قلم الله، لا إله إلا الله نور رسول الله"، ثم كرر الدعاء على الصفة إلى أن قال:

"وتالله لئن لم ترعني بعينيك وتحفظني بقدرتك لأهلكن نفسي ولأهلكن أمة من خلقك.. يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبي الهادي، بل بحرمة السبعين والثمانية.. اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي من سرًا لا تضر منه الذنوب شيئًا.. واجعلني خزانة الأربعين".

إلى آخر ما ورد من أذكار لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي سراب يحسبه الظمآن ماءً.

ومنهم من يدعو بهذا الدعاء بدلًا عن سبحان الله وبحمده، لا إله إلا الله، بدلًا عن ذلك يدعو بهذا الذي تقشعر منه الجلود وتشمئز منه النفوس وهو من أدعية الطريقة الشاذلية.

"سقفاطيس، سقاطيم آمون قاف آدم حم هأ آمين كد كد كردد ده بها بهيا بهيا بهيهات لمقفنجل يا أرض خذيهم"، نعم يا أرض خذيهم إنها مأساة حقيقية حين توجد تلك الأذكار الجوفاء ثم يتبعها الوجد والرقص والطبول والزغاريد كما نبينه فيما يلي:

الفصل السابع عشر: الوجد والرقص عند الصوفية

لقد كان للغرام العارم والرقص والتمايل عند الصوفية مكانه ثابتة بل هذا النوع صار من أقوى الشبكات التي يصطادون بها من قلت معرفتهم بالدين الإسلامي الحنيف، وحقًا إنه نوع من الخلل في السلوك والاضطراب الذهني حين يعبدون الله بالرقص والحركات التي لا تمت إلى عبادة الله بأية صلة إلا كما تمت إليها عبادة اليهود من قبل حين حثتهم التوراة _ المحرفة _ العهد القديم _ المزامير على وجوب التسبيح لله بالدف والمزمار والعود والربابة.

وعند الصوفية في أوقاتهم الخاصة مجالس يجتمعون فيها على الرقص والغناء والتصفيق والصياح بأصوات منكرة يمزقون فيها ثيابهم ويتمايلون حين يأخذ منهم الطرب مأخذه في حركات بهلوانية لا يفهم منها أي إشارة إلى الخوف من النار أو الرغبة في الجنة.

وقد أصبح الرقص الصوفي الحديث عند معظم الطرق الصوفية في مناسبات الاحتفال بمولد بعض كبارهم أو في أية مناسبة من مناسباتهم الكثيرة، يحضر عازفون وموسيقيون ويختلط بعضهم ببعض رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، ويجلس في هذه المناسبة كبار الأتباع يتناولون ألوانًا من شرب الدخان، وكبار أئمتهم يقرءون عليهم بعض الخرافات المنسوبة لمقبوريهم.

والغناء الذي يترنمون به يشتعل حبًا وعشقًا وغرامًا وقصائد وجد وحزن، فإذا سئلوا عن ذلك زعموا أنها من الطرق التي توصلهم إلى ربهم، أو هو الحب الإلهي كما يسمونه لترغيب الناس فيه. وهذه الصور البهلوانية الرعناء هي صورة الذكر.

فهل كان الرسول ﷺ أو أحد من الصحابة يفعلون مثل هذا التنطع المذموم، وهل مثل تلك الحركات تشير إلى الخشوع لله تعالى والسكينة في العبادة من قريب أو من بعيد، وهل ذلك الاختلاط والتمايل يمكن أن يكون بعيدًا عن الشيطان. إنها مهازل وسخرية بدينهم ومع ذلك فهم يتلمسون لهم الأدلة التي يجادلون بها مهما كان سقوطها.

أدلتهم على جواز ذلك والرد عليها:

وهكذا لم يكتف هؤلاء بتلك المسالك التي غلوا فيها إلى أن أخرجوا بعض عباداتهم في صور غنائية ورقص، بل حاولوا كذلك أن يجدوا لتلك الأفعال أدلة لمشروعيتها، ومن ذلك:

زعمهم أن سلمان رضي الله عنه حين نزل قوله تعالى: (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) صاح سلمان الفارسي صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هاربًا ثلاثة أيام.

ومن ذلك أيضًا احتجاجهم بقول الله تعالى لأيوب عليه السلام: (اركض برجلك).

ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي: "أنت مني وأنا منك" فحجل، وقال لجعفر: "أشبهت خلقي وخلقي" فحجل، وقال لزيد: "أنت أخونا ومولانا" فحجل.

ومنها احتجاجهم لسماع الرسول صلى الله عليه وسلم جاريتين تغنيان بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو مسجى بثوبه، فجاء أبو بكر فانتهرهم، فنهاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: "دعهما فإنها أيام عيد".

ومنها أن الحبشة زفنت والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم.

واحتج أبو عبد الرحمن السلمي على جواز الرقص بما روي عن الشافعي أن سعيد بن المسيب مر في بعض أزقة مكة فسمع الأخضر الحداء يتغنى في دار العاص بن وائل بهذين البيتين:

تضوع مسكًا بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة عطرات

فلما رأت ركب النميري أعرضت وهن من أن يلقينه حذرات

قال فضرب برجله الأرض زمانًا وقال: هذا مما يلذ سماعه.

ومنها أن عمر رضي الله عنه كان ربما مر بآية في وردة فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضًا.

ومنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في حق أبى موسى: "لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود" ومنها استحسان الرسول شعر النابغة حتى قال له: "لا يفضض الله فاك"، ووضعه أيضًا المنبر لحسان يقول عليه الشعر في هجاء المخالفين للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومنها أن بعض الصالحين رأى الخضر وسأله عن السماع الصوفي فقال له: ذلك

هو الصفاء الزلال.

ورأى أحدهم الرسول ﷺ في المنام فسأله عن سماع الصوفية فقال له الرسول: ما أنكره، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختتمون بعده بالقرآن..

ومنها أن الخضر تواجد حتى سقط على جبهته وصار الدم يقطر منها ولا يقع على الأرض، حين سمع أبياتًا من الشعر قالها شخص بحضرته، ذكرها السهروردي.

ومن أدلتهم أن بعض الصالحين رأى النبي ﷺ وأبا بكر وهو يقول له كلامًا والنبي ﷺ قد وضع يده على صدره كالمتواجد بذلك.

ثم أورد السهروردي أدلة كثيرة عن بعض الصوفيين في حال تواجدهم؛ بعضهم مشى على الماء، وبعضهم لم يحترق بالنار، وبعضهم يرتفع أذرعًا عن الأرض، إلى أن، ختم السهروردي أدلته - وهى كثيرة بزعمه - بهذه القصة، وهي أن أعرابيًا أنشد رسول الله ﷺ:

لقد لسعت حية الهوى كبدى فلا طيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، ثم قسم رداءه بينهم، حيث مزقه إلى أربعمائة قطعة.

تلك أهم الحجج التي يتمسك بها الصوفيون في مشروعية لهوهم وتواجدهم، فما مدى صحة استدلالهم، وهل ما ذكروه من تلك الروايات كلها صحيحة، أو هل كان فهمهم لها فهمًا صحيحًا؟

والجواب عن هذه الاحتجاجات يحتاج إلى دراسة ووقت، ولكن أكتفى هنا بإيجاز الرد عليهم في دفع حججهم وأدلتهم بأنها احتجاجات واهية وتلفيق غير مقبول ومزاعم لا صحة لها:

*فأما ما رووه عن سلمان فإنه كذب، ومحال كذلك، فقد رويت هذه القصة بلا سند. ثم إن الآية نزلت بمكة بالاتفاق كما قال القرطبي، وسلمان إنما أسلم بالمدينة كما هو معلوم.

ثم أن الرسول ﷺ كان ينهي أشد النهي عن مثل هذه الأمور المنافية للوقار والخشوع، فإنه كان ﷺ يبغض الصياح أو إظهار التخشع عند سماع القرآن أو المواعظ إلا في الحدود المشروعة، ومن ذلك ما رواه أنس قال: "وعظ رسول الله ﷺ يومًا فإذا برجل قد صعق فقال النبي ﷺ: "من ذا الملبس علينا ديننا إن كان صادقًا فقد شهر نفسه وإن كان كاذبًا فمحقه الله".

وقد عرف عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يخشعون تمام الخشوع، فتذرف عيونهم وتخاف قلوبهم، ولم يصعق أحد منهم وهم أعرف بالله من غيرهم وأتقى له وأكثر انقيادًا وقبولًا للحق تمسكًا به، ولو كان ذلك الوجد والهيام والصعق خير لما سبقهم أحد إليه.

*واما احتجاجهم بقول الله تعالى لأيوب: (اركض برجلك) فهذا احتجاج يدل على جهل صاحبه بحقيقة حال أيوب المبتلى بما لا يصبر عليه أحد إلا من أعانه الله وقوى يقينه، فإنه يقال لهذا المحتج: إن الله لم يأمر أيوبًا بضرب رجله فرحًا وطربًا.

وإنما أمر بضرب رجله من باب فعل الأسباب إكرامًا من الله تعالى له، ثم إنه لم يركض برجله ابتداء وإنما تنفيذًا للأمر، وكذلك لإشعاره بتغير الحال، ولحكم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى ليس منها جواز الرقص، ولم يك حاله يستدعي أن يضرب برجله الأرض تواجدًا وطربًا إلا عند الجفاة.

*وأما احتجاجهم بحجل على وجعفر وزيد، فإن الحجل هو نوع من المشي يفعل عند الفرح وارتياح النفس أحيانًا ليعبر الشخص به عن فرحه دون قصد الرقص

والتمايل، والصحابة هؤلاء لم يكن منهم رقص ولا تمايل ولا إنشاد قصائد الغزل المهيجة، فليس فيه دلالة على ما يريد المتصوفة، وما فعله هؤلاء الصحابة إنما كانت حالة عارضة لا قصد لهم فيها لإظهار الطرب والتواجد.

*وأما احتجاجهم بزفن الحبشة فإن الزفن أيضًا نوع من المشي مع الرقص ويشير كذلك إلى الاعتداد بالنفس، وأكثر ما يفعل عند اللقاء في الحرب إظهارًا للشجاعة وعدم المبالاة بالعدو، وليس المقصود منه الرقص والطرب كما يرى الصوفية.

*وأما ما ذكروه عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه مكذوب عليه، وليس هذا شعره، وهو أوقر من أن يصل إلى هذا الحد.

*وهذه الأبيات فيما يذكره الأدباء قالها محمد بن عبد الله بن نمير الشاعر الثقفي، يتغزل فيها بزينب بنت يوسف الثقفي أخت الحجاج. وقد هرب بعد ذلك إلى عبد الملك خوفًا من الحجاج، فسأله عبد الملك بن مروان عن الركب ماذا كان؟ فقال له: كانت أحمرة عجافًا حملت عليها قطرانًا من الطائف، فضحك عبد الملك وأمر الحجاج أن لا يؤذيه.

ثم لو قدرنا أن ابن المسيب ضرب برجله الأرض فليس في ذلك حجة على جواز الرقص، ولا أنه ضرب بها وهو يريد الرقص، فإن الإنسان قد يضرب برجله الأرض أو يدقها لشيء يسمعه ولا يسمى ذلك رقصًا منه، بل إن الإنسان قد يضرب برجله الأرض إما فرحًا وإما غضبًا وإما غيظًا.

*وأما احتجاجهم بسماع الرسول للجاريتين فهو استدلال غريب منهم على جواز الرقص والتمايل والتواجد؛ ذلك أن الرسول ﷺ كان مسجي بثوبه، وهم حينما يتواجدون لا يتدثرون بثيابهم، بل تعلو همتهم ويشتد عراكهم ويمزقون ثيابهم، فأين

فعلهم من فعل الرسول ﷺ؟.

*كذلك فإن الجاريتين كانتا تنشدان كلامًا ليس فيه غزل أو تشبيب أو خروج عن حد الوقار والأدب، وكان الحال يستدعي الترويح عن النفس، خصوصًا وأنه يوم عيد وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت جارية شابة.

*وأما استدلالهم بما ينسبونه إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أنه كان يلزم البيت اليوم واليومين حينما يسمع بعض الآيات في ورده؛ فإنه لم يعرف أن الصحابة كانت لهم أوراد يرددونها على طريقة الصوفية، بل ولم يعرف عنه أنه يمرض اليوم واليومين بسبب ما يسمعه من بعض الآيات، لا هو ولا غيره من الصحابة.

*وأما استدلالهم بحسن صوت أبي موسى فليس فيه دليل على الوجد الصوفي، وإنما هو إخبار من الرسول ﷺ بتلك النعمة التي أعطيها أبو موسى، فهل كان الصحابة يرقصون على سماع قراءته أو يصعقون أو يمزقون ثيابهم؟ كلا.

*وكذلك استحسان الرسول ﷺ لبعض الكلام أو الشعر ليس فيه دلالة للصوفية، فإن الرسول ﷺ كان يستحسن أشياء ويستقبح أشياء، وهذا أمر طبيعي في النفوس[1].

---

(١) (تنبيه): قال الله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩)) [يس: ٦٩].

وفي الحديث عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رجلا قال له: "يا أبا عمارة، وليتم يوم حنين؟ قال: لا والله، ما ولى النبي ﷺ، ولكن ولى سرعان الناس؛ فلقيهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، حديث (٢٨٦٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، حديث (١٧٧٦).

وعن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "بينما النبي ﷺ يمشي إذ أصابه
=

=

حجر فعثر فدميت إصبعه؛ فقال: هل أنت إلا إصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت".

* ظاهر الآية الكريمة أن الشعر ممتنع تعلمه ونظمه على النبي ﷺ، وأما الحديثين فقد جاء فيهما ما يوهم معارضة هذا الظاهر؛ إذ فيهما أن النبي ﷺ أنشد ذينك البيتين من تلقاء نفسه، وهذا يوهم قدرة النبي ﷺ على النظم، وهو خلاف الآية.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث:

اتفق العلماء على أن الشعر ممتنع نظمه على النبي ﷺ، أخذا بظاهر الآية الكريمة، واختلفوا في حكم تمثل النبي ﷺ بشيء من الشعر وإنشاده، حاكيا عن غيره، والصحيح جوازه، وعليه الجمهور من العلماء.

وأما أحاديث الباب - التي يوهم ظاهرها أن النبي ﷺ قال شيئا من الشعر من تلقاء نفسه - فقد اختلفوا في الجواب عنها على مذاهب:

الأول: أن النبي ﷺ قال ذلك النظم اتفاقا ولم يقصد به قرض الشعر؛ والكلام قد يخرج موزونا على وزن الشعر من غير معرفة أو قصد من قائله.

وقد حكى ابن القطاع اللغوي، وأقره النووي، الإجماع على أن شرط تسمية الكلام شعرا أن يقصد له قائله.

ويرى أصحاب هذا المذهب أن النبي ﷺ لم يقصد نظما ووزنا فيكون شعرا، إذ قد يأتي في الكلام والقرآن ما يتزن بوزن الشعر وليس بشعر، كقوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) [آل عمران: ٩٢]، وقوله: (وجفان كالجواب وقدور راسيات) [سبأ: ١٣]، وقوله: (نصر من الله وفتح قريب) [الصف: ١٣]، وكثيرا ما يقع للعوام في كلامهم: المقفى الموزون، وليس بشعر، ولا يسمى قائله شاعرا؛ لأنه لم يقصده، ولا شعر به، والشعر إنما سمي بذلك؛ لأن قائله يشعر به، ويقصده نظما، ووزنا، ورويا، وقافية، ومعنى.

وعلى هذا المذهب جماهير العلماء، من مفسرين ومحدثين، وممن قال به:

أبو عبيدة معمر بن المثنى، وابن قتيبة، وأبو الليث السمرقندي، والزمخشري، والمازري، والقاضي عياض، وابن عطية، والفخر الرازي، وأبو عبد الله القرطبي، والبيضاوي، وابن جزي، والطيبي، وأبو حيان، والذهبي، والحافظ ابن كثير، والزركشي، والحافظ ابن حجر، والسيوطي، وأبو السعود، والملا علي القاري، والمناوي، والشوكاني، والآلوسي، وابن عثيمين.

=

=

المذهب الثاني: أن تمثل النبي ﷺ ببيت واحد من الشعر لا يلزم منه أن يكون عالما بالشعر، ولا شاعرا؛ لأن إصابة القافيتين من الرجز وغيره لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر، ولا يسمى شاعرا باتفاق العقلاء.

والذي نفى الله عن نبيه ﷺ هو العلم بالشعر؛ بأصنافه، وأعاريضه، وقوافيه، والاتصاف بقوله، والنبي ﷺ لم يكن موصوفا بشيء من ذلك باتفاق.

وهذا جواب: الزجاج، والطحاوي، والنحاس، والجصاص، وأبي العباس القرطبي.

المذهب الثالث: أن الذي قاله النبي ﷺ هو من الرجز، والرجز لا يعد شعرا، والذي نفاه الله تعالى عن نبيه إنما هو الشعر لا الرجز.

وهذا مذهب: الخليل، والأخفش الأوسط، وابن التين.

وهو اختيار: البيهقي، والسهيلي، والعيني.

أما الخليل فيرى أن ما جاء من السجع على جزأين فإنه لا يكون شعرا.

وأما الأخفش فيرى أن الرجز لا يكون شعرا؛ لوقوعه من النبي ﷺ، والله تعالى يقول: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له).

وقال ابن التين: "لا يطلق على الرجز شعرا؛ إنما هو كلام مرجز مسجع؛ بدليل أنه يقال لصانعه: راجز، ولا يقال: شاعر، ويقال: أنشد رجزا، ولا يقال: أنشد شعرا". اهـ

وقد اختلف العروضيون وأهل الأدب في الرجز هل هو من الشعر أم لا؟ مع اتفاق أكثرهم على أن الرجز لا يكون شعرا.

قال أبو العباس القرطبي: "والصحيح في الرجز أنه من الشعر، وإنما أخرجه من الشعر من أشكل عليه إنشاد النبي ﷺ إياه فقال: لو كان شعرا لما علمه النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) قال: وهذا ليس بشيء؛ لأن من أنشد القليل من الشعر، أو قاله، أو تمثل به على الندور، لم يستحق به اسم الشاعر، ولا يقال فيه إنه تعلم الشعر، ولا ينسب إليه، ولو كان ذلك للزم أن يقال عن الناس كلهم شعراء، ويعلمون الشعر؛ لأنهم لا يخلون أن يعرفوا كلاما موزونا مرتبطا على أعاريض الشعر". اهـ

المذهب الرابع: أن النبي ﷺ قال هذين البيتين متمثلا، وهما من نظم غيره وليسا من نظمه.

وهذا جواب ابن الجوزي، حيث يرى أن كل ما نقل عن النبي ﷺ من الشعر فهو لغيره،

=

=
وإنما كان النبي ﷺ يتمثل به، وأما قول الشعر من قبل نفسه ﷺ فإنه ممتنع عليه، ولا يتأتى منه.
وأجاب عن قوله ﷺ:
أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب
باحتمال أن يكون النبي ﷺ سمعه بلفظ:
أنت النبي لا كذب... أنت ابن عبد المطلب
فغيره وأضافه لنفسه.
وأما قوله ﷺ:
هل أنت إلا إصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت
فقد جزم الطبري، وابن التين: بأن هذا الرجز من شعر عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه -.
قال الحافظ ابن حجر: "ويؤيد قولهما أن ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" أورد هذين الشطرين لعبد الله بن رواحة، فذكر أن جعفر بن أبي طالب لما قتل في غزوة مؤتة - بعد أن قتل زيد بن حارثة - أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل فأصيب إصبعه فارتجز وجعل يقول هذين القسمين، وزاد:
يا نفس إن لا تقتلي تموتي... هذي حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت... إن تفعلي فعلهما هديت
قال: وذكر الواقدي: أن الوليد بن الوليد بن المغيرة كان رافق أبا بصير في صلح الحديبية على ساحل البحر، ثم إن الوليد رجع إلى المدينة، فعثر بالحرة، فانقطعت إصبعه، فقال هذين القسمين". اهـ
المذهب الخامس: أن النبي ﷺ قال: "لا كذب" بتنوين الباء مرفوعة، وبخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة، وهذا ليس على وزن الشعر.
وقوله:
هل أنت إلا إصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت
إنما يكون شعرا موزونا إذا كسرت التاء من "دميت" و "لقيت"، فإن سكنت لم يكن شعرا بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول، ولا مدخل لفعول في بحر السريع، ولعل النبي ﷺ قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع.
وهذا جواب: ابن العربي، والكرماني.
=

*وأما ما يحشده أقطاب التصوف من الأدلة بالرؤى المنامية أو بمقابلتهم للخضر، فإنها أدلة باطلة، حتى ولو كان الرائي ثقة، فإنه لا يتعبد برؤياه فما بالك وتلك الرؤى الصوفية عن مجهولين، إضافة إلى التكليف الظاهر في رواياتهم.

*وزعمهم أن الرسول ﷺ كان يطرب ويتواجد ويضرب بيده على صدره ويمزق ثيابه ويعطيها لأصحابه كله كلام يدل على عدم احترامهم للرسول ﷺ وعدم معرفة قدرة العظيم. فهل كان يصل به التواجد إلى حد أن يسقط رداءه عن منكبيه من سماع

=

وتعقبهما الحافظ ابن حجر فقال: "وقولهما هذا مردود؛ فإنه يصير من ضرب آخر من الشعر، وهو من ضروب البحر الملقب بالكامل، وفي الثاني زحاف جائز". اهـ

و الزحاف في الشعر: حرف بين حرفين، وهو تغير يقع في الركن إما بزيادة أو نقص، ويقال لذلك الركن الذي تغير: مزاحفا وغير سالم، والزحف إذا وقع في الصدر سمي: ابتداء، وإذا وقع في العروض سمي: فصلا، وإذا كان في وسط البيت سمي: اعتدالا. انظر: المصدر السابق، ص (٩٠٥).

و الذي يظهر صوابه – والله تعالى أعلم – أن ما روي عن النبي ﷺ من إنشاده لبعض الشعر إنما قاله اتفاقا، ولم يقصد به نظم الشعر.

وتمثل النبي ﷺ ببيت واحد من الشعر لا يلزم منه أن يكون عالما بالشعر، لأن الذي نفى الله عن نبيه ﷺ هو العلم بالشعر، بأصنافه، وأعاريضه، وقوافيه، والاتصاف بقوله، والنبي ﷺ لم يكن موصوفا بشيء من ذلك باتفاق، فخرج أن يكون شاعرا أو عالما بالشعر.

وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعا وشرعا، فعن أبي نوفل بن أبي عقرب قال: "سألت عائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه".

وعن ابن عمر – رَضِوَاللَّهُعَنْهُ –، عن النبي ﷺ قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا".

وكان ﷺ لا يحفظ بيتا على وزن منتظم، وإن أنشده زحفه أو لم يتمه، وهذا مما يؤكد أن النبي ﷺ لم يكن يحسن صناعة الشعر، ولا تقتضيه جبلته، والله تعالى أعلم.

تلك الأبيات الفارغة: قد لسعت حية الهوى كبدي... ؟

*وما ذكره السهروردي من أن بعض أقطاب التصوف يكاد أن يطير أو يرتفع من الأرض أذرعًا أو يدخل الشمعة في عينه أو يطأ النار ولا يحس بها أو يمشي على الماء أو غير ذلك من الحركات البهلوانية العشوائية التي يفعلها هؤلاء، فلا ريب أنها من أقوى الدلائل على تلاعب الشياطين بهم وإخراجهم عن حد الاعتدال الذي أقل ما يوصف به أنه ينافي الخوف من الله تعالى والرغبة في المغفرة.

الفصل الثامن عشر الكرامات وخوارق العادات عند الصوفية

للأولياء الحقيقيين كرامات لا تنكر، وقد كان للصحابة رضي الله عنهم من الكرامات ما هو جدير بهم، وكان لغيرهم من الأولياء والعلماء كرامات كثيرة، وهدفنا هنا من ذكر الكرامات وخوارق العادات هو بيان تلك الكرامات والخوارق التي تتم على أيدي أناس ليسوا من أولياء الله، وليس لهم صلاح يؤهلهم لذلك.

وبيان أن ذلك من مكائد الشيطان وتلبيسه على الناس بأن يظهر لبعضهم أمورًا غيبية تبدو كأنها كرامات من الله للشخص فيتخيل أنه بلغ منزلة عالية فاق فيها غيره من الناس، وأنه أصبح يماثل الأنبياء في كراماتهم وقربه من الله. وهذه الحال كثيرة الوقوع لمن يدعون أنهم أولياء لله، وأكثرهم في الحقيقة أعداء له وموالين لشياطينهم.

ومن تلاعب الشياطين بهؤلاء: أن يسمع أحدهم صوتًا من حجر أو شجر أو صنم يأمره وينهاه بأمور في بعضها الشرك بالله فيظن المغرور أن الله خاطبه أو ، الملائكة على سبيل الكرامة، ومعلوم أن الله لا يأمر بالفحشاء، والملائكة لا تأمر بالشرك بالله وإنما أولئك هم الشياطين يلبسون عليهم أمورهم كما كانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام أيضًا.

وقد يظن هؤلاء أن ذلك وحى من الله عليهم كما حصل لكثير من الذين قلت

معرفتهم بالله كالمختار بن أبى عبيد الذي أخبر عنه الرسول ﷺ أنه كذاب ثقيف وغيره ممن استهوتهم الشياطين.

ومنها: أن الشياطين قد تتمثل بصورة المستغاث به من الناس فيظن المشرك بالله أن هذه الصورة هي الشيخ الفلاني أو الولي الفلاني، أو أن ملكًا جاء على صورته، وإنما هو في الحقيقة شيطان تمثل له ليضله.

ومنها: أن تخاطب الشياطين بعض العبَّاد الجهال، ويوهمونه أنه المهدي المنتظر وصاحب الزمان الذي بشر به الرسول ﷺ، ويغرونه بزخرف القول وشتى الوساوس حتى يصدق نفسه فيدعي المهدية وغير ذلك.

بل يبلغ الحال ببعضهم أن يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشًا عظيمًا وعليه صورة عظيمة وأنوارًا وأشخاصًا تصعد وتنزل فيظنها الملائكة بين يدي الله تعالى وأن الله كشف له النظر إليه.

وهذا يتطلب من المؤمن العاقل التنبه لمثل المكائد الشيطانية بلجوئه إلى الله والاهتداء بهدية، وسوء الظن بنفسه الأمارة بالسوء، وأن ينظر إلى نفسه من باب الذل والاحتقار والحاجة إلى ربه، ويزن أعماله بامتثاله أوامر الله واجتنابه نواهيه، فيحكم على نفسه عند ذلك بالتقصير أو القرب من الله تعالى.

ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء، وأن لا يصدق ما يتراءى له من كرامات تنافي الإسلام، مثل أنواع الكرامات التي تبجح بها بعض غلاة الصوفية لأنفسهم كما ذكرها المناوي، وهي:

إحياء الموتى. وقد مثل بأبي عبيد اليسري الذي أحيا دابته بعد ما ماتت، ومفرج الدماميني الذي أحيا الفراخ المشوية، والكيلانى وأبو يوسف الدهمانى الذي أحيا لتلميذه ولده بعد ما مات.

ومن الكرامات التي يزعمونها أن الأولياء من الصوفية لهم القدرة على المشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور الشيء في غير موضعه والمشي على السحاب وتحويل التراب إلى خبز وإبراء الأكمه والأبرص.

ويذكر علي حرازم منهم أن الولي يملك كلمة التكوين فإذا أراد شيئًا فإنه يقول له كن فيكون. وقد ذكر أمثلة كثيرة في كتابه جواهر المعاني لمثل هذا الخلط والكذب على الله وعلى الناس.

ومن المعجزات والكرامات التي يملكها الأولياء من الصوفية - حسب زعمهم - سماع نطق الجمادات، كما يزعم ابن عربي الذي ملأ كتبه بأنواع الأكاذيب حول تلك المعجزات والكرامات الصوفية.

ضمانة الجنة لمن أطعم صوفيًا أو قضى له حاجة؛ كما ضمن ذلك التجاني لكل من أحبه أو أطعمه أو أحسن إليه بأي شيء كما يذكر التجانيون في كتبهم افتخارًا بكرامات سيدهم التي منها هذه الكرامة التي أكدها علي حرازم والفوتي نقلًا عن التجاني.

وكل تلك الكرامات أشبه ما تكون بأحلام الصبيان أو صراعات المجانين، وتكذيبها والسخرية بها لا تحتاج إلى ضياع الوقت في الاشتغال بالردود عليها وبيان سخافتها ودجل من يدعيها ممن جرؤ على الكذب على الله وعلى الناس وضللوا أتباعهم وأخرجوهم عن الإسلام من حيث لا يشعر أولئك الأتباع، لأنهم أصبحوا كما قال الله تعالى: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون).

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة من كلام أقطاب التصوف في الكرامات التي يزعمونها لأنفسهم أو لأوليائهم لترى مدى بعد تلك العقول عن الحق والأفكار الرديئة التي انطوت عليها الزعامات الصوفية.

يقول عبد الكريم القشيري عن كرامات أبى الحسين النوري أنه قال: "كان في نفسي شيء من هذه الكرامات، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ثم قلت: وعزتك إن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقن نفسي، قال فخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال".

فهذا جاهل بحق ربه وأراد أن يقتل نفسه: وقد صادف ما قدره الله له - أو كان بفعل الشيطان ليغويه - أن خرجت له تلك السمكة، ومهما كان فإن هذا المسلك لم يكن من مسلك الأولياء على هذا النحو، وقال عنه:

"وحكي عن النوري أنه خرج ليلة إلى شط دجلة فوجدها وقد التزق الشطان فانصرف وقال: وعزتك لا أجوزها إلا في زورق".

وقد فسر ذلك العروسي فقال: "أي التقى له الشطان بحيث لو مد رجله كان على الشط الآخر، فانصرف وقال تأدبًا واعترافًا بتوالي نعم الله عليه في كل خارق: وعزتك لا أجوزها إلا في زورق كسائر الناس".

فكيف يكون الأدب مع الله أن ترد مكرمته إلا عند القشيري والنوري، وقال أبو الحارث الأولاشي: "مكثت ثلاثين سنة ما يسمع - أي ينطق - لساني إلا من سري ثم تغيرت الحال فمكثت ثلاثين سنة لا يسمع سري إلا من ربي".

"وكان يحيى بن سعيد يتعبد في غرفة ليس إليها سلم ولا درج، فكان إذا أراد أن يتطهر يجيء إلى باب الغرفة ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويمر في الهواء كأنه طير ثم يتطهر فإذا فرغ يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود إلى غرفته".

وقال أبو يعقوب السوسي: "جاءني مريد بمكة فقال: يا أستاذ أنا غدًا أموت وقت الظهر فخذ هذا الدينار فاحفر لي بنصفه وكفِّنِّي بنصفه الآخر، ثم لما كان الغد وطاف بالبيت ثم تباعد ومات، فغسلته وكفنته ووضعته في اللحد، ففتح عينيه فقلت أحياة

بعد موت؟ فقال أنا حي وكل محب لله حي".

وأما بالنسبة للخضر فحدث ولا حرج لقد ملأ الصوفيون كتبهم بحكايات عن الخضر لا حد لها ولا حصر إذ لا يخلو كتاب من كتبهم من نسج القصص والأساطير عليه، ومفادها أن الخضر يجيب كل من يستغيث به في أي بلد كان.

ويذكر القشيري أنه حدث ابن أبى عبيد اليسري عن أبيه أنه غزا سنة من السنين فخرج في السرية فمات المهر الذي كان تحته وهو في السرية فقال: يا رب أعرناه حتى نرجع إلى بسرى يعنى قريته فإذا المهر قائم... إلى آخر القصة.

ومثل هذه القصة قصة أخرى وقعت لأحد الأولياء ذكرها أبو سبرة النخعي، وذكر السكندري أنواعًا من الكرامات التي تحصل للولي فقال:

"ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيًا للأرض ومشيًا على الماء وطيرانًا في الهواء واطلاعًا على كوائن كانت وكائن بعد لم تكن من غير طريق العادة وتكثير الطعام أو الشراب أو إتيانًا بثمرة في غير إبانها، وإنباعًا ماء من غير حفر أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبر عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة، أو إثمار لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له".

ونقل عن المرسي قوله: "وقال الشيخ أبو العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقًا بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين.. الخ".

وذكر السكندري عن الصوفي القرشي أنه جاءه الخضر بزيتونه من نجد وكان به مرض الجذام فقال له: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك، فقال له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها.

ثم شرع السكندري كغيره من علماء الصوفية في ذكر فضائل الخضر وأفعاله مع الأولياء الصوفية وأورد قصصًا في ذلك كثيرة ورد على الذين ينكرون وجوده بدليل

أن إبليس موجود الآن فلا ينبغي جحد وجود الخضر وهذا الدليل من أبعد ما يكون عن الصواب، لأن وجود إبليس بنص القرآن والسنة، وجود الخضر إلى الآن لا دليل عليه لا عقلًا ولا نقلًا.

وكرامات كثيرة يذكرها السكندري لمشائخه لا يصدقها عاقل نترك ذكرها هنا، ومن أراد الإطلاع عليها فليرجع إلى كتاب السكندري "لطائف المنن"؛ حيث ملأه بكرامات وبشطحات أولئك المشائخ بما لا يجرؤ أي مسلم يخاف الله أن يتطاول على الله وعلى رسله ولو بأقل من تلك الشطحات الخرقاء من دعوى علم الغيب بكل شيء في هذا الكون مهما كان حقيرًا في ليل أو نهار، ومن دعوى الاتحاد بالله ومجالسته، ومن دعوى مصاحبة النبي محمد ﷺ في كل وقت، ومن دعوى مشاهدة الجنة دائمًا، وأشياء أخرى حين يقرأها المسلم يقول: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

ومثل ما خاض فيه السكندري خاض فيه أيضًا الشعراني، ولا أرى أن المقام يسمح بذكر نماذج من تلك الكرامات الخيالية التي زعمها الشعراني لأقطاب التصوف الذين ترجم لكل واحد منهم وجاء في تراجمهم بما لا يقوله إنسان سليم الفترة سليم العقل عنده أدنى معرفة بالدين الإسلامي.

إنها جرائم حشدها الشعراني في طبقاته على أنها كرامات لأولئك الذين زعم كذبًا أنهم أولياء أقل ما فيها الاستهانة بجرائم اللواط والزنا والشذوذ الجنسي _ كما يسمى في عصرنا _ ومن غريب أمره أنه يذكر الشخص منهم ثم يأتي في ترجمته وكراماته بما ينكس الرأس حياء ثم يختمها بقوله عنه _ رضي الله عنه _.

ولو أن هؤلاء الصوفية من أمثال ابن عربي والمنوفي والسهروردي والشعراني والسكندري وعلي حرازم والفوتي ذكروا كرامات قليلة وفيها نوع من التعقل لكنت نقلتها هنا ولكن لا حيلة في ذلك وكتبهم كلها مملوءة بكرامات كل واحدة تعلن

أختها، ومن هنا أعرضت عن ذكر ذلك وكنت مثل خراش الذي قال فيه الشاعر:

تكاسرت الضباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

على أن بعض تلك الكرامات لا تستحق أن تذكر لأحد؛ إذ فيها الاستهانة بالأخلاق والآداب العامة، وفيها التشجيع على اللهو والفسق.

الفصل التاسع عشر: تراجم زعماء الصوفية

للصوفية زعماء كثيرون ليس من السهل حصرهم وذكر تراجمهم غير أننا نحيل من أراد التوسع في تراجمهم إلى كتب الصوفية أنفسهم.

وقبل إيراد بعض تلك الكتب أحب التنبيه إلى أن بعض علماء الصوفية حينما كتبوا تراجم لمشاهيرهم وأسلافهم ارتكبوا جرمًا في حق الصحابة رضوان الله عليهم وفي حق غيرهم من خيار المسلمين وعلمائهم، حيث حشروهم في سلسلة واحدة مع كبار غلاة وفساق الصوفية الذين وصل بهم الاستهتار بأخلاق وبأمور الدين الشرعية وبالآداب الإسلامية، بل والعرفية إلى حد يستحي الإنسان من ذكرها، وأعمال لا يتصور وقوعها من جهال المسلمين، فما الظن بطلاب العلم، بل وما الظن بأولياء الله؟

وكنت قد جمعت عدة أوراق في تراجم أقطاب التصوف، ولكني رأيتها أليق بكتب التاريخ وتطول بها هذه الدراسة فاكتفيت بذكر بعض المراجع التي اهتمت بدراسة شخصيات علماء التصوف ونقل أخبارهم وشطحاتهم وكشوفاتهم ومنزلتهم عند الله وعند الناس، وما آل إليه أمر كل واحد منهم، ومن أهم تلك الكتب:

الرسالة القشيرية: لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري النيسابوري الشافعي ٤٧١-٤٦٥هـ، وهي مجلدان، خصص المجلد الأول من ص٦١ إلى آخره لتراجم مشائخ التصوف، ابتدأه بهذا العنوان: "فصل في ذكر

مشائخ هذه الطريقة وما يدل من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة"، ثم ذكر تراجم لثلاثة وثمانين شخصًا من كبار زعماء التصوف.

الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار تأليف عبد الوهاب ابن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراني. ظهر في القرن العاشر الهجري.

والطبقات مجلدان خصصهما لتراجم كبار علماء الصوفية من رجال ونساء، وقد ترجم لأربعمائة وأربعة وعشرين شخصًا، بإضافة مشائخه وعددهم ٨٧ شخصًا، وقد بدأ تراجم هؤلاء بأبي بكر الصديق ﵁ وختمهم بعلي بن شهاب جده الأدنى، ثم ابتدأ بمحمد المغربي الشاذلي وختمهم بالشيخ علي العياشي.

جمهرة الأولياء أعلام أهل التصوف، تأليف محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني. مجلدين، خصص الجزء الثاني لترجمة كثير من الأعلام، أعلام الصحابة وأهل الصفة، ثم ترجم لعدد من أعلام التصوف تحت عنوان: "طبقة التابعين وتابعيهم ذكر التابعين من الأولياء".

ثم ترجم لسبعة وثمانين شخصًا، حشر بعض الفضلاء من أعلام الإسلام مع كبار الغلاة من الصوفية دون تمييز.

كتاب عوارف المعارف لأبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد عموية الصديقي القرشي التيمي اليكري الشافعي الملقب بشهاب الدين السهروردي ٥٣٩-٦٣٢هـ، ولم يبرز التراجم لرجال الصوفية في هذا الكتاب إلا أنه ذكر كثير من أعلام التصوف في ثنايا أبواب الكتاب.

لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، وطريقته مثل طريقة السهروردي.

جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني- تأليف/ علي

حرزام ابن العربي برادة المغربي.

كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم -تأليف/ عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوي.

و"جواهر المعاني" مجلدان، وكذا"الرماح" مجلدان بهامش كتاب جواهر المعاني، اهتم المؤلفان ببيان الطريقة التجانية، وذكر التجاني وكبار أتباعه بتوسع تام.

وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة عن شخصيات الصوفية مثل ابن عربي والبسطامي والتجاني والنقشبندي وابن سبعين والغزالي وابن الفارض والحلاج والجيلاني.

(باب ذكر الفرق الباطنية)(١)

بعد أن مَنَّ الله تعالى على البشرية برسالة التوحيد وبالإسلام الحنيف، الذى جاء به سيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ رحمة للعالمين، لم يجد أعداء الله فى أنفسهم إلا الضيق والحنق والكراهية لهذا الدين ودعاته.

فقد تجمعت بقايا المجوس وطوائف الشرك والإلحاد -لما ظهرت الشريعة الإسلامية وقهرتهم دولة الإيمان وملة الإسلام- حيث لم يجدوا سبيلًا إلى دفع الإسلام بالسيف ولا بالحجة، لذلك ستروا ما هم فيه من الزندقة والإلحاد، وأبطنوه بحيل خبيثة تقبلها الأذهان وتذعن لها العقول وتستهويها النفوس(٢).

لقد انتمى كثير من هؤلاء الحاقدين الحاسدين إلى بيت النبوة، وأظهروا محبتهم

---

(١) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد، تأليف خالد محمد على الحاج - الجزء الأول ص١٤٥ وما بعدها.

(٢) لقد كان التصوف المتأخر بعد القرون المفضلة حيلة أخرى لستر إلحادهم ومحاولة لتقويض الإسلام بطريق التظاهر بخدمته وصيانته.

وموالاتهم -كذبًا وبهتانًا- وهم فى الباطن من أعظم أعداء الإسلام، وأكبر العتاة الحانقين على بيت الرسول وآله الأطهار، بل وأكبر المخالفين لهم.

لقد كذب هؤلاء الضالون على أكابر المسلمين -ومن بينهم أهل بيت الرسول العظيم ﷺ- الجامعين بين العلم والدين، والمشهورين بالصلاح والتقى، فقالوا: قال الإمام فلان كذا، وقال الإمام فلان كذا... وجذبوا جماعة من العامة الذين لا يفهمون ولا يعقلون، فتدرجوا معهم بدعوات معروفة وسياسات شيطانية، ومازالوا ينقلونهم من رتبة إلى رتبة ومن درجة إلى درجة حتى أخرجوهم إلى الكفر البواح، والزندقة المحضة والإلحاد الصراح[1].

ومع الزمن تم لهم تحقيق الكثير من الأهداف الخبيثة، بعد أن أدخلوا أنفسهم فى النسب الشريفى العلوى الفاطمى، وبقيت هذه الدعوات الخبيثة تستشرى ويشتد عودها حتى أصابت الإسلام فى مقتل. ولا أريد الإطالة فى هذا الأمر، وحسبنا أن نستذكر دعوات الفاطميين والدروز والقرامطة وأضرابهم، الذين بلغوا فى الإلحاد وفى كيد الإسلام ما لم يبلغ إليه أحد من طوائف الكفر وطوابير الضلال والوثنية.

يقول الإمام عبد القاهر البغدادى: اعلموا -أسعدكم الله- أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية -من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا- أكثر من الذين يضلون بالدجال فى وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يومًا، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر[2]. أهـ

---

(١) قطر الولى، نقلًا عن ولاية الله: ص٢٨٣.

(٢) الفرق بين الفرق: ص٢٦٥ - ٢٦٦.

ويقول البغدادى: الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع[١].اهـ.

وهكذا -أخى القارئ- يتبين لنا بجلاء خطورة الباطنية الهدامة التى دأبت على حرب الإسلام، فقد عملت جاهدة -قديمًا وحديثًا- للإجهاز على الدعوة المحمدية، وتكاتفت مع قوى الشر والإلحاد واليهودية الماكرة والصليبية الحاقدة وأدواتها المختلفة، نافثة سمومها داخل معاقل الإسلام لإخماد جذوة الإيمان والقضاء على دعوة الحق.

والخلاصة، فإن كثيرًا من الفرق الهدامة قد استخدمت فكرة التشيع والانتماء إلى بيت المصطفى ﷺ قناعًا تسترت به لتحقيق مآربها، وقد ضمت بين صفوفها كل موتور وناعق ودخيل.

وهكذا اتخذ التشيع عشًا للشعوبية، فضم لفيفًا من اللقطاء والمنبوذين وعبدة الطاغوت، الذين اتخذوه ملجًا يأوون إليه وشعارًا ينضوون تحت لوائه، وبذلك استطاعوا أن يصيبوا الإسلام فى مقتل. وإن أعمال القرامطة والفاطمية والبهائية ومن لف لفهم ليست عنا ببعيد.

وفى الصفحات التالية دراسة وعرض لأهم الفرق الباطنية وضلالاتها، التى يجب معرفتها ولا يجوز الجهل بها على كل مؤمن بدعوة الإسلام الحنيف. وثمة أمر آخر لا يجوز إغفاله هو أنه ينبغى على المصلحين والدعاة والمربين أن يدرسوا بعمق هذه المعاول وغيرها مما نتعرض له فى هذا الكتاب، وهى ليست من المطولات التى يصعب استيعابها، ولا من المختصرات التى يغلق على المبتدىء فهمها، وأرجو أن

(١) نفس المصدر: ص٢٧٨.

يكون فيما ذكرناه كفاية للراغب فى الخير.

الإسماعيلية:

الإسماعيلية جمعية سرية ثورية -وتسمى بالباطنية- وقد لبثت زهاء قرن ونصف فى بث الرعب فى قلب الدولة الإسلامية من فارس إلى الشام[١]، واستطاعت حشد جميع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة، واعتمدت فى محاربة خصومها على الاغتيال الخفى المنظم بأكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية. وهؤلاء الإسماعيلية شيعة من غلاة الشيعة، استخرجت مبادئها من تعاليم ميمون بن ديصان وولده عبد الله، ومن تعاليم القرامطة ودار الحكمة الفاطمية، فهى بذلك طور من أطوار الدعوة الثورية الهدامة التى نظمها ابن ميمون، وتتمه لها، وقد ظهرت وبرزت حينما اضمحل أمر الفاطميين فى مصر، وتضاءل نفوذ دار الحكمة والتعاليم الشيعية. وقد ظهر دعاتها أولًا فى فاس، وكانت دعوتها الهدامة الملحدة معول هدم ضد الإسلام وتعاليمة، وقد اعتمدت الحركة الباطنية على أمثال هذه الدعوات لبث سمومها وتقويض بنيان الدولة الإسلامية. والذى نظم الحركة الإسماعيلية فى طورها الجديد، ووضع برنامجها الفذ هو الحسن بن على المعروف بالصباح وأنشأ لهذه الجمعية عدة فروع متفرقة فى أنحاء الشام وفارس والعراق. وكان فارسيًا من خراسان حر التفكير، وتعلم مع الشاعر الفيلسوف عمر الخيام ونظام الملك وزير السلطان ملكشاه، وانقطع لدراسة الكيمياء والفلك وضرب السحر والخفاء، التى كانت فى عصره سلاحًا ذائعًا يشهره الأذكياء والأدعياء على البسطاء والعامة، ثم اتصل بصديقة نظام الملك لإلحاقه بخدمة السلطان ملكشاه، وسما شأنه وكثر ماله. غير أنه حاول -بالدس والخيانة- أن يوقع بصديقه المحسن إليه، فسخط عليه نظام الملك واتهمه

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة: ص٢٠ وما بعدها.

بالإلحاد وبث الدعوة الإسماعيلية، ففر ناجيًا بنفسه وتجول بالأقطار ونزل مصر، وأحسن خليفة مصر الفاطميى المستنصر وفادته، وأمره بدعاء الناس إلى إمامته، واتصل بأساتذة دار الحكمة وتفقه فى تعاليمهم، ثم عاد إلى الشام ونظم طائفته الجديدة، وطاف بالعراق والجزيرة وفارس يبث تعاليمه ويدعو بإمامة إسماعيل وبنيه من آل البيت. وأما مذهبه الفلسفى الذى أقاموا عليه دعوتهم بقيادة الحسن الصباح؛ فمنه القول بوجوب الدعوة إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان، وتتميز الفرقة الناجية من سائر الفرق بأن لها إمامًا وليس لغيرهم إمام. ويقول فى معرفة الله بضرورة استعمال العقل، والنظر إلى جانب تعاليم المعلم الصادق، وأن الناس فى ذلك فرقتان قالت الأولى بوجوب الاستعانة فى معرفة الله بالمعلم الصادق، ووجوب تعيينه وتشخيصه ثم التعلم منه، فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين. وقال: بالاحتياج عرفنا الإمام وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج، كما بالجواز عرفنا الوجوب أو واجب الوجود، وبه عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات. ثم يقول الحسن الصباح: إن فى العالم حقًا وباطلًا، وإن علامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة، وإن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأى، والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الإمام، والرأى مع الفرق المختلفة وهذه مع رؤسائها. وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه، والتمايز بينهما من وجه التضاد فى الطرفين والتريث فى أحد الطرفين ميزانًا يزن جميع ما يتكلم فيه، ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات. وطريقته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم. وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة معًا حتى يكون توحيدًا، وإن النبوة هى النبوة والإمامة معًا حتى تكون نبوة. ولم يتعد فى مسألة الألوهية قوله: إن إلاهنا إله محمد عليه الصلاة والسلام. وقد منع الحسن العامة من الخوض فى العلوم -وكذلك الخاصة- وعن مطالعة الكتب

المتقدمة إلا من استطاع منهم فهمها وتحديدها.

ويحمل العلامة الغزالى فى رسالته -فضائح الباطنية- على مبادئ الإسماعيلية ويقول: إن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض. ويلخص مبادئهم فى قوله: والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم[١].

هذا هو ملخص آراء الحسن الصباح فى المسائل التى اشتغل جميع الدعاة الملاحدة وخصوم الأديان المنزلة والنظم المفروضة فى جميع العصور بتحليلها وتعليلها. وقد اختار مثل إمامه وسلفه ابن ميمون أن يتستر بالدعوة الشيعية، وأن يؤثر إمامة الإسماعيلية لانتشار فلولهم وجموعهم فى جميع الأقطار، ولا سيما فارس التى اختارها مركزًا رئيسيًا لفرقته، إلا أنه التجأ فى التنفيذ إلى القوة المادية على مثل هائل لم يحلم به أحد من أسلافه، وقد اتبع الحسن الصباح مثل دار الحكمة فى مراتب جمعيته، غير أنه جعلها سبعًا بدلًا من تسع.

إن كبار الدعاة ومن يلحق بهم من المتقدمين فى المراتب كانوا يلمون بشىء من أسرار الطائفة، ويعلمون أن الدين لم يكن إلا وسيلة، وأنه أمر باطل ولا يؤمنون بشىء من تعاليمه، ويعتقدون أن كل الوسائل مشروعه لبلوغ المآرب الدنيوية التى يعنون بها دون سواها. كان شعارهم: لا حقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح. وكان هذا أساس نظريتهم السرية التى لم يتلقاها إلا أفراد معدودون منهم، يخفونها بمنتهى الحذر تحت حجاب الإيمان العميق والورع الفياض، تأكيدًا لاستبعاد الأذهان المؤمنة الساذجة، وتوجيهها طوع أهوائها واستخدامها فى تحقيق الغاية الأخيرة والجوهرية، وهى تحقيق الرياسة لبضعة أفراد تضطرم جوانحهم بشهوة السلطان

---

(١) راجع فضائح الباطنية، لأبى حامد الغزالى.

والملك.

وتعتبر الحركة الإسماعيلية من النكبات التى ألمت بالإسلام، لما تم على يد أتباعها من تشويه لحقيقة الإسلام وإعطاء صورة بشعة عنه أمام العالم، مما سهل الدعاية اليهودية فى العالم للنيل من الإسلام العظيم. وتاريخ إمام الطائفة آغا خان الثالث. ١٨٨٧ - ١٩٥٧ برهان على خطر الحركة الإسماعيلية وكفرها وبعدها عن الإسلام. لقد كان آغا خان أسوأ مثل على الإنسان العادى، فضلًا عن الإمام الذى يفترض فيه استقامة الخلق والإيمان والصلاح، وحياة آغا خان وقصص غرامياته وزوجاته وفسقه، ووزنه تارة بالذهب وبالماس تارة أخرى، كانت مادة دسمة لصحافة العالم اليهودية طوال نصف قرن. وأتباع آغا خان يشاركونه المسئولية فى تشويه وجه الإسلام الصحيح، فقد كانوا يؤلهونه ويعتقدون أن الخمر التى تدخل فى جوفه تتحول إلى ماء زمزم. وحين سئل آغا خان مرة من قبل صديق له: كيف يسمح -وهو المثقف- لأتباعه أن يؤلهوه؟ قهقه طويلا حتى دمعت عيناه وقال: إن القوم فى الهند يعبدون البقرة، ألست خيرًا من البقرة؟!.[١].

القرامطة:

للقرامطة عدة ألقاب يعرفون بها، ومن هذه التسميات: الإسماعيلية والباطنية والخرمية والبابكية والمحمرة والسبعية والتعليمية والحشاشين. الخ وهذه بعض أسباب تسمياتهم[٢].

سبب تسميتهم بالإسماعيلية: انتسب هؤلاء إلى إسماعيل بن جعفر. وذكر الغزالى فى فضائح الباطنية أن سبب هذه التسمية نسبة إلى أن زعيمهم هو محمد بن

---

(١) راجع جذور البلاء لعبد الله التل رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) رسالة القرامطة لابن الجوزى بتصرف: ص٣٥ وما بعدها.

إسماعيل بن جعفر. كما ذكر ذلك الإمام ابن الجوزى.

وسبب تسميتهم بالباطنية: أنهم ادعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن، تجرى مجرى اللب من القشر، وأنها توهم الأغبياء صورًا، وتفهم الفطناء رموزًا وإشارات إلى حقائق خفية[1]. وأن من تقاعد عن الغوص على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه. واستشهد بقوله تعالى: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) قالوا: والجهال هم المرادون بقوله تعالى: (فضرب بينهم بسور له باب) وغرضهم فيما وضعوا من ذلك إبطال الشرائع، لأنهم إذا صرفوا العقائد عن موجب الظاهر تحكموا بدعوى الباطن على ما يوجب الانسلاخ من الدين.

وسبب تسميتهم بالقرامطة فيه أقوال عديدة منها:

١. أنهم سُموا بذلك لأن أول من استزلهم وملك المحبة هو: محمد بن الوراق والمقرمط وكان كوفيًا.

٢. أنهم لهم رئيسًا من السواد "سواد العراق وقراه" من الأنباط يلقب بقرموطيه فنسبوا إليه.

٣. أن قرمطا كان غلامًا لإسماعيل بن جعفر فنسبوا إليه لأنه أحدث لهم مقالاتهم.

٤. أن بعض دعاتهم نزل برجل يقال له كرميه فلما رحل تسمى قرمط بن الأشعث، ثم أدخله فى مذهبه.

---

(١) ومن الذين قالوا بأن للقرآن معان باطنية وظاهرية الشيعة، والاسماعيلية، والدروز، والفاطمية والصوفية، والبهائية، والقاديانية، وغيرها من الفرق التى تلتقى فى روافد الدعوة الباطنية.

٥. أنهم لقبوا بهذا الاسم نسبة إلى رجل من دعاتهم يقال له محمد بن قرمط.

أما سبب تسميتهم بالخرمية[1]: أن خرم لفظ أعجمي ينبئ عن شيء يستلذ به ويشتهيه الإنسان، وكان هذا لقبًا لمشابهتهم للمزدكية، وهم أهل الإباحة من المجوس، وأباحوا المحظورات فلقبوا بذلك لمشابهتهم للمزدكية، وهم أهل الإباحة من المجوس، فلقبوا بذلك لمشابهتهم إياهم فى اعتقادهم ومذهبهم. وسبب تسميتهم بالبابكية: هو أن طائفة منهم اتبعوا بابك الخرمى، الذى خرج من ناحية أذربيجان فى أيام المعتصم، فاستحل المحرمات. وقد اشتدت وطأة البابكية على المسلمين حتى أُلقى القبض على بابك وقتل.

مجمل مذهب القرامطة

١. واعلم أن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم، وعزل العقول أن تكون مدركة للحق لما يعترضها من الشبهات، والمعصوم يطلع من جهة الله تعالى على جميع أسرار الشرائع، ولابد فى كل زمان من إمام معصوم يرجع إليه... هذا مبدأ دعوتهم ... وإن غاية مقصدهم نقض الشرائع، لأن سبيل دعوتهم ليس متعينًا فى واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيهم لأن غرضهم الاستتباع.

٢. ومعتقدهم فى الإلاهيات: قولهم بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان، إلا أن أحدهما علة لوجود الثانى. واسم العلة السابق، واسم المعلول التالى. وأن السابق خلق العالم بواسطة التالى لا بنفسه.

٣. ومذهبهم بالنبوات قريب من مذهب الفلاسفة، وهو أن النبى عبارة عن

---

(١) الخرميّة فرقة تفاقم وضعها زمن المعتصم، ومن مبادئها: تألية البشر والقول بالرجعة والتناسخ والحلول والنور والظلمة وإباحة النساء واستمرار الوحى وتعظيم أبى مسلم، وقصدهم إعادة الملك من المسلمين والعرب إلى الفرس والمجوس.

شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالى قوة قدسية صافية، وأن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا إنه شخص. وأن القرآن هو تعبير محمد صلى الله علية وسلم عن المعارف التى فاضت عليه من العقل، فسمى كلام الله مجازًا لأنه مركب من جهته ... وهذه القوة الفائضة على النبى صلى الله علية وسلم لا تفيض عليه فى أول أمره، وإنما تتربى كالنطفة[1].

٤. ومذهبهم فى الإمامة: أنه لابد فى كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه فى تأويل الظواهر وحل الإشكال فى القرآن والأخبار، وأنه يساوى النبى فى العصمة، ولابد للإمام من إثنى عشر حجة، أربعة منهم لا يفارقونه.

٥. ومعتقدهم فى القيامة والمعاد: كلهم أنكر القيامة، وقالوا بهذا النظام، وتعاقب الليل والنهار، وتولد الحيوانات لا ينقضى أبدًا. وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار. ومعنى المعاد عندهم، عود كل شيء إلى أصله. وأكثر مذاهبهم توافق الثنوية والفلاسفة فى الباطن، والروافض فى الظاهر، وغرضهم بهذه التأويلات الظاهرة التقرب من نفوس الناس حتى تبطل الرغبة والرهبة.

٦. أما اعتقادهم فى التكاليف الشرعية: فهو استباحة المحظورات ورفع الحجر - الحجاب- وغرضهم هدم قوانين الشرع[2]... ولهم تأويلات كثيرة ورموز غاية فى البعد عن الحقيقة، وما ذلك إلا لزيادة التشويه واللعب بعقول الناس.

قال ابن الجوزى[3]: وفى سنة ٢٧٨هـ تحركت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة

---

(١) التى لا تستكمل نموها إلا بعد تسعة شهور. انظر فضائح الباطنية. ورسالة القرامطة: ٣٨.

(٢) رسالة القرامطة، تحقيق محمد الصباغ: ص٥٧ - ٦٣ بتصرف.

(٣) البداية والنهاية: ج١١. ص٦١.

الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس، الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك -وكانا يبيحان المحرمات- ثم إنهم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل. وأكثر ما يفسدون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم، لأنهم أقل الناس عقولًا. ويقال لهم الإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق. ويقال لهم القرامطة، قيل نسبة إلى قرمط بن الأشعث البقار. وقيل: إن رئيسهم كان فى أول دعوته يأمر من اتبعه بخمسين صلاة كل يوم وليلة ليشغلهم بذلك عما يريد تدبيره من المكيدة، ثم اتخذ نقباء إثنى عشر، وأسس لأتباعه دعوة إلى إمام من أهل البيت. ويقال لهم الباطنية، لأنهم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض. والخرمية[1] والبابكية، نسبة إلى بابك الخرمى، الذى ظهر فى أيام المعتصم وقتل. وكذلك يقال لهم المحمرة نسبة إلى صبغ الحمرة شعارًا، مضاهاة لبنى العباس ومخالفة لهم، لأن بنى العباس يلبسون السواد، ويقال لهم التعليمية نسبة إلى القول بأن الكواكب السبعة المتميزة السائرة مدبرة لهذا العالم فيما يزعمون -لعنهم الله-.

ثم قال ابن الجوزى: وقد بقى من البابكية جماعة يقال أنهم يجتمعون فى كل سنة هم ونساؤهم، ثم يطفئون المصباح وينتهبون النساء، فمن وقعت يده فى امرأة حلت له، ويقولون: هذا اصطياد مباح. لعنهم الله.

يقول صاحب البداية والنهاية[2]: إن هذه الطائفة تحركت سنة ٣١٧هـ. واستفحل خطرها حتى آل بهم الحال إلى أن دخلوا المسجد الحرام، فسفكوا دم الحجيج فى وسط المسجد حول الكعبة، وكسروا الحجر الأسود واقتلعوه من موضعه وذهبوا به إلى بلادهم سنة ٣١٧هـ. ولم يزل عندهم إلى سنة ٣٣٩هـ حيث مكث غائبًا عن

(١) البداية والنهاية: ج١١. ص١٦٠.
(٢) البداية والنهاية: ج١١. ص٦٣.

موضعه من البيت اثنتين وعشرين سنة. فإنا لله وإنا إليه راجعون ... وكل ذلك من ضعف الخليفة وتشتت المسلمين.

ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم

خرج ركب العراق وأميرهم منصور الديلمى، فوصلوا إلى مكة سالمين، وتوافدت الركوب هنا من كل مكان وجانب وفج، حيث تجمع الحجيج فما شعروا إلا بالقرمطى قد خرج عليهم فى جماعة يوم التروية فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل فى رحاب مكة وشعابها وفى المسجد الحرام وفى جوف الكعبة من الحجاج خلقًا كثيرًا. وجلس أميرهم أبو الظاهر -لعنه الله- على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل فى رقاب الناس فى المسجد الحرام فى الشهر الحرام فى يوم التروية، الذى هو من أشرف الأيام وهو يقول: أنا الله وبالله أنا. أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا. فكان الناس يفرون منهم فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدى ذلك عنهم شيئًا، بل يقتلون وهم كذلك ويطوفون فيقتلون فى الطواف.

فلما قضى القرمطى أمره -لعنه الله- وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى فى بئر زمزم، ودفن كثير منهم فى أماكنهم من الحرم الشريف وفى المسجد الحرام[1] -وحبذا تلك القتلة وتلك الفجيعة وذلك المدفن والمكان-، ومع هذا لم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصل عليهم، لأنهم محرمون شهداء فى نفس الوقت. وهدم قبة زمزم وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها، وشقفها بين أصحابه وأمر رجلًا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه، فسقط على أم رأسه فمات إلى النار، فعند ذلك انكف الحديث عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، فجاء رجل فضربه بمثقل فى يده وقال: أين الطير الأبابيل؟!. أين الحجارة من سجيل؟!. ثم قلع الحجر

---

(١) البداية والنهاية: ج١١. ص١٦٠.

الأسود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى ردوه فى سنة ٣٣٩هـ. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفاطميون:

كان أول خلفائهم المهدى -وكان من بلدة سلمية ويدعى عبيد، حيث كان يعمل حدادًا- وكان يهوديًا وقد دخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوى فاطمى، وقال عن نفسه أنه المهدى. وقد ذكر ذلك كثير من العلماء(١).

قال ابن خلكان فى الوفيات: وقد اختلف فى نسب المهدى هذا اختلافًا كثيرًا جدًا، فقال صاحب تاريخ القيروان: هو عبد الله بن الحسن بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب. وقال غيره(٢): هو عبيد الله بن التقى وهو الحسين بن الوفى بن أحمد بن الرضى وهو عبد الله هذا، وهو ابن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق. وقيل غير ذلك فى نسبة. قال ابن خلكان: والمحققون ينكرون دعواه فى النسب.

قال ابن كثير: قد كتب غير واحد من الأئمة، منهم الشيخ أبو حامد الاسفراايينى والقاضى الباقلانى والقدورى: أن هؤلاء أدعياء ليس لهم نسب صحيح فيما يزعمون، وأن والد عبيد الله المهدى هذا كان يهوديًا صياغًا بسلمية، وقيل كان اسمه سعد، وإنما لقب بعبيد الله زوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وسمى القداح لأنه كان كحالًا يقدح العيون، وكان الذى وطأ له الأمر فى تلك البلاد أبو عبد الله الشيعى، الذى استدعاه إلى بلاد المغرب وقد سجن، إلا أن أبا عبد الله الشيعى احتال له وأخرجه من السجن، وبعد ذلك سلم أبو عبد الله الشيعى الأمر لعبيد الله

(١) انظر البداية والنهاية: ج١٢. ص٢٦٧.
(٢) البداية والنهاية: ج١١. ص١٨٠.

المهدى، والذى دبر مؤامرة قتل أبى عبد الله الشيعى، وبذلك تم للمهدى ما أراد[١].

وفى المغرب اشتهر أمره وآزره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصوله، وبعد ذلك بنى مدينة المهدية نسبة إليه، وأصبح ملكًا مطاعًا يظهر الرفض وينطوى على الكفر المحض، وكان الفاطميون أنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات والموالد والخزعبلات، كما كثر أهل الفساد وقل عندهم الصالحون من العلماء والعُبَّاد. كذلك كثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنجة على سواحل الشام بكامله لعدم عنايتهم بأمر الدين والأمة، وهذا حال الأدعياء والعجزة، لا يهمهم سوى لذاتهم ومطامعهم وتنفيذ مآربهم.

قال أبو شامة: وقد أفردت كتابًا سميته "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد"[٢].

ويبدو للدارس والمتتبع لتاريخ الفاطمية أنهم كانوا متناقضين فى مواقفهم، وآرائهم وعقيدتهم، حتى أنهم كانوا يشعرون بالغبطة والسرور والسعادة إذا ما ألمت بالمسلمين كارثة أو تعرضوا لغزو، سيما وموقفهم من الغزو الصليبى وكيف عقدوا معاهدة بينهم، وبشكل كان السرور يغمرهم عندما انهار نفوذ الأتراك السلاجقة أمام زحف الصليبية الحاقدة على الإسلام، ولم يقوموا بقائمة وكأن الأمر لم يهمهم.

الفاطميون وبيت المقدس

جاء فى كتاب الحركة الصليبية[٣]: يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين، وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد

(١) المصدر السابق: ج١١. ص١٨٠.
(٢) البداية والنهاية: ج١٢. ص٢٦٨.
(٣) الحركة الصليبية: ج١٢. ص٢٦٨.

الصليبيين فيقول: ولم ينهض الأفضل -وكان وزيرًا له شأنه- بإخراج عساكر مصر، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال[١]؟!.

ثم يسترسل أبو المحاسن فى وصف سوء حال الصليبيين عندما زحفوا على الشام، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدهم، كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج.

ويقول أيضا[٢]: إن الفاطميين لم يروا فى الانتصارات التى أحرزها الصليبيين -فى ضورليوم وأنطاكية- كارثة عامة حلت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة، هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين،الذين سادوا قرابة نصف قرن من الزمان، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعًا الشيعة والسنة سواءً.

تعاليم دار الحكمة

جاء فى كتاب تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ما يلى: بيد أن الذى يهم أن نسجله من سيرة الحاكم[٣] هو استئنافة للدعوة السرية الفاطمية، ونشاطه فى إذاعتها بطريقة فعالة منظمة، لم يفكر فيها أحد من قبله، ذلك أنه أنشأ فى القاهرة معهدًا خاصًا لبث تعاليم الدعوة الشيعية، وكان هذا المعهد الفذ الذى سمى دار الحكمة مدرسة عامة يفتح بابها لكل طالب، والتعليم فيها على نفقة الدولة. وكانت تعاليمها الدينية -التى اشتقت من مبادئ عبد الله بن ميمون- تسع مراتب، أى بزيادة مرتبتين على جمعية ابن ميمون السرية، ويقسم الطلاب فيها إلى قسمين كبيرين العالم والجاهل. ويعتبر الدعاة من تلاميذ القسم الأول. ويبدأ الدعاة بمناقشة الطالب

(١) أبو المحاسن - النجوم الزاهرة: ج٥. ص١٤٧.

(٢) الحركة الصليبية: ج١. ص٢٣٦.

(٣) أفردت بحثًا موجزًا عن حكاية الحاكم -بأمر نفسه- فى موضوع الدروز لعلاقته المباشرة بعقائدهم وأفكارهم. فليراجع هناك.

في المسائل الدينية وتفاسير القرآن، ويعلمونه أن مسائل الدين أمور شديدة التعقيد، تنبو عن الذهن العادى ولا يستطيع فهمها إلا رجال كالدعاة تبحروا فى درسها، ويأخذون عليه العهود بألا يذيع شيئًا من النظريات والشروح، وهذه هى المرتبة الأولى.

وفى المرتبة الثانية: يُعَلَّم الطالب أن كل التفاسير والأحكام التى قال بها المجتهدون السابقون خاطئة باطلة، وأن الأحكام الصحيحة هى التى يقول بها الأئمة الذين تلقوها من الله.

وفى الثالثة: أن هؤلاء هم الأئمة الإسماعيلية وهم سبعة، وأن آخرهم محمد بن إسماعيل.

وفى الرابعة: أن الأنبياء الذين تقدموا آل البيت سبعة أيضًا هم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، والمسيح، ومحمد -النبى العربى- ثم محمد بن إسماعيل.

وفى الخامسة: يبدأ الدعاة بتنفيذ مهمتهم الحقيقية، وهى هدم العقيدة الدينية، يعلمون الطالب ألا يؤمن بالسنة، وأن يرفض تعاليم محمد ﷺ.

وفى السادسة: أن كل الأديان وما أَمَرَت به من الفروض، كالصوم والصلاة وغيرهما، إن هى إلا أكاذيب وحيل ابتكرت لإخضاع المجتمعات البشرية، وأن جميع الشرائع لابد أن تخضع لشريعة العقل والعلم، ويدللون على أقوالهم بنظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وأمثالهم.

وفى السابعة: يلقن تعاليم الثنوية وبذلك تهدم وحدة الإله، وهى فكرة الإسلام الجوهرية.

وفى الثامنة: تنقض كل صفات الألوهية والنبوة، ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية، كالنظم السياسية وإنشاء

الحكومات المثلى.

وفى التاسعة والأخيرة: يدخل إلى حظيرة الأسرار، ويعلم أن كل التعاليم الدينية أوهام محضة، وأنه يجب ألا يتبع إلا ما هو لازم لحفظ النظام بين الدهماء والعامة، ولكن الرجل المستنير له أن يرفضها جميعًا. وأن إبراهيم، وموسى، والمسيح وغيرهم من الأنبياء ليسوا إلا رجالًا مستنيرين تفقهوا فى المسائل الفلسفية. وهكذا يهدم كل اعتقاد فى الأديان المنزلة. فكانت المراتب الأخيرة تستعمل لنقض المراتب الأولى. وقد كان التكتم فى الواقع عماد الدراسة فى دار الحكمة. وكان الدعاة يتحدثون أمام كل طائفة بما يرضيها ويتفق مع عقليتها وتعاليمها.

هكذا كان نظام الجمعية السرية التى نظمها الشيعة، لتقويض دعائم بنى العباس وما تستند إليه من أسس دينية، وهدم كل المعتقدات الدينية من الأساس، وهو النظام الذى اتخذ فيما بعد نموذجًا لإنشاء "الشعلة البافارية" فى القرن ١٨م الذى يصوره المستشرق فون هامارا فى كتابه عن الإسماعيلية فيما يلى:

(ألا يعتقد فى شىء، وأن يُقْدِمَ على كل شىء، هما خلاصة هذا المبدأ، الذى قصد بالهدم كل مبدأ للدين والأخلاق، ولم يك يرمى إلا إلى تنفيذ المآرب والأطماع على يد وزرائهم -خير آلات لسياسة جهنمية- يقدمون على كل شىء ولا يعرفون شيئًا، يعتبرون كل شىء خدعة وكل شىء مباحًا. نظام لا يعمل إلا لإطفاء شهوة التغلب ولا يخمد أوارها، بدلًا من أن يعمل على تحقيق أمثل الغايات البشرية، وينحدر إلى الهاوية فيقبر بين العروش والهياكل وأنقاض السعادة القومية ولعنات الإنسانية بأسرها)[1].

وتاريخ الفاطميين يشير بلا ريب إلى أثر اليهود التوراتى التلمودى فى تعاليمهم

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة بتصرف: ص٣٠.

وسلوكهم وتأليه ملوكهم، كما حدث للحاكم بأمر الله الذى ادعى الربوبية، وصار قوم من أتباعه يقولون: يا واحدنا يا أحدنا يا محيى يا مميت[١].

الدروز

قبل أن أشرح عقائد الدروز وحقيقتهم، أرى أن أقدم فكرة موجزة عن حياتهم وأصلهم، لأن الناس يذهبون فى هذه الطائفة مذاهب شتى، بينما قل أن نجد من يعرف شيئًا عن تاريخهم وحقيقة عقائدهم.

وربما يرجع جهل الناس عنهم إلى أن الدروز أنفسهم يحتفظون بعقائدهم الدينية فى سرية تامة وكتمان شديد، فلا يبوحون بأسرارهم الدينية إلى غيرهم بل ربما غالوا هم أنفسهم فى ذلك، فلا يسمحون بالإدلاء بكل أسرارهم إلا لطبقة خاصة فى مجتمعهم، حيث إنهم يغلقون هذا الباب أمام عامة الناس.

ومنذ زمن بعيد[٢] -عندما ظهرت هذه الطائفة على مسرح التاريخ كطائفة متميزة مغلقة على نفسها- والعالم متطلع إلى كشف الستار عنها ومعرفة أسرارها وفلسفة مذاهبها، ولقد تسربت بعض كتبهم إلى خارج مجتمعهم الدرزى، واستطاعت بعض مكتبات الدول أن تقتنى بعض نسخ من هذه الكتب المقدسة السرية، وترجمت هذه الكتب إلى لغات أوربية، ودرسها بعض العلماء من الغرب وأبناء الأمة العربية.

ومما يؤسف له أن هؤلاء الدارسين من العلماء لهذه الكتب، لم يستطيعوا أن يلموا إلمامًا تامًا بمدلول المصطلحات التى زخرت بها كتب العقيدة الدرزية، ولن يتسنى ذلك إلا لمن كان على معرفة بألغازهم ورموزهم، والتى لم يفهمها إلا شيوخهم والذين لديهم مفتاح الأسرار وعلم الباطن، وتأويل الباطنية على طريقة

---

(١) ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ط الهندية ١٣٥٨هـ: ج٧ص ٢٩٨.
(٢) هذه المعلومات وما بعدها مستقاة من كتاب طائفة الدروز: ص٥.

الفاطمية.

وعلى الذين يريدون دراسة الدروز وبحث ما يتعلق بعقائدهم أن يلموا بعقائد الفاطمية وتطورها من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد، وأن يعرفوا حق المعرفة مصطلحات الدعوة الفاطمية، لأنها هى العقائد والمصطلحات التى أخذها دعاة العقيدة الدرزية وبنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم.

وربما بلغ بى الغلو فى القول إلى أن شيوخ الدروز أنفسهم، ربما وجدوا مشقة فى فهم فلسفة مذهبهم ومدلول مصطلحاتهم، إلا ما كان متوارثًا ونقله الخلف عن السلف بالتواتر، ومع هذا فإن هذا الطريق كثيرًا ما كان مشوبًا بكثير من التحريف، ومن تسرب آراء دخيلة عن طريق مخالطة أصحاب عقائد أخرى، بالرغم من شدة محافظتهم على عقائدهم وكتمانها وما يحيط بها من غموض، حتى أن كثيرًا من الشخصيات الدرزية المثقفة لا يعرفون شيئًا عن عقيدتهم، وقد صرح فريق من هؤلاء بذلك[١].

لمحة عن أصل الدروز وتاريخهم

فى منطقة محافظة السويداء بسوريا، حيث جبل حوران الذى يعرف بجبل العرب أو الدروز[٢]، نجد منطقة واسعة تشتمل على أكثر من ثلاثة وسبعين قرية، وفيها يعيش قوم عيشة متواضعة يعملون فيالزراعة أو الرعى، ويدينون بالطاعة التامة لشيوخ قبائلهم، وفى المناطق الواسعة يسكن بنو الأطرش وبنو عساف والحناوية والقلاعنة والهنيدية وغيرهم، وأكثر سكان هذه المنطقة على المذهب الدرزى.

وفى لبنان فى القسم الجبلى المعروف -من التشويفات إلى دير القمر- يسود آل

(١) نفس المصدر: ص٥-٦.
(٢) نفس المصدر السابق.

أرسلان، وفى القسم الغربى الأعلى -من دير القمر إلى عاليه ونهر الغابون- نجد آل تلحوق، وتتوزع قبائل آل النكدى وبنو عبد الملك وبنو عماد وكذلك الجانبلاطية فى مناطق الشوف وغيرها من مناطق لبنان.

وفى فلسطين العربية -عند جبل الكرمل وصفد- تسكن قبائل عربية مختلفة تتمذهب بالعقيدة الدرزية.

وكذلك نجد طائفة من الدروز يسكنون الجبل الأعلى -بين حلب وأنطاكية- ونجد أيضًا فى بلاد المغرب بالقرب من مدينة تلمسان قبيلة تعرف ببنى عبس تدين بالعقيدة الدرزية دون أن يعرف جيرانهم حقيقة مذهبهم.

يذهب الكتاب والمؤرخون فى أصل هذه الطائفة مذاهب شتى، ففى القرن الثانى عشر للهجرة زار الرحالة اليهودى "بنيامين" إقليم لبنان ووصف المجتمع الدرزى، فذهب إلى ان الدروز سلالة قبائل عربية أنزلها الامبراطور "بمبى" لبنان حوالى سنة ٦٤ ق.م، ثم اختلطت هذه العناصر بعناصر آرامية.

وجاء الشاعر الفرنسى الشهير -لامارتين- وتحدث عن رحلته هذه بأسلوبه الشعرى الممتع وقال عن الدروز: أنهم سلالة السامريين القدماء. أما الكاتب "لوشان" فقد ذهب إلى أن الدروز والموارنة والنصيرية والعلويين واليزيديين والأرمن كلهم من أصل واحد، وهم بقايا الحثيين القدماء.

وقال آخرون: أن الدروز مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهنود ... وهناك آراء كثيرة حول أصل هذه الطائفة، ومنها ما يرجح عروبتهم.

إن المؤرخين جميعًا على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم يجمعون على أن العقيدة الدرزية أول ما ظهرت فى بلاد الشام، إنما ظهرت فى المنطقة المعروفة بوادى التيم - بين دمشق وبانياس- وكان ذلك فى سنة ٤٠٨ هـ، وقد سمى هذا الوادى بذلك الاسم

نسبة إلى قبائل تنتسب إلى تيم الله ابن ثعلبة، وهى قبائل يمنية الأصل هاجرت من جزيرة العرب فى الجاهلية وسكنوا الفرات، وكان منهم ملوك المناذرة بالحيرة.

وفى عهد الفتح الإسلامى أسهم بعضهم فى فتح الشام، وفى عهد معاوية بن أبى سفيان قاموا بنصره وحاربوا معه فى معركة صفين، حيث جعلهم معاوية سادة فى المناطق التى حلوا فيها من بلاد الشام، كما شاركوا فى حرب الروم إبان الحكم الأموى، وعند ظهور حركة العباسيين انضموا لدعوتهم واشتركوا فى معركة الزاب ضد مروان بن محمد، وبذلك أصبحت لهم يد عند العباسيين، واستمر هذا الحال إلى أن قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨هـ.، بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام، وبعد أن استولى على الرملة وطبرية، كتب إلى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان بن عامر أمير بيروت -المتصرف والمباشر لأمور القبائل- يدعوه إلى بيعة المعز، فاستشار سيف الدولة عشيرته، فأجمعوا على مصانعته حتى يروا ما يكون منه، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق، سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز لدين الله، وبذلك دخلت هذه القبائل فى الدعوة الفاطمية.

ولما قامت حركة أفتكين التركى بدمشق، وأخرج عامل الفاطميين منها، واتصل القرامطة بأفتكين ليساعدوه ضد الفاطميين، انقسم أمراء العرب بين موالين للفاطميين وبين موالين للقرامطة وأفتكين.

لقد انتشرت الدعوة الفاطمية فى جميع بلاد الشام، بفضل الدعاية المنظمة التى وضع الفاطميون أسسها، وكانت قبائل تنوخ فى بلاد المعرة وفى وادى التيم وجبال لبنان أسرع أهالى الشام قبولًا للدعوة الفاطمية، ورغم وجود بعض الحركات الثورية فى الشام -كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية- فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق إلى أن جاء الحاكم بأمر الله وأعلن مذهبه الجديد، فكان أهل وادى

التيم وحوران وجبل لبنان هم الذين تقبلوا هذه العقيدة، وظلوا يحافظون عليها إلى الآن.

ومن جهة أخرى فقد ظلوا فى مقاطعاتهم تحت إمرة شيوخهم، الذين هم بدورهم كان يتبعون الولاة فى دمشق وعكا وبيروت، وبالإضافة إلى ذلك فقد اشتركوا فى معارك عديدة إلى جانب إخوانهم المسلمين، ودافعوا عن أرض الوطن لاسيما إبان الغزو الصليبى وغيره، وبالرغم من محاولات الأعداء لفصلهم وجعلهم أدوات هدم لطعن الأمة من داخلها، إلا أنهم وقفوا مواقف مشرفة فى وجه تلك المخططات والدعوات الانفصالية، وساندوا العرب ضد أطماع العدو المتربص على مراحل التاريخ[١].

ألوهية الحاكم "بأمر الشيطان"

شخصية الحاكم شخصية غريبة وعجيبة، وقل نظيرها فى عصور التاريخ. ولقد شهدت عصور التاريخ شخصيات كثيرة، استطاع بعضها أن يخلد اسمه بما قام به من أعمال مجيدة فى خدمة الإنسانية عامة، أو فيما عاد بالنفع على قومه خاصة.

وقد يخلد بعضهم بأعمال شاذة أصيبت الإنسانية بسببها بخسائر جسيمة أو بأضرار يتناقلها الناس مدى التاريخ، ويصبح هؤلاء الشواذ أمثلة تضرب للفساد، والمصلح والمفسد سرعان ما يصبحان من أبطال القصص الفكاهية والنوادر.

وتصور هذه القصص جلائل أعمال المصلح ومآثره على قومه أو على البشرية، كما تتحدث فى سخط وازدراء أو فى سخرية وتهكم بالمفسد.

يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه[٢] بخصوص شخصية الحاكم الشاذة:

---

(١) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين: ص١١.

(٢) طائفة الدروز: ص٣٤.

ولا أكاد أعرف بين شخصيات التاريخ من جمع بين هذه المتناقضات فى حكم المؤرخين، وأحاديث العامة مثل شخصية الحاكم بأمر الله، الذى حكم رقعة واسعة من الأرض امتدت من المحيط الأطلسى إلى جبال طوروس، وشملت فيما شملته جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا والجزيرة العربية، ودان له بالإمامة عدد كبير فى العراق وفارس والهند، فكان امبراطورًا على أكبر دولة فى عصره، وظل فى حكمه من سنة ٣٨٦هـ حتى سنة ٤١١هـ.

هذا الامبراطور اختلف الناس فى شخصيته اختلافًا شديدًا جدًا، فقد رفعه قوم إلى درجة الألوهية، وهم الدروز، واعتقد فيه قوم أنه إمام المسلمين وخليفة رب العالمين وسليل الرسول الكريم، وهم الإسماعيلية الفاطميون، وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه كان شاذ الطباع مريضًا بالعقل، يأتى بأعمال تضحك الثكلى، تدل على الجنون، وهؤلاء هم مؤرخو العرب والمؤرخون المسيحيون.

ووقف المؤرخون المحدثون منه نفس موقف القدماء، فاحتار العلماء فى تكييف شخصية الحاكم بأمر الله وخاصة من ناحية أعماله وتصرفاته أو سلوكه، بصرف النظر عن ناحية منزلته الدينية بين الناس.

وإذا ما نظرنا إلى بعض ما قام به الحاكم، نراه يأتى بأعمال مختلفة -وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة الفاطمية التى هو إمامها- وفى أعماله هذه ما يخالف ما جرى عليه آباؤه وأجداده منذ قيام الدولة الفاطمية.

لقد كان الفاطميون يسبون السلف الصالح، وكانوا ينشرون تعاليمهم ويعقدون مجالس التأويل، المعروفة بمجالس الحكمة التأويلية، ومنها ما يتعلق بالأذان والصيام ... كل هذا أمر الحاكم بإبطاله. كما أصدر مرسومًا بتعطيل الزكاة وإلغائها،

كما ألغى تقاليد كثيرة، منها حضور صلاة الجمعة والعيدين وإرسال كسوة الكعبة[١].

لقد ورد فى كتاب تاريخ الدولة الإسلامية[٢]، أن طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية قد ألهوا الخليفة الحاكم، وخرجوا على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين، الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة، ومن أعظم هؤلاء الغلاة حمزة بن على الزوزنى والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأحزم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخارى الدرزى.

ففى سنة ٤٠٨هـ جهر حمزة بن على بألوهية الحاكم[٣]، وصنف كتابًا ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت فى آدم عليه السلام، ثم انتقلت إلى على بن أبى طالب، وأن روح على انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم، الذى أصبح فى نظرهم إلاهًا عن طريق الحلول.

ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية، وقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغانى -الأحزم- على الجهر بتأليه الحاكم فى سنة ٤٠٩هـ. حيث قتل.

وكان الحاكم يشجع هذه الدعوة فى مصر أولًا وفى الشام ثانيًا، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله، وقد ادعى تجسيم الإله فى شخصه، وهو -وإن لم يصرح بذلك- كان يوافق على آراء النصارى كحمزة بن على والدرزى اللذين نسبا إليه الصفات التى لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى. كما شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط

---

(١) طائفة الدروز: ص٣٤ - ٥٠.

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية: ج٣. ص٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) إن تأليه البشر فكرة قديمة، فقد أله المصريون القدماء ملوكهم، والنصارى ألهوا عيسى عليه السلام، واليهود ألهوا عزيزًا، ثم انتقلت هذه الضلالة إلى بعض فرق المنتسبين إلى الإسلام، فالعلويون ألهوا عليًا رضي الله عنه والآغاخانية ألهوا الآغاخان، والدروز ألهوا الحاكم (بأمر شيطانه). فليحذر المسلمون سموم هذه الدعوات المحرفة وأضاليلها.

الفاطمى هذا الاعتقاد، ولم يترددوا فى أن ينسبوا إليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى، وهم يقرؤون القرآن بحضرته، حتى لقد أُرغم كل من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية.

وقد رأى بعض النفعيين -الذين يبيعون أنفسهم ودينهم للشيطان من أجل مصلحتهم الخاصة- أن يستغلوا ذلك الشذوذ لصالحهم لينالوا خير هذا الإمام -الحاكم بأمر الله- ويأمنوا شره، فخلعوا عليه وصف الألوهية المنبثق من مذهب بعض الشيعة، حيث وافقهم الحاكم على زعمهم لأنه يتفق مع شذوذه ومع ما ورثه عن بيئته الشيعية.

وقد حض عبد الله الدرزى الناس على عبادته، وأطلق على أتباعه اسم الموحدين[1]. وبعد موته المجهول المكان والكيفية، ادعى أتباعه أنه سيعود ويملأ الأرض والدنيا عدلًا. وعندما حارب المصريون هذه الدعوة ودعاتها، فروا إلى الشام وسكنوا الجبل الذى عرف باسمهم لما جاوروه[2].

إحدى رسائل الدروز التى تكشف ألوهية الحاكم

سنقف وقفة طويلة مع رسالة حمزة بن على بن أحمد، الموسومة -بكتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل-. فقد رأيت أن أنقل هنا نص هذه الرسالة دون تعليق، لأنها بنفسها تغنى عن كل تعليق!!.

وهذه نصوصها كما جاءت فى كتاب طائفة الدروز: ص٤٥ - ٥٠. قال حمزة[3] فى هذه الرسالة: أما بعد، معاشر الموحدين، أعانكم المولى على طاعته. إنه وصل

(١) أوردت هنا فقرات عن شخصية الحاكم بأمر الله إمام الدعوة الفاطمية، لأن عقائد الفاطميين هى الأساس الأول للعقيدة الدرزية.
(٢) البابية والبهائية.
(٣) حمزة بن على هو المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية وأول من جهر بألوهية الحاكم.

إلى من بعض الإخوان الموحدين -كثر المولى عددهم، وزكى أعمالهم، وحسن نياتهم- رقعة يذكرون فيها ما يتكلم به المارقون عن الدين، الجاحدون لحقائق التنزيه، ويطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعالهم الردية، وما تميل إليه أديانهم الدنية، فيما يظهر لهم من أفعال مولانا -جل ذكره ونطقه- وما يجرى قدامه من الأفعال التى فيها حكمة بالغة -جدًا كانت أم هزلًا- يخرج حكمته ويظهرها بعد حين ... ولو نظرنا إلى أفعال مولانا -جلت قدرته- بالعين الحقيقية وتدبروا إشارته بالنور الشعشانى، لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية والسلطان الأبدى، وتخلصوا من شبكة إبليس وجنوده الغوية، ولتصور لهم حكمة ركوب مولانا -جل ذكره- وأفعاله، وعلموا حقيقة المحض فى جده وهزله ووقفوا على مراتب حدوده، وما تدل عليه ظواهر أموره. جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه.

فأول ما أظهر من حكمته ما لم يعرف فى كل عصر وزمان ودهر وأوان، وهو ما ينكره العامة من أفعال الملوك من تربية الشعر ولباس الصوف، وركوب الحمار بسروج غير محلاة، لا ذهب ولا فضة، والثلاث خصال معنى واحد فى الحقيقة، لأن الشعر دليل على ظواهر التنزيل، والحمير دليل على النطقاء -الأنبياء لقوله لمحمد: يا بنى أقم الصلاة وآت الزكاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، إن ذلك من عزم الأمور، ولا تصعر خدك ولا تمش فى الأرض مرحًا، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا، كل ذلك كان عند ربك شيئا محذورًا، وانقص من مشيك، واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[1].

---

(١) الآية القرآنية محرفة تحريفًا شديدًا جدًا هنا، فقد أضيفت إلى الآية الكريمة ألفاظ وحذف منها ألفاظ. والنص الصحيح فى سورة لقمان من آية ١٦ - ١٩ هو: ﴿يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تمش فى الأرض مرحًا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك
=

والعامة يرون أن هذه الآية حكاية عن لقمان الحكيم لولده، فكذبوا وحرفوا القول، وإنما هو السابق -وهو سلمان- فإنما سمى الناطق لولده لحد التعليم والمادة، إذ كان سائر النطقاء والأوصياء أولاد السابق المبدع الأول وهو سلمان.

فقال سلمان لمحمد: أقم الصلاة، إشارة إلى توحيد مولانا جل ذكره ولحدوده ولدعاته، وأمر بالمعروف، وهو توحيد مولانا جل ذكره، وانه عن المنكر، يعنى شريعته، وما جاء به من الناموس والتكليف. إن ذلك من عزم الأمور، يعنى الحقائق، وما فيها من نجاة الأرواح من نطق الناطق. ولا تصعر خدك للناس، الخد: وجه السابق، وتصعيره: ستره فضيلته.

ولا تمش فى الأرض مرحًا، فالمرح هو التقصير واللعب فى الدين، والأرض ههنا هو الجناح الأيمن الداعى إلى التوحيد المحض. واغضض من صوتك، يعنى بذلك اخفض وأنقص وأقصر نطقك بالشريعة. إن أنكر الأصوات: يعنى الدعوة الظاهرة. لصوت الحمير، يعنى بذلك أشر كلام وأفحشه وأنكره نطق الشرائع المذمومة فى كل عصر وزمان. فأظهر مولانا -جل ذكره- لبس الصوف وتربية الشعر، وهو دليل على ما ظهر من استعمال الناموس الظاهر، وتعلق أهل التأويل بعلى بن أبى طالب وعبادته، وركوب الحمار دليل على إظهار الحقيقة على شرائع النطقاء.

وأما السرج بلا ذهب ولا فضة، دليل على بطلان الشريعتين، الناطق والأساس. واستعمال حُلى الحديد على السروج، دليل على إظهار السيف على سائر أصحاب الشرائع وبطلانهم.

واستعمال الصحراء فى ظاهر الأمر، وخروج مولانا -جل ذكره- فى ذلك اليوم من السرداب ومن البستان إلى العالم دون سائر الأبواب، فالسرداب والبستان -

---

=

واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾. صدق الله العظيم.

اللذان يخرج مولانا منهما- ليس لأحد إليهما وصول ولا له بهما معرفة، إلا أن يكون لمن يخدمهما أو خواصهما وهو دليل على ابتداء ظهور مولانا -سبحانه- بالوحدانية، ومباشرته بالصمدانية بالحدين اللذين كانا خفيين عن سائر العالمين، إلا لمن يعرفهما بالرموز والإشارات، وهما الإرادة والمشيئة. والإرادة هو ذو معة والمشيئة تالية، فليس يعرفهما إلا الموحدون لمولانا، جل ذكره.

ومن السرداب يخرج إلى البستان، كذلك العلم يخرج من ذى معة إلى ذى مصة، الذى هو بمنزلة الجنة صاحب الأشجار والأنهار، ثم يخرج منهما إلى النفس، فأول ما يلقى بستان برجوان -وهو المعروف بالحجازى- فلا يدخله ولا يدور حوله فى معنية، وهو دليل على الكلمة الأزلية، ثم يمضى إلى البستان المعروف بالدكة على شاطئ البحر، كذلك علم التأويل ممثوله البحر...

والمستجيب للعهد إذا بلغ علم السابق ومعرفته، حسب أنه قد بلغ الغاية والنهاية فى العبادة.

وبستان الدكة مع جلالته ملاصق لموضع الفحشاء والمنكر دون سائر البساتين، دليل على أن علم السابق واصل بالنطقاء الذين هم معادن النواميس الفانية الحشوية والأعمال الفاحشة الدنية، والمقس دليل على الناطق، وما فى المقس من الفحشاء والمنكر دليل على شريعته، وارتكابهم الشهوات البهمة فى طاعته.

ثم إنه -علينا سلامه- يخرج إلى الصناعة ويدخل من بابها ويخرج من الآخر، والصناعة دليل على صاحب الشريعة، والصناعة ممنوعة من دخولها العالم فيها، فدخول مولانا -جل ذكره- فيها من باب وخروجه من باب دليل على تحريم الشريعة وتعطيلها.

ثم إنه -علينا سلامه ورحمته- يدور حول البستان المعروف بالحجازى وهو

دليل على الكلمة الأزلية، والدوران حوله بلوغ إلى الكشف بلا سترة تحوط بالدين...

ثم إنه يبلغ إلى القصور -وهما قصران عظيمان خرابان- دليل على بطلان الشريعتين وخرابهما. ثم إنه يدخل من باب البستان المعروف بالمختص، وهو دليل على التالى، إذ كان التالى مختص بعلمه، وأكثر العالم يميلون إليه، هو هيولى العالم الجرمانى.

ومن الشيعة من يقول بأن التالى مولانا، وهذا هو الكفر والشرك، وإنما هو التالى الذى عجز الناس عن معرفته، وهو الجنة المعروفة بالمختص، متصلة بالجنة المعروفة بالعصار، والعصار دليل على الناطق لأنه يعصر علم التالى، فيخرج منه الحقيقة والتوحيد فيكتمه عن العالم الغبى، ويظهر لهم الشغل، وهو الكسب الذى لا ينتفع به غير البهائم.

وكذلك البستان المعروف بالعصار، وهو خراب من الفواكه والأشجار والرياحين والأثمار، وبستان المختص عامر بالفاكهة والأزهار والرياحين والأشجار، ومنه يخرج الماء إلى الحوض الذى تشرب منه البهائم. والماء هو العلم، والحوض هو المادة الجارى من التالى. والدواب هم النطقاء والأسس، وكذلك العلم يخرج من التالى إلى الأساس فى كل عصر وزمان، والسابق ممد الناطق.

وهذان البستانان بين المسجدين المعروفين بمسجد تبر ومسجد ريدان، فمسجد ريدان محازى بستان العصار، ومسجد تبر محاذى بستان المختص، ومسجد تبر دليل على الناطق، والتبر دليل على الذهب، والذهب دليل على ذهاب شريعته. وهذا المسجد لم يصل فيه صلاة جماعة قط، دليل على أن ليس للناطق ولا لمن تبعه اتصال بالتوحيد.

ومسجد ريدان دليل على حجة الكشف القائم بالسيف والعنف، الداعى إلى التوحيد المنكر عند سائر العالمين، فبإزاء الباطل -الذى هو جنة العصار وهو دليل على الناطق- حق يرفع وهو مسجد ريدان وهو ذو معة، وبإزاء الحق -الذى هو جنة المختص وهو التالى- باطل يطلب فساده، هو مسجد تبر وهو الناطق. وريدان خمسة أحرف دليل على الخمسة حدود النفسانيين والنورانيين والجرمانيين والجمسانيين. وهى ذو معة العقل المكلى النفسانى، وذو معة النفس الروحانى والجناح الربانى، والأيمن الباب الأعظم، وهو السابق والتالى معدن العلوم.

وما من المساجد مسجد سقطت قبته وهوى بكماله غير مسجد ريدان، فأمر مولانا سبحانه بإنشاء قبته، وزاد فى طوله وعرضه وسموه، دليلًا على هدم الشريعة الظاهرة على يد عبده الساكن فيه[1]، وأنشأ توحيد مولانا جل ذكره فيه بالحقيقة ظاهرًا مكشوفة. (قبحهم الله ما أسخفهم وما أضل عقولهم).

ونزوله عن الحمار إلى الأرض وركوبه آخر محاذى باب المسجد دليل على تغيير الشريعة وإثبات التوحيد، وإظهار الشريعة الروحانية على يد عبده حمزة بن على بن أحمد، ونزوله إلى الأرض محاذى باب المسجد، إشارة منه إلى عبده باب حجابه على خلقه، ونزوله عن الحمار وركوبه آخر كان فى نفس أذان الزوال، وصلاة الزوال دليل على الناطق.

وتغيير مولانا الحمار -فى نفس وقت الأذان- دليل على إزالة الظاهر. ثم إن مولانا لابد له فى كل ركبة من الإعادة إلى البستانين المعروفين بالمقس، دليل على إظهار النشء الثالث الخارج من الكفر والشرك وهما الظاهر والباطن[2]، وهو توحيد

---

(١) المعروف أن حمزة بن على كان يسكن مسجد ريدان هذا.

(٢) وبالمناسبة فجل الفرق الباطنية تستخدم الألفاظ والرموز المبهمة وتقول بالتأويل، وأن =

مولانا جل ذكره.

ودخوله إلى القصر من الباب الذى يخرج منه والسرداب بعينه دليل على إثبات الأمر وكشف الطرائق.

وأما نزوله فى ظاهر الأمر إلى مصر وما شاهدناه، ففيها تمكن الشيطان الغوى من قلوب العامة الحشوية، والعقول السخيفة الشرعية مما يسمعونه من ألسن الركابية قدام مولانا، بما يستقر فى عقولهم السخيفة من كلام الهزل والمزاح.

ولم يعرفوا أن فيه حكمة بالغة، فأول مسيره إلى المشاهد الثلاثة، وليس فيها أذان ولا إقامة ولا صلاة جماعة إلا فى الوسط، ثم إنه يسير إلى راشدة، وهى أيضًا ثلاثة مساجد متفاوتات البنيان، وأحسن ما فيها وأعلاها وأفضلها الذى يصلى الخطيب فيه يوم الجمعة، وتصلى فيه خمس صلوات على دائم الأيام وهو الوسطانى، وهو دليل على توحيد مولانا وإثبات خمس حدود علوية فيه.

والمسجدان اللذان معه متفاوتان فى البناء دليل على الناطق والأساس، وكذلك الناطق فى ترتيب حدوده أفضل من الأساس، والأساس أعظم شأنًا فى ترتيب الباطن ورموزه من الناطق فى المعقولات والبيان.

فلما ظهر التوحيد زالت قدوتهما جميعًا وسميت راشدة، لأن بمعرفته الحجة وهدايته والأخذ منه يرشد المستجيبون، ثم -إن علينا سلامه ورحمته- يدور حول هذا المسجد الوسطانى فى ظاهر الأمر دليل على التأييد لعبده.

وقدام المسجد عقبة صعبة الصعود لمن يسلكها، وليس إلى القرافة محجة إلا على هذه العقبة، دليل على البراءة من الأبالسة أصحاب الزخرف والناموس.

=

للقرآن باطنًا وظاهرًا، وذلك للتستر والتمويه على الدهماء لتنفيذ مآربها، ومن بين هذه الفرق: القرامطة والنصيرية والفاطمية والصوفية والدروز - قيد البحث.

وأما ما يرونه من وقوفه فى الصوفية واستماعه لأغانيهم والنظر إلى رقصهم، فهو دليل على ما استعمل من الشريعة التى هى الزخرف واللهو واللعب وقد دنا هلاكهم.

وأما لعب الركابية بالعصى والمقارع قدام مولانا -جل ذكره- فهو دليل على مكاسرة أهل الشرك والعامة وتشويههم بين العالم، وإظهار أديانهم المغاشم ويكشف زيفهم.

أما الصراع فهو دليل على مفاتحة الدعاة بعضهم لبعض، وقد كان للعالم فى قتل السويد والحمام عبرة لمن اعتبر، لأنهما كانا رئيسين فى الصراع، ولكل واحد منهما عشيرة تحميه وأتباع.، وهما دليلان على الناطق والأساس، وقتلهما دليل على تعطيل الشريعتين، التنزيل والتأويل والهوان بالطائفتين من أهل الكفر والتلحيد.

وأما ما ذكره الركابية من ذكر الفروج والأحاليل، فهما دليلان على الناطق والأساس، وقوله: أرنى قمرك، يعنى: اكشف عن أساسك. وهو موضع يخرج منه القذر دليل على الشرك، فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله -أى عبادة أساسه- نجا من العذاب والزيغ فى اعتقاده، ومن شك هلك ... الخ[١].

وهكذا بعد أن وقفت أيها القارئ الكريم على ما جاء فى هذه الرسالة الخطيرة، والتى هى إحدى الرسائل التى تتضمنها الكتب المقدسة للدروز، الذين اتخذوا الحاكم معبودهم، وقد أثبت نصها كاملًا لأهميتها، ولكى يطلع عليها أبناء الأمة لما احتوت من شرك وضلال وفساد للعقول والأذهان.

أقول بعد هذا كله: الحذر الحذر من كيد المبطلين. وليس لنا أن نعلق على هذه الرسالة بل نترك التعليق للقراء، لأن نصوصها لا تخفى على اللبيب وتغنى عن كل تعليق.

---

(١) كتاب طائفة الدروز: ص٤٥ - ٥٠.

وأما ما ذكره المؤرخون فى كتبهم عن سلوك الحاكم فلم يكن من خيال، أو أنها وضعت للسخرية بالحاكم، إنما هى أفعال اعترف بها داعيته ونبيه، وأثبتها فى الكتب المقدسة التى يدين بها من اعتقدوا ألوهية الحاكم، فنحن إذن مضطرون إلى أن نصدق المؤرخين فى معظم تلك القصص التى أوردوها عن الحاكم ولا سبيل إلى إنكارها.

لاهوت المعبود وناسوته

لعل أهم عقيدة نراها فى كتب ورسائل حمزة بن على أن للحاكم -بأمر الله- حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام، ولا تعرف بالرأى ولا بالقياس، ومهما حاول الإنسان أن يفكر فيه لمعرفة كنهه، فهو يحاول محاولة فاشلة، لأن لاهوته ليس له مكان، ولكن لا يخلو منه مكان، وليس بظاهر، كما أنه ليس بباطن.

ولا يوجد اسم من الأسماء يمكن أن يطلق عليه، لأنه لا يدخل تحت الأسماء، إذ لا يتصف بصفات ولا يمكن التعبير عنه بلغة من اللغات، فهو ليس مجسم ولا بشخص وليس بشبح وليس بصورة، فلا يقال عنه أنه جوهر أو يقال أنه عرض.

ولا أقول أنه شيء فيكون محمولًا عليه، ولا هو فى شيء فيكون محاطًا به، ولا متعلق بشيء فيكون قد التجأ إليه.

فالمعبود على هذا النحو ليس له أحد، وهو واحد لا يشبه الكائنات فى شيء، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا -ولم يلد ولم يولد- لا تنسب إليه حركة ولا راحة، وهو البداية والنهاية. فإذا تحدث عنه محدث ووصفه بصفة ما، فإنما يقول ذلك ضرورة وتقريبًا للعقول والأفهام، لعجز المتحدث عن الوصول إلى حقيقة المعبود.

فإذا قال مثلًا: أنه تعالى بارئ كل شيء، ومكون كل شيء، وأنه معل علة العلل القديم الأزل. فلا يقال ذلك عن حقيقة المعبود، لأن حقيقة المعبود نعجز عن

الوصول إليها.

وهكذا جرى ذكر التوحيد فى كتب الدروز المقدسة. وحديثهم عن لاهوتية المعبود يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد فى كتب الدعوة الفاطمية عن الله سبحانه وتعالى.

إن الإمام الفاطمى المعروف بالحاكم بأمر الله هو عند الدروز بشر فى الأعين المجردة، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر، ذلك عند الذين لا يعرفون حقيقته، أما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس الحاكم بأمر الله -مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها ثم يطرحها ويرتدى غيرها.

والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه فى شىء، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التى اتخذها ولا هى شبيهة به، وهو فى هذه الصورة الناسوتية المتغيرة، ففى كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية عن الأخرى.

وفى رسالة السيرة المستقيمة حديث طويل من الأدوار التى أظهر فيها المعبود ناسوته، لأن المعبود إن لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكان الناس يعبدون العدم، وقد ظهر المعبود فى صورة بشرية عشر مرات، وكان أول مرة ظهر فيها ناسوت المعبود ببلاد الهند فى بلد يقال لها (تشماتش).

وظهر مرة فى مدينة أصفهان بفارس فى صورة (ألبا)، ولذلك يقول الفرس: (بارخُداى) يعنى الله. وظهر مرة ثانية فى اليمن بصورة شخص يعرف بالموئل، وكان إنسانًا ثريًا يمتلك أكثر من ألف جمل، ولأول مرة يظهر فى صورة ملك عندما ظهر فى شخصية القائم بأمر الله الفاطمى، ثم ظهر فى شخصية أبى بكر زكريا القرمطى، ثم المنصور بالله ثم المعز لدين الله ثم العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله.

وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة، إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبى بكر القرمطى كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله، ثم قولهم: إن القائم كان بمصر وبنى بها بابًا يسمى الرشيدية ... كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق، فكيف أقام بها وشيد بها بابًا؟!(١).

بعض معتقدات الدروز:

إن شريعة الدروز تتلخص فى إسقاط الفرائض الدينية التكليفية، وعدم إقامة الفرائض الدينية الإسلامية، والاعتراف بالخصال التوحيدية، فمن اعترف بها فهو من الموحدين وهم فى ذلك يتفقون إلى حد كبير مع المبادئ التى نادى بها الحسن الثانى بن محمد زعيم الإسماعيلية الشرقية فى آلموت سنة ٥٥٨هـ، الذى طلب من أتباعه طرح جميع التكاليف الدينية، ولا يزال الإسماعيلية الأغاخانية على هذه العقيدة إلى اليوم. تبا لهم على ضلالهم.

غير أن الدروز يصومون فى أيام خاصة، وهى التسعة أيام الأولى من شهر ذى الحجة، وصيامهم هو نفس التقليد الإسلامى فى الصيام، أى الامتناع عن الأكل والشرب وعن القيام بأى عمل يبطل صيام المسلم، ويحتفلون بعيد الأضحى، الذى هو عيدهم الأكبر، ومنهم المتعبدون الذين يجاهدون النفس فنراهم يصومون عدة أشهر متوالية، على نحو ما يقوم به بعض السادو فى الهند، فالسادو يجاهد نفسه جهادًا عنيفًا بأن يأتى من الأعمال ما فيه تعذيب الجسد فى سبيل تطهير النفس ونقائها(٢).

ويذكر لنا الأستاذ محمد كامل حسين فى كتابه(٣) ما شاهده فى معبد بمدينة بومباى

---

(١) راجع طائفة الدروز: ص١٠٤ - ١٠٧.
(٢) المصدر السابق: ص١٢٣.
(٣) طائفة الدروز: ص١٢٣.

بالهند أن سادو يقف على رجله اليسرى وقد رفع رجله اليمنى، ويقول الدكتور محمد كامل حسين بأنه قيل له أن هذا السادو يظل هكذا مدة أربعة أشهر دون أن يستريح، فهو يأكل وينام وهو على هذه المثابة(١). وهكذا يظهر لنا أن الدروز فى تعبداتهم يلتقون مع المجوس والوثنية.

ومن الدروز من أقلع عن الزواج إمعانًا فى تصوفه، ومنهم من لا يأكل لحمًا طوال حياته على نحو ما يفعله براهمة الهند، بل هؤلاء لا يذوقون شيئًا من بيت أحد من غير العقال مثل البراهمة تمامًا.

واختلفت الرسائل المقدسة فى مكان ظهور المعبود يوم القيامة، فبعضها وخاصة كتابات حمزة بن على -تذهب إلى أن ظهوره سيكون فى مصر. أما رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن المعبود سيكون فى بلاد الصين، يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب يأجوج ومأجوج، وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد ويدخلون مكة، ويتجلى المعبود لهم فى صورة الحاكم بأمر الله من الركن اليمانى، وفى يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذى يهدد بسيف الحاكم مخالفى العقيدة ويعطى الحكم للموحدين.

وينقسم الناس يوم البعث إلى أربع فرق، فرقة ناجية، وهى فرقة الموحدين وسيكون لهم السلطان ومنهم الوزراء والحكام، وثلاث فرق هالكة، هم أهل الظاهر وأهل الباطن والمرتدون، وأصحاب هذه الفرق الثلاث سيكونون عبيدًا للموحدين... أما العذاب والجزاء فيفهم من كتابات حمزة أن العذاب الواقع بالإنسان نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين، و قلة معيشته وعمى قلبه فى دينه ودنياه، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه فى

---

(١) نفس المصدر: ص١٢٢ وما بعدها.

الأجساد، وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منـزلته الدينية، أما الجزاء فى الثواب مادام يتكرر فى الأجساد، فهو زيادة درجته فى العلوم الدينية وارتفاعه من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى درجة حد (المكاسر) وهو حد من حدود الدين.

وهكذا نلاحظ أن العقيدة الدرزية فى اليوم الآخر وفى الثواب والعقاب كما فى قول حمزة وبهاء الدين – هو نفس ما جاء فى كتب تأويل العقيدة الفاطمية. ومن أراد البسط والتوسع فعليه بمطالعة العقيدة الفاطمية ففيها شفاءُ العليل.

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه[1]: أن الحاكم بأمر الله زعم فى آخر عهده أن الروح القدس ماثلة فى شخصه، وادعى الألوهية، وكان واضع أصول هذه الدعوة الجديدة –وهى دعوة إلحادية– ورأسها هو حمزة بن على، وكان قد وفد على القاهرة قبل ذلك بقليل ودعا إلى ألوهية الحاكم فى القاهرة، ووضع لدينه الجديد أصولًا ورسائل، وتوثقت صلاته بالحاكم والدعاة السريين، ولكن دعوته الألحادية لم تلق فى مصر إقبالًا، وقل دعاتها الكبار، ثم طوردوا فى كل مكان وهربوا، وأخيرًا قتل الحاكم فى مؤامرة دبرتها أخته –ست الملك– وأخفيت جثته فازداد أتباعه فتنة، وزعموا أنه لم يمت بل رفع إلى السماء.

وصار ذلك مذهب دروز الشام الذين حملهم إسماعيل الدرزى على اتباع تعاليمه، وخرجوا فى صوغ مذهبهم عن تعاليم عبد الله بن ميمون الأصلية، فهم دهرية يقولون بالحلول، وأن الله –حكمة عامة– تمثل فى آلهة عدة، وأن الحاكم بأمر الله آخر هؤلاء الآلية، وأنه سوف يعود إلى الظهور حيثما يصل الظلم فى العالم غايته، فينفتح العالم ويقضى على جميع الأديان الأخرى.

ويستطرد الأستاذ عبد الله عنان قائلًا: ويتبع الدروز خطة الإسماعيلية فى نشر

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة.

دعوتهم بين أبناء الأديان الأخرى، فيتظاهرون أمام المسلمين بأنهم يؤمنون بمحمد ﷺ وأمام النصارى بأنهم يؤمنون بالمسيح، ويبررون هذا المسلك بأنه واجب ألا تكشف أسرار مذهبهم إلى أسود أو كافر. ومن عاداتهم أنهم يجتمعون نساءً ورجالًا ليتحدثوا في الشئون السياسية والدينية، بيد أنه لا يجوز لعاقل أن يشترك في تقرير الأمور. وتشبه رموزهم وإشاراتهم في التعارف رموز البناء الحر الماهر عند الماسونية.اهـ.

ونختم الحديث عن الدروز بما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية -علامة زمانه- في كتابه القيم[1]، بعد أن تحدث عن المجوس وفرقهم وأديانهم، حتى قال: ... ومنهم الخرمية -أصحاب بابك الخرمي- وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع ولا معاد ولا نبوة ولا حلال ولا حرام، وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والإسماعيلية والنصيرية والبشكية والدرزية والحاكمية وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية وهم أكفر الكفار.

فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل. ثم قال: فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم، وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم ولا بشريعة من الشرائع. أ. هـ.
هذه إلمامة سريعة عن الدروز ذكرتها لينتفع بها القراء.

النصيرية - العلوية

اختلف أصحاب كتب الفرق في ابن نصير مؤسس هذه الفرقة والتي اتفقوا بأنها تؤله عليًا. وقال معتنقو هذه العقيدة: وإنما أثبتنا هذا الاختصاص -ظهور الروحاني بالجسد الجسداني- بعلي دون غيره، لأنه كان مخصوصًا بتأييد من عند الله تعالى،

---

(١) إغاثة اللهفان: ج٢ الصفحات ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥.

مما يتعلق بباطن الأسرار[١].

وقالت النصيرية أيضًا: كان هو[٢] موجودًا قبل خلق السموات والأرض[٣].

وتقيم النصيرية بجبال اللاذقية بسوريا، وغيرها من مناطق الفرات، وعدد أفرادها الآن (٣٥٦) ألف نسمة. وهى تتبع محمد بن نصير، من أتباع الحسن العسكرى، الإمام الحادى عشر، ثم انفصل عنه وادعى الألوهية[٤] – قاتله الله. فالنصيرية فرقة من الإمامية ينتسبون إلى محمد بن نصير –من موالى بنى نمير– وهو من أتباع الإمام الحادى عشر. وهؤلاء يعتبرون عقيدتهم سرًا من الأسرار. فلا تلقن للنساء ولا للرجال حتى يبلغوا العام التاسع عشر. وكانت تعاليمهم محوطة بالسرية التامة[٥].

أهم معتقداتهم وآرائهم

ويتلخص مذهب النصيرية ومعتقدهم فيما يلى:

١. يرفعون عليًا إلى درجة الألوهية، ويجعلون مسكنه السحاب، فإذا مرت بهم سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن.

٢. يدعون الألوهية للأئمة من بعد على، وبذلك يقولون بتعدد الآلهة. وقد أخذ البابية والبهائية بهذا المبدأ فى تخبطاتهم، فقد زعم كل من الباب والبهاء وابنه عباس أنه إله، قاتلهم الله أنى يأفكون.

٣. يقولون بتناسخ الأرواح، فالتى تطهر منها تحل بالنجوم، والشريرة تحل بالحيوانات النجسة.

---

(١) راجع الملل والنحل: ج١ ص٣١٧.

(٢) يقصدون بذلك الإمام على رضي الله عنه.

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى.

(٤) بتصرف عن كتاب الفكر الإسلامى فى تطوره: ص٥٨. للدكتور محمد البهى.

(٥) البابية والبهائية فى الميزان بتصرف.

٤. يكفرون أبا بكر وعمر ولا يستعملون اسميهما.

٥. يحتفلون بالأعياد المسيحية، ولا يصومون رمضان، ومن هنا أخذ الباب - زعيم الطائفة البابية الضالة- فكرة مزج الأديان بعضها ببعض وتغيير وقت الصوم وأيامه.

٦. الصلوات الخمس رمز لعلى وابنيه وفاطمة. وذكر هذه الأسماء يرفع الجنابة ويزيل الحدث ويكفى عن الصلاة. وكذا قال البابيون والبهائيون: إن ذكر بعض الأسماء يرفع الحدثين.

٧. يعتبرون الجنة رمزًا للنعيم والنار رمزًا للعذاب، كما فعل الإسماعيليون. وبذلك أخذ البابية والبهائية.

٨. يبيحون الخمر، ويرون أكبر الأبالسة أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وقبح الله البصريين بما قالوا وهم بذلك كفار يجب قتالهم كما أفتى بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ومثلهم من على شاكلتهم[1].

٩. ويقولون بالأول: وهو روح الله على بن أبى طالب.

وبالثانى: وهو المظهر الخارجى لهذه الروح، محمد بن عبد الله.

وبالثالث: ناشر الشريعة، هو سلمان الفارسى الصحابى الزاهد. على أن ثلاثتهم فى العالم الأزلى الأبدى الكامل. والنصيرية فرقة من فرق الشيعة الغلاة التى تنتسب إلى الإسماعيلية[2].

سئل شيخ الإسلام وناصر السنة -إمام الزاهدين ومنار المجاهدين المجتهد الربانى -تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (٦٦١

(١) البابية والبهائية فى الميزان بتصرف. للأستاذ مصطفى الطير.
(٢) راجع كتاب الفكر الإسلامى فى تطوره: ص٥٨. للدكتور محمد البهى.

- ٧٢٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، سئل عن النصيرية وما يتعلق بهم ومعتقداتهم، بمقتضى سؤال حرره الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمود بن مرى الشافعى، عفا الله عنه وعن أئمة المسلمين.

وإلى القارئ الكريم صورة موجزة لكتاب السائل المذكور أعلاه عن طائفة النصيرية المنحرفة، وجاء فيه ما يلى:

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد شغب المبطلين- فى النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسخ الأرواح، وقدم العالم، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار فى غير الحياة الدنيا، وبأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء، وهى على وحسن وحسين ومحسن وفاطمة، فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يجزئهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوات وواجباتها، وبأن الصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلًا واسم ثلاثين امرأة يعدونهم فى كتبهم، وبأن إلاههم الذى خلق السموات والأرض هو على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو عندهم الإمام فى السماء والإمام فى الأرض، فكانت الحكمة فى ظهور اللاهوت بهذا الناسوت -على رأيهم- أن يؤنس خلقه وعبيده ليعلمهم كيف يعبدونه ويعرفونه، وبأن النصيرى عندهم لا يصير نصيريًا يجالسونه ويشربون معه الخمر، ويطلعونه على أسرارهم ويزجونه من نسائهم حتى يخاطبه معلمه. ويقولون أن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويليه فى رتبة الإبليسية أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين، إلى أن يقول السائل: فهل يجوز لمسلم أن يزوجهم أو يتزوج منهم.. وهل يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟. وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟. وهل يجوز استخدامهم فى ثغور المسلمين وتسليمها إليهم؟. وهل يجب على من عرف

المذكور من مذاهبهم أن يشهر أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم؟.

ويختم السؤال بقوله: ولتبسطوا القول فى ذلك مثابين مأجورين إن شاء الله تعالى، إنه على كل شىء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل(١).

وفيما يلى جواب -فتوى- شيخ الإسلام على سؤال المستفتى عن النصيرية.

جواب ابن تيمية عن النصيرية - العلويين:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية، أكفر من اليهود والنصارى، وأكفر من كثير من المشركين. وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم.

فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهى ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله، المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها، يدعون أنها علم الباطن - من جنس ما ذكره السائل.

فإنهم ليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد فى أسماء الله تعالى، وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه، إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها -من جنس ما ذكر السائل- ومن جنس قولهم: أن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، والصيام المفروض كتمان أسرارهم، وحج البيت العتيق زيارة شيوخهم، وأن (يدا أبى لهب) هما أبو بكر وعمر. وأن النبأ العظيم والإمام المبين هو على بن أبى طالب.

---

(١) راجع رسالة النصيرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ولهم فى معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم فى بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود، وبقى عندهم مدة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وصنفوا كتبًا كثيرة مما ذكره السائل وغيره.

وصنف علماء المسلمين كتبًا فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد، الذى هم به أكفر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام.

النصيرية: هم السبب فى احتلال النصارى والتتر لبلاد الشام -المعلوم لدينا أن السواحل الشامية التى استولى عليها النصارى من جهتهم- وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم الأعياد عندهم إذا استولى النصارى على ثغور المسلمين والعياذ بالله.

النصيرية: هم السبب فى سقوط القدس فى أيدى الصليبيين، كذلك هم السبب فى سقوط خلافة العباسيين. هؤلاء المحادون لله ولرسوله. كثروا بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف، فأحوالهم من أعظم الأسباب فى ذلك.

لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين، كنور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتباعهما، وفتحوا السواحل من النصارى، ممن كان بها منهم، وفتحوا أيضا أرض مصر- فإنهم كانوا مستولين عليها نحو ٢٠٠ سنة- واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية، ثم إن دخول التتار بلاد الإسلام وقتلهم خليفة بغداد وغيره من

ملوك المسلمين، لم يتم إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم ... منجم فإن هولاكو الذى كان وزيرهم وهو النصير الطوسى -كان وزيرًا لهم- وهو الذى أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

النصيرية: لهم عدة أسماء وألقاب عند المسلمين، تارة يسمون الملاحدة، وتارة القرامطة، وتارة الباطنية، وتارة الإسماعيلية، وتارة الخرمية، وتارة المحمرة، ظاهر مذهبهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، وهم كما قال العلماء فيهم ... وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبى من الأنبياء والمرسلين، لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد عليهم السلام، ولا بالكتب ولا بالخالق ولا دار ثواب ولا عقاب. وتارة يأخذون بالفلسفة والرفض، وتارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين والإلاهيين!. ويحرفون الأقوال والحديث، وأعمالهم هذه كعمل إخوان الصفا فى رسائلهم، وقد دخل باطلهم على كثير من المسلمين وراج عليهم حتى صار ذلك فى كتب طوائف المنتسبين إلى العلم والدين، وإن كانوا لا يوافقونهم على أصول الدعوة الهادية، وهى درجات متعددة. ويسمون النهاية البلاغ الأكبر والناموس الأعظم.

لا تجوز مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم: وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا تؤكل ذبائحهم، ولا تجوز مناكحتهم ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة. وعدم إباحة الذبائح. وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان للعلماء مشهوران: كسائر أنفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس وذبيحة الفرنج، الذين يقال عنهم أنهم لا يذكون الذبائح.

مذهب أبى حنيفة ورواية لأحمد: يجوز أكل هذا الجبن، لأن أنفحة الميت طاهرة.

كذلك أوانيهم وملابسهم كأوانى المجوس وملابسهم عند العلماء والصحيح أنه لا يؤكل فى أوانيهم إلا بعد غسلها.

لا يصلى على موتاهم ولا يدفنون فى مقابر المسلمين: لا يصلى على من مات منهم، فإن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة على المنافقين، كعبد الله بن أبى ونحوه، وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والجهاد مع المسلمين، ولا يظهرون مقالة تخالف دين الإسلام ولكن يسرون ذلك فقال الله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق يظهرون الكفر والإلحاد. أما استخدام هؤلاء فى ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعاية الغنم، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شر من المُخامر الذى يكون فى العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض إما مع أمير العسكر وإما مع العدو، وهؤلاء مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها وخاصتها وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجند على ولى الأمر وإخراجهم عن طاعته.

ديارهم وأموالهم مباحة: لكن دماءهم وأموالهم مباحة، وإذا أظهروا التوبة ففى قبولها منهم نزاع بين العلماء: فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام، أقرهم على أموالهم، ومن لم يقبلها لم تنقل إلى ورثتهم من جنسهم، فإن مالهم يكون فيئًا لبيت مال المسلمين. لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة، لأن أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يعرف وفيهم من قد لا يعرف، فالطريق فى ذلك أن يحتاط فى أمرهم.

لا يتركون يجتمعون ولا يمكنون من حمل السلاح: ويلزمون شرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين معلمهم، فإن أبا بكر الصديق وسائر الصحابة -رضوان الله عليهم- لما ظهروا على أهل الردة وجاؤوا إليه قال لهم الصديق: اختاروا إما الحرب المجلية وإما السلم المخزية. فقالوا: يا خليفة رسول الله. هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية؟. قال: تدون قتلانا ولا ندي قتلاكم. وتشهدون أن قتلانا فى الجنة وأن قتلاكم فى النار. ونقسم ما أصبنا من أموالكم، وتردون ما أصبتم من أموالنا. وتنزع منكم الحلقة والسلاح وتمنعون من ركوب الخيل... حتى يُرِىَ الله الخليفة والمؤمنين أمرًا بعد ردتكم. فوافقه الصحابة على ذلك إلا تضمين قتلى المسلمين، قال عمر: أجرهم على الله.

يقاتل النصيرية قتال المرتدين، وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات: لا ريب أن جهاد هؤلاء من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين، كذلك ضررهم على المسلمين أعظم من ضرر أولئك الكفار.

بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم فى الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

يجب على كل مسلم أن يفشى أخبارهم: يجب على كل مسلم أن يقوم بذلك بقدر قدرته، فلا يحل لأحد يكتم ما يعرفه من أخبارهم بل يفشيها ويظهرها ليعرف

المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير).

والمعاون على كف شرهم وهدايتم -بحسب الإمكان- له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم كما قال تعالى: (كنتم خير أمة أُخرجت للناس) قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم فى القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام، فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد -بحسب الإمكان- فمن هداه الله منهم سعد فى الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كف الله ضرره عن غيره.

وهناك أحاديث كثيرة تبين درجات وأهمية الجهاد وبركاته وعظمته[1].وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (إن فى الجنة مائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، أعدها الله ﷻ للمجاهدين فى سبيله). أهـ

وبعد: ففيما قدمناه عن طائفة العلويين -النصيرية- وما سبق بيانه من فتوى الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتقدمة بصددهم، لكاف وخير دليل على معرفة عقائد القوم. وقد كفانا شيخ الإسلام مؤونة البحث، فكشف بثاقب بصره وسعة اطلاعه وخبرته بمذاهب النصيرية عن فساد طوياتهم وقد عرض رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك عرضًا جميلًا، وكان رده

---

(١) كُتبت هذه الرسالة فى القرن الثامن الهجرى عن النصيرية، وقد أجاب على سؤال طويل بخصوصهم شيخ الإسلام ابن تيمية، الذى فضح أسرارهم وكشف باطلهم وأظهر إلحادهم وكفرهم كما حاربهم بالسيف وشتتهم، رحم الله الإمام المجاهد والعلامة الزاهد وأسكنه فسيح جناته، فقد أدى للإسلام ما عليه من الواجب، ونال الشرف والخلود وكرامة الدارين، فأنعم به من مجاهد.

ردًا قويًا يقنع كل من طلب معرفة الحق ورغب فيه[١].

طائفة البهرة:

ليس غرضنا هنا استقصاء كل ما يتعلق بهذه الطائفة، وإنما حسبنا أن نشير إلى أهم معتقداتها. فعلى الرغم من قلة المراجع والمصادر المتعلقة بالبهرة إلا أننى حاولت جهدى الحصول على معلومات شافية عن هذه الطائفة -الفرقة- لأجلى خفاياها وأكشف القناع عن عقائدها وأسرارها التى تجهلها غالبية عظمى من أبناء المسلمين.

إن هذه الطائفة منتشرة فى ديار العرب والإسلام، كاليمن والعراق، والجزيرة العربية والباكستانية والهند وإيران وغيرها.

وحتى لا يفتن بها المسلمون فقد رأيت أن أقدم هذه المعلومات -التى أرجو أن تكون كافية لإبراز معالم هذه الطائفة وبيان حقيقتها- ليتسنى للمسلمين الاطلاع على خفاياها ومبادئها الملتوية، وعلى ضوء هذا يعرف كيف يتعامل المسلمون مع منتسبى هذه الطائفة الزائغة، التى جعلت الإسلام هدفًا يرمى ومطعنًا للطاعنين، بعد أن اتخذته تكئة ووسيلة لتنفيذ مآربها وتحقيق أغراضها الشريرة.

فالبهرة هى إسماعيلية الهند واليمن، وهم ينتسبون إلى الإسماعيلية المستعلية، التى كان يتبعها اليمنيون فى عهد الصليحيين، ويسمون الطيبة نسبة إلى الطيب بن الخليفة المستعلى.

وانقسمت دعوة البهرة إلى فرقتين، البهرة الداودية والبهرة السليمانية والأولى

---

(١) وبالمناسبة فإنا نحمد الله الذى يقيض لدينه فى كل زمان ومكان من يرد عنه كيد الكائدين، ويكشف زيف المبطلين المضللين. اللهم بسيفك القاطع اقصم رقاب الضالين والمبتدعين وأهلكهم أجمعين فإنهم لا يعجزونك، وقنا شرهم يا رب العالمين.

بالنسبة إلى الداعى قطب شاه داود، والثانية بالنسبة إلى الداعى سليمان بن حسن.

فأما البهرة الداودية فمركزهم فى الهند -الهند وباكستان الآن- منذ القرن العاشر الهجرى، وداعيهم يقيم فى بومباى. أما البهرة السليمانية فمركزهم فى اليمن حتى اليوم[1].

فالبهرة يختلفون عن الآغاخانية اختلافًا كليًا فى العقيدة والسلوك والتطبيق، حيث إنهم ينتسبون للفاطميين الذين أقاموا دولتهم فى شمال أفريقيا- ومنهم المعز لدين الله الفاطمى الذى فتح مصر وبنى الأزهر - ورئيس طائفة البهرة يلقب بداعى الدعاة وبالسلطان، لما له من سلطة روحية لها أثرها العميق فى نفوس أتباعه، حيث إنهم يستجيبون لكل ما يدعوهم إليه بمحبة واقتناع. وهذه الطائفة تعدادها مليون ونصف نسمة، معظمهم فى الهند[2].

بعض معتقدات البهرة:

إن أفراد الطائفة يحترمون القرآن الكريم ظاهريًا، ويؤولون آياته الكريمة ليستخرجوا منها معانى ما أنزل الله بها من سلطان. ولهم كتاب آخر يحظى بتقديسهم جميعًا هو كتاب النصيحة -لمؤلفه الداعى الحادى والخمسين طاهر سيف الدين- ويعتبرونه قرآنهم.

كما أنهم يتوجهون فى صلاتهم إلى قبره -فى مدينة بومباى فى الهند، ويطلقون عليه اسم: روضة الطاهرة- لا إلى الكعبة المشرفة[3]، وتجب عليهم الصلاة فى

(١) إسلام بلا مذاهب: ص٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) مجلة هدى الإسلام: عمان.

(٣) إن شأن هذه الطائفة كشأن الفرقة البهائية الضالة، التى يتوجه أتباعها فى صلاتهم الفاسدة إلى قبر شيطانهم المسمى بهاء الله -فى مدينة عكا إحدى مدن فلسطين الشهيرة- التى أصبحت مزرعة للغزاة الصهاينة، الذين يقدمون التأييد والدعم للبهائية المرتدة =

العشرة أيام الأولى من شهر محرم. وفى غيرها لا تجب عليهم الصلاة. ولا يصلون إلا فى مكان خاص بهم يسمى: الجامع خانة. وإذا لم يذهب الشخص منهم إلى الجامع خانة فى العشرة أيام الأولى من شهر محرم يطرد من الطائفة ويفرض عليه الحرمان.

ولهم فى الكويت جامع خانه فى شارع الاستقلال[١]، ولكنهم يقولون أن صلاتهم تلك للإمام الاسماعيلي المستور من نسل الطيب ابن الآمر. وهم يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين -ظاهريًا- ويقولون أن الكعبة هى رمز على الإمام[٢].

حياة البهرة الاجتماعية

يبلغ دخل الداعى -رئيس الطائفة- ١٢٠ مليون روبية هندية سنويًا. ويتقاضى كل فرد من أفراد عائلته -العائلة المالكة- ثمانية آلاف روبية شهريًا، بالإضافة إلى السيارات والمساكن الحديثة المكيفة. ويتم جمع هذه المبالغ الضخمة بالوسائل التالية: تسن الحكومة البهرية ضرائب إجبارية على أفراد الطائفة، فى حين تدعى أنها تطوعية، وقد اشترى الداعى عدة فنادق من هذه الضرائب التى يفرضها على أفراد طائفته، واشترى أيضًا مشروع المياه الغازية -الكوكاكولا- فى مدينة بومباى فى الهند.

وعندما تقوم العائلة الحاكمة بإنجاز أى مشروع فالتبرعات تصبح واجبة على أفراد الطائفة، وعندما اشترت العائلة فندقًا -سندزهاوس- فى بومبى فرض الداعى على كل فرد من أتباعه كافة أن يدفع ١٠ روبيات لتغطية النفقات.

ومن جهة ثانية فإن الداعى يتاجر مع أفراد عائلته بالذهب، الذى يهربونه من

=

وأمثالها، لتساهم فى دور التخريب والتشويه فى معاقل الإسلام.

(١) مجلة المجتمع الكويتية: عدد ٤١٧ سنة ١٣٩٨هـ.

(٢) إسلام بلا مذاهب: ص٢٤٠ د. مصطفى الشكعة.

أفريقيا وسيلان حيث استطاعوا تهريب ملايين المجوهرات والأحجار الكريمة.

وعندما تحمل الأم بابنها عليها أن تدفع، وكذلك إذا مات فعليها أن تدفع الضريبة المقررة، والذى يريد أن يحوز رضى الداعى عليه أن يدفع الكثير حتى كلمة: بسم الله الرحمن الرحيم من الداعى تكلفهم ما بين ٥٠٠٠ - ٥٠.٠٠٠ روبية، كل حسب طاقته! كل ألف روبية تساوى ٣٥ دينارًا كويتيًا.

ويجب على كل فرد من أفراد الطائفة أن يشترى تذكرة خاصة بصلاة العيد، يصدرها مكتب الداعى، وتختلف قيمتها فى الصف الأول عن الصف الآخر، فالتذكرة فى الصف الأول -خلف الملاجى الدكتور محمد برهان الدين- تكلفه ألف روبية، وثمانمائة فى الصف الثانى.

وكذلك جثة الميت منهم فإنها لا تدفن إلا بعد أن يدفع أقارب الميت ضريبة مقابل ذلك لمكتب الداعى، الذى يراقب كل شىء ليأخذ الضرائب عن كل شىء.

وبعد الدفع يصدر الداعى صك غفران -روكوشيتى- لذلك الميت، ويدفن معه فى القبر. والصكوك عندهم عدة أنواع، فأقارب المتوفى الذين يدفعون أكثر من خمسين ألف روبية، يحصلون على صك غفران -أو شقة من الدرجة الأولى فى الجنة[1]-!!

وكل شخص يريد السفر إلى أى مكان عليه أن يأخذ تصريحًا خاصًا من مكتب الداعى. وقبل سفره لابد أن يطوف بالروضة الطاهرة -قبر الحادى والخمسين طاهر سيف الدين والد الداعى الحالى.

---

(١) إن طائفة البهرة ذات اقنعة ودعوات خبيثة، تخالف ماجاءت به باقى الملل والنحل، حتى أن المجوسية وغيرها من دعوات الوثنية لم تجرؤ على جرائمها وسخافاتها، وإن كانت تلتقى مع المدرسة الباطنية فى مقوماتها وضلالها.

ويوجد فى الكويت حوالى ثمانية آلاف فرد من طائفة البهرة، وكل شخص من هؤلاء عليه أن يدفع مبلغ خمسة دنانير شهريًا لنائب الداعى، سواء كان يعمل أم لا. ولو تأخر شهرًا واحدًا عن الدفع، فإنه يطرد من الطائفة ويفرض عليه الحرمان. وعلى كل فرد عند رجوعه إلى بلده أن يذهب ليطوف بالروضة الطاهرة عدة مرات.

ومن العجيب أن الداعى الأكبر باع كثيرًا من (مساجد الضرار) التى ارتفعت أثمان الأرض بجوارها، حتى المقابر لم تسلم من أذى الداعى، فقد باع مقبرة كبيرة فى بلدة -برهان يو- بأغلى الأثمان بعد أن قسمها إلى قسائم. ولكن أين تذهب كل هذه الأموال؟! أنه الداعى الذى يدخر قسمًا كبيرًا منها فى البنوك السويسرية، وينفق الآخر على ملذاته وشهواته ورجاله المقربين، فى حين أن أبناء طائفته بحاجة ماسة للمساعدة[1].

هذه لمحة موجزة للحالة الاجتماعية القاتمة التى يرزح تحت وطأتها مجتمع البهرة المسحوق، الذى لم يعد يحتمل كل هذا الحرمان والتلاعب الذى يعانى منه على أيدى الطبقة الحاكمة، تحت قيادة الداعى الأكبر -شيطانهم الرجيم- الذى نصب من نفسه الحاكم المطلق والمتصرف فى كافة شئون الطائفة، حتى أن الوالد لا يملك أن يسمى ابنه بما شاء من الأسماء، بل الداعى هو الذى يختار للمولود الاسم ليأخذ الضريبة مقابل ذلك.

ونتيجة للحالة المتردية التى يعانى منها أفراد هذه الفرقة الشاذة، فقد قامت موجات الاحتجاج تطالب بالإصلاح ضد الدكتاتورية التى يمارسها الداعى الحالى وزمرته... وقد طالبت حركات الإصلاح بعدة مطالب أهمها[2]:

---

(١) مجلة الوعى الإسلامى: سنة ١٣٩٨هـ.

(٢) المصدر السابق.

١. ضبط وتدقيق أموال الداعى وصرفها فيما يعود بالخير على أفراد الطائفة المسحوقين.

٢. عزل الطائفة الدكتاتورية الحاكمة، وانتخاب المؤهلين من أبناء الطائفة بدلًا منها لرعاية شئونهم(١).

لعل من المفيد بعد هذا العرض الموجز عن طائفة البهرة أن أذكر القارئ بأن دعوات الإلحاد والانحراف - وخاصة المستترة منها بالأقنعة الكالحة، ومن بينها البهرة هذه - تنتمى إلى الدعوة الإسماعيلية وآل البيت زورًا وبهتانًا، كما أنها تستقى تعاليمها من المدرسة الباطنية، وتلتقى مع القرامطة والدرزية والبهائية فى مستنقع واحد ... والذى يجب التنبيه عليه أن هذه الطائفة ومثيلاتها، التى تتستر بالإسلام وتحيي بعض الشعائر الدينية -ظاهريًا كما تزعم- وتقيم (مساجد الضرار) وينخدع بها المسلمون، ما هى فى حقيقتها إلى دعوة فساد وضلال.

هذه بعض أوهامهم وخرافات أئمة الكفر من دعاة هذه النحلة، ليأكلوا أموال الناس بالباطل. قاتلهم الله على كفرهم وضلالهم، الذى يمجه كل عاقل، بل هو عبث عقيم وضلال سقيم.

ولا أدرى كيف يقبل بهذه الترهات الفارغة أبناء هذه الطائفة الشاذة، مع أنهم يعرفون الكثير من تعاليم الإسلام التى تحارب هذه الخرافات والشعوذات، ولكنه العناد والإلحاد الذى تربوا عليه، ومع الأسف فلا يزالون يسبحون بحمد داعيهم ويتفنون فى تمجيده وتطبيق أوامره الشيطانية. ألا ساء ما يصنعون.

أقول: يجب على علماء الإسلام والمسلمين أن يكشفوا باطل هذه النحلة، وغيرها من المعاول الهدامة والدعوات الدخيلة، والوقوف فى وجه كافة المذاهب

(١) مجلة الوعى الإسلامى - الكويت.

المنحرفة، وكشف زيفها وبيان أضرارها، وتخليص الإنسانية من رجسها وخرافاتها.

طائفة الآغاخانية

إذا كانت البهرة ترجع أصولها العقائدية إلى الإسماعيلية المستعلية -التى مر الحديث عنها- فإن الآغاخانية ترجع عقيدتها إلى الإسماعيلية النزارية، وقد ظهرت هذه الفرقة بنشاط فى إيران، وفى الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادى، حينما ظهر شخص جمع حوله عددًا من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية، وهدد الأمن وقطع الطريق، وسطا على القوافل حتى ذاع صيته فى أنحاء إيران، وأصبح أسطورة على ألسنة الناس، وأعجب الإيرانيون ببطولاته، فانضموا إليها إعجابًا وطمعًا فى المكاسب المادية التى يحصلون عليها من طريقه...[1].

هذا الرجل اسمه حسن على شاه، وهو إسماعيلى وإن لم يشر إلى إسماعيليته حتى لا ينفض الناس من حوله، وكان للإنجليز مطمع فى إيران فى ذلك الوقت، فاستعملوه -حسن على شاه- فى قيادة ثورة يهدد بها الأمن حتى يجدوا -كما هى عادتهم- منفذًا يدخلون منه إلى فرض سلطانهم، ولكن حسن شاه فشل فى ثورته وقبض عليه، فسارع الإنجليز إلى التوسط له بالإفراج عنه، على أن ينفى من إيران كلها.

وذهب حسن علي إلى أفغانستان -كرغبة للإنجليز- ولكنه لم يستطع أن يقدم هناك شيئًا لحلفائه ليقظة الأفغانيين، فاتجه إلى الهند وسكن مدينة بومباى، وهناك اعترف به الإنجليز إمامًا على الطائفة الإسماعيلية وخلعوا عليه لقب (آغا خان) فانتسب إلى الإمام نزار بن المستنصر الفاطمى، وأصبح إمام الإسماعيلية النزارية. ثم مات سنة ١٨٨١م. فخلفه ابنه فى إمامة الطائفة وعرف باسم (آغا خان الثانى)

---

(١) إسلام بلا مذاهب: ص٢٤٠ - ٢٤١.

وكان أبوه قد أعده للإمامة إعدادًا كاملًا، وهيأ له الثقافة الكاملة.

وكان يجيد عدة لغات منها العربية، وعمل على خدمة أبناء المسلمين جميعًا دون تمييز بين طوائفهم، فسمت مكانته بين الناس جميعًا، وتزوج أميرة إيرانية وأنجب منها ولده محمدًا الحسينى فى نوفمبر سنة ١٨٧٧م. وهو (آغا خان الثالث) المعروف باسم (آغا خان) المتوفى سنة ١٩٥٧م.

وقد سكن أوروبا وتزوج أربع مرات، المرة الأولى من أميرة إيرانية، والثانية من فتاة إيطالية أنجب منها ابنه على خان، والمرة الثالثة من بائعة حلوى وسجائر فى باريس، وأنجب منها ولده صدر الدين خان والمرة الرابعة من إحدى ملكات الجمال.

وحين مات -آغاخان- أوصى لحفيده -كريم- بالإمامة -وهو الإمام الحالى- ولا زال شابًا يطلب العلم فى إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية.

والإسماعيلية الآغاخانية يسكنون الآن نيروبى ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنجو البلجيكى والهند وباكستان، وبعضهم فى الإقليم السورى، ومركز القيادة الرئيسى بالنسبة له هو مدينة كراتشى بالباكستان.

والإسماعيلية الآغاخانية تقدس آغاخان وتلقبه بالإمام وتقول بعصمته، ويضفون عليه صفات الألوهية -قاتلهم الله- ويدفعون له خُمس ما يكسبون[1]، ويعتقدون أن الخمر حين تدخل فى جوفه تتحول إلى ماء زمزم. وحين سئل آغاخان مرة من قبل صديق له: كيف يسمح -وهو المثقف- لأتباعه أن يؤلهوه؟!. فهقه طويلًا حتى دمعت عيناه وقال: إن القوم فى الهند يعبدون البقرة، ألست خيرًا من البقرة[2]؟.

---

(١) إسلام بلا مذاهب.

(٢) جذور البلاء.

هذه بعض معتقدات طائفة الآغاخانية التى يعتنقونها، أضعها بين يدى القارئ ليستطلعها، وهى تكشف لنا عن سوء منقلب أدعيائها، كما تنم عن فساد طوية مخترعيها، الذين يدعون الإسلام ظاهريًا ليحققوا مآربهم الخبيثة، مع أنهم فى الحقيقة ربائب لأعداء الله، ودسائس مكر يستخدمها الإستعمار لتشويه سمعة الإسلام، ودك إسفين مسموم فى جسم الأمة لنخرها ويحطم كيانها.

لذا كان جديرًا بالمسلمين -حكامًا ومحكومين- أن يتصدوا لمثل هذه الجرثومة الباطنية، بتعريف الأمة بأهدافها الشريرة ونواياها الخبيثة، التى تناقض تعاليم الإسلام وتعطل مسيرته الرائدة ... وبهذا يمكن تعرية الأعداء وكشف أوراقهم الزائفة، ليعود للمجتمع وجهه المشرق وتعود الحياة الهانئة للبشرية ويعم العدل وتنتشر الفضيلة.

أحمد الإحسائى والشيخية

لم تنقطع مؤامرات الباطنية على العقيدة الإسلامية فى التاريخ حتى القرون الأخيرة، حيث نرى أن الباطنية تتجدد على يد شيخ فاسد العقيدة غامض الفكرة والأسلوب، يثير حوله جوًا من التقديس الكاذب، وهو الشيخ أحمد الإحسائى الذى ولد سنة ١١٦٦هـ. ١٧٥٣م. وقد أسس طريقة فى مذهب الشيعة الإمامية سميت فيما بعد بالشيخية[١]. والشيخية يقولون أن الحقيقة المحمدية تجلت فى الأنبياء قبل محمد ﷺ تجليًا ضعيفًا، ثم تجلت تجليًا أقوى فى محمد ﷺ والأئمة الإثنى عشر، ثم اختفت زهاء ألف سنة، وتجلت فى الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى والسيد كاظم الرشتى، ثم تجلت فى كريم خان الكرمانى وأولاده إلى أبى قاسم خان. وهذا التجلى

---

(١) لما كان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو تحذير المسلمين وإيقاظ شعورهم الدينى ووجدانهم، فقد رأينا إتباع الفرق الباطنية القديمة بالحديثة لما لها جميعًا من أهداف مشتركة فى الكيد للإسلام وأهله، بغض النظر عن التأريخ الزمنى لظهور هذه الفرق.

هو أعظم التجليات لله والأنبياء والأئمة، والركن الرابع من الشيخ أحمد الإحسائى إلى ما بعده هم شىء واحد، يختلفون فى الصورة ويتحدون فى الحقيقة التى هى الله مظهر فيهم. ويعتقدون أن محمدًا رسول الله، وأن الأئمة الإثنى عشر هم أئمة الهدى، ومعنى الرسالة والأمانة عندهم أن الله تجلى فى هذه الصورة، فمنهم رسول ومنهم إمام. ويعتقدون أن اللاحقين هم أفضل من السابقين وعلى ذلك فالشيخ أحمد فى رأى أصحابه أعظم من جميع الأنبياء والمرسلين. ويعتقد هؤلاء بالرجعة، ويفسرونها بأن الله بعد أن غاب عن صور الأئمة رجع وتجلى تجليًا أقوى فى الركن الرابع، الذى هو الشيخ أحمد ومن يأتى بعده[1].

والإحسائى من الشيعة الحلولية الذين يعبدون عليًا، وأدلته الفلسفية مستقاه من مذهب الفيلسوف المشهور الملا صدرا[2].

وأما اعتقادهم فى القيامة فهو اعتقاد باطل مخالف لنصوص القرآن والسنة الشريفة وإجماع الأئمة، إذ أنهم لا يعتقدون بقيامة الجسد، ويؤولون علامات الساعة تأويلات باطنية تتفق مع مسلكهم فى إنكار البعث والقيامة[3].

لقد كرس الإحسائى حياته فى سبيل الدعوة إلى قرب ظهور المهدى المنتظر. يقول زرزندى: وإذا كان واثقًا بنبالة مقصده -كذا- طلب بحماس من جميع أتباع الإسلام فى الشرق -بما فيهم أهل الشيعة- أن يهبوا من نوم غفلتهم ويهيئوا الطريق للذى سوف يظهر بينهم عند تمام الأيام[4].

ويخيل إلىَّ -استنادًا إلى نزعته العقلية المتطرفة- أنه لم يكن من المؤمنين، كما

---

(١) البصرة تستأصل الشيخية: ص ٧ نقلًا عن كتاب البابيون والبهائيون.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مجلد ٥ ص٤٤٨ نقلًا عن: البابيون والبهائيون.
(٣) مطالع الأنوار: ص٣٣ - ٣٤. عن المصدر السابق.
(٤) مطالع الأنوار: ص٣ نقلًا عن: كتاب "البابيون والبهائيون".

تبدو عليه اتجاهاته الباطنية الأخرى، بأن المهدى مختف. فالحال الذى تؤمن به الإمامية من حيث إنه مستور، وعلى اتصال دائم بالشيعة، بل إنه كان يؤمن بالمهدى كشخص اعتيادى، يظهر ظهورًا اعتياديًا، وخاصة فإن اتجاهه هذا يتفق مع الزيدية وبعض علماء السنة فى ظهور المهدى. وكان همه من التبشير بقيامه وظهوره هو الإسراع بالقضاء على عقيدة الإمامية، وذلك لكى يقوم بالمسرحية التالية التى اتفق مع أشخاصها وممثلى أدوارها مع سادته المستعمرين، وهذه مسرحية تنص على تقديم مهديهم الخاص إلى الأمة الإسلامية.

أما كيف كان الشيخ أحمد الإحسائى متصلًا بالمستعمرين، أو بدوائر التبشير التى كونت الطلائع الأولى لهم فى الشرق، والتى وضعت خطة محكمة للوصول إلى مثل هذه النتائج فى المجتمع الإسلامى فالجواب على ذلك مايلى:

١ . إن كثيرًا من الحركات الدينية والسياسية والاجتماعية ظهرت فى المجتمع وانتشرت فى ظل شعارات معينة، ثم ظهرت خبيئتها فحكم الناس أن تلك الحركات كانت حركات استعمارية، وذلك استنادًا إلى نتائجها إذ أنها شُجِّعَت تشجيعًا قويًا من المستعمرين، وقاموا هم على نشرها وإفساح المجال لها والدفاع المستميت عن أشخاصها، لأنهم لم يتعرضوا لمصالحهم، بل دعوا إلى مهادنتهم وعدم القيام ضدهم.

أقول: إذا كانت الحركة تتسم بهذه المزايا يكون من السهل جدًا على العلماء من الاجتماعيين وغيرهم أن يحكموا باستعماريتها. وحركة الإحسائى ظهرت نتائجها الواضحة بعده بسنوات قليلة، كما سيظهر لنا كيف أن المستعمرين احتضنوها ليضربوا بها الإسلام، الذى كانوا يعتبرونه الجدار الوحيد أمام استعمارهم

واستغلالهم للشرق[1].

٢. لقد أوضحت حوادث التاريخ بأن الفرق الباطنية كانت توجه دائمًا من قبل أعداء الإسلام، من اليهود وأباطرة الروم ودهاقين المجوسية. وأن تلك الفرق خانت الأمة الإسلامية فى مواقف حرجة من تاريخها، كحروب الروم مع المسلمين وهجوم الصليبيين على ديار الإسلام ومؤامرات المجوس لاستعادة مجدهم القديم. وبما أن حركة الإحسائى كانت حركة باطنية، وأنها نشأت فى زمن كانت الأمة الإسلامية فيه تريد أن تنفض عنها غبار الزمن، وأن الاستعمار الغربى كان يريد القضاء على هذه اليقظة الإسلامية، وإذن فيكاد يجزم المرء -من هذه الناحية أيضا- بعلاقة هذه الحركة الباطنية بدوائر الاستعمار بصورة خاصة، وأعداء الإسلام بصورة عامة.

٣. هنالك رأى يستند على تقارير المستشرقين يقول: إن الإحسائى لم يكن أصله من الإحساء، ولا ثبت ذلك تاريخيًا، وإنما كان قسًا غربيًا أرسل من أندونيسيا إلى الشرق، حسب خطة مرسومة، لإفساد العقيدة وتغيير أحكام الدين[2].

الحركة الكشفية وكاظم الرشيتى

يقال أن كاظم الرشتى ولد فى رشت من بلاد إيران سنة ١٢٠٥هـ ولما بلغ عمره السادسة والعشرين ذهب إلى طهران لملاقاة أحمد الإحسائى، ثم رافقه إلى كربلاء وتتلمذ عليه واستسلم بسهولة لأوهامة وخرافاته، وقد سار الرشتى على طريقة أستاذه الإحسائى، فى اللجوء إلى الرؤى والخداع والمكر لتنفيذ خططه، التى اتفق عليها مع أستاذه وشيخه الإحسائى، فى التبشير بالمهدى وقرب ظهوره ووجوب الإيمان به. ولم يكتف الرشتى بالتبشير بقرب ظهور المهدى، بل عين شخصه بصورة

---

(١) انظر: حقيقة البابية والبهائية ص٣٧.

(٢) البصرة تستأصل شأفة الشيخية: ص١٣ عن: البابية والبهائية.

تكاد تكون مباشرة، وذلك بتعيين صفاته وشمائله وأخلاقه وإيهام القوم أنه جالس بينهم، ولا يرسل إلى بعد موته. والمعروف أنه كان قد عين أحد تلاميذه -وهو الميرزا على محمد- الآتى ذكره حسب الخطة المرسومة للقيام بهذه المهمة، وهو الذى تنطبق عليه تلك الصفة، التى كان يرددها الرشتى فى كل درس بقوله: إن الموعود يعيش بين هؤلاء القوم، وأن ميعاد ظهوره قد قرب فهيئوا الطريق إليه، وطهروا أنفسكم حتى تروا جماله، ولا يظهر لكم جماله إلا بعد أن أفارق هذا العالم، فعليكم بعد فراقى أن تقوموا على طلبه، ولا تستريحوا لحظة واحدة حتى تجدوه[1]. إن الرشتى كان يوجه تلميذه -الميرزا على محمد- وهو جالس فى مجلسه، فكان يريد بذلك إسماع الآخرين بقوله: إن الشريعة وأصول الآداب هى غذاء للروح، لذلك يجب أن تكون الشرائع متنوعة، وعلى ذلك يجب نسخ الشرائع العتيقة[2].

وهكذا نرى أن الرشتى -بمكره وتحركاته وخبث تدبيره- أشعل الشوق فى نفوس أصحابه للقاء الموعود المزعوم. ولقد نشر بينهم هذه الفكرة لدرجة أنهم كانوا جميعًا يحلمون بها، وذهب جميع تلامذته من بعد موته متلهفين لرؤية ما وعدهم به، حيث إن بعضهم قال لتلميذ له اسمه الملا حسن البشروئى: إنك لو ادعيت هذا لآمنا بك[3].

إن جميع ما أثبتناه عن الشيخية إلى الآن والروشتية يهدف إلى معرفة جذور مؤامرة البابية على الإسلام، حيث أنها كما ترى لم تكن بنت يومها عندما أعلن تلميذ الرشتى الميرزا محمد على الشيرازى. وإنما مرت بمراحل وهيئت لها الأذهان

(١) انظر مطالع الأنوار: ص١٣٠، ١٣١. عن: حقيقة البابية والبهائية.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) نفس المصدر السابق.

والعقول والبيئة اللازمة لقبول الفكر، فخطط الاستعمار طويلة الأمد عميقة الجذور يتم الاختيار على مراحلها، ويسبق القول على أشخاصها، ثم تقدم للناس بأسلوب جذاب ينسجم مع ظروفهم النفسية والبيئية، والاستعمار فى خططه هذه استند على فكرة كانت بعيدة الجذور فى نفوس الإيرانيين وهى فكرة المهدوية.

إن اتصال هذه الحركة بمراكز التبشير العالمى ومساندتها من قبل دول الاستعمار واليهودية العالمية قد شد من أزرها، إلى أن جاءت الفترة التى تهيأ فيها الميرزا على محمد الشيرازى ليقوم بدوره المرسوم، وهو تأسيس الطائفة التى تسمت بالفرقة البهائية. لقد مثلت البهائية أعلى مرحلة من مراحل التآمر التاريخى على الإسلام، ابتداء بالباطنية المجوسية وانتهاءًا إلى الباطنية الصهيونية وأجهزة التبشير الصليبى ومراكز الماسونية العالمية ... إن الإسلام فى جهاده لماضٍ إلى يوم القيامة، وستجابه عقبات أخرى وسيجرب أهل الباطل معه أفتك الأسلحة، وسوف لا يكون نصيبهم -بإذن الله- بأحسن من نصيب من سبقهم من الأعداء العتاة المخذولين... وكَرَّةٌ أخرى سيخسر هنالك المبطلون.

(باب الديانات الاستعمارية)(١)

تلقت هذه الأمة عقيدتها صافية نقية عن كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وتكفل الله تعالى بحفظ كتابه، وهيأ لذلك رجالًا أمناء صفت بصائرهم واستنارت قلوبهم بنور الله تعالى، وتفانت نفوسهم فى خدمة الحق، وامتدحهم الله تعالى فى محكم كتابه بقوله: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم فى وجوههم من أثر

(١) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد تأليف خالد محمد على الحاج، الجزء الأول ص٢٢٤ وما بعدها.

السجود ذلك مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا).

وهكذا كان جند الحق من أبناء أمة الإسلام على علم وبصيرة، يهتدون بكتاب الله وسنة رسوله مجمعون على الحق والهدى، فكل ضلالة وبدعة وزيف وتحريف وغلو وتفريط ينكشف أمره بسهولة، وتحذره الأمة لأن الحق أبلج، فيموت الضلال فى مهده، أو تكون له جولة ثم يزهق.

وانتشر العلم وكثر العلماء وأقبل الناس على تعلم الحق، ولذلك لم يكن من السهل أن تنتشر الأباطيل والضلالات، حتى جاء عصر الضعف، حين كثر دعاة الباطل، وقل التعلم فى عامة الناس، وكثر الجهل فى سوادهم، فوجد المبطلون ميدانًا خصبًا لنشر الأباطيل فى النفوس الضعيفة والقلوب المريضة.

لقد كانت الفرقتان البهائية والقاديانية من بين هذه الأباطيل والنحل الهدامة، التى وضعها أعداء الإسلام بخبث ودهاء لتحطيم كيان الأمة الإسلامية ونسف وحدتها وتصديع كيانها. واتبعهما أناس زاغت قلوبهم وعميت بصائرهم فتفاقم شرهما، ولا يزال الخطر يزداد يومًا بعد يوم، ويزداد نفوذهما فى موطنهما الأصلى فى شبه القارة الهندية وإيران خاصة، وبلاد العرب والمسلمين عامة.

وللوقوف على أسرار هاتين الفرقتين الضالتين، وأسباب وجودهما ونجاح دعاتهما فى بعض الجهات رغم كشف سوء نياتهما، وفشل دعوتيهما على كافة الأصعدة، للوقوف على هذا كله وتنويرًا لأبناء الأمة فسوف أفرد لكل حركة من هاتين الحركتين فصلًا خاصًا، أتناول فيه الدوافع الحقيقية التى كانت وراء ظهور كل منهما، مع تسليط بعض الأضواء على تلك الأيدى الخفية التى ساندتهما، والدور

الذى ستقوم به كل منهما، وبهذا يقف المسلم على حقيقة ما يراد به من قبل أعدائه، بادئًا بالحركة البابية والبهائية.

ظهور البابية

كان أول ظهور فرقة البابية الضالة عندما طالع على محمد المسلمين فى إيران بمقالة ادعى فيها أنه الباب أو على حد قوله: أنا مدينة العلم وعلى بابها. وقال: ادخلوا البيوت من أبوابها. فلا يجوز دخول البيت إلا من الباب، فأنا ذلك الباب.

وكان أول هذا القول فى ليلة الخميس ٢٣ مارس عام ١٨٤٤م الموافق ٥ جمادى الأول عام ١٢٦٠هـ. ويعتبر هذا اليوم لدى البابية عيد البعث، وتحرم فيه الأعمال[١]. ومن هذا اليوم لا يطلق عَلِىّ محمد عَلَى نفسه سوى الباب. ويقال أنه أول من ادعى أنه الباب. كان يقول أنه باب للوصول إلى الإمام المنتظر. وكان دائمًا يقول أنه المهدى المنتظر، وأن جسم المهدى اللطيف قد حل فى جسمه المادى، وأنه ظهر الآن فى هذا العالم ليمحو الظلم ويبدد الجور وينشر العدل[٢].

يقول المستشرق (جولد تسيهر): إن اسم الباب كان نتيجة لاعتقاده فى نفسه أنه أشرقت منه على العالم الرغبة المعصومة للإمام المستور، الذى يعد المصدر الأعلى لكل حقيقة وهداية[٣].

وقد ظل ميرزا على محمد محتفظًا بهذا اللقب حتى اعتقد أنه المهدى المنتظر، الذى يجب ظهوره فى نهاية الألف الأولى من السنين، بعد ظهور الإمام الثانى عشر (٢٦٠هـ - ١٢٦٠هـ) وهو إمام الشيعة الإثنى عشرية.

---

(١) انظر خفايا البهائية: ص٣٣. وكتاب: البابيون والبهائيون.
(٢) راجع المصدر السابق: ٣٣.
(٣) راجع المصدر السابق نفس الصفحة.

كان الباب يلقب نفسه بعدة ألقاب كان أتباعه يطلقونها عليه، فكان يطلق على نفسه سيد الذكر، وحضرة الأعلى، ومظهر الرب، وباب الله، ونقطة الأولى، وطلعة الأعلى، ونقطة البيان...

وكان للباب كاتم لأسراره وهو الملا حسين البشروئى، وكان يسمى وسط البابية باب الباب. والأخير من أصل فارسى من بلدة شيراز. وتبع الباب ثمانية عشر شخصًا كانوا دعاته، وكان يطلق عليهم حروف (حى) وكان هؤلاء وظيفتهم السير فى المدن الإيرانية للتبشير بدعوة الباب.

والباب على محمد كان لثقافته أثرها فى تفكيره، فلقد هجر التجارة مع خاله، وانصرف إلى دراسة الروحانيات والتبيينات وتسخير الجان والكواكب[1].

والباب -كما يقول الداعية البهائى محمد حسين أوراه- له الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها لأن الباب مروج للشريعة الإسلامية ومصلح لأحكامها. وتقول قرة العين[2] بأن للباب القائم مقام المشرع وحق التشريع... وعلى وجوب الشروع فعلًا فى إجراء بعض التغييرات كإفطار رمضان[3]، والباب -حسب قول البابيين- مدة دعوته ونبوته حوالى ٢٠٣١ سنة. ولا يجوز قبل هذه الفترة لأحد أن يدعى النبوة. ويقال أن هذه المدة قدر سنين حروف (المستغاث). وسار الباب فى قوله بأنه أيضًا أعظم من الرسول ﷺ وأن دعوته تفوق الدعوة الإسلامية.

وقال عن البيان -الكتاب الذى وضعه- بأنه يفوق القرآن، وأنه يتحدى أى شخص يأتى بباب من أبواب البيان العظيم، أو ما يسميه الباب: البيان العربى. وهو

---

(١) راجع خفايا البهائية: ص٣٤. ورسالة البهائية للأستاذ محب الدين الخطيب.
(٢) هى امرأة غائبة عند البابيين.
(٣) المصدر السابق: ص٣٥.

كتاب البابية المقدس. كما أن للباب كتابًا ثانيًا يطلق عليه: البيان الفارسى. وهذا الكتاب حرقه البهائيون بعد ظهور الأقداس، كتابهم المقدس[(١)].

والكعبة ليست بيت الله الحرام ولكنها فى بلدة تبريز بإيران، حيث يتجه إليها المصلون فى صلاتهم الصباحية. وطالب الباب بهدم قبر الرسول ﷺ وهدم الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة وهدم قبور الأولياء، ولا تدفع الزكاة والصدقة إلا لبابى، وجعل الباب عدد أيام السنة ٣٦١ يومًا.

وقد فسر الباب القرآن تفسيرًا باطنيا[(٢)]. يقول الباب مقلدًا القرآن: قل الله ليظهرنك على الأرض وما عليها بأمره، وكان الله على ذلك مقتدرًا، قل الله يغلبنك على الأرض وما عليها وكان الله على ذلك مرتفعًا، قل لو اجتمع من فى السموات والأرض وما بينهما أن يأتوا بمثل ذلك الإنسان -يعنى الباب- لن يستطعن ولن يقدرن ولو كانوا كل بكل مستعينين -قاتلهم الله أنى يؤفكون-.

ويقول الباب مدعيًا أحقيته فى الظهور كنبى فى قوله: قل إن الله ليظهرن من يظهره الله، مثل ما قد أظهر محمدًا رسول، من قبل، وأظهر عليًا قبل محمد من بعد، كيف يشاء بأمرى إنه كان على كل شىء قديرا قل لو تريدون كل الرسل فى وجه الله فانظرون ولو تريدن كل الكتب فى كتاب الله فانظرون، ولا تريدن كل خير من عند الله تدركون[(٣)].

إنها كلمات بلا معنى، وتقليد أجوف يشوه الحقيقة، فمن مطالعاتنا لكتب الباب نجد أنه مسخ آيات القرآن الحكيم كما مسخها ميرزا غلام أحمد -الأفاق القاديانى

---

(١) نفس المصدر: ص٣٦.
(٢) خفايا البهائية: ص٣٦ - ٣٧.
(٣) راجع نفس المصدر: ص٣٩.

اللعين- فكلاهما ينهلان من معين واحد وهدفهما واحد، وهو تشويه معالم الإسلام النيرة السامية. وقد كانت البابية أداة طيعة فى يد الاستعمار يوجهها كيف يشاءُ. وفى الصفحات التالية بسط لعلاقة البابية بالاستعمار والصهيونية وعقائدها، ونهايتها بعد إعدام الباب، ثم مجىء خليفته البهاء -الملعون- ودور البهائية فى محاربة الإسلام والمسلمين.

إعلان الدعوة البابية

ومن ذيول الباطنية طائفة فارسية تدعى البابية، وتنسب إلى الباب، وهو ميرزا على محمد الشيرازى المولود فى شيراز بإيران.

جهر الباب بدعوته فى ليلة الخامس من جمادى الأولى سنة ١٢٦٠هـ ١٨٤٤م. -كما ذكرت سابقًا- وراح دعاته وأنصاره يعلنون تأييدهم له، ويحرضون الناس على الإنضمام تحت لوائه[١].

ولما لم تكن هذه الحركة تتناسب والمركز الدينى لعلماء إيران، وكانت تعاليم الباب مخالفة لأصول الدين الإسلامى الحنيف، فقد قامت قيامة هؤلاء العلماء فى وجه هذه الدعوة، فنشرت الرسائل وألفت الكتب، وألقيت الخطب، وفى جميعها من التفنيد للمبادئ الجديدة ما فيها، واستحث رجال الدين رجال الدولة على وجوب استئصال شأفة هذه البذور التى بدأت تهدد الأمن فى إيران.

ونتج عن هذه المقاومة أن مال إليه الجهلة من العوام، فلما رأى الباب ذلك أعلن أنه هو المهدى المنتظر -بعد أن كانت دعوته أنه واسطة أو باب للوصول إلى الإمام المنتظر[٢]- وقال أن جسم المهدى اللطيف قد حل فى جسمه المادى، وأنه يظهر الآن

(١) راجع البابيون والبهائيون: ص٢١. وذيل الملل والنحل: ص٤٥.
(٢) المصدر السابق: ص٢٢ بتصرف.

ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا، بعد ما ملئت ظلمًا وجورًا[1].

ولم يكن فى العقائد البابية وفى تعاليمها السرية ما يمنع مثل هذا الادعاء، فالإمام مظهر من مظاهر الله فى أرضه، وواسطة تبليغ للناس لانكشاف الحقائق له، فإذا حصل من هو فى رتبته فى الكشف فلا مانع هناك أن ينال عين الرتبة.

وهذا ما دعا الباب أن يظهر بمظهر أرقى من الدعوة السابقة، فيدعى أنه أفضل من محمد ﷺ صاحب الدعوة الإسلامية العظمى، وأن تعاليمه التى جمعها فى بيانه أفضل من تعاليم نبى المسلمين فى قرآنه، وأن محمدًا إذا كان قد تحدى الناس بالإتيان بسور الفرقان المبين، فإن الباب يتحدى الجميع بالإتيان بباب من أبواب بيانه العظيم[2].

وقد صادفت دعوته بعض النجاح عند عدد قليل من أبناء وطنه شيراز، ولما شكا العلماء من ذلك، استدعى حاكم شيراز دعاة الباب وحقق معهم فلم يخفوا عنه شيئًا، فاستفتى العلماء فى شأنهم فأفتوا بكفرهم ووجوب قتلهم، ولكن الوالى اكتفى بنفيهم من شيراز، وأرسل بعض جنوده إلى أبى شهر فجاؤوا بالباب، وعقد مجلسًا من العلماء والفقهاء وأحضر الباب ليناظرهم، فانقسم العلماء فى أمره، فمنهم من أفتى بقتله، ومنهم من قال باختلال عقله، أما الوالى فقد أمر به فجرده من الملبس وأوسعوه ضربًا مبرحًا[3].

وقد هم الوالى بقتله فإذا بالباب ينكر أنه وكيل القائم الموعود، أو الواسطة بينه وبين المؤمنين، فتركه الوالى مع خاله ميرزا على الشيرازى على أن يحضره يوم

---

(١) نفس المصدر: ص٢٢ بتصرف.
(٢) نفس المصدر: ص٢٢ بتصرف.
(٣) المصدر السابق: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.

الجمعة إلى المسجد ليعلن توبته على رؤوس الأشهاد، فلما حل اليوم المذكور صعد الباب على المنبر وقال:

إن غضب الله على كل من يعتبرنى وكيلًا عن الإمام أو الباب إليه، وإن غضب الله على كل من ينسب إلى إنكار وحدانية الله، أو أنى أنكر نبوة محمد خاتم النبيين، أو رسالة أى رسول من رسل الله، أو وصاية على أمير المؤمنين، أو أى أحد من الأئمة الذين خلفوه[(١)].اهـ.

وبذلك نجا الباب من القتل، ولكنه ما لبث أن عاود دعوته فى سنة ١٨٤٥م، فكتب إلى دعاته فى العراق بأنه لا يستطيع التوجه إليهم كما وعدهم من قبل -كما طلب إلى أعوانه فى إيران أن يرحلوا إلى أصفهان لمواصلة الدعوة، فعاد الهياج إلى شيراز والتحقيق فى الموضوع[(٢)].

إلا أن انتشار الهيضة فى شيراز، وفتكها بالأهلين فتكًا ذريعًا بعد وفاة كثير من الموظفين والجند، أجلت النظر فى أمر الباب الذى استطاع أن يفر إلى أصفهان سنة ١٨٤٦م، وكان دعاته قد توغلوا فى هذه الولاية مثل توغلهم فى شيراز[(٣)].

وفى سنة ١٨٤٧م أمر الشاه باعتقال الباب فى قلعة (ماه كو) فى ولاية أذريبجان بالقرب من الحدود الروسية الإيرانية العثمانية، وكانت القلعة منيعة جدًا، إلا أن نقل الرجل إلى تلك القلعة بث الشجاعة والغيرة فى قلوب أتباعه، فصاروا يجاهرون بالدعوة بعد أن كانوا يبشرون بها فى الخفاء، وأخذ عدد أتباعه يزداد يومًا بعد يوم، فنقلته الحكومة إلى قلعة جهريق[(٤)].

---

(١) نفس المصدر: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.
(٢) نفس المصدر: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.
(٣) المصدر السابق: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.
(٤) بتصرف عن كتاب: "البابيون والبهائيون": ص٢٨-٢٩.

ثم عقد أقطاب البابية مؤتمرًا فى صحراء (بدشت) فى شهر رجب سنة ١٢٦٤هـ - ١٨٤٨م. حضره واحد وثمانون قطبًا، من بينهم باب الباب الملا حسين البشرؤئى، والحاج محمد على البافروشى الملقب بالقدوس، وقرة العين زارين تاج، التى دعيت بالطاهرة فى هذا المؤتمر، والميرزا على حسين الذى تسمى بالبهاء[١].

وقد تناول المجتمعون البحث فى هذين الأمرين الرئيسيين:

أولًا: إنقاذ الباب من اعتقاله ونقله إلى مكان آمن.

ثانيًا: وضع حد بين مبادئ البابية والدين الإسلامى.

ففيما يتعلق بالأمر الأول تقرر إرسال المبلغين إلى النواحى، ليحثوا الأحباب على زيارة الباب فى قلعة (ماه كو) مستصحبين معهم من يتسنى استصحابه من ذوى قرباهم وودهم، وأن يجعلوا مركز اجتماعهم (ماه كو) حتى إذا تم العدد الكافى طلبوا من الشاه الإفراج عن الباب، فإن أجابهم إلى طلبهم فبها ونعمت، وإلا هجموا على القلعة وأنقذوه بالقوة[٢].

وأما فيما يتعلق بالأمر الثانى فقد ظهر -بعد مذاكرات طويلة- أن معظم المؤتمرين يعتقدون بوجوب النسخ والتجديد، ويرون أن من قوانين الحكمة الإلهية فى التشريع الدينى أن يكون الظهور اللاحق أعظم مرتبة وأعم دائرة من سابقة، وأن يكون كل خلف أرقى وأكمل من سلفه، فعلى هذا القياس يكون الباب أعظم مقامًا وآثارًا من جميع الأنبياء الذين خلوا من قبله، وأثبتوا له الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها.

وذهب قليل من الحاضرين إلى عدم جواز التصرف فى الشريعة الإسلامية،

---

(١) راجع ذيل الملل والنحل: ص٤٧.

(٢) راجع البابيون والبهائيون: ص٢٩، وذيل الملل والنحل: ص٤٧.

مستندين إلى أن حضرة الباب ليس إلا مروجًا لها ومصلحًا لأحكامها[1].

ثم دعى الباب لمناظرة علماء إيران، فسأله أحد العلماء[2]: من تكون؟. وما هو ادعاؤك؟ وما هى الرسالة التى أتيت بها؟. فأجاب ثلاثًا:

إنى أنا الموعود، وأنا الذى دعوتموه منذ ألف سنة، وتقومون عند سماع اسمه، وكنتم تشتاقون للقائه عند مجيئه، وتدعون الله لتعجيل ساعة ظهوره، الحق أقول لكم: إن طاعتى واجبة على أهل الشرق والغرب[3]. فقال أحد العلماء: إن الدعوى التى تقدمها الآن دعوى خطيرة، فيجب أن تدعى بالدليل القاطع.

فأجاب الباب: إن أقوى دليل وأقنعه على صحة دعوى رسول الله هو كلامه، كما دلل على ذلك بقوله: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم...)[4]. ولقد آتانى الله هذا البرهان، ففى ظرف يومين وليلتين أقرر أنى أقدر أن أُظهر آيات توازى فى حكمها جميع القرآن[5]. وانتهت المناظرة بغير نتيجة.

ثم ازدادت الاضطرابات فى جميع أنحاء إيران، وانتشرت الفتن وساعدت الدسائس الأجنبية على امتدادها، فقرر الشاه ناصر الدين ضرورة القضاء على هذه الفتن، فأصدر أمره بإعدام الباب، ونفذ فيه حكم الإعدام فى شهر يوليو ١٨٤٩م، وقد تبرأ منه كاتب وحيه حسن التبريزى، وانهال على الباب بالشتائم والسباب، فأطلق سراحه[6].

---

(١) المرجع السابق: ص٣٠، وذيل الملل والنحل: ص٤٨.

(٢) راجع ذيل الملل والنحل: ص٤٨.

(٣) راجعل البابيون والبهائيون: ص٤٣، والمصدر السابق ص٤٨.

(٤) سورة العنكبوت: ٥١.

(٥) راجع البابيون والبهائيون: ص٤٣.

(٦) المصدر السابق: ص٤٦ - ٤٧. وقد نقل عن بعض الكتب أن الباب المقتول أوعز إلى =

وأتى الحراس بوتدين من الحديد، ودقوهما فى جدارين متقابلين، وربطوا فيهما الباب وصاحبه محمد على الزنوزى، وأطلقوا عليهما الرصاص، وربط الجند جثتيهما وألقوهما فى خندق، فبقيتا فيه حتى أكلتهما الطيور الجارحة[(١)]. وكان عمر الباب يوم إعدامه إحدى وثلاثين سنة قمرية وسبعة أشهر وسبعة وعشرين يومًا، من يوم ميلاده فى شيراز.

ولما قتل الباب زادت تعاليمه اشتهارًا وعظم الاضطهاد على أتباعه، وأظهر بعض رؤسائهم دعاوى مختلفة من قبيل النبوة والوصاية والولاية والمراتبة وأمثالها، فاختلفت آراؤهم وتشتت أهواؤهم وسقط كثير منهم فى الضلالات، وانهمك بعضهم فى المنكرات والموبقات.

وقد نقل بعض أتباع الباب جثته ودفنها على جبل الكرمل حيث يرقد عبد البهاء عباس[(٢)].

كتب الباب

من أهمها، البيان العربى. كتبه خلال إقامته فى قلعه (ماه كو) ورتبه على تسعة عشر واحدًا، وقسم كل واحد إلى تسعة عشر بابًا، فتكون أبوابه ٣٦١ بابًا. وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد حروف كلمة: كل شىء. وقد خص الواحد الأول بنفسه، والثمانية عشر الباقية لكبار أصحابه، لكل منهم واحدًا. ولما كان حاصل جميع أعداد حروف (حى) إذا استخرجت بحساب الجُمل ١٨، فقد سمى أصحابه المشار إليهم،

=

كاتب وحيه أن ينكره لينجو من الموت. ويقص على أصحابه ما لقيه أصحابه من عذاب مهين. نقلت هذه السطور عن كتاب البابيون والبهائيون: ص٤٧.

(١) راجع البابيون البهائيون: ص٤٦ - ٤٧.

(٢) راجع ذيل الملل والنحل: ص٤٩.

حروف حى، إلا أنه لم يكتب إلا أحد عشر واحدًا فقط، وترك إكمال البيان العربى لمن يأتى بعده. وله كتاب البيان الفارسى، وهو صورة من البيان العربى[1]:

الواحد الأول - بسم الله الأمنع الأقدس

إننى أنا الله لا إله إلا أنا، وأن ما دونى خلقى، قل أن يا خلقى إياى فاعبدون، قد خلقتك ورزقتك، وأَمَتُّكَ وأحييتك، وبعثتك، وجعلتك مظهر نفسى لتتلون من عندى آياتى، ولتدعون كل من خلقته إلى دينى، هذا صراط عز منيع. وخلقت كل شىء لك، وجعلتك من لدنا سلطانًا على العالمين، وأذنت لمن يدخل فى دينى بتوحيدى وأقرنته بذكرك، ثم ذكر من قد جعلته حروف الحى بإذنى.

وما قد نزل فى البيان من دينى، فإن هذا ما يدخل به الرضوان عبادى المخلصين، وإن الشمس آية من عندى ليشهدن فى كل ظهور مثل طلوعها كل عبادى المؤمنين. قد خلقتك بك، ثم كل شىء بقولك، أمرًا من لدنا إنا كنا قادرين. وجعلتك الأول والآخر والظاهر والباطن إنا كنا عالمين.

وما بعث على دين إلا إياك، وما نزل من كتاب إلا عليك، ذلك تقدير المهيمن المحبوب. وإنما البيان حجتنا ندخل من نشاء فى جنات قدس عظيم، ذلك ما يبدأ فى كل ظهور من الأمر، أمرًا من لدنا إنا كنا حاكمين. وما نبدأ من دين إلا لما يبدع من بعد، وعدًا علينا إنا كنا على كل قاهرين، وإنا قد جعلنا أبواب ذلك الدين عدد كل شىء مثل عدد الحول، لكل يوم بابًا ليدخلن كل شىء فى جنة الأعلى، وليكونن فى كل عدد واحد ذكر حرف من حروف الأولى لله رب السموات والأرض، رب كل شىء، رب ما يُرى وما لا يُرى، رب العالمين. وإنا فرضنا فى باب الأول ما قد شهد الله

---

(١) المصدر السابق نفسه وكتاب البابيون والبهائيون: ص٥٢. لمؤلفه السيد عبد الرازق الحسينى.

على نفسه على أنه لا إله إلا هو رب كل شيء، وإن ما دونه خلق له عابدون، وأن ذات حروف السبع باب الله لمن فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كل بآيات الله من عنده يهتدون، ثم كل باب ذكر اسم حق من لدنا، وكل أحد من حروف الحى، بما رجعوا إلى الحياة الأولى، محمد رسول الله والذين هم شهداء من عند الله، ثم أبواب الهدى وخلقوا فى النشأة الأخرى بما وعد فى الفرقان إلى أن يظهر عدد الواحد فى الواحد الأول، فضلًا من لدنا إنا كنا فاضلين[١].

الحركة البهائية - "خليفة البابية"

بعد انتهاء دور البابية ظهرت البهائية، وكان مؤسسها الميرزا حسين على بن الميرزا عباس النورى المازندرانى الذى تسمى بالبهاء[٢].

حياة البهاء

ولد سنة ١٢٣٣هـ - ١٢ تشرين ثانى ١٨١٧م[٣]. وكان والده مأمورًا للمالية، وخلف سبعة أولاد.

وقد تربى الميرزا حسين مع إخوته فى طهران، وكان يعاشر الصوفية ويقرأ كتبهم حيث ظهرت بوادرها فى كتاباته وأفكاره فيما بعد.

وقد حضر مؤتمر بدشت مع غانية البابيين -قرة العين- وكان له تأثير عظيم عليها، وقد دفن فى عكا سنة ١٣٠٩هجرية - ١٨٩٢ ميلادية، وأوصى بعده بالأمر لولده الذى سماه بـ (عبد البهاء)[٤].

ثقافته

---

(١) نفس المصدر والبابيون والبهائيون: ص٥٠ - ٥١.
(٢) راجع كتاب خفايا البهائية: ص١١١.
(٣) راجع كتاب البابيون والبهائيون: ص٥٣، ٥٨، ٥٩. وكتاب البابية والبهائية فى الميزان.
(٤) المصدر السابق.

ثقافته خليط من البرهمية والبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والمسيحية واليهودية والإسلام والفرق الباطنية وغيرها، وهناك رافد آخر أثر فى عقله وثقافته وأسلوبه وهو المذاهب الصوفية، وخاصة ما يتصل بوحدة الوجود والحلول والفناء[١].

علاقته بالصوفية

لقد خالط الصوفية منذ صغره، وتتلمذ على أيديهم واستوعب رموزهم ومصطلحاتهم، ولم يفارقه هذا الاتجاه حتى بعد دخول البابية ونفيه إلى العراق، فقد كان وهو فى نواحى السليمانية يحضر إلى محل هناك يسمى (خانقاه) الذى كان مجمع العلماء والمشايخ والصوفية.

إن تأثير الكتابات الصوفية قد بلغ فى أسلوب الميرزا حسين مبلغًا عظيمًا، حتى لا تكاد تقرأ صفحات من كتاباته إلا وتحسب نفسك أمام كتاب من كتب متطرفى الصوفية فى معناه ومبناه[٢]. ونورد هنا طائفة من أقواله، وهى تريك أنه على نهج أقوال الصوفية تمامًا:

يا أيها الطائر فى هواء المحبة والوداد، والناظر إلى أنوار وجه ربك مالك الإيجاد، قد أماتتنى ظلمة البعد. أين نور قربك يا مقصود العارفين، وأهلكتنى سطوة الهجر. أين ضياء وصالك يا محبوب المخلصين.

وفى كتبه تتردد تعابير الصوفية منها: محبوب أفئدة العارفين، تجليات أنوار شمس الحقيقة، فيوضات ... مظهر إلاهى ... سبحات الأنام وغيرها.

ومن أساليب البهائيين -يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: أنا لم أفهم من عباس

(١) راجع البابيون والبهائيون: ص٥٨ - ٥٩.
(٢) راجع البابية والبهائية فى الميزان: ص٢٠.

-عبد البهاء- أفندى شيئًا، وإنما صرح لى أن قيامهم لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه من مذهب أهل السنة[١].

لقد كان يحضر معه الجمعة، رغم أن والده البهاء أبطل صلاة الجماعة. لقد خطب عباس مرة فى لندن فقال: الناس قد نسوا تعاليم بنى إسرائيل وتعاليم المسيح وغيره من معلمى الأديان فجددها البهاء.

ونلاحظ أن هذا الحاقد الملعون لم يذكر اسم الرسول الأعظم ﷺ ترضية للصليبيين، وتزلفًا للصهيونية أعداء الإسلام والدين[٢].

وكان إذا خاطب جمعًا مسيحيًا قال: المسيح هو الحقيقة الإلاهية، والكلمة الجامعة السماوية، التى لا أول لها ولا آخر، ولها ظهور وإشراق وطلوع وغروب فى كل دور من الأدوار[٣].

هذه أساليبهم ودعواتهم المنحرفة، وبدعهم وخداعهم ومكرهم كالثعالب المتلونة. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

البهائية والصهيونية

إن اليهود حاولوا بكل ما لديهم من وسائل تثبيت مركز الميرزا حسين البهاء، وبلغ الأمر بهم أن استخلصوا من دفائن العهد القديم وتنبؤات أسفاره ما ينبئ بظهور بهاء الله عباس. وزعموا أن كل آية تشيد بمجد يهودا إنما تعنى ظهور مخلص العالم فى شخص بهاء الله. كما نسبوا جزءًا كبيرًا من الإشارات والتلميحات -التى فى الأسفار- إلى جبل الكرمل، الذى تجلى فيه نور الله وأضاء الكون، وذلك فى نهاية

(١) انظر خفايا الطائفة البهائية: ص١٢٢.

(٢) لقد استطاع البهائيون أن يتغلغلوا فى إيران ويتولوا المراكز الحساسة العليا.

(٣) راجع البابية والبهائية فى الميزان. والمصدر السابق "بتصرف".

القرن التاسع عشر، فضلًا عن أنهم لم ينسوا أن يستخرجوا مما يحتويه سفر دانيال من الرؤى ما ينبئ بقيام حركة الباب وأن يلتمسوا تأويل ما يدل على حدوثها[١].

البهائية والانجليز

إن تاريخ الإنجليز فى إيران لم يكن بأشرف من تاريخهم فى الهند، فقد حاولوا التغلغل بين الصفوف، وإيقاد نار العداوة بين المسلمين، ومساعدة الحركات الهدامة التى قامت لتقويض دعائم الإسلام، ومن ذلك مساعدتهم الفعلية للحركة البهائية، وتشجيعهم لزعمائها والتدخل السافر لإنقاذهم من القصاص العادل[٢]، وتهيئة الظروف اللازمة لإنجاح دعوتهم.

لقد رأى الإنجليز أن أملهم الأخير يكمن فى مناصرتهم للميرزا حسين البهاء، وتهيئة الظروف اللازمة لإنجاح دعوته -بعد إخفاق الحركة البابية فى السيطرة على إيران- ولذلك فإنهم لجأوا إلى كل وسيلة لإنقاذه من الإعدام، متعاونين بذلك مع الروس واليهودية العالمية، لأنهم كانوا يرون فيه الشخص الذى بوسعه أن يقدم إليهم أجل الخدمات.

إن ولاء عبد البهاء عباس -زعيم البهائية- للانجليز يتأكد لكل إنسان عندما يقرأ الخطب الرنانة التى ألقاها فى نوادى لندن وكنائسها ومجامعها، ويقول مخاطبًا الإنجليز فى إحدى خطبه: إن مغناطيس حبكم هو الذى جذبنى إلى هذه المملكة. ويقول: أصبحت المدنية الغربية متقدمة عن الشرقية، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين[٣].

---

(١) خفايا البهائية: ص١١٥ - ١١٩. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٣.

(٢) انظر خفايا البهائية. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

عقائد البهائية

تقوم الديانة البهائية على أساس الاعتقاد بوجود إله واحد أزلى، نظير ما يعتقد به المسلمون، إلا أن البابيين يستمدون صفات الخالق من أساس العقيدة الباطنية، التى ترى أن لكل شىء ظاهرًا وباطنًا، وأن هذا الوجود مظهر من مظاهر الله، وأن الله هو النقطة الحقيقية، وكل ما فى الوجود مظهر له.

والوجود فى نظر المسلمين صادر عن الله وفعل مخلوق له، وأما عند البابية والباطنية فإنه صفة تدل على الحياة والتأثير، ومن هذه الناحية الاعتقادية يبنون كل مظاهر العمل والعبادة، على أنها أمور ظاهرية تعبر عن أمر باطنى.

أما عقيدتهم فى النبى والإمام فمستمدة عن العقيدة بالخالق، فالنبى أو الإمام فى حياته مظهر من مظاهر الله فى الأرض، وارتقاؤه إلى هذه المنزلة إنما هو باستكماله صفات أخلاقية جعلته يعبر عن الأمر الواقعى ويصل إلى الحقيقة دون غيره، فمن استكمل الصفات التى استكملها النبى أو الإمام فهو أحق وأهل للتظاهر بمظهر الدعوة والتبشير، لهذا صح للباب أن يكون مظهرًا من مظاهر الله فى الأرض بعد النبى[1].

أما عبادات البهائيين ومعاملتهم فقد وردت فى كتاب البيان، الذى نسخه خليفة الباب - وهو على حسين الملقب بالبهاء- بكتابه الأقدس:

١. الصوم:

عند البهائيين هو الشهر التاسع عشر، الذى يلى أيام الضيافة. والسنة البهائية تسعة عشر شهرًا كل شهر تسعة عشر يومًا، ومجموع ذلك ٣٦١ يومًا، وبقية أيام السنة عندهم تسمى أيام الهاء، وهم يقضون هذه الأيام فى تبادل الزيارات ومواساة الفقراء

---

(١) انظر البابيون والبهائيون: ص٧٢ - ٧٣. وذيل الملل والنحل: ص٥١.

والضعفاء والأيتام وأبناء السبيل، ثم يصومون بعد ذلك شهرًا كاملًا، أى تسعة عشر يومًا، يكون آخرها عيد النيروز، أى: ٢١ آذار "مارس".

وفى الصيام يمتنعون عن الطعام والشراب من الشروق إلى الغروب، ويعفى من الصيام من كان دون البلوغ، أو كان على سفر، أو الضعيف نتيجة المرض أو الهرم، ويدخل فى ذلك الحامل والمرضع والحائض والنفساء، ولا يجب على هؤلاء القضاء.

كذلك يقول عبد البهاء فى دعوته الماكرة -داعيًا للتجمع الصهيونى فى فلسطين ويدافع عنهم فى خبث ظاهر، ويذكر جملة أباطيل عند دفاعه عن اليهودية- فيقول: وقد اعتبر المسيحيون والمسلمون أن اليهود شياطين وأنهم أعداء، ولذلك لعنوهم واضطهدوهم وقتلوا الكثيرين منهم، وأحرقوا منازلهم ونهبوا أموالهم وأسروا أطفالهم[(١)].

ولإلقاء المزيد من الأضواء على صلة البهائية الضالة مع الصهيونية الماكرة، أسوق فيما يلى طائفة من الوثائق التى تكشف تآمرها على الإسلام والمسلمين.

١. نشرت مجلة الأخبار الأمرية التابعة للمحفل الروحانى الوطنى للبهائيين - العدد الخامس الصادر فى أيلول عام ١٩٥١- حديثًا لرئيس القسم العالى للبهائيين، مع وزير الأديان الصهيونى يقول فيه: إن أراضى الدولة الإسرائيلية -فى نظر البهائيين واليهود والمسيحيين والمسلمين- أراض مقدسة. وقد كتب حضرة عبد البهاء قبل أكثر من خمسين عامًا، أنه فى النهاية ستكون فلسطين موطنا لليهود، وهذا كلام طبع فى حينه وانتشر[(٢)].

---

(١) خفايا البهائية: ص١١٥ - ١١٩. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٣.

(٢) انظر أجنحة المكر الثلاثة: ص٢١٢ - ٢١٣، وحقيقة البابية: ص٢٠.

٢. وجاء فى كتاب التوقيعات المباركة، بالمجلد الثانى، لمؤلفه شوقى أفندى- وهو الزعيم الثالث للفرقة البهائية - فى الصفحة ٢٩٠ ما يلى:

لقد تحقق الوعد الإلاهى لأبناء الخليل ووارث الكليم، وقد استقرت الدولة الإسرائيلية فى الأراضى المقدسة، وأصبحت العلاقات بينها وبين المركز العالمى للجامعة البهائية وطيدة، وقد أقرت واعترفت بهذه العقيدة[١].

٣. نشرت مجلة الأخبار الأمرية بالعدد العاشر فى عام ١٩٦١م. ما قالته روجيه ماكسول زوجة شوقى أفندى وزعيمة البهائيين حاليًا، فى مقابلة صحفية لها مع (مزدهيفت) وهو: فإن كان من المقرر لنا الاختيار، فمن الجدير أن يكون هذا الدين الجديد فى أحدث دولة، وفيها يترعرع، وإن لنا مع إسرائيل روابط ووحدة مصير، وفى الواقع يجب أن أقول: إن مستقبلنا ومستقبل إسرائيل يرتبطان ببعضهما كحلقتين فى سلسلة واحدة[٢].

٤. إن مركز تشكيلات البهائيين الرئيسى -وسمى بيت العدل- يوجد حاليًا فى مدينة بفلسطين المحتلة، وتشرف عليه هيئة مكونة من تسعة أشخاص، بينهم أمريكيون وأوروبيون. والرئاسة الروحية فيه لتلك المرأة الأمريكية الأصل -روجيه ماكسول- وكل المحافل الأخرى التى تقام فى العالم تعتبر فرعًا للمركز الرئيسى فى فلسطين المحتلة[٣].

٥. ثبت لدى مكتب المقاطعة العربية لإسرائيل أن البهائية تتعامل مع الصهيونية وتتآزر معها، لذلك أصدر فى شهر صفر عام ١٣٩٥هـ. الموافق لآذار عام ١٩٧٥م.

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٤.
(٣) نفس المصدر.

قرارًا باعتبار البهائية من الحركات الهدامة، وبوضعها في القائمة السوداء ومقاطعتها، وحظر أى نشاط لها في البلاد العربية، لثبوت تعاملها مع العدو الإسرائيلى، وافتضاح اتصالاتها المشبوهة بالصهيونية وأجهزتها السرية والعلنية[1].

إن هذه النصوص الدامغة هى الوثيقة التاريخية التى تدين البهائية فى كل زمان ومكان بعمالتهم للصهيونية العالمية، وبأنهم الأعداء الحقيقيون للبشرية، والتى زعموا أنهم ما جاؤوا إلا لإسعادها ودفع الظلم عنها، وهذا زور وبهتان. ألا ساء ما يصنعون.

٢. الصلاة:

فرضت الصلاة على كل بهائى بالغ، وهم يؤدونها على انفراد بتسع ركعات ثلاثة أوقات، حين الزوال، وفى البكور، والآصال، متوجهين شطر مدينة عكا حيث يرقد بهاء الله، على أن يسبق الصلاة وضوء وإذا انعدم الماء يذكر الإنسان عبارة: بسم الله لا طهر إلا طهرك: خمس مرات، ثم يشرع فى الصلاة.

ويعفى من الصلاة من كان فى مثل الحالات التى سبق ذكرها فى الإعفاء من الصيام. وليس عندهم صلاة جماعة إلا فى صلاة الميت ويتلون فى كل صلاة أدعية خاصة[2].

٣. الحج:

أما حجهم فإلى الدار التى ولد فيها مؤسس ديانتهم -على محمد- بشيراز، أو إلى الدار التى نزل بها بهاء الله حسين خلال إقامته بالعراق، وليس هناك وقت معين

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ذيل الملل والنحل: ص٥٢. وكتاب البابيون والبهائيون: ص٧٥ وخفايا الطائفة البهائية: ص١٢٨ - ١٣٠.

للحج[١].

٤. الزكاة:

وقد سئل عبد البهاء عباس عن حكم الزكاة فى ديانته فأجاب: الزكاة فى البهائية كالزكاة فى الإسلام، وهناك تعاليم دينية أخرى منها:

١. تحريم التسول والاستجداء ومنع العطاء للمتسولين مطلقًا.

٢. وجوب العمل على الجميع، فلا يأكل إنسان من ثمار غيره.

٣. الإصلاح الاقتصادى بين الفلاحين فى القرى.

٤. تحريم المخدرات[٢].

٥. الزواج:

الزواج بواحدة فقط، وفى كتابهم الأقدس التصريح بزوجتين إذا عدل بينهم، وفسر عبد البهاء عباس هذا النص بقوله: إن الزواج لا يكون بأكثر من واحدة، لأن الزواج باثنتين مقرون بشرط لا يمكن تحقيقة وهو العدالة.

أما الطلاق فمكروه. وهم يزوجون البهائى من غير البهائية، والبهائية من غير البهائى بشرط تحرير عقد بهائى إلى جانب العقد غير البهائى[٣].

٦. المواريث:

فى الشريعة البهائية يتساوى الولد مع البنت فى الميراث وفى كافة الحقوق، وسن الرشد لهما واحد وهو الخامسة عشرة، وغير البهائى لا يرث البهائى.

- أسماء الشهور والأيام عند البهائيين:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(١) شهر البهاء (٢) شهر الجلال (٣) شهر الجمال (٤) شهر العظمة (٥) شهر النور (٦) شهر الرحمة (٧) شهر الكلمات (٨) شهر الكمال (٩) شهر الأسماء (١٠) شهر العزة (١١) شهر المشيئة (١٢) شهر العلم (١٣) شهر القدرة (١٤) شهر الفول (١٥) شهر المسائل (١٦) شهر الشرف (١٧) شهر السلطان (١٨) شهر الملك (١٩) شهر العلاء.

- أما أسماء الأيام فهى:

يوم الجلال - يوم السبت

يوم الجمال - يوم الأحد

يوم الكمال - يوم الإثنين

يوم الفضال - يوم الثلاثاء

يوم العدل - يوم الأربعاء

يوم الاستجلال - يوم الخميس

يوم الاستقلال - يوم الجمعة

- أعيادهم:

١. عيد النيروز فى ٢١ آذار - مارس.

٢. عيد الرضوان: يبدأ من ٢١ نيسان - ابريل - إلى ٢ أيار - مايو- وهو عيد إعلان بهاء الدين دعوته فى حديقة نجيب باشا بالعراق التى سماها حديقة الرضوان، وكان نجيب باشا والى بغداد قد حجزه فى تلك الحديقة سنة ١٨٦٣م، فأقام فيها ١٢ يومًا أعلن خلالها دعوته.

٣. عيد ميلاد مؤسس الديانة: وهو أول المحرم من كل عام.

٤. عيد ميلاد البهاء حسين على: وهو فى اليوم الثانى من المحرم.

٥. عيد إعلان دعوة الباب على محمد: وهو فى اليوم الخامس من جمادى الأولى[١].

وبما أن الديانة البهائية لم تجد رواجًا بين المسلمين، لذلك اتجه أتباعها إلى نشرها فى أوربا وأمريكا، وقد زار عبد البهاء من البلاد الأوربية انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا، وتجول فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد صادفت دعوته بعض النجاح بين سكان أمريكا الشمالية.

وبعد وفاة الميرزا حسين على -الملقب بالبهاء- انقسم البهائيون إلى فرق هى:

(١) البهائية. (٢) الأزلية: نسبة إلى صبح أزل أحد أنصار الباب. (٣) البابية الخلص، الذين لم يرضخوا لأوامر من قام بعد الباب على محمد. (٤) البابية البهائية العباسية: أتباع عبد البهاء عباس، وهو ابن حسين على الملقب بالبهاء، وقد أطلق على نفسه عبد البهاء، ولد سنة ١٨٤٤م ومات سنة ١٩٢١م. (٥) الناقضون: وهم أتباع محمد على أخى العباس، ويطلق المؤرخون اسم المارقين على أتباع الميرزا عباس واسم الناقضين على اتباع محمد على.

وكل فريق يؤيد دعواه ويكفر من عداه، فاعتزلوا المعاشرة وحرموا معاملة بعضهم لبعض، وكانت عداوة كل منهم للآخر أشد من عداوتهم جميعًا لمن طعن فى معتقداتهم وقال ببطلان دعواهم[٢].

وعلى الجملة فبدعة البهائية المشركة، وضلالة البابية الخبيثة التى سبقتها -وهى حجر الأساس لوجودها- -هاتان الديانتان الاستعماريتان اللتان ارتبطتا عضويًا مع

---

(١) انظر خفايا البهائية: ص١٢٤ - ١٣٦. والبابيون والبهائيون: ص٨٤ - ٨٩. وذيل الملل والنحل: ص٥٣ - ٥٤ بتصرف.

(٢) انظر ذيل الملل والنحل ص٥٥ - ٥٦.وخفايا الطائفة البهائية: ص١١١ - ١١٢.

الاستعمار والصهيونية العالمية وذلك للكيد للإسلام وطعنه فى صميمه وتقويض أركانه[1].

تكفير البهائية

ونظرًا لأخطار البهائية ونتائجها المدمرة على الدين الإسلامى وأتباعه، ولئلا ينجرف الناس فى تيارها المعادى، وكشفًا لضلالها وفساد دعاتها وكفرهم، فقد صدرت عدة فتاوى وأحكام قضائية بتكفير هذه الطائفة ومبتدعيها.

فقد أفتى شيخ الأزهر فضيلة الشيخ سليم البشرى رَحِمَهُ اللَّهُ علامة زمانه، عندما سئل عن رأيه فى زعيمهم -الميرزا عباس- فأجاب بقوله: إنه كافر[2]...وقد صدرت هذه الفتوى فى جريدة مصر الفتاة فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٢٨هـ. عدد ٦٩٢.

كما صدرت فتوى ثانية فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٩م، وكانت لجنة الفتوى برئاسة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم رَحِمَهُ اللَّهُ وإلى القارئ نص الفتوى: إن البهائية ليست من فرق المسلمين، إذ أن مذهبهم يناقض أصول الدين وعقائده، التى لا يكون المرء مسلمًا إلا بالإيمان بها جميعًا، بل هو مذهب مخالف سائر الملل السماوية، ولا يجوز للمسلمة أن تتزوج بواحد من هذه الفرقة، وزواج المسلمة به باطل، بل إن من اعتنق مذهبهم من بعد ما كان مسلمًا صار مرتدًا عن دين الإسلام، ولا يجوز زواجه مطلقًا، ولو ببهائية مثله[3].أهـ.

---

(١) يقول محمد الحجازى، صاحب جريدة اليقظة الإيرانية، بأن البهائية مشركون وليسوا بمسلمين، وقد حكمنا فى إيران بنجاستهم ... ومقابر البهائيين مع مقابر اليهود فى مكان واحد. خفايا البهائية: ص١١٨٦.

(٢) انظر كتابنا مصرع الشرك والخرافة: ص٣١٣. وكتاب البابية والبهائية فى الميزان: ص٢٦.

(٣) البهائية فى نظر الشريعة والقانون: ص١٩، للمستشار على على منصور. وخفايا الطائفة =

فعلى المسلمين أن يحذروا أعداءهم وأتباع هذه النحلة المسخ وأوهامها وخرافاتها، كما يجب على حكام المسلمين وعلمائهم كشف أعداء الأمة وكافة الدسائس وإحباطها، والتحذير من الوقوع فى شراك الأعداء ومكائدهم المستمرة.

وبعد: فهذه صورة جامعة وجيزة للبابية وخليفتها البهائية، وما تقدمهما من مساعى الكيد للدين الإسلامى ابتغاء تغييره وتحويل أهله عنه، ومقتطفات من نصوص القوم مأخوذة من كتبهم وغيرها من المراجع الموثوقة، وأظن أن فيما أوردته ما يكفى للحكم على هاتين الطائفتين الضالتين بما تستحقانه والذين سعوا لهما. والله حسيبهم فى الدنيا والآخرة... وأخيرًا خير ما يقال قوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم).

الحركة القاديانية

تنتسب الطائفة القاديانية إلى مدينة قاديان بالهند، وأحيانًا يطلق عليهم اسم الأحمدية، لانتسابهم فى مذهبهم إلى رجل اسمه غلام أحمد المولود بمدينة قاديان بالهند سنة ١٨٣٥م. والذى انكب منذ صغره على دراسة القرآن والحديث والتعبد والتفكير فى أمور الدين.

وقد ادعى غلام أحمد أنه المسيح المعهود والمهدى الموعود فى وقت واحد، ويستند أتباعه فى الإيمان به إلى حديث: (أن المهدى يظهر..... وأن المسيح يُصلى خلفه ...)[١] مع قول النبى ﷺ (كيف بكم وبابن مريم فيكم؟!.)[١].

=

البهائية: ص١٨٦.

(١) أخرجه أبو نعيم فى "أخبار المهدى" والحارث ابن أبى أسامة فى "مسنده" كما فى "العرف الوردى" للسيوطى (٢/ ١٣٤ الحادى)، وقال ابن القيم: هذا إسناد جيد (المنار المنيف ص ١٤٧، ١٤٨).

ويقولون أن غلام أحمد وإن كان هنديًا إلا أنه إيرانى الأصل، هاجر آباؤه إلى الهند منذ مئات السنين[٢]. وإيران هى الموطن الصحيح لسلمان الفارسى وقد جاء فيما يروى: (سلمان منا أهل البيت)[٣].

وفى سنة ١٨٩٦م وجه غلام أحمد رسالة إلى علماء الهند وغيرها من البلاد الإسلامية جاء فيها[٤]:

إن الله قد بعثنى مجددًا على رأس هذه المائة، واختصنى عبدًا لمصالح العامة، وأعطانى علومًا ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمة. ووهب لى من لدنه علمًا حيًا لإتمام الحجة على الكفرة الفجرة، وجعلنى من المكلمين الملهمين، وأكمل على نعمه، وأتم تفضله، وسمانى المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة، وقدر بينى وبينه تشابه الفطرة كالجوهرين من المادة الواحدة، ووهب لى علومًا مقدسة نقية، ومعارف صافية جلية، وعلمنى ما لم يعلم غيرى من المعاصرين، وصب فى قلبى ما لم يحيطوا به علمًا، ونورًا لم يمسه أحد منهم، وجعلنى من المنعمين.

ومن أجل آلائه أنه استودعنى سره الذى يكشف للأولياء، والروح الذى لا ينفخ إلا فى أهل الإصطفاء، وأعطانى كل ما يعطى لأهل الموالاة والولاء، وصافانى وولانى وشرح صدرى، وأتم بدرى وأخبرنى بأكثر ما هو مزمع عليه فى سابق علمه،

=

(١) أخرجه البخارى (٣٤٤٩) فى أحاديث الأنبياء: باب نزول عيسى بن مريم. ومسلم فى الإيمان: باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥) (٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) انظر القاديانى والقاديانية: ص٦. وذيل الملل والنحل ص٦١.

(٣) أخرجه الحاكم (ح ٦٥٣٩، ٦٥٤١)، وسكت عليه الحاكم وحذفه الذهبى لشدة ضعفه وانظر السير (٣/ ٣٤١)، وقال الألبانى: ضعيف جدًا (ضعيف الجامع ٣٢٧٢).

(٤) مكتوب أحمد، طبع لجنة التحرير الجديد سنة ١٩٥٩م.

وصبغني حبه، وهداني طرق إسلامه وسلمه، وأخرجني من المحجوبين.

ومن آلائه أنه خاطبني وقال: أنت وجيه في حضرتي واخترتك لنفسي وقال: أنت مني بمنزلة لا يعلمها الخلق. وقال: أنت مني بمنزلة توحيدي وتفريدي. وقال: يا أحمد أنت مرادي ومعي، يحمدك الله من عرشه. وقال: أنت عيسى الذي لا يضاع وقته، كمثلك در لا يضاع جرى الله في حلل الأنبياء. وقال: قل إني أُمرت وأنا أول المؤمنين. وقال: اصنع الفلك بأعيننا ووحينا. إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم. وقال: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

أيها الكرام: إن الفتن اشتدت، والأرض فسدت، والمفاسد كثرت، وعلا في الأرض حزب المتنصرين، وقيل لهم مرارًا لا تجعلوا ميتًا إلاهًا غفارًا، واتقوا الله محاسبًا قهارًا، فما خافوا الله، وأصروا على كفرهم متشددين، هناك اقتضت أحديته وقضت غيرته أن يكسر صليبهم ويبطل أكاذيبهم، ويوهن كيد الخائنين.

فكلمني وناداني وقال: إني مرسلك إلى قوم مفسدين، إني جاعلك للناس إمامًا، وإني مستخلفك إكرامًا، كما جرت سنتي في الأولين وخاطبني وقال: إنك أنت المسيح ابن مريم، وأرسلت ليتم ما وعد من ربك الأكرم، إن وعده كان مفعولًا وهو أصدق الصادقين.

وأخبرني أن عيسى نبي الله قد مات، ورفع من هذه الدنيا ولقي الأموات، وما كان من الراجعين، بل قضى عليه الموت وأمسكه، ووافاه الأجل وأدركه، فما كان له أن ينزل إلا بروزًا كالسابقين. وقال سبحانه: إنك أنت هو في حلل البروز، وهذا هو الوعد الحق الذي كان كالسر المرموز، فاصدع بما تؤمر، ولا تخف ألسنة الجاهلين، وكذلك جرت سنة الله في المنقذين.

فلما أخبرت عن هذا قومي قامت علماؤهم للعني ولومي، وكفروني قبل أن

يحيطوا بقولى ويزنوا حولى وقالوا: دجال ومن المرتدين ... وقال كبيرهم الذى أفتى وأغرى: إن هؤلاء كفرة فجرة، فلا يسلم عليهم أحد، ولا يتبع جنازتهم، ولا يدفنون فى مقابر المسلمين.اهـ.

ثم عرض غلام أحمد بالعلماء فقال: وهم يقرؤون كتاب الله ثم ينسون ما قرؤوا، ولا يتدبرون كلمات الله بل ينبذونها وراء ظهورهم، وما كانوا ممعنين، والعجب كل العجب أنهم يقولون إنا آمنا بآيات الله ثم لا يؤمنون. ويقولون إننا نتبع صحف الله ثم لا يتبعون، ألا يقرؤون فى الكتاب الأعلى ما قاله الله فى عيسى؟. إذ قال: (يا عيسى إنى متوفيك). وقال: (فلما توفيتنى)... وما قال إنى محييك، فمن أين علم حياة المسيح بعد موته الصحيح؟!. ويؤمنون بأنه لقى الأموات ثم يقولون ما مات. تلك كلم متهافتة متناقضة، لا ينطق بها إلا الذى ضلت حواسه وغرب عقله وقياسه.

أليس الله بقادر على أن يجتبى مثلى بعنايته؟ ويعطى دراية من درايته؟ ولله أسرار فى أنبائه وحكم تحت قضائه.

يا عباد الله. اسمعوا ثم فكروا، ثم أقبلوا إن كنتم طالبين، قد مات نبى الله عيسى وأخبرنا عن موته خير الخلق وسيد الورى، وما جاء لفظ رجوع المسيح فى نبإ خير البرية، بل لفظًا النزول إلى هذه الأمة، وشتان بين الرجوع والنزول عند أهل المعرفة.

واعلموا أن قرب الله ليس إرثًا مقبوضًا لأحد، بل تداول هذه الأيام من أمر رب صمد يلقى الروح على من يشاءُ، وهكذا تقتضى لعظمة الكبرياء.

ثم يستطرد فى رسالته إلى أن يقول: وتعلمون أن فتن النصارى وغلوهم فى الخزعبلات كانت تقتضى حكمًا من رب السموات، فالله الذى نجى المسيح من صليب اليهود ورفعه إلى المقام الأعلى، أراد أن ينجيه من صليب النصارى مرة أخرى، فأرسلنى حكمًا عدلًا لهذه الخطة، وسمانى باسمه، لأكسر الصليب وأتم ما

بقى منه من فرائض النصيحة. ومن آيات الله أنه أخفى فى عدد إسمى عدد زمانى، وإن شئت ففكر فى غلام أحمد قاديانى، فذلك خاتم رب العالمين. وفيه إشارة إلى أنه جعلنى لهذه الملة مجدد الدين.

ويختتم رسالته المشؤومة بقوله: اعلموا أن فضل الله معى، وأن روح الله ينطق فى نفسى فلا يعلم سرى ودخيلة أمرى إلا ربى، هو الذى نزل على وجعلنى من المنورين[1].اهـ.

لقد ادعى غلام أحمد بأنه المسيح الموعود، بمعنى أنه جاء بقوة وروح عيسى علي السلام. وادعى أيضًا أنه هو النبى الذى تنبأت بظهوره فى آخر الزمان أغلب الديانات العظيمة. وأكد أن القرآن هو آخر كتاب تشريعى موحى به من الله تعالى، وأن محمدًا ﷺ آخر الأنبياء المشرعين، وأنه خاتم النبيين، أى أنه لا يمكن لأى نبى غير مشرع ان يظهر بعده إلا باتباعه اتباعًا كاملًا، والتشبه به تشبهًا تامًا. وقد ادعى أنه نبى، وأن مهمته هى إقامة العلاقة بين الإنسان وخالقه، كما أنه جاء أيضًا ليفسر القرآن وتعاليم الإسلام، فى ضوء الوحى الإلهى، بما يطابق العصر الحاضر، وليكون هو نفسه مثالًا يبين الحياة الإسلامية الكاملة.

وللقاديانية رئيس دينى يلقبونه أمير المؤمنين، وخليفة المسيح الموعود، والمهدى المعضود. وهكذا انقلبت الحقائق على أيدى دعاة الباطل -من أمثال غلام أحمد وخلفائه الأباليس- فهم بحق أمراء الإلحاد ودعاة الكفر والفساد.

بعض تحريفات القاديانيين وتأويلاتهم

(١) هذه نصوص رسالة غلام أحمد التى بعث بها إلى علماء الهند وغيرها من بلاد الإسلام. وهو مؤسس نحلة القاديانية المارقة. وفيها يظهر كفره وردته وضلاله، وقد سجلت معظم نصوصها، ولمن أراد التوسع فعليه بكتبهم الواهية الملحدة. وبذيل الملل والنحل. والقاديانى والقاديانية: ص١٠٠.

أمثلة من التفسير المحرف: إن محمد على اللاهورى هو الذى لقب الميرزا غلام أحمد بالمصلح الأكبر، كما يعتقد أنه المسيح الموعود، وقد جاء فى تفسيره ما يصرح بذلك:

١. يقول فى تفسير قوله تعالى: (ورسولًا إلى بنى إسرائيل): إن ابن مريم الذى أخبر الرسول بقدومه ليس معناه إلا أن يأتى أحد أفراد هذه الأمة فى لون ابن مريم، كما تحققت نبوءة وعد إلياس بقدوم يحيى فى لونه[١].

٢. إنه يفسر قوله تعالى -فى قضية طائفة من بنى إسرائيل عبدت العجل، وعاقبها الله بأن يقتل بعضها بعضًا: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم). إن المراد بالقتل هنا إماتة الشهوات، وهذا الذى أُرجحه بناءً على السياق والسباق[٢].

٣. ويقول فى تفسير قوله تعالى: (فقُلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثتنا عشرة عينًا قد علم كُل أُناس مشربهم) من معانى الضرب: السير فى الأرض، يقال ضرب فى الأرض يعنى سار[٣]. ومن معانى العصا: الجماعة، وعصوت يعنى جمعت. ويقال عن الخوارج: شقوا عصا المسلمين. ويقال: إياك وقتيل العصا. والمراد أن الله أمر موسى بالمسير إلى جبل خاص والانتقال بجماعته إليه، حيث وجد اثنتى عشرة عينًا، ضرب عليها فصائل بنى إسرائيل خيامها وأخبيتها[٤].

٤. ويقول فى تفسير قوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور). ليس أن الله رفع هذا الجبل على رؤوسهم مثل الظلة لا يستقر على الأرض، بل المعنى أنكم كنتم فى المنخفض من الأرض، وكان الجبل يطل عليكم -كما جاء فى البخارى- فرفعت لنا

---

(١) بيان القرآن.
(٢) بيان القرآن: ج١ ص٦٥.
(٣) بيان القرآن: ج١ ص٦٩.
(٤) المرجع السابق: ص٦٩ نقلًا عن القاديانى والقاديانية: ص١٢.

الصخرة، يعنى ظهرت لأبصارنا[١].

٥. وفسر منطق الطير فى قوله تعالى: (عُلمنا منطق الطير). حمل الطيور للرسائل من مكان إلى مكان كالحمام الزاجل.

٦. وفسر وادى النمل بأنه موضع فى نواحى اليمن، والنملة بطن من بطون العرب، أو أمة كانت تسكن فى وادى النملة.

ولعل القارئ الكريم قد وقف على تخرصات وأباطيل القاديانية وتفسيراتها المتطرفة، والتى هى نسخة صادقة لتفسيرات الباطنية والإسماعيلية فى العهد السابق... ألا قاتل الله ملة الكفر وأصحابها.

القاديانية والاستعمار

بعد أن زحفت الدول الاستعمارية على الأقطار العربية والإسلامية، وفى مقدمتها بريطانيا التى استولت على الهند ومصر، وناصبت الدولة العثمانية العداء، وتآمرت عليها وقعدت لها بالمرصاد، تساعد منافساتها من الدول وتحرض عليها، بدأت تتسرب إلى الجزيرة العربية وتبذر فيها بذور الفساد.

وقد أصبحت حكومة بريطانيا مسيطرة على الهند الإسلامية، وأصبحت الحكومة المغولية التيمورية -وهى الدولة المسلمة الأخيرة- أسيرة أو رهينة فى يدها، تتصرف فى ممتلكاتها تصرف السلطان الحر، وقاومها الملك الشهم الأبى السلطان تيبو رَحِمَهُ اللَّهُ فسقط فى المعركة شهيدًا عام ١٧٩٩م، وانبث القساوسة والرهبان فى الهند يدعون المسلمين -بصفة خاصة- إلى المسيحية ويسخرون من الدين الإسلامى ومبادئه وتعاليمه[٢].

---

(١) بيان القرآن: ج١ ص٧٠ - ٧٤.

(٢) القاديانى والقاديانية: ص٢١.

وانتشر الفساد والخلاعة، وغزت حضارة أوربا بيوت المسلمين ومجتمعاتهم، وبدأ الإلحاد وثار المسلمون على الإنجليز عام ١٨٥٧م، وانضم إلى هذا المعسكر كل من فى قلبه ذرة من إيمان أو غيرة على الدين وقد كان الانتصار حليفًا للإنجليز - لدهائهم وحسن نظامهم- فانتقموا من أهل البلاد- ومن المسلمين خاصة- انتقامًا شديدًا، وكان ذلك مصداق قوله تعالى: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون).

ولم يكن الإنجليز طغاة ظالمين وملوكًا مستبدين فحسب، بل كانوا رسل الفساد والإلحاد والخلاعة والإباحة، وكانوا حملة لواء الاستعمار والاستهتار، والثورة على القيم الروحية والخلقية، التى جاء بها الأنبياء ونزلت بها الصحف، وكانوا مغيرين على العالم الإسلامى وزعماء الاستعمار الأوربى السياسى والثقافى والخلقى.

إن المعركة مستمرة بين الحق والباطل، وقد عرفنا من سيرة أنبياء الله ورسله وخلفائهم أنهم كانوا دائمًا حربًا على الظالمين والمجرمين، بعيدين عن مساندتهم وتأييدهم. وقد قال موسى عليه السلام: (رب بما أنعمت علىَّ فلن أكون ظهيرًا للمجرمين).

وقال تعالى مخاطبًا للمؤمنين: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون). وقال رسول الله ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)(١).

هذا وأسوة النبى ﷺ وأصحابه وخلفائه من العلماء والدعاة المخلصين مسجلة فى بطون التاريخ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وابن ماجة (٤٠١١)، قال الترمذى: حديث حسن غريب، وصححه الألبانى (الصحيحة ح٤٩١). وله شاهد من حديث طارق بن شهاب، رواه النسائى (٧/ ١٦١)، وصححه المنذرى فى الترغيب (ح٣٤٠٢).

خدمات غلام أحمد لبريطانيا

وإلى القارئ بعض الأمثلة المؤيدة لحكومة بريطانيا، فى إلغاء الجهاد وتعطليه، والذى كان المسلمون فى حاجة ملحة إلى إحيائه والدعوة إليه، ليتحرروا من حكم الأجنبى ويتخلصوا من السرطان الإنجليزى، الذى امتد فى جسم العالم الإسلامى.

يقول الميرزا غلام أحمد فى كتابه -ترياق القلوب- ص١٥[١]: لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها، وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر -الإنجليز- من الكتب والإعلانات والنشرات، ما لو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة. وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر وتركيا، وكان هدفى دائمًا أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة، وتمحى من قلوبهم قصص المهدى السفاك والمسيح السفاح، والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد وتفسد قلوب الحمقى أهـ.

وقال فى آخر كتابه (شهادة القرآن): إن عقيدتى التى أكررها أن للإسلام جزئين: الجزء الأول إطاعة الله. والجزء الثانى. إطاعة الحكومة، التى بسطت الأمن وآوتنا فى ظلها من الظالمين، وهى الحكومة البريطانية. أ. هـ.[٢]. ويقول فى رسالة قدمها إلى نائب حاكم المقاطعة عام ١٨٩٨م: لقد ظللت منذ حداثة سنى -وقد ناهزت اليوم الستين- أجاهد بلسانى وقلمى لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة والنصح لها والعطف عليها، وألغى فكرة الجهاد التى يدين بها جهالهم، والتى تمنعهم من الإخلاص لهذه لحكومة، وأرى أن كتاباتى قد أثرت فى قلوب المسلمين،

---

(١) القاديانى والقاديانية: ص٩٦ وما بعدها.

(٢) ملحق شهادة الإيمان.

وأحدثت تحولًا فى مئات الآلاف منهم[١]. أهـ.

وقال فى مكان آخر: لقد ألفت عشرات من الكتب العربية والفارسية والأوردية أثبت فيها أنه لا يحل الجهاد أصلا ضد الحكومة الإنجليزية التى أحسنت إلينا، بل بالعكس من ذلك، يجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة بإخلاص. وقد أنفقت على طبع هذه الكتب أموالًا كبيرة وأرسلتها إلى البلاد الإسلامية، وأنا عارف أن هذه الكتب قد أثرت تأثيرًا عظيمًا فى أهل هذه البلاد - الهند.

وقد كون أتباعى جماعة تفيض قلوبهم إخلاصًا لهذه الحكومة والنصح لها -إنهم على جانب عظيم من الإخلاص- وأنا أعتقد أنهم بركة لهذه البلاد، ومخلصون لهذه الحكومة ومتفانون فى خدمتها[٢].

ويقول فى مكان آخر: لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان فى هذه البلاد وفى البلاد الإسلامية، تفيد بأن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنة على المسلمين، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعة صادقة. وقد ألفت هذه الكتب باللغات الأوردية والعربية والفارسية، وأذعتها فى أقطار العالم الإسلامى حتى وصلت وذاعت فى البلدين المقدسين مكة والمدينة، وفى الآستانة وبلاد الشام ومصر وأفغانستان، وكانت نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد، التى كانت من وحى العلماء الجامدين. وهذه مأثرة أتباهى بها، يعجز المسلمون فى الهند أن ينافسونى فيها[٣].

(باب ذكر القرآنيين)

---

(١) تبليغ رسالات: المجلد السابع ص١٠ تأليف قاسم على القاديانى.

(٢) من رسالة مقدمة إلى الحكومة الإنجليزية بقلم الميرزا غلام أحمد.

(٣) سنارة قيصرة. تأليف الميرزا غلام أحمد، مقتبسًا عن كتاب القاديانى والقاديانية.

التمسك بالقرآن الكريم يكون بالإيمان بكل ما ورد فيه من أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، فلا ينسبون فعله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا هو تعالى، إلى غيره.

ولا يصرفون شيئًا من عبادتهم إلى سواه ﷻ، ولا يلحدون في أسمائه فلا يصفونه إلا بما وصف به نفسه تعالى أو وصفه به رسول الله ﷺ ويعتقدون أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ويعتقدون أنه تعالى هو الإله الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، نبيًا لا يعبد ورسولًا لا يكذب بل يطاع ويتبع.

وكذا الإيمان بكل ما أخبر به من أنه رسول رب العالمين، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، والإيمان بملائكة الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وكتبه ورسله عليهم الصلاة والسلام واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص له من الشرك.

قال تعالى: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (النساء: ٦٥).

من التمسك بالقرآن الكريم - التمسكُ بسنة نبيه ﷺ. والأخذ بكل ما جاءت به من أحكام وأخلاق وآداب، سواء أكانت مبينة للقرآن الكريم، أم مؤسسة لذلك، وذلك هو العلم الحقيقي أن يتعلم المسلمون الكتاب العزيز وسنة رسوله ﷺ.

قال تعالى عن رسوله ﷺ: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } (النجم: ٣-٤).

وقال ﷻ: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } (الحشر: ٧).

وقد قال النبي ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ».

فلا يتأتى التمسك بالقرآن الكريم إلا بالتمسك بسنة النبي ﷺ، سواء أكانت قولًا، أم فعلًا، أم تقريرًا، أم صفة لها علاقة بالتبليغ عن الله تعالى ربنا.

وهذا التنويه عن التمسك بالسنة وبكونه واجبًا كان يمكن الاستغناء عنه لأنه أمر مركوز في طبيعة المسلم السليمة لولا أنه نبتت في جسم الأمة الإسلامية نابتة سوء يدعون أنفسهم القرآنيين يرون أنهم ليسوا ملزمين إلا بما في القرآن الكريم، أما ما في السنة فليسوا مطالبين به، وقد كذبوا في زعمهم الأول، والثاني.

أما الأول:- وهو نسبتهم أنفسهم إلى القرآن الكريم فكيف تصح نسبتهم إليه وهم لا يعملون به في مدلول قوله تعالى { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ } (الحشر: ٧). وفي قوله تعالى: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } إن هو إلا وحى يوحى (النجم: ٣-٤).

أما الثاني:- فقد كذبوا في زعمهم أنهم ليسوا مطالبين بمدلول السنة، وقد قال الله تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } (الحشر:٧).

ثم كيف قد عرف هؤلاء أوقات الصلاة، وعدد ركعات الفرائض وكيفية الحج ومقادير الزكاة إن كانوا يصلون أو يزكون أو يحجون فأين توضيح ذلك وكثير غيره، إلا بسنة رسول الله ﷺ.

ولعل هؤلاء ممن عَنَى رسول الله ﷺ في خوفه من أن يردَ بعض الناس بعض الأحكام الثابتة في الشرع بالسنة المطهرة بتلك الحجة الواهية حيث قال ﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعان على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام، فحرموه ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كلُّ ذي ناب من السباع، ألا ولا لقطة من مال

معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم، فعليهم أن يُقروهم، فإن لم يقروهم فعليهم أن يُعقبوهم بمثل قراهم)[١].

وقد سئل العلامة الألباني كما في كيف يجب علينا أن نفسر القرآن (ص٧ - ١٠): فضيلة الشيخ: يقول القرآنيون: قال تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} (الإسراء١٢)... وقال تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام٣٨)... ويقول الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن هذا القران طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بهده أبدًا». نرجو من فضيلتكم التعليق على ذلك؟

(فأجاب): أما قوله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام ٣٨) ، فهذه الآية إنما تعني الكتاب هُنا: اللوح المحفوظ، ولا تعني: القران الكريم.

أما قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} (الإسراء١٢) ، فإذا ضممتم إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجة (١٢)، وابن زنجويه في الأموال (٦٢٠)، والطحاوي في المشكل (٤/ ٢٠٩)، والآجري في الشريعة (ص ٥١)، وابن حبان (١٢)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧)، والسمعاني في أدب الإملاء (ص ٣)، والهروي في ذم الكلام (ص ٧٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٨٩) وغيرهم، والحديث صححه ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى، وكذا صححه الفيروزآبادي في سفر السعادة (ص ٣٥٥)، وقال الذهبي في المهذب: إسناده قوي، وقال ابن حجر في موافقة الخبر الخبر: حسن صحيح، وصححه الشيخ ناصر في المشكاة (١٦٣)، وفي صحيح أبي داود، وقال العلامة الوادعي في رسالة ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر (ص ٣٤): حسن لغيره، وصححه الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ١١١)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عروف الجرشي فمن رجال أبي داود والنسائي وهو ثقة، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على إعلام الموقعين (٤/ ٨٣): إسناده صحيح.

القران الكريم ما تقدم بيانه آنفا، فحينئذٍ يتم أن الله ﷻ قد فصل كل شيء تفضيلًا، لكن بضميمة أخرى، فإنكم تعلمون أن التفصيل قد يكون تارة بالإجمال، بوضع قواعد عامة يدخل تحتها جزئيات لا يمكن حصرها لكثرتها، فبوضع الشارع الحكيم لتلك الجزئيات الكثيرة قواعد معروفة ظهر معنى الآية الكريمة، وتارة التفصيل وهو المتبادر من هذه الآية، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركتُ شيئًا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا تركتُ شيئًا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه».

فالتفصيل إذًا تارة يكون بالقواعد التي لا تدخل تحتها جزئيات كثيرة، وتارة يكون بالتفصيل لمفردات عبادات وأحكام تفصيلًا لا يحتاج إلى الرجوع إلى قاعدة من تلك القواعد.

ومن القواعد التي لا يدخل تحتها فرعيات كثيرة -وتظهر بها عظمة الإسلام وسعة دائرة الإسلام في التشريع -قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- على سبيل المثال: «لا ضرر ولا ضرار»[(١)]... وقوله عليه السلام: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»... وقوله عليه السلام: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». هذه قواعد وكليات

---

(١) روي عن عبادة بن الصامت، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجابر، وعائشة، وعمرو بن عوف، وثعلبة بن أبي مالك القرظي، وأبي لبابة، والحديث ضعفه بعض أهل الحديث، وقواه بعضهم لشواهده الكثيرة، لذا قال عنه النووي في أربعينه: طرقه يقوي بعضها بعضا، وحسنه في الأذكار (٥٠٢)، وقال ابن الصلاح: مجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم واحتجوا به، وعد أبو داود السجستاني هذا الحديث من الأحاديث التي يدور عليها الفقه، وهذا مشعر بأنه يراه حجة، والله أعلم، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٧): بعض طرقه تقوى ببعض، وصححه العلامة الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (٢٥٠)، وصححه لشواهده الكثيرة الشيخ مشهور في تحقيقه للموافقات (٣/ ٢٠٤)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند.

لا يفوتها شيء مما يتعلق بالضرر بالنفس أو الضرر بالمال في الحديث الأول، وما يتعلق بما يُسكر كما في الحديث الثاني، سواء كان المسكر مستنبطًا من العنب -كما هو المشهور- أو من الذرة، أو من أي مادة من المواد الأخرى، فما دام أنه مُسكر فهو حرام.

كذلك في الحديث الثالث: لا يمكن حصر البدع لكثرتها، ولا يمكن تعدادها ومع ذلك فهذا الحديث - مع إيجازه- يقول بصراحة: «وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

هذه تفصيل لكن بقواعد.

وأما الأحكام التي تعرفونها، فهي مفصَّلة بمفردات جاء ذكرها في السنة على الغالب، وأحيانًا كأحكام الإرث مثلًا فهي مذكورة في القران الكريم.

أما الحديث الذي جاء ذكره، فهو حديث صحيح، فالعمل به هو الذي بإمكاننا أن نتمسك به، وكما جاء في الحديث «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة رسوله».

فالتمسك بحبل الله - الذي هو بأيدينا- إنما هو العمل بالسنة المُفصلة للقران الكريم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موسوعته العقدية (١/ ٢٩٤): في حقيقة الأمر: إن ادعاء أن القرآن هو فقط المرجع الوحيد وليس للسنة دخل في بيان القرآن فهو كفر بالقرآن، الذي يقول بأني لا أؤمن إلا بالقرآن هو يكفر بالقرآن؛ ذلك لأن القرآن مما قال فيه رب الأنام: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل:٤٤) {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ} (النحل:٤٤) ها نحن ذكرنا آنفًا الصلوات الخمس وكيف أنها تنقسم إلى أقسام، من أين أخذت هذه الأقسام؟ لا شيء منها بهذا التوضيح في القرآن

الكريم، لكن هو بيان الرسول ﷺ الذي أشار الله إليه في الآية السابقة {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل:٤٤). أي إن هذه الآية تعني أن بيان الرسول ﷺ ينقسم إلى قسمين: بيان لفظي وهو تبليغ القرآن إلى الأمة.. تبليغ القرآن للأمة، والبيان الآخر هو بيان بمعنى التفصيل.. ولذلك جاء حديث الرسول ﷺ في الصحيح، وأنا بهذه المناسبة أقول: ينبغي انتقاء هذه الأحاديث، وتقديمها لطلابكم هناك حتى تستقيم العقيدة الصحيحة ويعرفون قدر السنة، وأهمية الرجوع إليها مع القرآن الكريم، ذكرت حديثًا وهو قوله ﷺ: «لا يقعدن أحدكم متكئًا على أريكته يقول هذا كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالًا حللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه.. ألا إنما حرم رسول الله مثلما حرم الله»؛ ذلك لأن الله يقول في القرآن الكريم: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم:١ – ٤).

إذًا السنة علم من العلوم يجب أن يؤخذ من أهل الاختصاص فيه، وكل من قال هذا صحيح وهذا ضعيف نقول له: هل أنت عالم بعلم الحديث؟ إن ادعى ذلك نقول: هات نشوف أثبت صحة هذا الحديث، بطريقة علماء الحديث، الأصل هو السند كما تعلمون.. الأصل في معرفة الأحاديث الصحيحة من الضعيفة إنما هو السند.

المنزلة الثانية أو المرتبة الثانية في النقد ونقد المتن الذي يسمى في الاصطلاح العصري اليوم بالنقد الداخلي، يسمون نقد الأسانيد بالنقد الخارجي، ونقد المتون في الاصطلاح الحديثي بالنقد الداخلي.. هذا النقد الداخلي إذا ما سلط عليه عقول البشر أصبح القرآن الكريم محل انتقاد؛ لأن القرآن الكريم لا يؤمن به الكفار مثلًا فلو قيل للكافر قصة ضرب موسى للحجر وانبثق منه اثنتا عشرة عينًا، وضرب البحر

فكان كل فرق كالطود العظيم.. هذه الأشياء لا يؤمن بها الكفار وسيكون هذا غير صحيح مع أنه ثابت بالقرآن الكريم وبطريقة التواتر، القرآن الكريم لا يخضع لنقد مطلقًا، وإنما ينبغي على المسلمين أن يفهموه، وهذه مناسبة نتعرض لذكرها أيضًا بطريقتين اثنتين سبقت الإشارة إليهما وهي: الرجوع إلى بيان الرسول ﷺ {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل:٤٤) أنتم تعلمون مثلًا (أنه) مُسَطَّر في كتب الفقه بعض الأحكام لا نجدها في القرآن الكريم مثلًا تحريم البنت من الرضاعة.. تحريم البنت من الرضاعة، هذا ليس مذكورًا في القرآن الكريم لكنه مذكور في الحديث، بل الأحاديث الصحيحة، ومن أصحها قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فهذا الحديث هو من بيان الرسول ﷺ الذي ذكر في القرآن {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} (النساء:٢٣) ثم ضم الرسول ﷺ

إلى هذا التحريم المذكور في القرآن الكريم هذا التحريم المذكور في حديثه: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، هنا يظهر أهمية: إن ما حرم رسول الله مثلما حرم الله.

إذا رجعنا الآن وفهمنا أن الذين يدعون بأنهم لا يؤمنون بشيء من السنة إنما القرآن فهم كفروا بالقرآن؛ لأن القرآن يأمرنا بالرجوع إلى الرسول ﷺ في عديد من الآيات الكريمة ذكرنا بعضها آنفًا، ومن ذلك: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء:٦٥).

فإذًا كل من يزعم بأنه مسلم ولكنه لا يؤمن إلا بالقرآن فليس مسلمًا؛ لأنه كفر بكثير من نصوص القرآن وعلماء المسلمين كما تعلمون جميعًا يقولون: من أنكر حرفًا من القرآن فليس بمسلم، فكيف إذا أنكر كثيرًا من الآيات التي تتضمن الرجوع

إلى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في منزلة السنة في الإسلام (ص٧ - ١٢): قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا} (المائدة: ٣٨) مثال صالح [لبيان وظيفة السنة بجانب القرآن] فإن السارق فيه مطلق كاليد، فبينت السنة القولية الأول منهما وقيدته بالسارق الذي يسرق ربع دينار بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا قطع إلا في ربع دينار فصاعدا» (أخرجه الشيخان)، كما بينت الآخر بفعله -صلى الله عليه وآله وسلم- أو فعل أصحابه وإقراره فإنهم كانوا يقطعون يد السارق من عند المفصل كما هو معروف في كتب لحديث وبينت السنة القولية اليد المذكورة في آية التيمم: {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} (النساء:٤٣، المائدة: ٦) بأنها الكف أيضا بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «التيمم ضربة للوجه والكفين» (أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا).

وإليكم بعض الآيات الأخرى التي لم يمكن فهمها فهمًا صحيحًا على مراد الله تعالى إلا من طريق السنة:

١ - قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُون} (الأنعام: ٨٢) فقد فهم أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قوله: (بظلم) على عمومه الذي يشمل كل ظلم ولو كان صغيرا ولذلك استشكلوا الآية فقالوا: يا رسول الله أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليس بذلك إنما هو الشرك ألا تسمعوا إلى قول لقمان: {إن الشرك لظلم عظيم} (لقمان: ١٣)؟» (أخرجه الشيخان وغيرهما).

٢ - قوله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} (النساء: ١٠١) فظاهر هذه الآية يقتضي أن

قصر الصلاة في السفر مشروط له الخوف ولذلك سأل بعض الصحابة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقالوا: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ قال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته" (رواه مسلم).

٣ - قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ} (المائدة: ٣) فبينت السنة القولية أن ميتة الجراد والسمك والكبد والطحال من الدم حلال فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الجراد والحوت (أي السمك بجميع أنواعه) والكبد والطحال» (أخرجه البيهقي وغيره مرفوعا وموقوفا وإسناد الموقوف صحيح وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي).

٤ - قوله تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ في مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} (الأنعام: ١٤٥). ثم جاءت السنة فحرمت أشياء لم تذكر في هذه الآية كقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير حرام». وفي الباب أحاديث أخرى في النهي عن ذلك. كقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- يوم خيبر: «إن الله ورسوله ينهيانكم عن الحمر الإنسية فإنها رجس» (أخرجه الشيخان).

٥ - قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} (الأعراف: ٣٢) فبينت السنة أيضًا أن من الزينة ما هو محرم فقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه خرج يوما على أصحابه وفي إحدى يديه حرير وفي الأخرى ذهب فقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم» (أخرجه الحاكم وصححه).

والأحاديث في معناه كثيرة معروفة في " الصحيحين " وغيرهما. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة المعروفة لدى أهل العلم بالحديث والفقه. ومما تقدم يتبين لنا أيها

الإخوة أهمية السنة في التشريع الإسلامي فإننا إذا أعدنا النظر في الأمثلة المذكورة فضلا عن غيرها مما لم نذكر نتيقن أنه لا سبيل إلى فهم القرآن الكريم فهما إلا مقرونا بالسنة.

ففي المثال الأول فهم الصحابة «الظلم» المذكور في الآية على ظاهره ومع أنهم كانوا رضي الله عنهم كما قال ابن مسعود: "أفضل هذه الأمة أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا " فإنهم مع ذلك قد أخطؤوا في ذلك الفهم فلولا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ردهم عن خطئهم وأرشدهم إلى أن الصواب في "الظلم" المذكور إنما هو الشرك لاتبعناهم على خطئهم ولكن الله تبارك وتعالى صاننا عن ذلك. بفضل إرشاده -صلى الله عليه وآله وسلم- وسنته.

وفي المثال الثاني: لولا الحديث المذكور لبقينا شاكين على الأقل في قصر الصلاة في السفر في حالة الأمن إن لم نذهب إلى اشتراط الخوف فيه كما هو ظاهر الآية وكما تبادر ذلك لبعض الصحابة لولا أنهم رأوا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقصر ويقصرون معه وقد أمنوا.

وفي المثال الثالث: لولا الحديث أيضا لحرمنا طيبات أحلت لنا: الجراد والسمك والكبد والطحال.

وفي المثال الرابع: لولا الأحاديث التي ذكرنا بعضها لاستحللنا ما حرم الله علينا على لسان نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من السباع وذوي المخلب من الطير.

وكذلك المثال الخامس: لولا الأحاديث التي فيه لاستحللنا ما حرم الله على لسان نبيه من الذهب والحرير ومن هنا قال بعض السلف: السنة تقضي على الكتاب.

ومن المؤسف أنه قد وجد في بعض المفسرين والكُتَّاب المعاصرين من ذهب إلى جواز ما ذُكر في المثالين الأخيرين من إباحة أكل السباع ولبس الذهب والحرير

اعتمادًا على القرآن فقط بل وجد في الوقت الحاضر طائفة يتسمون بـ "القرآنيين" يفسرون القرآن بأهوائهم وعقولهم دون الاستعانة على ذلك بالسنة الصحيحة، بل السنة عندهم تبع لأهوائهم فما وافقهم منها تشبثوا به وما لم يوافقهم منها نبذوه وراءهم ظهريًّا.

وكأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أشار إلى هؤلاء بقوله في الحديث الصحيح: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» (رواه الترمذي). وفي رواية لغيره: «ما وجدنا فيه حرامًا حرمناه ألا وإني أتيت القرآن ومثله معه». وفي أخرى: «ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله».

بل إن من المؤسف أن بعض الكُتاب الأفاضل ألف كتابًا في شريعة الإسلام وعقيدته وذكر في مقدمته أنه ألفه وليس لديه من المراجع إلا القرآن. فهذا الحديث الصحيح يدل دلالة قاطعة على أن الشريعة الإسلامية ليست قرآنًا فقط وإنما قرآن وسنة فمن تمسك بأحدهما دون الآخر لم يتمسك بأحدهما لأن كل واحد منهما يأمر بالتمسك بالآخر كما قال تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} (النساء:٨٠) وقال: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (النساء: ٦٥) وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا مُّبِينًا} (الأحزاب: ٣٦) وقال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} (الحشر: ٧).

وبمناسبة هذه الآية يعجبني ما ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو أن امرأة جاءت إليه فقالت له: أنت الذي تقول: لعن الله النامصات والمتنمصات والواشمات..

الحديث؟ قال: نعم قالت: فإني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فلم أجد فيه ما تقول فقال لها: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» قالت: بلى قال: فقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «لعن الله النامصات.... » الحديث (متفق عليه).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (ص١٧ - ١٨): أود أن]أُلفت الانتباه إلى حديث مشهور قلَّما يخلو منه كتاب من كتب أصول الفقه لضعفه من حيث إسناده ولتعارضه مع ما انتهينا إليه.. من عدم جواز التفريق في التشريع بين الكتاب والسنة ووجوب الأخذ بهما معا ألا وهو حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال له حين أرسله إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله قال: "فإن لم تجد؟ " قال: بسنة رسول الله قال: "فإن لم تجد؟ " قال: أجتهد رأيي ولا آلو. قال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله " أما ضعف إسناده فلا مجال لبيانه الآن وقد بينت ذلك بيانًا شافيًا ربما لم أسبق إليه في السلسلة السابقة الذكر، وحسبي الآن أن أذكِّر أن أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى قال فيه: "حديث منكر". وبعد هذا يجوز لي أن أشرع في بيان التعارض الذي أشرت إليه فأقول:

إن حديث معاذ هذا يضع للحاكم منهجًا في الحكم على ثلاث مراحل لا يجوز أن يبحث عن الحكم في الرأي إلا بعد أن لا يجده في السنة، ولا في السنة إلا بعد أن لا يجده في القرآن، وهو بالنسبة للرأي منهج صحيح لدى كافة العلماء وكذلك قالوا: «إذا ورد الأثر بطل النظر». ولكنه بالنسبة للسنة ليس صحيحًا؛ لأن السنة حاكمة على كتاب الله ومبينة له فيجب أن يبحث عن الحكم في السنة ولو ظن وجوده في الكتاب لما ذكرنا فليست السنة مع القرآن كالرأي مع السنة كلا ثم كلا، بل يجب اعتبار

الكتاب والسنة مصدرًا واحدًا لا فصل بينهما أبدًا كما أشار إلى ذلك قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ألا إني أُتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة وقوله: «لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

فالتصنيف المذكور بينهما غير صحيح؛ لأنه يقتضي التفريق بينهما وهذا باطل لما سبق بيانه

فهذا هو الذي أردت أن أنبه إليه فإن أصبت فمن الله. وإن أخطأت فمن نفسي والله تعالى أسأل أن يعصمنا وإياكم من الزلل ومن كل ما لا يرضيه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيق كتاب التوحيد أو العقائد الإسلامية (ص١٢ - ١٣): [قال محمد العدوي في كتابه "التوحيد أو العقائد الإسلامية": كتاب الله... هو عصمة للمعقول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يزال قائمًا.

فوجب أن نأخذ منه العقائد ونعول عليه في أصول الدين.

فعلق العلامة الألباني على ذلك قائلا: هذا يوهم حصر أخذ العقائد من القرآن الكريم، وليس ذلك بصواب لأنه مخالف لسبيل المؤمنين، فإننا نعلم بالضرورة أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كانوا لا يفرقون في العقيدة - شأنهم في الأحكام والمعاملات - بين القرآن والحديث. وجرى على ذلك التابعون فمن بعدهم، وتبعوا سبيلهم، لا يفرقون في ذلك بين أصول الدين وفروعه، بل إن التفريق بينهما تفريق مبتدع لا أصل له في الشرع، بل هو مخالف لنصوص كثيرة منه في القرآن والسنة. ولقد كان في الآثار السيئة لهذا التفريق أن استحل كثير من المتأخرين إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة بدعوى أنها آحاد وبمثلها لا تثبت العقيدة زعموا، ورتبوا على ذلك أن المسلم مهما أنكر ما هو ثابت في الشرع، فإنه لا يكفر إلا إذا كان الذي أنكره أصلًا من أصول

الدين، ولم يقيدوا ذلك بما إذا عُلِم ثبوت ذلك عنده. والحق الذي لا ريب فيه أن من أنكر شيئًا ثابتًا في الدين سواء كان في الأصول أو الفروع فهو كافر إذا عُلم كونه من الدين، ومع ذلك أنكر. فبهذا الشرط يكفر، لأن معنى ذلك أنه لا يصدق الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- في كل ما جاء به، وما جاء به كله صواب، فجحد أي شيء منه يعتبر طعنًا فيه -صلى الله عليه وآله وسلم-. وذلك كفر بين.

وعلى ذلك إذا أنكر شيئًا وهو لا يعلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جاء به، فلا سبيل إلى تكفيره إلا بعد تبليغه وإقامة الحجة عليه لقوله تعالى: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}، ولا مجال بعد ذلك للتردد في تكفيره، ولو زعم أنه لم يقتنع بذلك أو لم تطمئن نفسه به فإنه ينافي الإيمان به -صلى الله عليه وآله وسلم- كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

(باب بيان خطأ مصطلح جاهلية القرن العشرين)

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق، فأنار الله تعالى به الكون، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فبدد الله به ظلمات الجهل والكفر، وانتهى ببعثته ﷺ عهد الجاهلية، ولكن هل رفعت الجاهلية عن الأمكنة كلها، وفي جميع الأزمنة؟! بالطبع لا، ولذا فإنه لا يجوز وصف جميع المجتمعات بالجاهلية بعد بعثته ﷺ، ولا نزعها عن جميع المجتمعات ـ أيضا ـ، فما تزال بعض المجتمعات تعيش في مستنقعات الجاهلية، فلا يرفع عنها هذا الوصف، وأما من استنار بنور الإسلام من المجتمعات فلا يجوز وصفها بهذا اللفظ، ولو حصل تقصير في بعض جوانب الإسلام منها فهذا لا يبيح وصفها بالجاهلية، وعلى هذا التفصيل اتفقت كلمة

العلماء المحققين.

١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٧٨، ٧٩): فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية، ونصرانية: فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ قد تكون في مصر دون مصر - كما هي في دار الكفار -، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين كما قال ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية) وقال لأبي ذر: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، ونحو ذلك، فقوله في هذا الحديث: (ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية): يندرج فيه كل جاهلية مطلقة، أو مقيدة، يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، أو صابئة، أو وثنية، أو مركبة من ذلك، أو بعضه، أو منتزعة من بعض هذه الملل الجاهلية فإنها جميعها مبتدعها ومنسوخها صارت جاهلية بمبعث محمد ﷺ، وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالبا إلا على حال العرب التي كانوا عليها فإن المعنى واحد.

٢ - وفي بيان خطأ مصطلح " جاهلية القرن العشرين " قال الدكتور بكر أبو زيد في معجم المناهي اللفظية (ص ٢١٢ - ٢١٥): بين العلامة الألباني ما في هذا التعبير من تسمح، وغض من ظهور الإسلام على الدين كله، فجاء في كتاب: "حياة الألباني " ما نصه: مصطلح " جاهلية القرن العشرين " في نظر الألباني: السؤال: تناول الداعية "

سيد قطب " رَحِمَهُ اللَّهُ مصطلحا متداولا بكثرة في إحدى المدارس الإسلامية التي يمثلها، ألا وهو مصطلح " جاهلية القرن العشرين " فما مدى الدقة والصواب في هذه العبارة؟ وما مدى التقائها مع الجاهلية القديمة وفقا لتصوركم؟.

فأجاب العلامة الألباني: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد: الذي أراه أن هذه الكلمة " جاهلية القرن العشرين " لا تخلو من مبالغة في وصف القرن الحالي - القرن العشرين - فوجود الدين الإسلامي في هذا القرن وإن كان قد دخل فيه ما ليس منه: يمنعنا من القول بأن هذا القرن يمثل جاهلية كالجاهلية الأولى، فنحن نعلم أن الجاهلية الأولى إن كان المعني بها العرب فقط: فهم كانوا وثنيين، وكانوا في ضلال مبين، وإن كان المعني بها ما كان حول العرب من أديان كاليهودية والنصرانية: فهي أديان محرفة، فلم يبق في ذلك الزمان دين خالص منزه عن التغيير والتبديل، فلا شك في أن وصف الجاهلية على ذلك العهد وصف صحيح، وليس الأمر كذلك في قرننا هذا، ما دام أن الله تبارك وتعالى قد من على العرب أولا، ثم على سائر الناس ثانيا، بأن أرسل إليهم محمدا ﷺ خاتم النبيين، وأنزل عليه دين الإسلام، وهو خاتم الأديان، وتعهد الله عَزَّ وَجَلَّ بحفظ شريعته هذه بقوله عَزَّ وَجَلَّ: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ونبيه ﷺ قد أخبر أن الأمة الإسلامية وإن كان سيصيبها شيء من الانحراف الذي أصاب الأمم من قبلهم في مثل قوله ﷺ: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: من هم يا رسول الله؟ اليهود والنصارى؟ فقال عليه الصلاة والسلام فمن الناس؟!) أقول: وإن كان الرسول ﷺ قد أخبر بهذا الخبر المفيد أن المسلمين سينحرفون إلى حد كبير ويقلدون اليهود والنصارى في ذلك الانحراف، لكن عليه الصلاة والسلام في الوقت نفسه قد بشر أتباعه بأنهم سيبقون على خطه

الذي رسمه لهم، فقال عليه الصلاة والسلام في حديث التفرقة: (وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة)، قال عليه الصلاة والسلام: (كلها في النار إلا واحدة)، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: (هي الجماعة)

وفي رواية قال: (هي التي تكون على ما أنا عليه وأصحابي). وأكد ذلك عليه الصلاة والسلام في قوله في الحديث المتفق عليه بين الشيخين: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

فإذن لا تزال في هذه الأمة جماعة مباركة طيبة قائمة على هدي الكتاب والسنة، فهي أبعد ما تكون عن الجاهلية القديمة أو الحديثة؛ ولذلك فإن الذي أراه: أن إطلاق " الجاهلية " على القرن العشرين فيه تسامح، قد يوهم الناس بأن الإسلام كله قد انحرف عن التوحيد وعن الإخلاص في عبادة الله ﷻ انحرافا كليا، فصار هذا القرن - القرن العشرون - كقرن الجاهلية الذي بعث رسول الله ﷺ إلى إخراجه من الظلمات إلى النور، حينئذ: هذا الاستعمال، أو هذا الإطلاق يحسن تقييده في الكفار أولا، الذين كما قال تعالى في شأنهم: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).

وصف القرن العشرين بـ " الجاهلية " إنما ينطبق على غير المسلمين الذين لم يتبعوا الكتاب والسنة، ففي هذا الإطلاق إيهام بأنه لم يبق في المسلمين خير، وهذا خلاف ما سبق بيانه من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام المبشرة ببقاء طائفة من الأمة على الحق، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبي للغرباء...) قالوا: من هم يا رسول الله؟ جاء الحديث على روايات عدة في بعضها يقول الرسول ﷺ - واصفا الغرباء -: (هم الذين يصلحون ما

أفسد الناس من سنتي من بعدي)، وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام: (هم أناس قليلون صالحون بين أناس كثيرين من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم) فلذلك لا يجوز هذا الإطلاق في العصر الحاضر على القرن كله؛ لأن فيه - والحمد لله - بقية طيبة لا تزال على هدي النبي ﷺ، وعلى سنته، وستظل كذلك حتى تقوم الساعة، ثم إن في كلام سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفي بعض تصانيفه ما يشعر الباحث أنه كان قد أصابه شيء من التحمس الزائد للإسلام في سبيل توضيحه للناس، ولعل عذره في ذلك أنه كان يكتب بلغة أدبية؛ ففي بعض المسائل الفقهية كحديثه عن حق العمال في كتابه: "العدالة الاجتماعية " أخذ يكتب بالتوحيد، وبعبارات كلها قوية تحيي في نفوس المؤمنين الثقة بدينهم وإيمانهم، فهو من هذه الخلفية في الواقع قد جدد دعوة الإسلام في قلوب الشباب، وإن كنا نلمس أحيانا أن له بعض الكلمات تدل على أنه لم يساعده وقته على أن يحرر فكره من بعض المسائل التي كان يكتب حولها أو يتحدث فيها، فخلاصة القول أن إطلاق هذه الكلمة في العصر الحاضر لا يخلو من شيء من المبالغة التي تدعو إلى هضم حق الطائفة المنصورة، وهذا ما عن في البال فذكرته. انتهى.

٣ - وسئل الشيخ صالح بن فوزان الفوزان - حفظه الله -: هل يجوز إطلاق لفظ " الجاهلية " على المجتمعات الإسلامية المعاصرة؟.

فأجاب: الجاهلية العامة قد زالت ببعثة الرسول ﷺ؛ فلا يجوز إطلاقها على المجتمعات الإسلامية بصفة العموم، وأما إطلاق شيء من أمورها على بعض الأفراد، أو بعض الفرق، أو بعض المجتمعات: فهذا ممكن، وجائز، وقد قال النبي ﷺ لبعض أصحابه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، وقال ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء

بالنجوم، والنياحة).

الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (٨٦، رقم السؤال: ٣١).

واعلم أنه لا يجوز للمسلم أن ينظر للمجتمعات الإسلامية بعين الكبر في نفسه، والاحتقار لهم، ومن ذلك: تعميم الحكم بالجهل والانحراف والهلاك. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم) رواه مسلم (٢٦٢٣).

قال الأمام ابن عبد البر في التمهيد (٢١/ ٢٤٢): معناه عند أهل العلم: أن يقولها الرجل احتقارا للناس، وإزراء عليهم، وإعجابا بنفسه، وأما إذا قال ذلك تأسفا، وتحزنا، وخوفا عليهم لقبح ما يرى من أعمالهم: فليس ممن عني بهذا الحديث، والفرق بين الأمرين أن يكون في الوجه الأول راضيا عن نفسه، معجبا بها، حاسدا لمن فوقه، محتقرا لمن دونه، ويكون في الوجه الثاني ماقتا لنفسه، موبخا لها، غير راض عنها.

(باب وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

من القواعد العقدية (قاعدة العبادة هي الغاية التي خلق الله لها الخلق من جهة أمره ومحبته ورضاه)

وفيه عدة مسائل:

*** المسألة الأولى: شرح ألفاظ القاعدة**

معنى العبادة لغة وشرعًا:

العبادة في اللغة: هي الخضوع والذلة والانقياد.

وفي الشرع: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال

الظاهرة والباطنة، فيشمل ذلك قول اللسان، وعمل الجوارح، وأعمال القلوب، فكلها داخلة في معنى العبادة الشرعي الذي أحبه الله وأمر به العباد.

معنى الغاية:

الغاية مشتقة من الأصل اللغوي الثلاثي (غَيِيَ)؛ يقال: غَيَّا وغَايا وأغْيا وتغايا، لفيف مقرون، والمصدر تغيِّة ومُغَاياةٌ، واسم الفاعل: مُغَيٍّ ومُغايٍ، واسم المفعول: مُغَيًّى ومُغايًّى، والغاية: مدى كل شيء وقصاره، وألفه ياء وهو من تأليف غين وياءين، وغَيَّي للقَوْمِ، نَصبَ لهم غايَةً أَو عَمِلَها لهم، والغايَةُ السَّحابَةُ المُنْفَرِدَةُ، وغايَتُكَ أَنْ تَفْعَل كذا: أَي نِهايَةُ طاقَتِكَ أَو فِعْلِكَ، ويقالُ في صَوابِ الرأي: أَنتَ بَعِيدُ الغايَةِ، وأَغْيا الرَّجلُ: بَلَغَ الغايَةَ في الشَّرَفِ والأمْرِ، والعِلَّةُ الغائِيَّةُ عنْدَ المُتَكَلِّمِيْن ما يكونُ المَعْلول لأجْلِها، وقوْلُهم المُغَيًّا كمُعَظَّمٍ لانْتِهاءِ الغايَةِ، هكذا يقولُه الفُقهاءُ والأُصُوليُّون وهي لُغَةٌ مولَّدَةٌ.

والغاية: هي ما لأجله وجود الشيء، وهي أقصى الشيء، ومدى كل شيء، وغاية الشيء مقطعه ومنتهاه.

ومعنى الغاية في القاعدة: حكمة الله تعالى في إيجاد الخليقة، وما يستتبع ذلك من الغايات الحميدة، ويعبر عنها بالعلة الغائية.

فالعبادة التي هي غاية الله من الخلق والإيجاد هي علة غائية.

وخلق العباد وإيجادهم هو علة فاعلية وسبب وسبيل لتحقيق العلة الغائية.

فالعلة الفاعلية التي هي خلق الخلق هي سبب وعلة وموجدة للعلة الغائية، فإذا لم توجد العلة الفاعلية فلا وجود للعلة الغائية.

يقول الإمام ابن تيمية: "فلو لم يخلق شيئًا بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته، وإلا كانت

أعمالًا فاسدة؛ فإن الحركات تفتقر إلى العلة الغائية، كما افتقرت إلى العلة الفاعلية، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلًا، ولولا ذلك لم يفعل.

فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات، بل كان العالم يفسد، وهذا معنى قوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]، ولم يقل لعدمتا".

وعليه تكون غاية الله من خلقه هو تحقيقهم لتوحيد الإلهية، كما أن ربوبية الله تعالى لخلقه التي تضمنت الخلق والإحياء هي العلة الفاعلية التي حصلت بسببها العلة الغائية.

يقول الإمام ابن تيمية: "فإن العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق، والإلهية هي الغاية، والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم، فهو متضمن ابتداء حالهم، والمصلي إذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [الفاتحة: ٥] فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصوده، والاستعانة وسيلة إليها، تلك حكمة، وهذا سبب، والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف؛ ولهذا يقال: أول الفكرة آخر العلم، وأول البغية آخر الدرك، فالعلة الغائية متقدمة في التصور والإرادة، وهي متأخرة في الوجود، فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء، وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته، فيقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)}".

وقد أوضح التفتازاني العلاقة بين العلة الغائية والفاعلية بقوله: "وأما غاية الشيء: يريد بيان علته الغائية؛ دفعًا لما يستبعد من كون المتأخر عن الشيء علة له، فمعنى كون غاية الشيء علة له: أن ذلك الشيء يفتقر في وجوده العيني إلى وجودها العقلي، بواسطة أنه يحتاج إلى علته الفاعلية، وهي في كونها علة تحتاج إلى تصور الغائية ضرورة أن الفاعل ما لم يتصور غاية ما لا يُفْعَل إلا لغاية لم يفعله، ومن ههنا

قالوا: إن الغاية بماهيتها؛ أي: بصورتها الذهنية علة لفاعلية الفاعل وبانيتها؛ أي: هويتها الخارجية معلول للفاعل، بل لمعلوله الذي هو ما له الغاية؛ فإن النجار يتصور الجلوس على السرير فَيُوْجِدَه، ثم يوجد الجلوس عليه، وللقوم عبارة أخرى: وهو أن الغاية بالوجود الذهني علة، وبالوجود العيني معلول، وهذا معنى قولهم: أول الفكر آخر العمل".

ويقول الرازي: "العلة الغائية حال كونها ذهنية علة العلل، وحال كونها خارجية معلولة العلل، فقد حصلت له علاقتا العلية والمعلولية".

وكونها علة العلل؛ لأن جميع الحركات والأفعال في هذا الكون ناتجة منها، وكائنة بسببها؛ لأنَّها أول ما يتصورها الفاعل في ذهنه، فإذا وجدت بعد ذلك كانت معلولة لفعل الفاعل الذي كان سببًا في وجودها وخروجها إلى العين.

* **المسألة الثانية: معنى القاعدة.**

لا شك أن بيان غاية الشيء، ومعرفة الحكمة منه فيما يتعلق بخلق الله وأمره مما له بالغ الأثر، وعظيم الفائدة العائدة على النفس البشرية بالطمأنينة والسكون والثقة بربها تبارك وتعالى، ولا سيما فيما يتعلق بالغاية الحميدة، والحكمة الجليلة في إيجاد المخلوقات؛ إذ في هذه الغاية التي لا أعظم منها تجلى حكمة الله تعالى الباهرة، ورحمته الشاملة؛ إذ خلق الخلق لعبادته التي هي أعظم ما يحتاجه البشر، وبذلك تظهر قيمة الإنسان في هذا الكون، التي اتسمت بعظيم الشرف ومنتهى العزة والرقي، إذ هو لم يخلق للعبث ولا للعب، ولا لغاية دنيئة، ولا حكمة حقيرة، وإنما خلق لغاية عظيمة هي منتهى عزه وغاية سعادته.

والقاعدة دلت على أن عبادة الله تبارك وتعالى، وإفراده بالتوحيد، وترك عبادة ما سواه، والقيام بفعل أوامره وترك مناهيه، هو الغاية والحكمة التي خلق لها الإنس

والجن، ففعل بهم الأول وهو خلقهم ليفعلوا هم الثاني وهو عبادته، لا ليفعله هو فيجعلهم عابدين له، وإنما خلقهم مهيئين مستعدين لها في أصل الخلقة، فمن وقعت منه العبادة فقد أرادها الله منه شرعًا وكونًا، ومن لم تقع منه فقد أرادها منه شرعًا ولم يردها سبحانه كونًا وقدرًا.

فالله تعالى لم يخلقهم للعباده خلق جبلة وإجبار، وإنّما خلقه لهم خلق تكليف واختيار، فمن وفّقه وسدّده أقام العبادة التي خُلق لها، ومن خذله وطرده حرمها وعمل بأعمال أهل الشقاء.

يقول الإمام ابن تيمية: "وهو سبحانه لم يقل أنه فعل الأول ليفعل هو الثاني، ولا ليفعل بهم الثاني، فلم يذكر أنه خلقهم ليجعلهم هم عابدين، فإن ما فعله من الأسباب لما يفعله هو من الغايات يجب أن يفعله لا محالة، ويمتنع أن يفعل أمرًا ليفعل أمرًا ثانيًا ولا يفعل الأمر الثاني، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني فيكونون هم الفاعلين".

والمقصود بكون العبادة غاية للرب تبارك وتعالى؛ أي: أن الله تعالى أرادها وقصدها وهذا يستلزم علمه بها، إذ لا توجد الإرادة بدون العلم.

يقول الإمام ابن تيمية: "وتلك الغاية لا بد أن تكون معلومة للخالق، فإن العلة الغائية هي أول في العلم والإرادة، وهي آخر في الوجود والحصول، ولهذا كان الخالق لا بد أن يعلم ما خلق؛ فإنَّه قد أراده وأراد الغاية التي خلقه لها، والإرادة مستلزمة للعلم، فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به.

والصانع إذا أراد أن يصنع شيئًا فقد علمه وأراده، وقدر في نفسه ما يصنعه، والغاية التي ينتهي إليها، وما الذي يوصله إلى تلك الغاية.

والله سبحانه قدر وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، كما ثبت في "صحيح

مسلم" عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء".

وفي البخاري عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض"".

وكون العبادة غاية لله من جهة أمره -سبحانه وتعالي- بها؛ لأنَّه لا يأمر إلا بما يحب ويرضى فكل ما أمر الله تعالى به فهو من محبوباته ومرضياته، فالله يحب العبادة ويرضى عن من فعلها، فهي من هذه الجهة تعتبر غاية محبوبة لله تبارك وتعالى، وإلا فنفعها وفائدتها حاصلة للعبد، والله غني عن عبادة الخلق، لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم؛ ولذا قال سبحانه بعد أن بيَّن هذه الغاية: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} [الذاريات: ٥٧، ٥٨].

يقول الشيخ السعدي: "وهذان الأمران؛ وهما معرفة الله وعبادته: هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهي الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيوية وأخروية، وهما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فات كل خير، وحضر كل شر، فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يحفه نوال".

*** المسألة الثالثة: أدلة القاعدة.**

دلَّ على صحة هذه القاعدة أدلة عديدة، أذكر منها ما يلي:

أولًا: من أصرح الأدلة الدالة على تقرير ما أفادته القاعدة قوله تعالى: {وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

ودلالة الآية من حيث إفادتها للحصر (بما) النافية مع (إلا) المفيدان للحصر والقصر، (فيكون معنى الكلام: أني خلقت الجن والإنس لغاية واحدة هي العبادة دون ما سواها، ففيه قصر علة الخلق على العبادة).

ولأن الاستثناء هنا مفرغ -أي: من أعمِّ الأحوال كما يقول النحاة- والمعنى: وما خلقت الجن والإنس لشيء، أو لغاية من الغايات أبدًا إلا لغاية واحدة هي: أن يعبدوني.

يقول الإمام النووي في بيان معنى الآية: "وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنَّها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام".

قال ابن عاشور: "واللام في {لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} لام العلة؛ أي: ما خلقتهم لعلة إلا علة عبادتهم إياي، والتقدير: لإرادتي أن يعبدون، ويدل على هذا التقدير قوله في جملة البيان: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)}، وهذا التقدير يلاحظ في كل لام ترد في القرآن تعليلًا لفعل الله تعالى؛ أي: ما أرضى لوجودهم إلا أن يعترفوا لي بالتفرد بالإلهية".

ثانيًا: قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)} [البينة: ٥]، وقوله سبحانه: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)} [التوبة: ٣١].

لقد دلت الآيتان على حصر أمر الله لأهل الكتاب في أمرهم بالعبادة؛ أي: أنهم ما أمروا بشيء من التكاليف في هذه الدنيا إلا بعبادة الله تعالى وحده، فالنفي الذي يأتي

بعده استثناء ثم إثبات يفيد قمة الحصر؛ أي: هم مقصورون على العبادة، فلم يخلقوا إلا للأمر بها وتحصيلها، وإفراد الرب تبارك وتعالى بها دون ما سواه.

وهذا يدل على أن العبادة هي غاية الله من خلقه؛ لأنَّه جعل الأمر بها أعظم مأمور، وأفضل مطلوب كما أفادته طريقة الحصر في الآيتين؛ فكأنَّه لم يأمرهم بشيء سوى عبادته سبحانه، ولهذا كثر في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده.

قال الفخر الرازي في معنى آية التوبة: "ومعناه ظاهر: وهو أن التوراة والإنجيل والكتب الإلهية ناطقة بذلك".

أي: ناطقة ومصرحة بالأمر بالعبادة، فكون جميع الكتب الإلهية قد أمرت أول ما أمرت بهذه العبادة ليدل أعظم الدلالة على أنها هي غاية الغايات من خلق العباد.

يقول الإمام ابن تيمية: "فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنه أرسل إلى الخلق رسلًا من البشر، وأنه أوجب العدل، وحرم الظلم والفواحش والشرك، وأمثال ذلك من الشرائع الكلية".

ويقول الإمام ابن القيم في الآية: "فنهى سبحانه أن يكون أَمَرَ عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية".

بل هذا ما أمر الله به صفوة خلقه، وخير البشر، كما قال سبحانه: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢)} [الزمر: ١١، ١٢].

وهذا يؤيد كون العبادة هي غاية الخلق وغاية الأمر.

يقول الرازي في بيان الآيات: "وهذا يشتمل على قيدين؛ أحدهما: الأمر بعبادة الله، الثاني: كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي،

وشوائب الشرك الخفي، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر؛ لينبه على أن غيره بذلك أحق، فهو كالترغيب للغير".

ثالثًا: الأدلة الدالة على أن الله إنما بعث رسله جميعًا بالأمر بالعبادة وترك الشرك، وهذا يدل على أن العبادة هي غاية الله من خلقه، إذ لا يتصور أن يتوارد الرسل جميعًا على دعوة واحدة، وعقيدة مشتركة إلا ويكون ما بعثوا به هو غاية الله منهم ومن خلقهم وإيجادهم. ومن تلك النصوص:

قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]، وقوله سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)} [الأنبياء: ٢٥]، وغيرها من النصوص.

فالآيات أفادت حصر مهمة الرسل العظمى في الدعوة لهذا الأصل العظيم، إذ ليس لهم مهمة في حياتهم سوى بيان العبادة التي خلق الخلق من أجلها، وهذا يدل على أن عبادة الله وحده هي غايته من خلق الخلق وبعثة الرسل.

يقول أبو حيان: "وكل واحد من هؤلاء الأنبياء؛ نوح وهود وصالح تواردوا على الأمر بعبادة الله؛ والتنبيه على أنه لا إله غيره، إذ كان قومهم عابدي أصنام، ومتخذي آلهة مع الله كما كانت قريش والعرب".

رابعًا: من المعلوم أن خلق الخلق بدون غاية من خلقهم ينافي كمال حكمة الله تعالى؛ وعليه فلا بد من وجود غاية يرجع إليها وجود الخليقة، ولا بد أن تكون غاية الخلق هي أعظم محبوباته تبارك وتعالى، ولا شك أن أعظم محبوبات الرب هي عبادته سبحانه وحده، وإفراده بالخضوع والتذلل والمحبة، كما أن العبادة بالنسبة لبني آدم هي غاية كمالهم، والله متصف بصفات الكمال والجلال، يحب الكمال لنفسه، ومن آثار كماله سبحانه محبته لتكميل عباده، ولذا كانت العبادة هي غاية الله

من إيجاد خلقه، من جهة أمره ومحبته ورضاه، يحبها منهم، ويكملهم بها.

يقول ابن القيم: "ومعلوم أن ترك الإنسان كالبهائم مهملًا معطلًا مضاد للحكمة، فإنه خلق لغاية كماله، وكماله أن يكون عارفًا بربه، محبًا له، قائمًا بعبوديته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦].

فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر، وهما أعظم كمال الإنسان، والله تعالى من عنايته به ورحمته له عرضه لهذا الكمال، وهيأ له أسبابه الظاهرة والباطنة ومكنه منها".

فالأمر بالعبادة وقيام الخلق بها هو غاية كمالهم، وبه تظهر وتتجلى آثار أسمائه وصفاته سبحانه؛ إذ هذا هو مقتضى الاتصاف بالكمال، والتنزه عن النقص.

يقول الإمام ابن تيمية في شأن العبادة: "فهو العمل الذي خلق العباد له؛ أي: هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادمًا لما يحب ويرضى، ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم، وسعادتهم، ونجاتهم عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل: لا إله إلا الله".

وقال أيضًا: "وجماع الصلاح للآدميين هو طاعة الله ورسوله، وهو فعل ما ينفعهم وترك ما يضرهم، والفساد بالعكس، فصلاح الشيء هو حصول كماله الذي به تحصل سعادته، وفساده بالعكس، والخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم، ويكون ذلك غاية الغايات، ونهاية النهايات، فعبادته هي الغاية التي فيها صلاحهم".

*** المسألة الرابعة: أقوال أهل العلم في تقرير معنى القاعدة.**

تضافرت أقوال أهل العلم رحمهم الله في اعتماد هذه القاعدة والتدليل عليها، بل واعتبروها من الأصول العظيمة لهذا الدين، وفيما يأتي أنقل بعض ما وقفت عليه من أقوالهم:

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "خلق الله الخلق لعبادته".

ويقول الإمام ابن تيمية: "والعبادة: هي الغاية التي خلق الله لها العباد؛ من جهة أمر الله، ومحبته، ورضاه كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦]".

ويقول الإمام ابن القيم: "فالعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها".

وقال الإمام ابن كثير: "ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له".

ويقول المقريزي: "فالعبادة هي التي ما وجدت الخلائق كلها إلا لأجلها".

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: "ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم. قلت: وهي الحكمة الشرعية الدينية".

ويقول الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: "وأهم ما يبدأ به في التعليم هو معرفة أصول الدين وقواعد الإسلام، التي لا يحصل بدونها، ولا يستقيم بناؤه إلا عليها، لا سيما معرفة ما دلت عليه كلمة التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله، من الإيمان باللّه ومعرفته وتوحيده، بإخلاص العبادة بأنواعها له سبحانه، والبراءة من كل معبود سواه، والقيام بذلك علمًا وعملًا.

فإن هذا هو أصل الدين وقاعدته، وهو الحكمة التي لأجلها خلقت الخليقة،

وشرعت الطريقة، وأرسلت لأجلها الرسل، وبها أنزلت الكتب؛ وجميع أحكام الأمر والنهي تدور عليها، وترجع إليها".

وقال الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ عقب ذكره لبعض تقريراته في العبادة: "فهذه هي: الحكمة الشرعية الدينية، والأمر المقصود في إيجاد البرية".

ويقول الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}: "هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه".

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: "وهذا الحكم من أعدل الأحكام، وأوضحها، وأظهرها حكمة، وذلك أن الله جلَّ وعلا خلق الخلق ليعبدوه، ويوحدوه،
وأوضحها، وأظهرها حكمة، وذلك أن الله جلَّ وعلا خلق الخلق ليعبدوه، ويوحدوه،
ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه".

* **المسألة الخامسة: فوائد القاعدة وتطبيقاتها**.

لقد تضمنت القاعدة العديد من الفوائد أستعرض ما ظهر لي من ذلك فيما يلي:

أولًا: اتصافه تعالى بالعلم الشامل المحيط لكل ما في الكون، وبالحكمة الباهرة الجليلة، إذ هو سبحانه لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لعبًا، ولا سدى بدون حكمة ولا غاية، وإنما له سبحانه في جميع خلقه وأمره، وقضائه وقدره: الغاية الباهرة العظيمة، والحكمة البالغة الجليلة، التي تقصر العقول عن الإحاطة بكنهها وحقيقتها، وتعجز الألسن عن الإفصاح بأسرارها ومكنوناتها.

قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)} [المؤمنون: ١١٥].

وقال ﷻ: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)} [القيامة: ٣٦].

يقول الإمام الشافعي: "لا يؤمر ولا ينهي".

وقال تعالى في وصف المؤمنين: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)} [آل عمران: ١٩١].

وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)} [ص: ٢٧].

وقال ﷻ: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)} [القمر: ٥].

يقول الإمام ابن تيمية: "وما خلق الخلق باطلًا ولا فعل شيئًا عبثًا، بل هو الحكيم في أفعاله وأقواله -سبحانه وتعالي-، ثم حكمته ما أطلع بعض خلقه عليه، ومنه ما استأثر سبحانه بعلمه".

ويقول العلامة ابن القيم: "إنه سبحانه حكيم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة، وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل".

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: "وإن حكمته حكمة حق عائدة إليه، قائمه به كسائر صفاته، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه، وقدرته لمقدوره، كما يقوله نفاة الحكمة الذين يقرون بلفظها دون حقيقتها، بل هي أمر وراء ذلك، وهي الغاية المحبوبة له المطلوبة، التي هي متعلق محبته وحمده، ولأجلها خلق فسوى، وقدر فهدى، وأحيى وأسعد وأشقى، وأضل وهدى، ومنع وأعطى، وهذه الحكمة هي الغاية، والفعل وسيلة إليها، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفي للغايات، وهو محال؛ إذ نفي الغاية مستلزم لنفي الوسيلة، فنفي الوسيلة وهي الفعل لازم لنفي الغاية، وهي الحكمة، ونفي قيام الفعل والحكمة به نفي لهما في الحقيقة؛ إذ فعل لا يقوم بفاعله،

وحكمة لا تقوم بالحكيم شيء لا يعقل، وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته".

ثانيًا: لا يخفى أن المقصود من العبادة في القاعدة هي العبادة التي سبقتها معرفة العبد بربه تبارك وتعالى، وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وعليه فلا تعتبر العبادة مع الجهل بالمعبود، وبما له من الأسماء العليا، والصفات الحميدة.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: "هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم".

ثالثًا: تضمنت القاعدة الدلالة على وجوب صرف العبادة لله تعالى وحده دون غيره من الخلق؛ لأن القاعدة نصت على أن العبادة هي غاية الله من خلقه، وأخبر الله الخلق بهذه الغاية، فدل ذلك على وجوب عبادته -سبحانه وتعالي-، وإلا لما كانوا محققين لما خلقوا من أجله، فإخباره دال على أن هذا هو الغاية من الخلق، ودال في نفس الوقت على أمرهم بعبادته سبحانه وحده لا شريك له، وهو أمر عام لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم كما سيأتي إيضاحه.

رابعًا: دلت القاعدة على صحة مذهب أهل السُّنَّة والجماعة من كون العبادات غايات ووسائل؛ إذ هي في نفسها غاية بالنسبة للعبد، كما أنها وسائل لرضا الله تعالى، ودخول جنته، وذلك بخلاف قول الفلاسفة والباطنية وغلاة أهل البدع من الرافضة والصوفية، كما نقل ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّهم قرروا أن العبادات التي أمرت بها الرسل مقصودها إصلاح أخلاق النفس لتستعد للعلم الذي زعموه بأنه كمال النفس، فيجعلون العبادات وسيلة محضة إلى ما يدعون من العلم،

ولهذا يرون سقوط العبادة عمن تحصل على هذا العلم المزعوم، ولا شك في بطلان هذا المذهب وفساده، ومعارضته الظاهرة للنصوص المصرحة بخلافه، وهو خلاف ما قرره أهل السُّنَّة من أن العبادة غاية عظيمة كما أنها وسيلة في ذاتها إلى رحمة الله ورضوانه.

يقول الإمام ابن تيمية: "والمقصود هنا التنبيه على أنه لو قدر أن النفس تكمل بمجرد العلم كما زعموه؛ مع أنه قول باطل، فإن النفس لها قوتان؛ قوة علمية نظرية، وقوة إرادية عملية، فلا بد لها من كمال القوتين؛ بمعرفة الله وعبادته، وعبادته تجمع محبته، والذل له، فلا تكمل نفس قط إلا بعبادة الله وحده لا شريك له.

والعبادة تجمع معرفته ومحبته والعبودية له، بهذا بعث الله الرسل، وأنزل الكتب الإلهية كلها تدعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهؤلاء يجعلون العبادات التي أمرت بها الرسل مقصودها إصلاح أخلاق النفس؛ لتستعد للعلم الذي زعموا أنه كمال النفس، أو مقصودها إصلاح المنزل والمدينة، وهو الحكمة العملية، فيجعلون العبادات وسائل محضة إلى ما يدعونه من العلم؛ ولذلك يرون هذا ساقطًا عمن حصل المقصود كما تفعل الملاحدة الإسماعيلية، ومن دخل في الإلحاد أو بعضه، وانتسب إلى الصوفية، أو المتكلمين، أو الشيعة، أو غيرهم".

ولا ينكر كون العلم والمعرفة أصل للعبادة، وبدون العلم النظري المستقر في القلب لا تنفع العبادات العملية، وعليه يكون كل من العلم والعبادة غاية مقصودة لله تبارك وتعالى وذلك لتلازمهما أبدًا.

يقول الإمام ابن تيمية: "وليست عبادته مجرد الأعمال البدنية، بل أصل العبادة: معرفته، وكمال محبته، وكمال تعظيمه، وهذه الأمور تصحبه في الدار الآخرة.

فكل من النظر والعمل مأمور به مقصود للشارع، وكل منهما معين للآخر وشرط

في حصول المقصود بالآخر، فإن الناظر مع سوء قصده وهواه لا يحصل له المطلوب لا من العلم ولا من العمل.

والعابد مع فساد نظره لا يحصل له المقصود لا من العلم ولا من العمل، بل كلاهما واجب لنفسه وشرط للآخر فلا بد من سلوك الطريقين معًا".

خامسًا: سبق وأن بيَّنت معنى العبادة في القاعدة، وهي إفراده سبحانه بالتوحيد والانقياد له بطاعته وطاعة رسله، وإخلاص الدين له -سبحانه وتعالي-، وهذا ما دعت إليه جميع الرسل، وهو الغاية من إيجاد الخلف، ودل على ذلك صريح القرآن كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦]، وهذا هو المذهب الحق في تفسير هذه الآية، لكن للسلف أقوالًا كثيرةً في تفسير العبادة الواردة في هذه الآية، وقد ذكرها الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مصنفاته متعقبًا لكثير منها، ومناقشًا لأدلتها، وفيما يلي تلخيص هذه الأقوال، مع بيان ما فيها من قوة أو ضعف، مستعينًا في ذلك بكلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم. فأقول يمكن إجمال هذه الأقوال فيما يلي:

الأول: قول جمهور المسلمين، الذين فسروا العبادة بما ذكرناه في معنى القاعدة، وأنها إفراده سبحانه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، فهذه هي العبادة التي هي غاية الله من إيجاد الخليقة كلها؛ وهي المقصود الأعظم من إيجاد الخلق وإرسال الرسل.

يقول الإمام ابن تيمية: "وهو الذي عليه جمهور المسلمين: أن الله خلقهم لعبادته، وهو فعل ما أمروا به؛ ولهذا يوجد المسلمون قديمًا وحديثًا يحتجون بهذه الآية على هذا المعنى حتى في وعظهم وتذكيرهم وحكاياتهم".

قال الربيع بن أنس: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}؛ "أي: إلا للعبادة".

والمعنى: أن الله خلقهم ليعبدوه ففعل بعضهم، وقام بالعبادة، وترك البعض فلم يعبد الله.

الثاني: وهو مروي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد أيضًا؛ قال: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}؛ "أي: إلا لآمرهم بعبادتي؛ فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره".

فعبر عن الأمر والإيجاب بالعبادة، وهي ثمرته ومقتضاه.

ويمكن توجيه هذا القول بأن فعل العبادة هو الغاية من الخلق، ولكن هذه العبادة لا تحصل ولا تصح إلا بأمره سبحانه الشرعي الديني، فصارت العبادة مشروطة وجودًا واعتبارًا بورود الأمر بها من الله تعالى.

ولذا جاء البيان من الله تعالى بأن عبادته -سبحانه وتعالي- هي غاية الأمر كما أنها غاية الخلق، فقال -سبحانه وتعالي-: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)} [التوبة: ٣١].

يقول ابن القيم: "فهذه المعرفة وهذه العبودية هما غاية الخلق والأمر".

الثالث: قول طائفة من السلف، وافقوا الجمهور في معنى العبادة المراد من القاعدة، لكن قالوا هي مخصوصة بمن وقعت منه العبادة، فمن وجدت منه العبادة فهو مخلوق لها ومن لم توجد منه فليس مخلوقًا لها، فالغاية من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله تعالى حاصلة بفعل السعداء منهم.

قال سعيد بن المسيب: "ما خلقت من يعبدني إلا ليعبدني". وقال الضحاك: "هذا خاص لأهل طاعته".

وقال البخاري في معنى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}: "ما خلقت أهل السعادة من أهل الفريقين إلا ليوحدون".

فهؤلاء قالوا: الآية بمعنى الخصوص لا العموم لأن البله والأطفال والمجانين لا

يدخلون تحت الخطاب، وإن كانوا من الإنس، وكذلك الكفار يخرجون من هذا الخطاب بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف: ١٧٩]، فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

ومال إليه الشيخ يحيى بن أبي الخير العمراني بعد أن ذكر في الآية ثلاثة أقوال، فقال مقررًا ومرجحًا له: "والثالث: أن لفظه لفظ العموم والمراد به الخصوص، وأراد بذلك الذين هداهم ووفقهم لطاعته وعبادته؛ يدل على هذا شيئان؛ أحدهما: أن فيهم الأطفال، والمجانين، ومن خرج من عموم الآية، والثاني: أنه قال: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف: ١٧٩]، فأخبر بهذه الآية أنه خلق كثيرًا منهم لجهنم، ومن خلقه الله لجهنم لم يخلقه للعبادة، والقرآن لا يتناقض، بل يؤيد بعضه بعضًا قال الله تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)} [النساء: ٨٢]، ولا ينتفي عنه الاختلاف إلا إذا حملت الآيتان على ما ذكرنا".

وقد بيَّن الإمام ابن تيمية ضعف هذا القول من وجوه عديدة أذكرها باختصار مع بعض التصرف فيما يلي:

أولًا: أن قصد العموم ظاهر في الآية، وبيِّن بيانًا لا يحتمل النقيض؛ إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة؛ فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له، بل الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

ثانيًا: وأيضًا فإن سياق الآية يقتضي أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم؛ لأن الله خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له، ولهذا عقبها بقوله: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)} [الذاريات: ٥٧]، فإثبات العبادة ونفي الرزق والإطعام يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام.

ثالثًا: القول بأنها للمؤمنين فقط يجعل هذا كالعذر لمن لا يعبده ممن ذمه الله ووبخه، وغايته يقول: أنت لم تخلقني لعبادتك وطاعتك، ولو خلقتني لها لكنت عابدًا، وإنما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك، وأنا خلقتني لأكفر بك، وأشرك بك، وقد فعلت ما خلقتني له، كما فعل أولئك المؤمنون ما خلقتهم له، فهذا مما يلزم هذا القول وكلام الله منزه عن هذا.

الرابع: قول من قال الآية على عمومها؛ لكن المراد بالعبادة تعبيده لهم، وقهره لهم، ونفوذ قدرته ومشيئته فيهم، وأنه صيرهم إلى ما خلقهم له من السعادة والشقاوة.

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦] "قال: ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة".

وقيل: "جبلهم على الطاعة وجبلهم على المعصية".

فالمؤمن مطيع ومنقاد باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه وقدره، جبرًا وقصرًا.

وهذا معنى صحيح في نفسه، فلا يخرج أحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور، ولكن قوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} لم يرد به هذا المعنى الذي ذهبوا إليه، وحاموا حوله من أن المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره وحكمه. وبيان ذلك:

أولًا: أن نفاذ المشيئة في الخلق ليس هو العبادة، فإن جميع المخلوقات حتى البهائم والجمادات بهذه المنزلة.

ثانيًا: أن لفظ العبادة في عامة سور القرآن لا يراد به هذا المعنى.

يقول الإمام ابن تيمية: "فهذا ونحوه كثير في القرآن؛ لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التي أمرت بها الرسل؛ وهي عبادته وحده لا شريك له، والمشركون لا يعبدون الله،

بل يعبدودن الشيطان، وما يدعونه من دودن الله؛ سواء عبدوا الملائكة، أو الأنبياء والصالحين، أو التماثيل والأصنام المصنوعة، فهؤلاء المشركودن قد عبدوا غير الله تعالى كما أخبر الله بذلك؛ فكيف يقال: أن جميع الإنس والجن عبدوا الله لكون قدر الله جاريًا عليهم، والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التي تحصل بإرادتهم، واختيارهم، وإخلاصهم الدين له، وطاعة رسوله، وبين أن يُعَبِّدَهُم هو وَيُنْفِذ فيهم مشيئته، وتكودن عبادتهم لغيره، للشيطان، وللأصنام من المقدور".

ثالثًا: أن قوله تعالى: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} يقتضي فعلًا يفعلونه هم، وكونه يَرُبُّهم ويخلقهم، وينفذ فيهم مشيئته ليس إلا فعله ليس في ذلك فعل لهم.

الخامس: قول السدي: "من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [لقمان: ٢٥]، هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك".

لكن هذا أيضًا ضعيف؛ لأن المشركين لا يعبدون الله بل يعبدون الشيطان، وما يدعونه من دون الله؛ سواء عبدوا الملائكة، أو الأنبياء والصالحين، أو التماثيل، كما أخبر الله بذلك، فالمشرك يعبد الشيطان وما عدل به الله ولا يعبد الله، ولا يسمى مجرد الإقرار بالصانع عبادة لله مع الشرك بالله، ولكن يقال كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)} [يوسف: ١٠٦]، فإيمانهم بالخالق مقرون بشركهم به، فعبادة المشركين وإن جعلوا جزءًا منها لله فإن الله لا يقبل منها شيئًا، بل كلها لمن أشركوه، فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه.

السادس: قول مجاهد في قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}: قال: "إلا ليعرفون".

وهذا المعنى صحيح، وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضي أن خلقهم شرط في معرفتهم، لا يقتضي أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التي خلقوا لها،

فهذه المعرفة هي من إقرارهم العام الذي هم فيه مشركون، وليست هي العبادة التي هي غاية الله من خلقه.

السابع: معنى العبادة في الآية هو الاستعداد الفطري لها، الذي فطر الله النفوس عليه؛ فجعل لهم عقولًا وحواسًا وقلوبًا منقادة نحو العبادة، فباعتبار استعدادهم الفطري للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيًا بها، وهذا كما تقول: البقر مخلوقة للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلًا، فالمعنى: أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة.

وهذا المعنى صحيح، لكن لفظ يعبدون كما سبق يقتضي فعلًا منهم، وكونهم معدين ومهيئين للعبادة هو فعل الله بهم لا فعلهم، ثم إن الملائكة قد طبعت نفوسهم على العبادة، وانقطعت عنهم أسباب الانحراف، بحيث لا تقع منهم معصية على الإطلاق، فهم أولى بهذا الوصف من سائر الإنس والجن، كما أن لام الغاية قد دلت على آخر الشي ونهايته في أمر الخلق، والفطرة إنما تكون مع ابتداء الخلق.

الثامن: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}: إلا ليوحدون؛ فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه قوله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)} [العنكبوت: ٦٥].

وهذا ضعيف أيضًا، فإن المشرك إذا أخلص الدعاء في حال الشدة دون الرخاء فلا يسمى موحدًا هكذا بإطلاق، فإن التوحيد المطلق هو الذي لا يقارنه الشرك، وإخلاص هذا الكافر إنما هو في حال شدته فقط، فهو إخلاص وتوحيد مقيد، إذ هم لا يثبتون على التوحيد بل يسارعون إلى الشرك في حال الأمن والرخاء، ولا يعتبر عابدًا موحدًا لله إلا من ثبت على التوحيد والعبادة.

يقول الإمام ابن تيمية: "نفي العبادة مطلقًا ليس هو نفي لما قد يسمى عبادة مع التقييد، والمشرك إذا كان يعبد الله ويعبد غيره فيقال: إنه يعبد الله وغيره، أو يعبده مشركًا به، لا يقال: إنه يعبد مطلقًا".

وقال ابن القيم: "لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتًا على عبادة الله، موصوفًا بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم علي عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلًا، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدًا لله ولا عبدًا له".

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -: عن عبادة المشركين -: "وأما عبادته سبحانه بالإخلاص دائمًا في الشدة والرخاء فلا يعرفونها وهي نتيجة الإلهية".

هذا ما وقفت عليه من أقوال أهل العلم في تفسير معنى الآية، والذي يترجح من هذه الأقوال، وعليه جملة من المحققين؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والصنعاني، والشوكاني، والشنقيطي، وغيرهم هو الأول، وقريبًا منه الثاني، فإن العبادة لا توجد بدون الأمر من الله تعالى.

وبهذا يظهر أن العبادة الشرعية هي الغاية من خلق الخلق وعلى ذلك تكون الإرادة التي دلت عليها اللام في قوله: {لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}. إرادة دينية شرعية، إذ هي الأصل في إيجاد المخلوق، وهي لا تقتضي وجود المراد.

يقول الإمام ابن تيمية: "إن الله إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، فإن هذا هو الغاية التي أرادها منهم بأمره، وبها يحصل محبوبه، وبها تحصل سعادتهم ونجاتهم، وإن كان منهم من لم يعبده ولم يجعله عابدًا له، إذ كان في ذلك الجعل تفويت محبوبات أخر هي أحب إليه من عبادة أولئك، وحصول مفاسد أخر هي أبغض إليه

من معصية أولئك".

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ عند كلامه على أنواع الإرادة: "ولهذا كانت الأقسام أربعة:

أحدها: ما تعلقت به الإرادتان؛ وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع فأمر به، وأحبه، ورضيه، وأراده إرادة كون فوقع، ولولا ذلك لما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط؛ وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط؛ وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها؛ كالمباحات، والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها، ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت؛ فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي، وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦]، هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى: أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم، والتي أمروا بفعلها هي العبادة، فهو العمل الذي خلق العباد له؛ أي: هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادمًا لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية، التي فيها سعادته ونجاته، وعادمًا لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه".

ويقول الشيخ عبد الله أبا بطين: "والإرادة الدينية: أصل في إيجادَ المخلوق،

والإرادة الكونية: أصل فيمن كتبت عليه الشقاوة، فلا ييسر إلا لها، ولا يعمل إلا بها، قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩] فهي الإرادة الكونية، وهي لا تعارض الإرادة الدينية، التي هي أصل إيجاد المخلوقات، فمن ذلك قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦] فقد يعبدون وقد لا يعبدون".

وقال الشيخ الشنقيطي: "فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: {لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}: إرادة دينية شرعية، وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله، لا إرادة كونية قدرية؛ لأنَّها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن والواقع خلاف ذلك".

وبذلك يظهر أن الإرادة الكونية للعبادة غير لازمة على جميع الخلق، وليست هي من مقتضيات اللام في قوله: {لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦]، بخلاف الدينية؛ إذ هي الأصل في إيجاد البشرية فهي لازمة وداخلة في معنى اللام، ولا يلزم من انتفاء الإرادة الكونية انتفاء الإرادة الدينية؛ فإن تعوق البعض عن الوصول إلى الغاية، مع تعاضد المبادئ، وتآخذ المقدمات الموصلة إليها لا يمنع كونها غاية، كما في قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)} [إبراهيم: ١]، ونظائره.

سادسًا: دلَّت القاعدة كذلك على إبطال قول من زعم بأن خلق آدم عليه السلام وجميع ما في الكون كان من أجل النبي محمد ﷺ، ورووا في ذلك خبرًا باطلًا موضوعًا وفيه: (ولولا حمد ما خلقتك).

وقد بيَّن الشيخ الألباني ضعف الحديث من جهة المتن؛ لمعارضته لما هو مقرر في الشريعة، ومتفق عليه بين أهل الإسلام في موضعين، فقال: "الموضع الثاني: قوله

في آخره: (ولولا محمد ما خلقتك) فإن هذا أمر عظيم يتعلق بالعقائد التي لا تثبت إلا بنص متواتر اتفاقًا، أو صحيح عند آخرين، ولو كان ذلك صحيحًا لورد في الكتاب أو السُّنَّة الصحيحة، وافتراض صحته في الواقع مع ضياع النص الذي تقوم به الحجة ينافي قوله تبارك وتعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} [الحجر: ٩]، والذكر هنا يشمل الشريعة كلها قرآنا وسُنّة ... وأيضًا فإن الله تبارك وتعالى قد أخبرنا عن الحكمة التي من أجلها خلق آدم وذريته، فقال ﷻ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} [الذاريات: ٥٦]، فكل ما خالف هذه الحكمة أو زاد عليها لا يقبل إلا بنص صحيح عن المعصوم ﷺ كمخالفة هذا الحديث الباطل".

ومثله حديث: (لولاك ما خلقت الأفلاك) فإنَّه حديث موضوع، وقد جاء في فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية تعقيبًا على من صحح معنى الحديث: "بل هو باطل لفظًا ومعنى، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق ليعبدوه، كما قال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)}، ولم يثبت حديث عن النبي ﷺ يدل على أن الخلق خلقوا من أجله لا الأفلاك ولا غيرها من المخلوقات، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)} [الطلاق: ١٢]".

وقال الشيخ محمد جمال الدين القاسمي: "ومما هو جدير بالعناية قصص المولد النبوي الذي اشتمل على كثير من الخيال الشعري، والأحاديث التي وضعها المطرون الغلاة كحديث: (لولاك ما خلقت الأفلاك)".

(باب اكتمال الدين)

من القواعد العقدية المهمة (قاعدة الدين قد كَمُلَ بيانه في أصوله وفروعه باطنه وظاهره)

وفيه مسائل:

*** المسألة الأولى * معنى القاعدة**

يظهر جليًا نوع علاقة هذه القاعدة بسابقتها؛ إذ بيان الشرع وإيضاحه واستبانته في أصوله وفروعه من أعظم وسائل تكميل الدين وحفظه وصيانته، ومن المعلوم أن تمام الدين وكمال بيانه يكون بتبليغ ألفاظ الشرع ومعانيه، إذ تبليغ الألفاظ دون المعاني من العبث الذي يُنَزَّه عنه الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ، كما أن تبليغ المعاني بدون الألفاظ مما يتعذر ولا يعقل، إذ الألفاظ قوالب المعاني، والذي يجب الجزم واليقين به أن بيان الدين قد وقع من النَّبِيِّ ﷺ على أكمل الوجوه وأتم الصور.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا البيان الذي تكفل به سبحانه وأمر به رسوله؛ إما أن يكون المراد به بيان اللفظ وحده، أو المعنى وحده، أو اللفظ والمعنى جميعًا، ولا يجوز أن يكون المراد به بيان اللفظ دون المعنى؛ فإن هذا لا فائدة فيه ولا يحصل به مقصود الرسالة، وبيان المعنى وحده بدون دليله وهو اللفظ الدال عليه ممتنع، فعلم قطعًا أن المراد بيان اللفظ والمعنى، واللّه تعالى أنزل كتابه؛ ألفاظه ومعانيه، وأرسل رسوله ليبين اللفظ والمعنى، فكما أنا نقطع ونتيقن أنه بيَّن اللفظ فكذلك نقطع ونتيقن أنه بيَّن المعنى، بل كانت عنايته ببيان المعنى أشد من عنايته ببيان اللفظ وهذا هو الذي ينبغي، فإن المعنى هو المقصود وأما اللفظ فوسيلة إليه ودليل عليه، فكيف تكون عنايته بالوسيلة أهم من عنايته بالمقصود وكيف نتيقن بيانه للوسيلة ولا نتيقن بيانه للمقصود وهل هذا إلا من أبين المحال".

فالقاعدة دلت على كمال بيان الله تعالى لهذا الدين في كتابه، وعلى لسان رسوله

محمد ﷺ، بما أوحاه الله إليه من الوحي؛ وهذا البيان شامل لأصول الدين وفروعه وأقواله وأعماله، ويدخل في ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، سواء كانت من الأمور العلمية الخبرية، أم كانت من الأمور العملية، فجميع ذلك قد تم بيانه، واكتمل إيضاحه على غاية الإتقان والبيان.

ولا شكَّ أن أصول الدين وقواعد الإسلام هي من أكثر أمور الدين بيانًا ووضوحًا؛ وذلك لشدة الحاجة إليها.

يقول الإمام ابن تيمية: "فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته، واعتقاده، والتصديق به من هذه المسائل فقد بيَّنه الله ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر؛ إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبيَّنه للناس، وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بيَّنوه، وبلغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة تم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه، والحكمة التي هي سُنّة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضًا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد، وتمام الواجب والمستحب".

* **المسألة الثانية: أدلة القاعدة.**

دلَّ على صحة هذه القاعدة أدلة عديدة في كتاب الله تعالى وفي سُنّة النَّبِيّ ﷺ، وإجماع الأمة، وفيما يأتي أذكر بعض ما ظهر لي منها:

أولًا: عموم النصوص الدالة على إكمال الله تعالى لهذا الدين، وأنه لم ينقص منه شيئًا، كما في قوله سبحانه وتعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] وقال سبحانه: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨] ولا شكَّ أن كمال الدين يستلزم اكتمال معانيه، وبيانها، وعدم خفائها وغموضها، لا سيما أصول الدين وقواعده العظام.

يقول الإمام ابن حزم: "فأيقنا -ولله الحمد- بأن الدين الذي كَلَّفَنا به ربنا، ولم

يجعل لنا مخلصًا من النار إلا باتباعه، مبين كله في القرآن الكريم، وسُنّة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة، وأن الدين قد كمل فلا مزيد فيه ولا نقص، وأيقنا أن كل ذلك محفوظ مضبوط ...".

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد شهد الله تعالى بأن النص لم يفرط فيه شيئًا، وأن رسوله عليه الصلاة والسلام قد بيَّن للناس كل ما نزل إليهم، وأن الدين قد كمل، فصح أن النص قد استوفى جميع الدين".

ويقول الإمام ابن تيمية في بيان قول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}: "وهذا نص في أن الدين كامل لا يحتاج معه إلى غيره".

ويقول الإمام ابن كثير: "هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم -صلوات الله وسلامه عليه- ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن ...".

ويقول الإمام ابن القيم: "إن الله سبحانه قد تمم الدين بنبيه وأكمله به، ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه، ولا رأي ولا منام ولا كشوف، قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره، فقال: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)} [العنكبوت: ٥١]".

ويبيِّن العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ معنى إكمال الدين بأنه يكون: "بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كالن الكتاب والسُّنَّة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين".

ثانيًا: الأدلة الدالة على أن الرسول ﷺ قد ألزمه ربه بتبليغ الرسالة، وتبيينها

للناس، فهو ﷺ الموكل من قبل ربه بتلك المهمة وهي مهمة بيان هذا الدين، ولا شك أنه ﷺ قد قام بهذه المهمة على أتم وجه وأحسن حال، ومن تلك النصوص ما يلي:

قوله سبحانه وتعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)} [النحل: ٤٤].

تضمنت الآية الكريمة الدلالة على وظيفة النَّبِيّ ﷺ مع القرآن الكريم، ألا وهي إيضاحه وتفصيله وتفسيره وتكميله بكمال بيانه له، وتوضيحه للناس.

وقد قام ﷺ بهذه المهمة خير قيام، وأداها كما يحب ربه ويرضى؛ إذ هو ﷺ أفضل من أطاع ربه واتبع أمره.

يقول الإمام ابن تيمية: "يجب أن يُعْلَم أن النَّبِيّ ﷺ بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} يتناول هذا وهذا".

ويقول الشيخ السعدي في بيان هذه الآية: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ}؛ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}، وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه".

ومن ذلك قوله تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)} [النور: ٥٤].

أي: التبليغ البيِّن الواضح الذي لا شكَّ فيه والظاهر الذي لا لبس فيه، والذي يصل إلى القلوب فلا تبقى بعده حجة، ولا يثبت لصاحبه عذر.

يقول الإمام الطبري: "ويعني بقوله: {الْمُبِينُ}: الذي يبين عن معناه لمن أبلغه ويفهمه من أرسل إليه".

وقال الإمام ابن كثير: "فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شكَّ ولا

امتراء وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين فما جاءت به الرسل هو الحق ومن خالفهم فهو على الضلال".

ويقول الشيخ السعدي: "أي: تبليغكم البين الذي لا يُبْقي لأحد شكًا ولا شبهة، وقد فعل ﷺ".

فليست وظيفة الأنبياء إلا البلاغ للرسالة، الموضح لطريق الحق، والمظهر لأحكام الوحي.

وقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧].

فهذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بتبليغ جميع ما أنزله إليه من الوحي، فلا يترك شيئًا، وإن ترك من الوحي شيئًا فكأنه ما بلغ شيئًا من الرسالة، ولكنه ﷺ امتثل الأمر وقام به خير قيام، فلم يترك من الدين شيئًا صغيرًا كان أم كبيرًا إلا وبيَّنه وفصله ولم يترك لأحد بعده مقالًا.

فالمقصود أنه ﷺ قد أمر بتبليغ جميع ما أوحي إليه على الاستيفاء والكمال؛ لأنَّه كان قد بلغ، وإنما أمر هنا ألا يتوقف عن شيء مخافة أحد.

يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ؛ من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر، وبشر ويسر، وعلم الجهال الأميين حتَّى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، فلم يبق خير إلا دلَّ أمته عليه، ولا شرٌّ إلا حذرها عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين".

ثالثًا: النصوص المبينة أن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الدين وبيانه كذلك، ولا شكَّ أن الحفظ يقتضي حفظه في ألفاظه ومعانيه، كما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} [الحجر: ٩] {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)} [القيامة: ١٦ - ١٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)} [القيامة: ١٩]: (أن نبينه على لسانك).

ويقول الحافظ ابن كثير في معنى الآيات: "وكان هذا في الابتداء، كان عليه وسلم من شدة حرصه على أخذه من المَلَك ما يوحى إليه عن الله عز وجل ليساوقه في التلاوة، فأمره الله تعالى أن ينصت لذلك حتَّى يفرغ من الوحي، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسر عليه تلاوته، وتبليغه، وأن يبينه له، ويفسره، ويوضحه، ويوقفه على المراد منه".

ويقول رحمه الله أيضًا: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)} [القيامة: ١٩]؛ أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك، ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا".

ويقول الشيخ السعدي: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)}؛ أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه".

رابعًا: ومما يدل على كمال بيان الدين، واستغنائه عن الآراء والعقول المنحرفة ما وصف الله تعالى به آيات كتابه بأنها آيات بينات، أو مبينات، أو بينة، ووصف الوحي بأنه مبين، ووصفه صلى الله عليه وسلم بأنه رسول مبين وغير ذلك:

فمن ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)} [النور: ٣٤]، وقوله سبحانه: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ

مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)} [النور: ٤٦]، وقوله ﷻ {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الطلاق: ١١] وقال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ} [الأنعام: ٥٧] وقال جلَّ وعزَّ: {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} [الأنعام: ١٥٧]، وقال سبحانه: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤)} [البينة: ٤] وقوله: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)} [البقرة: ٩٩]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ} [البقرة: ١٥٩]، وقوله سبحانه: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ} [الطلاق: ١١]، وقوله جلَّ وعلا: {وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ} [الجاثية: ١٧]، وقوله تعالى في وصف رسوله محمد ﷺ: {أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣)} [الدخان: ١٣].

يقول الشيخ السعدي في قوله تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ}: "أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات؛ أي: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب؛ لأنَّها تنزيل مَنْ كَمُلَ علمه، وكَمُلَت رحمته، وَكَمُلَ بيانه، فليس بعد بيانه بيان، ليهلك بعد ذلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة".

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا في نفس الآية: "أي: واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه؛ من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة".

ويقول الشيخ الشنقيطي: "فالمعنى آيات مبينات؛ أي: بينات واضحات".

وما يدل على صحة القاعدة أيضًا:

ما جاء عن أبي ذر ﵁: قال: (تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم). قال أبو حاتم: "معنى عندنا منه: يعني: بأوامره ونواهيه وأخباره وأفعاله وإباحاته ﷺ".

والمقصود: أنه استوفى بيان الشريعة، وما يحتاج إليه من الدين، حتَّى لم يبق مشكل، فضرب ذلك مثلًا، وقيل: أراد أنه لم يترك شيئًا إلا بيَّنه حتَّى بيَّن لهم أحكام الطير، وما يحل منه وما يحرم، وكيف يذبح، وما الذي يفدي منه المحرم إذا أصابه، وأشباه ذلك.

وجاء عن جابر بن عبد الله ﵁ في حجة النَّبِيّ ﷺ وفيه: (... "وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنضم قائلون"، قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت).

ولا شكَّ أن تبليغه ﷺ كما سبق تقريره شامل للألفاظ والمعاني.

ما جاء عن عائشة ﵂ أنها قالت لمسروق: (من حدثك أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا مما أنزل عليه فقد كذب، واللّه يقول: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [المائدة: ٦٧] الآية".

وقد دل قول عائشة ﵂ على نفي الكتمان عن النَّبِيّ ﷺ ومن المعلوم أن عدم بيان معاني ألفاظ الوحي من أعظم الكتمان.

يقول الإمام ابن القيم: "وشهد له أعقل الخلق وأفضلهم وأعلمهم بأنه قد بلغ، فأشهد الله عليهم بذلك في أعظم مجمع وأفضله، فقال في خطبته بعرفات في حجة الوداع: "إنكم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون"، قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فرفع إصبعه إلى السماء مستشهدًا بربه الذي فوق سمواته، وقال: "اللَّهُمَّ اشهد".

فلو لم يكن قد عرف المسلمون وتيقنوا ما أرسل به، وحصل لهم منه العلم واليقين، لم يكن قد حصل منه البلاغ المبين، ولما رفع الله عنه اللوم، ولما شهد له أعقل الأمة بأنه قد بلغ وبيَّن".

ويقول الإمام ابن تيمية: "والأمة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله وبيَّن ما أنزل إليه من ربه، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين، وإنما كَمُلَ بما بلغه، إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه، فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده".

وقال الإمام ابن كثير: "وقد شهدت له أمته بإبلاع الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفًا".

*** المسألة الثالثة: أقوال أهل العلم في تقرير معنى القاعدة.**

أشار إلى معنى هذه القاعدة جمع من العلماء، وفيما يلي أذكر بعض أقوالهم الدالة على اعتمادهم للقاعدة، فمما وقفت عليه من ذلك:

قول الإمام الخطابي: "فلم يترك ﷺ شيئًا من أمور الدين؛ قواعده، وأصوله، وشرائعه، وفصوله، إلا بيَّنه وبلغه على كماله وتمامه، ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه، إذ لا خلاف بين فرق الأمة أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال".

وقريبًا منه قول الإمام السمعاني: "وكان مما أنزل إليه ﷺ وأمر بتبليغه: أمر التوحيد وبيانه بطريقته، فلم يترك النَّبِيّ ﷺ شيئًا من أمور الدين، وقواعده، وأصوله، وشرائعه، وفصوله، إلا بيَّنه وبلغه على كماله وتمامه، ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه، إذ لو أخر فيها البيان لكان قد كلفهم ما لا سبيل لهم إليه".

ويقول الإمام ابن تيمية: "فصل: في أن رسول الله ﷺ بَيَّنَ جميع الدين؛ أصوله

وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل كان أولى بالحق علمًا وعملًا، ومن كان أبعد عن الحق علمًا وعملًا، [كان بُعده عن هذا الأصل بحسب حاله، ومن كان أبعد عن الحق علمًا وعملًا، كان بُعده عن هذا الأصل بحسب حاله، فمستقل ومستكثر من الباطل].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "والرسول -صلوات الله عليه وسلامه- قد أرسل بالبينات والهدى، بَيَّنَ الأحكام الخبرية والطلبية، وأدلتها الدالة عليها، بَيَّنَ المسائل والوسائل، بَيَّنَ الدين ما يقال وما يعمل، وبيَّن أصوله التي يعلم أنه دين حق".

ويقول الإمام ابن القيم في وصفه ﷺ: "ولم يدع بابًا من العلم النافع للعباد، المقرب لهم إلى ربهم إلا فتحه، ولا مشكلًا إلا بيَّنه وشرحه، حتَّى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ، وجزاه عن أمته أفضل الجزاء".

ويقول الشيخ السعدي: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]؛ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبيين، بألفاظ واضحة، ومعانٍ جلية، حتَّى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة، وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب، فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس".

*** المسألة الرابعة: فوائد القاعدة وتطبيقاتها.**

لهذه القاعدة فوائد عظيمة يمكن الاستفادة منها وتطبيقها في مناحٍ شتى، ومن

ذلك: -

أولًا: كمال بيان هذا الدين ووضوحه، وأنه ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين، وأوضح جميع ما أنزل إليه من ربه، ولم يكتم منه حرفًا واحدًا، وهو دين الإسلام بلغه بلا نقص ولا تقصير، فلم يبق فيه إشكال فيحتاج إلى حلّ ولا إجمال فيفتقر إلى تفصيل، قال تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨].

فالأمة ليست في حاجة إلى أحد بعده ﷺ يأتي ليتصرف في شيء من دينه، بزياده أو نقص، وإنما هي في أمس الحاجة، وألح الضرورة إلى من يعرفها حقيقة دينها الذي بعث به محمد ﷺ.

يقول الحافظ ابن عساكر: "فإن الله سبحانه وتعالى بعث نبينا محمدًا - صلوات الله عليه وسلامه - فأيده بالآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة، حتَّى أوضح الشريعة وبيَّنها، وعلمهم مواقيتها وعينها، فلم يترك لهم أصلًا من الأصول إلا بناه وشيَّده، ولا حكمًا من الأحكام إلا أوضحه ومهَّده".

ويقول الشيخ حافظ الحكمي: "أن هذا الذي بلغه الرسول ﷺ عن ربه تعالى هو جميع دين الإسلام؛ مكملًا محكمًا، لم يبق فيه نقص بوجه من الوجوه فيحتاج إلى تكميل، ولم يبق فيه إشكال فيحتاج إلى حل، ولا إجمال فيفتقر إلى تفصيل، قال الله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}، فكما أن الإمام المبين قد أحصى كل ما هو كائن كما علمه الله ﷻ، فكذلك هذا القرآن واف، شاف، كاف، محيط بجميع أصول الشريعة وفروعها، وأقوالها وأعمالها، وسرها وعلانيتها، فمن لم يكفه فلا كفي، ومن لم يشفه فلا شفي، {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)} [العنكبوت: ٥١]، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)} [الأعراف: ١٨٥].

وكما وفَّى بتقرير الدين، وتكميله، وشرحه، وتفصيله، كذلك هو واف بالذب عنه، وبرد كل شبهة ترد عليه، وبقمع كل ملحد ومعاند ومشاق ومحاد، وبدمغ كل باطل وإزهاقه، {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)} [الفرقان: ٣٣]، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨]، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} [الحجر: ٩]".

ثانيًا: أبطلت القاعدة قول القرامطة الباطنية الذين يزعمون: أن الرسل ما كانوا يعلمون حقائق العلوم الإلهية، ويجعلون خاصة النبوة هي التخييل.

ولا شكَّ أن هذا القول فيه تنقص للرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ إذ فيه اتهام لهم بالتجهيل وعدم العلم، والأصل الثابت دال على كمال هذا الدين، وأن النَّبِيّ ﷺ قد قام ببيان هذا الدين كاملًا، فكيف يكون قد بلغ الدين وبيَّنه ولم يترك منه شيئًا مع الجهل وعدم العلم بما أوحاه الله إليه، هذا لا يعقل.

يقول الإمام ابن تيمية: "والرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأقدر الناس على بيان الحق، وأنصح الخلق للخلق، وهذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد".

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا بعد أن ذكر جملة من النصوص الدالة على تبليغه ﷺ لهذا الدين: "وأمثال هذه النصوص التي تبين أن الرسول هدى الخلق، وبيَّن لهم، وأنه أخرجهم من الظلمات إلى النور، لا أنه لبس عليهم، وخيل، وكتم الحق فلم يبينه، ولم يهد إليه لا للخاصة ولا للعامة؛ فإنَّه من المعلوم أن الرسول ﷺ لم يتكلم مع أحد بما يناقض ما أظهره للناس، ولا كان خواص أصحابه يعتقدون فيه نقيض ما أظهره للناس، بل كل من كان به أخص، وبحاله أعرف كان أعظم موافقة له وتصديقًا له على ما أظهره وبيَّنه، فلو كان الحق في الباطن خلاف ما أظهره للزم إما أن يكون

جاهلًا به، أو كاتمًا له عن الخاصة والعامة، ومظهرًا خلافه للخاصة والعامة".

ويقول ابن القيم: "لا ريب عند كل مؤمن باللّه ورسوله: أنه ﷺ كان أعلم الخلق بما يخبر به، وما يأمر به، فهو أعلم الخلق بما أخبر به عن الله واليوم الآخَر، وأعلمهم بدينه وشرعه الذي شرعه لعباده".

ثالثًا: أبطلت هذه القاعدة قول الفلاسفة الذين يقولون بأن الرسل علموا الحقائق لكن لم يبينوها للناس بل خاطبوا الجمهور بالتخييل، وأنهم كذبوا لمصلحة الخلق، فيجعلون التخييل في خطابه لا في علمه.

وفي هذا القول أيضًا تكذيب للرسل واتهام لهم بعدم البيان وكتمان الحق، وهذا مما لا يليق بالرسل، فإنهم بلغوا البلاغ المبين، بل فيه مسبة لرب العالمين، إذ كيف يرسل رسلًا إلى الخلق يبلغونهم ألفاظًا لا تطابق الحق في نفس الأمر، هذا من أعظم العبث الذي ينزه عنه الرب تبارك وتعالى ورسوله ﷺ.

رابعًا: أبطلت القاعدة قول الذين يقولون: الرسل علموا الحق وبينوه لكن لا يمكن معرفته من كلامهم بل يعرف بطرق أخرى؛ من المعقول أو القياس أو الكشف، ثم بعد ذلك ينظر في كلام الرسول فما وافق ذلك قبل، وما خالفه إما أن يفوض، وإما أن يؤول، وهذا هو قول أهل الكلام.

وهذا من أعظم التناقض، كيف يكون الرسل قد بلغوا الحق وبينوه للناس، ثم لا يمكن للخلق معرفته إلا بطرق خارجة عن نفس بيانهم وتبليغهم، هذا من أعظم الباطل وأعظم التنقيص للرسول ﷺ، واتهامه بالتلبيس والتدليس إذ جاء بما ظاهره الباطل، ولم يبيِّن الحق الذي يجب اعتقاده، بل أراد منهم أن يجتهدوا فيه بإتعاب أذهانهم، وتأويل ألفاظه حتَّى يتوصلوا إلى المعنى الحق في نفس الأمر، فحقيقة قول هؤلاء أن مجيء الرسل وعدم ذلك سواء، بل قد يكون حال الناس قبل بعثة الرسل

أفضل من حالهم بعد بعثتهم.

يقول الإمام ابن تيمية: "وطريقة التأويل: طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم، يقولون: إن ما قاله له تأويلات تخالف ما دل عليه اللفظ، وما يفهم منه، وهو وإن كان لم يبين مراده، ولا بيَّن الحق الذي يجب اعتقاده، فكان مقصوده أن هذا يكون سببًا للبحث بالعقل حتَّى يعلم الناس الحق بعقولهم، ويجتهدوا في تأويل ألفاظه إلى ما يوافق قولهم؛ ليثابوا على ذلك، فلم يكن قصده لهم البيان والهداية، والإرشاد والتعليم، بل قصده التعمية والتلبيس، ولم يعرفهم الحق حتَّى ينالوا الحق بعقلهم، ويعرفوا حينئذٍ أن كلامه لم يقصد به البيان، فيجعلون حالهم في العلم مع عدمه خيرًا من حالهم مع وجوده".

خامسًا: دلت القاعدة على إبطال قول الرافضة الذين يدعون أن الرسول ﷺ بلغ جزءًا من الشريعة وكتم الباقي، وأودعه الإمام عليًا رضي الله عنه فأظهر علي منه جزءًا في حياته وعند موته أودعه الحسن، وهكذا كل إمام يظهر منه جزءًا حسب الحاجة ثم يعهد بالباقي لمن يليه إلى أن صار عند إمامهم المنتظر.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "ومعلوم أنه قد بلغ الرسالة كما أمر، ولم يكتم منها شيئًا، فإن كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة، ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة".

سادسًا: أفادت القاعدة إبطال قول الرافضة الباطنية الذين يدعون بأن للنصوص ظاهرًا وباطنًا، وزاد بعضهم على ذلك فزعم أن لكل آية سبعة أبطن، وأنهم هم الذين يعرفون هذه المعاني الباطنة دون غيرهم.

وهذا من الإفك البيّن على الله وعلى رسوله ﷺ، فليس للشرع باطن لم يبلغه

النَّبِيّ ﷺ لأمته، ولم يخص بعض أصحابه بشيء من الدين لم يخبر به عامتهم، بل تبليغه ﷺ كان عامًا للأسود والأحمر، والحر والعبد، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، لم يفرق ﷺ بينهم في تبليغ الرسالة، وبيان الدين.

قال الإمام ابن حزم: "واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، ... وكل من ادعى للديانة سرًا وباطنًا فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة، أو ابنة عم، أو ابن عم، أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود، ورعاة الغنم، ولا كان عنده عليه السلام السر، ولا رمز، ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتم شيئًا لما بلَّغ كما أمر".

وقال القرطبي: "فدلت الآية على رد قول من قال: إن النَّبِيّ ﷺ كتم شيئًا من أمر الدين تقية وعلى بطلانه، وهم الرافضة ودلت على أنه ﷺ لم يسر إلى أحد شيئًا من أمر الدين؛ لأن المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك ظاهرًا".

ويقول الإمام الشوكاني: "العموم الكائن في {مَا أُنْزِلَ}: يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزله الله إليه، لا يكتم منه شيئًا، وفيه دليلٌ على أنه لم يسر [إلى] أحد مما يتعلق بما أنزل الله إليه شيئًا".

والمقصود من نفي الباطن عن الشرع أن يكون للنصوص معانٍ في الباطن تخالف ظاهرها، ولا تعرف إلا بطرق لم يبيِّنها النَّبِيّ ﷺ، وقد علم مما سبق أن المقصود بالظاهر والباطن في لفظ القاعدة ما يتعلق بأعمال الجوارح والقلوب، فإن أعمال القلوب من أعظم أمور الدين، وهي أعمال باطنة جاء بها النَّبِيّ ﷺ وبيَّنها لأمته أكمل البيان وأتمه، بل كل قول وعمل ظاهر فلا بد له من باطن يتعلق بالقلب.

يقول ابن تيمية: "كل قول وعمل فلا بد له من ظاهر وباطن، فظاهر القول لفظ

اللسان، وباطنه ما يقوم من حقائقه ومعانيه بالجنان، وظاهر العمل حركات الأبدان، وباطنه ما يقوم بالقلب من حقائقه ومقاصد الإنسان".

ويقول ابن القيم: "قاعدة: الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان، وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب، وانقياده، ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له ... ولا يجزئ باطن لا ظاهر له".

كما قد يراد بالباطن الأمور المجملة في القرآن وجاء النَّبِيّ ﷺ ببيانها في السُّنَّة، ولم يتوف عليه السلام حتَّى بيَّن جميع ما للناس حاجة إليه.

يقول الإمام أحمد في خطبة كتابه الذي صنفه في طاعة رسول الله ﷺ: "إن الله جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه بعث محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب، فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله، الدال على معانيه، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه، واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه، فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم، وما قصد له الكتاب، فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ.

فبهذين الاعتبارين يصح أن يقال بأن في الدين باطنًا، ولكن المحظور في ذلك هو جعل الباطن مخالفًا للظاهر، ولم يبلغه النبي ﷺ لأمته، والله أعلم.

سابعًا: بيانه ﷺ لهذا الدين لم يكن من عند نفسه، بل كله كان وحيًا من عند ربه تبارك وتعالى، ولذا قال -سبحانه وتعالي-: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)} [النجم: ٣، ٤]، وقال ﷻ: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)} [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

يقول الإمام الزهري: "من الله الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاع، وعلينا التسليم".

فليس له ﷺ إلا البلاغ والبيان، كما قال -سبحانه وتعالي-: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)} [النور: ٥٤]. وأما مضمون الرسالة والوحي فهو من عند الله تبارك وتعالى لم يتدخل فيه عليه السلام ولا بكلمة واحدة، ولا استفاده ممن سبقه، وإنما هو محض الوحي الذي جاء به جبريل كما قال سبحانه: {وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)} [الشعراء: ٩٢ - ٩٥].

يقول الإمام ابن تيمية: "وأيضًا فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا إخبار بأن كل ما يتكلم به فهو وحي يسمعه، ليس هو شيئًا تعلمه من الناس، أو عرفه باستنباطه، وهذه خاصة محمد ﷺ، فإن المسيح ومن قبله من الأنبياء كانوا يتعلمون من غيرهم مع ما كان يوحى إليهم، فعندهم علم غير ما يسمعونه من الوحي".

ويقول الشيخ حافظ حكمي: "يخبر ﷺ أنه مخبر عن الله ومبلغ رسالته، وأن ما أمر به ونهى عنه وأخبر به هو تبليغ لأمر الله، ونهيه، وخبره، وإنه لم يقل شيئًا من عند نفسه فيقول: هو من عند الله، ومن اعتقد ذلك فهو كافر من حزب أبي جهل، والوليد بن المغيرة، وملئهم. قال الله ﷻ: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)} [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] ...".

ثامنًا: أن بيانه عليه السلام لهذا الدين لا يعدله بيان أحد من البشر؛ إذ هو ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأفصحهم لسانًا وبيانًا، وأنصح الخلق للخلق، فاجتمع فيه عليه السلام كمال

العلم وكمال القدرة وكمال الإرادة.

ولذا قال عليه السلام لأصحابه: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا".

ووصفه ربه تبارك وتعالى بالحرص على المؤمنين فقال سبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} [التوبة: ١٢٨]، ومما يظهر ذلك الحرص معاناته ﷺ وتحمله للمشاق العظام، التي لم يتحملها بشر في سبيل إيضاح هذا الدين تمام الإيضاح بحيث لا يفهم أحد من أصحابه شيئًا من الدين خلاف مراد الله ورسوله ﷺ.

وأنزل الله عليه آيات عديدة تسلية له من الحزن والألم، والضيق الذي أَلَمَّ به بسبب كفر قومه وإعراضهم، ومن ذلك قوله تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)} [فاطر: ٨]، وقوله: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)} [النحل: ٣٧]، وغيرها من الآيات، وما ذاك إلا لشدة حرصه، وكمال نصحه، وشفقته على أمته ﷺ أن تعتقد أمته شيئًا يبغضه الله ورسوله.

يقول الإمام ابن تيمية: "والرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأقدر الناس على بيان الحق، وأنصح الخلق للخلق، وهذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد".

ويقول رحمه الله أيضًا: "وقد أوجب الله عليه البلاغ المبين، وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما نُزِّلَ إليهم، فلا بد أن يكون بيانه، وخطابه، وكلامه أكمل وأتم من بيان غيره، فكيف يكون مع هذا لم يبين الحق، بل بيَّنه من قامت الأدلة الكثيرة على جهله، ونقص علمه وعقله".

ومن المعلوم أن من قصَّر في بيان أمر من الأمور؛ فإما أن يكون قد أُتِيَ من قِبَلِ

عِلْمِه أو قَصْدِه أو عَجْزِه، فيكون إما جاهلًا بما يتكلم به، أو غاشًّا لمن يخاطبهم لا يريد لهم علمًا ولا يبغي لهم هدى، أو عاجزًا عن البيان والإفصاح، فإن الفعل يتعذر لعدم العلم، أو لعدم القدرة، أو لعدم الإرادة، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة لزم حصول الفعل ووقوع المطلوب، وجميع هذه الأمور تحققت في نبينا محمد عليه السلام على الكمال والتمام.

وقال رحمه الله: "ومن علم أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأفصح الخلق في البيان، وأنصح الخلق للخلق، علم أنه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه، وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه، فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون، وأتم ما يكون، وأعظم ما يكون بيانًا لما بيَّنه في الدين من أمور الإلهية وغير ذلك".

ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله: "لا ريب عند كل مؤمن بالله ورسوله أنه كان أعلم الخلق بما يخبر به، وما يأمر به، فهو أعلم الخلق بما أخبر به عن الله واليوم الآخر، وأعلمهم بدينه وشرعه الذي شرعه لعباده، وأنه كان أفصح الأمة، وأقدرهم على البيان، وكشف المعاني؛ فإنه عربي، والعرب أفصح الأمم، وقرشي، وقريش أفصح العرب، وهو في نفسه كان أفصح قريش على الإطلاق، وقد أقر له أعداؤه بذلك ... ثم من المعلوم بالاضطرار من حاله أنه كان أحرص الناس على هدى أمته، وتعليمهم والبيان لهم، فاجمع في حقه كمال القدرة، وكمال الداعي، وكمال العلم، فهو أعلم الناس بما يدعو إليه، وأقدرهم على أسباب الدعوة، وأعظمهم رغبة وأتمهم نصيحة".

ويقول رحمه الله في صفة كلام النبي ﷺ: "كان أفصح خلق الله وأعذبهم كلامًا وأسرعهم أداء وأحلاهم منطقًا، حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويسبي

الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد".

وقال رَحِمَهُ اللهُ أيضًا: "فما الظن بأفضل الأنبياء، وأعلمهم، وأكملهم بيانًا، وأتمهم فصاحة، وأقدرهم على التعبير عن المعنى باللفظ الذي لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، ولا يوهم غيره، وأحرصهم على تعليم الأمة وتفهيمهم ...".

فهو كلام المعصوم في منطقه، وعلمه، وقصده، وعمله، وكل كلمة منه جاءت في موضعها، ومنزلتها، ومقرها، لا يتعدى بها عنه، ولا يقصر بها.

يقول الجاحظ عند ذكره لصفة كلامه ﷺ، وما تضمنه من البلاغة والإعجاز: "وأنا اذكر بعد هذا فنًا آخر من كلامه ﷺ؛ وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: {قُل} يا محمد: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)} [ص: ٨٦]، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، وييسر بالتوفيق.

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، بين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا

بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلامه ﷺ".

تاسعًا: لا يقدح في هذه القاعدة ما يحصل من الإشكالات والتعارضات في بعض النصوص عند بعض الناس؛ وذلك لأن أفهام الناس تتفاوت وتختلف حتى بين أهل العلم فضلًا عن غيرهم، وهذا التعارض لا يتعلق بذات النصوص، إذ النصوص الشرعية لا يمكن أن تتعارض بحال، أو تتضارب، وإنما يحصل الإشكال والالتباس والتضارب في أذهان البشر، لما فيها من الضعف والقصور.

يقول الإمام ابن تيمية: "وذلك كله داخل في البلاغ المبين، فإنه ليس من شرط البلاغ المبين أن لا يشكل على أحد، فإن هذا لا ينضبط، وأذهان الناس وأهواؤهم متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، وفيهم من يبلغه العلم، وفيهم من لا يبلغه؛ إما لتفريطه، وإما لعجزه.

وإنما على الرسول البلاغ المبين: البيان المُمَكِّن، وهذا ولله الحمد قد حصل منه ﷺ، فإنَّه بلغَ البلاغ المبين، وترك الأمة على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، وما ترك من شيء يقرب إلى الجنة إلا أمر الخلق به، ولا من شيء يقربهم من النار إلا نهاهم عنه، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيًا عن أمته".

(باب لا جديد في الأحكام الشرعية)

اعلم رحمني الله وإياك أن الله سبحانه وتعالى أنزل شريعته التي جاءت في كتابه القويم القرآن الكريم وسنة رسوله الأمين ﷺ لتكون هادية للناس الصراط المستقيم،

ولتكون حاكمة على أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم إلى يوم الدين.

وقد ختم الله تعالى كتبه بالقرآن المجيد، وختم رسله بمحمد ﷺ الرسول الأمين.

ومن ضرورة ذلك أن تكون الأحكام الشرعية التي تضمنتها تلك الشريعة الخاتمة شاملة وثابتة لا يشوبها نقص أو قصور، ولا يعتريها تبديل أو تغيير.

وهذه قضية بدهية عليها أدلة كثيرة من النصوص الشرعية.

وقبل المضي قدما في الموضوع يحسن التعريف بالحكم الشرعي وبالفتوى.

فالحكم الشرعي: «عبارة عن حكم الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين»، والفتوى والفتيا: «ذكر الحكم المسؤول عنه للسائل»؛ أي «جواب المفتي»، و «الإفتاء: بيان حكم الواقع المسؤول عنه»، فالإفتاء هو عمل المفتي، والفتوى هو ما يصدر عن المفتي.

والغالب أن الحكم الشرعي هو الحكم المتعلق بأفعال العباد على وجه العموم من غير التفات إلى واقع معين يرتبط به الحكم، كالقول بوجوب الصلاة وحرمة شرب الخمر وهكذا.

والغالب أن الفتوى هي ما كانت مرتبطة بواقع ما، فالفتوى على ذلك هي تطبيق الحكم الشرعي على الواقع، وإن كان في بعض الأحيان يأتي أحدهما بمعنى الآخر فهما مرتبطان، ولا تكون الفتوى صحيحة إلا إذا كان الحكم الشرعي منطبقا على الواقع انطباقا صحيحا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلام الموقعين (١/ ٨٧) في بيان علاقة الفتوى بالحكم الشرعي: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم.

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن

والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر».اهـ.

وعندما استفتي شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١١) في قتال التتار بين ذلك الارتباط وأفتى بقوله: «نعم يجب قتال هؤلاء، بكتاب الله وسنة رسوله واتفاق أئمة المسلمين، وهذا مبني على أصلين: أحدهما المعرفة بحالهم، والثاني: معرفة حكم الله في مثلهم».اهـ.

ومن البين هنا أن الفتوى قد تدخل فيها أو ترتبط بها عدة عوامل، وبالتالي فإن الفتوى تكون مرتبة عليها، وقد يحدث أن يستفتى المفتي في واقعة قد اجتمعت لها كل عواملها، فيفتي بالحكم الشرعي الذي ينطبق عليها، ثم تأتي واقعة أخرى مشابهة لها في الظاهر، لكن بينهما فرق مؤثر في الحقيقة نتيجة غياب بعض تلك العوامل أو وجود عوامل أخرى؛ فيفتي المفتي بحكم شرعي مناسب للحالة الجديدة، وهو بطبيعة الحال مغاير للفتوى الأولى، ومن هذا الوجه ونحوه على ما يأتي تفصيله -إن شاء الله- قال من قال من أهل العلم بـ «تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»، فأخذت هذه الكلمة وأضرابها طائفة من المعاصرين وطاروا بها في كل حدب وصوب، وصاحوا بها في كل واد وناد، يرومون تغيير الشريعة وأحكامها إرضاء وتجاوبا مع الأهواء مما لا يحبه الله ورسوله، بل صارت عمدة من عمد الذين يريدون تحريف الدين تحت ما يزعمونه من ضرورة «تجديد الخطاب الديني». مع إغفال ثبات الأحكام الشرعية.

أدلة ثبات الأحكام الشرعية

والمراد بالثبات هنا بقاء الحكم الشرعي على ما هو عليه ودوامه وعدم تغيره لا

بزمان ولا بمكان ولا بغير ذلك، والأدلة على ذلك كثيرة كما قدمنا، فمنها:

١- قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} (المائدة: ٣)، فالدين قد كمل، والنعمة تمت، والتغيير فيما قد كمل نقص، وما لم يكن يومئذ دينا فلن يكون بعد دينا، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يلزم عنه عدم التصديق بأن الله أكمل الدين، وهو في الوقت نفسه رفض لنعمة الله التي أتمها علينا.

٢- قوله تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا} (الأنعام: ١١٥)، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي»، والحكم الشرعي هو في باب الأمر والنهي، وحيث تغير العدل كان الظلم.

٣- قوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (المائدة: ٤٩).

ففي هذه الآية ثلاثة أمور:

١- الأمر بالحكم بما أنزل الله (الشريعة).

٢- بيان أن ترك الحكم بها إنما هو اتباع للأهواء.

٣- بيان أن من الفتنة ترك بعض الشريعة.

وهذا الأمر للنبي ﷺ، وأمته من بعده، فكلهم مخاطب به، ولا شك أن القول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد للحكم بغير ما أنزل الله، ومؤد لترك بعض الشريعة، وهذا اتباع للهوى ووقوع في الفتنة، ولا يسلم المرء من ذلك إلا بالقول بثبات الحكم الشرعي وعدم تغييره.

٤- قوله تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا} (الإسراء: ٧٣)، وهو يبين أن تغيير الحكم الشرعي إنما هو

من الافتراء على الله ﷻ، والافتراء على الله لا يجوز عند أحد من المسلمين، فظهر من ذلك أن تغيير الحكم الشرعي أو القول بجواز ذلك محرم لا يجوز القول به ولا الإقدام عليه، وهذه الآية تدل على مدى حرص الكفار ورغبتهم في تغيير الحكم الشرعي، حتى إنهم ليتخذون من يفعل ذلك أو يقوم به «خليلا»، والخلة أعلى درجات المحبة، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله».

٥- قال الله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} (المائدة: ٤٤). وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} (المائدة: ٤٥). وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} (المائدة: ٤٧). فبين الله تعالى أن من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، ومن قال بجواز تغيير الحكم الشرعي، فهو إما حاكم بغير ما أنزل الله وإما مجوز لذلك.

٦- قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} (الأنعام: ١٥٣). فمن لم يتبع صراط الله المستقيم (الكتاب والسنة) اتبع سبل الشيطان، ولا يمكن للمرء أن يتبع الكتاب والسنة مع القول بعدم ثبات الحكم الشرعي وجواز تغييره.

٧- قال الله تعالى: {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} (الأعراف: ٣)، فأمر الله الناس أن تتبع ما أنزل إليها من ربها خالقها ورازقها، وبين أن من اتبع غير ذلك فقد اتبع أولياء من دونه، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد لاتباع الأولياء من دون الله. ثم تهدد الله وتوعد من يتبع الأولياء

من دونه، فقال عقيب الآية المتقدمة: {وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون} (الأعراف: ٤).

٨- قال الله تعالى: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون} (الجاثية: ١٨)، فأمر رسوله ﷺ باتباع الشريعة التي أوحاها إليه، وبين أن ترك شيء من هذه الشريعة إنما هو اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، ولا يمكن اتباع الشريعة كاملة مع القول بعدم ثبات الأحكام الشرعية أو بعضها وجواز تغييرها، ثم بين الله تعالى أن هؤلاء الداعين إلى ترك اتباع الشريعة بتغيير الحكم الشرعي ظالمون، وأنهم لن يغنوا عن أحد شيئا أو يدفعوا عنه شيئا من عذاب الله، فقال تعالى عقيب الآية المتقدمة: {إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} (الجاثية: ١٩).

٩- قال تعالى: {سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب} (البقرة: ٢١١)، فقد توعد الله سبحانه وتعالى بالعقاب الشديد من يبدل نعمته التي أنعمها على العباد، والأحكام الشرعية التي باتباعها استقامة العباد وصلاح الدنيا، والنجاة من النار والفوز بالجنة من أجل النعم التي أنعم الله بها، والقول بعدم ثبات الحكم الشرعي وجواز تغييره هو من تبديل نعمة الله.

١٠- قال الله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} (يونس: ١٥).

وفي هذا من الدلالة على رغبة الكفار في أن يقع المسلمون في تغيير الأحكام الشرعية أو تبديل الوحي المنزل، وقد بينت الآيات أنه ليس لأحد ولو كان رسول الله

ﷺ أن يغير الحكم الشرعي من تلقاء نفسه، بل عليه أن يتبع الأحكام الشرعية التي يوحيها الله إليه؛ لأن من فعل ذلك فقد عرض نفسه للعذاب العظيم، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٨/ ٣١٩): «إني أخشى من الله إن خالفت أمره وغيرت أحكام كتابه وبدلت وحيه فعصيته بذلك عذاب يوم عظيم هوله». والآيات في ذلك أكثر من أن تحصر، ولو ذهبنا نتتبعها لطال بنا المقام.

وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن في ذلك، فمن السنة

١- قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، أي مردود عليه، والقول بتغيير الحكم الشرعي إحداث في الدين لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ، فهو مردود على صاحبه.

٢- قوله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة).

فبين الرسول ﷺ أن النجاة في اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين الذين اتبعوه وساروا على سنته، وأمر أن يعض على ذلك بالنواجذ تمسكا بها، وعدم الحيد عنها قيد أنملة، وحذر من محدثات الأمور، وبين أن المحدثات في الدين ضلالة، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يخالف كل ذلك، فهو يخالف التمسك بالسنة ويوقع في المحدثات.

٣- قوله ﷺ: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي» فمن تمسك بالكتاب والسنة لم يضل أبدا، والمفهوم من ذلك أن من لم يتمسك يضل، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد لعدم التمسك بالكتاب والسنة أو ببعضها الذي تغير، والأدلة على ذلك من السنة كثيرة أيضا.

وبالنظر إلى أصول الفقه نجد أن علماء أصول الفقه يعرفون الحكم الشرعي بأنه

«خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد أمرا أو نهيا أو تخييرا أو وضعا» وخطاب الشارع هو الكتاب والسنة، والقول بأنه يمكن تغيير الحكم الشرعي مكافئ للقول بإمكانية تغيير خطاب الشارع، وخطاب الشارع لا يملك أحد من البشر أن يغيره، وبالتالي فمن غير المستطاع القول بجواز تغيير الحكم الشرعي، ومن وجهة نظر ثانية فإن القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان هو نسخ للحكم الشرعي، هذا هو معنى النسخ عند الأصوليين، فالنسخ يراد به عندهم «رفع الحكم الشرعي بخطاب» أو «رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر» ونحو ذلك، فمضمون النسخ على ذلك هو تغيير الحكم الشرعي الثابت وإلغاء الحكم الشرعي القائم واستحداث حكم جديد، لكن النسخ لا يكون إلا من الله تعالى أو من رسوله ﷺ، وهو ما يعني أن النسخ قد انقطع بموت رسول الله ﷺ، فعلى ذلك الأحكام الشرعية ثبتت على ما مات عليه رسول الله ﷺ، وقد بين الرسول ﷺ أنه يدعو يوم القيامة على من بدل شيئا من الدين بعده فقال ﷺ: (ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقا سحقا)، وفي رواية: «سحقا حقا لمن بدل بعدي»، والقائل بجواز تغيير الحكم الشرعي لا شك أنه داخل في هذا الحديث، نسأل الله السلامة.

وقد بين شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٤) أن من يجوز النسخ بعد موت رسول الله ﷺ فهو «يجوز تبديل المسلمين دينهم بعد نبيهم، كما تقول النصارى أن المسيح سوغ لعلمائهم أن يحرموا ما رأوا تحريمه مصلحة، ويحلوا ما رأوا تحليله مصلحة، وليس هذا دين المسلمين.اهـ.

وبالجملة فإن الأدلة على بطلان القول بتغيير الأحكام بتغير الزمان كثيرة جدا، وفيما تقدم من الأدلة كفاية إن شاء الله.

قال الشاطبي في الموافقات (١/ ٧٨، ٧٩) في بيان ثبات الأحكام الشرعية وعدم تغييرها: «فلذلك لا تجد فيها بعد كمالها نسخا، ولا تخصيصا لعمومها، ولا تقييدا لإطلاقها، ولا رفعا لحكم من أحكامها، لا بحسب عموم المكلفين، ولا بحسب خصوص بعضهم، ولا بحسب زمان دون زمان ولا حال دون حال، بل ما أثبت سببا فهو سبب أبدا لا يرتفع، وما كان شرطا فهو أبدا شرط، وما كان واجبا فهو واجب أبدا أو مندوبا فمندوب، وهكذا جميع الأحكام فلا زوال لها ولا تبدل، ولو فرض بقاء التكليف إلى غير نهاية لكانت أحكامها كذلك».اهـ.

إن القول بثبات الحكم الشرعي وعدم إمكانية تغييره من قبل أحد كائنا من كان إضافة إلى أنه الحكم الذي دلت عليه الأدلة كما تقدم؛ يمثل ضمانة من أهم ضمانات استقرار أحوال الأمة، واستتباب الأمن فيها، ومنع الاستبداد، ولقد أدرك أصحاب القوانين الوضعية أهمية الثبات وأثره في أمن المجتمع واستقراره فقالوا بثبات الدساتير، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا لأنها من صنع البشر.

وإذ تقدم هذا فإنه من غير المقبول أن نجد من بين المعاصرين من يقسم الأحكام الشرعية إلى قسمين: أحدهما ثابت، والآخر متغير، ويعرف المتغير بأنه «موارد الاجتهاد وكل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح»، فهذا قول غير صحيح لأنه مخالف للدليل، ولم ينقله قائله عن أحد من أهل العلم المعروفين السابقين على امتداد أجيال الأمة التي بلغت أربعة عشر قرنا وربعا من الزمان وعلى اتساع مذاهبها الفقهية وتنوعها.

قال الدكتور بكر أبو زيد في المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (١/ ٨٤): (حصل من بعض المعاصرين خَطأ في قوله: تغير الأحكام فالحكم ثابت لا يتغير وإنما الفتوى به حسب المقتضى الشرعي، كما في سهم المؤلفة قلوبهم. والله أعلم).

*** مفاسد القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان:**

ويترتب على القول بجواز تغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان مفاسد كثيرة من أبرزها:

١- اتخاذ الأولياء من دون الله، وهم المشرعون الذين يشرعون الحكم الجديد.

٢- القول بقصور الشريعة وعدم صلاحية أحكامها لعموم الزمان والمكان.

٣- تغيير وتبديل الدين بمرور الزمن.

٤- عدم استقرار أحوال الأمة، وزوال الأمن، وشيوع الظلم والاستبداد.

الشبهة في القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان

القائلون بتغيير الأحكام الشرعية بتغير الزمان لا يتعلقون في ذلك بنص سواء كان من القرآن أو من السنة، فليس عندهم أدلة على ذلك، فكل ما عندهم في ذلك كلمات لبعض أهل العلم من مثل «تغير الفتوى بتغير الزمان» ونحوها، وهم طوائف: طائفة اشتبه عليها ذلك ولم تدرس الأمر دراسة واعية وظنت هذا أمرا مشروعا. وطائفة مناوئة للدين وجدت في هذه الشبهة بغيتها في نفث سمومها والسعي في إطفاء نور الله الذي لا يطفأ، فأخذت تنشر هذا وتضخمه وتؤكد عليه، وأصبح مثل هذا الكلام أداة كبيرة في أيدي الدعاة إلى تحريف الدين باسم تجديد الخطاب الديني. وطائفة مهزومة أمام الفكر الغربي المعاصر، وجدت في ذلك القول مخرجا ووسيلة للتوفيق بين ذلك الفكر وبين أحكام الشريعة.

والحق يتبين في ذلك من خلال الحديث عن ضوابط تغير الفتوى وهي

١- اختلاف العوائد والأعراف: من الأمور التي تتغير بسببها الفتوى تغير العوائد والأعراف التي تبنى عليها الفتوى، سئل الإمام القرافي كما في الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، (ص١١١، ١١٢) عن الأحكام المدونة في الكتب المرتبة على

العوائد والأعراف التي كانت موجودة زمن جزم العلماء بهذه الأحكام، هل إذا تغيرت العوائد وصارت لا تدل على ما كانت تدل عليه أولا، هل يفتي بما تدل عليه العوائد والأعراف الجديدة، أو يفتي بما هو مدون في الكتب؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «إن إجراء الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد، خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة»، ثم شرع يفصل فقال: «ألا ترى أنهم لما جعلوا أن المعاملات إذا أطلق فيها الثمن يحمل على غالب النقود، فإذا كانت العادة نقدا معينا حملنا الإطلاق عليه، فإذا انتقلت العادة إلى غيره عينا ما انتقلت العادة إليه، وألغينا الأول لانتقال العادة عنه»، إلى أن يقول: «بل ولا يشترط تغيير العادة، بل لو خرجنا نحن من تلك البلد إلى بلد آخر عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه، وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه؛ لم نفته إلا بعادته دون عادة بلدنا، ومن هذا الباب ما روي عن مالك: إذا تنازع الزوجان في قبض الصداق بعد الدخول؛ أن القول قول الزوج مع أن الأصل عدم القبض، قال القاضي إسماعيل: هذه كانت عادتهم بالمدينة أن الرجل لا يدخل بامرأته حتى تقبض جميع صداقها، واليوم عاداتهم على خلاف ذلك، فالقول قول المرأة مع يمينها لأجل اختلاف العوائد، وينبغي أن يعلم أن معنى العادة في اللفظ أن ينقل إطلاق لفظ واستعماله في معنى حتى يصير هو المتبادر من ذلك اللفظ عند الإطلاق مع أن اللغة لا تقتضيه، فهذا هو معنى العادة في اللفظ، وهو الحقيقة العرفية، وهو المجاز الراجح في الأغلب، وهو معنى قول الفقهاء إن العرف يقدم على اللغة عند التعارض، وكل ما يأتي من هذه العبارات».

وقد نقل علاء الدين الطرابلسي الحنفي كلام القرافي وأقره كما في معين الحكام

فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام (ص ١٢٩)

ومن بعد القرافي قال ابن القيم إعلام الموقعين (٣/ ١٤): «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد».اهـ.

وهنا يظهر أمران:

الأول: أن الفتوى هي التي تتغير وليس الحكم الشرعي.

الثاني: أن الفتوى التي تتغير يكون حكمها الشرعي مرتبا على العوائد والأعراف.

ومن الأمثلة التي يذكرها الفقهاء على ذلك: ما يخرج في صدقة الفطر، فإن الحديث جاء بإخراج صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط، فرأى العلماء أن هذه الأقوات كانت هي غالب القوت عندما قال رسول الله ﷺ ذلك الحديث في ذلك الزمان، فكأنه قال: أخرجوا صاعا من غالب قوت البلد التي أنتم فيها، وعلى ذلك أفتى العلماء بجواز إخراج صاع من الأرز والذرة ونحوه إذا كان هذا هو غالب قوت البلد في زمنهم، فبالنظر المجرد إلى الفتوى بجواز إخراج الأرز والذرة يقول القائل: قد حدث تغير في الحكم، وبالنظر إلى حقيقة الأمر وأن المطلوب هو إخراج الصاع من غالب قوت البلد، فليس هناك تغير في الحكم الشرعي، كل ما هنالك أن الذي تغير هو غالب قوت البلد، والحكم باق على ما هو عليه، وهذا المثال ونحوه قد ينظر إليه على أنه تغير للفتوى بتغير الزمان، والحقيقة أن الزمن بمجرده ليس مسوغا لتغيير الفتوى لأن هذا هو النسخ الذي لا يملكه أحد إلا الشارع وإنما نسب التغيير لتغير الزمان في كلام بعض أهل العلم؛ لأن الزمان هو الوعاء الذي تجري فيه الأحداث والأفعال والأحوال، وهو الذي تتغير فيه العوائد والأعراف، فنسبة تغير الفتوى لتغير الزمان من هذا الباب، وإلا لو ظل العرف كما هو عدة قرون لم يكن أحد مستطيعا أن يغير الفتوى.

ومن الأمثلة: (ما كان عند الفقهاء المتقدمين أنه إذا اشترى أحد دارا اكتفى برؤية بعض بيوتها [غرفها] ، وعند المتأخرين لا بد من رؤية كل بيت منها على حدته ، وهذا الاختلاف ليس مستندا إلى دليل ، بل هو ناشئ عن اختلاف العرف والعادة - في أمر الإنشاء والبناء ، وذلك أن العادة قديما في إنشاء الدور وبنائها أن تكون جميع بيوتها متساوية وعلى طراز واحد ، فكانت على هذا رؤية بعض البيوت تغني عن رؤية سائرها ، وأما في هذا العصر فإذ جرت العادة بأن الدار الواحدة تكون بيوتها مختلفة في الشكل والحجم لزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد).

ومن الأمثلة: (لفظ: الحرام، والخلية، والبرية، وحبلك على غاربك، ووهبتك لأهلك، ألفاظ كانت تستعمل في أعراف وعادات القدماء - كمالك رَحِمَهُ اللَّهُ - للدّلالة على الطّلاق الثّلاث بدون نيّة، ولكن الآن قلّ مَن يستعمل هذه الألفاظ للتّطليق، ولذلك لا بدّ من النّيّة وأن يُسأل المتكلّم بأحدها ماذا أراد بها؟)

٢- وجود السبب وتحقق الشرط وانتفاء المانع أو عدم بعض ذلك: من المعلوم أن الأحكام مرتبة على وجود سببها، فإذا وجد سبب الحكم وتحقق شرطه وانتفى المانع، انطبق الحكم على الواقع، فإذا تخلف أحد الشروط أو وجد أحد الموانع انطبق حكم آخر على الواقع، والناظر من بعيد يرى أن الواقعتين متشابهتان، ولهما حكمان متغايران، فيظن أن الحكم قد تغير، والحقيقة أن الواقعتين وإن كانتا متشابهتين لكنهما غير متماثلتين، فهما واقعتان مختلفتان لكل منهما حكم يخصها، ونضرب مثلا لذلك، لو أن رجلا ملك نصاب الزكاة، ثم استفتى أهل العلم عن وجوب إخراج الزكاة؛ فإن المفتي يسأله: هل حال على النصاب الحول؟ فلو قال: نعم. وسأله: هل عليك دين؟ فقال: لا، هنا يجيبه المفتي بقوله: نعم تجب عليك الزكاة. ويحدد له المقدار الواجب إخراجه حسب نوع المال الذي يملكه، فلو بعد

فترة من الزمان جاءه الرجل نفسه وسأله: هل علي زكاة؟ فإذا سأله المفتي: هل عليك دين؟ وقال: نعم، علي دين يستوعب أكثر مالي حتى لا يبقى منه قدر النصاب. هنا يقول المفتي: ليس عليك زكاة.

والرائي غير المتبصر يرى أن الحكم تغير، والأمر ليس كذلك، فالحالة الأولى وجد السبب وتحقق الشرط وانتفى المانع، وأما الحالة الثانية فقد وجد المانع وهو الدين، فهنا حالتان مختلفتان، لكل حالة حكم في الشرع، وليس في هذا اختلاف، وفي مثل هذا يقول الدكتور عابد السفياني كما في الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، (ص ٤٤٩، ٤٥٠): «إن تلك الواقعة التي تغير حكمها؛ إما أن تكون هي هي عند تغير الحكم بجميع خصائصها والحيثيات التي تكتنفها، وإما أن تختلف في بعض خصائصها وحيثياتها، فإن كانت الأولى فنحن ننازع أشد المنازعة في تغير حكمها؛ لأن ذلك هو النسخ والتبديل المنهي عنه كما سيأتي بيانه، وإن كانت الثانية فليست في موضع النزاع؛ لأنها حينئذ حادثتان، وحادثتان متميزتان من حيث خصائصهما والاعتبارات التي تحفهما لهما حكمان ليس غريبا ولا عجيبا، ولا يقال له تغير ولا تبدل».اهـ.

وبالمثل لو أن شخصا سرق ثم تبين أن شروط إقامة الحد غير مستوفاة، فلم يحكم عليه القاضي بالقطع، فإنه لا يقال هنا قد تغير الحكم ولكن شروط إقامة الحد هي التي لم تكتمل، وهذا هو الذي حدث في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام المجاعة عندما قحط الناس، وتعرضوا للهلاك بسبب الجدب، أصبح كثير ممن يسرق إنما يسرق لاضطراره إلى ذلك ليدفع عن نفسه الهلاك، وهذه حالة تدرأ عن صاحبها الحد، ونظرا لأن الأمر كان منتشرا واختلط من يسرق للضرورة ومن يسرق لغير ذلك ولم يمكن تمييزهما من بعض، فصار ذلك شبهة درأ بها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحد في عام المجاعة، فلله دره! ما أفقهه وما أعلمه، ولما زالت المجاعة زالت الشبهة فكان من يسرق يقام

عليه الحد، فليس في هذا أيضا تغيير للحكم الشرعي؛ لأن ما فعله عمر رضي الله عنه في عام المجاعة كان هو الواجب في مثل تلك الحالة.

٣- الضرورة الملجئة: هناك أحوال اضطرار يقع فيها العبد المسلم مما يكون معه مضطرا لفعل ما حرم الله، ومن رحمة الله بالعباد أنه في هذه الأحوال لم يجعل عليهم إثما فيما فعلوه، والناظر غير المتبصر يظن أن الحكم اختلف، وهما في الحقيقة حالان مختلفان، لكل حال حكم، فحال الاختيار له حكم، وحال الاضطرار له حكم، وحالان مختلفان لهما حكمان متغايران لا يقال له تبدل ولا تغير، ولنضرب المثل لذلك، من المعلوم أن الله حرم أكل الميتة، فيحرم على العباد أكل لحوم الميتات (إلا ميتة البحر)، فمن أكل منها يقال له: هذا حرام، وقد فعلت ما يستوجب عقاب الله، فلو تغير حال أحد الناس وصار في حالة اضطرار بحيث إذا لم يأكل من الميتة هلك؛ هنا يصدق عليه وصف المضطر، وهنا يباح له الأكل من الميتة، والحكم تغير هنا في الظاهر، ولكن في الحقيقة الحكم لم يتغير، وإنما الذي تغير هو الحال التي ترتب عليه الحكم، ومن أمثلة ذلك ما حصل من غلمان حاطب الذين سرقوا ناقة، ولم يقطعهم عمر، فإنه أحضر عبد الرحمن بن حاطب وقال له: «والله! لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له؛ لقطعت أيديهم»، فهذا يبين أن عمر رأى أن هؤلاء في حالة اضطرار تدرأ عنهم الحد، وأن عقوبتهم القطع لو كانوا غير مضطرين، وقد عاقب عمر حاطبا على ذلك وأضعف عليه الغرم.

٤- تغير الوصف أو الاسم: هناك أحكام رتبت على أوصاف أو أسماء، فإذا تغيرت تلك الأوصاف أو الأسماء تغير الحكم تبعا لذلك. مثال: رجل تزوج امرأة، حل له منها ما يحل للرجل من امرأته، فلو طلقها حرم عليه منها ما كان حلالا له، هنا تغيرت صورة الحكم لأن ما كان حلالا جائزا للرجل تغير وصار حراما، وفي الحقيقة

فإن المتغير هو الصفة أو الاسم وليس الحكم الشرعي؛ إذ الحكم باق على ما هو عليه، وهو أن الرجل تحل له زوجته، وأن الرجل تحرم عليه غير زوجته.

ومن أمثلة تغير الاسم أو الوصف الدال على تغير الحقيقة، تغير الخمر بحيث تصير خلا، فالخمر من أحكامها النجاسة، فإذا تغيرت حقيقة السائل المسكر وصار خلا، فقد تغير وصف السائل وتغير اسمه وصار خلا، والخل ليس بنجس (سواء قلنا بجواز تخليل الخمر أم لا)، وحكم الخمر لم يتغير، وإنما الخمر نفسها هي التي تغيرت.

وكمثال على ذلك أيضا أمر الله تعالى بصرف الزكاة إلى مستحقيها بقوله:

{إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم} (التوبة: ٦٠). فالله بعلمه وحكمته وزع الزكاة على هذه الأصناف الثمانية، فإذا كان عام ولم نجد فقيرا يستحق الزكاة فمنعنا سهم الفقراء لعدم وجودهم، فهذا لا يعد تغييرا، وإنما فقدنا المستحق، وكذلك إذا كان فلان من الناس يعطى من الزكاة لأنه فقير، ثم وسع الله عليه وصار غنيا ومنعنا عنه الزكاة فلا يقال إن الحكم تغير، بل صفة هذا الشخص التي يستحق عليها الزكاة هي التي تغيرت، وهكذا فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سهم المؤلفة قلوبهم، فالمؤلفة قلوبهم هم من يعطون من الصدقات لأجل تألف قلوبهم على الإسلام، أو لأجل ضعف المسلمين حتى يأمن المسلمون شرهم، فهو حكم معلق على وصف وليس على أشخاص بأعيانهم، فإذا تحقق هذا الوصف في شخص أو عدة أشخاص فأعطيناهم سهم المؤلفة قلوبهم، ثم جاء العام الذي يليه وقد فقدوا وصف المؤلفة (كأن حسن إسلامهم، أو قوي المسلمون فلم يعد بهم ضعف) فمنعنا عنهم سهم المؤلفة قلوبهم؛ فليس في هذا تغير للحكم، وإنما الذي

حدث أن هؤلاء الأشخاص استحقوا السهم في المرة الأولى لانطباق الوصف عليهم وليس لأشخاصهم، ثم فقدوا الوصف في العام الذي يليه، ففقدوا ما كان مترتبا على الوصف، وهذا إعمال للحكم الشرعي وليس تغييرا له.

٥- تدافع المأمورات أو المنهيات: قد يكون هناك أمران مطلوب تحصيلهما ولكن لا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، فهما على ذلك متدافعان، كما أنه قد يكون هناك أمران مطلوب اجتنابهما ولا يمكن اجتناب أحدهما إلا بفعل الآخر، فهنا تحصل أعظم المصلحتين، وتدفع أقبح المفسدتين، فمثلا: الشهادة يطلب فيها العدول، فإذا لم نجد العدول صرنا بين أمرين: إما ضياع الحقوق، وإما قبول شهادة غير العدول، أمران أحلاهما مر، وقد أفتى أهل العلم في مثل ذلك أن لكل قوم عدولهم، وعلى القاضي أن يتوسم فيهم ويقبل أكثرهم صلاحا وأقلهم فجورا، فقد ينظر هنا إلى أن هذا من قبيل تغيير الحكم، وذلك بقبول شهادة من لا يعرف بعدالة، والحقيقة أن هذا من باب التعارض وأنه لا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، وهي فتوى وليست حكما، وهي فتوى خاصة بمثل هذه الحالة؛ بمعنى أنه إذا وجد العدول في هذا المكان لم تقبل شهادة غيرهم.

قال علاء الدين الطرابلسي الحنفي في معين الحكام (ص ١١٧): «قال القرافي في باب السياسة: نص بعض العلماء على أنه إذا لم نجد في جهة إلا غير العدول؛ أقمنا أصلحهم وأقلهم فجورا للشهادة عليهم، ويلزم ذلك في القضاة وغيرهم لئلا تضيع المصالح، قال: وما أظن أحدا يخالف في هذا، فإن التكليف شرط في الإمكان، وهذا كله للضرورة لئلا تهدر الأموال وتضيع الحقوق، قال بعضهم: وإذا كان الناس فساقا إلا القليل النادر قبلت شهادة بعضهم على بعض، ويحكم بشهادة الأمثل فالأمثل من الفساق، هذا هو الصواب الذي عليه العمل، وإن أنكره كثير من الفقهاء بألسنتهم».

٦- وجود العارض وزواله: قد يكون هناك شيء محبوب شرعا لكن يخشى من فعله أن يترتب عليه تكليف قد لا يقوم به الناس، فيترك هذا الشيء لذلك العارض، فإذا زال العارض رجع الأمر إلى حاله الأولى، وقد يظن أن هذا تغيرا للحكم وإنما هو من باب زوال العارض، مثال ذلك امتناع الرسول ﷺ عن قيام الليل في رمضان في المسجد بعدما فعل ذلك عدة ليال، وذلك خوفا من أن يفرض قيام الليل على المسلمين رحمة منه ﷺ بالمسلمين، فلما زال هذا الأمر بوفاة الرسول ﷺ وأمن عدم فرض قيام الليل؛ جاز الاجتماع في المسجد في رمضان لقيام الليل، وليس في هذا تغيير للحكم الشرعي.

٧- تغير الآلات والوسائل: هناك من الأحكام الشرعية ما يكون تنفيذها عن طريق آلة أو وسيلة، والشريعة لم تحدد في كثير من الأمور الآلات والوسائل التي يتحقق بها الحكم الشرعي، بل تركتها ليختار المسلمون في كل زمان ومكان ما هو أنفع لهم وأصلح وأفضل في تنفيذ الحكم الشرعي؛ إذ ربما لو ألزم المسلمون بآلة أو وسيلة معينة لتعسر عليهم ذلك، ووجدوا في ذلك من المشقة والحرج الشيء الكثير لا سيما أن الوسائل والآلات تتعدد وتتباين، وقد يكون بعضها ميسرا وبعضها غير ذلك، وقد يختلف العسر واليسر بالنسبة للآلة أو الوسيلة نفسها باختلاف الزمان والمكان، والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، فله الحمد والمنة، مثال ذلك: أمر الله تعالى المسلمين بالجهاد في سبيله وقال: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} (الأنفال: ٦٠)، وقد كانت القوة المستطاعة في ذلك الزمان هي السيف والرمح والترس ونحو ذلك، فإن المفتي والعالم في ذلك الزمان: يقول يجب على المسلمين إعداد السيوف والرماح والحراب وما أشبه ذلك، ثم بعد الزمن المتطاول الذي أوصل إلى عصرنا يقول المفتي والعالم الآن يجب على المسلمين إعداد المدفع

والدبابة والصاروخ والطائرة، ولا يجب إعداد السيف ولا الرمح ولا الحربة، فقد وجب اليوم ما لم يكن قبل واجبا، وسقط وجوب ما كان قبل واجبا، وهذا قد ينظر إليه على أنه تغير في الحكم الشرعي، والحقيقة أن الحكم لم يتغير؛ لأن الحكم الشرعي هو وجوب إعداد القوة المستطاعة، وكانت القوة المستطاعة في الزمن الأول: السيف والرمح ونحوه، وصارت اليوم المدفع والصاروخ، ونحوه، وقد تكون بعد فترة من الزمن شيئا آخر فالحكم الشرعي لم يتغير، وإنما الذي تغير هو الآلة أو الوسيلة التي يتحقق بها الحكم الشرعي في الواقع، وهذه الآلات والوسائل والأساليب المستجدة، لا يكفي فيها أن تكون محققة للحكم الشرعي بل هي محكومة بشروط هي:

١- ألا تعارض قاعدة كلية من قواعد الشريعة.

٢- ألا تخالف دليلا من أدلة الشرع التفصيلية.

٣- ألا يترتب عليها مفسدة تربو على المصلحة المتحصلة منها.

من كل ما تقدم يتبين أن مسألة تغير الفتوى ليست مسألة متعلقة بالزمان المجرد، أو المكان المجرد، وكأن الزمان والمكان هما سبب تغيير الفتوى، ولكن لما كان الزمان والمكان أوعية للأحداث والأفعال والتغيرات والعوائد والأعراف نسب التغير للزمان والمكان، وهذا يطلق عليه في عرف البلاغيين مجاز مرسل علاقته الظرفية، وقد تبين بما تقدم أيضا أن الموضوع منضبط وله قواعد تحكمه، وليس هو مجرد استجابة أو إذعانا لضغط الواقع، وهذه الأمثلة المتقدمة يمكن أن تندرج تحت قسمين كبيرين:

الأول: فتاوى مؤسسة من أول أمرها على العرف أو المصلحة المرسلة، ثم يتغير العرف أو المصلحة بتغير الزمان والمكان، فتتغير الفتوى تبعا لذلك.

الثاني: فتاوى مؤسسة على نصوص، لكن هذه النصوص كانت معللة بعلة أو راعت عرفا قائما، أو كانت مرتبة على صفة أو مقيدة بحالة ونحو ذلك، فإذا زالت العلة أو تغير العرف أو الصفة أو الحالة؛ فإن الفتوى تتغير أيضا لذلك.

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم عدة أشياء

١- أن عملية تغير الفتوى بتغير ما هي مرتبة عليه؛ إنما هي عملية تهدف إلى إبقاء الأمور تحت حكم الشريعة، وإن تغيرت صورتها الظاهرة، وهي ليست خروجا على الشريعة واستحدثا لأحكام جديدة.

٢- أن التغير في الفتوى هو تغير خاص من حيث الزمان والمكان والشخص، حيث تتغير فقط بالنسبة للزمان أو المكان أو الشخص الذي تغيرت في حقه مسوغات الفتوى، وهذا معناه أن الأمور تكون باقية على ما هي عليه في بقية الأماكن والأزمان والأشخاص.

٣- أن أهل العلم عندما قالوا بمراعاة الأحوال والعوائد ونحوها؛ إنما قالوا ذلك حتى لا يقعوا في الظلم: إما ظلم العباد بإلزامهم بما لم يلزمهم به الشرع، وإما ظلم أنفسهم بالخطأ على الدين.

٤- أن الذي يقول في حق هذه العوائد والأعراف إنها تغيرت وبالتالي تتغير الفتوى المرتبة عليها؛ إنما هم أهل العلم والمعرفة بالشرع، وليس أهل الهوى والجهل.

٥- أن العرف الذي تتغير به الفتوى ليس هو العرف الحاصل من وقوع الناس في مخالفة الشرع، فإذا صار من عرف الناس اليوم في بعض البلدان خروج المرأة كاشفة صدرها ونحرها، وكذلك إذا صار من عرف الناس التعامل بالربا في البنوك الربوية؛ فإن هذا العرف لا تتغير به الفتوى؛ لأنه عرف قائم على مخالفة الشرع فلا يعتد به؛ إذ

العرف الذي يعتد به هو ما لم يكن مخالفا للشرع.

ونختم ببعض النقول عن أهل العلم في هذه المسألة

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٩٦): «ليس لأحد أن يغير شريعته التي بعث بها رسوله، ولا يبتدع في دين الله ما لم يأذن به».

وقال شيخ الإسلام أيضا في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٤): وكنا نتأول كلام هؤلاء على أن مرادهم أن " الإجماع " يدل على نص ناسخ، فوجدنا من ذكر عنهم: أنهم يجعلون الإجماع نفسه ناسخا! فإن كانوا أرادوا ذلك: فهذا قول يجوز تبديل المسلمين دينهم بعد نبيهم، كما تقول النصارى من: أن المسيح سوغ لعلمائهم أن يحرموا ما رأوا تحريمه مصلحة، ويحلوا ما رأوا تحليله مصلحة، وليس هذا دين المسلمين، ولا كان الصحابة يسوغون ذلك لأنفسهم، ومن اعتقد في الصحابة أنهم كانوا يستحلون ذلك: فإنه يستتاب، كما يستتاب أمثاله، ولكن يجوز أن يجتهد الحاكم، والمفتي، فيصيب، فيكون له أجران، ويخطئ، فيكون له أجر واحد.

قال القرافي في الفروق (١/ ٣٢١): فمهما تجدد في العرف: اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده، وأجره عليه، وأفته به دون عرف بلدك، ودون المقرر في كتبك، فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرج أيمان الطلاق، والعتاق، وجميع الصرائح والكنايات، فقد يصير الصريح كناية فيفتقر إلى النية، وقد تصير الكناية صريحا فتستغني عن النية.

وقد أثنى ابن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلام الموقعين (٣/ ٧٨) على هذا الفقه الدقيق

فقال - بعد أن نقل ما سبق -: وهذا محض الفقه، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وأحوالهم، وقرائن أحوالهم فقد ضل، وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وطبائعهم، بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل، وهذا المفتي الجاهل: أضر ما يكونان على أديان الناس، وأبدانهم، والله المستعان.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم كما في مجموع فتاواه (١٢/ ٢٨٨، ٢٨٩): وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث؛ فإنه ما من قضية، كائنة ما كانت، إلا وحكمها في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، نصا أو ظاهرا أو استنباطا أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وليس معنى ما ذكره العلماء من "تغير الفتوى بتغير الأحوال" ما ظنه من قل نصيبهم - أو عدم - من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب ما يلائم إراداتهم الشهوانية البهيمية، وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبية، ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها، منقادة إليها، مهما أمكنهم، فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه، وحينئذ معنى "تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان" مراد العلماء منه ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعية، والمصالح التي جنسها مراد لله تعالى، ورسوله ﷺ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٦/ ٣٩١): كثيرا ما يشاع بأن الفتوى تتغير بتغير الزمان أو المكان، مثل: المذياع في أول ظهوره حرمه البعض، فنرجو من سماحتكم بيان الحق في هذه المسألة.

فأجاب: الفتوى في الحقيقة لا تتغير بتغير الزمان، ولا بتغير المكان، ولا بتغير

الأشخاص.

ولكن الحكم الشرعي إذا علق بعلة فإنه إذا وجدت فيه العلة ثبت الحكم الشرعي، وإذا لم توجد لم يثبت الحكم الشرعي، وقد يرى المفتي أن يمنع الناس من شيء أحله الله لهم لما يترتب على فعل الناس له من المحرم كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الطلاق الثلاث حين رأى الناس تتايعوا فيها فألزمهم بها، وكان الطلاق الثلاث في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعهد أبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فلما رأى عمر الناس تتايعوا في هذا ألزمهم بالثلاث ومنعهم من الرجوع إلى زوجاتهم، وكذلك ما حصل في عقوبة شارب الخمر كانت العقوبة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا تزيد على أربعين جلدة، ثم إن الناس كثر شربهم الخمر فاستشار عمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فأشاروا بأن يجعل العقوبة ثمانين جلدة. فالأحكام الشرعية لا يمكن أن يتلاعب بها الناس، كلما شاءوا حرموا، وكلما شاءوا أوجبوا، وإنما يرجع إلى العلل الشرعية التي تقتضي الوجوب أو عدمه، وأما بالنسبة للمذياع: فلم يقل أحد بتحريمه من علماء التحقيق، وإنما قال بتحريمه أناس جهلوا حقيقة الأمر، وإلا فإن العلماء المحققين، وأخص منهم شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، لم

يروا أن هذا من المحرمات، بل رأوا أن هذا من الأشياء التي علمها الله عَزَّ وَجَلَّ الخلق، وقد تكون نافعة، وقد تكون ضارة بحسب ما فيها، وكذلك مكبر الصوت - المكرفون- أيضا أنكره بعض الناس أول ما ظهر، لكن بدون تحقيق، وأما المحققون فلم ينكروه، بل رأوا أنه من نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يسر لهم ما يوصلوا خطبهم ومواعظهم إلى الأبعدين.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه أيضا (٢٦/ ٤٢٣): يعلم فضيلتكم

أن للإمام الشافعي رَحِمَهُ الله فقها في العراق، فلما انتقل إلى مصر كان له فقه آخر اختلفت فيه بعض الأحكام الشرعية، ونحن بطبيعة الحال نجزم بأن العقائد من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان. السؤال المطروح هو: إذا اختلف فقه الإمام الشافعي في بعض المسائل حين انتقل من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر تحتضنهما دولة واحدة، فكيف تكون مسائل الفقه لمن انتقل إلي بلاد يعتبر الإسلام فيها غريبا؟ ألا ترون أنه من الضروري معالجة كثير من الأمور التي تواجه المسلمين ولا تزال الآراء مختلفة بل متضاربة حولها؟

فأجاب: إن دين الله تعالى لا يتغير لكن الذي يتغير هو علم الإنسان أو فقهه؛ فأما علمه فربما يحصل على علم أكثر مما كان عليه من قبل فيزداد بذلك علما، وأما فقهه فربما يظهر له من معاني الكتاب والسنة ما لم يكن قد ظهر له من قبل، وهذا أمر مشاهد حتى في البلد الواحد، فإن الإنسان يظهر له بعض الأحيان أكثر مما سبق وذلك بالمناقشة وإبداء الآراء يتغير الإنسان عن رأيه الأول. وكذلك أيضا من العلم فكلما ازداد علما ازداد معرفة بالأحكام الشرعية.

وقال الدكتور بكر أبو زيد في المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (١/ ٨٤): لقد أخطا خَطًا فاحشًا من قال بشمول: تغيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان في القالبين المذكورين، فإِنَّها بالنسبة للأَول ثابتة لا تتغير ولا تتبدَّل. وما علمت في المتقدمين من قال عن هذه القاعدة بشمولها، بل كلامهم عنها يفيد أَنَّها قاعدة فرعية صورية وليست حقيقية، إِذْ يضربون لها المثال بتغير الأَعراف، وهذا محكوم بقواعد العرف والعادة، ومن هنا فهي صورية لا حقيقية، وابن القيم رحمه الله تعالى مع جلالة قدره قد توسع بضرب المثال لها بما لا يسلم له رَحِمَهُ الله. وليعلم هنا أن هذه القاعدة مع مسألة البحث هذه " فتح باب الاجتهاد " يستغلهما فقهاء المدرسة العصرانية الذين اعتلّت

أَذواقهم، وساورتهم الأَهواء، ومجاراة الأَغراض، فهذا يشيد حججًا لإباحة الربا، وذلك لوقف تنفيذ الحدود... وهكذا وكلها شبه على أساس هار مُتَدَاع للسقوط وبأَول معول. فيجب على من ولاَّه الله أَمرَ المسلمين: معالجةُ هذه الأَذواق الفاسدة بتحجيمها، والقضاء عليها، لتسلم الأَمَّة من أَمراضها واعتلالها، ورضي الله عن ابن مسعود إِذْ يقول: "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم وعليكم بالأَمر العتيق".



الفهرس

(باب الإثنا عشرية والسُّنة النبوية) ٣
(باب الإثنا عشرية ونزول الوحي والملائكة بعد الرسل) ٢٥
(باب الرجعة عنه الإثنا عشرية)............ ٣٩
(باب التقية عند الشيعة)............ ٥٠
(باب البَداء عند الشيعة)............ ٥٩
(باب الجفر عند الشيعة) ٦٨
(باب الإثنا عشرية ومسألة الإمامة)............ ٧٢
(باب حقيقة المهدي المنتظر عند الشيعة) ٨٤
عقيدة أهل السنة في المهدي. ٨٤
* مهدي الشيعة خرافة: ٨٦
* عقيدتهم في منكر المهدي. ٨٩
* لا جهاد عند الشيعة إلا بحضور المهدي. ٩٠
* صفة خروج المهدي في آخر الزمان عند الشيعة. ٩٠
يخرج عن يمينه جبريل وعن شماله ميكائيل: ٩١
* المهدي يظهر عريانًا: ٩١
* عندما يخرج المهدي ينادي الله باسمه العبراني: ٩١
* عندما يخرج المهدي يجتمع إليه الشيعة من كل مكان:............ ٩٢
* مهدي الشيعة يستفتح المدن بتابوت اليهود: ٩٢
* مهدي الشيعة تنبع له عينان من ماء ولبن:............ ٩٢
* في عهد المهدي يصير للرجل من الشيعة قوة أربعين رجلًا ويمد لهم في أسماعهم وأبصارهم: ٩٣
* الأعمال التي يقوم بها المهدي إذا خرج عند الشيعة. ٩٣
سادسًا: قتل الشيعة غير الغلاة: ١٠٠

سابعًا: قتل الأسرى والجرحى: ١٠٠
حادي عشر: يقيم حكم آل داود: ١٠٣
ثاني عشر: يخرج المهدي المنتظر بقرآن جديد وهو مصحف فاطمة، زعموا: ١٠٤
ثالث عشر: يقتل الناس بين الركن والمقام: ١٠٥
رابع عشر: قطع أيدي وأرجل المشرفين على الحرم: ١٠٦
خامس عشر: رجوع الناس إلى الحياة في عهده- عقيدة الرجعة -: ١٠٦
سادس عشر: نزع الحجر الأسود من الكعبة: ١٠٧
* علاقة المنتظر عند الشيعة بالدجال ! ١١١
* بيان ارتباط المذهب الشيعي باليهود. ١١٢
السمات اليهودية لمهدي الشيعة المنتظر. ١١٣
* مقارنة بين مهدي أهل السنة وبين مهدي الشيعة: ١١٧
(باب ذكر الدروز) ١١٩
بيان أصل الدروز ١١٩
* الحاكم بأمر الله وعلاقته بعقيدة الدروز ١٢٠
(باب تطور المذهب الدرزي بعد الحاكم) ١٥٢
(باب الرابع: أشهر دعاة الدروز وآراؤهم) ١٧٦
(باب كيف انتشرت العقيدة الدرزية) ١٨٨
مسألة: معاملة الدروز لمن يكشف شيئًا من عقائدهم ١٨٩
مسألة: طريقة الدروز في تعليم ديانتهم ١٩١
(باب عقائد الدروز) ١٩٣
(باب ألوهية الحاكم عند الدروز) ١٩٣
(باب التناسخ والتقمص والحلول عند الدروز) ٢١١
(باب الحدود الخمسة) ٢١٦
(باب عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب) ٢٢٨

(باب عقيدة الدروز في الأنبياء).. ٢٣٢
(باب عقيدة الدروز في التستر والكتمان).. ٢٣٥
(باب رسائل الدروز وكتبهم المقدسة).. ٢٤١
(باب شريعة الدروز).. ٢٥٦
(باب تقسيم المجتمع الدرزي إلى عقال).. ٢٧٥
(باب ذكر البهرة).. ٢٨٤
المبحث الثاني: شذرات من عقائد البهرة وعباداتهم.. ٢٨٩
الفصل الثاني: معنى التأويل، وشروط التأويل الصحيح المقبول، وسمات التأويل الباطني الفاسد.. ٢٩٦
المبحث الأول: معنى التأويل في اللغة، ونصوص الكتاب والسنة، والاصطلاح.......... ٢٩٦
المطلب الأول: معنى التأويل في اللغة: - تدور مادة التأويل في اللغة على عدة معان، منها: ٢٩٦
المطلب الثاني: الإستعمال القرآني لكلمة التأويل.. ٢٩٨
المطلب الثالث: كلمة التأويل في أحاديث الرسول ﷺ.. ٣٠٢
المطلب الرابع: التأويل في عهدي الصحابة والتابعين.. ٣٠٤
المبحث الثاني شروط التأويل المقبول وأدلته، وسمات التأويل الفاسد المردود.......... ٣١٠
الفصل الثالث: نماذج لتأويلات طائفة البهرة، وبيان بطلانها.. ٣١٤
(باب ذكر اليزيدية أو عبدة الشيطان).. ٣٢١
(باب ذكر الصوفية).. ٣٢٦
وأعداء الإسلام هنا فريقان.. ٣٢٨
الفصل الثاني: التعريف بالصوفية لغة واصطلاحًا.. ٣٢٩
الفصل الثالث هل توجد علاقة بين المتصوفة وأهل الصفة.. ٣٣٣
الفصل الرابع: أسماء الصوفية وسبب تسميتهم بها.. ٣٣٧
وقد قسم شيخ الإسلام الملامية إلي قسمين.. ٣٤١
الفصل الخامس: متى ظهر المذهب الصوفي.. ٣٤١

الفصل السادس: حقيقة التصوف ٣٤٥
الفصل السابع: أقسام المتصوفة وذكر طرقهم واختيار الطريقة التجانية نموذجًا ودراستها شاملة من واقع كتبهم ٣٤٩
ومن طرق الصوفية الكثيرة ٣٥٤
الطريقة التجانية ٣٥٤
الاسم الأعظم وموقف التجاني منه ٣٥٩
أوراد التجاني ٣٦٠
رؤية التجاني ٣٦١
ثواب صلاة الفاتح ٣٦١
السر في وجود هذا الكون ومصدره ٣٦٤
تلاعب بمعاني النصوص ٣٦٥
الحلول والاتحاد ٣٦٥
الصلاحيات للولي أعلى من الصلاحيات للنبي ٣٦٦
رغبة الصوفية في تجهيل الخلق بربهم ونسيانهم لذكره ليصفو لهم وحدهم ٣٦٧
حمق وخرافة ٣٦٧
الجنة في نظر الصوفية لا قيمة لها ٣٦٩
كيفية خلق هذا الكون عند الصوفية ٣٧٠
تطاول التجاني على الصحابة وكل من جاء بعدهم ٣٧٠
تصرف التجاني في الجنة ٣٧١
الصوفي له قوة الخلاق العظيم كما يرى التجاني ٣٧١
جفاء وعتو ونفور عن الله تعالى وحمق مركب ٣٧٢
أذكار وأدعية بعبارات متكلفة غامضة وأساليب ركيكة مرذولة ٣٧٢
وجاء في نص الدعاء الثالث ٣٧٩
جوهرة الكمال ٣٨٠

خواص صلاة جوهرة الكمال ٣٨١
الخضوع لأقطاب التصوف.. ٣٨٢
الاتصاف بالله وتهوين الفاحشة ٣٨٣
تثليث صوفي ٣٨٩
تحكم على الله وترهيب للأتباع ٣٩٠
مبدأ باطني وهو التبني الروحي كما يسمونه ٣٩٠
جزاء المشايخ.. ٣٩٠
العشق والغرام في المذهب الصوفي وأكاذيبهم في ذلك ٣٩١
مستند الصوفية في وجدهم ورقصهم.. ٣٩٢
الأولياء والنبي ﷺ.. ٣٩٤
الصوفية باطنية ويفضلون العلوم الباطنية على العلوم الإسلامية.. ٣٩٩
الفصل الثامن: الخلوات الصوفية ومنها الخلوات التجانية.. ٣٩٩
شروط الخلوة الصوفية.. ٤٠١
أقسام الخلوات الصوفية ٤٠٤
الفصل التاسع: مغالطات لجنة جماعة الصوفية في مدينة "ألورن" في نيجيريا ٤٠٧
الفصل العاشر: كيفية الدخول في المذهب الصوفي.. ٤٠٨
والحاصل أن تلك هي الطرق لدخول المذهب كما أتضح مما سبق، ونجمل أهمها فيما يلي
.... ٤١١
الفصل الحادي عشر: أصول الصوفية ٤١٣
الفصل الثاني عشر: إيضاحات لبعض الآراء الاعتقادية للصوفية ٤٢٢
١-عقيدة المتصوفة في الإله ﷻ: ٤٢٢
٢ - الحلول.. ٤٢٣
٣ - وحدة الوجود ٤٢٨
٦ - الولاية وبيان بعض المصطلحات الصوفية.. ٤٤٤

الفصل الثالث عشر: الكشف الصوفي.................... ٤٤٨
الفصل الرابع عشر: الشطحات الصوفية ٤٥١
الفصل الخامس عشر: التكاليف في نظر الصوفية ٤٥٤
الفصل السادس عشر: الأذكار الصوفية.................... ٤٦٠
الفصل السابع عشر: الوجد والرقص عند الصوفية.................... ٤٦٥
الفصل الثامن عشر الكرامات وخوارق العادات عند الصوفية.................... ٤٧٦
الفصل التاسع عشر: تراجم زعماء الصوفية ٤٨٢
(باب ذكر الفرق الباطنية)() ٤٨٤
مجمل مذهب القرامطة ٤٩٢
ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم.................... ٤٩٥
الفاطميون وبيت المقدس.................... ٤٩٧
تعاليم دار الحكمة ٤٩٨
الدروز ٥٠١
لمحة عن أصل الدروز وتاريخهم ٥٠٢
ألوهية الحاكم "بأمر الشيطان" ٥٠٥
إحدى رسائل الدروز التى تكشف ألوهية الحاكم.................... ٥٠٨
لاهوت المعبود وناسوته ٥١٦
النصيرية – العلوية ٥٢١
أهم معتقداتهم وآرائهم ٥٢٢
جواب ابن تيمية عن النصيرية – العلويين:.................... ٥٢٥
طائفة البهرة: ٥٣١
بعض معتقدات البهرة:.................... ٥٣٢
حياة البهرة الاجتماعية ٥٣٣
طائفة الآغاخانية ٥٣٧

أحمد الإحسائي والشيخية ٥٣٩
الحركة الكشفية وكاظم الرشيتي ٥٤٢
(باب الديانات الاستعمارية)(١) ٥٤٤
ظهور البابية ٥٤٦
إعلان الدعوة البابية ٥٤٩
كتب الباب ٥٥٤
الواحد الأول - بسم الله الأمنع الأقدس ٥٥٥
الحركة البهائية - "خليفة البابية" ٥٥٦
حياة البهاء ٥٥٦
ثقافته ٥٥٦
علاقته بالصوفية ٥٥٧
البهائية والصهيونية ٥٥٨
البهائية والانجليز ٥٥٩
عقائد البهائية ٥٦٠
تكفير البهائية ٥٦٧
الحركة القاديانية ٥٦٨
بعض تحريفات القاديانيين وتأويلاتهم ٥٧٢
خدمات غلام أحمد لبريطانيا ٥٧٦
(باب ذكر القرآنيين) ٥٧٧
(باب بيان خطأ مصطلح جاهلية القرن العشرين) ٥٩١
(باب **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) ٥٩٦
* المسألة الأولى: شرح ألفاظ القاعدة ٥٩٦
* المسألة الثانية: معنى القاعدة ٥٩٩
* المسألة الثالثة: أدلة القاعدة ٦٠١

* المسألة الرابعة: أقوال أهل العلم في تقرير معنى القاعدة.......... ٦٠٥
* المسألة الخامسة: فوائد القاعدة وتطبيقاتها.......... ٦٠٧
(باب اكتمال الدين).......... ٦٢٠
* المسألة الأولى * معنى القاعدة.......... ٦٢١
* المسألة الثانية: أدلة القاعدة.......... ٦٢٢
* المسألة الثالثة: أقوال أهل العلم في تقرير معنى القاعدة.......... ٦٢٩
* المسألة الرابعة: فوائد القاعدة وتطبيقاتها.......... ٦٣٠
(باب لا جديد في الأحكام الشرعية).......... ٦٤١
أدلة ثبات الأحكام الشرعية.......... ٦٤٣
وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن في ذلك، فمن السنة ٦٤٧
* مفاسد القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان:.......... ٦٥٠
الشبهة في القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان.......... ٦٥٠
والحق يتبين في ذلك من خلال الحديث عن ضوابط تغير الفتوى وهي.......... ٦٥٠
ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم عدة أشياء ٦٦٠
ونختم ببعض النقول عن أهل العلم في هذه المسألة ٦٦١
الفهرس.......... ٦٦٦

* * *